

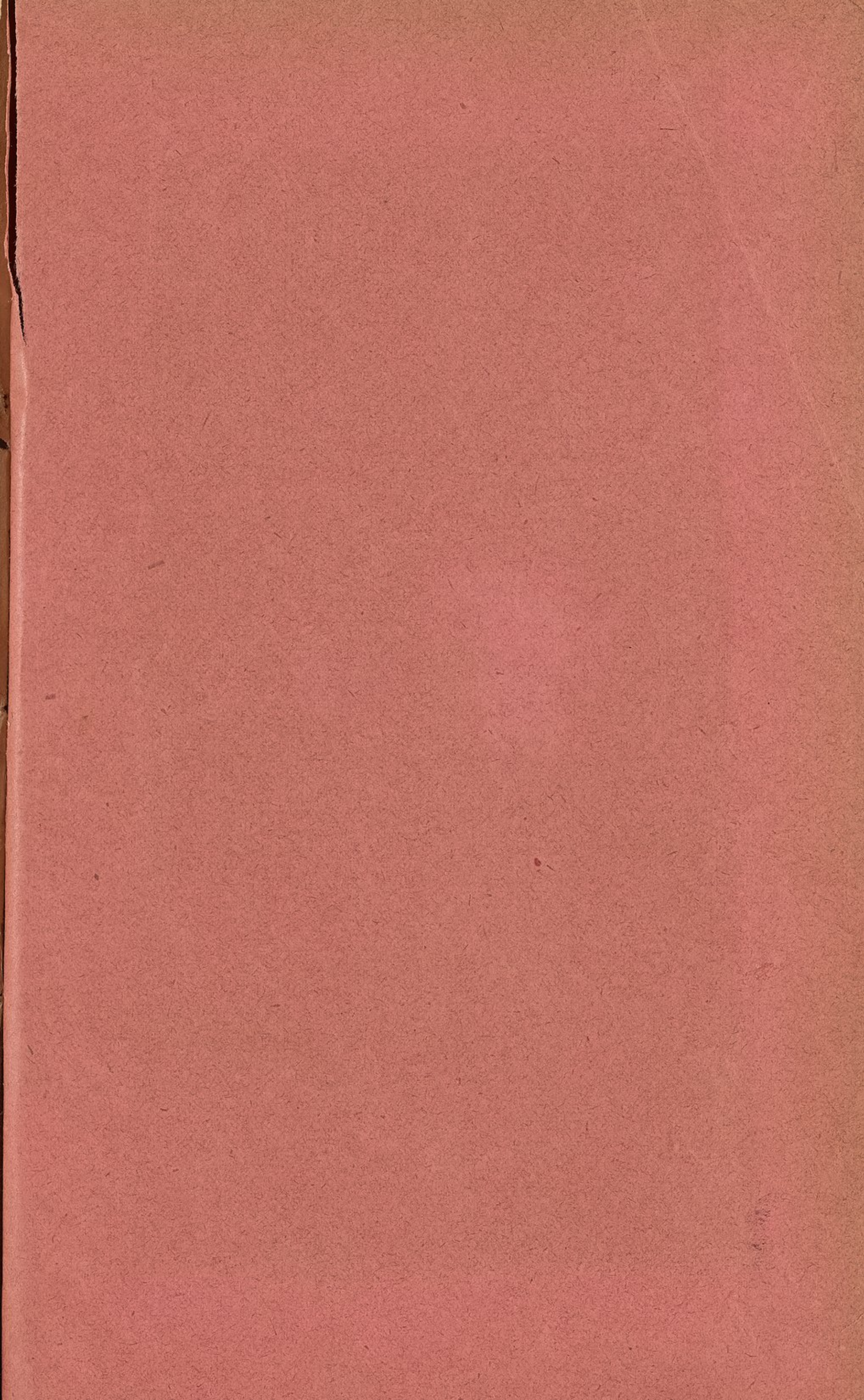
2271
.505485
J495
.377
.1903

2271.505484.J495.377.1903
Jāwīsh

2271.505484.J495.377.1903
Jāwīsh
Riwāyat Maghāyir al-jinn

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE


Princeton University Library
32101 063577785



Jawish, Najib Asʿad

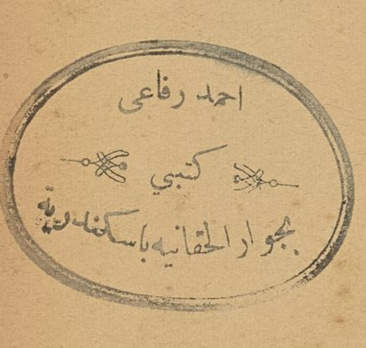
رواية

Riwāyat maghāyir al-jinn

مغاير الجن

لمؤلفها الفقير اليه تعالى

نجيب اسعد جاويش



طبعة ثانية

(بمطبعة — جرجي غرزوزي — بالاسكندرية سنة ١٩٠٣)

(RECAP)
2271
.505485
.J495
.377
.1903

تمهيد

بعد ما وهنت ايطاليا من الفتن الاهلية واستقرت برهة من زعازع الحروب وصلصلة الحديد اثر منازلتها فردريك الاول امبراطور المانيا ودفاعها عن استقلالها وحرية بلدانها التي كانت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر قد تمثلت ممالك صغيرة تحكمها بعض البيوتات والامراء والجمهوريات اصبح شغل كل من تلك الممالك توطيد دعامة ملكها وصيانة املاكها من اطماع جيرانها المغتصبين اذ كان الحق والفوز والسلطة يومئذٍ للقوي والمنتصر الغالب

وتحقيقاً لهذه الاماني كان يلجئها الامر الى امتشاق الحسام ونزول ميادين القتال على كرهٍ منها ومن الشعب الذي كان قد سئم الحروب واخلد الى الدعة والراحة

وكان ابغض شيءٍ الى الحكام تسلح الشعب وتجنده مخافة ان يبعثه ذلك على العبث بسلطتهم فكانوا يؤثرون عليه استخدام قوة اجنبية من الجنود الحرة اهل الشر والغزوات وفراعنة الخيل وشياطينها المنضمين الى لواء قائد يضمهم الى كلمته ويجمعهم تحت امرته فيعهدون الى هذا الزعيم شن الغارة واثارة الحروب باجور يقع الاتفاق عليها

وكان من السهل وجود اناس يتجرون بارواحهم وحظوظهم ورجال

يريقون دماءهم في جنب ربحٍ يصل اليهم وقواد محنكين يشترون بالمال فمثل هؤلاء كانوا يجردون سلاحهم ويريشون جناح الفتنة في اي وقت عنَّ لهم وخطر ويطرقون الديار التي يألفون فيها الغنائم والخمرة العذبة والنساء الحسان

وقد كان لقواد هذه الاحزاب وزعمائهم التي يطلق عليها لقب (كوندوتياري) شأن مهم ليس في الحروب فقط بل في سياسة تلك الدول في هاتيك العصور

ومنشئ هذه العصابات بعض قواد وجود زحفوا على ايطاليا مع هنري السابع وفردريك دوتريش ولويس دي بافير والدوق دي كارنتي وملك بوهميا وآثروا البقاء فيها بعد رحيل هؤلاء عنها لقضاء حاجات رؤساء الممالك الذين لتجردهم عن الشعائر الوطنية قد استخدموا مثل هؤلاء الزعماء في مصالحهم الداخلية وادخلوهم عليهم في مواضعهم

ثم كثر عدد تلك العصابات والزعماء بما انضم اليهم من البارونات والامراء فجعلوا يسطون على البلاد ويعيثون في اهلها ويفدحون الممالك بالمؤونات المجحفة والكلف الباهظة فلما رأت ايطاليا استفحال امرهم وتفاقم شرهم وما هم عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشر نادت بشعوبها الى الاتحاد على مواقعتهم وتمزيق شملهم بدلاً من اطرافهم بالمال والتراف اليهم بالعطايا ولكن قيل لها في الصيف ضيعتِ اللبن اذ ما عتم ان استحكمت شكيمة تلك الاحزاب واشتدت شوكتها وارتقى حالها وازدادت عتوًّا حتى اقتفى الايطاليون انفسهم اثر هذه العصابات

فان البريك دي بربياتو الحاكم اطراف بولونيا الف عصبةً دعاها (عصبة القديس جرجس) وهي التي منها ظهر اشهر القادة والجبابرة مثل جاك دلفرم وفاسينو كانْ واونوبون ثرزو وغيرهم من قادوا الجيوش واستجاشوا العدة وامتدت شوكتهم في الافاق وقهروا كل من ناوأهم من القبائل

فشجاعة هؤلاء الابطال الذين كان يلعب الموت في اكفهم قد عادت بالنفع على بيت ويسكونتي البعيد الصيت الكريم المحتد العريق بالمجد والسؤدد الذي اشتهر منه قواد وعظماء وعلماء في ميلان اتخذوا قيادة الجبليين اياماً طوالاً في الحروب الاهلية

وقد حفظ التاريخ لبعض افراد هذه الاسرة ذكرًا كريمًا من سنة ١٢٠٨ التي ارتقى فيها الارشفك اتون ويسكونتي على عرش ميلان وهو صاحب الحادثة المشهورة عنه في زيارته الاراضي المقدسة حيث بارز اعرابياً فاستطال عليه وقتله وغنم سلبه وكان من جملته مجن عليه رسم افعى هائلة في فيها طفل فصار هذا الرسم راية بيت ويسكونتي ثم راية ميلان حين تولاها الدوق جان غلياس ويسكونتي الكبير

ولما كانت روايتنا تبتدئ من عهد حكم هذا الدوق في اواخر القرن الرابع عشر رأينا ان نقف عند هذا الحد مكتفين بهذا القدر

الفصل الاول

﴿ الغاية ﴾

بينما كانت البروق تشق كبد السماء كأنها حيات من نار تنير السحاب الكثيف المتلبد بعضه فوق بعض في ليلة حالكه السواد والرعود والزواجر تدوي في الوديان والغابات كلما اومض البرق والصواعق تنقض على قمم جبال الالب الذاهبة في العنان صعوداً والعاصفة تهب كأنها خيول مطقة العنان تخب في هاتيك الاعالي والثلوج تتساقط كتلاً كالعهن الابيض المندوف وقد كست تلك الاعلام والوهاد ثوباً من الجليد كان يرى في سفح جبل ألب دي وَلتلين رجلان معتدلا القوام شديدا القوى مرتديان باثواب من الفراء وعلى رأس كل منهما قبع يغطيه الى صدغيه وفي منطقته مدية وغدارة وعلى كتفه بندقية وبيده معول يتوكأ عليه وهما يتسنمان الجبل واعضاده ويتوقلان الصخور وكثبان الثلوج غير مبالين بالزمهرير وشدة البرد ولا محتفلين بالاخطار ولا متخوفين من العمق الفاغر فاه ليبتلعهما اذا زلت بهما القدم

وما برحا يتصعدان في الجبل وهما في عناء شديد يدبان مرة ويزحفان اخرى حتى انتهيا قبيل الفجر الى رابية من الجبل قد رسا فوقها حصن مغاير الجن وهو كأنه قطعة من الغمام

فلما وقفا به امتلأ قلباهما من المهابة والوحشة ولحقهما الدهش من

فخامة مبانيه وضخامة اسواره وتناهي جدرانه في العلو ولبثا برهة واقفين بازائه حائرين لا ينبسان ببنت شفة وهما يصوبان فيه النظر ويصعدانه كمن يحاول ان يستنطق تلك المباني عما في داخلها

ثم جعلا يدققان البحث في الجهات الباقية من الحصن وينقبان في كثابة الصخر وثخن الجدران فلما انتهيا الى الجهة الشمالية قال احدهما لرفيقه وهو يتنفس الصعداء

ـ اني ارى يا صديقي مرتينو حصناً امنع من عقاب الجو يرد الطرف وهو كليل وكأني به قد بنته الجنّ او الجبابرة الغابرون

ـ انه لم يخطر على بالي يا روبران ارى حصن مغاير الجن على ما هو عليه من المنعة والحصانة فان ما قيل عنه ليس الا وشلاً من بحر او ثمداً من قطر واخاف ان يتعاص علينا الامر ويمتنع علينا ادراك غايتنا

ـ لا انكر عليك يا مرتينو ان مطلبنا وعزّ صعب المزاولة سيكلفنا عرق القربة ولكنّ ذلك لا يضعف همتي وهذه الصخور الهائلة والجدران التي تناغي السماء لا تقعد بي عما اريدة لان في الامكان مع تمادي الايام ان نحطها ونمزق قائمها فهي ليست من الموانى التي اخاف معها فشلاً وانما الامر الذي اشكل عليّ ادركه معرفة الجهة التي يحسن بنا ان ناخذ فيها بالعمل المبلغ الى المراد

ـ ان الجهة الشمالية لهي غرضنا يا روبر فان صخرها غير صلد وكثافته لا تتجاوز الثلاثة اذرع فيتهيأ لنا خرقه بعد ان نحتفر على بعد مايتي قدم من الجدار حفرة ناخذ منها في باطن الارض واحتفار سرب ننفذ منه الى

باطن الحصن

ـ ان الجانب الشمالي لهو الاسهل ولكن هل انت ضمين ان نجد فيه تمثال غايتنا والا فليس من الراي ان نعتسف امراً اذا لم ينقد لنا كان سبباً في هلاكنا وهلاك غايتنا فاقدامنا عليه قبل اعمال الفكرة والنظر تغرير لا ينفعنا بعده الندم ولو كان في الامكان معرفة الجهة التي نصيب منها الغرض وخيرت لاجلها فقد عضوٍ من اعضائي لجدت به وطبت عن ذلك نفساً

ـ اني لا اقل ذلك عن يقين قاطع وانما هو حكم اسشدلال وغلبة ظن

ـ أتصح عزيمتك على مباشرة عمل عسر الخطة يستغرق عاماً او عامين على حكم الاستدلال والظن دون تيقن في النجاح فانك ان فعلت ذلك ذهب جهدك عبثاً وضياعاً

ـ وهل حفر النفق الذي نحاول ان ننفذ منه الى داخل الحصن يستغرق من الزمن عاماً

ـ اذا دأبنا على العمل في كل ليلة ولم يعرض لنا في طريق السرداب صخور صماء نجزه في سنة والا بعد المرام وطال الزمان

ـ هب ان لنا من الجلد يا روبر ما نصبر معه علي تحمل اعباء هذه المخاطر فما اخال غايتنا تقوى على الصبر او تحيى الى حين نلتقي ولا اكتمك ان مطلبنا جسيم لا يظفر به اذ كيفما اعملت فيه حد الفكر ارجع مفلولاً

ـ اني اسمع منك يا مرتينو كلاماً يدلني على انه وقع في نفسك خوف وادركك ضعف فكأني بك جهلت ان حياتك ليست لك حتى عزَّ

عليك بذلها لادراك الغاية التي هداك اليها رجل الابنين العجيب . فكن اذا اوشك الوهم ان يفصم عرى همتك وعزيمتك اللتين قدمت بهما الى مغائر الجن مفكراً بتلك الدقيقة السعيدة التي فيها تاتي مثال غايتك فيصغر لديك العظيم ويذل الصعب فانا سأريق دمي لتحقيق هذه الاماني

ــ وانا ايضاً ما قدمت حصن مغائر الجن الا وقد وطنت نفسي على تحمل اعباء المخاطر حتى ابلغ الغاية او اموت دونها

ومن العجيب ان ذينك الرجلين كانا واقفين يتحدثان معاً غير محتفلين بوقع الصواعق المنقضة من الفضاء ولا مباليين بالريح العاصفة التي كادت تحملهما بل كانا كانهما جلمودان وبعد ان تشاورا في الراي بينهما وفيما يريدان ان يعزما عليه خبآ معوليهما في حفرة وتواريا بين اكام من الثلوج

الفصل الثاني

﴿ مغائر الجن ﴾

هو اسم حصن كثير المغائر حرج الممازق شامخ الذرى عسر المرام منيع المرتقى رسا اصله فوق رابية التفت بها غابات جعلها الوحش له مربضاً وادغال تخذتها جوارح الفضاء وكناً وكستها الثلوج حلة لا تخلق جدتها على تعاقب الفصول فيخال للناظر الى ذلك الحصن وهو يناطح السحاب بابراجه انه يرى شيخاً ابيض اللمة واللباس قد انتصب في الافق ليحرس

تلك الاعلام والوديان والغابات التي تجاوره

وقد اشتهر هذا الحصن حتى لم يكن له ضريب في جميع الحصون التي تقدمته في تاريخ العمران ولم يكن لتوغله في القدم يعرف على الحقيقة من بناه ولا الغاية التي بني لاجلها في هذه الجبال الصعبة

فذهب قوم الى ان الجن قد شيدوه وقال آخرون ان جبابرة الرومان اول من وضع اسسه وجعله معبداً وروى البعض ان فئة من اشراف ايطاليا وابطالها الجيليين قد بنوه ليخبئوا فيه ما عندهم من اصناف الكنوز والذخائر الكريمة ويتحصنوا فيه عند حدوث الفتن الاهلية وشبوب الحروب الوطنية حرصاً على انفسهم من العدو المفاجيء

وهو قد بني على جبل من سلسلة جبال ألب دي ولثلين من ولاية برغامو في الجانب الشرقي من ميلان واتت عليه القرون وهو في حوزة الجيليين حتى اذا افضت نوبة الملك الى آل ويسكونتي جعلته في اوائل القرن الرابع عشر سجناً لكل قاطع وخارب وعائث ومخيف سبيل او لمن كان موضعاً لتهمة اهل البغي وغرضاً لسهام الظلم فكم من بريء مات فيه شهيداً ساخطاً وكريم قوم قضى حزناً قانطاً

وكان ذكر مغائر الجن يملأ القلوب روعاً ومهابة لما دبَّ في عقول سكان لمبارديا من فاسد الاعتقاد بان الجن لا تفارق ارباضها ومغايرها وان جنياً كان يرى على قنة الجبل كانه طيف سارٍ وذلك لان الجهل كان ضارباً اطنابه على بعض المقاطعات الاوربية فلم تكن الاوهام والخرافات الا لتتاصل في اذهانهم حتى يعتقدوها من الامور الواقعة لا سيما

وان بعض الجهات الاوربية والشرقية لم تزل مستمسكة ببعض العوائد المنكرة والتقليدات القبيحة حتى عصرنا هذا الموسوم بعصر النور والتمدن فكانوا يروون عن مغاير الجن سيراً واحاديث هي بمكان من الغرابة اخذاً عن رعاة الاغنام والصيادين

قيل اتفق مرة لاحد الرعيان انه بينما كان يتصعد في الجبل مرَّ غير متعمد على مقربة من مغاير الجن فلم يشعر الا وقد داهمه جمٌّ غفيرٌ من الجن قصار القامة بعضهم اقصر من فتر وبعضهم اطول من شبر وهم يزدحمون ويطفرون ويغنون ويولولون حتى قامت لهم جلبة شديدة فلما بصربهم الراعي ذعر واستطار فؤاده روعاً وقد رأى لهم وجوهاً قباحاً وملامح غريبة ورؤوساً كبيرة مستديرة على خصور دقيقة وقامات قصيرة وانوفاً كبيرة وعيوناً تحكي السرج وميضاً قد ركبت في وجوههم على وضع مخالف لاعين الناس ثم اختطفوا من اغنامه نعجة وحملوها على رؤوسهم وساروا بها والراعي لا يبدي حراكاً حتى غابوا عن نظره

وشاع ان صياداً خرج في طلب الصيد فاتى ذلك الجبل حتى صار على رمية سهم من مغاير الجن فاصاب هناك ارنباً فرماه ولما قصد له ليمسكه رأى على دهش منه جنياً عظيم الجثة قبيح الوجه عاري البدن قد احتمل الارنب المقتول ووقف يصوب بالصياد نظره ويصعده وقد حملق عينيه وكشر عن انيابه ثم صفر فالتفت عليه مخلوقات من صغار الجن وجعلت تصفر صفيراً يصمُّ الآذان وتتسلق اكتافه وذراعيه حتى كاد الصياد يموت هلعاً من هول ما يرى

واما الجني فصار يمشي متباطئاً وينظر الى الصياد شزراً حتى تولى. فانقلب الصياد هارباً على وجهه حتى انتهى الى المدينة فجعل يخبر الناس بما رأى . وامثال هذه النوادر كان من شأنها ان توعب قلوب الناس وجلاً ورعباً

ولم يكن ذلك الاعتقاد الذي دبَّ في عقولهم من وجود الجن عن غير علة حقيقية طبيعية تحاكي ما يزعمون وتقوم لهم مقام العذر فيما يتوهمون وانما جهلهم اسبابها حملهم على تصديق الخرافات والاعتقاد بفاسد الروايات

واما تلك العلة فهي الخيالات التي ترى على الدوام في جبال الالب ولقد اكثر السياح والمحققون في هذا العصر فيها الكلام وعرفوا ان منشأها وجود الجو في احوال تشبه الحال التي يوجد فيها عند ظهور السراب واعظم تلك الخيالات ما دعي بطيف « بروكن » « وهوبري »

وكان من غرض الحكام من آل ويسكونتي ان تزداد تلك السير والاحاديث عن مغاير الجن شيوعاً ارهاباً لقطاع الطرق واللصوص الذين عاثوا في البلاد مفسدين وشغلوا اطراف المملكة في تلك العصور الخوالي

والذي كان يزيد مغاير الجن غرابة انها كانت مبنية على شكل غير مألوف فانها كانت كمخبأ اللصوص الذي يتخذونه في قلب الارض هرباً من رجال الشرطة ويعلو المخبأ حصن وابراج بحيث كان الذاهب من مباني مغاير الجن في الفضاء صعوداً يحاكي مقدار الداخل منها في بطن الارض على قياس واحد ولنفصل ذلك للقاريء فنقول

كان مدخل مغاير الجن في الجانب الجنوبي منها على مرتفع من

الارض وله باب حديدي ضمن قنطرة ركبت من صخر واحد وامام الباب ادواح من شجر الزان والدردار تغطيه وهو يفتح على عرصة تحيط بها غرف ضخمة البناء مشبكة نوافذها بالحديد تقيم فيها طائفة من الجنود والحرّاس وفي وسط تلك العرصة بحيرة ماء مفروشة بصفائح الرصاص وجدرانها مبنية بالحجارة السوداء اللامعة يجري اليها الماء في اقنية تحت الارض وعلى قاب قوسين او ادنى من تلك البحيرة بئر بعيدة المهوى ينصب فيها الماء من شاهق فيسمع له دويٌّ يحاكي هدير البحر في هيجانه

وفي صدر تلك العرصة صخر ضخم عالٍ وله باب يلج منه الداخل الى سرداب طويل قد نقر في ذلك الصخر فيسير فيه هبوطاً وصعوداً ويميناً وشمالاً حتى ينتهي الى فسحة لا يزيد مربعها عن عشرة اذرع محاطة بسور من الحجارة وعلى كل من طرفي السور برجان وفي وسطه قصرٌ كالقبة يرقى اليه بلولب صخري وفيه هيكل من الرخام على مائدته راس تنين من النحاس اذا ضغط فتح فيه باب ينحدر منه بدرج متعرج الى هيكل كبير فسيح مربع لا يزيد ارتفاع سطح ارضه عن سطح الباب الخارجي وسطوح ذلك الهيكل قائمة على عمد ضخمة باسقة الارتفاع و بين كل منها شق طويل كالكوة ينبعث منه الضياء الى داخل

وهناك هياكل عديدة غاية في الاتقان والجمال عليها تماثيل الآلهة من الحجارة السوداء بارزة ومنحوتة في الصخر على ابدع صنع واكمل اتقان

وفي فناء الهيكل عمود اجوف من عقبه وفي داخله سلم تؤدي الى غرفة صغيرة مظلمة فيها عقاقير طبيب الحصن وكتاب سطرت فيه اسماء

المسجونين واعداد مغايرهم وعلى جانب الغرفة دائرة ينحدر اليها بدرجات عشر ومنها تتفرع مماشٍ قد اصطفت على جانبيها مغاير كالكهوف منقورة في الصخر ولها ابواب قد شدت اخشابها باربطة من حديد وبين كل مغارتين تمثال من الحجر يمثل الآلهة وبعض الوحوش والجوارح

وقد شحنت هذة المغاير بالمسجونين الذين قضى عليهم ان يموتوا وهم بعيدون عن عالم الاحياء بعد ان ينكل بهم تنكيلاً فظيعاً ويمثل بهم تمثيلاً

وفي الجانب الغربي من تلك المغاير منحدر في بطن الارض ينزل منه الى الطبقة السفلى التي تدعى (الهل) وهي مؤلفة من ثلاث مغاير كبيرة قد فرشت ارضها بالعفونات والنباتات الفطرية وكسيت جدرانها بالاعشاب التي تنمو بالرطوبة وامتلأت جوانبها بالحشرات السامة وهيا كل العظام البشرية وانتشرت فيها رائحة منتنة ولها في اعلاها كوى محيط الواحدة منها قدم يدلى منها الى المسجون طعامه فكان اذا حكم على احد بالموت او جن او حاول قتل السجان يلقى فيها فلا يلبث اليوم او اليومين حتى يقضي نحبه وكان لا ينبعث الى جميع المغاير والمماشي ضياء بل تكتنفها على الدوام ظلمة حالكة السواد كأن الزمان كله ليلٌ داجٍ

وكان هزيم الرعد وزعازع الرياح وصلصلة حديد القيود وجلبة المسجونين وبكاؤهم وعويلهم وتنهداتهم مما يصمّ الاذان ويملأُ القلب روعاً حتى يخيل للسامع انه في منازل الجن وانها كلها تجلب معاً

وكان راس الحراس في مغائر الجن الذي يرجع اليه في حل الامور وعقدها ونقضها وابرامها رجلاً سميناً عريض الاكتاف غليظ الرقبة صغير

الراس قبيح الوجه غبياً عاجز الراي سريع الغضب يدعى رنارو بريبانتو
وكان مع هذه الصفات سريع الرضى لين العريكة ناصحاً في خدمته مضطلعاً
بما يفوض اليه ولم يكن فيه ما يوآخذ عليه الا حب الدرهم والماكل فقد
دخلا منه مدخلاً غلباً فيه على رائه وعقله وحملاه على المخالفة احياناً

وكان تحت امرته جند وحراس عهد اليهم الاحتفاظ بالمسجونين
والاهتمام بترميم ما تصدع من البناء فكانوا لخلو فكرهم من فرار مسجون وقلة
اشتغالهم بالحصن او غيره يقضون الايام نياماً سكارى خدري الابدان
ضعفاء البصائر والابصار

تلك صفة مغائر الجن وما كانت عليه من الضخامة والعظم وبعد الشهرة
في هاتيك العصور واما اليوم فقد اندكت اركانها وتداعت جدرانها
ودرستها الايام فعفت رسومها ولم يبقَ من اثارها الاركام تغطيها الثلوج

الفصل الثالث

﴿ الصياد ﴾

اذا بليت بامرٍ معضلٍ حرجٍ ولم تجد لك من ذاك البلا فرجا
عليك بالدرهم الوضاح ان به نيل المرام اذا ما صبحه انبلجا

في صباح ليل العاصفة بعد اذ سكنت الرياح وانقطع هزيم الرعد
وسقوط الثلج كان يسمع دوي البارود في الغابات والوديان التي تجاور مغاير
الجن من الصيادين الذين كانوا كثيراً ما يتداولون ذلك المكان يصيدون

فيه الوحش طمعاً في جلده ولحمه

ولم تكن الا ساعة حتى ظهر على قبة من الجبل ذانك الرجلان اللذان كانا يتوقلان الجبل الى مغاير الجن وعلى كتفيهما بندقيتان والصيد الذي صاداه وهما يثبان على الجليد من كثيب الى كثيب ومن اكمة الى اخرى كانهما غزالان او فرخا نعامة حتى اذا قربا من مغاير الجن وقفا يتحدثان معاً ثم دفع احدهما الى رفيقه صيده ورجع مولياً لا يلتفت اليه واما الثاني فانه اتى مغاير الجن واقبل الى الباب الخارجي يلتمس الدخول فرآه طلق المصراعين وبصر برأس الحراس يتمشى امامه وهو يتوكأ على جانبيه لسمنه وقد خبأ يديه في جيبيه من شدة البرد وقدماه العريضتان ترسمان على الجليد اثراً بيناً على شكل حذائه لثقل جثته . وهو مع ذلك يمشي الخيلاء زهواً وفخراً ويلتفت يميناً وشمالاً تيهاً وعجباً كأن لسان حاله يقول انا ملك هذه الجبال وسلطانها

فدنا منه الصياد وحياه تحية من ادركته الهيبة والحيرة فرد عليه السلام بصوت لا يسمع دون ان يلتفت اليه او يحتفي به استصغاراً منه لامره ثم لما رآه قد اطال الوقوف بين يديه قال له بعظمة وتضجر

ـ من الرجل ـ صياد يا مولاي ـ افٍ لكم معاشر الصيادين فانكم لا تزالون تسعون في قلقنا وازعاجنا على الدوام حتى لم يبقَ لنا بكم طاقة

فلبث الصياد ساكتاً لا يعرض حاجته ولا يذكر بغيته وهو يتأمل حركات رنارو بربيانتو الذي ساءه سكوت الصياد فقال له متهدداً

— لقد طرقتنا ايها الصياد على غير استئذان وما كنت اظن ان مثلك يتجرأ ان يقدم على مغاير الجن فقد اكثرت اعجابي من تجاوزك الحد فما شأنك واي غرض لك

فاجاب الصياد بذلة اني لم اقبل اليك ابتغاء غرض تجازيني به ولا التماس معروف تكافئني فيه وانما حملت نفسي الى مغاير الجن ومعي صيدي لاهديكه فارجو ان تتقبله مني كرماً منك

قال ذلك وقدم الى راس الحراس ارنباً وعشراً من جرذان الالب والسمور ذي الفرو الثمين واردف قائلاً اما الارنب فلك منه طعام شهي تاكله هنيئاً مريئاً والجرذان والسمور . . .

فكأن رنارو شعر بلذة طعم الارنب قبل ان ذاقها فلم يدع الصياد يستوفي الكلام حتي هش وبش وقال مقاطعاً . برضى برضى اقبلها منك اذ لا يجمل ان ارفض هدية صياد جواد كريم نظيرك فما احسن ما تحدثني به ثم نظر الى الجرذان والسمور وهو يتمايل لشدة سروره وقال

— وهذه الجرذان والسمور ساعمل من جلدها لباساً فاخراً يدفع عني قرس البرد أليست هي هدية لي ايضاً

— كل ذلك لك وموفورٌ عليك ولست اتوخى به غير مسرتك ونيل رضاك لانك سبقت فاخبرتني ان الصيادين طالما ازعجوك وكدروا عليك وحدتك

— نعم ولكن ليسوا من الصيادين امثالك الكرماء فلمثلك ابيح الصيد ايان شاء وفي اي مكان اراد على ان يتذكر ان لي جوفاً ينازعه الجوع على

الدوام قال هذا وقهقه ضاحكاً وهو ينظر الى الارنب بملء عينيه

فلاحت على وجه الصياد لوائح السرور وتلألأ في عينيه نور من الآمال فاجاب مبتسماً

ـ أيجدر بالصياد ان يكون غير كريم فالصيد عفوٌ وما احقه بالبذل واحراهُ

ـ أَلم اقل انك صياد جوّاد ماهر فقد صح ما قلته لاني رأيت فيك الدلائل المخبرة هيا فاتبعني لاسقيك كاساً من الخمر المعتقة فتقوى معها على احتمال الزمهرير

وهكذا ادخل الصياد لصحن العرصة واتى به غرفته بعد ما احتمل الارنب وجعل يجسه ليرى سمنه من هزاله

اما غرفة رنارو بر بيانتو فكانت من اجمل غرف الحصن فرشاً واتقاناً وكان في احدى زواياها سرير واسع عليه فرش وغطاء من الصوف الخشن وتحته احذية ضخمة محددة النعال وفي الجانب الاخر صندوق من خشب السرو وخزانة مشبكة بالحديد وعلى مقربة من السرير منضدة عليها بعض مجلدات واسفار قديمة العهد علاها الغبار ونسج العنكبوت عليها خيوطاً لكثرة اشتغال راس الحراس بمطالعتها وعليها دواة واوراق وعلى الجدار صور بعض الابطال ومشاهد الحروب قد محا لونها كرور الايام وفي زاوية الباب موقد تشتعل فيه النار وفي وسط الغرفة اربعة كراسٍ قد تصدعت قوائمها من شدة ما حملت من ثقل جثة صاحبها . فلما اتياها واستقر بهما المكان اخذ راس الحراس كاساً وملأها خمراً وقدمها الى الصياد وبعد ما

اطنب في مدح الخمره قال

— خذ فاشرب يا صاح معتقة تنفي عن القلب الحزن واعذرني اذا قصرت فيما اريد ان ابلغه من كرامتك ثم انحنى له مرارا باسطاً يديه ترحيباً وتأهيلاً به

فشرب الصياد الكاس وقال اني اشكر لك يا مولاي الطافك بي وان ما اراه من ايناسك واحتفائك يجرئني على ان اسالك حاجة تسعفني بها وتعطيني فيها سؤلي

— كل حاجة لك قبلنا مقضية فاذكر ما بغيتك

— واني لراج منك بعد ما عطفت عليَّ بكرمك واحسانك ان تبلغني المراد ولا تردني خائباً

— ما عساها تكون هذه الحاجة فهل هي كاس ثانية من الخمر

— ليس لي حاجة في الخمر ولكن اعلم ايها السيد الكريم اني منذ بلغت مبلغ الشباب جعلت الصيد والقنص لي مهنة

— مهنة شريفة فقد قيل ان القنص لهو الملوك

— وقد اصبت منه مالاً جزيلاً — هنيئاً لك بذلك فان المال يجعل قوة وزيادة في الراي

— فاتفق اني بينما كنت مرة مع رفاقي الصيادين وقد جلسنا نستريح اخذوا يتجاذبون اطراف الحديث فعرض لهم ذكر مغاير الجن فانشأوا يخبرون عنها اخباراً غريبة ويرددون عنها سيراً عجيبة حتى وقع في نفسي شوق الى غشيانها ورؤية مبانيها ورغبت في ذلك كثيراً وما برحت تلك

الرغبة منذ عشرة اعوام كامنة في صدري كمون النار في الحجر حتى قدحتها زيارتي اليوم فاظهرتها لك ولم يسعني كتمانها فهل لك ان تسعفني بحاجتي التي لا خطر فيها وتطفئ جذوة التلهف المتقدة في صدري الى رؤية مغاير الجن

فلما سمع رنارو كلام الصياد عبس وبسر واستوى قائماً وجعل يمشي في الغرفة ذهاباً واياباً ويهزّ كتفيه ثم التفت الى الصياد وقال له بحدة

ــ اتريد ايها الصياد ان ابيع رئاستي بارنب ام تخالني غبياً كالعيس لابيعها باكلة من عدس

ــ وكيف ذلك ـ وكيف ذلك . كانك تجهل اني اورد نفسي موارد الهلكات ومصادر المخوفات اذا اجبتك الى ما تريد واسعفتك بحاجتك

ــ واي خطر في الامر الذي اطلبه منك

ــ ان ذلك محظور عليَّ فان خالفت فيه سعيت في هلاك نفسي

ــ ان هذا الامر الذي قدمت له لمثلك ذخرته وبك ارجو بلوغه

ــ لا لا افعل ذلك ابداً ـ لا يهولنك امر ولا يريبنك ريب

ــ ذلك طريق مخوف لا اسلكه وكلام لا انخدع له

ــ خفض عليك يا سيدي الحاكم واعلم انك لا تخشى مني ولا تخاف ان ......

فلما سمع صاحبنا رنارو الصياد يلقبه بسيدي الحاكم توهم انه جدير وحريٌ بهذا اللقب فاخذته هزة الخيلاء وقال وهو شامخ الانف معارضاً الصياد وقاطعاً حديثه

ــ انت ايها الرجل صياد لا علم لك بنظام الممالك وقوانينها فنحن

رجال الدولة نعلم كل العلم ما يجب وما لا يجب وبما لنا وعلينا فالزم السكوت ولا تتجاوز حدك في كلام ما كنت اظن اميراً يستقبلني بمثله ولا يقدم على طلب ما اقدمت عليه فكيف انت مع صغر شأنك

ثم رجع يتمشى في صحن الغرفة بابهة وعظمة منتحلاً لنفسه هيبة الحكام واصحاب المناصب

فلم يتمالك الصياد ان ضحك من حركات راس الحراس وقال في نفسه اني لم أسمع هذا الغبي الا لقب سيدي الحاكم فنطح راسه السحاب صلفاً وعجباً وصار ازهى من ديك فكيف اذا زدت في الاعظام والتبجيل له فعليَّ ان ازيده من ذلك عساي ادرك حاجتي منه فقال له

ــ هل ترضى نعمتكم يا سيدي الحاكم ان اعود بخفي حنين واموت بعد ذلك وفي نفسي حسرة الى رؤية مباني مغاير الجن

ــ اواه هتف رنارو متضجراً كمن فرغ صبره

ــ قد بلغني عن نعمتك كرم وعفاف واحسان وانا واثق بكرم طباعك وراجٍ بلوغ حاجتي فلا تردني خاسر النفس خائباً

لقد اكثرت اعجابي من اقدامك عليَّ ايها الصياد واني قسماً بشرفي لم اراعِ احداً مراعاتي لك ولم استعمل الاناة الا معك ولم ارفق باحد رفقي بك بل كنت اطرد من حضرتي كل من يستقبلني بمثل هذا الكلام واغلظ له في الجواب واني لم اعاملك بما تستحق اكراماً لجرذانك وارنبك

فقال الصياد في نفسه قد ركبت متن الشطط مع صاحبي فاني كلما زدته تعظيماً وتكريماً ازداد تباعداً ونفوراً فلنعد الى اللهجة الاولى فهي

به اولى

ـ اني لم اقدم عليك بالمكر والخديعة يا صاحبي وليس ....

فعارضه رنارو قائلاً اين لقب الحاكم ايها الصياد اتراك نسيت اني حاكم مغاير الجن

فقال الصياد في ذاته قد عودنا هذا الاحمق المديح فتعود فلا حول ولا ثم اردف يخاطبه

ثق يا سيدي الحاكم ان ليس لي في دخول الحصن مقصد سياسي تتخوف منه واعاهدك ان لا افشي لاحد سره ولا خوف ان يضيع شيء من هذا الامر لاني انا صياد ظاعن وانت مقيم وليس بيننا ثالث ليشيع و يذيع

ـ لقد احرقت انفاسي ايها الصياد بلجاجتك فاذهب عني واغرب من امام وجهي

ـ أتطردني ـ رُح والا امرت الجنود ان يوسعوك ضرباً و يقيدوك الى شجرة حتى تموت من شدة الجوع والبرد

وكان يتكلم واوداجه قد انتفخت وحدقتاه قد احمرتا ومنخاراه قد اتسعا فاكفهر عند ذلك وجه الصياد حنقاً لكنه كظم الغيظ واغضى الجفون على القذى وقال

ـ ها انا منصرف عنك ولكن سوف تندم على تضييعك واجب حقي وردك اياي خائباً

فصاح رنارو وهو يضرب الارض برجليه اذهب فانا في غنى عنك وعن جرذانك وارنبك

ـ اني لا ان اخرج من عندك قبل ان ادفع اليك ثمن الخمر التي سقيتنيها حتى لا يبقى لك عليَّ من ذلك فضل

ثم مد ذلك الصياد يده الى جيبه واخرج منه قبضة كبيرة من الدنانير وهو يخاطب رأس الحراس بحنق ويقول

ـ قد توهمت ايها الرئيس اني عيار او جاسوس او لص او صياد فقير لا املك ثمن كاس من الخمر حتى تطردني وتهينني وتستذلني وانا ابيُّ الضيم لا اصبر على الهوان فخذ ما اردت من الدنانير ودعني اذهب من حيث اتيت قال هذا وبسط لرنارو كفه الطافح ذهباً

فلما بصر رنارو بالذهب الذي خلب بصره بلمعانه لبث برهة لا يتحرك ولا يرفع نظره من يد الصياد وهو فاغر الفم مجملق الطرف مندلع اللسان

فخطا الصياد خطوة نحو الباب كمن يريد الذهاب فصاح به بربيانتو قائلاً

ـ الى اين تذهب ايها الصياد الكريم اتخال اني اطردك وعقلي معي لا لا يا صاحبي فاني لست كما رايتني شرساً فظاً غليظاً ولكن بي مرضاً ينوبني كل اسبوع مرة فاذا اتتني النوبة غبت عن رشدي وساءت اخلاقي وجعلت اطرد من كان امامي كما فعلت بك ومتى فارقتني ثاب اليَّ رشدي وذهب ما اجده من هذه العلة التي اورثتني اياها الوحدة والضجر فاعذرني اذن ايها الصياد على هذه النفرة التي بدرت مني عن غير علم وقصد وكأَني سمعتك تذكر ان لك رغبة في ان ترى ما في باطن حصن مغاير الجن من المباني والهياكل والمغاير

فقال الصياد وهو يضحك ضحكاً شديداً من حال رأس الحراس والتغيير الذي احدثه فيه منظر الذهب نعم قد سألتك فهل لك ان تسعفني بحاجتي وتعينني علي ما قدمت له

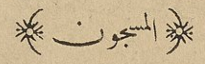
ـ بدون تردد لان من كان مثلك شريفاً جواداً غنياً فهو اهل لان يعطى سؤله

ثم اهوى نحو يد الصياد التي رأى فيها من الدنانير ما لا يصيبه في خمس سنين من راتبه وجعل يهزُّ برأسه ويحملق عينيه فرحاً وسروراً

فادرك الصياد غاية رنارو وطمعه في المال فقال له

ـ ابشر يا مولاي وقر عيناً فاني باذل لك ما رأيته معي من الذهب وانه لقليل في جنب الجميل الذي عولت على صنعه معي

ـ بورك فيها ايها الصياد فلقد ادركت ان ليس من احد يصلي الا لنيل الاجر وان المريض انما يكره على الدواء رجاء منفعته فتعال معي لاريك ما خفي عنك من مغاير الجن



الفصل الرابع

﴿ المسجون ﴾

ثم ان رنارو اقبل بالصياد الى الصخر الذي هو في صدر العرصة الخارجية وولج امامه في السرداب المتعرج المنقور فيه وما برحا في صعود وهبوط حتى انتهيا الى اللولب الذي يرقى به الى القصر الذي في وسط السور فبدا

لراس الحراس امر تخوف منه ان يكون الرجل جاسوساً متنكراً باثواب الصياد او مبعوثاً سياسياً او عدواً مخادعاً فوقف وهم ان ينقلب بهِ راجعاً لكنهُ فكر بالدنانير اللامعة فاحجم عن رأيهِ

فلما راى الصياد وقوفهُ سالهُ عن سبب ابطائهِ فقال لهُ قف وقبض على ذراعهِ لقد رابني من اتيانك اليَّ ريب فهل تقسم لي انك لست مبعوثاً سياسياً

- اني احلف لك بايمان محرجة - وانك لست جاسوساً او رسولاً

- اقسم بالمغلظة اني لست رسولاً - وان تكتم عن كل الناس ما ستراهُ - وان اكتم كل ما ارى ولا اشيعهُ

- بشرفك - بشرفي - بشرف الصيادين ... - بشرف الصيادين - ان لا تشيع شيئاً من هذا الامر - ولا ابديهُ

فطاب رنارو من ذلك نفساً وزال ما كان وقع في نفسهِ من الخوف فجعل يرتقي في اللولب الى اعلى شرف في السور والصياد يتبعهُ فلما بلغا الهيكل الرخامي الذي عليه رأس التنين النحاسي وقف رنارو ثانية مفكراً وبعد برهة قال للصياد

- ان غشيانك مغاير الجن لمن الاسرار التي لا تكتم فلا بد من ان يفشو ويظهر فاذا فشا فقد سعيت في هلاكي هلاكاً لا اقدر على الفداء منهُ بالمال لان ملكنا فظ يعاقب على الذنب الصغير اشد العقاب فكيف مثل هذا الذنب العظيم

فتخوف الصياد من تردد راس الحراس وراى ان يعمل الحيلة في التماس المخرج لرنارو مما يتخوف منهُ ادراكاً لحاجتهِ فقال لهُ

ـ هل بدا لك امرٌ تخاف ضرره من دخولي الحصن

ـ اني ان طاوعتك ايها الصياد لم آمن ان يبلغ ذلك مولاي الدوق جان ماريا ويسكونتي والدوقة كاترين امه ومحظيها بريفارا فيكون في ذلك ما اكره واقل عقاب يقضى عليَّ بهِ ان اقذف الى وحوشهم المفترسة فتمزقني باقل من طرفة عين

ـ ممن يبلغهم ذلك وقد اقسمت لك على كتمان السر

ـ ممن يبلغهم ذلك هه هه من حيطان الحصن وجن المغاير الطائرة في الفضاء اجابه رنارو متهكماً ضاحكاً

ـ تعني ان بعض الجند والحراس يشون بك اليهم

ـ ان الامر لشبيه بما تقول ولست آمنهم من ذلك فدعني ايها الصياد ولا تدخلني مدخلاً ضيقاً وتجني على نفسي جناية موبقة

ـ اني ساحتال لامرك والتمس لك المخرج مما وقعت فيه لا يفزعنك امرٌ ولا يهولنك شان

ـ ما ارضاني بهذا ان كان كما تقول فقل ما بدالك من الرأي

ـ الا يأتي مغاير الجن من قبل الحكومة رجل يتفقد المحبوس والمسجونين في كل سنة

ـ انها تبعث في كل سنة مفتشاً ماموراً من قبلها . ولكن ما يجديني هذا و . . . . .

فقطع الصياد حديثه وقال فانا انتحل صفة هذا المأمور واتشبه به وادعي انني مفتش قدمت من ميلان فيجوز امري على جندك وتخلص انت

من تبعة ما تخشاه

فلما سمع رنارو ذلك صاح وقد صفق طرباً احسنت احسنت في رأيك ايها الصياد فانت ذو عقل وذكاء فلولاك لم يتفق لي حل هذه العقدة واني سآخذك بقولك واعمل به فاجعل نفسك اذن ماموراً متنكراً وستسمعني اناديك بسيدي المامور وصاحب السعادة فاعطِ النعمة حقها

— على ما تحب وتختار

ثم ان رنارو ضغط رأس التنين فانفتح منه باب فولجه وانحدر في الدرج المؤدي الى الهيكل الكبير يتبعه الصياد الذي ما فتئ منذ دخل الحصن يستطلع الجهة التي يسير فيها لئلا يفوته الامر الذي قدم له فان مرَّ بمازقٍ غرباً عرف انه متجه الى الجهة الغربية واذا انعطف شمالاً ادرك انه سائر في الجهة الشمالية

ودام امره على ذلك حتى بلغ مع راس الحراس الى فناء الهيكل الكبير وقبل ان ينحدر في السلم الذى في وسط العمود الاجوف سمع رنارو يقول له

— مهلاً ياسيدي وقف غير مأمور ريثما انادي السجان فينير لك الطريق لان المكان الذي ستبطنه شديد الظلمة كثير المازق

فوقف الصياد بعد ما لحقه الدهش وادركه الخوف والوحشة من هول ما رأى وجعل يقول في نفسه

ويلاه ما عسى ان يكون اصاب خاليَّ واية حال هما فيها من الضنك والضيق في هذا المكان الذي كل ما قيل عنه لم يكن الا وشلاً من بحرٍ وحذري على رفيقيَّ خير الاصدقاء اللذين افديهما بنفسي ومالي.

آه يا روبر اترى تبلغ الغاية ....

قال هذا واغرورقت عيناه بالدموع وجعل يتنفس الصعداء كأن الهموم حجر القي على صدره ويفكر فيما جرى عليه وعلى اهل مودته من توالي النكبات وكيف افضى حول الدهر برفيقيه الى السجن في مغاير الجن فاغرق الفكر فيه حتى غفل عن نفسه وموقفه

وكان رنارو قد اسرع الكرة وهو ينادي السجان قائلاً . هيا ياطومازو واضيء المصباح وسر باحترام امام سيدي مامور الدولة الذي تنازل فشرفنا اليوم بزيارته فانهُ يريد بك خيراً على ان تريه المغاير فقد طلب ان يغشاها فصدع طومازو بما امر وجاء بالمصباح ووقف بذلة يترقب تحرك ركاب مامور الدولة ثم نادى رنارو الصياد فلم ينتبه الى ندائهِ لانهُ كان تائهاً في مهامهِ الفكر لا يعي فتقدم نحوهُ واخذ بذراعهِ وقال

- اني ارى سيدي المامور في شاغل تتنازعهُ الفكر فهل استوحش من المكان

- لم تدركني منهُ وحشة ولكني فكرت في الذين بنوهُ فاغرقت في الفكر فسلك بي الى هاتيك العصور وخيل لي اني ارى اولئك الجبابرة الذين تركوا هذا الاثر العظيم

- وهل لا تؤثر يا سيدي العودة الى ظاهر الحصن مكتفياً بالقدر الذي رايتهُ منهُ

- قد صحت عزيمتي على ان اطرق كل مكان منهُ اذ ربما لا يتفق لي ان آتيه مرة اخرى

فبينما الصياد في كلامهِ اذ اقبل الطبيب فاشار اليه رنارو ان تقدم وتلطف في السلام على مامور الدولة فبادر من وقتهِ يترحب بالصياد ويتأهل بهِ وزاد بالالطاف والاحتفاء بعد اذ راى اكرام راس الحراس لهُ واحتفالهُ بهِ

قال رنارو ليغم على الطبيب امر الصياد لئلا يشتبه عليهِ الامر من رؤيته في لباس الصيد

ـ اني ارى نعمتكم في لباس الصيادين والظاهر انكم آثرتم القدوم على مغاير الجن كصياد يشغلكم الصيد عن النظر في وعث الطريق ووعر المسالك فان جبلنا صعب المرتقى

ـ اني مغرم بالصيد غراماً شديداً واتجشم فيهِ العناء دون ملل ولولاهُ ما قدمت عليكم وحدي تاركاً حاشيتي واتباعي في سفح الجبل

ثم مشى طومازو والمصباح في يدهِ وتبعهُ الصياد ووراءهُ راس الحراس والطبيب حتى اذا ما انتهى الى الدائرة التي تتفرع منها المماشي القائمة على جانبيها المغاير سمع جلبة شديدة فتقدم بعض خطى فطرق اذنهُ صياح المسجونين وغناؤهم وصراخهم وصلصلة حديد قيودهم فتوهم وهو خافق الفؤاد انهُ سامع بينها نداء صديقهِ

ولما بصر بالمغاير هالهُ امرها فجعل يقول في نفسهِ امغاير الجن هذه ام اجداث ومدافن انى يطيق المرء بها الاقامة يوماً واحداً او من يضمن لي بقاء صديقي فيها حيين ثم سمع فجاءة من احدى المغاير صراخ هائل وزعقات كالرعد وزئير كزمجرة الاسود اناف وعلا على تلك الجلبة فتراكض رنارو

والطبيب الى المكان الذي صدر عنه الصراخ ليقفا على امرهِ فانتهز الصياد فرصة ابتعادهما وسال طومازو الذي في يدهِ المصباح وهو السجان الذي عهد اليه بتقديم الطعام الى المسجونين

ـ من الصارخ ايها السجان

ـ مولاي هذا رجل فظ شرس الخلق لا يقرُّ له قرار

ـ امن عهد بعيد جيء به الى مغاير الجن

ـ قد صار له في ضيافتنا نيف عن سنة

ـ هل حمل وحده او كان معه رفيق

ـ كان يصحبه رفيق تلوح على محياه سمات النبالة والشرف وهو ساكن الجاش ذو دعة بخلاف هذا الذي لم ينكف مذ سجن عن الصراخ والنزاع والتسخط والاحتدام وسوف يجن ان دام ذلك امره

ـ وهل عرفت اسمه ـ اخبرني ان اسمه رودريك .....

ـ فلما سمع الصياد اسم رودريك ذعر وانتفض كعصفورٍ بلله القطرُ وما تمالك ان هتف على غير انتباه ويلاه صديقي رودريك ....

فلم ينتبه اليه طومازو لانهماكه فجاءة باصلاح مصباحه الذي كاد ينطفي لكنه ما عتم ان تبين اضطرابه فقال له

ـ ما هذا الاضطراب يا مولاي وما نزل بنعمتكم

ـ ان هذا الرجل من الداعدائي وبيني وبينه شان وبغضاء فلما ذكرت اسمه استثار ذلك دفين حقدي وكمين ضغني

ـ لا اكتمك يا مولاي اني كنت امنع عنه الطعام اياماً حتى يعنو

وتلين عريكته فكان يزداد شدة وباساً ومراساً وهو ما برح صعب الانقياد يضطهدني وقد كاد يبطش بي مرة لولم تدركني الجنود وتمنعه عني فقبح الله أما وضعته

ـ وما جرى على صاحبه

ـ قد اعتلَّ منذ ثلاثة اشهر وكاد لولا مهارة الطبيب وعناية راس الحراس يقضي عليه وكنت لو مات ابكيه بدمع مدرار فاني لم ارَ مثله رجلاً صبوراً لين العريكة شريف الاخلاق كريم الشمائل وما ادري والله لاي ذنب يسجن مثله في مغاير الجن

ـ وما الذي عرفت من امره

ـ جل ما عرفته انه امير عظيم متسلسل من نسب شريف وقد سالته مراراً عن اسمه فكان يقول لي ان اسمه .....

وقبل ان ياتي على ذكره اقبل رنارو والطبيب وهما يضحكان فاحجم طومازو عن الكلام مهابة ووجم الصياد مخافة فقال له راس الحراس

ـ ان الصارخ يا مولاي سجين احمق يطالب اليَّ ان اخلي سربه ليعود الى اهله فيجتمع بحبيبته وقد وعدته ان اطلق اسره واجمع شمله متى لجَّ به الرحيل الى العالم الباقي

فتكلف الصياد ابتسامة تشف عن غيظ في معرض رضي واجاب مضمناً هذا امرٌ لا يرجى فيه غيري

فقهقه رنارو والطبيب وجعلا يريان الصياد المغاير الى ان مروا بمغارة في الجهة الشمالية وقد رقم على بابها عدد ١٥ فسمع الصياد راس الحراس

يسال الطبيب بصوت منخفض قائلاً

ـ كيف حال عليل هذه المغارة

ـ قد تركته في قاع من حماه ولكنها قد تخونت جسمه وغادرته عجيفاً هزيلاً

ـ قد انهكته العلة ولا ارى له راحة الا في قبره

ـ ان القبور لاهل الشقاء والويل منازل راحة ونعيم

قال الصياد في نفسه وقد تجلد واخفى الكمد ان هذا العليل لهو الذي اخبرني عنه السجان وما هذه المغارة الا محبسه وسوف احتال في الدخول عليه ولو وقع بي مكروه فان عرفني اومأت اليه بالصمت وان غابت عنه معرفتي كان ذلك غاية ما اروم وبعد ان صحت عزيمته على ذلك وقف بازاء تلك المغارة وقال يخاطب رنارو كمن له الامرة عليه

ـ مرّ ايها الرئيس بفتح باب هذه المغارة فاني اريد ان اغشاها

فلما سمع رنارو منه ذلك اكفهر وجهه غيظاً واشتد حنقه على الصياد فجعل ينظر اليه شزراً معجباً من جراته واقدامه على هذا الامر الذي لا يسعه فيه معاندته ولا يتهيأ له نهيه عنه بعد اذ جعله ماموراً مرسلاً من ميلان فاجابه وهو يشير اليه بطرفه ان لا يفعل

ـ انك ان فعلت ذلك يا مولاي عرضت نفسك لخطر عظيم فان سجين هذه المغارة قد اعتراه مرض قتال واخاف ان دخلت مغارته ان تسري عدواه الى نعمتكم

ـ ان ذلك يزيد في عزيمتي على الدخول عليه لاني لمثل هذا اقدمت

قال رنارو في قلبه وقد كاد يتميز من الغيظ تباً لهذا الصياد ما اوقحه سقيناه الخمر فعربد وولّيناه فتمرّد فقاتل الله الارنب والذهب ولما لم يعد في وسعه مخالفته ولم يرَ له مناصاً من ذلك اشار الى طوماز بالامتثال

فعمد الرجل الى منطقة في وسطه قد علق فيها المفاتيح واخذ من بينها مفتاحاً قد علقت فيه قطعة جلد كتب فيها عدد ١٥ وفتح به باب المغارة فدخلها الصياد واذا به يرى شاباً في مقتبل الشباب متوسداً فراشاً من القش وعليه اطمار بالية وغطاء من الصوف الخشن الرث وصفرة الموت مبرقعة وجهه الشاحب الذي ذهب بهاؤهُ وتنكرت بشاشته وذوت غضاضته وبضاضته وعيناهُ غايرتان ويداه ضامرتان وشعره مسترسل على جبينه العريض الذي تلوح عليه لوائح النعمة والشرف وانفاسه العميقة المتقطعة تختلج في صدره اختلاجاً عنيفاً فيئن انة يتقطع لها الفواد كانه في حشرجة الموت والى جانبه خوان من الخشب عليه كسرة من الخبز الاسود الجاف واناء كبير للماء وسراج شحيح لا يكاد يبلغ اليه نوره

فالصاعقة اذا انقضت على الصياد لا تفعل ما فعلت به رؤية هذا الشاب فان فرائصه جعلت ترتجف وقلبه يخفق خفوقاً شديداً حتي كاد ان يتمزق والعرق البارد يتصبب من جبينه وهو يشعر ان الارض تميد به حتى طاش بصره ولما لم يستطع لنفسه ضبطاً استند الى الحائط ولبث برهة جامداً كالصنم لا يستطيع ان يردد انفاسه التي حبست في صدره

فاحس رنارو بما نال الصياد من الجزع فتقدم نحوه على يده وضغطها بكفه ضغطة شديدة فانتبه الصياد وعاد الى صوابه قبل ان يخونه

جلده وعبرته

فهمَّ طومازو ان يوقظ الشاب ليرى مامور الدولة فانتهره الصياد ومنعهُ من ذلك لانهُ كره ان يظهر نفسهُ لصديقه ولم يرَ ذلك رايًا مخافة ان معرفة صديقه به ورؤْيتهُ لهُ حيًا بعد ما عهدهُ ميتًا تنتج شرًّا وتعقب ندمًا فيطلع الطبيب على حيلتهِ وباطل ما اتى بهِ

ولما راى ذلك الشاب يتقلب في فراشهِ ودعهُ بنظرة واسرع فخرج من مغارته مرددًا هذه الكلمات (جهة الشمال) واذ صار خارجًا اقبل على راس الحراس والطبيب وقال لهما لقد اخذتني على هذا الشاب رحمة وادركني عليهِ اشفاق وحنو واريد منكما ان ترفقا به وتبلغا في معالجتهِ والعناية بهِ غاية جهدكما حتى يبرأْ من علتهِ فقد استبان لي انهُ من الاشرف الذين لا يضيع عندهم معروف

قال هذا ودس في كف الطبيب عشرة دنانير فلما راى الطبيب الذهب جعل يقسم ويحلف في شدة فرحهِ ان يجيبهُ الى ذلك وينهض باعباء ما عهد اليهِ منهُ

وبعد ما بعدوا عن مغارة ذلك الشاب سمعوا من احدى المغاير رجلاً يتعتب على الايام ويتوجهُ الى الله في طلب الموت لنفسهِ ثم يتأُوه فيبكي

فسال الصياد راس الحراس عنهُ فاجابهُ ان هذا الرجل لاثقل ضيف حل عندنا فقد مضت عليهِ وهو في هذا السجن اعوام طوال لا اعلم لها عددًا وما برح في تضاعيفها يبكي سيده ويرثيهِ

ـــ او لم يعاجله الموت بعد

ـ هو بعيد منه يامولاي فكأن الموت يفرُّ من وجه طالبه ولعل زيارتك تطلقه بسلام فقد فدح الحكومة بالكلف والمؤن الباهظة في طول عهد ضيافتها له

وبعد برهة اقبل رنارو بالصياد الى غرفته بعد ما اطلعه على كل مكان في الحصن وعندما خلا به قال له

ـ لقد كنت اصنع من سرفة ايها الصياد في العمل الذي قلدته ولكنك جاوزت فيه حدك ونسيت ان ثوب المامورية الذي لبسته مستعار فقد كاد يتبين الطبيب وطومازو محالنا من الذي ظهر منك حين نظرك الى الشاب العليل الذي دخلت عليه مغارته

ـ اني لم الح في الدخول علي ذلك الشاب الا لكي لا ادخل على صديقيك ريبة فلا يشكا في اني مامور ارسلت لعيادة المسجونين ولا انكر عليك ان قلبي تقطع حزناً على ذلك الشاب واسالك ان تعتني به اعتناءك بولدك وها انا مجزل لك العطاء ومكافئك باضعاف ما املت حتى تخصه بطعام جيد ولباس جديد وشاكرٌ لك احسانك اليَّ واليه

فاجابه رنارو اني ساقضي واجب حقك ايها الصياد فكل الامور للكريم الجواد مبذولة ثم لما رآه قد عمد الى جيبه تنحى عنه الى الوراء قليلاً وجعل ينظر الى يده شزراً ليتبين مقدار العطية واذا بالصياد قد القى في كفه قبضة من الدنانير المزدوجة واردفها باخرى حتى كاد قلب رنارو بريانتو يستطير فرحاً ثم ودعه وتعجل في الخروج من عنده فاسرع رنارو الى توديعه وتشييعه وهو يقول

لقد شرفتني ايها الصياد بقدومك عليَّ وقد جبرت كسري بنوالك فلست بناسٍ اياديك فاذهب مع السلامة مع السلامة على الطائر الميمون · ·

وما زال يكرر هذه الكلمات حتى صار الصياد بعيداً ثم انقلب راجعاً وهو يقلب تلك الدنانير بين يديه ويعدها ويستعدها

الفصل الخامس

﴿ الدوق جان غلياس ويسكونتي ﴾

هو ابن غلياس من امرأته بتراك الذي تولى الامر بعد ابيه في بافي فكان اشد منه دهاءً واقتداراً اذ ما لبث ان احتال لعمه الامير برنابا الحاكم في ميلان بمكره ودهائه فافسد عليه امره وقبض عليه ونفاه الى قصر (ترّزا) فمات فيه مسموماً واستولى على امواله وكنوزه التي بلغت مقدار سبعماية الف فلوريني ذهباً وسبع مركبات من سبائك الفضة ولما استقر في يده امر ميلان واستوثق من الملك صرف اهتمامه الى النظر في احوال الدولة وجمع ما تفرّق من امرها

ثم ازدلف الى جان الثاني ملك فرنسا بصداق قدره ثلاثماية الف فلوريني فعقد له على ابنته ايزابلاً ولقبه كونت (ي ورنو في شامباين) ثم شد ازره وحالفه الامبراطور فيشسلاوو ودعاه النائب الامبراطوري في لومبارديا

وكان هذا الدوق بطلاً شجاعاً وفاتكاً مقداماً واسع الخبرة في ابواب

السياسة جيد الرأي في ادارة المملكة فريداً في زمانه واحداً في صفاته منقطع القرين اوتي من النصر والتوفيق شيئاً عزيزاً حتى طار ذكره وامتدت شوكته وهابته ايطاليا وتحامته عظمى ممالكها مخافة ان يضمها الى مملكته ويدينها الى دولته اذ كان شديد الوطأة بعيد الهمة لا تعيقه عما يريد العوائق ولا تصرفه عما يروم الصوارف وكان يوجه الى المغازي والغارات الزعماء الاشد باساً وبسالة والاكثر خبرة ومهارة نظير فسينوكان وجاك ولفرم واوتوبون ترزو وغيرهم ممن كللوا اعلامه بالنصر وتوجوا مغازيه بالفوز والظفر

ومع ما فيه من هذه الصفات كانت سيرته سيرة ظلم وطمع فانه بعد ما استأصل بدهائه شأفة آل كرارا حكام بادو والاسكاليجيرين فتق له عقله ان يدوخ كل ممالك ايطاليا ويجعلها مملكة واحدة يتولى عرشها

فجيش جيشاً كثيفاً وحشد الكتائب وزعماء الاحزاب وجعل يحارب من نازعه ويواقع من واقعه ويفتح البلدان والمدائن ويغنم اموالها وخيولها واسلحتها وسائر كنوزها وكاد يفلح في ما عزم عليه لو لم يدركه الفشل في حصار مدينة فيذيسيا التي نازلها بجيشه زمناً طويلاً وتفانى من جنوده تحت اسوارها خلق كثير ولما اشتد عليها الحصار ارسلت تستصرخ رومية وتستعين بها على دفع العدو فلبتها جنود رومية وذلك على عهد البابا بونيفاسيوس التاسع

ولما كانت الجنود التي جردها هذا الدوق وزحف بها في هذه المرة الى الحرب غريبة الديار مغترة بقوتها محتقرة امر عدوها لا خبرة لها بوعث تلك الاراضي وحزونها لم تلبث ان ادركها الفشل فنكصت على اعقابها خاسرة

بعد ما تفرّق شملها وكان من وراء ذلك ان اخفق الدوق في قصده وذهب جهده عبثاً وضياعاً فانقطع الى ميلان يوطد دعامة ملكه فيها وفي تضاعيف ذلك خلب ابصار الامبراطور فيشسلاوو ببريق ماية الف فلوريني فاطرفه بلقب الدوق واحتفل بتتويجه احتفالاً لم يعهد مثله في ايطاليا وذلك بعد ما دوخ كل امارات لمبارديا واذنها لدولته اثر حروب ومواقع هائلة

ثم افرغ طوقه بما يذيل به ذكره من الاعمال العظيمة فحشد اليه البنائين والصناع من انماطٍ شتى وامر ببناء كنيسة ميلان التي عدت في جملة عجائب الدنيا السبع فبلغت التماثيل التي تزينها ٢٣٦٠ تمثالاً من الرخام المرمر ثم امر ببناء دير ترتوزا الشهير على مقربة من بافي

وكان قد ولد له من امراته ايزابلا ابنتان هما فالنتين وفرجيني فعقد للاولى على شقيق ملك فرنسا فتزوجها منه بعد اذ جهزها بجهاز لم يسبقه اليه احد من الملوك العظام واما فرجيني فان امها ماتت وهي ناعمة الظفر ثم تزوج الدوق بالاميرة كاترين ويسكنتي فولدت له ولدين جان ماريا وفيليب ماريا فكان الكبير منهما مع صغر سنه شكس الخلق فظاً شرساً غليظ الكبد اذا غضب طعن بحربته الصغيرة كلابه دون اشفاق ووقف ينظر بابتهاج الي دمها المتدفق كالانبوب ويزداد سروراً اذ راها تجود بنفوسها

واما الصغير فكان ذا هوس وخيلاء وصلف واعجاب فلا يظهر امام الشعب الا نادراً استعظاماً منه لامر نفسه

وكان الدوق مغرماً غراماً شديداً بابنته فرجيني لفرط جمالها ولطفها

ودلالها وخاف ان هو اسلمها الى امراته الجديدة ان تستعمل معها العنف فعهد بتاديبها الى لويزا فرانسسكا احدى محظيات امها ازابلا

ولا نكر صناً بالحقيقة ان ما اوتيه هذا الدوق من النصرة والتوفيق في فواتح حروبه كان مرجع الفضل فيه الى اخيه الامير كارلوس الذي كان يضارعه في الشجاعة والباس ويحاكيه في بعد الهمة

وكان هذا الامير حكيماً سديد الراي كريم الشمائل مولعاً بالمغازي والغارات موفقاً لم يخفق في غزوة ولا توجهت عليه هزيمة وكان من عادته ان يصحب زعماء الاحزاب مثل فسينو كان وجاك ولفرم وترزو ويخف معهم الى القتال فيحقق لهم النصر ببسالته وتضاعه من فنون الحرب حتى طار ذكره وطأطات له الابطال وجميع الزعماء كتف الطاعة

الا ان شهرته وذائع صيته ومآثره طمستها الايام واسدل عليها الزمان برقع النسيان بعد اذ احتال له اعداؤه فقتلوه مسموماً على ما سيجي في عرض هذه القصة فلم يخلد له التاريخ ذكراً كما وقع لكثيرين من افراد هذه الاسرة الذين ماتوا سماً ولم يعقب هذا الامير الا ولداً من امرأته بياتريس التي ماتت وجداً عليه وتركت هذا الولد صغيراً لم يبلغ العاشرة من عمره فاحتضنة عمه الدوق جان غلياس وعهد بتاديبه وتثقيفه وتقويمه في العلم والفنون الحربية الى كاتم سر ابيه ورفيق اسفاره وحروبه لويجي رودلي الملقب بالحكيم لاصابة رائه وغزارة فضله وسعة معارفه وخفي مداخله فابدى اليه من التحفظ والعناية بهِ ما ليس بالامكان ان يكون احن منه وأرأف ولأمرٍ تخوف منه على كاميل ابن سيده ابتدر المفر من بلاط الدوق عمه الى مونزا وبنى هناك

قصراً واقام فيه معه ثم لحقت به امرأته لويزا فرانسسكا مع فرجيني ابنة الدوق التي عهد اليها ادبها فراراً بها من وجه خالتها كاترين ويسكونتي

فألف كاميل فرجيني وكلاهما طفلان يلعبان واقاما في ذلك القصر امداً من الدهر وهما كالفي حمام او غصني دوحة لا يمتلك الواحد عن صاحبه قعوداً وصارا كلما ازدادا نمواً زاد الحب نشأة حتى اذا شبا صار ذلك الحب والاسترسال عشقاً وغراماً

ثم لما اشتدت اوصال كاميل ومهر في الطعن والقتال جعل عمه الدوق يبعثه من زعماء الاحزاب الى المغازي وميادين القتال فظهر منه من الشجاعة وشدة العزيمة ما لم يكن في الحسبان ولم يلبث ان علا من ساماه واصبح بطلاً لا يشق غباره ولا يثني في الحرب عنانه فاحبه عمه لذلك حباً شديداً ورفع شانه واعلى منزلته على ولديه ورغب فيه عنهما

ولما اقتتل هذا الدوق مع روبر امبراطور المانيا الذي زحف بجيشه الى لمبارديا هجم في موقعة ٢١ اكتوبر واحد من الاعدا على الدوق وقد بانت له غرته ورماه بنصل كاد يخرق صدره فتلقاه كاميل من الهواء بساعده نخرقه ونجا عمه فزاده ذلك به شغفاً فقربه منه واكرمه بلقب كونت دي لودي ووعده ان يعقد له على ابنته فرجيني التي نشأ معها وصار يعهد اليه امرة الحروب وينتدبه الى كل امر خطير

فكان ذلك داعية الى حنق ابن عمه جان ماريا وتخوف منه ان يتولى مكان ابيه وتفضي نوبة الملك اليه بعده فجعل يترصد غفلته ليغدر به حسداً منه وعملاً بوصية البارون بريفارا محظي امه كاترين الذي كان يوغر صدره

على كاميل ويستفزه الى قتله حتى لا يسلبه عرش لمبارديا

الفصل السادس

﴿ مونزا ﴾

هي بلدة على مسافة من ميلان قد احدقت بها الحدائق والرياض والخمائل والغياض ناضرة المروج زاهية الحقول سهولها محروسة اريضة قد فرشها الربيع ببساطهِ السندسي وكساها بمطارف زهره وخضرتهِ تنساب فيها جداول من نهر ادّا يخالها الناظر اليها قطعاً من الفضة يموجها النسيم في تلك البقع الخضراء وفي ربض هذه البلدة قصر فاخر محكم الاتقان يالفه النظر لجمال شكله ويحن الى سكناه من لذ له عيش البوادي وتعشق مظاهر الطبيعة وهو فسيح الحجرات والمقاصير كثير الشرفات رحب المدخل وله باب اشبه بقبة النصر تجري من امامه جداول من الماء الزلال بمجار فرشت جوانبها بالبقل والعشب الاخضر وارضها بقطع صغيرة كروية من الحصى البيضاء وهناك بحيرة ماؤُها صافٍ يلمع كالمرآة وعلى ضفافها قبب كالهوادج غطتها اغصان الدوالي والياسمين والنبات الزاهر الملتف وتدلت من فوقها على البحيرة وقد اصطفت على اطرافها اشجار ومغروسات ذات نشر وثمرٍ على اختلاف انواعها وكلها قد توشحت بوشاح زهرها على تباين الوانه من ابيض يقق او اصفر فاقع او احمر قاني

وقد احاطت بالقصر احاطة الهالة بالقمر حدائق دب عذار شقيقها

وآسها وصبغ الحياء بنفسجها ومنثورها وتفتحت عيون نرجسها واحمرت وجنات وردها واخضر عودها ونيلوفرها واشرقت محاسنها من كل صوب فلا ترى الا بلابل تخطب على منابر الاغصان وطيوراً تتلاعب في احواض وبحيرات الماء مغرّدة ترقص على خرير الماء القراح

وكان يرى في حديقة ذلك القصر قبل ان تبزغ شمس اليوم الخامس من شهر حزيران في سنة ١٤٠٢ صبية معتدلة القوام لينة الاعطاف تخطر بين اشجار خيل من انحنائها انها تخر سجداً لقدها المياس وتختال بين الرياحين التي كانت تلاعبها النسمات السحرية فتتمايل كأنها تطاطئ رؤوسها ترحيباً وتأهيلاً بسلطانة الجمال وهي فتانة الالحاظ سوداء العيون تراش باهدابها السهام قد حكى بياض جبينها لون ذلك الصباح تحت ليل غدائرها المضفورة على شكل دوائر تضمها ربائط من الحرير وعقود من الدر محبوكة على شكل الازاهر وقد حف بعنقها الذي فضح اعناق الغزلان عقد من اللؤلؤ الناصع البياض فوق طوق قميصها الحريري المعلم

وكان عليها ثوب من المخمل المنقوش علقت عليه ازرار من ذهب وفي صدرها سلسلة من ذهب ايضاً قد شكت فيها حجارة كريمة والتفت على خصرها النحيل وعلق الى طرفها مروحة مغشاة بالذهب

وما لبثت تمشي وتبسم للزهور عن ثغر كأنه الاقحوان وتقطف في كل برهة زهرة فتشم نشرها بانفها اللطيف القائم بين روضتي وردٍ من الخدود· بيد ان من كان يبصر بها وهي تجني الزهور وتتأمل في فرائد الندى المنثورة من ايادي الغمام مكللة تيجان الرياحين وتلاعب البط والاوز السابح في الماء

يخال له لاول وهلة انها خلية البال والقلب لا يشغلها الا تغريد الاطيار وخرير الماء القراح فيحسدها على تلك النعمة السابغة ويتلهف الى استنشاق اريج تلك النسمات التي تهب سحراً فيتضوع الجوُّ من نشرها العطر الا انه لو امعن النظر في تلك الصبية لاستبان له قلقها وحزنها وملالتها لانها كانت تقف كل برهة حاسرة الرأس مسلوبة الحواس تتوزعها الفكر ثم تلتفت الى الطريق العام البين الاعلام والدمع طافح في محاجرها تترقب قدوم شخص عليها اعياها انتظاره ولم يكن الزهر والشجر والماء والبلابل والروابي الخضراء الاصطناعية ذات الخمائل الرائقة لتسري همها بل تزيدها وجداً وتنقصها صبراً . وبعد فترة القت بنفسها على احد المقاعد الديباجية بازاء بحيرة ماء وجعلت تحدق في الطريق الواضح المنهج الظاهر المنار ولما لم ترَ فيه احداً تناولت من كمها طرساً مكتوباً وجعلت تقرأه وكلما اتت على عبارة منه تضطرب اوصالها ويبرقعها الاصفرار وتخاطب نفسها قائلة ياللحماقة أأدس السم لحبيب احبه اكثر من نفسي . . . . . لا غرو ان جان غبي احمق . . . . اما درى ان قتل نفسي اسهل عندي من تحاملي على حبيبي بسوءٍ . . . . يتهددني ويتوعدني ان لم امتثل لامرهِ وآخذ به فليطبخ احمض ما عنده . . . . باطلاً يجهد جهده ليكرهني على الرضى بابن بريفارا الذي هو اشبه بابيه في اللؤم . لا لا احول عن حب كاميل فان اليه مال قلبي وصبا

وبعد ما فرغت من قراءة الرسالة خبأتها في جيبها وتناولت زهرة من الورد وشرعت تنثر اوراقها فعل من غلت نفسها واضطربت وذهب منها

الصبر والجلد ومن قد بلي بالحب يوماً لا يلوم فرجيني ابنة الدوق جان غلياس اذا رآها على تلك الحال بعد اذ علمت بوشك قدوم حبيبها عليها ليودعها ويرحل عنها بعد ذلك الى الحرب وميادين القتال وهي لا تستطيع عنه قعوداً ولا تطيب لها الاقامة في ذلك القصر من بعده

لان فرجيني بعد ما نشأت في ذلك القصر مع كاميل واقامت به معه اياماً هي الذ واشهى ايام العمر لم تشأ بعد ما شبت ان تغادر هذا القصر لانه كان مرتع مسراتها وحبورها ومهد طفوليتها وكل ما فيه يجدد ذكرى اويقات نعيمها وغبطتها بأليفها وخلودها اليه وهي خلية البال من اتعاب وهموم الحيوة الدنيا فوجهت اهتمامها الى تحسين بنائه وغرس خمائله بالاشجار والرياحين وزينته بكثير من ضروب النقوش وعجائب الاشكال والتصاوير والانية الذهبية والفضية والخزفية والتحف الجليلة والبقايا الثمينة ونقشت على جدرانه صوراً من الانسان والحيوان مختلفات الاشارات والهيئات فمن ملوك وجنود وحصارات ومعارك ومشاهد صيد وابتاعت ما في ضواحيه من الآكام والخمائل وعهدت الى المؤدب ان بالمغروسات اذ كان له ارتياح الى ذلك وجعلت في كل سنة تصرف فصل الشتاء في بلاط ميلان بالقرب من ابيها وتنتظر بفارغ الصبر انقضاء المدة حتى تعود الى القصر فتقيم به مع كاميل يتنزهان في حدائقه ويتصعدان الجبال ويصيدان في الغابات الى انقضاء الحول

فلما بلغها هذه المرة رحيل كاميل عنها كبر عليها فراقه فخرجت في ذلك اليوم الى الحديقة قبل شروق الشمس تنهنه دموعها حتى لا تراها

مؤدبتها وجعلت تنظر الى الطريق تترقب قدومه عليها

وبينما هي متكئة على مقعد الديباج تنثر اوراق الورد على ما اشرنا سمعت خفق اقدام ومنادياً باسمها فالتفتت متهيبة فرات مينرفا ابنة لويزا مؤدبتها التي ربيت معها واقفة بازائها تنظر اليها بدعة وحنو فقدمت لها وجهها فاسرعت الفتاة وقبلتها بلطف ثم نظرت الى وجهها فوجدتها باكية والدمع لا يزال يجول في عينيها فقالت لها وفي صوتها رنة من الحزن

ـ ما بالك يا مولاتي باكية والدمع يتلألأ في عينيك فهل ترغبين ان تستقبلي كاميل بمثل هذا البكاء والحزن وهو عن قليل سيقبل اليك بطلعته الوضاحة

فصوبت فرجيني نظرها في الطريق وتنهدت وقالت ما اراها الا خالية فهل تراه عدل عن وداعي او قطعه احد عني

ـ مهلاً يا سيدتي فالساعة لم تقرع السابعة بعد

ـ واين غادرت اباك

ـ في القاعة الكبيرة يتهيأ لاستقباله فيها واما انا فقد هيأت له اطباق الزهور وكبوش القش التي يحبها سيدي الامير كثيراً واسرعت في الاتيان اليك فما بالي اراك باكية

ـ تسألينني عن بكائي وكاميل منطلق في الغد الى ساحات القتال ومنازلة الفلورانسيين لقد ظننتك ترثين لحالي يا مينرفا اذ ترين معاندة الايام لي في قرب حبيبي

ـ قد اخبرتني بذلك امي ليلة امس فبكيت كثيراً اشفاقاً عليك

يا حبيبتي فرجيني لاني ادركت ما سيداخل قلبك من الهم والحزن بسبب ذلك ولكني ما لبثت ان فكرت في الشرف العتيد ان يناله كاميل اذا اعين بنجحٍ ووفق الى الغابة على الاعداء فزال كل ما بي من الجزع

ـ لو كان لكاميل ام لما رايته ِيلقي بنفسه كل يوم في المهالك المتلفة والمواضع المجحفة ولكني لست اماً بل حبيبة وقد قدر للمحبين العذاب

ـ اتلومين كاميل يا سيدتي وهو غير ملوم فما حيلته وقد ولاَّه ابوك امرة قتال الفلورانسيين ليدوخ بلادهم ويدعوهم الى طاعته والاذعان لدولته وانى يتفق له مخالفته وعدم الامتثال لامره وطاعته

ـ ويلاه أَفي كل يومٍ طعانٌ وقتالٌ ووداعٌ وفراقٌ

فيا ليتنا دمنا صغيرين عمرنا ويا ليت لم نكبر ولم نعرف البعدا

ـ لا تغالبي الاقدار ولا تلجي في معاندة الايام يا سيدتي واعلمي ان الدهر عدوٌّ شديد لا يرد باسهُ وغضبه مثل الخضوع له الا ترين الى الحشيش كيف يسلم من عاصف الريح للينه وميله معها حيث مالت وقد قيل لا يغلب الايام الا من رضي

ـ اني عللت نفسي بقربه امداً طويلاً بعد استرجاع بولونيا وما كدت اصدق بعودته من حربها حتى قوضت الايام برج آمالي وستلفظه الى اراضي فلورانسا البعيدة

ـ كانكِ تأنفين من لقاه غداً مظفراً منصوراً او تكرهين مرآه حين يعود مكللاً بالغار مثقلاً برايات النصر واعلام الغابة

ويلاه ومن يضمن لي ولهُ العود والبقاء ومن يعلم ان كان لا يعرض

لهُ عارض سوءٍ يغتاله

قالت هذا واجهشت في البكاء وبكت معها مينرفا وبينما هما في ذلك اذا بالخدم تنادي اقبل الامير

فاجفلت فرجيني وابرقت اسرة جبينها وتورد خداها وانتعشت قواها وهبت من مكانها تريد ان تتقدم الى استقباله فامسكتها مينرفا وقالت لها

ـ رويداً يا سيدتي واجلسي غير مامورة فان والدي قد امرني ان اخبر نعمتك انه يريد ان يخلو بالامير قبل ان تجتمعي به ويسألك المهلة في ذلك ريثما يواجهه بامر خطير يرجع اليك واليه نفعه

فعادت فرجيني الى مكانها وجعلت تحدق بصرها بمدخل القصر حتى صارت كلها عيوناً

الفصل السابع

﴿ الزائر ﴾

ولم تكن الا فترة حتى اشرف على القصر شاب على صهوة جواد كريم ترفل الحمائل الذهبية على عدته من امام ومن وراء وعلى راس ذلك الشاب خوذة في اعلاها ريشة من النعام ناصعة البياض معكوفة كالقوس الى وراء ظهره وثوبه من الحرير القائم قد شد الى صدره بازرار من الذهب والتف على ساقيه حتى ركبتيه وربطت فيه جواربه الحريرية بربائط الاطلس على شكل الوردة وقد علق في حزامه حسام اشبه بالنصلة قبضته من العاج

المنضض بالحجارة الكريمة وعلى كتفيه وشاح من الحرير المعلم بالذهب وهو في زهوة الشباب وثيق الاركان مندمج المفاصل ذو قوام كالرمح ووجه مستدير كالقمر وعيون كاعين النجل بلحظ يشق القلوب قبل الجلود وشعر اسود مسترسل الى عنقه وثغرٍ بسام يزينه شاربان منعكفا الاطراف وعلى محياه سمة المهابة والبشر والانس ووراءه حاجب قد صحبه ولزمه في حروبه واسفاره

ولما بلغ الباب ترجل عن جواده بخفة واقبل يرتقي الدرج فهرع مؤدبه لويجي مهرولاً يستقبله فلم يمهله كاميل ان ينحدر الى اسفل بل اسرع في ارتقاء الدرج وهو يناديه

لا تعني نفسك يا مؤدبي فالشباب خفيف الحركة لا يجمل به ازعاج جلال المشيب

فلما التقيا جعل الشيخ يقبله بكل تلهفٍ وحنو ويبكي ثم اتى به القاعة المعدة له واجلسه على مرتبة من الديباج ونظر اليه وقال

- اني لا القاك مرةً يا ولدي المحبوب الا ويخال لي اني ناظر الى والدك سيدي الامير كارلوس فانك تماثله صورة وحركة واطواراً

- وانا ايضاً لم احرم منك انعطاف ذلك الاب وحنوه فقد كنت لي خير ابٍ واكرم مؤدب ولذا اتيتك لاشكو اليك امري فانا اليوم الى رايك ونصيحتك محتاج ولست اجد بدّاً من الاستعانة بهما على امر نفسي

- قل يا بنيّ ولا تكتمني شيئاً فاني لم اخلُ بك الا لاسمع منك وافشي

اليك سراً طويته عنك زمناً طويلاً

لقد علمت يا لويجي ان عمي الدوق قد اشهر الحرب على فلورانسا

- أجل - وان الكونديتيارية الزعماء وجنودهم ستزحف غداً عليها لمحاربتها ومجاذبتها

- قد عرفت كل ذلك ولست بلائم عمك الدوق على محاولته الانتقام من فلورانسا فهو شديد النقمة عليها وهي مشومة الطالع عليه

- لا تقل ذلك يالويجي فان عمي قد فوَّض اليَّ القيام بهذه الحملة وولاني امرة الجند مع فسينوكان وترزو ودلفرم

- وهل اصرَّ عمك على ان يبعث بك الى فلورانسا

- لقد كان بعزمه ان يبعث بولده جان ماريا ليحنكه في القتال ويعوده على اقتحام الاهوال الا ان امه كاترين ابت على الدوق ذلك وصرفته عن قصده مقنعة اياه ان ابنها غير كفوء بعد لخوض عجاج الحروب واشارت عليه ان يقلدني امرها لان عندي كفاية فيما اقلده فامتثل الى مشورتها وامرني بان اكون على اهبة الرحيل مع الجيش غداة غد بعد اذ كان في نيته ان اقيم ليعقد لي على فرجيني فاتزوجها

ألم تسل امرأة عمك ان تحتال لك في صرف عمك عن ارسالك انت ايضاً الى هذه الحرب التي تتخوف منها على ابنها

- سألتها ذلك فامتنعت عن اجابة سؤلي

فهزَّ لويجي رأسه ولم يتكلم فقال كاميل

ثم ان عمي خلا بي ليلة امس وقال لي يا كاميل اني قد بلوت رأيك

ومروءتك وجربت امانتك ووفاءك وانا واثق بك ان تعرف نصحي وايثاري اياك على ولديَّ فلهذا قد اخترتك للزحف على فلورانسا عدوتنا فتجهز فاني مرحلك اليها مع الزعماء والجيش لكي تشدد عليها الحصار حتي تخرَّ بين يديك فتنسفها من اسسها وتدكها دكة لا تقوم بعدها وتطلق يدك في اهلها فانك ان فعلت ذلك اوليتك من اموري جسيماً . ثم وعدني ان يزفَّ اليَّ فرجيني بغد عودتي وان .....

قال المؤدب وبمَ وعدك ايضاً

فتبسم كاميل ولم يتكلم

فقال لو يجي تكلم يا بني فقد يكون الذي يضحكك يبكيني

قال كاميل ووعدني ان يعهد اليَّ بشطرٍ كبير من المملكة استقل في حكمه اذ ليس في ولده من يضطلع باعباء الملك

فلاحت على وجه المؤدب لوائح الكآبة والشجن فنكس رأسه وغاص في لجة الفكر ثم قال

- هل لم يكن في القاعة التي خلا بك فيها من يسمع حديثكما

- ان لم يكن غير حيطان الغرفة فلا

- وهل كلمك بالمبارزة التي دعاك اليها بريفارا

- لم يكلمني بها حتى لا يقول ما يوجعني وما يكره من ذلك اذ قد بلغه عني اني كنت شديد الرغبة فيها وانه لو لم يتهددني و يتوعد بريفارا بالنفى قبل وقوعها لبارزته واتلفت نفسه

- هل سألت الدوقة كاترين عن الاسباب التي الجأتها الى ايصال

خبر هذه المبارزة الى عمك الدوق وهل كان ذلك اشفاقاً منها عليك ام خوفاً علي حياة محظيها بريفارا

ـ لم يجرِ في ظني انها هي التي انبأَت الدوق بذلك

ـ كما لم يتصور في وهمك ان بريفارا دعاك الى المبارزة لغير الامر الذي ظهر منه فقد ظننت انه نقم عليك حبك لفرجيني وتوهمت انه يريد مبارزتك حتي يزفها الى ابنه

ـ ان لم يكن لاجل هذا فلاي امر اذن اراد مبارزتي

ـ لتحقيق امانيه واماني كاترين في الملك الذي تزاحمها عليه لان بريفارا مذ ادرك ان عمك يريد ان يعقد لك على فرجيني ويوليك ولاية بافي تخوف علي الملك ان ينتهي امره اليك بعد وفاة الدوق عوضاً عن كاترين وتصبح عترة الملك في خطر فدعاك الى المبارزة ولكن كاترين لخوفها ان يغلب صدته عن عزمه ووعدته ان تمنع اقترانك وان تحتال في ارسالك الى فلورانسا لتلقى هناك مصرعك ولقد كان في عزم بريفارا ان يبعث بجان ماريا اولاً وسأَل امهُ في ذلك ليريح قلبه منه لكن حنوها تغلب على عشقها هذه النوبة فلم تجد بابنها بيد ان جان ماريا ما برح ناعم الظفر يتلاعب به بريفارا كيف شاء او ليس هو الذي يوغر صدره عليك ويأتمران بك كما ائتمر بريفارا وكاترين على قتل ابيك من قبل

ـ اهما اللذان قتلا ابي صاح كاميل وقد تفجرت عيناه غضباً

ـ قد ازف الزمان يا بنيَّ لافشي لك السر الذي دفنته في صدري منذ عشرة اعوام فان الاحوال تلجيء لان لا اكتمه بعد

ـ قد اشتد بي الامر وبيل صبري فتكلم يا لويجي وقل لي من قتل ابي وهل لم يمت مسموماً

ـ اواه ياولدي اني اكاد افقد رشدي كلما خطرت على بالي تلك الحوادث المريعة ويخونني دمعي في جريانه كلما ذكرت ذلك فان والدك قد احتالوا له وقتلوه مسموماً وفجعوني به ولما لم يستطع المؤدب لنفسه ضبطاً جعل يبكي وينتحب ولبث كاميل في اشد الدهش والجزع ينظر الى دموع ذلك الشيخ التي كانت تفيض من مقلتيه فتبل خديه ولحيته البيضاء كفوارة انفجرت من ارض محجرة فسقت ما حولها من العشب اليابس وبعد فترةٍ استتلى المؤدب حديثه وقال هو يكفكف دمعه

ـ اعلم يا بني انه بعد ما فرغ ابوك الامير كارلوس الشجاع من غاراته ومغازيه ودوخ جميع الممالك المجاورة فعنت لسلطان عمك وخضعت له التمس منه ان يختصه بولاية بافي ليجعلها مباءة له ولك من بعده فاجاب عمك ملتمسه فلما بلغ كاترين وبريفارا ساءهما الامر واكبراه لان الدوقة كانت تطمع بنيل الملك بعد رجلها والبارون كان يتهالك على تحقيق اطماعها واماها ليتولى معها على البلاد توليه على قلبها ووجدا ان تملك ابيك ولاية بافي سيهدم صرح رغائبهما ويقوض ابراج امانيهما ولخوفهما ان تشتد شوكته ويهب بعد وفاة الدوق فيغتصب الملك لنفسه سعيا في هلاكه وتسنى لهما ذلك عفواً

ـ ويل لكاترين وبريفارا

ـ تجلد يا ولدي ودعني القي اليك حديثي الذي لم اقصد به تحميلك

على كاترين و بريفارا ولكني مخبرك به حتى تاخذ حذرك وتحرس غفلتك منهما اذ قد صار اهتمامي بما اتخوف من احتيالهما لك بمكرهما ودهائهما حتى يقتلاك او يفسدا عليك امرك اعظم من اهتمامي بما سلف من ذنبهما في قتل ابيك

ـ اني علمت انه كان بين ابي و بريفارا صداقة ومودة ابرم حبلها ايام كانا يسيران معاً الى الحروب والمغازي

ـ ان البلية لا تكون في الغالب الا من الصديق وان اباك لو لم ينخدع لمودة بريفارا لما امكن لهذا اللئيم الفاجر ان يغدر به

ـ وما الذي عرفته من احتياله له حتى قتله

ـ ان مجمل ما عرفته ان بريفارا قد اتخذ لابيك وليمة وذلك قبل ان يأتي بافي ولما جلس على الخوان دس له السم في كاس الشراب فتجرعه وكان من ذلك ان وجدوه في اليوم الثاني ميتاً قبالة باب قصره

ـ وهل لم تكن معه يا لويجي

ـ لا يا مولاي فاني كنت قد سبقته الى بافي لاستقبله مع الشعب بمظاهر الاحتفال ففجأني هذا النبأ الصادع فاسرعت الكرة الى ميلان فالفيته ملحوداً

ـ ابريفارا وكاترين هما اللذان قتلا ابي

ـ وهما اللذان فجعاك بذلك النبه العظيم واثكلا امك فماتت من شدة الحزن عليه ولقد عرفت بعد ذلك ان لجان ماريا ومحظيته البارونة لاب يداً في ذلك ايضاً لان كاترين و بريفارا استنبطا الحيلة وهما عملا بها

فلما تدبر كاميل كلام مودبه لم يستطع لنفسه ضبطاً فصاح في شدة حنقه الويل لاولئك الفجار اللئام الذين قتلوا ابي وغدروا به ثم استوى قائماً وجعل يراوح بين طرفي القاعة واوصاله ترتعد والمؤدب حاسر الراس مطرق بالارض لا حراك به

وبعد لحظة احتدم كاميل احتداماً فجعل يزأر ويتسخط على اعدائه ويضرب الارض برجله ويصيح من فوادٍ كليم قائلاً لا بد لي وتربة اجدادي ورب السماء من ان اجرع بريفارا اللئيم وكاترين الظالمة كأس السم التي شربها ابي ولست بعائش ان لم ارهما يجودان بآخر نفس من انفاسهما الخبيثة

ايموت ابي من ايدي اولئك اللئام الغادرين وانام قبل ان اثأر به واقتل قاتليه وانكل بهم تنكيلاً

فلما رآه مؤدبه على تلك الحال قال له سكن منك ما جاش يا بنيَّ واعرض عن الثار فليس هذا وقته وليس ينبغي لك الان الا توقي المهالك والمتالف لئلا تسعى في حتف نفسك واعلم ان اعداءك يريدون ان يوقعوا بك فان جان ماريا قد بعث بالامس الى فرجيني كتاباً يطلب اليها ان تدس لك السم حينما تقدم عليها ويتوعدها ان خالفته في ذلك وهي سوف تخبرك عنه

ــ ايحاول هذا الغر الاحمق قتلي كما قتل ابي من قبل ويستخدم لذلك اعز الناس عندي

ــ استفد يا بني من هذه الحوادث لتعلم منها كيف يجب ان تحاذر

اعداءك وتحترس من مكائدهم

ـ اني ساموت كمداً اذا لم اشتف بقتل بريفارا وكاترين وجان ماريا ولاب الذين هم ثاري اذ ليس احد يعلم بما في نفس الموجع الحزين الا الذي ذاق مثل ما به واقسم انه لو لم يسبق مني وعد لعمي في مباشرة هذه الحرب لعدلت عنها الى الاشتغال باعدائي لان النصر اذا اصبته على الفلورانسيين لا يغنيني عن ذلك شيئاً

ـ انك لم تذق من الايام الا حلوها فانت مديون لها به وسوف تتقاضاك دينها قبل ان يأزف الزمان الذي فيه تستطيع ان تنتقم من اعدائك وتبلغ مناك

ـ هل عرفت يا لويجي في اي يوم مات ابي وفي اي مكان

ـ عرفت ان تلك الحادثة جرت في ١٦ ايار ليلاً من سنة ١٣٩٢ الا اني جهلت المكان الذي أَولم له فيه بريفارا وليس احد يعرف الخبر اليقين الا خادم ابيك بطرس تولومي الذي صحبه في تلك الليلة

ـ انك لم تذق من الايام الا حلوها فانت مديون لها به وسوف تتقاضاك دينها قبل ان يأزف الزمان الذي فيه تستطيع ان تنتقم من اعدائك وتبلغ مناك

ـ هل عرفت يا لويجي في اي يوم مات ابي وفي اي مكان

ـ عرفت ان تلك الحادثة جرت في ١٦ ايار ليلاً من سنة ١٣٩٢ الا اني جهلت المكان الذي أَولم له فيه بريفارا وليس احد يعرف الخبر اليقين الا خادم ابيك بطرس تولومي الذي صحبه في تلك الليلة

كاترين وبريفارا وجان ماريا ولاب قد دسوا لي سماً فقتلا .... ولكن هذه الكتابة قد بعثرها رجل كان يتبعه من المكان الذي سم فيه فلم يرَها احد والظاهر ان اباك قد قطعه الالم عن الوصول الى منزله ليخبرَ عن قاتليه نخط على التراب هذه الكلمات التي عاجله الموت قبل اتمامها

ــ والهفاهُ عليك يا ابتي

ــ اعرفت بعد هذا يا كاميل ان افراط عمك في تقريبك منه ووعده لك في ان يختصك بالملك او بشطرٍ منه مما اتخوف عليك منه لانه داعية الى اشتداد نقمة اعدائك عليك فيجتمعون على هلاكك كما اجمعوا كيدهم واتفقوا كلهم على قتل ابيك فان كاترين وبريفارا كانا يحاولان ايصال الاذية اليك وانت طفل تلعب فما يفعلان اليوم وقد اصبحت ذا سلطان وغلبتهما على منزلتهما ووليت من امور عمك جسيماً وازداد عجباً بك ورغبة فيك

ــ ارى ان خوفهما قد بلغ من قلبك كل مبلغ يا لويجي وهما اضعف عن ان يقدرا عليَّ فاني لست ممن يقتنص بالهوينا

ــ ان اغلظت في القول فلا تلمني يا بنيّ فانك لست تعرف ضرك من نفعك اليس هما اللذين قتلا اباك وانزلا بك بعض الشرفان اقترانك بفرجيني كان على قاب قوسين او ادنى فمن قطعك عنه اليس كاترين وبريفارا او من جعل عمك يعزم على ارسال الى هذه الحرب اجبني يا كاميل فقد قلت انهما اضعف عن ان يقدرا عليك وانك لست ممن يقتنص بالهوينا

فلبث كاميل ساكتاً حزيناً فقال له المؤدب

— لا تحزن يا بنيّ فان الحكيم اذا نزل به الامر لم يدهش بل يستخرج من كل مضرةٍ نفعاً واعلم ان الضر الذي تعمدا ان يصلا اليك به قد انقلب نفعاً

— وكيف ذلك

— لان كاترين وبزيفارا قد تعمدا هلاكك في ترحيلك الى حرب فلورانسا وقد يكونا هما اللذين وسوسا بذلك الى الدوق لتستريح الاولى مما يريبها منك وينال الثاني فرجيني لابنه اذ يستحيل عليه ذلك وانت حي لما يعهد من غرام فرجيني بك وعدم اقتداره على اكراهها في تركت فلما سمعا ما كلمك به عمك في تلك الخلوة وعرفا انه سيختصك بشطر من المملكة ندما اشد الندم على ما فعلا وعرفا ان كيدهما عليك سيجر اليك نفعاً

— وهل سمعا ما كلمني به عمي

— كما انت سامع مني ما اكلمك به ولو لم ارَ ذلك لما تركتك تزحف على فلورانسا

— قد كان وقع في نفسي ان اتخلف عن المسير اليها ولو ساءَ ذلك عمي حتى لا ابلغ اعدائي ما يرومون مني

— لا يا بني فانك في ذلك تغيظ عمك وتوغر صدره عليك فيشمت بك اعداؤك الذين لولا خوفهم منه لما ابقوه عليك ساعة فسر الى هذه الحرب وابلِ البلاء الحسن فان في صحبتك جميع الزعماء والابطال نظير فسينو كان وشارل ملاتستا ودوبين فيحققون لك النصر الذي ارجوه لك ومتى

عدت ظافراً منصوراً ردَّ كيد اعدائك في نحورهم وامكن لك ان تثأر بابيك وتبر اليمين التي اقسمتها وتأخذ فرجيني لك عرساً اما تسلق عرش ميلان او الاستقلال في مملكةٍ من ممالك لمبارديا بعد وفاة عمك فلا تطمع به يابنيَّ فانه يورثك الهم ويصل اليك منه الاذى والخوف ثم لا تنال منه الا البلاء والشقاء كسباً ومالاً

ـ اني اسمع منك كلاماً يدلني على انك توثر لي الذل والخمول والضعة وتقصد الى تعجيز همتي بما تقول مع اني لا اكتمك اني راغب في المعالي الخطيرة والاقدار الشريفة والمراتب السنية لاصعد الى فروع العز وطامعٌ في الملك ومقاتل لنيله ومحاول جهد استطاعتي فيه اتجشم لاجله الاخطار فكيف تردعني وتلفتني عنه

ـ ان هذا الامر الذي ترجوه يجعل لاعدائك على نفسك سبيلاً ولا يعقبك الا العناء والجهد

ـ ان الكونديتارية من شيعتي وانصاري وهم الكفة الراجحة والزاي معقود بشار سيوفهم

ـ لا تعلل نفسك يا بنيّ بالمحال واعلم ان ظن الشيخ خير من يقين الغلام فانا اكبر منك سناً وقد وقرتني الحوادث وراضني الزمان حتى عرفت من احواله ما ساغ وما اغص وصحبت الملوك والملكات ولزمت اباك عمراً فادركت ان راس الملوك والعظماء مستودع الجزع والهم والفكر وحياتهم العوبة في ايدي الحوادث كريشة في مهب الريح وكما ان الريح الشديدة لا تحطم الا طوال النخل وعظيم الشجر فكذلك الاخطار والمصائب لا تطرق في الغالب الا

كبار القوم لان الهموم على قدر الهمم نخير لي ان اراك زارعاً في احدى قرى لمبارديا من ان القاك ملكاً على عرشها لان القليل من العيش في امن وطمانينة خير من كثيره في خوف ونصب

— اتريد ان اعيش خامل الذكر والجاه وانا في منازل آبائي واجدادي الذين مهدوا البلاد وبنوا الحصون والقلاع وقادوا الجيوش واستكثروا من السلاح والكراع وكانوا في عزة الملك وسكرة الاقتدار فالاشبه بي ان اسلك سبيلهم واتبع اثارهم واتوقل بهمتي الى العلا وانال المجد والسؤدد الذي نالوه قبلي وسوف ترى ما يحل باعدائي من نقمتي وكيف ينصرف الملك اليّ

فقال المؤدب بصوت لا يسمعه الامير تباً لك ايتها الاباطيل الدنيا فانك مطمح ابصار الناس فاليك يسعون ومنك يهلكون ثم استطرد يخاطب كاميل

— اني لا انكر عليك ما تقول يا مولاي فان هذه الشعائر قد ورثتها عن ابيك الذي جرى دمه في مفاصلك وقد بحت لك بالاسرار التي كتمتها عنك لتتقي شر اعدائك لاني شاعر بالاخطار والاهوال التي تتهددك فكن على حذر من بغتاتهم وخذ في صحبتك الى فلورانسا اصحابك الامناء ريكاردوس ومرتينو والفونس وربر الذين يفدونك بارواحهم عند الشدة وواصلني باخبارك لانك تعلم انه لم يبق لي في هذه الحيوة الدنيا سواك من تعزية وسلوى والله يا ولدي وابن سيدي الكريم يؤتيك النصر لتسرع الاوبة الى احضان مؤدبك الشيخ معافى سليماً

ثم ان ذلك المؤدب ضمه الى صدره وقبله ودمعه منهمل على نحره ٠

وقال له سرْ الى الحديقة فان فرجيني تترقب بذاهب الصبر اقبالك اليها

الفصل الثامن

لقاءٌ ووداع

وكانت فرجيني لم تبرح من الحديقة ومينرفا جالسة اليها تحدثها وهي تظهر انها سامعة منها ومصغية اليها ولكن قلبها وافكارها كانت في القاعة التي فيها كاميل حتى كان يخال لها في شدة تصورها انها تسمع صوته وتشاهد حركاته

وبينما هي في مثل تلك الحال اذ ابصرت كاميلَ مقبلاً نحوها من جانب البحيرة فاستوت قائمة واقبلت تعدو نحوه تاركة مينرفا وقد اشرق وجهها فرحاً . وتورد خداها حياءً حتى اذا ادركته القت بنفسها عليه فتقبلها كاميل بين ذراعيه وضمها اليه وقبلها قبلة لطيفة وقال لها

ـ عذراً فرجيني ان كان طال عليك انتظاري فما انا من يقعد عنك لحظة لولا ان شاناً مهماً انيطت به سعادة المستقبل حبسني عنك برهة

ـ قد طال انقطاعك عني يا كاميل وما عهدتك قاسي القلب لاعذرك في عدم اتيانك كل هذا الزمان وانا اترقب قدومك عليَّ ترقب المسهد ضوء النهار

ـ ها قد أتيت

ـ بعد هجرٍ مودعاً

ثم اغرورقت عيناها بالدموع واخذت يده بين كفيها وجلست معه على مقعدٍ هناك وجعلت تلتفت اليه لفتة الغزلان وتنظر اليه نظرة المتيم الولهان

فلما بصر كاميل بدموعها قال لها مالي ارى الدموع تترقرق في عينيك يا عزيزتي وانا لا اطيق ان اراك باكية

ـ انت سائر في الغد الى سوق المنايا التي تباع فيها الارواح بيع السماح وتسألني عن ادمعي وبكائي

ـ سوف اعود منها باذن الله مظفراً منصوراً واعجل الاوبة اليك لاتقبل من يدك اكليل الغار الذي تعممين به رأسي فكفكفي الدمع ولا ترهني عواطفك ودعيني اسير الى فلورانسا قرير العين ناعم البال

ـ رباه اذن لا مناص من هذه الحرب ولا بد من هذا الفراق واسوء حظي انا التعيسة فاني لا اراني اتجاوز عقبة من البلاء الا صرت في اشد منها فالى كم اصبر قلبي على ما لا يطيق عليه صبراً واجمله ما لا يطيق له احتمالاً

ـ لا تضجي يافريجيني فانك لو علمت ما تعقب هذه الحروب من حسن العاقبة وكثيرلي ولك لحرضتني عليها فانها تنيلني ملكاً استقل به معك وتجمع لي ولك شملاً لا ينصدع واصيب بعدها غرة اعدائي واسحق ذكرهم

ـ اني لا اراها تؤدي الى خير لان هذه الحرب ستصرم حبل حياتي وتفرق بيني وبينك امد الدهر فاني ان لم امت حزناً مت جزعاً

عليك من ان يصيبك مكروه

ـ اني لا اتخوف من هذه الحرب تخوفي من بريفارا ان يغتصبك لابنه فرنسوا بعد رحيلي عنك

ـ تباً له من احمق مغرور فاني انقم عليه تصوره ان ابنة ايزابلا ترضى بابنه عرساً لها ان مر ذلك في وهمه

ـ انه سوف لا يدع جهداً الا ويبلغه في ذلك حتى اذا لم يستطعك بنفسه احتال لك من قبل غيره واخاف من خالتك كاترين واخيك جان ماريا ان يحققا آماله ويبلغاه ما اراد فاكون انا في فلورانسا اصارع المنون والتقي بصدري الرماح بينما تكونين انت رافلة في الدمقس وفي الحرير لاهية بالحبيب الجديد ومتشاغلة بافراح الزفاف عني

ـ ما هذا الكلام الذي تحدثني به يا كاميل اهذا هو وداعك لي ام ذا دلال على قلبي . الا تعلم ان الخنجر اقرب الى قلبي من يدي وعهدي ان اعطيهما الى احد سواك طوعاً ام كرهاً اظننت ان القلوب بضاعة تباع لمن يزيد في ثمنها او جهلت ان فرجيني التي درجت معها في عش واحد لم تنشر لفلك فوادها شراعاً الا على هبوب هواك

ـ ان كاترين وجان ماريا و بريفارا لا يستطيعون صرفك عني ما دمت حياً لكنهم قد اجتمعوا على هلاكي لوهمهم انك بعد موتي توافقينهم الى ما ارادوا من قبولك بابن بريفارا عرساً الا ترين كيف ان كاترين قد سعت بخروجي الى هذه الحرب حين عرفت ان من نية ابيك اقرانك اليَّ وهي مرحلتي الى فلورانسا لالقى هناك مصرعي

ـ انها تروم من ذلك مراماً بعيداً وترجو امراً مستحيلاً وان تناول النجا بيدها لاقرب اليها من ان تقدر على قطعي عنك فانت وحدك من الدنيم نصيبي ولست ارغب في الحيوة الا حباً لك فان عاندتني فيك الايام او عاجلك قبلي اليوم المحتوم جعلت القبر لي عرساً وسبقتك اليه لازين لك مدخله .

وكانت فرجيني تتكلم والدم يتصعد الى وجهها وصوتها يخفض وينبر ونفسها يربو ويخفت والعرق كحباب الندى يكلل جبينها والدمع يبدو في عينيها ويختفي ولما انتهت القت رأسها على صدره وبكت

فقال لها كفي البكاء يانور عيني وامسحي هذه الدموع فانها كجمرات نار تحرق قلبي

ـ دعني اردد دمعي ياكاميل فاني مشعرة بويل خفي يتهددنا وسامعة صوتاً من اعماق قلبي ينذرني ان لا لقاء بعد هذا الملتقى

ـ ان ذا خوف وجزع

ـ ومن عساه يلومني على جزعي وقد علمت ان اعداءك يأتمرون بك ليقتلوك وربما لا تقدر ان تمتنع وتحترس منهم فقد انفذتك الدوقة كاترين الى حرب لا يطفى سعيرها والبارون بريفارا يترصد غرتك ويستفرص الفرصة ليوقع بك وجان ماريا الجاهل المغرور الذي لا اريد ان يدعى لي اخاً يطلب مني ان ادس لك السم حين قدومك عليّ وذلك في كتاب بعثه اليّ يوم امس ثم يتهددني ويتوعدني ان انا خالفته ولم اتوخ موافقته بما اراد

ـ ايرجو ابن كاترين ان توافقيه على قتلي

ـ لا شك الا انه تعمد في هذا الكتاب امراً غير الذي يظهر منه والا فاي شيطان استفزه واغواه حتى اقبل به الى هذا الغرور وهو يعلم اني اوُثر الموت لنفسي عن ان اصل اليك بسوء

ـ اني التمس منك هذا الكتاب فادفعيه اليَّ

قالت فرجيني عن غير تدبر اني لا ابخل به عنك ثم كأنها فطنت للامر الذي يريد به منه فعلا وجهها الاصفرار ووقفت حائرة لا تدري ماذا تفعل

ـ ما بالك يا فرجيني واي امر نزل بك

فصاحت فرجيني كاميل بحقك لا تسربلني العار فاني عرفت ما تعزم عليه

ـ اي امر رايك من التماسي الكتاب

ـ انك تروم ان تدفعه الى والدي لينتقم لك من جان ماريا شر انتقام وعدل جان غلياس يحمله على قتل ابنه دون ان تعطفه عليه رحم فان انا اجبتك الى ما تريد كنت الساعية به الى حتفه وهذا فعل يشينني ويطوقني العار

ـ اي عار عليك في ذلك

ان عزة نفسي ومروءتي تكره ان يموت اخي او اموت ويبقى من الناس من يقول ان فرجيني قد اعمى بصائرها العشق ودخل منها مدخلاً غلب على عقلها فجعلت دم اخيها ضحية حب حبيبها فان ذلك عار لا يمحى اثره وضعف لا يكفر عنه مال ولا دم وعهدي بك ان تمنعني عنه لانك لا ترضى

ان افعل فعلاً ينكس مني الابصار

ـ لله انت يا فرجيني ولله درك ما اكرم شمائلك واشد مروءتك ونخوتك فقد رأيت رأيك واعاهدك قسماً بحبك ان لا اتخذ ذلك الكتاب سبباً الى ضرره ولا ذريعة الى ايصال الاذية اليه

فلم يتخالج فرجيني في كلام محبها شك فاخرجت الكتاب من كمها ودفعته اليه دون تردد وقالت له

ـ ها قد دفعت اليك عدوك فاحرص عليه

فلم يجبها كاميل بل تناوله من يدها وعقد ذراعه على قامتها الهيفاء واتكأت هي على كتفه واقبلا يتمشيان في جوانب الحديقة وهما ساكتان حتى عرض لهما في طريقهما صخرٌ ينفجر منه الماء كانبوب ويصب في حوض من المرمر الابيض فذكر مرآهُ فرجيني بايام الطفولية فوقفت امامه وقالت

ـ اتذكر يا كاميل اذ كنا نغتسل في هذا الحوض جميعاً كيف كنا نلعب ونمرح كفرخي قطاة خاليي البال آمنين من النوى وبوائق الايام فمن ظن وكلانا طفلان سابحان في هذا الماء انا سنبلغ الى يوم يروعنا فيه الفراق ويعز بعده اللقاء فنتمنى لو تعود بنا تلك الايام

ـ هذه اطوار الحيوة يا فرجيني فان الطور الاول يقضي في تطلب وتمنى الثاني والثاني في التلهف والتحسر على الاول اذكري ونحن ولدان اوقات جلوسنا على متكأ في ظل هذه السنديانة بعد اذ كان يعيينا التعب وشديد الحرّ كيف كنتِ تتوسدين ذراعي وانا اقص عليك الحكايات الجميلة ثم ابوح لك بما كان يهجس في صدري من تمنيات الطفولية وامانيها واعرب

عن رغبتي الشديدة في صيرورتي اميرًا كبيرًا ونبهاً عظيماً ليمكن لي ان اجعلك اميرة سعيدة فها اني لما بلغت الى هذا اليوم الذي تمنيته اصبحت اتلهف فيه على ذلك الزمان الذي مضى

ـ تعال يا كاميل نجلس في مكاننا في ظل السنديانة المشرفة على الغابات والربى والبطاح فانها تذكرنا باطيب اويقات العمر وربما لا يتسنى لنا بعد هذه المرة اجتماع ثم جلسا جميعاً وجعلا ينظران الى السحاب الذي اقبلت به الريح ومزقته قطعاً مارًّا فوق الغابات معمماً رؤوس الادواح و ينزهان الطرف في تلك السهول والوهاد التي وشحها الربيع ثوباً مدبجاً باصناف النبات وفي ما هنالك من المراعي التي تسقيها الينابيع وقلب كل منهما يشغله الحب والتذكار والخوف والرجاء وهما ساكتان تتردد انفاسهما مع هبوب النسيم اللطيف الذي كان يقبل ازهار الرياحين و يصافح اوراق الاشجار ويهمهم في اذنيهما ناماً باسرار الغرام

ولبثا مدة لا يتجرأ احد منهما على خرق حجاب الصمت في ذلك المشهد الغرامي وبينما هما في مثل تلك الحال اذ اقبلت من الفضاء حمامة مذعورة ومعها أليفها وجاءت فوقعت امامهما على غصن من الشجر وجعلت تناغيه واذا بجارح قد انقض فجاءة وضرب الذكر بمخالبه فقتله فجعلت الحمامة تضرب وتطلب اليفها فلا تجده فتنوح نوحاً يهيج الى البكاء

فاثر هذا المشهد في فرجيني اشد التأثير اذ رأت ان لها حالاً يشبه حال هذه الحمامة من اجتماعها باليفها وحرمانها اياه ولخوفها من ان ينزل بحبيبها مثل ما قد نزل به بكت على نوح الحمامة وماتمالك كاميل نفسه ان بكي هذه المرة معها

ثم اقبلا الى القصر وتناولا الطعام مع المؤدب والمؤدبة ومينرفا واقاما بقية ذلك النهار الذي مر كلمح البصر يشكوان لوعة الفراق ويتذكران اياماً لهما سلفت ويبثان الصبابة والوجد وبعد العشاء خرجا الى الحديقة وجلسا على اسرة من المخمل فرشت تحت خيمة من النبات الملتف امام فوارة من الماء

وكان النسيم في تلك الليلة بارداً والفلك معتماً والغيم متقطعاً في السماء يبدو القمر من خلاله مرة كانه الرقيب ويحتجب اخرى وقد تضوعت جوانب الروضة من نشر الازاهر والرياحين وساد السكوت فلم يكن يقلق خلوة العاشقين الا حفيف اوراق الشجر ونقيق الضفدع وخرير ماء النهر البعيد كانه

جريح باطراف الحصى كلما جرى * عليها شكا اوجاعه بخريره

فانشأ كاميل يحدثها عما يعزم عليه في حرب فلورنسا وجعلت فرجيني في كل فترة تضرب على قيثارتها الحاناً حربية وتغنيه قدوداً غرامية وتسمعه صوتاً شجياً وكانا يتغنيان معاً احياناً ثم يمسكان عن الغناء فيحدث سكوت طويل تتناجى فيه الارواح وتنقل العيون حديث القلوب دون ان يتكلما

فلما تناصف الليل تناولت فرجيني القيثارة وجست اوتارها وانشدت بصوت رخيم

ذكر النهار يريعني اذ ينثني * فيه الحبيب فليته لم يخلقِ

لو ان كل الدهر ليل مقمرٌ * لمضى الزمان ونحن لم نتفرقِ

ولم تكن بعد ذلك الا ساعة حتى استوى كاميل قائماً ومد الى فرجيني يده فاشعرت هذه بدنو وقت الفراق فبرقع الاصفرار وجهها ومدت اليه يداً مرتجفة وقالت ستتركني

ــ على رغم مني يافرجيني فان الليل قد اجفل وغابت كواكبه وغداً صباحاً اسير الى فلورانسا مودعاً عندك قلبي وروحي فهل لك من وصية توصيني بها

فقالت فرجيني بصوت مرتجف ان وصيتي اليك ان تكون حريصاً على نفسك شديد الحذر عليها خشية ان تفاجأ بمكروه لان حياتك ليست كلها لك فان على سلامتها قد رهنت حياتي فان اصابك عنت اصابني ايضاً

ــ ان اهتمامي بك اعظم من اهتمامي بنفسي فانا ظاعن وانت مقيمة بين الاعداء الذين يريدون بك سوءً الان كاترين ومحظيها وابنها لك بالمرصاد وقد اذكوا عليك العيون ليغدروا بك وربما اغوى الجهل جان ماريا وحدثته نفسه بالانتقام منك اذا لم تجري موافقته الى ما رام من قتلي فخذي حذرك واحرسي غفلتك ولا تكتمي عن مؤدبي لويجي ما يعرض لك فانه الرجل الوحيد الذي يقدر ان يدفع الشر الذي اتخوفه عليك واياك ان تغادري مونزا ولو طال بعادي عنك والله الذي حفظنا منهم الى هذا اليوم هو زعيم بنا الى المستقبل ولكن اذا قدر عليّ الهلاك في هذه الحرب فابعثي من يحمل اليك جثتي واجعلي في هذه الحديقة قبري وزوريه في كل يوم وابكي عليّ عسى دمعة منك تبلل اعظمي فتنعشها وتيقني ان اخر نفس اجود به يردد اسم فرجيني المحبوب

فلم تجبه تلك الفتاة الا بالبكاء والنحيب فانعطف عليها وهي مائلة على عنقه والقى فمه على ثغرها واستنشق انفاسها بقبلة حارة وابتعد عنها مغادرا

اياها في موقف ذلك التوديع وهي كانها غصن بانٍ عصفت به السموم فقصفته فاتبعته بصرها حتى غاب عنها ووقعت مغشياً عليها

وبعد ان ودع كاميل مؤدبه امتطى جواده وانقلب راجعاً الى ميلان ومن ورائه حاجبه متى

وفيما هو سائر والليل مرخٍ سدوله والارض مقفرة اذ سمع حوافر خيل تدنو منه فتوقف واذا بفارسين على بعد منه قد وقفا ايضاً فصاح بهما كاميل

— من يجيء

— فسمع صوت ينادي من الرجلان اجيبا او تقتلا

— فاجفل كاميل من ذلك الصوت واهوى بيده على قبضت سيفه وتاهب مع حاجبه للدفاع وصاح بالفارسين

— تقدما ايها اللصان حتى اريكما طعناً يسلب منكما الارواح

— فلما سمع الفارسان صوته جعلا يتضاحكان منه فاستثار ذلك غضبه فزأر وارعد وابرق ووخز بطن الجواد واستل سيفه وهجم عليهما بقلب قد من حجر

الفصل التاسع

❋ الاغواء ❋

لقد خدعت من الخناس حوّا   فعلمها الخديعة بالخديعه
فلا عجب اذا ضلعت وضلت   فان الضلع عوجاء ضليعه

سرْ بنا ايها القاري الى مدينة ميلان قاعة مملكة لمبارديا التي ضاهت اعظم مدن الغرب في تلك العصور الخوالي بجمال مبانيها وصروحها وعظمة مصانعها وهيا كلها وعرج على الجهة الشمالية من شارع سكاليني ترَ قصراً منفرداً عن القصور التي تجاوره مبنياً في صدر حديقة غضة البقول والرياحين يخدق به سور عال وادواح ذاهبة في السماء صعوداً يطرق اليه بطريق ينفصل فرعاً من الشارع المذكور وينتهي بمنعطف لباب الحديقة حيث يسير الداخل على رصيف من المرمر الابيض وفوقه تخيم قباب الازهار والنبات الملتف المشتبك الى ان يبلغ مطلع القصر فيرتقي في كل جهة مقابلة للاخرى درجاً ينتهي الى دكةٍ من الرخام في وسطها بحيرة ماء تنصب فيها المياه من افواه التماسيح النحاسية تجاه عرصة الدار الداخلية التي يحرس بابها تمثالا فارسين من الرخام يطلقان عن قوسيهما السهام

ولهذا القصر مدخل خفي لا يعرفه الا واحد من زائريه وهو قد بني علي شكل غير مألوف لاغراض في نفس بانيه ومع كثرة مماشيه ومنصاته وتعدد غرفه وخلواته كان رحب الجوانب جم الشرفات التي هي على شكل الابراج قد تعددت فيه التماثيل الحجرية والنحاسية على اختلاف اشكالها وانواعها ما بين طيور ووحوش وتماثيل الآلهات القديمة والابطال الرومانية المزينة قاعاته وجوانبه مع نقوشه البديعة وبحيراته العديدة التى تسبح فيها الاسماك والحيتان وكان يزيد في بهاء هذا القصر اسرته وفرشه ومتاعه وآنيته الثمينة مما يدل على ان سيدة المكان قد افرطت في البذخ والاسراف والشطط ففي احدى تلك القاعات المتوقدة بالانوار كان يرى في تلك الليلة البارون

بريفارا جالساً على متكأ من الديباج وهو باسر الوجه قاطبة يتردد في عينه بريق من الحنق والحرد وامامه صبية بارزة النهد هيفاء القد نحيلة الخصر رنحها الغنج واسكرها التيه والدلال قد القت معطفها على وسادة من الحرير خلاعة واسندت مرفقها على مسند من ريش النعام والقت صدغها على كفها فانكشفت اكمامها عن معصم كالعاج يذهل العقول في تدويره واندماجه تحيط به اساور من الماس وعلى صدرها سلاسل من الذهب قد علقت عليها الحجارة الكريمة وتدلت مزنرة خصرها وهي تنظر الى بريفارا نظرة الخيلاء والاختيال بعيون زرق تجول زرق اسنتها تحت قوس حاجبيها والحاظٍ تلعب بالباب الرجال دهاءً ومكراً وتبتسم عن ثغر شنبٍ وحببَ وشعرها المضفور الى شرائط من الحرير كالعقائص قد انحدر فرع منه على جبينها كعقارب دبت تطلب البراز بحماتها وفي عنقها قلادة من الدر المنظوم وقد فاحت منها روائح الطيب فعبق بها المكان وبين قدميها قرد صغير ينظر اليها مترقباً منها ابتسامة تحببٍ او اشارة رضى

فهذه الغادة الهيفاء هي سيدة المكان البارونة لاب التي اشتهرت بالقامة والجمال والنضارة والبهاء وازدحمت الامراء والعظماء على بابها ترجو قربها والتزلف اليها لانها كانت نظورة اترابها وواحدة في جمالها وهي على ما يقال نغلة بريفارا من خليلته بياتريس التي تعشقها هذا البارون وكانت هذه الفتاة باشارة منه قد فتنت بسحر جمالها جان ماريا على طيش شبوبيته وصادته بحبائل مكرها وغرورها وتيهته في بيداء غرامها فبات لجهله كلفاً ولهاً يتنسم منها صدق الولاء وهي اروغ من ثعالة ويألفها وهي انفر من غزالة

ويجزل لها الهبات والعطايا وينثر لها الفضة والذهب فيصيب بريفارا من الغنيمة شطراً وكان هذا الداهي المحتال قد انتهز فرصة اشتغال الدوق جان غلياس بالحروب وحب احدى المحظيات (التي ولدت له جبرائيل ولده الطبيعي) وخلود كاترين اليه فتلاعب بابنها جان ماريا كيفما شاء نخادعه وماذقه وبث له مصائد الغرام والغرام انشب حبالة يعلق بها قلب الرجل وجعله آلة لقضاء اوطاره وحاجاته

ومع تكرار وفادة البارون بريفارا تارة وحده وطوراً مع جان ماريا لقصر البارونة لاب لم يكن وجوده في كل مرة الا ليخطر على خاطرها تذكاراً مخيفاً لا يلبث مع تقادم عهده ان يظهر تأثيره الغريب المبهم بصفرة في جبينها وجمود يبدو في عينيها كما يفعل النور والصور في كهل عمي من نعومة اظفاره

وعوضاً عن ان يجلو منتزه هذا القصر كربها ويسري همها كان بعكس ذلك يكسف بالها ويكدر صفو عيشها ونعيمها اذ يصور في فكرها حادثاً رهيباً جرى في جوانبه · يرتسم مشهده احياناً امام عينيها فيسهدها ويحرمها لذيذ المنام فتبيت اليفة الهموم حليفة القلق والوجل تهيج من اغراها على ارتكاب هذا العمل الفظيع وتتسخط امها (بياتريس) التي فتحت لها ابواب الشرور حتى ولجتها وسهلت لها انتهاج خطة هذه الحياة الشقية حتى سلكتها كما هو شان بعض الامهات اللواتي لفساد اخلاقهنَّ وسيرتهنَّ وسوء تربيتهنَّ وجهلهنَّ يكنَّ السبب في فساد اخلاق بناتهنَّ فيتورطن في الشرور ويندرجنَ في ارتكاب الفواحش والمعاصي اقتفاءً لآثار

امهاتهن ويقضين حيوة كلها شقاء وبلاء تجلب على الامهات التسخط واللعنات وعلى البنين الشرور والويلات

وكان الحديث معقود الاطراف بين بريفارا ولاب في تلك الساعة من بدء الليل وهو يكرر هذه الكلمات بجدة

ــ اتؤثرين اذاً الذل والخمول على حب التملك والسلطان يالاب

ــ وما الذي ترجوه مني يا سيدي

ــ اواه اني امحضها النصح واعلمها الرماية واهديها الى سلوك اسهل السبل التي تؤدي بها عرش الملكات وابين لها وجه النجاح لتصبح ربة الامر والنهي وتتجاهل سائلة عما اروم فيا للحماقة

ــ لا قوامَ لي بهذا الامر فقد كفاني ما اقاسيه من عذاب السرائر والضمائر ايها البارون أو لم تكن تلك الضحية التي ضحيتها بيدي كافية لتسلبني صفو العيش حتى جئت تستفزني الى القيام بانكر منها

ــ يا لها من غرة ترفض النعمة وتستخف بالسعادة الوشيكة الحصول وتنبذ السعي وراءَ امر سلس المطلب لمجرد تذكار امرٍ مضى

ــ يا سيدي بريفارا

ــ لا تدعيني سيدك فهذا امر لا اغتر به ولا يكفيك مؤونة العذل واللوم اتتقاعدين عن مطلبٍ داني الملتمس قريب المتناول اتعجزين عن اغراء اسيرك جان ماريا ليدس السم لابيه على حين لا تجهلين انه سيتولى ويحكم عوضاً عنه ومتى انصرف الملك اليه تصحين ملحوظة المنزلة تشد اليك الرحال فليلة واحدة من صدودك تقضي لباناتك ٠ ويحسن بك في هذا

المقام ان تخوفيه بكاميل وبما يحاوله ويسعى اليه الا وهو اغتصاب الملك لنفسه وهذا امر سينطلي عليه محاله لقاء ما يعهد من ميل الذوق اليه وارتياحه الى اقترانه بفرجيني

ـ ان جان ماريا متخوف متوجس من ابن عمه كاميل يود قتله لينعم بالاً ويخلو له الجو من مزاحم يزاحمه على عرش ابيه فلا غرو ان يرى في هذا التنبيه الحكمة والصواب قالت هذا وتنهدت مطرقة

ـ فتبسم بريفارا وقال متجلداً هل لم يزل حب هذا الاحمق كاميل يهزّ فؤادك ياشقية

فتنهدت لاب ثانية واخفت دمعة الحنق التي طفحت في محاجرها وقالت

ـ واهاً يا بريفارا اني اسعى لقتل كاميل ومن فرط حبي له قتلت اباه بيدي ظلماً اجابة لسوءل كاترين وسوءلك ولكني من اجل هذا احببته فلو لم يقابل حبي له بالبغض والجفا لضحيت لاجله الدوق وجان ماريا وروحي اذا شاء الا ان مخالفته لي حولت هذا الحب الى انتقام الا انه لا يزال حباً فلا تلمني اذا هزني وجدي به مع محاولتي هلاكه

ـ آه النساء النساء ويلاه من اهواء النساء وويلان لهذا الحب والحبيب الذي سوف يطالبك بدم ابيه في مستقبل الايام فان لم يكن في قتله سوى راحة بالك من مطالب بالثار لكفى فعليك اذاً ان توغري صدر جان ماريا اسير غرامك على كاميل ثم اريه بعد ذلك محاسن الملك وعزة السلطان ومهدي له السبيل وذللي له ما تصعب وسهلي ما توعر كي لا تهوله صعوبة الامر الذي سيقدم عليه واخبريه ان اباه لم يتأثل هذا الشرف ولم يستقم

ويستتب الملك له عفواً دون ضحية فانه احتال على عمه برنابا بمظاهر النسك والزهد حتى قبض عليه وبعثه الى سجن (ترزا) وجرعه فيه غصص الموت فاقدامه هو على تسميم ابيه لا يأتي فيه امراً افريا فقد سبقه ابوه لاعظم منه

— يا له من مشروع مخيف رهيب وخيم الغب لا تؤمن تبعاته

— ايرهبك هذا الامر السهل الذي يسمو بك الى المكارم ويبلغ بك من المنزله غاية ليس فوقها مرتقى لهمة وقد باشرت قبله اموراً ترتاع لها الافئدة لاسباب لا ربح لصفقتك منها ولا جدوى

— اني كنت واثقة من نجاح تلك ولكن من يضمن نجاح هذه

— جمالك ودهاؤك يالاب فهل تغافلت عن عرفان مقامك بين ربات الحجال فانك شهابهن الساطع و بدرهن الطالع

فتبسمت تلك الصبية فرحاً وتمايلت زهواً واعجاباً لدى سماعها اطراء البارون واجابته وهي تلوي جيدها وتخفض صوتها

— ان محاسني تتكفل باغرائه ولكن من يضمن انقياد النجاح له و بلوغه الغرض وهو اطيش من فراشة فلربما اخذ في الفخ واتضح السر فكيف اتنصل من غائلة الامر

— تعتصمين بنكران كل ما يعزى اليك ولا وزر ولا حرج عليك

— ولكن افتضاح السر يكلف جان ماريا الحيوة

— انك تنيتمين ايتها المسكينة اذا مات فلا تجدين بعده عاشقاً وحبيباً قه . قه . قه . وينصدع فؤادك يا مخلصة الود أوه أوه .... وتترملين يا بارونتي العزيزة

ــ ماذا تقول ايها البارون انه يقضي عليه بالموت لا محالة

ــ ان عاش او مات على حدٍ سوى فما يهمك ان خبا نجمه ومات ما دامت الحاظك تتكفل باسر الوف من القلوب فثقي انك تجدين الف محب

ــ هذه ضحية ثانية اشد هولاً من تلك

ــ وهل تبالين لنيل غايتك الشريفة بالضحايا قلت ام كثرت

ــ هذه ضحية لا يلأم صدعها

ــ ان الوصول الى عرش لمبارديا لا يتسنى عفواً يا لاب فبدون تجشم الاخطار لا تنال الاوطار فانت ستتجرين بحياة جان ماريا وتلقين الدلو في الدلاء فان ربحت الصفقة نلتِ السعادة بجملتها وان خسرت فلا اسف على حيوة فتى لا اتوسم فيه الا الشر والغباوة فلا تؤثري الخمول فان الرزق في الحركة

فلبثت البارونة لاب صامتة تخطر في خاطرها احاديث بريفارا وقد ابرقت تجاه عينيها محبة المجد بينما كان البارون يقول في خلده ان جان ماريا سيصيد وانا وحدي سآكل السمكة فان وفق لقتل ابيه فلا يمكنه عمره من ادارة المملكة فيتحول الملك لكاترين فاجدح من سويقها وان مات في هذا السبيل كان ذلك غاية ما اتمنى بحيث لا تشعر امه لخديعتي وحبالتي المنصوبة واخلص من تعنيفها فقد حاولت ان ابعث به لحرب فلورانسا فابت ارساله فليحارب اذاً اباه . ثم نظر الى لاب فوجدها تسرب في بيداء التفكر والتأمل فقال لها

ــ اوطنت النفس ايتها الحبيبة وعقدت النية على ابرام الامر او ما لقيت

ان من السهل انقياد اسير غرامك او لم تري ان من العدل ان يتوج حبكما بتاج من ذهب

ــ اني لم ارَ فيما قلت شيئاً عزيزاً صعباً فسوف تراني جالسة على عرش ميلان

ــ عديني ان تاتي في هذا الامر بما يوافق الظن بك ويضارع الامل فيك وان تقرني الاقوال بالاعمال

ــ من الغد اسعى في تحقيق هذه الامال

ــ بورك فيك يا حبيبتي لاب . ان جمال وجهك واعتدال قوامك والحاظك الفتانة تبعث المرء على ان يرشف السم حباً لك افلا يجرعه لغيره ليصبح واياك ملكاً عظيماً قال هذا واسرع نحوها وقبلها في جبينها واستتلى قائلا واعلمي ايتها العزيزة ان في الفوز والنجاح فائدة اخرى الا وهي نيل ولدي فرانسوا يد فرجيني بالرغم عن كل معاند مكابر لانك لا ترضين ان اعرض نفسي كل يوم لخطر الاقتتال مع حبيبها كاميل فلو لم تبعثه كاترين لحرب فلورنسا لحظي بفرجيني وقضى ولدي عليها حسرةً وجوى

ــ لمَ لا تطلب من جان انجاز وعده الم يتعهد لك بان يزفها الى فرانسوا ابت ام اذعنت

ــ قد قيل في الامثال لا تبطر صاحبك ذرعه فلذاك لا ارضى ان احمله ما لا يطيق القيام باعبائه قبل هلاك حبيبها وهذا لا يتسنى لنا قبل ان نستولي على الامر الذي اعول عليك فيه فما دام الدوق جان غلياس حياً لا يستقيم امرنا فالفوز منوط بنجاح سعيك ففوزك يسمو بك الى منازل الملكات وظفرك يتيح لك رغم انف كاميل ونصرك يبتليه بحرمان من يهوى وغلبتك

اخيراً تبلغني واياك كل مرامٍ بعيد

ـ طب نفساً ايها البارون فانه يهمني ابعاد كاميل عن فرجيني بمقدار ما يطيب لك نيل فرانسوا يدها فانت تعالج داء ولدك وانا اداوي داء غيرتي وكلانا في الغاية سواء . وبينما هما في الحديث اذا بحاجب البارونة لاب ينادي قد اقبل نعمة مولاي الدوق جان ماريا فهرعت لاستقبال محبها فامسكها بريفارا وقال لها

ـ حذار حذار يالاب ان تقع على الدوق سمات الامور او يعلم ان لي في المؤآمرة يداً لئلا يحبط سعينا فتسوء العاقبة وبئس المصير

الفصل العاشر

ورب ما قيل في الامثال من حكمٍ	ان الطيور على اشكالها تقعُ
فهل عهدت اخا الفحشاء يألفه	الا الذين لبان الشر قد رضعوا

فلما بلغ الدوق جان ماريا مدخل القصر هرع بريفارا لاستقباله وهو يترحب به فسلم كل منهما على الاخر كخليلين لم تبق بينهما الالفة والحب سبيلاً للتكلف والتبجيل واما البارونة لاب فانها اسرعت وضمته الى صدرها وقبلته وهي متكئة على ذراعه وادخلته القاعة الكبرى التي كانت مزدانة بافخر الاواني والرسوم البديعة ومفروشة بالاطالس والديباج المعلم والسجف الحريرية ومنارة بثريا تحملها ثمانية تماثيل رخامة غاية في الاتقان فاستوى الدوق الشاب على متكأ من الاطلس وازرار اثوابه ومشلحه الذهبية

المجوهرة يخلب الابصار بريقها ولمعانها وحربته الصغيرة قد تدلت بين قدميه وسمات الانفة والجسارة والقسوة والكبرياء تلوح على وجهه فاشار الى البارون قائلاً اني قد غادرت امي الدوقة تسال عنك في البلاط ايها البارون ولم اعلم انك سبقتني لزيارة حبيبتي لاب

ـ اني اقبلت لا الوي على شيء لاحمل لها البشرى واخبرها ان نعمة مولاي الدوق قد عدل عن ان يبعث بك لحرب فلورانسا فرأيتها باكية معولة لعهدها انك ستغادرها لتلج ساحات القتال ولم ازل اسكن منها حتى سكن جاشها وطابت نفسها قال هذا وغمز لاب المحتالة غمزة ادركت سر معناها الخفي فقالت

ـ آه يا سيدي الدوق لو تعلم ما الم بي عندما بلغني انك ستخلفني وحدي لتسير الى الهيجاء وحومة الوغى فاني وحقك شعرت بان الحرب ستشب نارها في قلبي

ـ لو درى ابي ان بين قلبي وبين عينيك كل يوم حرباً عواناً يالاب لما عنّ له ان يبعثني لحرب فلورانسا ليحنكني

فقالت البارونة لاب وهي تلوي جيدها وتغض طرفها لدى سماعها كلام الدوق وتبدي غاية ما يكون من التظرف والتكيس اني احمد الله الذي لم يحرمني طلعتك التي كنت اقضي عليها وجداً واشتياقاً واني اشكر عناية بريفار الذي حمل اليّ هذه البشرى السعيدة وزادني سروراً بما اخبرني عن مسير كاميل ابن عمك بهذة الحملة فاومل ان هذا العصفور لا يفات من الشرك في هذه الكرة

قال الدوق هذا جل ما ابتغي ليعلم هذا الغبي ان العصفور لا يشتطيع ان يزاحم بازياً مشيراً الى ذاته . قال بريفارا هب انه افلت فلا ينجو فان الذي سحق رأس الافعى لا يعسر عليه قطع الذنب

ـ اعلم ايها البارون ان نجاته وانتصاراته يوقعانا بسوء اعمالنا وشر ما جنت ايدينا

ـ هيهات

لا تقل ذلك يا بريفارا فانك لا تجهل ان كاميل سيصحبه بهذه المرة فشينوكان وشارل مالاتشتا ودوربين وترزو قروم الحرب ورجالها واصحابه المخلصون الذين لا يضنون بارواحهم عليه فيدرأون عنه كل خطر ويدفعون كل اذى فضلاً عن ان الكونديتارية اعوان له فينال اربه منا بشفار سيوفهم اذا قدر له العود منصوراً سليماً وهكذا تنقلب الاحانة اعانة ويكون سعينا بهلاكه سبباً لنيل بغيته فيرد كيدنا في نحرنا ويوردنا موارد العطب ان انجز له والدي ما وعد

فقالت لاب ويحظى بفرجيني دون منازع وينتقم آه . . . من قاتلي ابيه وغطت عينيها بيدها لتخفى خجلها واضطرابها فتبسم بريفارا تبسماً مخيفاً مريباً وقال بصوت لجلجه الغيظ وهو يحدق في وجه جان ماريا

ـ قل لي ايها الدوق العظيم هل ان هذا الثعلب كاميل كونت لودي بلغ مبلغ ابيه كارلوس في الفروسية والجسارة

ـ لم يبلغهما بعد

ـ او هل ضارعه في انتصاراته وحروبه واعتبار الشعب الميلاني له

ـ لا

ـ او لا تذكر انه كاد يلقب دوق براشيا و برغامو وتلك الولايات

ـ اذكر ذلك جيداً

ـ ومع كل هذا فذبح العصفور كان اصعب مما قضي ومضي فان كنتما تناسيتما تلك الحوادث فخادم كارلوس ما برح حياً فاستقدماه ليروي لكما حديث تلك الليلة ليلة ١٦ ايار

ـ آه يسوءني هذا التذكار هتف جان ماريا فلا تتلاعب بسر والدتي ثم نظر الى البارونة لاب فالفاها صفراء لان المذنب يسوءه التنويه بذنبه علانية باكثر مما يوءثر فيه اذكاره وكأن بريفارا لم ينتبه لما نابهما فاردف قائلا فهل بعد هذا يا سيدي يروع نعمتك وعود ابيك لكاميل وانتصاراته وفوز اصحابه وهب انه افتتح فلورنسا فثق ان هذا الغراب لا يرجع الى فلكه وقد كان بوسعي ان لا اطيل في اجله الا انني لست ممن يقتلون الناس على قارعة الطريق ولا سيما وعين ابيك يقظى تراعيه وموءدبه لويجي رودلي حذر عليه

ـ مودبه . قال الدوق مستخفاً

ـ لا تستخف نعمتك بالمؤدب فانه الرجل الذي اهابه بعد نعمة مولاي الدوق

فقالت لاب يدهشني ما اسمع

ـ لا تعجبي يا لاب فان رودلي رجل حكيم حنكته التجارب وراضه الزمان وحلب الدهر اشطره فمنه اخشى خيبة قصدنا وحبوط سعينا

ـ اعنده من مقتل سيده المام وعلم

ـ ان كان من يعرف السر فهو ولقد قال لي دليانو يومئذٍ انه درى بما خطه سيده على التراب حين فاضت روحه امام قصره وهو لم يهجر البلاط مع امرأته ويتخذ مونزا موطناً الا لغايات اهمها المحافظة والسهر على سلامة ابن سيده كاميل وابنة ايزابلا ولو لم يكن ابان وقوع تلك الحادثة في بافي لما اشتبك قرنا الايل وتيسر لنا اقتناصه واخاق ان يكون هذا الشيخ المانع والحاجز الذي سيحول دون نيل ولدي فرنسوا يد فرجيني على حين اراه كلفاً بهواها يتعلل بوعد نعمتك يا سيدي الدوق

فقال الدوق اتدري يا بارون اني بعثت الى تلك الشقية فرجيني رسالة بالامس اطلب بها ان تدس السم لكاميل متى جاء يودعها وتهددتها وتوعدتها شراً ان زين لها حبها المعصية وكل ذلك لانجز وعدي لك فاجعلها عروساً لفرانسوا

ـ مَن حسن لك هذا الرأي السقيم الواهن هتف بريفارا مدهوشاً

فلم يجبه جان ماريا بل نظر الى لاب نظرة تعني انها هي التي استغوته وزينت له وجه المحال فارتبكت لاب وصبغ وجهها الاحمرار ولكنها تشجعت وقالت لبريفارا متنصلة من ذنبها

ـ انا التي سولت له ان يبعث هذه الرسالة مع علمي ان فرجيني لا تتوخى موافقته الى ما طلب ولكني تعمدت جعل هذه الرسالة ذريعة الى بغيته وعذراً للمستقبل اذا عن له اختطافها من مونزا واكراهها على قبول فرنسوا عرساً لها بعد شخوص حبيبها الى فلورانسا

ـ ولكن جهلت انها ستدفع تلك الرسالة لحبيبها فيتخذها هذا سلاحاً

يجرده لقتل نعمة مولاي جان ماريا اذ يدفعها لابيه ويثبت تعمد حبيبك القتل باجلي بيان وبرهان

– لا اخالها تقدم على جعلي ضحية غرامها قال جان ماريا

– الم تتهددها بامور يهون معها القتل فضلاً عن ان للحب اعظم من هذه الضحايا

– ليس الامر مستحيلاً فيا للخيانة صاح ولي العهد

– بل يا للخطر يا للخطر نادت لاب والقت بنفسها على عنق جان ماريا وضمته الى صدرها بدهاء واحتيال كأن الخطر قريب منه

– في اي يوم يزور كاميل مونزا قال البارون وقد نهض وتناول قبعته

– اليوم

– ومتى يعود يا ترى

– في هذه الليلة ليرحل في الصباح مع العساكر والقواد

– ها انا سائر على عجل فالبثا انتما هنا ودعاني اتخذ التدابير وابذل وسعي لاسلب كاميل هذه الرسالة فكل دقيقة تمر من الآن تذهب من العمر وتستهدف نعمة سيدي الدوق للخطر

– وعلامَ عولت ان تفعل قالت لاب باهتمام

– هذا امر منوط بي فعله اما انتما فانعما بالاً وقرّا عيناً وبعد ما حيي خرج مهرولاً وهو يقول في نفسه

– تباً لجان ماريا من احمق غرٍ لا يدري ما يفعل ولا الومه فانه ما برح صبياً يعتسف الامور اعتسافاً . ولقد ادركت غاية لاب وما تعمدته في

الرساله التي كتمتها عني فان تلك الخبيثة تسعي بجهد لاهلاك فرجيني بغية ان تستميل كاميل اليها فهي قد جنت بهواه وسيان عندها نال ولديَّ يد فرجيني او لم ينل .... لقد ساءَ فال هذا الحب الممتزج بالبغض وبئس ما املت ... فما كنت لاجمع لها بكاميل شملاً وكان بودي ان اجعل منية جان ماريا بغوائل هذه الرسالة الا ان رغبتي في استخدامه للقيام بمشروع اهم يلجئني الى الابقاء عليه فقتل ابيه اهم من قتله فهو ما برح مفيداً لقضاء هذه الغاية والاهم قبل المهم

الفصل الحادي عشر

بريفارا

هو على ما يقال ابن البارون دايو بريفارا من كريمونا كان ابوه خليعاً عاشقاً متهتكاً يحب المجون ويهوى ربات الجمال ويألف منهنَّ خليلات عديدات يعشو اليهنَّ في كل ليلة الا انه انقطع اخيراً الى واحدة منهنَّ وفي روايةٍ انه اتخذها حليلته فولدت له ولداً هو البارون بريفارا فربي في مهد الفواحش وشب على هوى نفسه والنفس امارة بالسوء فخرج اشر من ابيه ومن اشبه اباه فما ظلم وقيل بل هو اسباني قدم ايطاليا وراس عصبة من تلك العصابات التي المعنا اليها في التمهيد وروى البعض انه من اسرة شريفة من ميلان عريقة في الحسب والنسب

وكان هذا البارون مع ما هو عليه من لؤم الطباع وسوء الملكة والدهاء

والمكر كيساً غض الشباب شديد القوى شجاعاً صبوراً لا تجبنه الصعاب ولا تهوله الحوادث فلما مات ابوه وامه اثر وباء الطاعون الذي داهم ايطاليا مرات عديدة تخلف عن وطنه ورأس بعض العصائب التي الف احادها وباشر الحروب العديدة في بيزانس وفلورانسا وميلان فغنم الغنائم الكثيرة واصاب مالاً وافراً من اجور الحرب التي كانت تبذلها الممالك لهولاء الروساء

ثم انقطع الى ميلان وحارب باسم الدوق جان غلياس وتزوج فيها اميرة شريفة فرزق منها ولداً دعاه فرانسوا وابنة سماها بلانكا وما لبثت امراته ان ماتت فاتخذ له خليلة جرياً على ما الفه من ابيه ولا غرو ان يحذو الفتي حذو والده وهي البارونة بياتريس التي كانت اجمل نساء عهدها (وهي ام البارونة لاب المتقدم ذكرها)

واذ كان هذا البارون قائداً محنكاً وسياسياً خبيراً معاً استمال جميع آل بلاط الدوق اليه وحملهم على اعتباره واعلاء مكانته لما اظهر من الدهاء والاقدام والخبرة ولا سيما في اخماد بعض الثورات التي كاد يندلع لسان لهيبها في برغامو وبراشيا حيث وفق بدسائسه واساليب سياسته وحذقه الى جعل الاهلين شيعاً ليستضعف طوائفهم واوقع النفرة بين عامة الشعب وامرائهم المحركين للثورة فانطفات جذوتها ومن ذلك العهد اشتهر ذكره وطار صيته وهابته رجال المملكة ولقد تمكنت بينه وبين الامير كارلوس ويسكونتي والد كاميل صداقة موثوقة العرى فكانا يصطحبان في القتال والحروب والفتوحات ويقضيان بياض يومهما لا يفترقان

واتفق عند زواج الدوق جان غلياس بكاترين امرأته ان توفيت

البارونة بياتريس معشوقة بريفارا فجعل دأبه وديدنه التقرب من بلاط الدوقة كاترين واقام في خدمتها اياماً فنال حظوة عندها واحبته لكياسته ونضارته واستقضته في حاجاتها لمهارته واقدامه والقت اليه مقاليدها وجعلته مستودع سرها حتى صار يدعى محظي الدوقة كاترين ثم اخلدت اليه بغية الانتقام من رجلها الدوق الذي اشرك في حبها بعض المحظيات على ما جرت فيه عوائد بعض الملوك والامراء الذين اتخذوا الاشراك في حب حلائلهم سنة يدأبون عليها

فمن ذلك العهد طمحت انظار بريفارا الى الملك والسلطان وساعدته الاحوال اذ لم يكن للدوق الملك ولد ذكر سوى جان ماريا وفيليب ماريا من امراته كاترين المذكورة فكانت حداثة سنهما لا تؤهلهما لتقلد زمام الحكم واول عمل قام به بريفارا بالاتفاق مع سيدته كاترين ان دسَّ السم لاكثر اعضاء هذه الاسرة بطرق مختلفة حتى لا يترك من اسرة ويسكونتي ذكراً حياً يؤهله سنه او مقامه لخلافة الدوقية بعد وفاة حاكمها جان غلياس فيعود الملك الى الدوقة كاترين وعند ما شب جان ماريا ولي العهد تولى قيادته فابلاه بعشق لاب وجعله مواطئاً ومشايعاً له مع صغر سنه على قتل عمه الامير كارلوس باشارة امه على ما ستعلم

فكان ذلك باكورة اعمال هذا الفتى وخميرة مستقبله التي افسدت اخلاقه ورجحت كفة مظالمه وشروره مصداقاً لمن قال ان العلم في الصغر كالنقش في الحجر ولقد راينا كيف ان بريفارا يحاول اغواءه بواسطة البارونة لاب على قتل ابيه الدوق وابن عمه كاميل توصلاً لغايته وتحقيقاً لامانيه

قلنا ان البارون كان ابا ولد يدعى فرانسوا وابنة تسمى بلانكا فدون وفرنسوا كان فتى في الثالثة والعشرين من عمره اسمر اللون معتدل الطول اشبه بابيه من الليلة بالليلة كثير الخيلاء شديد العجب بنفسه متكبراً احمق حسوداً ينظر الى الناس بعين الازدراء ويحسب ان الكل دونه شرفاً ومقاماً وكان قصارى هم ابيه ان يعد له مقاماً رفيعاً يضمن له مستقبلاً سعيداً فطمح لنيل يد فرجيني ليمزج دمه بدم هذه الاسرة الشريفة المالكة فيشتري لابنه الشرف مجاناً والرفعة والتقدم عفواً ولم يعبأ بما يحول دون مطالبه من الموانع والمصاعب مع علمه بشغف فرجيني بابن عمها كاميل وانصراف خاطر الدوق الى اقترانهما اذ كان يرجو من كاترين وجان ماريا موازرة وعوناً على نيل مرامه البعيد متعمداً بت هذا الرباط الغرامي محاولاً تضحية كاميل على هيكل هوائه ومآربه الفاسدة ليخلو الجو في الملك لكاترين ويحظى بيد فرجيني لابنه ليدعى لها عند الضرورة حق الوراثة لتاج الدوقية

واما بلانكا فانها كانت غضةً بضةً غايةً في الحسن تامة الظرف متجردة عن كل ما يخل بنظام مملكة الجمال هيفاء القد رشيقته دعجاء الطرف كحيلته جارحة الالحاظ وضاحة الطلعة قد جمعت الى هذه المحاسن رقةً وكياسةً ولطفاً واتضاعاً بحيث لم يكن يخال انها ابنة ذلك البارون لولا حكم القياس ينبت الشوك ورداً وقد نيفت عن العشرين ولم تلق يوماً من ابيها الانعطاف والحنو الذي يعهد بالوالدين نحو اولادهم بل دبت وشبت على عناية المؤدبات والخدم

ومن امعن النظر في هذه الفتاة البارعة الجمال كان يلوح لهُ من خلال

حسنها لوائح الكآبة والذل ويرى في عينيها اثار الحزن الباطن الشاف
عن تبلبل سريرةٍ وانشغال بالٍ من عهد يوم خطبت فيه الى دون لويس
دليانو واكرهت من ابيها على قبوله وكان مجمل ما اهتدت الناس الى معرفته
عن هذا الخطيب انه رجل شريف واسع الثروة من افراد بيوتات نابلي
الشهيرة كما كان يدعي هو نفسه ترأس زمرة من عصائب الحرب وانضم
بعدئذٍ الى البارون بريفارا وحارب معه في السنين الاخيرة ولما اعتزل
بريفارا تنحى دليانو ايضاً عن رئاسته غيران تغيبه في الليالي الحالكة السواد
وعودته احياناً مضرجاً بالدماء وما عرفه النفر اليسير من الاهلين عن مساويه
وقبائحه وافعاله المنكرة كان ينير الشبهة ويكشف الغطاء ويقطع بانه رجل
شريرولص مكاس يرأس زمرة من قطاع الطرق واهل الدعارة والشرارة
(المدعوين برافي) فيستخدمهم لقضاء حاجاته من قتل او سرقة او ارتكاب
محظور بالاتفاق مع بريفارا المطابق له على الشر والمشايع له فيه لان هذا
البارون كان قد سكن واطمأن اليه واتخذه ركناً له وجعله خزانة سره وسيد
اعماله وتباهى امام الامراء والاشراف بنباهته وغناه واقدامه وشجاعته فزادوه
اكراماً واحتفاء وتقرباً لغفلتهم عن سمات الحقيقة وعدم تبينهم الغامض من
اعماله وكان نحيل القوام اهيف ضامر الجسم عصبي المزاج اصفر اللون يداه
صغيرتان اقرب شبهاً الى ايدي النساء منهما الى ايدي الرجال وعروقه
ومفاصله نائئةوشفتاه كبيرتان وعيناه صغيرتان برّاقتان ضيق الجبهة مقرون
الحاجبين به سعال من غير علة لا يفارقه ويخيل لمن يرى اعضاءه وضواه
انه لم يبلغ العشرين ويوهم ناظره انه جبان واهي القوى مع انه كقطعة فولاذ

قد ناهز الثلاثين من العمر وهو يسكن قصراً في المدينة قد ابتاعه من بعض امراء ميلان تحتف به غابة من الشجر الكثيف الغض مبنياً على شكل غريب قديم كثير التعاريج والاسراب والمازق المظلمة وله غرف سرية في قلب الارض تأوي اليها رجال عصبته القائمون بامره

وكان كثير المال واسع الثروة قيل انه ورثها عن ابيه موريال دليانو الذي كان في اول امره شماساً هجر ديره واتحد الى قواد العصائب التي اشرنا اليها وعودهم ان يفتكوا وينهبوا على قواعد ونظامات قد سنها لهم عقيب الاعمال الشريرة التي خدم بها بعض الاسياد مما حمله على ان لا يرى شيئاً يستحيل على القوة

ثم التف وضوى اليه كل سارب وداعر ومخيف سبيل ولص وعيار والف من شيعة هؤلاء الاوخاش الاجلاف والاوباش الرعاع عصبة كبيرة واقام لها مستشارين وكاتمي اسرار وقاضياً ليحكم بينهم بالعدل والقسط ويوزع الاسلاب بالسوية فكان بحصر القول رئيس مشيخة لصوصية منتظمة فمات عن مال كثير فورث ابنه لويس هذه الاموال وخلفه في مهنته حتى اذا رست قواعد المودة بينه وبين بريفارا وتايدت عراها انضم بكليته اليه لما راى من منعة ذماره وعزة جواره وفضل خدمة هذا البارون مع زمرة من قومه الاكثر دهاءً ونكراً على معاناة الحرب والاتجار بارواحهم فيها

واخيراً لم يضنّ هذا البارون على هذا الزعيم بيد ابنته دونا بلانكا رغماً عن معاطسها على حين كانت لا تطيق النظر اليه وترتاع من صورته موجسة من اعماله سوءًا وشراً وتجتهد في البعد عنه ما استطاعت اليه سبيلاً وكانت

في كل برهة تنطرح على قدمي ابيها الظالم باكية بجفن قريح وقلب جريح ترجوه بذلة وتستحلفه الحنو الابوي ان يصرف عنها هذا الخطيب الذي تفضل الموت على قبوله لها عرساً و تطلب اليه ان يبعث بها الى دير للعابدات تنقطع فيه كل العمر فكانت توسلاتها تهيج غضبه وتزيده قسوة وغلظة فيتهددها بالقتل وضروب العذاب ان لم تتحرَّ موافقته بما ابرم فمن ذلك العهد فقدت هذه الفتاة بشاشتها واستحالت هشاشتها وطلاقتها الى العبوسة واصبحت كثيرة الهواجس والهموم تتوق الى البراري وتطلب الوحدة والانفراد وعند جلوس خطيبها اليها كانت تقعد صامتة لا تبدي قولاً ولا تبتدر خطاباً غير النظر الى وجهه مرددة بخوف ووجل ذكرى تلك المشاهد المنكرة المخيفة التي كان يتفق لها مرآها في بعض الليالي حين تنظر من خلال السجف على نافذة غرفتها المشرفة على عرصة الدار شخص خطيبها داخلاً قبيل الفجر منسلاً الى غرفة ابيها كالحية وهو بلباس قروي مشدود وسطه بجلد من الجاموس معفر بالتراب وحذاؤه من جلد قد التف على قدميه كي لا يسمع وطئهما وصورته مخيفة تنفر منها القلوب اشمئزازاً وقد رأته مرة اخرى على مثل هذه الحالة مضرجاً بالدم ووجهه ورأسه مهشمان فكان مجرد الافتكار بهذه المشاهد يلجم لسان هذه الفتاة عن النطق لعلمها انها امام رئيس زمرة اللصوص وقطاعي الطرق ولما عيل صبرها وضاق ذرعها ولم تجد لها فرجاً من امرها عزمت على حسم الداء بانجع الدواء

الفصل الثاني عشر

بروحي غادةً من ماء نهرٍ   نشلت فاغرقتني في هواها
ومن مدت يدٌ منه لخيرٍ   حلال ان يكون كذا جزاها

المعنا ان للامير كاميل ويسكونتي حبيب الدوقة فرجيني اخلاءً واخداناً قد اخلصوا له الود والوفاء يرافقونه في حروبه واسفاره وهم القبطان مرتينو والكولونل روبر كانتي الشجاع والماجور الفونس وريكاردو اصفياؤه الامناء الذين يعتمدهم عند اشتداد الخطوب ونزول الملمات ويذخرهم لنوائب الايام وطوارق الليالي ويكشف لهم غوامض سره ويبيح لديهم بمكنونات ضمائره وكان كل من هوءلاء الفرسان الشداد يتمنى في كل دقيقة ان يريق عن اميره اخر نقطة من دمه ولا سيما الكولونل روبر الذي كان يحبه الامير كثيراً لنزاهة نفسه وشجاعته ولصلة قرابة بينهما فاتفق لهذا الكولونل بينما هو عائد من كريما الى ميلان في بكرة يوم من اشهر الربيع يتنشق نسمات الصباح المعطرة باريج ازاهر الحقول وعرف انوار الاشجار ويصغي لتغريد الاطيار التي هبت من اعشاشها فرحة راقصة تطلب عرض البراري والفلوات وقد بلغ ضفة نهر (البو) حيث ازدحمت الاشجار واصطفت على ضفتيه اللتين فرشتا ببساط اخضر نثرت عليه ايدي الغمام فرائد الندى فوقف ينزه الطرف في تلك المناظر البهجة واذا به يسمع صوتاً على مقربة منه ينادي اليَّ اليَّ المعونة المعونة فاندفع بجواده الى حيث الصارخ المستغيث فابصر امرأة على ضفة النهر تتلفت يميناً وشمالاً مستنجدة وقد همت بان تلقي نفسها الى العمق لتنقذ

شخصاً من الماء اشرف على الغرق الا ان هدير النهر وسرعة جري الماء كانا يثنيان عزمها فتزداد في الصراخ فما تمالك الكولونل روبر لدى نظره الخطر الملم بالغريق ويأس تلك المراة ان القى بنفسه الى عباب الماء وبدأ يسبح بخفة للوصول الى الغريق التي كانت تيارات النهر تدفعه و تقذفه الى العمق فبذل الكولونل وسعه وطاقته في مقاومة جري الماء الى ان لحق به ولاحت له فرصة فقبض على يده واذا به صبية فحاول جرها الى ضفة النهر ليتمكن من ارتقاء اليابسة فشعر انها تدفع يده وتحاول التملص مرتمية الى جوف النهر فاشكل عليه امرها وظن لاول وهلة ان هذه الحركة آلية صادرة عن غياب رشد الفتاة لكنه ما لبث ان زايله الريب وتبين انها تتعمد التملص من يده فهم بافلاتها لان مخالفتها له مع شدة جري الماء كادت تؤدي بها و به الى الهلكة لو لم يصرفه عن عزمه صياح المراة التي كانت تستفز مروأته حين ابصرته قد جاد بنفسه لنجاة الفتاة فوطد النية على انقاذها مهما كلفه الحال ليقف على سر رفضها ونبذها اليد التي مدت لنجدتها وبعد عناء وجهد بلغ ضفة النهر وهو متأبط تلك الفتاة والقى بها على الاعشاب الخضراء فاسرعت المراة وشرعت تفرك اعضاءها وهي واجمة لشدة الفرح تنظر الى الكولونل روبر بعينين ملئتا شكراً اما هو فكان محدقاً بوجه الفتاة وقد تبين من ملامح حسنها البادية وملابسها الثمينة وحلاها انها كريمة النجاد والابوة عريقة في الشرف والغنى فزاده ذلك رغبةً وتشوقاً الى الوقوف على جلية امرها واستطلاع سرها حتى اذا سكن جاش المراة ابتدرها بالسوآل عن الفتاة فاخبرته انها دونا بلانكا ابنة البارون بريفارا وان هي الا مؤدبتها قد اقبلت معها تتنزه في هذه الرياض

وريثما اشرفت على النهر لمحت الصبية زهرة بنفسج على ضفته فاندفعت تطلب اقتطافها بطيش غير حافلة بالتهور فلم تشعر الا وهي في افواه المياه فالصاعقة لا تفعل ما فعل كلام هذه المؤدبة في الكولونل عند سماعه ان الفتاة ابنة بريفارا عدو صديقه الامير كاميل فندم على ما فعل وهم بالعودة ناقصاً مكتفياً بالقدر اليسير الذي علمه واذا بالفتاة قد نظرت اليه بعينين صاد فؤاده لحظهما واشارت بيدها اليه ان قف فتردد بين الروح والبقاء الا ان نظرها الذليل وطرفها الناعس الذابل قيداه فمكث واقفاً برهة من الزمان واثوابه ترشح ماء ريثما رد الى الفتاة صوابها وقواها فامرت مؤدبتها بالتنحي واشارت الى روبر ان يدنو منها بعدما استندت الى ساق شجرة وقالت — ايها الفتى الشريف انك قد اتيت من الجميل صنعاً لو اتيته مع فتاة غيري لم تكن مكافاتها لك اقل من ان تهبك حياتها ولكن قدر عليك صنعه مع فتاة فضلت الموت على الحيوة والغرق على النجاة وقد القت بنفسها الى النهر عمداً لتخلص من عيش حف بالعذاب والشقاء وتنجو من مستقبل متهدد بالويل والبلاء فها قد عاندتني الاقدار ولم تسمح بانصرام حبل مصائبي لانها استقدمتك وسخرتك لنجاتي من غمر الماء وانت تجهل ان التعاسة اغرقتني قبل ذلك في لججها الطامية فعلام اشكرك ولاي جميل اكافئك اعلى عودك بي الى محيط تعاستي واحني ام على اطالة زمان ويلي وتعذيبي ثم همت بان تدفع بنفسها الى النهر ثانية فابت عزة نفس الكولونل وحسن طباعه ان يدعها تفعل بنفسها سوءاً فامسكها واعادها الى مكانها وهو شاخص بجمالها مفكر باقوالها لا يحضره كلام لشدة ما اثر فيه حديثها وادهشته جسارتها

فاستجمع شوارد افكاره وقال لها وهو غير متدبر كلامه أليس يوسع الذي انتشلك من افواه المياه ان يجبر كسرك وينفس كربك ايتها السيدة فتنهدت تنهداً عميقاً وقالت

ـ لا تعنِ نفسك ايها الرجل السري بنجاتي فان مصائبي لقرحة ان حككتها ادميتها ولا اظنك الا جاهلاً ابي وصفات خطيبي ثم خنقتها العبرة فبكت فاثر في الكولونل بكاؤها والنساء اشوق ما يكن اذا بكين وصار في موقف صعب لا يدري ما يفعل فشرع يلاطف تلك الفتاة ويشجعها معزياً اياها بما فطن اليه من الكلام طالباً اليها ان تفشي سرها وتذيع ما كتمت من امرها فهزت برأسها طويلاً متضجرة من تطفله الا ان الحاحه حملها على الكلام فباحت له بظلم ابيها الذي لم تلقَ منه مذ ادركت انعطافاً وحنواً وكيف اكرهها على قبول لويس دلبانو خطيباً لها على حين تعلم انه لص عيار مقامر قد انغمس في المعاصي فضلاً عن كونه دخيل في النسب دعي في الحسب وان توسلاتها ودموعها التي سكبتها على قدمي ابيها لم تزده الا احتداماً وحنقاً وسخطاً حتى عزم على ان يزفها اليه بعد عهد قريب تشفياً منها وانها لما لم تجد لها مهرباً او ناصراً ومنجداً عزمت على اعدام نفسها والفت هذه الواسطة اقرب منالاً واقل عذاباً فلما كان ذلك اليوم وقد ضاق عليها الكون مع رحبه اوهمت مؤدبتها انها تجني زهرة البنفسج من ضفة النهر ثم القت بنفسها الى الماء فجرى بالاتفاق من انقاذها ما جرى ثم امسكت عن الكلام ريثما ارتاحت قليلاً وقالت هذا مجمل قصتي ايها الفتى الشريف فهل بعد علمك اني ابنة بريفارا الذي راعك ذكره وخطيبة دلبانو رئيس زمرة

اللصوص تطمع في مداواة سقمي او تحدثك نفسك في جبر كسري ودفع الاذى عني او هل ترى ان في امكانك انتشال الاخيذة والضالة المهملة من ناب هذين الظالمين لا لا ٠٠٠٠ دعني ولا تخاطر بحياتك فان وراءك زمرة من قطاع الطرق لا تقوى على مقاومتها والتصدي لها

اني لا ادعك ايتها الحسناء عرضة لعسف هذين الظالمين وجورهما فان بك من الجمال ما يعبد وبي من المروءة ما يبعثني على ان اقف روحي لتحقيق سعادة مستقبلك ومن الحنو ما يستقدمني على نجدة تعيسة نظيرك ٠ ومن الشرف ما يفوق شرف ابيك ٠ ومن الجرأة ما يستخف بخطيبك وقومه فلا شيء يعيقني عن اتمام الجميل الذي بدأت به اذا شئت قبول يدي هذه التى تربطنا رباطاً لا يقوى على حله غير الموت

ـ ومن تكن ايها الشاب

ـ الكولونل روبر كانتي

ـ انت هو الكولونل روبر صديق الامير كاميل ويسكونتي

ـ انا هو بعينه

ـ انت تعرف ابي وخطيبي حق المعرفة

ـ اعرفهما جيداً

ـ تدهشني منك هذه الجرأة في سرعة تهافتك على اعطائي يدك ايها الكولونل مع علمك من هو ابي وخطيبي فتبصر فيما ستفعل ولا تدع غرور جمالي ينتصر على فوءادك فيغويك ويوردك موارد لا صدر لها ويورطك في ورطة يعقبها الندم

— ولقد يسوءني انا الآن ان ارى من فديتها بروحي هدفاً للنوائب افلا تقبلين يدي

فنظرت اليه تلك الفتاة بعينين لو رآهما احد لقال سبحان مهبط الحب على قلوب العباد وقبضت على كفه مرتجفة وقد تعاهدا على الامانة والوفا وتحالفا على حفظ العهد والميثاق

وما عتم ان نزغهما من ذلك الحين نازغ الغرام فشغف كل منهما بحب صاحبه وكتم الهوى فكانا يجتمعان في الرياض والمنتزهات خفية عن اعين الرقباء ويقضيان في كل يوم ساعات من اللقاء الذ من زورة خيال الحبيب وبلانكا تحمل اليه ما تتفق لها معرفته كل مرة من احوال ابيها ودسائسه مما اتاح لروبر انقاذ كاميل من مكائد جمة نصبها له بريفارا

فلما كانت هذه الاويقات والكولونل مهتم بنصب حبالة يصيد بها دليانو ومشتغل ببث مصائد يورده فيها الموارد المهلكة الموبقة لم يشعر الا وقد صرفته عن شغله الصوارف وثنته عن غيه حرب فلورانسا التي لم يرَ بدّاً من التفلت والتسرع اليها اجابة لدعوة صديقه الامير كاميل فشرع يتأهب للرحيل وقد كبر لديه فراق محبوبته التي لدى تبينها رحيله وتخلفه الى الحرب قامت قيامتها وزاد اكتئابها وشجوها وكثر بكاؤها ونواحها وما فرقة الاحباب هينة الخطب

الفصل الثالث عشر

الانذار والرحيل

ففي الليلة التي كانت الكونديتيازية وزمر المقاتلين تتاهب للشخوص في صباحها الى فلورنسا وهي الليلة التي خلف فيها بريفارا الدوق جان ماريا والبارونة لاب في قصرها على ما علمنا واسرع ليسلب كاميل وهو عائد من مونزا الرسالة التي خاف منها على حيوة ذلك الدوق كان الكولونل روبر في قصره مع صديقه القبطان مارتينو يترقبان بفارغ صبر عودة الامير كاميل من وداع فرجيني واذا بواحد من حجاب الكولونل قد دخل ودفع اليه طرساً مختوماً عليه عنوان اسمه قد كتب بيد مرتجفة خائفة وحروفه لا تكاد تقرأ فتلقفه واذا به مكتوب ما يأتي

يا حبيبي روبر

اسرع لنجدة صديقك الامير كاميل ويسكونتي وخفارته على الطريق فالخطر يتهدده لانه يحمل رسالة دفعت اليه من يد فرجيني والعدو يتعمد اختلاسها وسلبها على حين غفلة منه فقد اذكى عليه العيون وربما لا ينجو من بغتاته فاسرع قبل ان يسبقك ذلك العدو الذي خلفته في فؤاد بلانكا

فصاح من جزعه على الامير الخطر فسأله مرتينو جلية الخبر فاوقفه على النبأ الذي بعثت به بلانكا وقال وهو يفرغ عليه عدة سلاحه

— يلوح ان فرجيني دفعت اليه رساله ذات شأن يتعمد بريفارا سلبها

منه وقد ائتمر مع دلبانو على مفاجأة كاميل في الطريق فاميرنا قد بات خاسة المفترس

ـ لا شك ان رجال دلبانو ستكمن للامير في منعطف من الطريق لتغدر به فعجل يا روبر لنجدته ما دام لنا نهزة تغتنم

ولوقتهما امتطيا فرسيهما واخذا في سيرهما وهما مدججان بالسلاح حتى لم يعد بينهما وبين مونزا غير ميل فلمحا فارسين مقبلين في الظلام فوقفا لهما في الطريق وصاحا بهما قفا بعد ما عمد كل منهما الى غدارته ليطلقها عند اول حركة تبدو من ذينك الفارسين اللذين لم يكونا غير الامير كاميل وحاجبه متى على ما اسلفنا فصاح بهما ثانية

ـ من انتما ايها الفارسان وماذا ترومان اجيبا والا جعلت الرصاص الى قلبيكما رسولاً

فقهقه روبر ضاحكاً لانه عرف صوت كاميل الذي احتدم غيظاً من تضاحك الفارس لتوهمه انه يهزأ به فشهر حسامه وهجم على الكولونل وقارب وهم ان يطعنه واذا به يناديه مهلاً مهلاً على رسلك يا كاميل فلا تطعن صديقك فانا روبر ورفيقي القبطان مرتينو فجمدت يد الامير ووقف مبغوتاً

ـ ولم نلحق بك الا لخطر انذرنا اليه فسعينا لانقاذك منه وقد توهمناك في مبتدأ الامر عدواً ثم اسرع اليه وعانقه بعد ما اطلعه على رسالة حبيبته دونا بلانكا ولوقتهم عادوا الى ميلان معرجين عن الطريق تحاشياً من كمين مفاجيء . وفي الغد كانت ساحات ميلان وطرقها ونوافذها وشرفاتها من

باب جوبتير الى كنيسة القديس انبرواز غاصة بالاهالي وسكان القرى المجاورة على اختلاف الطبقات والاصناف والمراتب من امراء وحكام وشيوخ وكهنة ونساء ورجال وولدان وقد ضاقت بهم جوانب الازقة والمتنديات وهم يزدحمون ويشرأبون ويتطاولون للتفرج على الكونديتارية والجحافل المتقلتة الى ميادين القتال لمنازلة فلورانسا حيث كانت الوف من تلك العساكر والفرسان تشق تلك الجماهير والجموع وتشطرهم شطرين يمنةً ويسرةً وتتقدم في سيرها وكلها مدججة بالسلاح بين رامحٍ ونابلٍ وناشبٍ وسايفٍ ودارعٍ وتارسٍ حتى كان يخال للناظر انها نهرٌ ينساب بين ضفتي جبلٍ متحرك وكانت نغمات الموسيقى العسكرية وبكاء الامهات والخليلات وصراخ الاطفال ودعاء الشيوخ وضجة المتفرجين يزيد ذلك المشهد هيبةً وجلالاً والامير كاميل مع الكونديتارية مقبل في توالي الجيش ممتطياً جواده ومعدداً بآلة حربه وجلاده ومن حوله الكولونل روبر والقبطان مارتينو والماجور ريكاردو والفونس فمروا بازاء قصر بريفارا واذا بالكولونل روبر اشار مودعاً بلانكا الواقفة في احدى النوافذ تمسح محاجرها بمنديل وتشير به مودعة ولسان حالها يقول

يا راحلاً عني وانت بمهجتي ✲ مهلاً ازود من سناك عيوني

شيعت معك حشاشتي فحسدتها ✲ وحسدت عين عدوك المغبون

يلقاك ما اعترك الوغى يا ليتني ✲ ذاك العدو ولو لقيت منوني

وكان بين الخلائق المتفرجة ثلاثة رجال وقوفاً في زاوية من الطريق يدخنون فحينما لمحوا الامير كاميل يحيي الجماهير قال احدهم لرفيقه

انظر يا جاكموان الامير يحيينا فلو وفقنا الى لقائه البارحة عائداً من مونزا لحييناه باحسن منها

ـ قال جاكموان خنجري وفوهة غدارتك كانا يكفيانا يا ماركو مؤونة التبجيل في التحية

فقال الثالث هذه احسن تحية كانت لدينا لو اسعدنا الحظ بلقياه فهو الجاني على نفسه بمخالفته الطريق حتى احرم نفسه من شرف هذه المقابلة

فقهقهوا جميعاً ضاحكين

ـ قال جاكمو وهو ينظر الى كاميل ويتوعده بحركة رأسه قد نجوت ايها الثعلب بشفاعة كاس ماركو الذي لم يشأ ان يتعجل لقاءك في الامس قبل ان يملأ دماغه خمراً ولكن ليس في كل آن كاس ومدام

قال ماركو الذي كان لم يبرح ثملاً انعم بالاً يا جاكمو فخرب فلورانسا ستبيد كل الثعالب

ـ وما يفعل بالرسالة التي يحملها

ـ يتلوها على سكان القبور ليعلم القراءة لمن لا يحسنها منهم ثم استغرقوا في الضحك ريثما ابتعد عنهم وحينما بلغ الجيش باب المدينة حتى علمها التحية الاخيرة مودعاً واما كاميل فانه حول وجهه نحو مونزا وتلالأت في عينيه دمعتان حاول اخفاءهما لشدة ما اثر فيه هذا الوداع حتى خيل له ان هذه اخر نظرة يزودها من وطنه وديار حبيبته فرجيني التي لم يخطر سواها على باله ولكي يصرف تلك الخواطر ويبدد كتائب الهموم التي صدمت فؤاده دفعة واحدة اخذ يتشاغل بالحديث مع اصحابه والكوندتيارية المتسرعين الى

هذه الحرب كالمدعوين الى وليمة لتعودهم خوض الوغى وائتلافهم على الصدام والقتال . وما برحت زمر هذه الجنود المؤاجرة مع قوادها تجد السير شاخصة وتخرق السهول والهضاب زاحفة عائثة في القرى والبلدان التي تمر فيها مبعثرة حقولها معطلة زرعها سالبة متاعها وليس لها من قوادها او انفسها رادع اذ الهمجية والخشنة كانت لم تزل سائدة في تلك العصور لا سيما بين هؤلاء الجنود الغلاظ الاكباد الذين لم يكن نظامهم العسكري ليحظر عليهم العيث والعدوان او ينكر عليهم السلب والنهب فكانت اهل القرى تغادر منازلها وحقولها واكواخها محتملة اغلى متاع عندها وتفرّ ملتجئة الى الجبال والاماكن البعيدة ريثما تمر الجنود تاركة بعدها الخراب فكانت مناظر تلك القرى والحقول المحروثة الزاهية تتحول الى هيئة محزنة تحدث عن خشونة اولئك الخرّاب القطاع

وبعد ثلاثة ايام اشرفوا على جبال الابنين التي تخترق ايطاليا فتقدم الامير كاميل في الف من المشاة ومايتي فارس من الفرسان الخفيفة العدة يصحبه الكولونل روبر خليله الشجاع وزحف بهذه السرية الى مضيق الابنين ومنه الى سفح جبل سيمون ليعد للجنود ممرًّا اميناً الى فلورنسا بعد ما علم من جواسيسه ان عساكر هذه المملكة معسكرة على مقربة من بيستوا فصادف اثناء مروره عسراً وعناءً في مطاردة زمر اللصوص (التي تكمن في جبال الابنين مختبئة في الغيران والكهوف والغابات لتنقض على المسافرين) وتمزق شمل سكان القرى الجبلية الذين كانوا يهجمون مع اولئك اللصوص على اطراف الجيش ويحاربون وراء الحواجز حتى الجأه الحال الى ان امر

بعض جنوده ان تتزيا بازياء اولئك القرويين وتتظاهر بقتال جنوده حتى استتب له بهذه الخدعة تصديع الفتهم وشق عصاهم وقطع نظامهم وقد قتل منهم نفراً جماً وعلق اكثرهم على الاشجار ومفارق الطرق والتلال تخويفاً وارهاباً

الفصل الرابع عشر

﴿ رجل الابنين العجيب ﴾

واتفق ان الجنود المتنكرة قبضت في احدى الكهوف على رجل طويل القامة اسمر الوجه متين القوى مدمج المفاصل قد استرسل شعره على كتفيه منفشاً كالوحوش الكاسرة وتدلى شعر حاجبيه فغطى قسماً من عينيه البراقتين المخيفتين ووخط الشيب لحيته وغدائره وهو قد افرغ علي بدنه جلد نمر يغطيه حتى ساقيه ورجلاه قد التفتا بجلد من الجاموس البري ليتهيأ له تسنم تلك الجبال فساقته لنادي الامير ومثلته بين يديه وهو جالس امام خيامه مع الكولونل روبر يصطلي في بدء الليل على نار مشبوبة فلما وقع نظره على هذا الرجل الغريب الشكل شعر برعدة ارعشت جميع مفاصله وعظامه فاثبت به نظره فالفى في وجهه سمة المهابة والعظمة فقال له انتسب لاخلي سربك والقي حبلك على غاربك فابث ذلك الشيخ واجماً يمعن في كاميل النظر فامر به ان يشنق ويعلق في غصن من الشجر الا ان ذلك الشخص الهائل عند سماعه قضاء الامير اكفهرّ وجهه واتقدت عيناه

كالسراج وخطا نحو كاميل بجرأة وهو موثق الساعدين وصاح بصوت اجش جهير اختلجت له افئدة الحضور جزعاً وقال اما عرفتني يا ابن كارلوس .... لا لا انك لا تعرفني ولو تفرست في وجهي طويلا . ان عمك قد سفك آخر نقطة من دم اسرتي (سكاليجري) والجأني لسكنى هذه الجبال كالوحش لابكي اهلي واولادى فجئت انت الان تقلق سكينتي وتكدر وحدتي وتحبسني عن الرتوع في هذه الجبال .... عبثاً تطمع في قتلي لان اجلي لم يحن بعد رغماً عما تراه من ثلوج مشيبي وذبول عودي . فانا لا اموت قبل ان ارى الدوق جان غلياس ويسكونتي دفين الثرى والطاعون يفتك باهله وشعبه .... ان فلورانسا الزاحفين عليها بخيلكم ورجالكم لن تفتح لكم ابوابها لكنما الموت سيخترم عمك وتغيبه حفرته فان دم اسرتي المطلول يدعو عليه من اعماق الارض وسوف تتذكر هذا الشيخ الذي سمته خطة خسفٍ في المصائب التي تنتظرك . قال هذا ومرّ في وسط تلك النار المشبوبة بعد ما قطع وثاقه واحتجب بغتةً والامير والكولونل ناظران اليه وقد عدما النطق كانهما مسحوران لشدة ما اثر فيهما حادثه العجيب

فاحيي كاميل تلك الليلة وعيناه مكتحلتان باثمد السهر يردد حديث ذلك الشيخ العجيب الذي لم يغب مثاله عن ناظريه وكاد يضل سعيه لو لم يصرفه عن اذكاره اشتغاله في منازلة الاعداء اذ في اليوم الثاني ترآى الجمعان واقتتل الجيشان واحتدمت نار الحرب وراجت سوق المنايا قبالة (بستوا) وتبارزت فحول الحروب وقرومها واجادت الفرسان في المكافحة والمجالدة والمعاركة واظهر فسينوكان فنونه الحربية واستورى زناد الفتنة حتي

ترجرجت الارض وزلزلت الاقدام وداست حوافر الخيل اجساد القتلى وجرى الدم سيولاً

وما عتم ان رأى الامير كاميل وجوب القيام بالصدمة الحربية التي عليها يستتب النصر والفوز في هاتيك العصور فانتضى سيفه وصاح بالجيش الميلاني ان اهجموا كرةً واحدة والقى بنفسه بين صفوف الاعداء وتبعته الكوندتيارية والقواد اصحابه واذ ابصرت العساكر ما فعلت قوادها زعقت زعقات ارتجت لها تلك الربى والسهول واقتحمت صفوف الفلورانسيين بقلوب لا تهاب الموت وصدمتها صدمة تزعزع الجبال الرواسي فتضعضع ركن الفلورانسيين وانكسرت شوكتهم وارتدوا على اعقابهم خاسرين وولوا مدبرين يطلبون المدينة تاركين في حومة الوغى عدداً من الجرحى والقتلى وجانباً من المهمات والذخائر والاعلام فغنمها الميلانيون من جملة الاسلاب وكان لنصرهم هذا المبين وقع موءثر في جمهورية فلورانسا فاخذت لوقتها في تحصين المدينة متأهبة للدفاع

وعقيب المعركة بعث الامير كاميل لعمه الدوق جان غلياس رسلاً تحمل اليه بشرى هذا الانتصار مصحوبة بالاعلام التي غنمها من العدو في الحرب فقابلتها ميلان بالفرح والاستبشار وكان ذلك من الاعياد المجيدة التي احتفل فيها الشعب الميلاني وارسل حاجبه متّي يحمل لحبيبته فرجيني الرساله الآتية يقول فيها

يا حبيبتي فرجيني

ان ذكرى ذلك الموقف الهائل موقف الوداع يروع فوءادي اكثر من

هول فتنة بستوا التي تدرعت جلبابها فان بريق سيوفها اراني بارق ثغرك المتبسم وطعن رماحها الحاظك الجارحة الفتانة فذكرتك بين قعقعة السلاح وضجيج المعتركين وكان تصوري شخصك اللطيف يجروئني على القتال ويوسعني ثباتاً في الصدام فاتاني بالنصر الذي اصبت منه حظاً كبيراً

تتمثلين لعيني يا فرجيني جالسةً في فيء تلك السنديانة وانت تضفرين اكليل الغار الذي ساقتبله من يديك فاطير اليك بالافكار ويناجيك قلبي على بعد الديار

فهذا النصر الذي نلته اليوم على رغم من الذين صدعوا الفتنا وتمحلوا الحيلة في هلاكنا لسوف يرد كيدهم في نحرهم فقلي من البكاء وضني في ذرف الدموع الا اذا وقفت على قبري ان اخطأتني الامال ولا تحرميني من مراسلتك كلماتٍ تخطينها لي بيدك حتى اتنسم انفاسك العطرة ويبقى الكتاب عندي وديعة تنزل معي الى القبر اذا متُّ قبل التلاق

الفصل الخامس عشر

من سرّ اسرار الغرام شعور قلب م العاشقين بكل شرٍ قادم

لقد غادرنا الدوقة فرجيني في موقف ذلك الوداع الذي تتفطر له مرائر المحبين اسى وشجوناً فانها بعد ابتعاد كاميل عنها سقطت مغمى عليها بين الرياحين التي فرشت لها مطارفها وحنت عليها اغصانها حتى اقبلت مينرفا ابنة موءدبتها وحملتها الى سريرها واعتنت بها اعتناء الام بالولد ولم تفارق

وسادتها حتى رأت عيونها تتكحل بالكرى وما درت ان الغمض لم يمر باجفان تلك الحبيبة الا ليزيد عذابها وان ذلك الليل سيكون عليها من اشد الليالي هولاً فان احلامها وتخيلاتها المخيفة اضرمت قلبها وقبضت رجاءها فتارة كانت ترى حبيبها كاميل مصروعاً قتيلاً في ساحة القتال مشبوح الزراعين والدم يتفجر من جراحه العديدة وطوراً تشاهد ان الاعداء قد قبضت عليه وجرد احدهم سيفاً يطعن به صدره وهو يرمقها بعين لاح فيها الموت ويشير اليها بيده مودعاً فتهب من فراشها مذعورة مستطيرة القلب واعضاؤها ترتعد خوفاً وصرفت اسبوعاً كاملاً قلقة وجلة لا يطمئن لجنبها مضجع رغماً عن جهد مينرفا في تسكين لوعتها وتنفيس كربها الا انها في اليوم الثامن خرجت الى الحديقة لالحاح مينرفا وجعلت لها مقيلاً ظل السنديانة التي جلست اليها يوم فراق حبها فلم تتمالك ان اطلقت عنان دموعها السخية فبكت معها مينرفا لكنها بعد هنيهة قالت لها

ـ الى متى هذا البكاء والحزن يا سيدتي الدوقة فلو كان فيه لقاء كاميل لملأت الفضاء نواحاً وعويلاً فاقصري عناكِ وسري حزنك فاني اتشاءم من مثل هذه الحال

ـ ما لي الى كفكفة الدمع حيلة فانه بثة المظلوم واستراحة المنكوب يامينرفا لاني كلما فكرت في كاميل يخيل لي انه في بعدٍ باعدٍ عني واسمع هاتفاً خفياً يناديني من اعماق فؤادي ان الفراق طويل وكلما تعللت بيوم اللقاء ارى نفسي كأني ابغي امراً مستحيلاً وكلما تأملت في ازاهر هذه الحديقة والاماكن التي تذكرني به ارى عليها سمات الوحشة والذل فينقبض قلبي وتعاودني

اشجاني ويهمع دمعي

— هذه حالات المحبين يا سيدتي فلا تجعلي لهذه الاوهام سلطاناً على قلبك وافكارك فمولاي كاميل لا يجهل ان في سلامة حياته حفظ حياتك ايضاً ولقد تطوف به رجال كماة تفدي كل عضوٍ منه بارواحها فاستحلفك بحبه ان تسري شجونك وتنفسي كربك فان اكبر تعزية يتلقاها في ساحات القتال علمه انك قريرة العين مطمئنة النفس

— لست البس على قولك سمعي يا مينرفا ما دام في فؤادي دلائل مخبرة وعلامات نيرة تنبئني عن ويل قادم اجهل مصادره وموارده يتهدد كاميل ويتهددني معاً ولست اسكن الى ابيك واسترسل لتطمينه فالليالي من الزمان حبالى مثقلات ٍ يلدن َ كل بلية ٍ

— كلي امورك ِ الى العناية يا سيدتي فلرب امر ٍ مكرب ٍ لنا من عواقبه رضى وتجلدي فلا بد لكل ثائرة قلق من خمود ولكل عاصفة شجن من ركود

وهكذا ما برح دأب هذه الابنة مواساة وتخفيض جاش فرجيني ولكن على غير جدوى اذ القلق والشجن لم يغادراها وكلما طالت الايام زادتها ايجاساً

واما المؤدب لويجي فقد جعل دأبه وديدنه مذ شط مزار كاميل استطلاع كل الحوادث التي تمر في ميلان واستقصاء الاحوال الجارية في بلاط الدوق وقصر البارون بريفارا منتدباً من خدمه الامناء عيوناً وجواسيس تأتيه بالاخبار كل يوم تحفظاً على سلامة الامير كاميل وحذراً عليه من غادرة اونازلة ولم يكن احتراز المؤدب وتيقظه الا ليزيد فرجيني اكتئاباً وايجاساً

وفيما هي ذات يوم متكئة على مقعد ٍ في روضة القصر امام بحيرات الماء

تتوزعها الفكر والدمع يترقرق في عينيها كلما شاقها قرب حبيبها واذا بمينرفا اقبلت من القصر تعدو ويدها في الهواء تحمل رسالة كاميل وتشير بها اليها فلما ابصرتها فرجيني خيل لها ان الطرس الذي يلاعبه الهواء طائر السعادة قد اقبل يرفرف على يد مينرفا فانتصبت قائمة وتناولته بيد مرتجفة وقلب يخفق وتصفحته وهي لشدة الفرح لا ترى احرفه فكان الهوى يقرأ عنها والقلب يترجم لها وكررت تلاوته مرارا وادمعها تجري

سجالاً وتهتانا ووبلاً وديمةً وسحاً وتسكاباً الى هملان

ثم استدعت بالرسول متى حاجب الامير وبعد ما القت عليه الوفا من السؤالات عن الامير دخلت الى غرفتها وكتبت له الجواب الآتي

يا انس وجودي ومنتهى سعودي كاميل

لي من فراقك كل يوم حربٌ عوان يسفر عن انكسار قلبي وفشله فكيفما التفت لا ارى الا آثار الوحشة التي خلفتها لي . ان تدبير مهام الجيوش والقتال والعراك يشغلك عني واما انا فلا الرياض ولا الزهور ولا المياه ولا تغاريد الاطيار والشحارير ولا شيءٌ مما حولي يشغلني عنك بل يزيدني تذكاراً فلا اجد سلوة عنك الا بافتكاري بك

اني موجسة من بعادك يا كاميل وارى يداً غير منظورة تقبض على قلبي وتلقي على عيني رداء اسود لا اتبين ما وراءه وكنت اعتقد ان نقطة ماء البحر التي تدفعها الامواج الى قلب الصخر البعيد عن الشاطيء تكون في مأمن وسكون مهما اشتدت بعد ذلك العواصف واضطرب البحر واما الان فقد بدأت اشعر من ثورة زوابع هواجسي وقلقي باضطراب تلك النقطة

التي في قلبي . فبعهد الحب استحلفك يا كاميل حبيبي ان لا تركب الاهوال ولا تستهدف نفسك وتحملها على الخطر رحمة بمن بنت على انيس وداوك حضون آمالها ولا تحرمني التعزية الوحيدة التي هي رسائلك وحبذا حبذا اليوم السعيد الذي تراك فيه عيناي واضمك الى صدري يا من انت اعز من روحي الي" . ثم ضمخت الكتاب بالروائح العطرة وعمدت الى ذخيرة من الذهب عليها رسم صورتها فاودعتها خصلة من شعرها ودفعت الجميع الى الرسول . وهكذا تلاحقت وتعاقبت انتصارات الامير كاميل وبان شأوه على اعدائه الفلورانسيين في كل المواقع والمعارك التي استورى زنادها وزحف اخيراً لحصار فلورانسا التي كانت تهتز وجلاً ورهبة من سلاح الويسكونتي واقام عليها حصاراً شديداً

الفصل السادس عشر

❊ الجندي الولهان ❊

بينما كان الجيش الميلاني معسكراً قبالة اسوار فلورانسا يتأهب لحرب عبوس تنشب في صباح الغد خرج الامير كاميل والكولونل دوبو ينفضان الليل متنكرين ويتجسسان احوال الجنود ويرقبان الحراس والارصاد وما برحا يتخللان الخيام والمضارب ويصيخان سمعاً لاحاديث اولئك المقاتلين التي جلها ذكر حروب سعروها وغنائم اصابوها ومحارم اجترحوها وصعاب عانوها وذللوها . ثم تطرقا لاطراف المعسكر وما ابتعدا الا قليلاً حتى لاح

لهما شبح اسود قد انحاز عن اطراف الخيام وراح يعدو فتأثراه للوقوف على امره وهما يحاولان الاختباء عنه بخلال ما يصادفانه من الاشجار والادغال كي لا يراها اذا حانت منه التفاتة وهما يرجمان متوجسين اذ لم يخطر في ظنهما ان جندياً يجسر على ترك معسكره ليلاً ويعرض نفسه لقصاص ايسره القتل وما برح الشبح يعدو مرهقاً في سيره وهما يعدوان خلفه حتى بلغا قرية صغيرة على شاطىء بحيرة (فوكوكيو) فابصرا الشبح قد عرَّج على حديقة في رياض القرية يطوف بها سياج من العوسج والعليق الملتف تشرف على تلك البحيرة التي لا يسمع منها غير نقيق الضفدع فتقدما يختلسان الخطى مستترين وراء حاجز من الادغال بعد ما عمدا الى سلاحهما مترقبين عند اول مشهد مريب يبدو لاعينهما ان يبتدرا القتال

وكان القمر قد طلع يتجلى فوق ذرى الجبال العالية واضاء ذلك المكان والبحيرة التي كانت كانها سبيكة من الفضة اللامعة فهما ان يتحولا عن موقفهما لئلا ينكشف مخبأهما واذا بهما يسمعان لحن قيثارة من داخل الروضة يتلوها صوت ارق منها فاجفلا اندهاشاً واغراباً وتقدما مسرعين نحو المكان الذي جاء منه الصوت فابصرا من خلال الادغال جندياً ملتفاً بعباءته قد جلس في ظل صخرٍ بارزٍ ينبث من جوفه ينبوع ماء يصبُّ بخريرٍ مطرب على رصيفٍ من الحصى البيضاء تتطاير منه نقط لامعة يخالها الناظر على ضوء القمر لؤلؤاً منثوراً وهو يسقي الازاهر والرياحين المحتفة بـه والى جانب الجندي صبية وضاحة الطلعة بارزة النهد قد استرسل شعرها الذهبي على كتفيها وهو يلمع باشعة القمر فكلما حركت رأسها بدا منه نورٌ خفيف

سنجابي اللون اضاء به وجهها وعنقها الابيض وهي تضرب على قيثارتها الحاناً شجية وتنشد بصوت اطرب من شحرور الرياض

لي كل ليلٍ اذ يجنُّ زيارة ممن احبُّ فليلنا ستارُ
لامنكرٌ نأتي سوى شكوى الهوى فرقيبنا والشاهدُ الازهارُ

فاثر هذا المشهد الغرامي في الامير كاميل والكولونل فخيل للاول انه في حديقة مونزا وفرجيني بمرأى منه ومسمع تغنيه وتنعشه برخيم صوتها وتمثل للثاني انه بقرب بلانكا في الرياض على شاطيء نهر ادّا وباتا في ذهول يتوهمان انهما يريان تلك الرؤيا البهجة في اضغاث احلام و بودهما ان يطول الليل ليطيلا اليها النظر المقرون باللذة التي يشعر بها كل من نخس فؤاده ناخس الهوى

ثم ان الصبية قدمت الى الجندي طبقاً عليه من كل فاكهة زوجان فاكلا وشرعا يتلاسنان كالفي حمام ويتسامران باحاديث الحب وشكوى لوعة الغرام الى ان قال الجندي

— يا حبيبتي نيانزا اني لم اوافكِ هذه المرّة الاَّ لاودعكِ وداعاً قد لا يعقبه لقاء

— آه يا رودريك روعتَ فؤادي فماذا تقول

— لا ندحة لي عن اخباركِ يا نيانزا

— لالا اطيق استماع هذا الحديث

— واذا قتلتُ غداً

— هل برح الخفاء عن سرّك لافديك بنفسي

ـ لم يقف احد بعد على سرّ تخافي عن المعسكر ولا يدري به الاّ الخفير الذى يتقاضاني الجوائز والصلات وانا اجزل لهُ من العطية ليتسامح في مروري وهذه الليلة لم يدعني انقل قدماً قبل ان حبوته ذهباً كاملاً اذ كانت غايتي الاجتماع بك لاودعك فان الجيش يتأهب لمعركة عنيفة في الغد تحت اسوار فلورانسا فربما القى اجلي فيها

ـ آه يا ربي افي كل يوم حرب وفي كل يوم قتال

ـ وانتِ تعلمين يا فاتنتي اني لا اضنُّ بروحي عند احتدام نار الوغى فحين تبصرين غداً عجاج الحرب الكثيف المتصاعد في الفضا وتسمعين فديد الجيش وصلصلة الحديد اعلمي ان رودريك يهجم على الموت معرّضاً لفراقك الطويل كل لحظةٍ

ـ ان موقعة الغد سيكون وقعها في فؤادي فكيف لا اموت حزناً وجزعاً

ـ لا يحزنكِ موتي يا نيانزا فاني اذا متُّ اموت شريفاً واي شرف للرجل اعظم من ان يموت في ساحات الحرب وميادين الشرف

فابصر الامير والكولونل دموع تلك الصبية في تلك اللحظة تنحدر متدحرجة على صحن خدها كحباب الدرّ وهي شاخصة الى السماء المتلالئة بالنجوم وسمعا الجندي يقول لها

ـ اليكِ عن البكاء فالدموع لا تدفع الاجل فاحفظي يا نيانزا حبيبتي هذهِ الذخيرة حتي اذا ما مت تذكرين بها محبك رودريك وعسى الذي حفظني فيما خلا من الايام ان يحفظني لكِ في مقتبلها ومستأنفها

قال هذا وعقد يمينه على قامتها الهيفاء واتى معها بيتاً بمعزلٍ عن بيوت

القرية على مقربةٍ من الحديقة وقفل آيباً بقدم ثابتة يتغنى بلحن حربي حتى اذا اشرف على الجيش ابصر رجلاً مقبلاً يوسع الخطى فلما دنا منه حياه فاثبت به رودريك نظره فالفاه جندياً مثله

واما الجندي فمذ رأى رودريك بهت متوقفاً وبدت عليه دلائل الحيرة والخوف وصار متردداً بين الاحجام والاقدام فلم يدعه حبيب نيانزا في حيرةٍ بل ابتدره بالسوآل قائلاً

ــ من انتَ والى اين تسرب في هذه البيداء

ــ جندي ميلاني

ــ اني ارى عليك لباس الجندي فلأي قائد من الكونديتارية تنتسب

ــ اني تبع لفسينوكان انما يدهشني ان اراك في مثل هذا الميقات من الليل متخلفاً عن المعسكر وانت لا تجهل عقوبة هذا الذنب العظيم

ــ فاجاب رودريك وهو متعجب من تعرض الجندي له كانك تجهله انت ايضاً

ــ لا وانما الباعث الذي حملني على المخالفة هو نفسه يجعلني ان استخف بالعقاب فاقتبله بكل رضى

ــ وهل بلغت اهمية الباعث لحدٍ جعلك تستخف بالموت

ــ ليست هي بواعث عادية وانما هي واجبات مقدسة

ــ واجبات مقدسة بازاء حبيبة ام صديق

ــ بازاء والد ووالدة

ــ يا لها من شعائر شريفة

ـ فقد بلغني انهما اوشكا ان يموتا جوعاً في (بافي) وليس لديَّ من المال ما ابعث به اليهما فاستاذنت القائد في المسير اليهما فضنَّ عليَّ بسماحه فاغتنمت فرصة رقاد الجيش وغفلة الخفراء وانسبت كالافعى حتى بعدت عن الخيام وها انا سائر الى بافي

ـ وما عساك ان تفعل وانت معدم لا تملك يداك ما تسد به اعواز والديك

ـ لي قطعة ارض ابيعها بما هان واعولهما بثمنها الى ان تنجلي هذه الغمة اذ كل ما غنمته بهذه الحرب لم يقم بسداد اعوازي

ـ اذاً مهما تعجلت في قضاء امورك لا تستطيع ان تعود قبل ثلاثة ايام

ـ لا استطيع ابداً

ـ وستفوتك معركة الغد

ـ على اسفٍ مني لاني قد عللت نفسي عند افتتاح المدينة ان اصيب من الغنيمة سهماً وافراً

ـ ولِمَ لا تعتصم بالصبر لبعد الغد

ـ من يضمن لي البقاء لبعد القتال حباً او من يرجو لاحشاء والديَّ من الجوع رفقاً

فلبث رودريك برهة جامداً محملقاً في ذلك الجندي الذي كان يتلفت الى جبال الابنين المزمع ان يمر بها للوصول الى بافي واذا به قد قبض على ذراعه بغتة وقال له بحدةٍ يمازجها الحنو

ـ لا لا انا لا ادعك تذهب الى بافي كي لا يسربلك العار

- كيف

- ستعود الان الى المعسكر قبل ان يشعر بيعادك احد

- اتهزأ يا صاحبي

- العلك جبان يا رفيقي

ما للخوف من قلبي نصيب والشاهد استخفافي بالموت الذي ساقتبله جزاء فراري

- ان رفاقك الجنود ستأول فرارك قبيل المعركة للجبن والخوف فانا ساكفيك لقب الجبان

- وواجباتي

- ستتم الواجبات الوالدية والجندية معاً فالمال الذي انت في عوز اليه ادفعه لك لتبعثه الى والديك

- آه هذا كرم وسخاء لكني اتردد في قبوله

- لا بد لك من قبوله لانه يسوءني ان ارى جندياً مثلك شريف الشعائر يفر من المعسكر قبل القتال

فلاحت على وجه الجندي علامات الاندهاش وصار ينظر الى وجه رودريك مستغرباً من مثله هذه الافعال واذ ابصره رودريك صامتاً قال له

- لا تصر على العناد يا صاحبي فانك ان ابيت دريهماتي اكرهتك على قبولها اكراهاً

- هذا عار لا اطوق به عنقي فكيف تروم مني ان اسلبك ثمرة اتعابك التي لم تجنها الا بشق النفس

ـ اني ادفع اليك المال على سبيل الاعارة ترده اليَّ عند ايسارك او بعد عودتك الى بافي

ـ انك فتى كريم شريف ايها الجندي الباسل فقد توسمت فيك سجايا الكرام وصبت اليك نفسي واني لراغب في موالاتك فصداقة مثلك اغلى قيمة من الذهب الذي تعرضه عليّ فهل لك ان تخبرني عن اسمك ولقبك وتقص عليَّ حديثك اذ لا بد لوجودك ههنا بعيداً عن المعسكر من سرّ مهم وانا اعاهدك بقسم ان اتوخى موافقتك واقبل صلتك مهما كان قبولها عليَّ عسيراً

فاحجم رودريك عن الجواب ورمق الجندي بطرف عينه يريد ان يتبين دواخله من ظواهره لارتياب خالجه من سواله على انه لم يرَ الا وجهاً باشاً وسمة من الجلالة والمهابة مرسومة على لوح محياه فاجابه

ـ اي غرض لك في استطلاع اسراري واستبضاع اخباري

ـ ان كان ما يريبك مني فلا تعني نفسك باجابتي ودعني اعاود السير فقد اضعت عليَّ الزمن وتقدم يطلب الذهاب فامسكه رودريك وصاح ـ مهلاً مهلاً يا رفيقي فاني مجيبك الى ما طلبت فهل تعاهدني على كتمان السرّ

ـ بقسم ان شئت لانك تعلم ان ليس للجندي والداو صاحب في المعسكر يستودعه سره غير جندي نظيره وسوف تجد فيَّ صديقاً تحمد صداقته ومعرفته

ـ قل لي ما اسمك لاعرف الصديق الذي اخاطبه

ـ اسمي كارلو

فجلسا على العشب بلحف صخر كبير وابتدأ حبيب نيانزا بحديثه فقال
اعلم يا رفيقي كارلو ان اسمي رودريك دي البو ولدت في (براشيا)
من ابوين قد ترفعا عن اقرانهما حسباً وتميزا على اخوانهما ثروةً فاعتنيا في
تربيتي وتاديبي لاني كنت وحيدهما وعلماني بعض علوم مقتصرين على الاسهل
منها ولما بلغت مبلغ الشباب هاجت براسي حكة على ان اقتفي آثار الابطال
(الشفاليه) فتقدمت الى والدي ان يعلمني العاب السلاح فعهد بي الى
صاحب له قد اشتهر في الطعن والتصريع فمهرت في طعن القنا وضرب
الحسام اكثر من نجحي في العلوم ولوقتي عمدت الى جواد كان يركبه ابي
وصرت كل يوم اخرج مع صحب لي راكباً وعليَّ اثواب الابطال متأبطاً
سلاحي على ما كانت تفعله (الشفاليه) وكلما كان يهزأ بي ابي ويقبح
فعلي لارعوي عن جهلي كنت ازداد كلفاً كالطفل الذي كلما نهاه ابوه عن
امر ازداد فيه تعلقاً . ثم مات والداي وخلفا لي مالاً غزيراً وارزاقاً واسعة
مما سهل لي الخلود الى البطالة والبلادة والاسراف عن غير تدبير ونظر في
مصير امري اذ كانت مهنة الابطال التي اعتنقتها تقضي عليَّ بالكرم
وساعدني على انفاق ثروتي بعض اصحاب جعلوا دأبهم مداهنتي وتملقي والاطناب
في شجاعتي وفروسيتي فلم يمض على ذلك زمن الا وكادت تفرغ الخلية وتنزح
بئر ثروتي فافقت من سكرة جهلي وطيشي فبعت ما بقي من املاكي وفررت
في احدى الليالي واتيت ميلان اطلب الانتظام في دوائر حكومتها فقلدت
بالنظر لوجاهة والدي ولقبي الشريف الذي هو عباره عن خرقة تستر عورة
اسمي مهنة رئيس الشرطة فاعجب بي ولي امري فاجزلني العطاء ورفع منزلتي

لما شاهد من جسارتي واقدامي وشدة بأسي اذ كنت الشخص الذي تهابني قطاع الطرق واللصوص (البرافي) حيث جرت لي معهم وقائع وحوادث غريبة لا يسعني شرحها

فاتفق لي في خلال السنين الاخيرة بينما كنت عائداً من (برغامو) الى ميلان ان مررت ليلاً بغاب كثيف في ضواحي المدينة اعهده وكناً ومأوى لقطاع الطرق واذا بي اسمع صوت نواح ونداء ورأيت عن بعد نور مصباح يغيب ويبدو من خلال الشجر فترجلت عن جوادي وتقدمت كالصل ادب على يديَّ ورجليَّ بين الادغال والاعشاب حتى دنوت من المكان وانا مدجج بالسلاح فابصرت ثلاثة من اولئك اللصوص قد ربطوا صبية غضة الشباب فتانة المحاسن الى ساق شجرة والى جانبها امرأة في منتصف العمر مقيدة الذراعين مغمى عليها وامامها شاب في ريعان الصبا ملقى قتيلاً اثر جراحات بليغة في صدره ورأسه وقد هموا ان يفجروا بالفتاة وهي تنادي مستغيثة وتصيح مستجيرة خوف الفضيحة من قلب احرقه اليأس والثكل فلم اتمالك يا رفيقي ان صعد الدم الى رأسي حتى لم اعد ابصر ما بين يديَّ واحرقتني نار غيرتي حتى لم يعد لي جلد ولا صبر فاحدثت حركة اوشكت تستلفت انظار (البرافي) نحوي لولا اشتغالهم بالصبية الا انني استدعيت تجلدي وسكوني وتدبرت امري اذ كنت في موقف حرج يقضي على الواحد الفرد ان يستطيل على ثلاثة لصوص اشبه بالذئاب على مرأى من فريستهم فاصليت غدارتي ووقفت انظر الى الثلاثة البرافي لاعلم ايهم الزعيم فعرفته من صوته اذ كان يهيب برفيقيه ان يسدَّا فم الصبية بمنديل يمنع صراخها

ويخنق صوتها ورأيته قد عمد اليها ومد يده الى ثوبها فصوبت الغدارة الى رأسه فلم يشعر الا والرصاص خرق دماغه فهوى الى الارض يختبط بدمه واغتنمت فرصة انذعار رفيقيه وعمدهما الى السلاح فاطلقت الرصاص على القريب مني فانبطح صارخاً شاتماً وتحولت عن موقفي بخفة واذا باللص الثالث قد هجم على موضعي الاول واطلق النار فابتدرته بحربة جرحت ذراعه فولى يطلب الفرار وهو لا يلوي على احد فتقدمت نحو الصبية فرأيتها غائبة من رشدها فحللت وثاقها مع امها وعالجت الشاب فلم اجد فيه رمق الحيوة وما زلت اعتني بالمرأتين حتى استفاقتا وهما متلجمتا اللسان الاَّ ان الفتاة قبضت على يدي وشرعت تقبلها ناظرة اليَّ بعين ملئها الشكر فسكنت روعها وشجعت والدتها وسرت بهما من اقرب الطرق حتى بلغت ميلان

ولقد عرفت ان المرأة ارملة قد خرجت مع ابنها وابنتها تقصد ميلان من بلدتها برغامو فداهمهم الظلام وهم على مقربة من ذلك الغاب فما تبطنوه الاَّ وهاجمتهم اولئك (البرافي) فسلبوهم ما يحملون من المتاع وقتلوا الشاب الذي حاول الدفاع عن اهله وماله

فتوسلت اليَّ تلك الوالدة الثكلى ان لا اتركهما اذ لم يعد لهما بعد وحيدهما من عاصم ونصير فرايت من نفسي ميلاً بالنظر الى وحدتي ان اقيم تلك المراة مقام والدة تعتني في شاني فاويت بها مع الفتاة الى منزلي وابديت نحوهما من العناية والتحفظ ما جعلهما في سلوة عن فقيدهما · وما مكث الامر ان وقع في قلبي حب تلك الصبية وكلفت بحسنها وجمالها وصادفت عندها من الغرام والوجد اضعاف ما عندي فعقدت النية على ان اتخذها لي عرساً ·

الاَّ انها طلبت اليَّ بالحاح ان اباين مهنتي خوفاً عليَّ من المعاطب والهلكات لان قطاع الطرق واللصوص باتت تتهددني من كل صوب وكدت اقع مرة في قبضة رئيس بعض الزمر المدعو لويس دلبانو حيث فاجاته وهو يحاول مع رهطه سلب امير من الاسبان في الفالتلين وجرت بيننا مناوشة قتل فيها اثنان من قومه وقد تطاعنت مع ذلك الزعيم الشهير واوشكت ان استطيل عليه لو لم يفاجئني واحد من البرافي ويرميني بسهم اصاب ذراعي فجرحني جرحاً بليغاً

فصاح الجندي دلبانو

ـ هل تعرف هدا البرافي

ـ قد سمعت بذكره

ـ هذا زعيم رهط من البرافي مقامر سفاك دما يدعي الشرف وعلو المكانة للواذه برجل عظيم في المملكة ولقد حاولت ان القي عليه القبض لانكل به واقتص منه فلم يكن بين رجال المملكة من يطاوعني او يسمع شكواي ففي الليل يصحب قطاع الطرق وفي النهار يتخطر مع رجال البلاط وارباب المناصب متمادياً في غيه وباطله

وما برحت عطلاً عن العمل حتى اندمل جرحي فشرعت اهتم باعداد معدات الزواج الاَّ انه حدث في ما فرّق شملي عن تلك الفتاة وصدّع الفتى وهو اني بينما كنت سائراً على عجل باحدى شوارع ميلان صدمت على غير انتباه كتف رجل من الاشراف كان ماراً بجلاله يجر ذيل التيه ومن ورائه خوله البرافي فزجروني واوسعني شتماً واهانة فقابلته بمثل اهانته فاحتدم

غيظاً وابرق وارعد وامر اتباعه بايصال الاذية اليَّ فابتدرتهم بحربتي فقتلت واحداً وجرحت اثنين واذ رأى ما حل بخدمه هجم عليَّ يبتغي قتلي فلم امهله يصل اليَّ حتى طعنته فوخزته نخر لوقته صريعاً وانسللت بين جموع المتفرجين الذين ملأُوا الشارع بازدحامهم وجلبتهم ووليت مدبراً وعند المساء رأيت جنود الدوق ونفراً من اقارب القتيل وخدمه يسعون في طلبي لان ذلك الرجل كان من النبلاء اصحاب النفوذ في المملكة فايقنت بالهلاك ولم اجد لي ملجاءً الاَّ الهرب فاتيت حبيبتي التي تدعى نيانزا واوقفتها على خبري فبكت واعولت على فراقي وطلبت اليَّ ان اصحبها معي فانكرت عليها ذلك اذ ليس في امكانها تجشم مشاق الاسفار والترحال مع رجل فارٍّ لا يستقر على حال من القلق وعند توديعها اجريت عليها من الرزق ما يقوتها ثلاث سنوات حتى اذا لم اعد بعد انصرام هذا الاجل فهي حرّة مطلقة الارادة بريئة من لومي لها الخيار ان ترحل الى اي مكان شاءت وتتخذ لها رفيقاً وبديلاً من احبت

ثم خرجت من ميلان متنكراً خفيةً عن اعين الرقباء اضرب في مناكب الارض طولاً وعرضاً واتنقل شرقاً وغرباً وليس بوسعي يا صاحبي والوقت قصير ان اقص عليك كل ما جرى لي ومر بي ابان طوافي في اطراف البلاد او اشرح لك عن وقائعي في اسبانيا ومنازلتي مغاربة الاندلس وانتصاراتى فيها الاَّ انه بعد فوات السنين الثلاث التي ضربتها موعداً لحبيبتي اصابتني جراح قتالة في احدى المعارك اقعدتني عامين فلما برئت ونقهت في هذه السنة اسرعت في الاياب الى ميلان بعد فراق خمس سنين وانا قانط من لقاء نيانزا

فما ظنك يا رفيقي ‥‥‥ آه لقيت تلك الحبيبة بانتظاري غير مخلفة وعدي لانها بعد نفاد المال الذي دفعته لها عمدت الى بيع ما في البيت من طارف وتليد مع بيت سكن لها في برغامو بلدتها لتدفع البؤس والشدة واقفلت بابها دون طلابها حباً لي غير مبالية بضنك وخسف العيش فتضاعف شغفي بها وزدت فيها وجداً وغراماً ولما كنت صفر اليدين معوزاً مضنوكاً لانفاقي كل غنائم الحرب التي كسبتها على تمريضي سعيت اتدبر عملاً يسد فاقتي فسمعت باشتهار الحرب على فلورانسا فانخرطت في سلك الجنود المأجورة المتطوعة طمعاً بالمكاسب والغنائم لكن نيانزا اصرت على الحاقي هذه الكرة واخذت تتنقل من قرية الى اخرى اينما حل الجيش ولما زحفنا في هذه الاثناء على فلورانسا قصدت قرية على شاطي بحيرة فوكوكو فصرت اوافيها الى حديقة في ربض القرية وقد ذهبت في هذه الليلة اودعها قبل نشوب معركة الغد وها انا عائد من زيارتها على ما تراني

فهل بعد استبضاعك اخباري واهم اسراري تأبى قبول الدريهمات القليلة التي سادفعها اليك على سبيل الاعارة ثم عمد الى جيبه واخذ كيساً من الصوف الازرق فيه عشرة دنانير ودفعه الى الجندي الذي لم يتمالك ان عانقه لشدة ما اثر فيه حديثه و كرم اخلاقه وقبض على كفه مودعاً وقال لهُ

ـ الى الغد ايها الصديق الكريم فقد ازف الوقت لننقلب الى المعسكر فها الليل قد اقلع وولى قفاه ثم تودعا وآب كل منهما في طريق

الفصل السابع عشر

﴿ المكافأة ﴾

وفي صباح الغد تبادرت الكونديتارية والجنود الميلانية وتفلتت الفلورانسيون الى الحرب فتراءى الجمعان وتشامّ الحزبان وشب القتال تحت اسوار المدينة وما كان بقدر ارتداد الطرف حتى احتدمت نار الوغى واشتجرت الهيجاء والاسنة وتنازل الفرسان وتصادم الابطال وسطع الرهج من سنابك الخيل واخذ الفلورانسيون يدافعون امام الابواب و يصبون من اعالي الاسوار نيراناً محرقة والميلانيون يهجمون على الحصون والمعاقل وصفوف الاعداء بقلوب لا تهاب الفوت وما فيهم الا ابن كريهة واخو غمرات حتى اقتم الفضاء من الدخان وجلل الغبار اقطار الارض وصمت الاذان من وقع حوافر الخيل وتداعى المعتركون فكانت فتنة كقطع الليل اظهر فيها الكونديتارية من البسالة والاقدام ما حير الالباب

وفيما الامير كاميل بجرأته المألوفة يهاجم مضيقاً في السور حرج المدخل فاجأته ثلاثة فوارس من الاعداء واحاطت به احاطة السوار بالمعصم وطعنه احدهم بحربة في صدره فما كادت تصل اليه الا وجندي قد اعترض كلمح البصر بين الحربة وصدر الامير فوقعت الطعنة في ذراعه فجرحته جرحاً بليغاً فلم يعبأ ذلك الجندي بما اصابه بل ابتدر الطاعن بخنجر فوخزه وطعن الثاني فصرعه ومال نحو الثالث فرآه قتيلاً بسيف الامير الذي التفت ليتحقق من انقذه وفداه بمهجته واذا به رودريك حبيب نيانزا وهو مضرجٌ بالدماء

ورؤوس الحراب قد مزقت اثوابه وهو يمجر كاللبؤة الفاقدة اشبالها ويهاجم جمع الاعداء بجرأة صدره وثبات جنانه فامسكه وامره ان يعتزل القتال ويتنحى عن ساحة الوغى لانه ابصر ساعده يقطر دماً فلم يلو عليه رودريك بل اشار الى المدينة وراح يعدو الى مكان قد تلظت فيه نار الوغى واشتد القتال

وما برحت سوق الحرب رائجة تباع فيها النفوس حتى مالت الشمس الى الافول ووضعت الحرب ازارها فدخل الفلورانسيون المدينة واعتصموا بمعاقلهم وانكشف الميلانيون قبل ان يبلغوا منها غاية يهتمون بالحاد القتلى ونقل الجرحى

وفي صباح اليوم الثاني طرق الامير كاميل مع الكونديتارية والقواد خيام الجنود يتفقد الجريح منهم وما فتئ يتنقل من خيام الى خيام وهو كلما دخل مضرباً اثبت نظره بمن فيه كالمفتش على ضالة ينشدها حتى انتهى الى مضرب ابصر فيه رودريك مستوياً على فراشه خاشع الطرف وساعده معلق على عنقه فلما وقع نظره على الامير والقواد انتصب على قدميه اجلالاً فاشار اليه الامير مخاطباً قواده قائلاً

ـ هذا مخلصي ولولاه لاصبحتم اليوم بدفني تحتفلون

نخفق قلب رودريك لرنة صوت الامير وتذكر انه لم يخل قليل زمن من سماعه هذه اللهجة والصوت ولبث متردداً تقيمه الحيرة وتقعده ريثما اعرب الامير لرهطه عن حادثة المعركة والمتالف والاخطار التي حمل نفسه عليها ذلك الجندي ثم التفت الى رودريك وقال له باسماً

ـ تفرس في وجهي ايها الكمي الشجاع لعلك رايتني قبل الان

ـ آه رفيقي الجندي ... صاح رودريك وقد كسر في ذرعه لشدة دهشه ولبث محملق العينين فاغر الفم اذ درى فجاءة ان الجندي الذي صادفه تلك الليلة اثناء عودته من زيارة حبيبته نيانزا ليس هو الا الامير كاميل الذي استطرد الحديث قائلاً

ـ كأني بك قد تعجلت يا رفيقي استيفاء دينك وابيت الاَّ ان تطالبني بدين المال والحيوة معاً

ـ آه سيدي عفوًا ونعمة . هتف رودريك وانحبس لسانه عن زيادة الكلام

ـ فالموده التي ابرم حبلها وتأيدت عراها بيننا في تلك الليلة تأبي الا ان اسحب على ما كان من مغادرتك الجيش ذيل الغفران فانها سقطة كفرت عنها كرامة اخلاقك وشجاعتك . واما دين الحيوة الذي زدتنيه فلا قبل ولا بدان لي بوفائه يا رودريك الا ان اصطفيك واصطنعك واتخذك عضداً لى وساعداً لانك من قوم كرام ودم شريف ومن غد ستنتظم في عداد القواد اصحابي

وبعد ما فاه بذلك رمى الى ذلك الجندي بكيسه الازرق الصوفي وفيه خمسماية قطعة من ذهب وخاتم قد نقش عليه اسم الامير بحجارة كريمة وخرج مع حاشيته تاركاً رودريك في شدة العجب والانذهال يخالجه الشك ويجلوه اليقين

ومن عهد هذه الحادثة اقامه الامير في صحبته عزيز الجوار يلحق له

النعم بما تقدمها اذ رأى فيه رجلاً كريم الارومة عالي الهمة لايقتنص بالهوينا سمح الاخلاق صادق المودة ولم يكن شغف الامير كاميل به اقل من كلف الكولونل روبر الذي تعشقه لجراته وبسالته وكان يستعيده في كل مرة سار معه لزيارة نيانزا حديث دلبانو واقتتالهما في الفالتلين ولم يكاتمه حادثة غرق بلانكا ابنة بريفارا وصبوّ نفسه اليها وتهافته على حبها ووعده لها ان يميط عنها الاذى وينقذها من شر هذا الزعيم الذي خطبت اليه وكيف قد عيل صبراً وضاق من طول عهد الحرب ذرعاً للقفول الى ميلان ليبرّ في يمينه لتلك الحبيبة التي ما فتر يسمعها في كل يوم تستصرخه وتناديه وبئس الاهتمام ممن يهتم بنفسه فقط

وكم من مرة رأى هذا الكولونل في النوم خيال بلانكا قد اقبل يعنفه على انحرافه عنها ويعذله على تركه اياها هدفاً لقسوة ابيها وعرضة لخطر الوقوع في قبضة خطيبها دلبانو فيدخل على كاميل ليستأذنه بالانصراف الى ميلان فيلقاه وكفته راجحة شوقاً لفرجيني كثير التلهف مثله للعودة الى الوطن فينكف ناكصاً منقبض الصدر والرجاء يعذل نفسه ويعذرها لركوبها مركب الغرام الخشن كراض بان يترك الهوى ويخلص منه لا عليه ولا له

وكان الامير كاميل خلال محاصرته الفلورانسيين واخذه عليهم مهاربهم ومسالكهم يصرف سواد الليل مع اصحابه يتدبرون مستقبل امورهم حين عودتهم الى الاوطان ويتألبون موءتمرين على بريفارا وكاترين وجان ماريا ودلبانو اذ كانت هذه الامور محط رحال افكار كاميل واهتمام روبر

وعقيب عشرة ايام من نشوب نار الموقعة التي المعنا اليها آنفاً وردت

على الامير رسالة من فرجيني اثارت منه هموماً كامنة فتشعبته وفكراً خامدة فتوزنته فانقطع في العيشة الى سرداقه واستلقى على سريره واطلق عنان الفكر يجول في ميدان التأملات مفصلاً اثواب النجاح على قامة الآمال ومقدراً بساط العوز على ردهة الاجال وهو يقول

لا بد لي قبل الشروع باخذ ثاري من ان احظى بفاتنة لبي فرجيني فنيلي يدها وانتظام شملي بها يخولني السعادة ويكون فاتحة لقهر حسادي وكيد اعدائي وانا على يقين من ان عمي الدوق سيزفها الي وينجز لي هذا الوعد ويخصني بشطر من امارات لمبارديا فاستقل فيه كملك واثبت قواعد ملكي واشيد اركانه واحمي حوزته بشفار سيوف كونديتاريتي الباسلة وبعد وفاة عمي اغتصب عرش ميلان وانتقم من بريغارا وكاترين وجان ماريا ولاب فهم ثاري ٠٠٠٠ قد سرى في عروقي دم اولئك القوم الكرام اجدادي الذين حفظ التاريخ لهم ذكراً مجيداً فكيف ارضى ان اعيش خامل الجاه خفي المنزلة ٠٠٠ انا ٠٠٠ وقد استوريت زناد الحروب وسعرتها وقاومت الصعاب لاتوقل الى العلى وتسور الى الشرف لا لاسقط جاهي واحط رفعتي واسام خطة خسف ٠٠٠ انا ٠٠٠ انت يا موءدبي لويجي توءثر ان تراني مزارعاً في احدى قرى لمبارديا عن ان تلقاني ملكاً على عرشها وانا افضل المجد والسودد والانفة على حيوة الضعة والخمول

ثم لا يمكث بعد تهويم هذه الافكار والتمنيات في دماغه ان يسمع صوتاً خفياً يهيب به من اعماق قلبه ٠ السلامة في الاعتزال ٠ الراحة في المسكنة ٠ السعادة في القناعة ٠٠٠ فيعود للتأمل في نصائح مؤدبه منقباً في قوله ان

راس الملوك والعظماء هيكل الشقاء والهم والقلق فيألف فيه الحكمة والسداد فيختار ترك هذه الاباطيل والترهات وهجر الامور العالية والمحال النفيسة منقطعاً مع فرجيني الى قرية يقضيان فيها العمر بعيدين عن العالم واحنه الا ان حب الانتقام وعنفوان الشباب وتصور المجد لا ينشب ان يثنيه عن عزمه اذ النفوس مولعة بحب الثناء والمجد والناس متطاولون الى الدنيا واسبابها من جاه وثروة وليسوا في الاكثر براغبين في الفضائل ولا منافسين في اهلها فيقول اني لم اخلق للاعتزال ففيه لا يتسنى لي اخذ ثاري وقهر اعدائي فها دم ابي المطلول وروحه تناديني ان اثأرَ بقاتلهِ والاقدار قد فتحت لي باب العلى فلا ارى بدًّا من ولوجهِ فسافتح فلورانسا واعود لميلان ظافراً منصوراً واقتبل اكليل الغار من يد فرجيني ربة الجمال . ثم اخذ رسالة تلك الدوقة يعاود قرأتها وقد كتبت لهُ ما يأتي

يا فاتني وحبيبي كاميل

حفظت عهدك وساقيم على الامانة والوفا الى اخر نفس من الحيوة . واني وان انحرف قلبك عني وحدثتك النفس بالسلو سابر في يمين الحب اذ لك قلبي وامالي . ولك قد اوقفت حياتي وسعادتي . ولك وهبت كلي . لم اهوَ غيرك من صغر سني وفي كل آن لم اضن بروحي واليوم بت لفرط شوقي وتلهفي لا اصدق اني سالقاك او يجمع شملي بك ارى البون الفاصل بين فلورانسا وميلان شاسعاً كبعد الابدية وكلما التفت الى ميلان اشاهدها محاطة بضباب حالك السواد فلا استطيع ان اوقف سيل دموعي . اشاهد حمامة السعادة ترفرف في سماء مستقبلنا لكنني لا البث ان ارى جارحاً ينقض

عليها فيخطفها

عد اذاً يا كاميل عد يا غزالي لاتوجك با كليل الغار الذي ضفرته وهيأته لك فان بعدك يعذبني وانا لفي خوفٍ على سعادتي ان يسلبنيها الموت وتقدر لي السماء حظاً تعيساً حتى اذا جاء الحمام ينوح يوماً يجلس على رجام قبري ويبكي من رزحت تحت حجره قبل ان تتزود منك نظرةً

فقال ما الذي حمل فرجيني على تسطير هذه الرسالة ان لم يكن القلق والتوجس او ليست هذه دلائل قلب محب او ليس في قلب كل مغرم نبأٌ فما هي البواعث اذاً وليس من امرٍ طارىءٍ فمؤدبي لو يجي لم يحذرني خطراً على حين ما برح يعس الليل ويحرس النهار حذراً علينا من خلسة المفترس

فليست هذه الاوهام الا عوارض تنجم من طول عهد النوى على اهل الهوى واني سوف احقق سعادة تلك الحبيبة وابدل ببلبالها باطمئنان وهمومها بافراح و بينما هو يحدث نفسه هكذا آلف الغمض بين اجفانه فشرع يبني في عالم الرقاد من آمال السعادة قصوراً وصروحاً

فلندعه يلذ في الاحلام وهيا ايها القارىء نسير الى ميلان ومونزا لنرى ونسمع ما طرأ من الحوادث الجديدة والوقائع الغريبة فلست اتقاضاك عن هذه المشاهد اجوراً او اجشمك مشاق التنقل والتحول مع بون الديار الا بالافكار والتصور

الفصل الثامن عشر

قتل الفتى نفسه لأيسر من اكراهه قلبه على الحب

في عشية من عشايا شهر آب انسالت على فرجيني الهموم لطول بعاد حبيبها فخرجت تقصد حديقة القصر تنفيساً لكربها وجلاءً لصدى قلبها فبرزت تتخطر بين الرياحين والاشجار كانها آلهة الحقول وهي في كل برهة تحني قامة كالبان لتجني زراً من الورد او غصناً من المنثور ونسيمات المساء تتخلل شعرها فينتشر متطايراً وتتلاعب باطراف ردائها فيصفق طرباً

وبينما هي مكبة تقطف بعض ازاهار من بنفسج لاهية عن سواها واذا برجل تسلق الحائط والقى بنفسه الى داخل الحديقة فاحدث سقوطه صوتاً يكفي لتنبيه افكارها لو لم تكن في فلورانسا ترافق حبيبها ثم اقبل متلصصاً يختلس الخطى لا يسمع خفق قدميه على مرونة التراب متوارياً بخلال الشجر الغض حتى لم يعد بينه وبين فرجيني سوى قيد رمح فوقف لا يدري ما يفعل والصبية لاهية تقلب بكفها البيضاء اوراق البنفسج التي كانت تشني لطفاً مخافة ان تدمي تلك الانامل اللطيفة واذ لم يتمالك الغريب ان يلازم موقفه طويلاً ناداها بلطيف الصوت

— انت يا آلهة الحقول و يازهرة الجمال الى كم امكث واقفاً انتظر منك نظرة حسدت البنفسج عليها

فاجفلت فرجيني وطار قلبها شعاعاً لهذه المفاجأة · ولوقوع نظرها على شخص منتصب امامها بين الاشجار خيل لها انها ترى رؤيا فظلت تحدق

به على غير هدى واذ ابصرته يدنو منها صاحت مرتاعة « من انت » ونفرت تطلب القصر كالغزال الشارد لكنها قبل ان تنقل قدمها التي اثقلها الخوف شعرت ان ذيل ثوبها قد امسك وسمعت الرجل يقول لها

ـ مهلاً مهلاً ايتها الدوقة فانا صديق لا يريد بك سوءًا

فلفتت اليه فرجينى وهي عابسة واجلة وقالت من انت ومن اين اتيت

ـ سري روعك وتفرسي في وجهي يا فرجينى

ـ فرانسوا بريفارا

ـ نعم فرنسوا بريفارا اسير غرامك واني لراجٍ منك عذرًا وسماحًا عن هذه المقابلة الخارقة العادة فما دعاني الى سلوك هذا السبيل الا هجرك وصدودك

ـ وانّي توصلت الى هنا فجأة

ـ قد جذبني مغناطيس جمالك يا فرجيني فسقطت من السماء كالنسر الذي يهوي من علو الفضاء منجذبًا الى فريسته

ـ امن زمن انت هنا

ـ من دقائق قليلة جدًا

ـ هيا لندخل القصر فلا يحسن بنا القيام هنا

ـ لي كلام اسرهُ اليكِ

ـ انك تستطيع ان تقصه عليَّ في القاعة

ـ عذرًا يا سيدتى اذا حاولت كتمان هذه الزيارة عمن في القصر واسمحي لي ان ارفع اليك سرًا مهمًا

ـ لا اقابل يا فرانسوا من يوافيني من سور حديقتي فعد من حيث اتيت او فادخل معي القصر فليس بيني وبينك امور سريه تلجئني لهذا الاجتماع المريب. وخطت تطلب القصر لكنها قبل ان تخطو لمحت فرانسوا عمد الى غدارة في طي ثوبه واصلى زنادها فوقفت واجمة تحدق بالغدارة مترقبة ان تصوَّب اليها فاخطأ وهمها لان فرانسوا صوَّب فم الغدارة الى صدره وناداها

ـ قفي قفي يافرجيني لتشاهدي مصرع محبك فانا افضل الموت على مرأى منك من ان يقضي عليَّ حسرةً وكمداً بعيداً عنكِ وسيكون دمي مسفوكاً بغائلة هجرك وقسوتك وثقي بانك ان لم تصغي سمعاً لحديثي فانا قاتل نفسي لا محالة

ـ وما الذي تريده مني قالت فرجيني وهي تحاول الصبر والتجلد

فتبسم الشاب تبسم من شعر بنجاح خدعته وقال اني اعلم يا فرجيني ان هوى كاميل لم يدع في قلبك مكاناً لحب سواه على حين تعهدين اني عابد جمالك وله دنف في هواك ولم اكن اتعرض لمس شعائر فوادك لو علمت ان من تحبين مخلص لك الولاء مقابل تعلقك ووداك بالوفاء الا انه يسوئني ان اراك تضحين في كل يوم قلبك على هيكل الغرام لماذق مداهن مال بكليته الى سواك وافتتن بهواها عن هواك وتضيعين مغرماً صادق الحب مثلي لا يرى السعادة الاَّ في نيل يدكِ

ـ كاميل يحب سواي

ـ يا لكِ من مخدوعة تتوهمين صدق الولا من كاميل وهو اروغ من ثعالة وتتنسمين فيه الوفا والخلوص وقلبه منصرف لحب من تجهلين انها

ملكت فواده وهذا الذي يذيبني تحرقاً

ــ كاميل يهوى غيري هذا لا يكون ابداً انك تخلط السواد بالبياض يا فرانسوا

ــ انك لفي غرور يا سيدتي الدوقة وقد حالت بوادٍ غير ذي زرع فان البارونة لاب لم تبقِ له قلباً لحب سواها واست اعهد ان لابن كارلوس قلبين ليهوى اثنتين معاً

ــ البارونة لاب

ــ لاب بعينها واذا طلبت برهاناً وايضاحاً انرتُ لكِ الشبهة وكشفت الغطاء فان لديَّ الرسالة التي بعثت بها اليه لاب ليلة سفره تودعه وتطلب اليه العدول عن المسير الى فلورانسا لتعطيه يدها وهذه الرسالة في قبضة يدي مع غيرها من رسائل الحب ان شئتِ اطلعتك عليها لازيل ارتيابكِ

ــ اني لا اصدق ما تقول فان كاميل ذو نفس ابية يتنزه عن حب فتاة متهتكة خليعة من بنات الهوى فهو اجل واعف عن ان يتهم بالدناءة والخيانة وان كانت لاب قد شغفت بجمالهِ وادعت حبهُ كدعواك حبي فلا يوجب ذلك حبها منه كما لا يترتب عليَّ ان اصبو اليك فضلاً عن ان لاب ليست الاَّ ابنة محظية ابيك بياتريس التي علق في حبها قلب شقيقي جان ماريا وملكها قياده فاصبح العوبة في يدها تتلاعب بهِ متلونة كابي براقش فلسانها سلم موادع وقلبها حرب منازع فبأية عين جئت بعد هذا تلتمس رضاي وبأي لسان تدعى انها معشوقة كاميل

فلما رأى ابن بريفارا ان افعوان الغيرة لم يلدغ قلبها ولم يكبُ باكاذيبه

جواد غرامها كادت تنفطر مرارته فقال لها وقد انفتقت بنائق الصبر من صدره

— لقد تماديتِ في البهتان والمسبة ايتها المغرورة العاشقة وجمحت في الغي والعناد والجفا وخيل لك اني متجاوزٌ عن كاميل مبقٍ عليه ليحظى بجمالكِ فاني والله غير متحولٍ عن هذا الموقف قبل ان انال يدكِ طوعاً او كرهاً

— اقصر عناك فدون ما ترتجي خرط القتاد

— فرجيني فرجيني

— لا تتماد في الدهاء والمكر يا فرانسوا فاني اعلم ما استكنَّ في قلبك ودار في خلدك فانت في غنى عن جمالي ولا بغية لك الاَّ المدن التي عللت نفسك بنيلها من ابي فضلاً عن ان لك امالاً خفية كامنة في صدرك من مطامع الملك ان وفقت الى نيل يدي وكلاهما بعيد المنال اعز من بيض الانوق افلا تفصل اثواب النجاح على قامة امالك واقلع عن غيك فان ذلك خيرٌ لك وشرٌّ ما رام امروءٌ ما لم ينل

وبينما هي تتكلم بان شبح من ناحية القصر واختفى فجأة

قال فرانسوا وعيناه تتوقدان جمرا وقد عدم الصبر وخاف فوات الفرصة

— فرجيني فرجيني اترضين فرانسوا لك عرساً . ردي الجواب لا او نعم ففي الاولى موت وفي الاخرى حيوة فحاذري

فهال تلك الذوقة منظره لاسيما وقد تبينت منه الغدر والوقيعة وصارت تلتفت نحو القصر علها ترى احدا مقبلاً فلم يخفَ تلفتها على فرانسوا فكرر عليها السؤال مغاظاً فاجابته بشجاعة

— ابالقوة ترضي ان تثنيني عن حب كاميل

ـ لئن لم تقلعي عن حبه طوعاً لاجبرتك عليه كرهاً

ـ انك ترجو المحال فليس في الحب اكراه واجبار

ـ لا اخالك تعشقين الاموات حين لا يبقى من وجود حبيبك غير ذكره

لا تطمع في نيل يدي يا ابن بريفارا فاذهب وفتش لك عن غادة تخدعها وتروعها بتهديدك غيري

ـ ما دمت في قبضة يدي فلا اجهد نفسي في ابتغاء سواك فكاميل لن تريه بعد

ـ ساءت امانيك فاغرب عني ايها الخائن اللئ .. وقبل ان تأتي على آخر كلامها ابصرت غدارته قد صوبت هذه المرة الى رأسها وسمعته يهيبُ بها

ـ مكانك ايتها اللئيمة فخطوة واحدة تصرم اجلك فانت اسيرتي وفي قبضة يدي وسيمكن ما امتنع على رغم انفك

ثم صفر ثلاثاً واذا بثلاثة رجال متنكرين قد تسلقوا الحائط من الخارج ووثبوا الى الحديقة واسرعوا لجهة فرانسوا وفي ايديهم الخناجر وهم يلتفتون ذات اليمين وذات الشمال

فلبثت فرجيني لشدة الهلع والحيرة جامدة كصنم لا يتحرك منها الا انسان عينها وقلبها لكنها لما ابصرت اولئك اللصوص هاجمة تبتغي امساكها وسمعت فرنسوا ينادي هيا يادلبانو اختطف فريستك وسر بنا فالمكان خال انتبهت للخطر المعرضة اليه ورأت الموت افضل من الوقوع في ايدي هؤلاء البرابرة فولت مدبرة تطاب القصر وهي شابحة ذراعيها كقطاة مصابة تعدو امام الصياد مستعينة بما بقي من جناحيها سليماً الا ان الخوف اوهى عزائمها فلم

تتجاوز بعض الخطى حتى هوت على وجهها الى الارض وغابت عن حسها فادركها دلبانو خطيب بلانكا واحتملها وصاح برفيقه ان تسلقا الحائط وتناولاها من يدي وما كاد ينتهي من كلامه حتى امتلأت الروضة صراخاً وابصر الخدم تتراكض من كل صوب وفي ايديهم الحراب ومينرفا وامها تعدوان معولتين تناديان فرجيني فرجيني فاسرع لاسفل الحائط ورفع فرجيني ورمى بها الى جاكمو احد الرجلين فتلقاها هذا بين ذراعيه وهو على ذروة الحائط وهم ان يثب الى الخارج واذا برفيقه الى جانبه يصيح الفرار الفرار خيولنا قد ذبحت قد دهمنا من هنا ومن هناك

فمكث جاكمو واقفاً على الحائط حاملاً فرجيني لا يدري اي الجهات يتقي لكنه نظر فرانسوا ودلبانو مركنين الى الفرار وسمع الاول يناديه قائلاً اغمد خنجرك في صدر الصبية وفز فجرد ذلك البرفي خنجره ورفع يمينه ليطعنها واذا برصاصة اصابت ذراعه فخرقته فصاح تاركاً فرجيني والخنجر يسقطان من يديه الى اسفل الحائط في الروضة فصادف جسد فرجيني عشباً كثيفاً ونباتاً ملتفاً فبلغ الارض سليماً اما البرافي فقد لمح من اطلق عليه الرصاص وابصره قد صوّب غدارته ليطلقها عليه ثانية فوثب من مكانه وولى يطلب النجاة مع رفاقه شاتماً مجدفاً متوعداً

وكان السبب فيما تقدم ان فرانسوا بريفارا لما اعيته الحيل من تحقق امانيه قصد البارونة لاب نغلة ابيه وشكى اليها تباريح وجده بفرجيني وطلب اليها ان ترشده الى ما فيه نيل المرام فقدحت تلك الماكرة زناد فكرتها وصبرت الى المساء حتى جاء الدوق جان ماريا يزورها ويستمد رأيها فيما

استتب له من التدبير لقتل ابيه اذ كانت هذه الفتاة قد اغرته على الايقاع بهِ باشارة والحاح بريفارا على ما اسلفنا ووافقها هذا الدوق لجهله على القيام بهذه الضحية طمعاً بنيل العرش فاستأذنته باختطاف فرجيني من مونزا في اليوم الذي ازمع فيه القيام باعباء عمله العظيم وان تأتي بها سرًّا لقصرها وتحجزها فيه مخافة شيوع الخبر لتكرهها على قبول فرنسوا عرساً لها عوضاً عن كاميل وان لا لوم ولا تثريب عليه ما دام الدوق سيلقى حمامه في الليلة عينها نخالفها جان ماريا في بادىء الامر الا انه ما لبث حين سحرته بغنجها ولين حديثها ان اذعن لها صاغراً وللوقت اوقفت فرانسوا على ما دبرت وامرته ان ياخذ للامر عدته حتى اذا لم يتسع له حملها لقصرها يلحقها بالغابرين ولا يخشى من ذلك حرجاً او نكيراً

فاقبل فرانسوا على دلبانو خطيب شقيقتهِ يطلب منهُ مضافرة ومعاضدة فشايعه وتألب معه ودعا اثنين من اتباعه وهما اللذان رآهما القاري مرة ابان رحيل الجنود من ميلان لمنازلة فلورانسا وشرعوا يتجسسون قصر مونزا فعرفوا ان فرجيني تخرج في غالب العشايا الى الروضة فاكمنوا وراء سورها في مساء تلك الليلة المزمع فيها دس السم للدوق بعد ما خبأوا خيولهم في حفرة هناك وتسنم فرانسوا الحائط اولاً وتربص الباقون مترقبين اشارة الصفير كما اتفقوا الا ان الشبح الذي ظهر من ناحية القصر بينا كان فرانسوا يتهدد فرجيني لم يكن سوى مينرفا التي لما ابصرت الدوقة مع رجل غريب لم تشعر بقدومه نكصت على اعقابها واخبرت من في القصر فارتكض لويجي وحين ابصر ابن بريفارا شعر ان في ظهور هذا الرجل لجاءة شرًّا مخبأً ودسيسة

غدرٍ سبر غورها فامر خدمه في الحال بان تعمد الى السلاح وتتفرق في جوانب الروضة وهرع هو مع ثلاثة من رجالهِ الى ما وراء سور الحديقة وبوصوله لمح دلبانو وجاكمو ورفيقة يتسور من الجدار ونظر خيولهم في الحفرة فاشار الى خدمه ان تخرق احشاءها بحرابها وتكمن وراء الحائط حتى اذا رأت اللصوص قد عادت تطلب الفرار تطلق عليها الرصاص فما عتم ان اعتلت الضوضاء من داخل وزاد الصياح

وكان بين اولئك الخدم شاب امين جسور يدعى روكو فهذا لبث يترقب لمحة من غرة العدو وظهور اول شخص من راس السور ليعمل فيه النار

فلما ظهر جاكمو حاملاً فرجيني لم يجسر روكوان يطلق الرصاص مخافة ان يصيب سيدته ولكنه مذ لمح ذلك البرافي قد رفع يده ليغمد خنجره في صدرها عاجله برصاصة خرقت ذراعه على ما تقدم

ولقد ساعد هجوم الظلام هوءلاء الاشرار على الانقلاب والفوز بانفسهم فنكصوا على اعقابهم خاسرين وانصرفوا يتهددون و يتوعدون قصر مونزا وساكنيه بالويل والانتقام وفي قلوبهم تغلي مراجل العداوة

الفصل التاسع عشر

❊ الطاعون ❊

ان هذا الوباء الذي كثيراً ما نزل بايطاليا وفتك في اهلها فتكاً ذريعاً وافنى منهم خلقاً لا يحصى كان يتهدد يومئذٍ مملكة لمبارديا بقدومه عليها

والشعب غير منصدع له ولا متخوف منه تخوف من وقع له الفكر فيه انه وباء عام وداء عقام عياء وذلك لفاسد زعمه انه سم مجهول تحمله الاعداء وتنثره في كل مكان وصقع فمن علق به شيء منه ابتلي بالداء الذي اطلق عليه اسم داء السموم

ولقد كانت هذه الاوهام والخرافات التي دبت في عقولهم في هاتيك العصور سبباً في هلاك اناس كثيرين فكان الشعب اذا بصر برجل ينفض غباراً او يمس جداراً عرض له انه ينثر السم فينقض عليه و يطحنه باقدامه طحن الرحى

ولم تكن الا ايام حتي فشا الداء في ميلان وعم بلاؤه جميع القرى التي تجاورها ورغماً عن سعي الاطباء في بيان حقيقة امره ونصحهم للشعب بالتحفظ منه والاهتمام الى ما يصرفه عنهم لبث الرأي العام مصراً على باطله متمادياً في ضلاله وعمايته حتى تفاقم الصدع واستشرى الفساد وعطف الوباء على الاهلين عطفة الحنق فافنى منهم خلقاً كثيراً

وكان جان ماريا في تضاعيف ذلك لا يقعد عن زيارة محظيته لاب فاتفق في اليوم الثالث من شهر ايلول سنة ١٣٠٢ اليوم الذي اشتدت فيه وطأة الداء انه اتاها في بدء الليل فلما استقر بها المكان جعل يداعبها و يباسطها وهي تعرض عنه فقال لها

ــ ما بالك يالاب غضبى

ــ كيف لا اغضب وانت قاعد عن امورك لا تنظر الى اكتساب المنزلة الرفيعة تستبدل الذل من العز وتؤثر البقاء محكوماً لا حاكماً فعلامَ

لا تلقي عن منكبيك نير ابيك اظننت انك في قتله تأتي امراً فرياً لم يسبقك اليه احد من قبلك

ـ اسمعي عذري وبعد ذلك عنفي فانا لم اخالفك بما اشرتِ عليَّ به من دس السم لوالدي الا ان خادمي الذي عهدت اليه القيام بهذا العمل ضل عن صحفة المرق التي ألقيت فيها السم فوضعها على المائدة امام الامير سفروسا فالتهمها وانا ناظر اليه لا استطيع منعه عنها فمات في الحال فظن ابي انه مات مطعوناً واشتبه عليه الامر فلم يطلع على باطن ما اتيت به

ـ ليس اذن في معاودة الامر من خطر عليك لان اباك اذا مات مسموماً فلا يواخذك احد بقتله ولا يظن بك سوءاً بل يقال ما قيل عن الامير سفروسا فان امثال هذه الحوادث كثيرة الوقوع في ميلان فتدارك امرك يا مولاي واعلم ان فلورانسا سوف لا يتمادى امر حصارها حتى تخر بين يدي كاميل فاذا لم تستعمل في امرك ما يجب اسرع الكرة الى ميلان واغتصب منك الملك فعجل في قتل ابيك لاني ذائبة شوقاً الى ان اراك مستوياً على عرش لمبارديا لتقربك عيناي وتصبح حاكمي ومالك قلبي معاً

قالت هذا والقت بنفسها بدهاءٍ بين ذراعيه وجعلت تقبله لتفتنه وتستغويه بخدعها وتجرئه على ركوب الخطر

فقال لها وقد غلب جهله على عقله لبيكِ يالاب فاني ناظر في الذي اشرتِ وعامل بما امرتِ

ثم نظر الى ساعة قد علقت في الحائط وقال قد ابطأ بريفارا يا لاب

ـ واين تركتهُ

ـ سألته ان يقبل معي اليك فطلب اليَّ ان اسبقه في اتيانك ولكني لا اكتمك اني تركته في شُغل شاغل مع امي وقد سألها ان يخلو بها

وفيما هما يتحاوران كان البارون بريفارا قد ولج مدخل الحديقة الخفي واقبل فرحاً يمشي نحو القصر وهو يقول في نفسه قد انتظم لي الامر والتدبير وادركت حاجتي دون ان اتعب نفسي في الكد والسعي فان الانحراف الذي عرض للدوق جعله يكتب وصيته وكاترين لم تكتمها عني فانه عهد بالدوقية من نازين حتى منسيو الى ابنه جان ماريا وبكونتية بافي الى اصغر ولديه فيليب ماريا واوصى الى كاميل بلودي وان يعقد له على فرجيني بعد عودته من فلورانسا وجعل كاترين ولية تحكم البلاد مع سبعة عشر من الكوندتيارية اقامهم اوصياء حتى يحفظوا البلاد ويوطدوا اساس الملك لئلا يختل امره بعد موته وتغتصبه اعداؤُهُ ... ولكني لا ابالي بالاوصياء ولا يهمني امرهم فهم رجال حرب ليس فيهم من يضطلع بتقويم الملك وسياسته وسوف لا ينهض به غيري متى استوثق لكاترين الامر واستبدت به وهذا ما اتمناه واطمح اليه ليخلو لي معها الجو ...

يلزمني لبلوغ امنيتي تحقيق امرين موت الدوق جان غلياس وهلاك كاميل والامران يسيران فجان ماريا ساعٍ في قتل ابيه وانا ساحتال لكاميل والحقه بابيه وعلى الدنيا السلام

وكان قد انتهى بهذه الافكار الى القصر فلما رآه الحاجب اسرع فاخبر البارونة بقدومه عليها فاستقبلته لاب واقبلت به الى القاعة فلما بصر به جان ماريا قال له

ـ لقد شغلت بالي ايها البارون بتأخرك عن لحاقي فما الذي اوجب ابطاءك

ـ اهتمامي بما بلغني من توعك مزاج ابيك الدوق فقد قيل انه اصيب بانحراف تقرب اعراضه من عوارض الداء الذي عم البلاد وافنى العباد

ـ احقيق هذا هتف جان ماريا وهو ناظرٌ الى لاب واسرَّة جبينه تبرق فرحاً

ـ ان الدوقة كاترين اخبرتني بذلك اما الطبيب فقد قال ان لا خوف عليه وان ما اصابه ليس الا عارضاً وسينقضي

قال جان ماريا لعلَّ ذلك من شدة فرحه بالنصرة التي اوتيها كاميل على الفلورانسيين واني لا اكتمك ايها البارون ان ظفر كاميل فشل لنا وانتصاره شؤوم ووبال علينا

ـ لا تخف شيئاً مما اراك تخاف منه فانت ستجني ثمر هذا الانتصار ويصبح المثل القائل بعض يصيد وبعض ياكل السمكة

ـ ان كنت تطمع ان تحتال له فاسرع في تدبير امرك قبل ان يتعجل الاوبة الى ميلان فاني لا اصبر على رؤيته قادماً اليها بالاحتفاء والاحتفال مكللاً بالغار

ـ قرّ عيناً يا مولاي فاني لا افعل الا ما تطيب به نفسك وسوف اسلبه الاعلام التي غنمها من فلورانسا واعمم بها هامات رجالي قبل ان يتسنى له الوصول الى ميلان

وكان في القاعة تمثال من الشمع يمثل روملوس مؤسس رومية ذابحاً

اخاه ريموس على سور المدينة على ما جاء في التاريخ فاشارت اليه لاب وقالت

ـ ان كاميل لا يتجاوز سور ميلان قبل ان ينزل ما نزل بريموس من روملوس الثاني مشيرة به الى بريفارا

فقهقه الدوق والبارون ضحكاً وتمايلا طرباً وسروراً

قال جان ماريا عليك اذاً يا بارون ان تتلطف في الحيلة لئلا يداخل والدي سوء ظنٍّ بنا فهو شديد الكلف به يحبه حباً شديداً

ان البلاد قد ملئت باللصوص والبرافي فليتهم الدوق من اراد منهم بقتله وهب التي في خلده ما يريبه منا فهل يؤاخذ الفيل بقتل الحوت والسمكة بقتل جرذ البرية والكل يعلم ان الهرّ قاتله وسوف يتحدث الناس بخبره حيناً ثم يمسكون فينقطع ذكره كما خفي خبر ذلك المأدوب الذي سقته لاب عصير تلك الكاس فصاحت لاب وقد استوت على مقعدها صفراء الوجه رفقاً فلا تخطر على بالي تلك الحادثة ايها البارون فقد كفاني من تونيب ضميري عذاباً

فاستتلى بريفارا كانه لم ينتبه الى كلامها قائلاً وهكذا نلحق الذنب بالرأس ونردف الابن بابيه

ـ انت محكم في قتل كاميل تعمل فيه بما ترى وقد جعلت امره اليك فشأنك وما تريد واحذر الفشل

ـ اني قد اخذت للامر عدته وهيأت هيأته فلست اخاف فشلاً ولا خيبة وسوف ازدلف الى لويس دلبانو بيد ابنتي فازفها اليه اذا عاد ناجحاً مظفراً بحاجتنا لاني ساعوّل عليه في ذلك ولست اطلب بعد هذا من

نعمتك مكافأة وجزاءً غير انجاز وعدك لولدي فرنسوا بجعلك فرجيني له عرساً ليدخل قصر موزا من ابوابه بدلاً من تسور جدرانه

ـ اني سانجز وعدي في كل حال والبارونة شاهدة عليَّ بما اقول

قالت لاب ان الدوق لا يخلف وعده ايها البارون فطب نفساً واخبرنا عما دبرت من المكيدة

اني اريد ان افصل كاميل مع اصحابه عن فلورانسا بالحيلة لان صيد الحية في وكرها صعب لكنها اذا انسلت منه امكن قتلها وقد عرض لي ان ابعث اليه بكتاب انحله عن لسان رجلٍ من اخص اصحاب ابيه واذكر فيه ان الدوق قد ابتلي بمرض عضال لا ترجى منه سلامته وانصح له ان يعود الى ميلان لينال من الملك نصيباً

ـ انه يقبل سريعاً لان ذلك امرٌ يطمع فيه ويشرأب اليه

ـ ومتى اقبل نقطع عليه الطريق قبل ان يبلغ ميلان ونعهد اليه بمملكة الظلمات ليملك عليها دون مزاحم او منازع

قالت لاب اني لا ارى لكما ذلك رأياً لان كاميل اذا عرف ان الدوق مشرف على الخطر زينت له نفسه نيل الملك وربما تألب مع الكوندتيارية واستعان بهم على اقرار الملك في يده فيتراجعوا عن فلورانسا ويزحفوا على ميلان بخيلهم ورجلهم فنقع في خطر لا نأمن وخامة غبهِ ونكون كمن حفر حفرة فوقع فيها

قال جان ماريا لقد نطقت صواباً يا لاب وان في كلامك لبياناً وسحراً

اما بريفارا فظلَّ ساكتاً مفكراً يعبث بشاربيه ويزوي ما بين عينيه

الفصل العشرون

﴿ مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائد ﴾

وبينما كان بريفارا يقدح زناد قريحته ويعصر يافوخه لاستنباط الحيلة التي يتمحلها في فصل كاميل عن فلورانسا واستقدامه مع اصحابه والسكوت سائد في القاعة واذا بجلبة قد قامت في فناء القصر فاصغوا جميعهم لها فسمعوا وطء اقدام تتراكض في عرصة الدار

ثم ابصروا باب القاعة قد دُفع بعنف وفتح فجأةً فاجفلوا اجفال النعام ووثبوا وقوفاً على اقدامهم وشخصوا بابصارهم نحو الباب وصاروا كلهم عيوناً واذا بمرتينلي حاجب الدوق جان غلياس قد اقبل وهو مذعور طائر القلب فاقد الرشد اصفر الوجه يضطرب كورقةٍ في مهب الريح ولما وقع نظره على ولي العهد جعل يصيح بصوت لجلجه الخوف

ـ ادرك اباك يا سيدي فهو في ...

ـ هتف الدوق في شدة دهشه ليعينه على استتمام الكلام فهو في ..

ـ في نزع اليم

ـ صاح جان ماريا كالصدى الذي يعيد كلام الصارخ نزع اليم

ـ اواه يا سيدي نازلة ... فاجعة .. الذوق مسموم ... دواء السموم ... الطاعون ...

وكان مرتينلي يردد هذه الكلمات وهو يلطم ويقرع صدره ويدور في الحجرة ليهتدي الى الباب

فلما تدبر جان ماريا كلام الحاجب هاله الامر واكبره فلبث واقفاً فاغر الفم لا حراك به لكنه مذ تفرس في مرتينلي قصد الرجوع فوراً انتهره قائلاً

ـ ويلك يا مرتينلي اقل عنك الجزع وحدثني عما اصاب الدوق

ـ قد عرض له عارض فجائي اعيى الطبيب امره هيا يا سيدي فربما لا تدركه حياً فقد تركته يجود بروحه

فادرك ولي العهد في تلك البرهة دهش ووقع في نفسه جزع رغماً عما عهد به من غلاظة الكبد فهم بالخروج لكنه ضل عن الباب فجعل يطوف بالقاعة كالمفتش على حاجة

فاسرعت اليه لاب مذ رأته على تلك الحال وضمته الى صدرها وهمست في اذنه بعض كلمات ابرقت لها اسرة جبينه فاقبل يجري الى مركبته وتبعه بريفارا وهو لا يكاد يطأ الارض لشدة فرحه لانه رأى ان الاقدار جاءت تنيله المرام عفواً وتسعد امانيه مجاناً

ولما بلغا الشارع ركبا المركبة وسارا يطابان البلاط وهما لا يتكلمان اذ كان كل منهما مشتغلاً ببناء صروح السعادة المزمع ان يجعلها مباءة له في مستقبل الايام

وكان من الامر المقدور ان حاكم لمبارديا الدوق جان غلياس ويسكونتي اصيب من ثلاثة ايام بالداء الذي عم بلاؤه اطراف المملكة فكتم امره واجهد نفسه في مقاومته بالصبر والتجلد الا انه لما لم يستطع في اليوم الرابع لنفسه ضبطاً لاشتداد ثورة الداء كتب وصيته ودفعها الى زوجته كاترين

وفي نحو الساعة الثالثة من الليل احس بآلام مبرحة فنادى حاجبه

مرتينلي ليتداركه بالطبيب فلما اقبل الطبيب تسرع الى غرفته فابصره منقلباً على مقعدٍ بالقرب من سريره واعضاؤه متقلصة وعيناه جاحظة وسحنته منقلبة ووجهه كالح وهو في حالة يهلع لها الفؤاد جزعاً فناداه فلم يجبه الا بأنين وزئير فعض الطبيب على شفته واغرورقت عيناه بالدموع واشار الى ان الدوق في سكرة الموت وان علة اخرى فاجأته فعجلت مرتحله

ثم لم يلبث ان تعالت اصوات اليأس في البلاط واحتشد فيه الامراء والحكام واحدقوا بغرفة الدوق وهم يبكون و يعولون

ولم تكن الا ساعة حتى اقبل ولي العهد جان ماريا الى حجرة ابيه فابصره مطروحاً على سريره كالجذع الممدود ووجهه متبرقع باصفرار الموت وصدره يختلج مضطرباً كالبحر عند دنو العاصفة فجلس عند قدميه يتباكى لان نشوة السرور التي اخذت من نفسه بانصراف الملك اليه كانت تتغلب على سورة الحزن فيتكلف البكاء تكلفاً

ولقد سرى نبأ هذه الفاجعة في المدينة وارباضها بسرعة البرق فهبت الناس من منازلها واقبلت نحو البلاط حتى شحنت الساحات التي تحيط به بالوف الوف من الخلائق وهي تموج بدون ازدحام اذ كان لا يجسر احد منها ان يمس الاخر او يلطأ به مخافة ان تعلق عليه سموم الداء فكان يخيل للناظر الى تلك الندوات والعرصات والناس شاخصة في القصر مادة اليه اعناقها لا يكلم بعضها بعضاً من المهابة وشدة الجزع انه يرى اشباحاً سوداء تموج في بحرٍ من الظلمة

وقبل انتصاف الليل فاضت روح ذلك الدوق العظيم وانشبت فيه

المنية اظفارها

فعلت وقتئذٍ ضوضاء تلك الجماهير وجلبتهم حتى بلغ الى الفضاء هياجهم وضجيجهم فحكى هدير بحرٍ متلاطم بالامواج وكان يسمع في تلك الاثناء اصوات تنادي من كل ناحية — الموت الموت للقاتل — قد سمّ الدوق — لعمر الحق مات مسموماً — قد قتله ظلمه — هذه عاقبة الظلم والطمع — جواسيس فلورانسا دست لهُ السم فمات — كان الدوق العظيم اليوم حياً فكيف مات بعدل جوزي محتقر الدين

ثم ما لبثت تلك الجماهير ان تمزّق شملها وتفرّق جمعها وعادت الى اماكنها كاسفة البال كثيرة البلبال

وكان منذ اقبل بريفارا مع جان ماريا الى البلاط تقدم حتى وقف على مقربةٍ من الدوقة كاترين وجعل كل منهما ينظر الى الآخر نظرات اغنت عن الكلام حتى فاضت نفس الدوق فاشارت اليه بلحظها انِ اتبعني فتبعها الى مكتبة الدوق وفي صحبته جان ماريا ولما استقر بهم المكان تنفست كاترين الصعداء وقالت بجسارة لا تعهد بالنساء امثالها

— ان الدوق قد مات ايها البارون وهيهات ان يعود من مات فعلينا ان نتفرّغ لشأننا ونتدارك الحوادث قبل وقوعها فان الاهم قبل المهم

— تكلمي يا سيدتي فما من احد يسمعنا

— ان خبر موت الدوق لا يلبث ان يشيع واخاف ان هو بلغ كاميل ان يتألب علينا ويزحف الينا بمن معه من الجند والقواد ويوقعنا في شر ورطة فقد دعوتك لاستعين برأيك على التماس المخرج منها لاني معترفة لك بحسن

الراي وقد اخبرتني بالامس انك واجدٌ حيلة تغلبه بها وتفسد عليه امره فشأنك وما تريد

فقال جان ماريا ان البارون يا اماه خليق ان يصرعه فان الحيلة تفيد ما لا تفيد القوة فسوف يكفينا شرَّه ويستقدمه من فلورانسا ويقتله مع اصحابه وهم على الطريق

قالت كاترين اذا كان ذلك لم يزل من رأيك فالسرع السرع قبل بلوغ الخبر اليه

قال بريفارا انعمي بالاً ياسيدتي فاني ساحقه بالدوق كي لا يشق عليه فراق عمه ثم عمد لوقته الى منضدة وتناول طرسين واندفع يكتب فلما فرغ من الاول دفعه الى كاترين فمذ قرأته تبسمت بشماتةٍ واسرعت فوقعت عليهِ بتوقيع الدوق وختمته بطابع المملكة واما الثاني فوقعت عليه مع ابنها جان ماريا واعطتهما الى بريفارا فتناولهما من يدها وهم بالخروج من عندها فامسكته وقالت

- اني القيت ازمة الاحوال اليك فحقق ظني فيك وليكن ذلك بسرعة تسبق الفكر لئلا يجري الدم امام ميلان انهاراً

فانحنى لها البارون وانقلب مولياً الى منزلهِ

وفيما هو في بعض الطريق اخذ في تدبير المكيدة واذا به يرى دلبانو فصاح به من فرحه ما ابركه من اتفاق اتبعني فاني في اشد الحاجة اليك فسار معه حتى اتى به منزله

واتفق ان ارقت بلانكا ابنة بريفارا في تلك الليلة ونفر الرقاد عنها

واشغلها ذكر حبيبها روبر الذي ذابت شوقاً اليه وحنت وجداً الى لقاهُ لانها ما برحت منذ سار عنها الى فلورانسا أليفة الهواجس حليفة الاكدار تسأل عنه كل غادٍ ورائح وتجس الاخبار وتصيخ لاحاديث ابيها ومحاوراته لتستطلع من نحو محبها خبراً

فلما دخل ابوها ودلبانو البيت تنبهت لوطء اقدامهما فنظرت من خلال سجف نافذتها المشرفة على ساحة الدار فرأت اباها قد اخذ بيد دلبانو وولج معه غرفته ورد عليه الباب فطار قلبها جزعاً واوجست من هذا الاجتماع شرًّا وبدا لها ان تنصت لحديثهما فالتفت برداء طويل وخرجت من خدرها تسترق الخطى حتى وقفت امام الباب واصاخت سمعاً واذا بابيها يقول

ـ ولقد انتخبتك لهذا الامر الذي لم ارَ له احداً سواك فحقق ظني فيك لا تباهي بك امام الدوقة كاترين

ـ لك عليَّ امرة مطاعة فمرني بقتل نفسي افعل

ـ ليس لي في نفسك حاجة وانما حاجتي ان تورد هؤلاء الثعالب موارد الهلكة

ـ اني فاعل ما امرت

ـ اياك ان يقع بك الفشل او التقصير

ـ اني لم اقهر يوماً فكيف تخاف ان اغلب

ـ اخشى ان يكون مع الصوائب سهم خاطيء وهذا الامر اذا لم تنجح به كان فيه بواري وبوارك

ـ لا يكون الخوف مما يعرض في نفسك ياسيدي البارون فقد جربتني

وعرفتني اني استخس العظيم واستصغر الكبير فلو كلفتني ان افتك بابليس وجنوده لفعلت دون ترددٍ او جزع

– بورك فيك يا عزيزي دلبانو فانا لا اكلفك قتال الابالسة او الجان ولكن قتل كاميل واصحابهِ

– اليسوا هم في فلورانسا جميعاً

– اجل ولكن الثعالب لا تصاد بين المنازل والقصور

– هل تعني في قولك هذا اني لا اقدر عليهم وهم في ارض فلورانسا

– خذ واقرأ هذا الكتاب لتعلم باية حيلة عنَّ لي استقدامهم قال هذا ودفع اليه الطرس الذي وقعت عليه كاترين بتوقيع الدوق جان غلياس فما كاد دلبانو يتلوه حتى صاح اني ادركت ما قصدت به وانجلت لي غوامض الامور فان النعاج لا تخطفها الذئاب من الحظيرة بل من المراعي في البراري على غفلةٍ من الرعاة والكلاب

اذ قد ادركت الحيلة من هذا الكتاب فما عليك الاَّ ان تاخذ من رجالك كل داعر وسارب وجسور باسل واجهد جهدك لتظفر بالمنى واياك ثم اياك ان يفوتك الامر واعلم ان الوقت ثمين فالدقيقة ان مرت سدى تورثنا الخيبة والندامة

– في اي وقت توءثر ان تبعث بالكتاب الى كاميل

– في هذه الساعة بل في هذه الدقيقة وليكن البرافي الذي يحمله اليه صاحب مكائدٍ وحيل ومن الضرورة القصوى ان يبلغ الى المعسكر عشيةَ غدٍ

– هذه سرعة لا يستطيعها الطائر

ـ لا بد من ذلك ولو الجاء الحال لهلاك اربعة او خمسة من الخيول وليكن مقرراً ان الدوق جان غلياس لم يمت بعيداً عن ميلان بل هو في المدن والقرى التي يتجاوزها الرسول حي لاني شديد الحرص على ان لا يتناهى الخبر الى كاميل واصحابه

ـ تعني بذلك ان يحذر الرسول من افشاء خبر مصرع الدوق حتى اذا سئل اجاب كما لو كان جان غلياس حياً

ـ ومره ان يتنكر بلباس حجاب البلاط كي لا يعرف انه من اهل الدعارة او واحد من البرافي واعطه من المال ما شاء

وكانت بلانكا في خلال ذلك واقفه وراء الباب آذنة لحديثهما ولما سمعت ما يأتمرانه بالامير كاميل واصحابه اخذت فرائصها ترتجف وقلبها يخفق خفوقاً شديداً كاد يسمع من داخل الغرفة ولشدة ما القى هذا الحديث في روعها من الخوف على حبيبها روبر خانها جلدها ولم تتمالك ان صاحت ـ هلك حبيبي ... يا للخيانة ... ثم اصطكت اسنانها وانحلت رجلاها فهوت لكنها اصابت الحائط فاستندت اليه ولولا اهتمام ابيها ودلبانو بشانهما لسمعا صوتها. وبعد برهة شجعها الخوف على من تحبه فاستجمعت قواها وهمت بالعودة الى خدرها فسمعت اباها يقول

ـ واعلم ايها العزيز دلبانو اني عاهدت نفسي ان اعقد لك على بلانكا فتتزوجها اذا عدت منجحاً ظافراً

فتبسمت بلانكا تبسم الرجل الذي يموت من البرد وقالت وهي تصر على اسنانها الموت والقبر قبل ان يجمعني بسفاك الدماء عقد ثم انثنت الى خدرها

وما صدقت ان تبلغه حتى القت بنفسها على سريرها . وهي خائرة القوى ترجف كالقابض على آلة البرق

واما دلبانو فاجاب البارون قائلاً لقد رضيت بهذا العهد وسوف تاتيك البشائر عن ربح صفقتي فطب نفساً لاني سايد خضراءهم وغضراءهم ثم همَّ بالخروج من عند بريفارا فرأه قد اطرق الى الارض وهو يترمرم لخواطر خطرت على قلبه بغتة فصار دلبانو ينظر بوجههِ مرور الافكار كمرّ الغمام امام الشمس واذا بهِ قال

ـ لا لا يا دلبانو اني افضل استحياء كاميل على قتلهِ واما اصحابه فسيان عندي عاشوا او ماتوا

ـ ان سلامته وهلاكه امران مرجعهما اليهِ فان احسن الطاعة فلنفسهِ وان قاوم فعليها

ـ لو يعلم الى اي مكان ستقبل بهِ لاختار المقاومة على الطاعة نخذ هذا الكتاب تدفعه الى صاحبه اذا قدر بقاء كاميل ام احد اصحابه حياً ولكن تعمد ان تبقي عليه ولو لحقك من ذلك جهد ثم دفع اليه الطرس الثاني الذي وقعت عليه كاترين وجان ماريا معاً وقال له

ـ سر على عجلٍ وكن عند رجائي فيك ثم دفعه الى خارج غرفته ووقف يتبعه نظره حتى توارى

الفصل الحادي والعشرون

سر يارسولي ولا تربع على بلدٍ سيراً حثيثاً ودار الحب فالتمس
واخبره ان العدا في قتله ائتمروا وقد غدا خلةً حبي لمفترس

ما توارى دلبانو حتى شعرت بلانكا بالخطر المشرف عليه حبيبها روبر ورأت نفسها في الدقائق الاولى من هذه الشعور انها اضعف عن ان تقدر على شيءٍ تصرف به المكروه عنه او تمد الى معونته يداً الا ان جزعها الشديد عليه ورغبتها بغوث من انتشلها من الغرق ونجاة من القت على مقاليد وعده سعادة مستقبلها احيى منها همة عالية والهمها حبه افانين وضروباً من الحيل تتمكن بها من نجاته

فصبرت حتى نام كل من في القصر ثم نهضت من سريرها وعمدت الى خزانة عندها واخذت منها ذخيرة مرصعة بالحجارة الكريمة وانسلت الى حجرة خادم لها يدعى ريزو كانت تعتمده في كل مهمة وله قيام فيما يفوض اليه ونفاذ فيما ينتدب له وكفاية فيما يقلده وعنده من عشقها ومجون ابيها ودعارة دلبانو كل الخبر . وكان قد دخل حجرته في تلك الليلة وتوسد فراشه وقبل ان يوآلف الغمض جفنيه احس بيد تقبض على ذراعه فانتبه مذعوراً ولحقه الدهش عندما ابصر سيدته بلانكا فوق رأسه فلم تدع له بلانكا مجالاً لتسريب افكاره بل اومأت اليه باصبعها على شفتيها ان اصمت وصارت تعير الليل اذناً صاغية لتستوثق لنفسها من مستيقظ يسمع حديثها ثم قالت لخادمها

ـ اعرني سمعك يا ريزو فالموقف حرج والوقت ثمين لا يسعني ان احدثك طويلاً فالخطر الخطر

ـ واى خطر يا مولاتي

ـ خطر تستطيع يا ريزو ان تدفعه بروئتك عن حبيبي

ـ مري يا مولاتي فاني لك بروحي لا سمح من لافظة

ـ ان روبر يا ريزو قد استهدف للخطر فالعدو قد صار منه بمرصد ينتهز غفلته ليغتاله وانقاذه رهن ايعاز وتنبيه له منا

ـ الكولونل روبر في خطر

ـ فاسألك يا ريزو سرعة الجد والتشمير الى فلورانسا ومتى وصلت اليه سلم عليه وبالغ في حديث شوقي اليه وانقل له هذا البلاغ ثم حدثه بكل ما سمعت من ابيها ودلبانو الى ان قالت بلغه ذلك واعلمه بالحبالة التي نصبت له ولاصحابه ليأخذ حذره وارهق في السير حتى تسبق حلم النائم واعلم ان نجاة روبر واحباط سعي ابي ودلبانو امران مرهونان على مرؤتك وحكمتك وخذ هذه الهدية عربوناً لاخلاصك وانكماشك في طاعتي وللوقت القت في كفه تلك الذخيرة وكيساً من الدنانير

ـ وهل سار رسول دلبانو

ـ من برهة فاذا ادركته او سبقته او ليتك من الاحسان شيئاً كثيراً واجزل لك روبر من العطية ما يفي ثمن الحيوة الغالية

ـ اني لا اطمع في المكافاة طمعي في قضاء واجب حقك يا سيدتي فانا عبدك يلزمني بذل مهجتي في رضاك ولو لم تجزيني لم يكن ذلك عندي

عظيماً . ثم نهض لساعته وتقنع بسلاحه وسل جواداً من خيول البارون وتفلت مسرعاً الى خارج القصر فاسرعت بلانكا الكرة الى خدرها ونظرت من نافذتها المطلة على الشارع فابصرتهُ يعدو بالجواد على الطريق حتى اذا توارى عن نظرها تنفست نفساً طويلاً كمن يلقي عن ظهره حملاً ثقيلاً

ولقد اوردنا لمعة خفيفة ان المؤدب لويجي رودلي ما برح مذ سار الامير كاميل الى فلورانسا يبعث في كل يوم عيونه وجواسيسه الى ميلان في طلب الاخبار ليقف على كل ما هو جارٍ في بلاط الدوق

ولم تكن الا ساعة من وفاة الدوق جان غلياس حتى ورد عليه خبر هذه الفاجعة فلما وعاه سقط في يده وظل كالمنزول به وكاد جزعه على كاميل ان يضعضعه ويهده لو لم يكن في قاع الناب وبياض الغدائر تجلدٌ لا يعهد بالشباب ذي المرح التصابي لان الثلوج اذا مرت بها الرياح الحارة لطفت جانباً من حرارتها فقام يتمشى في غرفته وهو يجمجم ويقول في نفسه اواه ما اشقى الحيوة . . . فقد مات جان غلياس العظيم ولم يغنهِ مالهُ وباسهُ شيئاً . . . قد مات من طأطأت لهُ الممالك كنف الطاعة وقضى عمرهُ طامحاً الى تعميم راسه بتاج ايطاليا . بئسك ايتها الاباطيل وخوادع الامال فانك تستغوين المرء بظن محال وتسقيه من دنٍّ خال وتعرضين على الظمآن سراباً برّاقاً يحسبه شراباً رقراقاً . واما انت يا ولدي كاميل فقد ساء فالك وتصرمت حبال امالك اذ لم يعرض لك ان عمك الدوق ستنشب فيه المنون انيابها على غفلة منك وانت منزعج عن الاوطان في طية بعيدة

وان ميلان التي طمحت بانظارك الى عرشها اصبحت لا تجسر على الدنو منها ميلان التي كانت على وشك ان تستقبلك باحتفال فتدخلها مكللاً بالغار غدت تلفظك وتدفعك عنها بقوة السلاح . والعدو الذي اضمرت ان تثأر منه سيوردك موارد الهلكات اذا لم يتدارك امرك مؤدبك الواهي القوى

ثم عاد الى مقعده بازاء منضدة عليها مصباح يضيء من خلال كرة من البلور وفي قنة راسه قبعة صغيرة قد انتشر شعره الابيض من جوانبها والتف على لحيته البيضاء المشتبكة على خديه الضامرين الناتئي العظام فكان وجههُ على انعكاس نور ذلك المصباح اشبه بعليقة بين الصخور علقت بها الثلوج في ليلة مقمرة واخذ قرطاساً وكتب الى كاميل ما ياتي

يا سيدي وولدي كاميل

ان البطل ليس من يخوض غبار الحرب ويطعن بالقنا بل من اذا نزلت به نوازل الدهر تلقاها بمجن صبره وتجلده ولم يدهش . فاعلم ان عمك جان غلياس قد مات فجاءة وقبل ان يأتيك كتابي هذا ينادون بابنه جان ماريا دوقاً ويستقر الملك في يد كاترين بالولاية عنه فلا يرعب قلبك انطفاء سراج آمالك وتقوض ابراج امانيك فسوف يأتي يوم وهو قريب تسترد فيه من الايام ما سلبته منك ولست ازيدك علماً يا بني ان اول عمل ستبدأ به كاترين انما هو منازعتك على فرجيني لتزفها الى ابن محظيها بريفارا فعليك حين وصول رسولي اليك ان تتراجع عن فلورانسا وتعجل القدوم مع الكونديتارية والجنود وتتوجه نحو دير ترتوزا الذي بناه عمك الدوق لاني موافيك مع فرجيني الى المعبد الذي يجاوره لازفها اليك في الليلة الثالثة

ومتى انتظم لك هذا الامر اقمت القيامة عل كاترين وزحفت على ميلان بمن معك من المقاتلة واقمت عليها حرباً عواناً ارجو لك فيها الظفر على اعدائك

ثم انه اختار من خدمه رجلاً يدعي روكو كان يرتاح اليه في جميع المهمات ودفع اليه ذلك الكتاب بعد ما اطلعه على كل ما تهمه معرفته وامره ان يمتطي الليل الى فلورانسا ويرهق في سيره ويحرق الاديم بحوافر جواده ولم يزل يتعجله بالسير حتى سمع وقع حوافر جواده على الطريق كمطرقة الحداد على سندانه ثم انثنى يطلب خدر فرجيني ليخبرها عن موت ابيها الدوق وعما عزم عليه من الانفصال عن مونزا وموافاة كاميل فلندعه يذوب حزناً من مشاهدته شدة جزع تلك الدوقة لنقتفي من الرسول الاثر

الفصل الثاني والعشرون

﴿ السكوت سلامة والكلام ندامة ﴾

وما زال روكو الرسول يجد السير تحت جنح الليل لا يعطف على شيءٍ وهو يخترق الهضاب ويطوي البيد طياً حتى اجتاز لودي والبطون التي تجاورها وبلغ قبيل الفجر فندقاً على الطريق تأوي اليه القوافل والمسافرون من اهل البلاد فعرَّج عليه يلتمس راحة لجواده وطعاماً له وقد اضر به الجوع حتى صار يحسب كل مستدير رغيفاً فهرع صاحب الفندق يستقبله وقد نادى الخدم ان يعتني بجواده ومشى امامه يتاهل به ويتطفل بسواله عن المكان الذي جاء منه والقاصد والرسول متشاغل عنه بنفض الغبار عن اثوابه

حتى دخل به القاعة التي يجتمع اليها الضيوف لمناولة الطعام فاخذ روكو كرسياً وجلس الى مائدة في زاوية المكان وطلب الى صاحب الفندق ان ياتيه بزجاجة خمر ثم اجال نظره في جوانب القاعة واذا به يرى رجلاً جالساً في الزاوية الاخرى يصوّب فيه نظره ويصعده وبين يديه قصعة من اللحم وزجاجة من الخمر

فلما وقعت العين على العين هش له الرجل وبش واحني له براسه يحييه فحياه روكو باحسن منها وقال له وهو يظنه من كبار القوم ـ عذراً يامولاي عن قصوري في السلام عليك فان الظلام حجبك عني وما رجمت ان التقي في مثل هذا الوقت احداً

فهش له الرجل هشاشة مبطنة بالكلوح واجابه وهو يمضغ اللقمة بكلام متقطع اني موسع لك العذر يا صاح فان الامر الذي انت قادم له ربما شغلك عني فقد رايت جوادك يتصبب عرقاً فعرفت ان شغلاً شاغلاً بعثك الى اطراد السير السريع

ـ هو ما تقول يا سيدي وفي نيتي استئناف السير الحثيث ريثما يرتاح جوادي

فقال الرجل وهو يملأ كاسه خمراً

ـ لا اخاله يستطيع ذلك فقد ادركه التعب

ـ انه من جياد الخيل وقليل من الراحة يعيد اليه قواه

ـ اتراك اقبلت من مكان بعيد

ـ ابعد مما يخطر لك

ــ امن بعد ميلان يا ترى

ــ ابعد من ذلك قليلاً

فقال الرجل في نفسه وهو يشرب الكاس ويمتص ما علق من الخمر على شاربيه قد عرفت انه آت من جوار ميلان فيعوزني ان اعرف الوقت الذي انفصل فيه عن بلدته فقال له

ــ انهُ ليعرض لي انك سرت في اول الليل حتى بلغت هذا المكان والمسافة شاسعة

فاجابه الرسول تباهياً بجواده وسرعة جريه

ــ لا يا سيدي فقد انفصلت عن بلدتي قبل ان تناصف الليل

فهتف الرجل وقد فغر فاهُ وحملق عينيه حبذا الجواد جواد يحكي بخفته النسيم ويسبق بجريه البرق

وبينما هو يحبذ الجواد دخل عليهما صاحب الفندق وفي يده زجاجة خمر فوضعها امام روكو واشار اليه قائلاً . ذق ياسيدي هذه الخمرة العذبة فانها لمن اجود الخمور وان احببت ان تزف اليها قطعة من اللحم الجاف او فرخه باردة تعيد الكهل فتى فلا تتكلف مؤونة الامر

ــ هات ما شئت واعنَ بطعام الجواد فاني لا اقدر ان اصرف في ضيافتك وقتاً طويلاً

وكان الرجل في خلال هذه المحاورة ينتقد روكو من رأسه الى اخمص قدميه واذا به يقول وهو مذعور ــ اي وديانا هذا خادم مونزا ... عرفته عرفته ... هو هو بعينه ... الذي اطلق عليَّ الرصاصة التي ما فتيء جرحها

مندملاً في ذراعي يسيل صديداً لا غرو انه مبعوث بكتاب الى الامير كاميل ولكن سوف ابعثه بها الى آلهة الجحيم ٠٠ ها الجرذ قد اطبق عليه الفلخ وهلك الشقي ان الشقي وافد البراجم

ولم يكن ذلك الرجل سوى الرسول الذي بعثه بريفارا الى كاميل فان دلبانو بعد ما انفصل من عند بريفارا اختار من رجاله اشدهم دهاء واحتيالاً وهو جاكمو البرافي وعهد اليه حمل الكتاب الموقع عليه بتوقيع جان غلياس الى الامير بعد اذا اوقفه على الدخائل والضمائر

فبارح جاكمو ميلان في الساعة التي خرج فيها روكو من مونزافسبقه بقدر بعد المسافة بين المكانين وعرج على ذلك الفندق آمناً من لاحق او سابق

ولقد رأينا كيف كان دهشه شديداً عندما عرف روكو الذي اطلق عليه الرصاصة حينما جاء يعاون فرنسوا على اختطاف فرجيني من مونزا وادرك سبب قدومه وسيره العنيف وانه قاصد نحو فلورانسا وحامل كتاباً يناقض كتابه و يباينه غرضاً

واما روكو فلم تضطرب به حاسة ولم يخامره وهم ولا ارتياب لكنه طمع في معرفة الرجل واذ لم يجد مساغاً الى بغيته ملأ كاسه خمراً واشار الى جاكمو يشرب على ذكره وقد توجه اليه بهذه الوسيلة وسأله عن اسمه

اجاب البرافي اني ادعى جاكمو كوكومي

ـ من اي البلاد ياسيدي

ـ من براشيا

ـ واي مكان انت قاصد

ـ فلورانسا

ـ فلورانسا كرر روكو باندهال

فتبسم جاكمو واخفى ابتسامه بسعال متكلف

ـ هل مررت بميلان يا سيدي جاكمو

ـ لا يا صاح لم اعرج عليها لاني لست ممن يعرض نفسه لخطر المرور ببلد قد فشا فيها الوباء القاتل لئلا يعلق بي اثر من تلك السموم

ـ الم يبلغك ان الدوق جان غلياس قد اصيب بهذا الوباء فمات قبل انتصاف الليل

ـ صاح جاكمو وهو يروغ كالثعلب احقيق ما تقول . الدوق العظيم واحد زمانه مات مسموماً ثم جعل يلطم كفاً بكف كمن ادركه الجزع والحزن الشديد وذلك ليظهر امام روكو انه جاهل بما صار اليه الدوق

واذ كان هذا البرافي يعلم ان روكو لا يخبره عن نفسه ولا عن الحال التي قدم لها ولا عن المكان السائر اليه عزم ان يفتنه بحديثه ويدعي له كلاماً لم يسقط منه وخبراً لم يخبر عنه فقال له

ـ اني ساكون لك نعم الرفيق طالما انك سائراً الى فلورانسا بخبر هذه الفاجعة

ـ ومن اخبرك اني قادم عليها

ـ انت قد اخبرتني بذلك

فحار روكو في امره وتوهم انه سقط منه كلام بذلك لا يسعه بعده

انكاره فاراد ان يستدرك فارط امره فاجاب

ـ اني اقصد قرية بالقرب من هذه المدينة لقضاء امر مهم وليس لاحمل هذا الخبر الى احد

ـ سيان عندي معرفة الاسباب التي جئت لاجلها وعدمها ولكنك لما اخبرتني انك شاخص الى فلورانسا طمعت في ان اكون لك رفيق الطريق لاني رايتك مبارك الصحبة ميمون الطائر وسوف اذا انتهينا استعين بك على معرفة المكان المعسكر فيه جيشنا الميلاني لان لي بينهم اخاً شقيقاً بلغني انه جرح جرحاً بليغاً في ساحة القتال اشرف منه على التلف فاريد ان آتية قبل ان يسبقني اليه اجله

انك لا تستطيع ان تصحبني فاني ساسير اتعب سير واسبق حلم النائم

ـ اني لا اوجب عليك انتظاري اذا قصر جوادي او رزح فاكون لك رفيقاً لا تثقل عليك مصاحبته

فلم يجد روكو بداً من اجابته الى سؤله حتى اذا ازف الرحيل امتطى كل منهما صهوة جواده واطلق له العنان فجرى به اسرع من الريح

وكان روكو يعدو غارةً بجواده امام رفيقه وهو معجب من مجاراته له في السير وما درى ان جاكموا لو اراد الجد لما استطاع ان يشقّ له غباراً

وما زال منطلقاً وهو آمن القلب لا يفكر الاَّ في سرعة الوصول الى سيده لجهله ان وراءه شخص الموت متنكراً بصورة ذلك البرافي حتى اذا بلغا وادياً غض الشجر خضل الغياض على مقربة من بعض القرى جعل جاكمو يلتفت يميناً وشمالاً كمن يجس الارض ليرى ان كان فيها احد ولما نظر الى الطريق

ورآها خالية من كل راكب وماش احمرت حدقتاه ورقص شارباه وانتضى خنجره واقتحم روكو بجواده وفاجاه بطعنة قتالة في جنبه فلم يشعر ذلك الخادم الأمين الا والطعنة واقعة والخنجر بارز من ظهره فزعق زعقة هائلة وسقط عن متن الجواد الى الارض

فاقبل عليه جاكمو يفتش جيوبه حتي عثر بالكتاب الذي يحمله الى سيده فاخذه منه وعاد الى ظهر جواده ووخزه بالركاب وانطلق وهو كالذئب الذي يسطو على الحظيرة ويختطف نعجة ويفر بها هارباً

وبعد برهة بدت في الافق انوار الشفق المبشرة بقرب بزوغ سلطان النهار وتبددت بقايا الظلمة المنتشرة في جوانب الفضاء وصار يسمع من البراري والقرى التي تجاور ذياك الوادي خوار الثيران وصياح الديوك ونقيق الضفدع وزقزقة العصافير وتغريد الطيور وصراخ الصبيان ويرى القرويون متسرعين الى حقولهم ومراعيهم فمن سائق ابقاراً او من متابط فاساً ومن غاد يرعى غنماً ومن رايح يجني عنباً ويحرس كرماً ومن نساء مقبلات الى الينابيع يملأن آنيتهن ماء ففي تلك الساعة اقبل ريزو رسول بلانكا يخب بجواده وجعل ينحدر في الطريق المؤدية الى ذاك الوادي فلما انتهى الى حيث سقط روكو قتيلاً اجفل جواده وطغى حتى كاد يقع عن ظهره فاجال نظره فيما حوله فابصر جواداً خلواً من فارسه يجول في حقل وجثة مضرجة بالدم مطروحة في خندق الى جنب الطريق فصاح في شدة جزعه لله قتيل

ثم اقبل في السير حذراً من مفاجيء ظنين يلطخه بقتله لكنه ما تجاوز بعض خطي حتي سمع انينه وهمسه فقال في نفسه ان لمن اللوءم وفقدان

المروءة التحول عن جريح اشفى على التلف وترك العناية به ثم وقف يتنازعه خوف وحذر وحنو ومروءة حتى غلبت المرؤة ورجحت كفتها فنكص على عقبيه و ترجل عن دابته ودنا من الجريح وجعل يتفرس فيه فلم يعرفه اذ كان وجهه قد تبرقع بنضج الدم فشرع يعالجه

وبينما هو يحاول تضميد جرحه ليرقأ دمه واذا بصياحٍ اخذه من كل صوب واصوات تنادي ـ على القاتل ـ امسكوا القاتل ـ آه البرافي الغدار ـ ادركوه واوثقوه ولم يشعر الا وجماعة من القرويين قد انقضوا عليه كالجوارح وفي ايديهم الفؤوس والمجارف والمناجل

فاجفل ريزو اجفال النعام وطار قلبه من الدهش شعاعاً وانعقد لسانه فوقف واجماً ولما رآهم متحاملين عليه اهاب بهم وهو يحاول التملص من ايديهم

ـ مهلاً مهلاً ايها القرويون فاني لست بقاتل

فانتهره احدهم وهو يحاول ان يوثقه ـ اصمت ايها الغادر ولا تحاول ان تتنصل من ذنبك وتتبرأ منه بزخارف كذبك بعد ما ابدت الرغوة عن الصريح

ـ انا عابر طريق عثرت به مقتولاً انظروا الى خنجري ان كان عليه اثر من الدم لتعلموا انني بريء مما تتهمونني بهِ

فقال احدهم ان كنت لست القاتل فمن قتله اذن

ونادى الاخر اوثقه واشد عقدته وليتبرأ امام الحاكم فان الاخيذ كذاب افاك

وصاح الثالث سدوا فمه قبح الله ناجليهِ فقد جنى على نفسه جناية موبقة

وسوف يخنق بوتره

فهتف ريزو والدمع ملء عينيه خافوا ربكم واتئدوا في امري فانا بريء من قتله

ـ اه انه يبكي البرافي المحتال بعد ما اجترح الاثم العظيم

ـ هذه دموع الندامة يبتهل بها الى ربه

ـ يتبرأ الوغد اللئيم الغادر

ـ اني اتيت معروفاً واحساناً فدعوني حتى لا يقال ان المروءة قاتلة اصحابها فصاح القرويون باجمعهم ساخرين المروءة المروءة يدعي المروءة سفاك الدما شر الورى

وكانوا قد اوثقوا ساعديه غير معيرين تنصله اذناً واعية لانهم حينما اقبلوا من قريتهم الى حقولهم ومروا بذاك الوادي لمحوا ريزو فوق الجثة يعالجها فوقع في نفوسهم انه القاتل ولم يبقَ عندهم من ذلك مجال للريب

ثم قيدوه الى شجرة وجعلوا يتشاورون عن الراي فيما بينهم

فقال الاول ليذهب احد منا فيستدعي انفار الشرطة لندفع اليها القاتل والمقتول

فنادى الثاني هيا بنا نحمل القاتل الى لودي ونسلمه الى الحاكم

فاجاب الثالث ليس هذا من سداد الراي بل الاجدر بنا ان نعالج الجثة عسى ان يكون فيها رمق من الحيوة

فرد الرابع ليس هذا وقت الاعتناء بالاموات فمن الحزم والصواب ان نستدعي شيخ القرية والكاهن

فقال كبيرهم دعوا عنكم اللجاج والجدال ايها الاصحاب وهلمَّ نحمل الجريح والقاتل الى القرية ونرفعهما الى شيخنا ونعود الى حقولنا حذراً علينا من غائلات التهم

فاذعنوا الى رأيه وعمدوا لوقتهم الى روكو وجعلوا يبحثون عن جرحه فلما بصروا بمكان الطعنة صاحوا معاً وهم ينظرون الى ريزو شزراً ويهزون رؤوسهم علامة التهديد والوعيد - تباً لك من قاسي القلب غليظ الكبد فجعل ريزو يقسم بالمغلظة والمحرجة انه ليس بقاتل ويضج ويصيح مستغيثاً ويلعن نفسه التي اقبلت به على هذا الامر حتى وقع في هذه الورطة التي لا يرجو المخرج منها وقد قطع عن الوصول الى روبر حبيب سيدته مع علمه بما هو نازل به من دلبانو في الشرك الذي نصب له ولاصحابه

ثم ان اولئك القرويين وضعوا روكو على محمل كالنعش اصطنعوه من جذوع الشجر واحتمله ثلاثة وساق الرابع ريزو مكتوفاً وعني الخامس بقيادة الجوادين وساروا بهم الى القرية

وليتصور القارئ مشهد تلك القرية حينما قدمها هذا الموكب فان الصبيان منذ راؤه اقبلوا عليه يتراكضون من هنا ومن هناك وهم يصيحون وينادي بعضهم بعضاً ثم جاءت في تواليهم الرجال والنساء من كل صوب وانضموا جميعاً الى ذلك الموكب مؤلفين من ورائه ذنباً كان ينمو كلما توغلوا في القرية حتى لم يبق احد من اهلها الا وهو شافع للموكب او واقف على الابواب او مطل من الشرفات والرواشن وكلهم يصوبون انظارهم الى ريزو الذي كان منظره اشبه بثعلب اطبق عليه الفخ

ولما بلغوا منزل الشيخ الذي يتولى فصل الدعاوي بين اهل عشيرته ويرفعها الى الحاكم في لودي حدثوه عما رأوه راي العين فصح عنده ان ريزو هو القاتل ثم وضعوا زوكو في منزل الشيخ وجاءوا اليه برجل دعي في الطب لا معرفة عنده اشبه بالدجالين الذين يكثر وجودهم في ايامنا هذه وهم مع غباوتهم وجهلهم يزاولون هذه الصناعة طمعاً بكسب المال غير مشفقين على عباد الله الذين طالما ذهبوا شهداء جهلهم وضحية غباوتهم فشرع في معالجته وجعل الشيخ يستنطق ريزو فنشر له الثوب على ثناياه فلم يذعن لتصديقه فتهدده بالعذاب ثم بالموت ان اصر على انكاره وحقق قوله بان انزل به ضرباً شديداً وامر فقيد بامراس كتان وسجن في كوخ مظلم واغلق دونه الباب

فلنغادرهم بهذا الاهتمام لنقتفي اثر جاكمو رسول بريفارا ونفصل الوقائع كلاً على حدة

الفصل الثالث والعشرون

لا تعاني من الشقاء فراراً	ان دعاك الشقاء يوماً اليه
وتدرَّع بالصبر في كل خطب	انت بالصبر تستطيل عليه

لما تطاول على فلورانسا امد الحصار تخوف الامير كاميل ان يحدث ما يعجله عن اخذها فعقد عزمه على ان يداهمها بغتة من تحت الليل ويفتحها عنوةً فجمع اليه اصحابه والكونديتارية وشاورهم في الامر فاجمع رأيهم على ذلك واتفق ان الامير قلق قلقاً شديداً قبيل الليلة التي ازمعوا فيها على القتال

فاحيي ليله قلقاً مهموماً خائر النفس ضيق الصدر تخطر عليه الخواطر التي ينقبض لها الرجا وكان كلما مثل لعينه حبيبته فرجيني يراها باسطة نحوه ذراعيها وهي مشعثة الشعر دامعة الطرف وكلما تصوَّر قصرها وحديقتها يراهما كالقفر الموحش لا انيس فيهما فضاق بتلك التخيلات والتصورات ذرعاً وما صدق ان ضحك الصبح حتى برز يتمشى امام خيامه وقد اجتمع اليه اكرم اصحابه عليه

وبينما هم وقوف معه يترقبون بروز الشمس من حجابها متلالئة ببهاء فوق قمم الجبال حالت من الكولونل روبر التفاتة فابصر عن بعد فارساً مغذاً في سيره فقال للامير اني ارى هنالك يا سيدي فارساً واشار بيده اليه

ـ قال الامير اني اراه يسير سيراً عنيفاً لا يعطف على شيء

قال ريكاردوس ـ قد توارى في منعطف الرابية

قال مرتيتو ـ ها هو قد اقبل نحونا ولا اخاله الا رسولاً

قال رودريك ـ اني ارى عليه لباس الحجاب فهو لعمر الحق رسول من ميلان

فهتف الامير كاميل وقد خفق فواده ـ رسول من ميلان

وكان هذا الفارس يتقدم مسرعاً وابصار الجميع محدقة به حتى اذا بلغ الى موقف الخفراء كبا جواده ووقع الى الارض لشدة الاين والكلال فوثب الفارس عن ظهره وتقدم لا يلوي عليه وسال الحارس عن خيام الامير فدله عليها فاقبل بقدم ثابتة وجاش غير متزعزع نحو المكان الذي فيهِ كاميل واصحابه ولما وصل اليه حياه باحسن تحية ودفع اليه الكتاب الذي

جاءَ به من عند بريفارا لان الرسول كان جاكمو الدهي ذا الحال فسأله الامير قائلاً

ـ انت آت من ميلان

ـ نعم يامولاي من نادي سيدي الدوق جان غلياس

ـ وفي اي يوم انفصلت عنها

ـ من ثلاثة ايام

ـ وهل ابصرت عمي الدوق

ـ قد تشرفت برؤيته في البلاط وحين خروجي من المدينة بصرت به مارًّا بساحة ماركنتي

ـ هل حدث شيءٌ في ميلان

ـ لا يا مولاي ولكني غادرتها تتهيا لتحتفل بمقدم نعمتكم اليها

ـ اني مدعو اليها اذن قال هذا وعمد الى الكتاب ليتحقق منه الخبر وبينما جاكمو يجول بطرفه في القواد ويتفرَّس في كل واحد منهم وقع نظره على رودريك فامتقع لونه وارتعدت اوصاله وتنحى الى الوراء وهو يقول في سره

ـ ويلي ماذا ارى ارودريك رئيس الشحنة . اسيء وربي هو هو بعينه . يا للبلية والفضيحة .... اي شيطان جاءَ به واي عفريت حمله الى هنا ... ماذا يحل بي ان عرفني ... واسوأتاه ها هو يتفرس فيَّ ... قد عرفني راحت روحي .... يا بلوتي قد اقبل اليَّ

وبالواقع ان رودريك مذ وقع نظره على جاكمو عرته هزة وخطرت

على مخيلته صورته المرسومة في دماغه فتذكر انه رأى هذا الرجل فيما مضى من الايام ولكنه نسي الزمان والمكان ولم يفطن اليهما وصار يردد في خاطره شتات الحوادث ويخطر على باله الوقائع الماضية ويتساءل قائلاً اتراه من البرافي واهل الشرارة الذين عرفتهم ابان كنت رئيس الشرطة في ميلان . . . . ولكن من اين للذئب ثوب الحمل وانى له ان يكون رسول الدوق . . . اين رأيت هذه الصورة والسحنة المرسومتين في لوح دماغي . . . ولم نفر قلبي عند رؤيته

ولما لم يهتدِ الى معرفته دنا منه وقال له وهو قابض بشدة على ذراعه

ـ اراني اذكر اني رأيتك احياناً ايها الرسول فيما خلا من الايام

اجاب جاكمو وهو يسكن روعه ويخفض جاشه اني لم اتشرف بلقياك قبل الآن وان كنت قد رأيتني احياناً فربما كان ذلك في بلاط سيدي الدوق

قال رودريك في نفسه ساخراً . في بلاط سيدي الدوق انا اذكر اني رأيته في الادغال والغابات وفي حانات الخمر فاي المشابهة بينها وبين بلاط الدوق ثم قال له

ـ الا تعرف رودريك الذي كان قائد الشرطة في ميلان

ـ لا يامولاي فقد فاتني هذا الشرف

ـ ومن بعثك رسولاً بهذا الكتاب

ـ رأس حجاب الدوق وامرني بسرعة الجد والتشمير الى نادي الامير

ـ انك تكتم عني امرك ولا تخبرني عن نفسك وانا اذكر اني رأيتك احياناً انما اختلط عليّ الزمان والمكان فلم اهتدِ الى معرفتك ثم سكت

ليستصرح تذكاره

فقال جاكمو في قلبه ليتك لا تهتدي ابداً فان هلاكي وخراب ميلان امران مرهونان على اهتدائك الى معرفتي واطلاعك على شأني

وبعد ان فكر رودريك برهة قال لجاكمو وهو يصوب فيه بصره . اما رايتك في غابة مونزا مرة وفي لابروك مرة اخرى وابصرتك ايضاً في جبل دي تري سنيوري وفي ....

فاجابه جاكمو وقد علا على وجهه الاصفرار واشتد خوفه

ـ انك ربما رايت من يقاربني في الصورة ويشابهني في الخلق لانى رجل لم اتخلف عن خدمة البلاط يوماً وهذه الاماكن التي ذكرتها لي هي مكامن اللصوص واعشاش اهل الدعارة التي يوجعني ان يخامرك ظن انك رايتني فيها

وكان جاكمو يتكلم وهو احذر من الغراب يذوق الكلمة قبل لفظها لئلا تخبث في السمع ويلتمس المخرج مما وقع فيه مخافة ان يسقط منه كلام مع طول المحاورة يستدل به على سريرته ويقف منه رودريك على دخائله واذا بالامير قد صاح بعد ما فرغ من قراءة الكتاب الرحيل الرحيل يا اصحابي فقد امرنا بالعودة الى ميلان ودخل الى خيامه مسرعاً فتبعه اصحابه ودخل رودريك معهم

فما صدق جاكمو ان يراه مبتعداً عنه حتى تنفس الصعداء طويلاً كأن حجر الرحى القي عن صدره واما الكتاب الذي حمل نفسه به فكان موقعاً بتوقيع الدوق غلياس ومكتوب فيه

يا ولدي الحبيب

اذا وصل كتابي اليك فعجل بالقدوم عليَّ في من معك من اصحابك فان في ذلك مصلحة لك وللمملكة واعهد امرة الحرب الى الكونديتارية فسينوكان وترزو ودلفرم ليزاولوا القتال وعد باسرع ما استطعت الى ميلان التي تتاهب لاستقبالك كما استقبلت من قبلك اجدادك المنتصرين الذين عمموا هامات النجوم براياتهم

فلم يهجس في قلب الامير واصحابه وهمٌ الا ان الدوق يدعوهم اليه اذ لم يخطر على بالهم ان ميلان كانت تحتفل في ذلك النهار بدفن جان غلياس احتفالاً فائقاً وان الفي رجل من الامراء واصحاب الامصار والاقاليم كانوا يحملون المشاعل المنيرة امام نعشه وان جاكموليس الا ثعلباً رواغاً

ولم تكن الا ساعة حتى رحل الامير كاميل وفي صحبته الكولونل روبر والقبطان مرتينو والماجور ريكاردوس والفونس وروردريك وحاجبه متى مخلفين الرسول في الخيام وكان سيرهم حثيثاً من شدة شوقهم الى ميلان

وما زالوا يحثون المطايا حتى تجاوزوا جبال الابنين واتوا في طريقهم على دير عامر بالرهبان عند غروب الشمس فقضوا ليلهم فيه وعند الصباح هبوا يعاودون السير الدراك

وبينما هم في بعض الطريق حانت منهم التفاتة فابصروا على بعد منهم فارساً يتقدمهم ورجلاً فقيراً عليه ثياب رثة بالية يعدو وراء الجواد فلما بصر بهم مد يده الى الفارس يرجوا احسانه وكان كلما زجره الفارس يزداد الحاحاً وعدواً الا ان الفارس كان يقول للفقير في زجره له - بلغهم ان

الثعالب سبعة وانا غراب البين فيهم انعب والفقير يجيبه في الحاحه عليه نحن في الاجام على مقربة من البرج المسحور فاياك ان تعرج بهم عن الطريق

ـ قل لدلبانو ان لا يبرح من الكمين ولتكن علامتكم سراجاً مضيئاً تضعونه في كوة من جدار البرج

ـ عليك ان تنبئنا عن قدومك بالصفير ومتى اطفأنا السراج انفصل عنهم وانضم الينا

ـ كف عن الحديث فها هم ناظرون الينا ومقتربون منا فدعني الطمك ضجراً من الحاحك عليّ واختف عاجلاً بعد هذا

ثم انحنى ولطم الفقير على راسه فوقع منقلباً على قفاه الى الارض ثم نهض معفراً بالتراب ورفع يديه الى السماء كمن يدعو على ضاربه بالنقمة

ولم يكن الفارس الا جاكمو الرسول والفقير سوى رجل من البرابي في متنكر بذلك اللباس بعثه دلبانو ليشارفهم في الطريق ويحمل اليه خبر مقدمهم عليه

وكان لما راى الامير واصحابه مقبلين نحوه توارى عن العيان فجأة فلم يجدوا غير جاكمو واقفاً يترقب مرورهم به

فلما راه الامير لحقه العجب منه لعهده به انه باق في فلورانسا لا قوة له على السفر من التعب الذي ناله في القدوم عليهم فقال له

ـ الم تتخلف عنا ايها الرسول في فلورانسا فانى نراك هنا سابقاً لنا

ـ اني اقمت في الخيام نهار امس كله ولما جن الظلام سرت من تحت الليل وكنت اعهد في جبال الالب مسالك وعرة تقرب من بعد المسافة

فسلكتها لالحق بنعمتكم

– واي داع لجّ بك الى لحاقي وانت لم تبرح كليلاً من التعب

– لجت بي الرغبة في مشاهدة الاحتفال المعد لنعمتكم في ميلان فرأيت ان اصبر على التعب القليل لئلا يفوتني هذا المشهد وانا في صحبتكم

فانطلى على الامير محال جاكمو وتبسم من كلامه سروراً وجعل يمثل لناظره مظاهر الاحتفال التي سيقابل بها حين قدومه ميلان وبدا له ان يتخذ الليل جملا ليبلغ الى ميلان في وجه النهار

الفصل الرابع والعشرون

﴿ الغدر ﴾

بعد ما تلاشت انوار الشفق الصفراء وغابت عن قمم الجبال الشامخة وكاد الليل يرخي سدوله كان يخال ان الهدوء يهبط رويداً رويداً من اعالي الفضاء الى البسيطة وان يداً غير منظورة تعري الافق من بقايا النور لتلقي على العالم الذي تقلقه ضوضاء النهار الرداء الازرق الزاهر بالنجوم حتى اذا اشتدت الظلمة وهدأت العيون ومر الكل من اليقظة الى النعاس ونام من في الارض وفي الهواء لم يعد يسمع في سكون ذلك الليل سوى شبابات بعض الرعيان ونباح كلابهم وخرير نهر اداّ ووقع حوافر خيل الامير كاميل واصحابه الذين امتطوا الليل تعجيلاً بالقدوم على ميلان التي كانت محط رحال افكارهم وتصوراتهم اذ كل نفس كانت تحدث سرها بما وطنت واملت

متى استقر بهم النوى والقوا عصا الترحال

فكان يختلج في ضمائر الامير لقاء فرجيني وتزوجها من ابيها وانتقامه من قتلة ابيه بعد نيله الملك وكان يهجس في قلب روبر ذكر بلانكا والتماس المخرج لها من ظلم ابيها والفرار بها من وجه خطيبها دلبانو وكان رودريك يحدث نفسه باتخاذ نيانزا له عرساً بعد قدومه ميلان وهكذا كان يدور في خلد كل قائد شيء يشغله

واما جاكمو فكان سائراً وراء هذا الموكب كغراب البين او كقائد النكد والشؤم وهو كلما جنَّ الظلام نبه عزيمته وانتفض كالديك على صهوة جواده وبدت في وجهه سيماء الطرب الوحشي كالذئب الذي يخرج من عرينه متى دجا الليل في طلب الفريسة وهو كلما اشتم رائحتها مع الريح كشر لها عن انيابه فرحاً وبعد ان ساروا هدءاً من الليل انتهوا الى برج قديم العهد في جانب الطريق يدعى البرج المسحور

وكان هذا البرج لتوغله في القدم ومر الازمان عليه قد تصدع بناؤه وتقوضت ابراجه واسواره ولم يبق منه الا بعض جدران ذاهبة في الفضاء صعوداً ومطابق في بطن الارض يأوي اليها الوحش واسراب الجان على زعم سكان القرى التي تجاوره فابصر جاكمو سراجاً مضيئاً في كوة صغيرة من احدى الجدران يتلاعب الهواء به فيظلم و يومض حتى يخال للناظر ان اشباح اسراب الجان تمرُّ من امامه وتختفي في خرابات ذلك البرج

وكانت على جانبي الطريق التي تبعد عنه قيد رمية سهم غابات واجام كثيفة من الوشيج والعيص والدردار قد اشتبكت اغصانها وفروعها

وتعلقت عليها الاشواك والتف بعضها على بعض يسمع لمرور النسيم فيها همهمة كدوي النحل وحفيف كالصفير فجعل جاكمو وهو في توالي الموكب يصفر على مسمع ومشهد من متى حاجب الامير فيجيبه صفير من الاجام خيل لمتى انه صدى صفير الرسول ولما توغلوا في الطريق ومروا امام ذلك البرج انطفأ السراج بغتةً فانقلبت سحنة جاكمو في الحال وايقظ رأيه وضم اطرافه ثم وخز بطن جواده حتى ادماه واطلق له العنان فجرى بهِ كالبرق الخاطف والشرر يتطاير من حوافره كوري الزناد حتى اذا مر حذاء الامير واصحابه جعل يستصرخهم ويصيح - جمح جوادي - ادركوني قد هلكت . ثم مال عن سرج جواده كمن همَّ ان يرمي بنفسه الى الارض حتى غاب واحتجب عن نظرهم في خلال الغبار فساقوا على اثره خيولهم وتقدموا متسابقين ليروا ما حلَّ به واذا بهم يرون الجواد منقلباً على قارعة الطريق والدم يتدفق من فيه وهو خال من فارسه ثم سمعوا انة مستغيث فقصدوا نحو الصوت وهم ينادون الرسول فلم يشعروا الاَّ وقد اخذتهم الصيحة كالرعد من الشعاب وتساقطت السهام عليهم كرش البرد صبيباً فذعروا واخذتهم الرعدة والحيرة وصاحوا في شدة جزعهم يا للخيانة والغدر ... كمين كمين ...

ثم عمدوا باسرعِ من لمح البصر الى نبالهم يرمونها على الجانبين يميناً وشمالاً وهم لا يبصرون صوراً بشرية ولا يلمحون غرة عدوٍ بل كانو يسمعون في تلك الظلمة اصوات الصفير تتردد من الاجام حتى توهموا ان الجان قد التفت عليهم من كل صوبٍ تقاتلهم ولما لم يعلموا اي ناحية من وقع السهام يتقون

صاح بهم الامير ان اطلقوا اعنة الخيل واذا بجواده وجواد رودريك اصيبا بالسهام فسقطا صريعين وسمعوا ريكاردوس يصيح ادركوني ووقع الى الارض يتخبط بدمه وتبع ذلك زعقات واصوات من جوف تلك الاجام رددت طلول البرج صداها المخيف وكلها تنادي معاً الموت الموت

ثم ظهرت من تلك الشعاب اشباح رجال سوداء متنكرة الوجوه فانقضوا بسيوفهم وخناجرهم على الامير واشياعه فابتدرهم هولاء بالطعان والضراب والتحم القتال وتداعت الاصوات و زلزلت الاقدام من ولولة الانجاد ووقع البواتر وقراع الرماح وكان جاكمو قد انضمَّ الى اصحابه يقاتل وينازل معهم فلاحت لهُ فرصة على متى حاجب الامير فهجم عليه ورماه بنصل شك في قلبه وقال لهُ سر الى ميلان الجحيم واحتفل باستقبال مولاك فيها

وكان رودريك في خلال ذلك يدافع عن كاميل دفاع اللبوة عن اشبالها وهو قد طعن البرافي القريب منه فجندله وابتدر الثاني فارداهُ والثالث ادماه فلما وقع نظره على جاكمو غاب عن رشده حتى لم يعد يبصر ما بين يديه فوثب عليه وهو يصر على اسنانه حنقاً وندماً ولم يمهله ان يفرّ او يصيح حتى عاجله بطعنة اخمدت منه الانفاس واما الكولونل روبر والقبطان مرتينو فانهما كافحا كفاح الابطال الاشاوس وقتلا ثلاثة من البرافي وجرحا منهم اربعة لكنهما اخيراً اثخنا جراحاً بليغة فوقعا على الارض لايلويان على احد

وكان الماجور الفونس قد اشتغل بقتال دلبانو زعيم القوم وكاد ان يفتك به لو لم يبادر احد البرافي و يرميه بسهم اصاب مقتله فخر صريعاً ولم يبق في

حومة الوغى الاَّ الامير كاميل ورودريك الشجاع يدافعان عن انفسهما دفاع من آثر الموت على الوقوع في قبضة عدوه

فاندعهما في هذا الموقف الحرج والموت اقرب اليهما من حبل الوريد لنرى ما جرى على سكان قصر مونزا وما حدث من الامور على مقربة من دير ترتوزا في مقاطعة بافي للجهة الاخرى مع الموضع الذي جرت فيه هذه الفظائع والمكائد

الفصل الخامس والعشرون

ليلاً ضربتُ الى الاحبة موعداً   ان نلتقي واخاف ان لا نلتقي

لم يدر حرَّ الثكل او مرَّ النوى   من لم يذق طعم الغرام ويعشق

في صباح اليوم الثاني من دفن الدوق جان غلياس اصبح السكون مجللاً قصر مونزا والوحشة مخيمة في جوانبه والحديقة قفراء لا يسمع فيها سوى همهمة النسيم يشكو لوعة الهجر وفراق الاحبة واصبح القصر موحشاً لا يرى فيه سوى خادمين جالسين على بابه لا يتكلمان وعلى وجهيهما سمة الكآبة وامرأة قد اربت على الخمسين من عمرها عليها لمحة حسن باقية من اثار الصبا واقفة في احدى الشرفات العالية تذرف الدمع وفي يدها منديل ابيض تلوح به وتلاعبه في الهواء مودعة ظعناً قد صار بعيداً عنها وما زالت تتبعه نظرها وكلما لمحت من نحوه ايماء او اشارة اجشهت في البكاء حتى تواري عن بصرها ولم يبقَ الا وهم صورته

فلنلحق الركب لنرى المتحملين وقد جازوا (لايكوك) فنشاهد فتى لم

ينبت عذاره اهيف القد رشيق القوام خفيف الروح لطيف الحركات وضاح الطلعة عليه لباس امير اسباني وعن يمينه شيخ جليل ذو هيبة ووقار وعن يساره شاب يقارنه عمرًا ويشاكله كياسة ويخالفه لباسًا ووراءه خادمان مدججان بالسلاح وكلهم سائرون على خيول جياد تطوي البيد طيا

وقبيل الظهيرة بلغوا هضبة من الارض اشرفوا منها على مدينة ميلان وقد بدت لاعينهم تنجلي بقصورها وابراجها وقباب معابدها وحدائقها فاستمطر منظرها دمع الفتى فوقف وهو على صهوة جواده ينظر اليها ويقول — ميلان من يدري ان كنت اعود فاراك انت يا مرتع افراحي ونعيمي ٠٠٠ هناك في تربك واروا جثة من احبه وليس لي وصول اليه لاودعه وابلّ ضريحه بوبل دموعي ٠٠٠٠ فعن بعدٍ اودعك ايها البطل الراقد لاني لا اتجرأ على دخول مدينتك ولكني سابكيك بعيدًا عن المكان الحري ان ابكيك فيه وساصحب حزني واشجاني معي كي لا يزور قبرك الا روحي وافكاري ثم اجهش في البكاء

فتقدم اليه الشيخ واهاب به ان يعاود السير قبل فوات الزمان والفتى شاخص في ميلان ولسان حاله يقول

دعني ارى بهجة الديار فلا اقل من نظرة ازودها

وبعد برهة انثنوا يرهقون في السير حتى اقبلوا على « مارنيان » عند مغيب الشمس وبلغوا ضفة نهر (اتونا) فابصروا هناك بعض قوارب للصيادين فانتقلوا بها مع خيولهم الى الضفة الاخرى ثم ركبوا البر وساروا والليل ينشر جناحه كلما توغلوا في الطريق ووجه الفتى يتلون كالحرباء تباعًا

للتصورات التي تجول في خلده فحيناً كان ينقبض جزعاً ويفيض جبينه عرقاً كحباب الندى لوهمٍ يخطر له وشجو يفاجئه وهنيهة يطفح محياه بشراً وسروراً لدنو اجل اللقاء وقرب الموعد وآونة يكتئب ويكسف باله خوفاً من حدوث عائق يعيقه عن نيل المراد وبلوغ الامنية

فكان وجهه بمرور الافكار في مخيلته اشبه بالشمس يوم الزوبعة يغطيها السحاب تارة فيظلم ضوء النهار ثم يتقشع عنها فتنبسط شعاعها وتنير وجه الفضاء

وبعد هجعة من الليل اقبلوا على مدينة (لاندريانو) فجاوزها ولم يعطفوا اليها وجدوا في السير من تحت الليل والفتى في كل مرحلة يسأل الشيخ عن بعد المكان وقربه لوقوع التعب به وذهاب الصبر منه حتى اتوا بافي وعرجوا على قرية بجوار دير ترتوزا فترجلوا عن خيولهم وربطوها في احد الاكواخ التي يكثر وجودها في الحقول ومشوا في طريق افضت بهم الى معبد صغير قديم العهد مبني في سهل فسيح من الارض وقبالة بابه قبور من الرخام لبعض الامراء الغابرين قد كرت عليها السنون وتوالت عليها الاحقاب ومن حول تلك القبور اشجار عالية الشماريخ تناطح برؤوسها السحاب قد خيمت عليها فكان منظر تلك المدافن في ذلك المكان القفر موحشاً يمثل الزوال والفناء ويحدث عن الراحة التي تعقب الحيوة الدنيا

فجلس الفتى على رجام احد القبور واسند رأسه بيده واستخرط في البكاء اذ ذكرته تلك القبور بقبر امه وابيه ثم ما عتم ان ولت طارئة الحزن حتى حل في مكانها طائر القلق والملل فانه بعد مضي ساعة عيل صبره

وقل جلده وكثر تلفته وصار يجفل لاقل حركة تحدث من حفيف اوراق الشجر ويتخيل كل غصن حركة النسيم رجلاً مقبلاً نحوهم وكان الوهم يمثل له ذلك احياناً فيثب من مكانه ويستوي واقفاً لينظر الى الخيال الوهمي فلا يرى الا ظلاماً حالكاً

وبينما هو في مثل تلك الحال وقد صار كله اذاناً وعيوناً سمع صهيل خيول بعيدة فصاح من شدة فرحه قد اقبلوا قد اقبلوا لكنه فطن ان ذلك صهيل خيل خيولهم التي في الكوخ فعاد اليه اكتئابه وضجره وملاله فشرع يعدّ النجوم بنفس ضيقة وكبد تتفتت

والشيخ في خلال ذلك واجم كثير الوساوس ينظر الى الفتى مرة والى طريق لودي اخرى منتظراً انصرام هذه الغمة وانجلاء هذه الغمرة عن الفتى

ثم حدث سكوت عميق وصمت مهيب جعل لها الليل زيادة وقع في النفس تخيلوا وهم قعود على تلك القبور لا يتكلمون انهم اشباح ارواح الموتى الذين دفنوا فيها قد بعثوا منها في تلك الليلة وجلسوا على رجام قبورهم ليحرسوها من الارواح الشريرة التي كانت الحباحب المتطايرة بين الاشجار كانها شرارات نار تمثلها حائمة تطوف بها

وبعد برهة حانت من رفيق الفتى الفتاة فلمح مصباحاً عن بعد فصاح قد اقبل اقبل ... فشخصوا جميعاً بابصارهم الى حيث كان يشير الشاب بيده فابصروا نور مصباح يغيب ويبدو من خلال الشجر فاستبشروا طرباً وظلوا يمعنون فيه النظر حتى دنا منهم واذا بالقادم راهب طويل القامة نحيف الجسيم عريض الجبين اصلع الراس اقنى الانف

قد وخط الشيب ذقنه فاقمر ليل شبابها متشح بعباءة سوداء وهو يتوكأ على عصاه وامامه خادم قصير القامة محدودب الظهر يحمل مصباحاً

وقد وضح من ثبات جاش هذا الراهب وتسرعه الى هذه الدعوة وهو على غمة وليس من امرها انه رجل قد راضه الزمان وزاول صعاب الامور ولما بلغ مقعد القوم وبصر بهم صاح مدهوشاً — انتم هنا في انتظاري من برهة طويلة ايها السادة

فاجابه الشيخ وهو يسلم عليه قد مضى علينا وقت طويل حتى استحكمت عرى الصداقة بيننا وبين اهل هذه القبور

فقهقه الراهب ضاحكاً وجعل يفتش في جيوبه الكبيرة على مفتاح باب المعبد ويقول اني لم اقعد عن الاتيان في الاجل المضروب رغماً عن تقادم سني وما خطر لي انكم سابقون لي ثم عمد الى الباب ففتحه ودخلوا جميعاً متهيبين لمنظر المعبد التي كانت بقايا نقوشه البديعة وهياكله الرخامية المذهبة تعرب عن سابق الاتقان الذي كان عليه في العصور الماضية

نخر الفتى راكعاً وتوجه الى ربه بصلوة لم يتدبر معناها لما حال دون ذلك من هواجسه وفكره ثم جلس فيمن معه تجاه الهيكل الكبير وكان الراهب قد اصلح شان ذلك الهيكل بمساعدة خادمه وانار ثلاث شموع وانضم اليهم واول ما امعن نظره بالفتى متأملاً في جمال وجهه وملامح حسنهِ الرائقة فصار كلما زاده نظراً ازداد حيرةً واعجاباً وهو يقول في نفسه لقد دعيت من هذا الشيخ صديقي لعقد زواج فهذا هو الفتى فاين هي الفتاة وكم يكون مبلغها من الجمال والبهاء ان كان هذا مبلغ الحسن منه . . . .

لقد عرفت انه امير يتصل نسبه بالاسرة المالكة ولكن خفيت عني الاسباب التي الجأته الى هذا الاقتران في مثل هذا الوقت بعيداً عن اعين الناس فلا غرو ان في الامر لسراً يلزمني الاطلاع عليه اذ ليس من الراي ان اقدم على الامر المريب قبل التوثق لنفسي منه لئلا اعرض شيخوختي للخطر ونحن في زمان لا يامن الانسان فيه على حيوته من ولده

ثم لجَّ به الحال فخلا بالشيخ وعاد على اثر ذلك مقطب الجبين كثير الفكر

ولقد عرف القاري حق العرفان ان الفتى هو الدوقة فرجيني ويسكونتي وان الشيخ والشاب هما المؤدب وابنته مينرفا وان فرجيني انما اتت الى ذلك المعبد لتجتمع بكاميل اذ يوافيها مع اصحابه وهو عائد من فلورانسا على ما رسم له المؤدب في الكتاب الذي بعثه اليه مع الخادم روكو على ما مرَّ الالماع اليه

وذلك ان فرجيني لما علمت بموت ابيها وعرفت ان خالتها كاترين ويسكونتي واخاها جان ماريا سيكرهانها على قبول ابن بريفارا لها عرساً ان هي لم تعجل المفر تنكرت مع مينرفا باثواب الرجال واقبلت مسرعة مع المؤدب الى لقاء حبيبها الذي كادت تذوب شوقاً اليه

وكان المؤدب قد جعل تلك الليلة لكاميل موعد اللقاء والاجتماع وتوهم انه سيسبقهم الى ذلك المكان وان فرجيني ستلقاه هناك بانتظارها لكنها لما لم ترَ احداً خالجتها الظنون والهواجس

ولما مضى الهزيع الاول من الليل ولم ترَ من نحوه اثراً ولا عيناً اشتد جزعها وزاد قلقها وبلبالها فجعلت وهي في المعبد تنظر في كل لحظة الى الباب

مترقبة بصبر مميت ان ترى كاميل داخلاً عليها ومقبلاً اليها بقامته الهيفاء وطلعته الشائقة لتلقي بنفسها بين ذراعيه وتبدل خوفها بامان

ثم طال عليها المطال فجعلت تتمشى بسرعة امام الهيكل وهي طائرة اللب زاهقة النفس دامعة الطرف تعض اناملها وتضرب الارض برجلها ثم تقعد ثم تقوم والمؤدب لويجي ناظر اليها مراقب حركاتها مشعر بعذابها وتفتق بنائق صبرها من صدرها وهو كليل اللسان لا يحضره كلام يقوله لها

وكان الصبح قد تنفس وادرك الراهب ملل فقال – الى متى ونحن في الانتظار فان الليل قد تمزق ستره

فهتفت فرجيني وهي لا ترضى ان تسمع بذكر الصباح ماذا تقول ايها الراهب

– ان الليل قد ولى والوقت قد فات فعبثاً تنتظرون قدوم الا ..

وقبل استتمام كلامه صرخ لويجي اسمعوا اسمعوا فقد طرق اذني خفق اقدام فشخصوا جميعهم الى الباب ممسكين انفاسهم واذا بهم يرون رجلاً ملتفاً برداء اسود يغطيه حتى قدميه قد دخل الكنيسة ووقف جامداً ينظر الى الواحد بعد الاخر فمدت فرجيني نحوه يديها وحملقت منرفا بعينيها وقبض الشيخ الى خنجره وعمد الخادمان الى سلاحهما وانتصب الراهب على قدميه واقفاً وفغر خادمه فاه اذ ادرك الخوف والدهش والامل والحيرة والوهم كلاً منهم تبعاً لشعوره وانصراف ظنه ولما طال صمت الرجل صاح به لويجي بحنق كمن طفح كأس صبره

– من انت ايها الرجل وما حاجتك

ـ انت لويجي رودلي يا سيدي اجاب الرجل بعد ما رفع قبعته اعن رأسه وتقدم نحوهم بعض خطىً

ـ انا هو فماذا تريد

ـ قد حملت اليك بلاغاً واستحلفت ان ابلغك اياه فردد الجميع ـ بلاغاً

فقال القادم

بل انذاراً حملت به نفسي الى هذا المكان لانذركم به واعود من حيث اتيت

فصاح المؤدب والخوف يلجلج لسانه ممن ممن

ـ من روكو الذي بعثتم به رسولاً الى فلورانسا . او لستم القوم الذين تنتظرون مقدم الامير كاميل ويسكونتي عليكم

فهتفت فرجيني اين الامير اين الامير

ـ مهلاً مهلاً ان روكو لم يبلغ الى فلورانسا بل قتل وهو في الطريق

ـ من قتله من قتله

رجل من البرافي وقد سلبه الرسالة التي يحملها الى الامير

ـ فصاحت به فرجيني وهي لا تملك رشداً بحقك ايها الرجل هل رأيت حبيبي كاميل

ـ دعوني احدثكم بحقيقة الامر قبل ان يفاجئكم العدو فقد اهتدى الى مكانكم فاذا لم تبتدروا المفر الى مكان سحيق لم تأمنوا من بغتاته

ـ قل قل يا رجل فها نحن مقبلون عليك وسامعون منك

فانشأ الرجل يحدثهم عما جرى لروكو وعما عرض له في قدومه عليهم وهم مادون اليه اعناقهم ومحدقون به وحابسون انفاسهم حتى خيل وهم صامتون

جازعون لا يبدون حراكاً ان ملك الموت يخطب في اهل القبور

الفصل السادس والعشرون

ما كنت ارضى بالنوى فغدوت مذ هلك الحبيب الى النوى ارتاحُ

غادرنا ريزو رسول بلانكا معتقلاً في احدى قرى لودي متهماً بقتل روكو يقرع سنه ندماً على فضوله الذي عاد عليه بالوبال وقطعه عن الوصول الى الكولونل روبر . فما برح مسجوناً في الكوخ الذي التي فيه يردد في ذهنه الميتة المزمع ان يقضى عليه بها حتى اصيل اليوم الثاني فخرجوا به من محبسه وقيدوه الى ساق شجرة امام بيت الشيخ والتف عليه كل من دب ودرج في القرية فمنهم من كان يحنو عليه ويروف به ومنهم من كان يشتمه ويشمت به وكانت الصبيان قد طافوا واحدقوا به احداق الهالة بالقمر وانشأوا يدورون حوله ويغنون بعض اغانٍ شائعة عندهم يقولونها بلسان حال الدجاج عندما يؤخذ الثعلب في الفخ تشفياً منه وشماتةً في موته

واما روكو فما زال في بيت كبير القرية ودعيُ الطب يعالجه وعلامات الحيوة لا تبدو عليه الا من انفاس متقطعة تختلج في صدره حتى عشية ذلك النهار فجيء اليه بالكاهن ليصلي عليه وانفذ الشيخ يستدعي الى منزله بعض وجهاء القرية الذين كان كثيراً ما يشاورهم في الامور وياخذ اراءهم في الحوادث والنوازل ليعقدوا مجلساً يتفاوضون فيه بالوسائل التي يجب اتخاذها اذا قضى الجريح نحبه

فلما استقر بهم النادي قال احدهم وقد رثى لحال ريزو انه ليعرض لي يا اصحابي ان الرجل اتهمتموه بارتكاب جريمة القتل بريء الساحة نقيُّ الجيب لاني لم اجد له اثماً ولا صغير ذنب ولا كبيره

اجابه واحد وهو من الذين قبضوا علي ريزو كيف نجعله بريئاً كمن لا ذنب له وقد رأيناه راي العين يعالج الجثة فهل ترضى ان نخدع اعيننا ان ذلك لمن ضروب المحال قال الاخر ما ادرا كم ايها الاصحاب لعله عابر طريق راى الجريح فغلبت النخوة عليه ودعته المروءة الى ان يمد له يد المساعدة كما قال لكم فاخذتموه غيلة وهو يعمل عملاً صالحاً لاني نظرت خنجره واثوابه فلم ارَ عليها اثار دم ولقد عرفتم ان من اعظم الخطايا قتل البري الذي لا ذنب له

قال غيره لا يثقل كلامي عليكم اذ قلت ان الشهود قد خدعتهم اعينهم فاشتبه عليهم الامر وهذا ما يسمي خداع العين وقد كنت لا اصدق ذلك حتى تحققته اليوم وانا احرث حقلي عند الظهيرة فاني توهمت السراب ماء

قال كبيرهم ان في الامر اشكالاً وارى ان بيان الحقيقة معقود على رجوع صواب الجريح اليه ليخبرنا عن قاتله

قال احدهم يكلفنا كبيرنا عمل المعجزات واحياء الاموات فانا لو استطعنا الى ذلك سبيلاً لكفيناه موءونة الجد وراء الحقيقة .

قال السابع لا تسخروا بقول كبيرنا فانه لم يقل الا صواباً وعن قليل سيعود الى الجريح صوابه قبل ان يقضي نحبه

وما انتهى الاخير من كلامه حتى سمعوا الكاهن المشارف روكو يناديهم فهرعوا اليه ليسالوه عن امره فلما دخلوا الغرفة ابصروا روكو مستفيقاً من

غيبوبته وقد فتح عينيه وصار ينظر الى ما حوله باندهاش ثم حاول الكلام فما استطاع فقال له شيخ القرية – لا تجزع ايها الفتى وابشر بالنقمة على عدوك فقد اصبح اسيرنا وفي قبضة يدنا فهش الجريح واشار الى فمه يطلب جرعة ماء فامر الكاهن ان يسقوه جرعة من الخمر فلما شربها تجددت قواه المتلاشية بتلك القوة التي يعقبها الذبول والانحطاط كما يقع في الذبال المشتعل في سراج فني زيته فانه عند مقاربة انطفائه يومض ايماضة توهم انها اشتعال وهي انطفاء

فانتهز الرجل المبري ساحة ريزو تلك الفرصة وقال لروكو اترضى ان ترى من غدر بك لتكون على بينة من امره فاومأ روكو براسه اشارة الى قبوله فاقبلوا لوقتهم يسعون الى ريزو فحلوا وثاقه وجاؤا به وهو هلع الفواد لوهمه انهم يريدون به شراً فاوقف بين يديه فاحدق روكو فيه نظره برهة ثم هتف بصوت متقطع ريزو ٠٠٠ ويلاه لا ٠٠٠ واطبق جفنيه وتبرقع وجهه باصفرار الموت فصاحوا جميعهم قد عرفه قد عرفه

وبعد فترة سقوه كاساً ثانية من الخمر فعاد الى الوجود ونظر الى ريزو وقال ليس هذا بعدوي ٠٠٠ ليس هذا قاتلي فقد اخطأ ظنكم فيه ثم اشار الى ريزو بيده المرتجفة وقال ويك يا ريزو انا روكو فهل نسيتني وغابت عنك معرفة جارك واليف صباك

فلما تدبر ريزو كلامه ذعر وما مكث ان صاح بملء صوته روكو اليفي وجاري انت هو ماذا ارى يا ربي نعم نعم هذا هو روكو ابن وطني الذي درجت واياه في عش واحد والفته وانا صبي العب في قريتنا (كوركنزولا)

قال هذا وانطرح على سريره معولاً باكياً

فاثر هذا المشهد في جميع الحاضرين ولا سيما في الرجل الذي تعمد عن ريزو دفاعاً فانه تطاول تيهاً وكبراً بغلبة رايه وقال

ـ قد قلت لكم انه بري فلم تصدقوني حتى ظهر قبح امركم بعد ما عذبتموه ظلماً فعجلوا في اطلاق سراحه واعتذروا اليه وزودوه السلام

هتف جميع الحضور ـ اطلقوه اطلقوه

فسمعوا روكو الجريح يناديهم ـ دعوني قبل ذلك اخلو به لادفن في صدره سري قبل ان تختطفني يد المنون

فخرجوا وردوا عليهما الباب فاخذ الجريح بيد ريزو وقال له ـ لم يبق لي في هذه الحيوة الا دقائق قليلة فاسمع مني ما القيه عليك واقسم لي بانك تجيبني الى ما اطلبه منك وتطاوعني فيما اريد

فاقسم له ريزو بذلك وجلس يصغي لحديثه فقال ليس لي من حاجة اليك الا ان تنطلق دون تمهل الى بافي وتقصد نحو المعبد القديم الذي هو على مقربة من دير ترتوزا ومتى وصلت اليه فادخله تجد . . . . . آواه يادوقتي الكريمة ما عساه يحل بك . قال هذا وانقطعت انفاسه وهو قابض على يد صديقه فحاول ريزو ان يتماص من يده لظنه انه قد مات واذا به قد عاودته الحياة فاستتلى قائلاً ـ تجد في المعبد قوماً يترقبون بذاهب الصبر قدوم الامير كاميل ويسكونتي عليهم في هذه الليلة التي جعلوها موعد اللقاء فاسال عن لويجي رودلي واخبره اني صادفت رجلاً من البرافي متنكراً فاطلع على امري وعلم بحالي التي قدمت لها فاحتال عليَّ وغدر بي في الطريق وسلب

مني الرسالة التي كنت احملها الى الامير · فعبثاً ينتظر قدومه عليه وقل له ان روكو قد مات قانطاً مخفقاً

صاح ريزو وانا الاخر كنت سائراً الى فلورانسا احمل الى الكولونل روبر بلاغاً من ابنة بريفارا ثم اخبره بالامر الذي جاء لاجله وكيف اتى في طريقه عليه ورآه جريحاً مرتثاً وكيف امسكه القرويون

فلما وعى روكو كلامه هتف وهو في حشرجة الموت وانت رسول لم يسعد جدك مثلي ويلاه لقد تحققت الان ان ما حمٌ واقعٌ وان هلاك الامير قدر مقدورٌ ثم وجم برهة وبعد ذلك استانف حديثه بكلام غمغمه نزع الموت فقال بلغهم ان العدو قد علم بمكانهم وهو عائد اليهم فلير كنوا الى الفرار ·· العجل العجل الى باقي الى المعبد سر قبل ان يظلم فكري لاموت متهللاً بنجاتهم كاميل فرجيني و ·· ولما قال ذلك لفظ نفسه وخمدت انفاسه

فودع ريزو لوقته جثة صديقه واقبل يستاذن القوم بالانصراف فجاؤا اليه بجواده واعتذروا اليه واعترفوا بذنبهم وخطائهم وشيعوه الى خارج القرية

فلما فصل من عندهم قصد المضي الى المعبد المجاور دير ترتوزا ليبلغ وصية روكو ويبر في يمينه لكنه ما تجاوز غير بعيد حتى عرض في نفسه ان ينطلق اولاً الى فلورانسا مخافة ان تنقم عليه بلانكا قعوده عن ذلك ورجا ان يدرك روبر في الطريق فيكون في ذلك سلامته وسلامة اصحابه لانه قال في نفسه ان رسول بريفارا قد بلغ الى فلورانسا صباح امس فمهما تعجل الكولونل روبر في العودة لا يستطيع ان يتجاوز الا نصف الطريق فعليَّ ان اعجل في اتيانه قبل وقوعه في شرك دلبانو ولوقته استقبل فلورانسا واجهد في سيره

حتي اذا صار على مقربة من البرج المسحور سمع جلبة قتال ٍ وضوضاء عراك فترجل عن دابته وتقدم يزحف على بطنه مستوفزاً متحفزاً نحو مكان المقتتلين فابصر رجالاً معتركة وحراباً بارقة وخيولاً نافرة واصواتاً متداعية وسمع منادياً ينادي انجدني يا دلبانو فصاح ريزو وقد لطم على وجهه وقال ويلاه قد هلك روبر واصحابه فيا خيبة المسعى

وبعد برهة خبت نار الحرب وسكنت الجلبة

فقال ريزو وقد انحدرت دمعة على خده — قد قضى القضاء وطوتهم الاجداث ثم انسل بجواده وانقلب راجعاً الى المعبد الذي دله عليه روكو فلم يبلغ اليه مع جده وايضاعه حتى انفلق الفجر ونمَّ النسيم بالسحر

ولقد علمنا كيف دخل المعبد على المؤدب والدوقة ثم جعل يقص عليهما خبر روكو وحدثهم بما نزل بالامير واصحابه وخروج الكمين عليهم الى اخر ما هنالك فلما سمع الشيخ ما حل بكاميل من الامر الفظيع اضطرب اضطراباً شديداً واقبل على وجهه يلطمه ويضج لشدة جزعه وخيبة سعيه واخفاق قصده

واما فرجيني فانها انتصبت كاللبوة التي اخذ شبلاها وهي جاحظة العينين صفراء الوجه وصاحت من فؤاد جريح قتل كاميل ... غدروا بحبيبي ... هناك اهرق دمه الزكي مشيرة بيدها الى فلورانسا ثم ازداد وجهها اصفراراً وجمدت كالصنم وما عتمت ان اصطكت اسنانها وطاش بصرها وصارت ترى اشباحاً سوداء مضطربة وخيالات تختلط بعضها في بعض ووميض نورٍ في ظلام ثم انحلت رجلاها ووهت عزائمها فسقطت مغشياً عليها

الفصل السابع والعشرون

هنا وهنالك

ما برح الامير كاميل ورودريك في اشد عراك مع دلبانو ورجاله البرافي يدافعان عن انفسهما دفاع الاسود حتى كلت سواعدهما وبلغت القلوب الحناجر فاخذوهما اسيرين وقيدوهما ذليلين وطافوا بعدئذٍ بالقتلى فاجهزوا على كل من وجدوا فيه نبضاً نابضاً او رمقاً من الحيوة حتى لا ترجى سلامة احد اذا عولج فيطلع الناس على بعض شأنهم ولما انتهوا الى جثتي روبر ومرتينو وجدوهما سابحتين في الدماء لا حراك بهما فلم يجهزوا عليهما

ثم شدوا وثاق الاسيرين وساروا ليلتهم كلها ولما طلع الفجر عدلوا بهما الى احد الكهوف المعزولة عن الناس حتى لا تقع عليهما العيون وتخلف سوادهم والجريح منهم الى ميلان بامر زعيمهم دلبانو بعد ما ترك على الاسيرين اربعة من البرافي يشارفونهما ويحرصون عليهما من الفرار الى ان يعود اليهم

ثم ان البرافي قيدوا الامير ورودريك الى صخر في الكهف وجلسوا على الباب خارجاً وجعلوا يتضاحكون ويهزلون وقد قال احدهم المدعو مايو لرفيقه ساخراً

ـ او مايو انظر الى رفيقك ماستلي كيف قد اخذ الحزن منه على جاكمو كل ماخذ وانا وحقك ارى اسفي على خسارة السهام التي انفقناها في فتنة الليل اشد من وجده على ابيه حين مات

فاجابه ماركو الذي كان مستلقياً على ظهره ـ ان ماستلي لم يحزن على

جاكمو ولن يحزن عليه لو مات مرةً اخرى ولكنه قد تعود ان لا يرسل الساق الا ممسكاً ساقاً وان لا يتجر بالارواح دون كسب لخسارة صفقته في هذه الكرة هي الداعية الى اكتئابه

قال الثالث انكم لم تتبينوا وحق ديانا حزن ماستلي فانا موقفكم على الحقيقة فاعلموا ان اكتئابه ليس الا لما وقع في نفسه من هيبة الموت وانه سينزل به آجلاً ام عاجلاً ما نزل بجاكمو فاذكاره بهذا الهول العظيم كسف باله

واما ماستلي الذي كان متكئاً يسمع مزاح اصحابه ونحتهم اسلته فانه استوى جالساً واجاب بحدة

ـ انا ادرى الناس علماً ان كل احد منا سيموت اشنع الميتات وذلك عاقبة كل لص مكاسي قاطع طريق مثلنا فانا لست براج ان اموت على فراشي ولا في احضان امي ولا متعلل بان ارى شيب لمتي ولكنه يسوءني ان ارى زعيمنا يتلاعب بارواحنا كيفما اراد ويلقينا في المهالك لادراك حاجته وانفاذ مقاصده السياسية التي تعود علينا بالوبال والخسران دماً ومالاً

فنحن لسنا برجال الدرك ولا الموكلين براحة العباد والبلاد وتقويم الملك

فهتف مايو ـ اسمعوا اسمعوا ان ماستلي يتكلم صواباً وقد اوتي علماً وحكمةً فاردف ماستلي قائلاً ـ وما كان اغنانا عن قتال ليل الامس فقد فتكنا بمن فتكنا وفقدنا من رجالنا من فقدنا ولم نجن ثمرة ولا اصبنا غنيمةً او لم يكن من الحكمة والسداد ان نفرض على هذين الاسيرين فدية فيبتاعا حريتهما وحياتهما بوزنات من الذهب الوضاح لانا بالذهب نملأ رؤسنا خمراً وجوفنا طعاماً وجيوبنا مالاً فان اكياسنا قد ثقلت علينا لخفتها بالدرهم

يلأم كل صدع ويدنو كل ملتمس وينقاد كل صعب ومن لا مال له لا عقل له ولا دنيا ولا آخرة له فان الفقر على ما قيل راس كل بلاء فان افتقر الرجل مقته الناس واتهمه من كان له موءتمناً واساء به الظن من كان يظن فيه حسناً فان اذنب غيره كان هو للتهمة موضعاً وليس من خلة هي للغني مدح الا وهي للفقير ذم فالمال المال بغيتنا وسيان عندنا مات الناس ام عاشوا

فقهقه اصحابه ضاحكين وهم يقسمون ويجدفون

قال مايو اي وربي ان كلام ماستلي لهو البلاغة فقد نفث في عقد ضميرنا سحراً اذ لا ينفعنا اعتقال هذين الاسيرين بمقدار النفع الذي نصيبه لو اطلقنا اسرهما بفدية من المال

قال مايو دعوا عنكم المحال فانتم تخبطون خبط عشواء كحاطب ليل اما علمتم ان كميننا صرف عن ميلان الفتن ودفع عن اهلها الشر والاذى وان ما اريق من الدماء لم يكن شيئاً مذكوراً مما كان سيراق على جوانبها لو نجا هذا الاسير (مشيراً الى كاميل) فالفضل كل الفضل لجاكمو المرحوم الذي احتال عليه وعلى اصحابه وقادهم كالنعاج من فلورانسا ونثر الحب حتى وقع الطير في الشرك فامكن لنا صيده واتخذنا عند الدوقة كاترين وجان ماريا افضل الايادي وسوف يجزلان لنا العطية وينثران علينا الذهب نثراً

فاجابه ماستلي مستهزئاً به انهم لا يحسنون اليك الا بحبل يربط في عنقك الى عمد شجرة وما جزاءوك الا جدع الانف وحز الرقبة وان كنت في ريبة من ذلك فبادر الى التماس النوال وخذ منه نصيبي فقد وهبتك سهمي بطيب نفس

فضج الجميع في الضحك وجعلوا يتغنون وكان الامير كاميل مذ اسر الى

ذلك الحين ذاهلاً عن نفسه لا يملك رشداً اشبه برجل ارتطم راسه الى صخر فاختل دماغه وعقله وصار لشدة حزنه وانقباضه وايجاسه يبكي كالطفل الصغير وقد كبر عليه الخطب الذي نزل به وباصحابه وفوز اعدائه عليه لانه علم ان كاترين وبريفارا وجان ماريا هم الذين احتالوا عليه وتوهم انهم عرفوا بدعوة عمه له ولخوفهم ان يعود فيتولى بافي ويقترن بفرجيني امروا دلبانو ان يعترض له في الطريق ويغتاله مع اصحابه ولم يقع له الفكر في موت عمه وفي ان الكتاب الذي حمل اليه منتحل . ولاجل هذا كان في عجب من دلبانو كيف لم يقتله قبل ان يشيع امره ويتناهى خبره الى عمه الدوق فيسعى الى نجاته من اسره ويذيق اعداءه مر النكال جزاء ما جنت ايديهم

وكان ذهاب فكره الى بقاء عمه حياً يخفض عليه شدة الخطب ويجعل له املاً في النجاة وحتى يكون على بينة من امره هم ان يسال البرافي عما يريدون فسمعهم يتحدثون بالمال والذهب فخطر له ان يزدلف اليهم بذلك عساهم ينخدعون له فيفكوا اسره قبل عودة دلبانو فناداهم

فقال ماركو ان الامير يناديك يا ماستلي فتقدم وتلطف في الحديث معه ولا تنسَ انه من بعض كبراء القوم الذين يسرهم الاطراء بهم ويسوءهم السكوت عن ذكر القابهم الحسنى وكن سابقاً لنا الى نيل هذا الشرف الاسمى

وكان ماستلي مسنداً ظهره الى الحائط فلم يحمل نفسه عناء القيام بل التفت الى الامير وقال له بغلاظة بربرية — ماذا دهاك ايها الامير

واي امر تريد

ـ اريد ان اسالكم عن المكان الذي تريدون المضي بنا اليه

ـ ها ها ان الامير يطلب الي ان اخبره عن المكان الذي سيحمل اليه . أجبه يا مايو لئلا يتوهم اننا سنقبل به الى قصره في ميلان ان القبر وجهنم الحمراء هما المكانان اللذان اعدّا له فليختر لنفسه ما يحلو

فكظم الامير غيظه وقال

ـ اني اسالكم عما عزمتم عليه في امري وامر رفيقي

ـ هذا سؤال سهل الجواب فاما ان ندعكما حيين واما ان يبعث بكما الى عالم الاموات

قال الامير متلطفاً ان الرجل الذي يحتاج الى الثمر لا يجزئه الورق وان كثر وانتم لفي حاجة الى المال وليس اسرنا ليغنيكم عنه شيئاً فاطلقوا وثاقنا واقبلوا معنا لنحمل اليكم من المال واصناف الجواهر والكنوز ما تطيب به انفسكم

ـ صاح ماستلي ان الامير قد وعدنا ان يفتح لنا خزائن الذهب والفضة واللؤلؤ والزبرجد لناخذ منها ما شئنا اذ اطلقنا اسره فيالضياع هذه الغنيمة التي لا نستطيع ان نمد اليها يداً

قال ماركو هل وثقت بهذه الوعود الفارغة الا تعلم ان بعض الاغنياء والعظماء لا عهد لهم ولا وفاء فهم اذا طمعوا في امر او احتاجوا الى ما عندك من نفع اغنوك بالوعود ومتى قضوا اوطارهم وادركوا ما ارادوا من حاجتهم وجدتهم ابخل من صبي يولون عنك فلا ترى منهم الا

عرض اكتافهم ولست اشبههم الا بابن آوى عندما يطبق عليه الفخ كيف يعزم على نفسه ان لا يعود فيطرق قن الدجاج ان قدرت له النجاة وهو متى تفلت عاد الى شر مما كان

فلما سمعوا كلام ماركو اعرضوا عن الامير وهم يسخرون به وما زال ذلك امرهم حتى المساء

وعندما تنفس صبح الغد وانبلج فجره كان هولاء البرافي وزعيمهم دلبانو يرتقون ذروة عالية من جبل تورل وبين ايديهم الامير كاميل وروديك وهم يكابدون صعوداً شاقاً غير ملتفتين الى الوديان العميقة التي كانت سيول الماء من ذائب الثلج تنصب فيها بهدير مخيف لئلا يدركهم الدوار لبعد المهوى فتزل بهم القدم ويلج بهم العثار وما زالوا يصعدون في الجبل حتى ادرك التعب الامير كاميل ولم يعد به نهوض فامر دلبانو البرافي ان تحتمله وتعينه على التوقل وجعل يقول في نفسه

ـ لا ادري ما الذي قصد البارون بريفارا في ابقاء هذا الامير حياً حتى كبدني هذا العنا والجهد وحملني ما لا اطيق احتماله من الصبر عليه والرفق به ٠٠٠ ان قتله مع رفيقه لا يسر عندي من حملهما على اكتاف رجالي الى مغاير الجن فخير لهما ان يموتا عاجلاً من ان يدفنا فيها وهما في قيد الحيوة ويموتا بعد ذلك كالكلاب ثم هم بقتلهما واذا به احجم لفكر بدا له وخاطر هجس في قلبه فقال ـ اني عرفت راي بريفارا وما اراد في استحيائهما فان هذا الامير لهو سلاحه الذي يجرده في وجه كاترين وجان ماريا اذا تغير قلبهما عليه في مستقبل الايام او انفصمت بينه وبينهما عرى المودة ولكن بريفارا جهل انه سيكون

ايضاً حسامي الذي اقاتله به اذا لم اتزوج منه ابنته بلانكا البديعة الجمال فقد صرفت عمري في قضاء حاجاته وتحملت كل ضر في جنب منفعة تصل اليه ادراكاً لهذا الامر وسعياً له .

ان بلانكا لا تحبني لاني زعيم قوم من اهل الشر وقد عرض لي انها تهوى رجلاً من اصحاب الامير وهذا ما لجَّ بي الى قتلهم جميعاً لكي لا اجعل لها سبيلاً الى مخالفتي الى هذا الحبيب لتجتمع به كما فعلت تلك الدوقة الولهانة فرجيني التي اتت المعبد المجاور لدير ترتوزا لتقترن بهذا الوغد كاميل الذي كان يطمع في الملك من بعد عمه الدوق ... اني لقد طرقت تلك الاماكن والمنازل وفتشت عن فرجيني فلم اجدها ولكن سوف اقتفي منها الاثر وادركها اينما كانت واحملها الى فرنسوا وازدلف بها اليه ليكون لي معواناً على شقيقته بلانكا

وحينما كان هذا الزعيم ينظر الى الامير متسلقاً الصخور كالارنب يطارده صياد ويفكر فيما اعد له في مغائر الجن وما جرى على ابيه وعلى اكثر رجال هذه الاسرة كان يصرّ على اسنانه مغمغماً هذه الكلمات آه من الناس ما اشدهم جهلاً ودناءة وحماقة وتعلقاً بالحيوة الدنيا التي لا يصيب منها احدهم نفعاً الا بضر اخيه ... انا لا الام اذا لم اقابلهم الا بخنجري وحسامي لان امرهم مبنيٌّ على الرياء والفجور وما هم الا اجلاف البستهم الطبيعة من الانسانية ثوباً مستعاراً

ولما انتهى هذا الزعيم فيمن معه الى اعلى الجبل حيث يرى الناظر بحيرة كومو كصفيحة من الفضة قد ذاب جانبها الجنوبي الذي يجري منه نهر ادَّا كان الشرق يرمي عن اقواس الفجر قلب الظلام بحراب النور والضباب

يتقشع من فلك السماء والسكون سائد يهيب النفس من عظمة تلك الجبال والنسيم البارد يهمهم مترجماً عن وحشة ذلك المكان ووعثه

فالتفت كاميل واذا به يرى مغائر الجن وهي كانها المرم الباذخ فامتقع لونه وخفق قلبه واتسعت حدقتاه ووقف مبهوتاً كمن خواط في عقله وصاح « مغائر الجن » اما رودريك فمذ راى مغائر الجن قامت عيناه في ام راسه وزار كالاسد حينما يهم بالقتال والوثوب فقطع قيوده وتخلص من وثاقه وهجم على البرافي القريب منه ودفعه في صدره فسلقه ووثب يطلب الهرب والنجاة لنفسه واذا به يسمع دلبانو يهيب به قائلاً

- مكانك والا خرقت قلبك فالتفت فابصر سهم دلبانو مصوباً الى صدره وقد همَّ ان يطلق وتره فوقف خائفاً وعيناه محدقتان به كمن يخير نفسه بين الموت والحيوة الا ان خوف الموت او حب الحيوة حمل رودريك على التسليم لان الحيوة مهما اغتالها من السقم ونزل بها من البلاء تغلو على المرء فلا يجود بها مكرهاً

فهجمت عليه البرافي واوثقته بعد ما اوسعته سباً وشتما وضرباً ثم ساروا حتى اتوا مدخل مغائر الجن فهرع رنارو بريانتو الذي عرفه القاري لاستقبال القادمين ومعه الطبيب وفئة من الجند

فلما راى رنارو دلبانو انحنى امامه مسلماً ثم نظر اليه وقال

- اذكر اني رايتك مرة ايها السيد الكريم وانا ناسٍ الزمان الذي نلت فيه هذا الشرف ...

فتبسم دلبانو استهزاء وقال لقد مضى على ذلك عشر سنين ايها الرئيس

ـ اني انسى والدي اذا مرَّ عليَّ عشر سنين ولم اره

ـ تفرس بي جيداً

ـ اوه نعم نعم دون دلبانو .. بالله كيف غابت عني معرفتك ياسيدي

ـ هل ما برح الضيف الذي جئتك به اولاً حياً

ـ اني ابشرك ان هذا الضيف قد استمرأ طعامنا واستعذب ماءنا وطاب لهُ جوار الجن فلو كان كل ضيفٍ لنا مثله لنزفت خزينة الحكومة من وقر النفقات فعسى زيارتك هذه تعجل عنا مرتحله

ـ انعم بالاً ايها الرئيس فان ضيفيك اللذين اقبلت بهما اليك هذه المرة سيكونان خفيفي الوطأة فلا يطيلان اجل الضيافة ثم عمد الى جيبه ودفع الى رنارو الكتاب الذي اعطاه اياه بريفارا موقعاً عليه من الدوقة كاترين وجان ماريا فما كاد راس الحراس يقراه حتى انقلبت سحنته من البشاشة الى العبوسة وصار يزوي ما بين عينيه ويقلب شفتيه اعجاباً ويهز راسه استغراباً

ثم امر الجنود ان يسوقوا الاسيرين ويسجنوا كل واحد منهما في مغارة من تلك المغائر التي اوردنا لمعاً عنها في صدر الرواية

الفصل الثامن والعشرون

من ذا يعارض احكام القضاء ومن   يستطيع ان يدفع المقدور ان نزلا

فاقبل الجنود بالاميرين كاميل ورودريك الى داخل الحصن ومروا بهما

في تلك المازق المظلمة وما زالوا في صعود وهبوط حتى تجاوزوا العقد الكبير المشحون بالهياكل وانتهوا الى الدائرة التي تتفرع منها الاروقة المصطفة على جانبيها المغائر فاعترى الاسيرين دهش شديد من غرابة ما يريان واضطربت منهما النفس لهول ما يبصران حتى خيل لهما ان ذلك مظاهر وهمية لا تلبث بعد فترة ان تزول وتختفي عن اعينهما

ولشدة ما نزل بهما وقفا ينظر كل منهما الى صاحبه نظرات استفهام واستغراب كأنهما يتسألان فيما يفعلان

وبينما الامير في مثل تلك الحال اذ دفع الى مغارة من تلك المغاير واغلق دونه الباب فبات واقفاً يسبح في ظلام حالك وهو كيفما التفت لا يرى الا سواد ليل داج وخيالات كالطيف تمر كالسهام المرسلة فتخلب ابصاره وكان قد حم لشدة ما عرض في نفسه من الحزن والهم وادركه من التعب والجوع وتمشت الحمى في دماغه فصار يرى تلك الخيالات على صور متباينة في الغرابة ويسمع في اذنيه هدير بحر عجاج تتلاطم امواجه فمرت به ساعة شديدة الهول كاد يختل فيها عقله فكان كلما نظر الى تلك المخاوف التي تكتنفه يزداد خوفاً لان النظر عندما لا يستطيع ان يتبين وجه الخطر ومقداره فالخطر يزداد كلما زدته نظراً حتى يتجاوز به الوهم الى ابعد حد من الامكان والتصورات المرعبة تخرج عن دائرة الحقيقة

ولما طال عليه الامر جعل ينتحب وينادي صديقه رودريك فلم يجبه سوى دوي صوته وصدى تنهداته وزفراته

ونحو الظهيرة ابصر طوماز السجان داخلاً عليه حاملاً اناء ماء وقطعة

فيها ورق من الملفوف وكسرة من الخبز الاسود الجاف فوضعها امامه وقال له عفواً ايها الضيف الكريم اذا لم نقم بما تريد ان نبلغه من كرامتك فان هذا افضل طعام عندنا فكل واشرب هنيئاً مريئاً قبل ان يشتد بك الجوع

ولما لم يسمع من الامير جواباً هز كتفيه وانقلب راجعاً وهو يقول لوجده عليه . اني اتلطف له في الحديث فلا يرد عليَّ جواباً ولكن سوف يأتي يوم وهو قريب يكلمني بامره فلا يكون ردي عليه الا الاعراض عنه ليعلم هذا الغبي انه في مغائر الجن لا في قصره بين خدمه وحشمه حتى لا يتنازل الى الكلام مع رجل فقير نظيري

وهذا دأب الجهلاء وسفلة القوم الذين يغتنمون عثرة كرام الرجال فيحتقرونهم ويستصغرون امرهم ويخفضون منزلتهم لان الكريم اذا عثر لا ياخذ بيده الا الكرام وعند العشية اخذ الامير يسكن جاشه ويخفض عليه روعه ويلتفت يميناً وشمالاً ليرى تلك المغارة التي حل فيها واذا بها من صخر واحد ضيقة الجوانب شديدة الرطوبة لا يتطرق اليها الهواء وليس فيها سوى فراش من القش وغطاء من الصوف الخشن وكرسي من الخشب ومائدة سوداء فصار يترقب عودة السجان ليسأله عن السبب الذي استحق لاجله ان يلحد في هذا القبر وعن الذي امر بسجنه اذ كان يعلم ان عمه لا يتسامح بسجنه ولا يرضى به وان الاعداء مهما بلغت جرأتهم لا يقدمون على هذا العمل المنكر والدوق جان غلياس حي فصارت هذه الافكار تتوزعه وما زال يبني ويهدم ويرتئي ويفتق حتى انقضى الليل وهو لم يذق مناماً

فلما اصبح الصباح دخل عليه السجان طومازو فابصره جالساً في زاوية المغارة وقد انهك عزمه الهجس واوهن دماغه الارق والطعام باق لم يذق منه شيئاً فتبسم بازدراء وقال في نفسه ان طعامنا لم يحز من ذوق الامير قبولاً ولا بدع فقد تعود ان يطعم اشهى طعام ولكن سوف متى عضه الجوع بناب حادٍ يرى طعامنا احلى من الشهد

فكلمه كاميل فاعرض عنه ولم يعره سمعاً ولا التفاتاً وهمَّ بالخروج من عنده فامسكه بلطفٍ وقال له

ـ بعيشك اين سجنت رفيقي ايها السجان

ـ بربي في مغارة مثل هذه لاننا قوم نحب المساواة والاخاء فلا نبخس الناس اشياءهم ولا ننظر في الانساب والاحساب ولا نسيء الى احد الا اذا حاول ان يصل الينا بشر او مسه طيف فانا نهبط به الى الهلّ

ـ الهلّ

ـ وما ادراك ما الهل هي مغاير في اعماق الارض لا يقوى المرء على الاقامة بها يومين قبل ان يذوق حتفه فاسال الله ان لا يريكها فان رفيقك لا يرى بدّاً عن الحلول بها لانه ما برح مذ دخل الحصن هائجاً زائراً وسوف يختل عقله فان عليه من الجنون دلائل

صاح الامير بجزع هل جن رودريك

ـ ليس الجنون ولا الهل بعيدين عنه وعزيز عنه وعزيز عليَّ ان يؤول اليهما امره لكن ما حيلتي وهو الذي سيجر الى نفسه الهلاك لانني لم ابغ عليه ولا عداوته مما تعرض في نفسي لانني ممن يعامل الناس على اخلاقهم

فمن احسن فلنفسه ومن اساءَ فعليها وعندي شاهد شيخ سجين في جوارك قد اتت عليه في مغارته سنون عشر لم تحدث نفسه سرها بمخالفة ولا اختلج في ضميره انحراف عن الطاعة فرفقت به ولم اتحامل عليه بسوءٍ

صاح كاميل مرتاعاً عشر سنين في مغائر الجن

ـ عشر سنين لم يرَ وجهاً بشرياً غير وجهي ولا راى ضوءَ النهار نعم انه كان في اول امره يبكي ويشكو ويتظلم الا انه اخيراً اخلد الى الدعة والراحة وآلف الوحدة والسجن لكنه ما فتئ يحدثني عن زيارة الجان له كلما عسعس الليل وسجا وعما يراه في منامه من طوائفهم التي تطوف به ولقد طلب مني تعويذة لينفرهم عن عشه

ـ اما عرفت اي ذنب سلف منه حتى استحق هذا العقاب

ـ لكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة فليس من شاني المسألة عن هذا وانما الذي عرفته من امر الشيخ انه ضيفي نظيركم الى ما شاءَ الله من الزمان

ـ صاح الامير وقد هلع فواده وابدع به الخبر ـ هل حكم علينا ان نسجن في هذه القبور الى ما شاءَ الله من الزمان

ـ نعم نعم انك ستعيش بقية العمر عندنا ولاجل هذا تراني راغباً في مصادقتك والفتك لانك ما برحت في عنفوان الشباب وستقيم عندنا امداً طويلاً

ـ انا على يقين مما اقول فليس احد يسجن في مغائر الجن ويطلق سبيله او يعود فيرى ضوءَ النهار واني ناصح لك ان تلجأ الى السكينة ان كنت تأبى اتيان الهل ومجاورة اسراب الجان وان تتناول ما أتيك به من الطعام الا اذا كنت توثر الموت جوعاً

ـ وهل عرفت بامر من سجنت مع رفيقي

ـ بامر الدوقة كترين وجان ماريا حاكم البلاد

ـ جان ماريا حاكم البلاد انك لا تدري ما تقول ايها السجان لاني اراك تجهل ان الدوق جان غلياس هو حاكم البلاد وصاحب السلطان

ـ ان الدوق العظيم قد مات من اربعة ايام وخلفه في الملك ابنه سيدي الدوق جان ماريا

فلما سمع كاميل كلام السجان وثب من مكانه كمن لسعته افعى ووقف شعر راسه وتفجرت عيناه وصاح ـ الدوق جان غلياس قد مات

فهال طومازو منظر الامير واضطراب سحنته ولم يتسع له الصمت فاجاب قد اصيب بداء السموم فمات فجأة واستقر الامر للدوق جان ماريا وتولت الدوقة كاترين تقويم الملك والنهوض به اذ هي وصية عليه

فاحس كاميل كأن يداً قبضت على قلبه ورئته فمنعته عن التنفس وشعر كان الارض مادت به والمغائر تقوضت عليه ثم اظلم بصره وبارحته قواه فسقط مغشياً عليه

فلم يعبأ طومازو بما اصابه اذ كان في منعة عن التأثر من مثل هذه المشاهد التي الفها بل اقفل الباب واقبل يسعى الى المغائر الاخرى

واما رودريك فان الجنود مذ دفعته الى مغارة بالقرب من مغارة الامير وردوا عليه الباب خاض لجة الظلام ويداه ممدودتان الى الامام كالاعمى حتى مس الجدار فجلس في احدى الزوايا وهو عديم الحركة مظلم العقل كالشارب الثمل تمر به الافكار فلا تعلق في ذهنه لشدة جزعه

وذهولة وبعد ساعة مل فجعل ينادي السجان مرة والامير اخرى واذ لم يجبه احد ورأى نفسه كالطير المقفص اخذ يجلب ويضج ويصيح ويشتم حتى ملأ المكان صخباً وصياحاً

فلما دخل عليه طومازو وراءه هائجاً مزبداً خاف منه على نفسه وتراجع عنه الى الوراء قائلاً

ــ هل عهدتني ميلان طبيباً للمجانين حتى بعثت الي بهذا الرجل الداعر الذي كاد ان يختل عقله بعد ساعات من سجنه ... قلبي يحدثني بانه سيوهم الهلع آجلاً او عاجلاً

ثم اسرع فوضع الطعام على المائدة وهم بالخروج من عنده فشعر بيد كالحديد قد قبضت بعنف على ذراعه فصاح من شدة الالم فلم يعبأ رودريك بصراخه وقال له ــ مهلاً ايها الشقي وقل لي اين وضعت الامير

فاجابه طومازو ــ قد تبوأ مغارة نظير هذه فماذا تريد

ــ اني اريد اطلاق اسري لانجو من هذا المكان الذي سجنت فيه ظلماً فاني لم اقترف ذنباً ولم اجترح اثماً

ــ اني لست من اصحاب الامر الذي يتناول اهله شكوى المسجونين والنظر في امورهم واطلاق اسرهم فدعني وشاني

ــ لا ادعك تذهب من عندي قبل ان تخبرني عن المراد من سجني

ــ ضيافتك الى ما شاء الرحمن من الزمان

ــ هل لا تطلقون سبيلي لاعود الى كيناسي عند اهلي وناسي فان لي خطيبة تترقب عودتي اليها واجتماع شملي بها ......

اجابه طومازو وقد افلت من يده ووثب الى خارج المغارة واغلق الباب

ـ ستجتمع بها في عالم الاموات ايها الاحمق فهناك يكون الملتقى ثم سار وهو يقول يا له من جنون فاضح امل الاجتماع بالاحباب بعد ولوج مغائر الجن

اني انصح لهذا الموسوس ان يستعيض عن حبيبته بواحدة من نساء الجن اللواتي يطرقن المغائر ليلاً ان لم يمتلك عن الغواني قعوداً

فبات رودريك بعد ما اغلق في جهه الباب واقفاً يعض انامله كيداً وكمداً ويعاتب نفسه ويقول .

ويل ثم ويلان لي انا الشقي لاني ساقيم في هذا القبر المظلم عمري كله ولست اعلم بعد هذا لاي شان سجنت وقضي عليَّ بهذا العذاب الاليم ليتني مت في ساحات الحرب شريفاً او ليتني لم استسلم لذاك الوغد دلبانو بعد ما تفلت من اعتقالي فقد ارهبني الموت ولو تدبرت امري لفضلت الموت على الوقوع في هذه الورطة .. ما كان اغناني عن صحبة الامراء فان رفيع منزلتي اوصل اليَّ الاذى والخوف ولو لزمتني مسكنتي وخفي منزلتي بين الجنود لما نالني ضرٌ ولا بلاء وكنت في نعيم مقيم ولو علمت اني سانفصل عن الامير كاميل واقطع عن حبيبتي نيانزا لما رضيت بالحيوة

ثم انه تلهب وتلظى وعمد الى باب مغارته يعالجه ولكنه انثنى خائباً مخفقاً وانطرح على فراشه خائر القوى متلاشياً من الحزن والتعب

واما الامير كاميل فانه استفاق من غشيته وهو في اشد كرب وضيق يتذكر ماضيه ويفكر في مستقبله ويخاطب نفسه قائلاً ودموعه منهملة على خديه .... كاميل لقد مات عمك الدوق وامتنع عليك

الخلاص من يد اعدائك وتصرم حبل الرجاء من النجاة ٠٠٠٠ قد حدثت نفسك باخذ الثار من كاترين و بريفارا وجان ماريا فسبقوك الى الانتقام منك واتسع لهم الامر فغدروا بك وامطروا عليك من سحب انتقامهم نارًا بعد اذ فصلوك عن الجيش مخافة ان تزحف به عليهم وقتلوا اصحابك الذين كنت تذخرهم للشدائد لتصبح فريدًا وحيدًا لا عون ولا نصير لك يميط عنك الشر والاذى

ثم تنهد وقال وانت يافرجيني يابهجة الحيوة سوف لا ترين وجه محبك كاميل الذي كنت تترقبين قدومه عليك لتكللي راسهُ بالغار وهيهات هيهات ان تجمع الايام لهُ ولك شملاً فابكيه ميتًا حيًا لانه سيقضي العمر كله في مغائر الجن مسجونًا مع زمر اللصوص والاشقياء محجوبًا في مغارة تكتنفها الظلمة لا يبصر فيها النور ولا يستنشق الهواء اللذين يمن بهما الله على الابرار والفجار من عباده ويا كل اخبث الطعام ويموت كالكلب الذي فقد صاحبه

اواه يا كاميل لقد تخرمتك بوائق الدهر ونزلت بك المحن وماتت عسي ولعل فماذا انت فاعل بعد هذا وانى تتاح لك الحرية والنجاة من مغائر الجن ثم اجهش في البكاء

وبينما هو يتمامل علي جناح الفكر وقد ساورته الهموم والاشجان وافى اليه الامل الكامن في قلب كل انسان فخطر له ان الكمين الذي خرج عليه سوف يفيض خبره ويشيع امره فاذا شاع ذلك اسرع المؤدب الى مكان الفتنة لحمل جثته فاذا لم يعثر عليها بين القتلى يدرك انه باق في قيد الحيوة فيفتش عنه ويتنسم اخباره حتي اذا اهتدى اليه سعى الى نجاته فتعزى بخوادع

تلك الامال الضعيفة التي يضحك منها من كان حراً طليقاً طروباً وينتعش بها فواد من كان نظير كاميل مسجوناً حزيناً قانطاً فرب املٍ احلى من فوز ثم كفكف دمعه وانطرح على فراشه ونام نوماً عميقاً وعندما هب من رقاده اصابه مس من الجوع كاد يمزق احشاءه فاقبل على الطعام الذي جاءهُ به السجان فاكله بشهية ونهم بعدما آلى على نفسه ان لا يذوقه لما به من القمه والتفه وقد كان يعجب ممن يستطيع تناول مثل هذا الطعام فلما اشتد به الجوع الفاه لذيذاً مريئاً فتحقق عنده ما كان يجهله من ان الفقراء والمساكين يجدون في غذائهم التفه لذة لا تصيبها الاغنياء في طعامهم الشهي

وهكذا اقام الامير وردريك على الذل متجرعين كاس الضيم في مغائر الجن ستة اشهر خالاها ستة قرون وهما يترقبان النجاة في كل يومٍ ولشدة ما ذاقا من ضروب الهوان والبلاء والضنك من البكاء وتسكاب الدموع انقلبت هيئتهما الى الكآبة والعبوسة واستحال ورد خديهما عبهراً وغارت اعينهما في وجهيهما وضمر جسماهما من فساد هواء السجن ورطوبته وشدة قرس البرد وخبث الطعام

الا انه ما انقضى الشهر السابع حتى ذهب صبر الامير كاميل وضاق ذرعه ملالةً وساءمة واضمحل دخان تلك الامال الخوادع التي كان يعلل بها نفسه وانقطع رجاؤُه من غوث مؤدبه ورأى ان العالم قد انحرف عنه فلم يبقَ له صديقٌ يمد اليه يد المعونة ولا ام تبكي عليه ولا اب يسعى في استطلاع خبره ولا ذو مروءة يؤسيه فبلغ به اليأس والقنوط

لحد ان شرع يعارض الخالق ويحول عليه بالتعنيف واللوم ويعزو لعزته العسف والجور وعدم الاعتناء بمخلوقاته سبحانه وتعالى عما يأفكون

ثم لم يلبث حتى افاق من سكرة الحزن واليأس وعاودته شعائر الدين المدفونة في خبايا القلب فرأى نفسه مفتقرًا الى نصير ومعين فلم يجد من يستصرخه او يستغيث به من اعماق مغارته الا الله الذي كان يجدف عليه اذ هو الاخذ بناصر من لا ناصر ولا ظهير له فجثا على ركبتيه وصلى اليه بحرارة فوجد في الصلوة معنىً كان يجهله من قبل لان السعداء لا يتصورون الصلوة الا مجموع الفاظ خالية من المعاني لا لذة لها فاذا مست المصائب الانسان استفاق من غفلته وادرك تلك المفاوضة العذبة مع الله

وبعد ما انتهى كاميل من التوسل والتضرع اليه تعالى شعر بتعزية خالجت فوءاده فجددت عنده امال النجاة من مغائر الجن حتى خيل له ان ساعتها قد دنت فدأب على هذه الحال اياماً طوالاً

الفصل التاسع والعشرون

﴿ الشيخ العجيب ﴾

انجد اخاك اذا ما كنت مقتدرًا　　واولهِ الخير معروفاً واحسانا

لا خير في رجلٍ لا نفع منهُ فكن　　ممن يخلد ذكرًا انه كانا

فافضل الناس من عاشت مكارمهُ　　وكان للناس غوّاثًا ومعوانا

عودٌ لقد تركنا اصحاب الامير وجماعة من البراسي في قتلى امام ذلك

البرج المسحور وجثثهم معفرة بالتراب ملقاة في مكان من الطريق والليل ناشر جناحه على تلك المشاهد المحزنة والمناظر الموحشة التي كانت تحدث عن فظائع البشر وظلمهم وعدائهم

وقبل ان يطلع الصباح كان يرى رجل اشيب طويل القامة شعره مسترسل الى منكبيه وعليه اثواب من الوبر يقلب تلك الجثث عله يجد في واحدة منها نسمة حيوة فافتقد جثة ريكاردوس والفونس ومتى حاجب الامير كاميل وستة من البرافي فلم يجد في احداها نبضاً نابضاً او نفساً خافتاً فتنفس الصعداء وقال

ـ آه من البشر انهم لاشد هولاً من الطاعون النازل بهم وما هم الا وديعة غيب ورهينة بلى

ثم حانت منه التفاتة فوقع نظره على جثة جاكمو فتبسم تبسماً منكراً ورفع كفيه الى السماء وصاح اللهم انت عادل تنتقم من الظالمين ليعلموا اي منقلب ينقلبون وان على الباغي تدور الدوائر ثم نظر الى جثة جاكمو وقال يخاطبه ـ ان قعودي عنك ايها الدهمي حين مرورك بجبال الابنين من امام كهفي وسماعي منك ما تاتمره بكاميل ويسكونتي وصحبه مع رفيقك البرافي المتنكر بزي المساكين الجأني مع شيخوختي وانحناء ظهري وزوال منعتي الى ان الحق بك واتبع اثارك سعياً على القدم لاحذرهم من شرك وانبههم الى الكمين الذي سيخرج عليهم ولكن واسفاه لقد نفذ السهم عن قوسه ونزل بك وبهم القضاء المبرم قبل ادراكي لهم ليفعل الله امراً كان مقدوراً فها انا اعود متعظاً بما حل بك من سريع العقاب جزاء ما قدمت يداك من

البغي والغدر

ثم هم ان ينثني عن موقفه مولياً واذا به يسمع انيناً ضعيفاً جداً فاجفل له واقبل يفحص الجثث حتى اذا انتهى الى جثتي الكولونل روبر والقبطان مرتينو وجد بهما نسمة حيوة تتردد مقاربة الزهاق فابرقت عيناه فرحاً واستبشاراً واسرع في ضمد جروحهما العديدة بحذقٍ عجيب ليرقأ دمهما ثم تناول من جيبه قرن كبش مملوءاً عصيراً مجهولاً وسكب منه في فم كل منهما عشر قطرات فلم تمض دقائق حتى انتعشا ودبت في اعضائهما الروح والحركة فصفق الشيخ طرباً ونظر الى السماء قائلاً اللهم اني اشكرك على انك شفيت صدري وبردت غليلي من موت جان غلياس ولم تردني مخفق السعي ولم تجعلني عديم النفع والفائدة فقد بعثتني لغوث هذين الرجلين ولسوف أُعنى بهما واجعل ذلك عليَّ فرضاً محتوماً

ثم ان شيخ الابنين (وهو الذي رآه القاري مرة في تلك الجبال يوم زحف الامير كاميل بطليعة الجيش على فلورانسا) احتمل روبر ومرتينو واقبل بهما الى البرج المسحور لعلمه انه مهجور لا تدنو منه سكان القرى وتلك القبائل والبطون كما اشرنا لوهمهم ان الجن والارواح قد جعلته لها مباءة وقراراً

وكانت قد اتت على هذا البرج القرون الكثيرة فتمزق قائمه وصدمته الانواء والعواصف على توالي الايام فتداعت جدرانه حتى لم يبق منه في الظاهر غير بقايا شاخصة ورسوم ناقصة ومطابق كبيرة مظلمة في جوف الارض هي قواعد ذلك البرج فوضعهما الشيخ في مطبق وجعل لهما من اثواب القتلى فراشاً وغطاء ولباساً وعندما اشرقت الشمس اختفى بجاءة

وفي المساء عاد اليهما يحمل جراباً وقدراً كقدر الطعام واعشاباً يابسةً ومعهُ كلب كبير على ظهره رحل فيه اثواب وجلود من الوبر فولج البرج وعمد الى الجريحين فافترش لهما تلك الجلود ثم اوقد ناراً وغلى تلك الاعشاب في القدر فسقاهما عصارتها ثم غسل جراحهما بها ثم اشار الى كلبه وقال يخاطبه

ـ يا زولو ان شيخك يعتني الان بهذين الجريحين فهما مرتثان مشرفان على التلف فعليك انت ان تتبع اثر الاحياء فان صديقي هذين الرجلين قد اسرهما البرافي وساروا بهما الى حيث لا ادري فالحق بهما لتهديني الى مقرهما غداً فان شيخك قد خذلته قوته فقم عنه بقضاء هذه الحاجة وبرهن لي على خلوص ودك ونباهتك

فادرك الكلب ما قيل له لانه نظر الى صاحبه وبصبص بذنبه ووثب الى الخارج كالسهم المرسل واخذ يعدو من تحت الليل وانفه يمس الارض مهتدياً بالشم الى ما لا يهتدي اليه الانسان بالنظر والسمع

ثم احيى الشيخ ليله سهراً بالقرب من روبر ومرتينو وهو احنى ضلوعاً من الام عليهما

وفي الصباح بارحهما ولم يعد الا في عشية اليوم الثالث ومعه كلبه فسمعهما يئنان انيناً يجرح الفؤاد فسقاهما عصارة اعشاب لا يعرفها احد سواه ليغيبا عن حسهما ويصبحا في منعة عن الشعور بالالام وجعل يدهن جروحهما ببلسم قد اعده لذلك ودأب على هذا العمل خمسة اشهر فكان يغادرهما نهاراً مخلفاً عندهما كلبه حذراً عليهما من وحش او طارق ويعود اليهما بصيد من الوحش والطير ويطعمهما مرق اللحم وهما في غضون ذلك لا يعيان ولا

يستفيقان

وفيما هو جالس عندهما في احدى العشايا يصلح لهما الطعام افاق الكولونل روبر لاول مرة من غيبوبته وهو كالمجنون الذي يعود الى الصواب والرشد فجاءة فاستوى جالساً في فراشه وجعل ينظر الى ما حوله والى اثوابه ذات الوبر بدهش وارتياب وكاد ان يتوهم لولا مراى صديقه مرتينو الى جنبه والكلب امامه انه مات وبعث الى مكان الظلمة

وبعد ساعة استفاق مرتينو ايضاً فادركه من الدهش والخوف ما ادرك رفيقه وصار كل منهما ينظر الى الاخر نظرة من استوحش من الحال والمكان وهما لا يتكلمان كانهما مسحوران ثم حانت من الكولونل روبر التفاتة فوقع نظره علي الشيخ العجيب وهو جالس امام نار مشبوبة ففتق لسانه وصاح على دهش منه

ــ ماذا ارى ارجل الابنين الشيخ العجيب ... اين انا واين صحبي وخلاني ثم ذبلت اجفانه من فعل الدواء المغيب فانقلب على فراشه وعاد مع رفيقه الى سبات النوم العميق

فصار الشيخ من ذلك الحين لا يدخل عليهما الا ليلاً خفية عنهما فيرقد في مطبق مجاور لهما كي لا يرياه وينسل قبل ان يلوح الفجر وهو لا يفتر عن العناية بهما والتحفظ عليهما ولا يقصر في العلاج وبعد سبعة اشهر استقام حالهما واندملت جراحهما واصبحا في قاع من الحمى وصارت لهما قوة على السعي فعزما على الانفصال عن ذلك البرج وعولا على ان يتقدما اولاً بالشكر للشيخ على ما ازدرعه من المعروف واولاهما من الايادي

قياماً بحرمة الصنيعة وقضاء لحق الواجب اذ لولا عناية هذا الرجل بهما لغيبتهما الحفرة واصبحا من اهل القبور

ففي الليلة التي عولا فيها على ان يدخلا عليه في مقعده جعلا يترقبان قدومه فلم يشعرا الا وهو قد انتصب امامهما بغتة وقبل ان يترك لهما مجالاً الى القول والكلام صاح بهما بصوت عالٍ وقد عاودته هيبته ووقاره وتحول منظره من البشاشة الى العبوسه وتألقت عيناه بنور لامع وقال

لقد ازف اليوم الذي ابارحكما فيه فقد اصبحتما قادرين علي العناية بنفسيكما والرحيل عن هذا المكان بعد ان كنتما من عداد الاموات

اغادركما قرير العين بنجاتكما لاعود الى جبال الابنين التي جعلتها لي مسكناً وانقطعت فيها عن الناس الذين ابيت مساكنتهم وكرهت منظرهم من سوء مخبرهم وعشت الى هذا اليوم بعيداً عنهم ابكي اهلي واولادي ومربعي منتظراً موت من الجعني بهم الا وهو الدوق جان غلياس الذي غيبته حفرته قبيل عودتكم من فلورانسا فنجزت في موته حاجتي وانقضى وطري

وكنت قد ابصرتكم يومئذٍ جميعاً قافلين الى ميلان فخطر لي انكم مسرعون الكرة اليها لتحتفلوا بدفنه الا ان البرافي الرسول الذي جاء في تواليكم مرَّ بكهفي ليلاً على غير علم منه بي فسمعته يأتمر بكم مع لص من اتباعه كان له في الانتظار وعرفت ان قومه يبغون لكم الغوائل وقد كمنوا لكم في شعاب هذا الوادي ليخرجوا عليكم ويغدروا بكم فايقظت

رأيي وعولت على ان اميط عنكم الشر واكفيكم بغتات العدو فاطلقت ساقي للريح ولم اعطف على شيء فلم ابلغ الى هذا المكان الا وقد رمي السهم عن الذراع ونفذ المقدور فاورثني ذلك حزناً شديداً وكاد يعز على نفسي العزاء لو لم اجد روحاً خفيفة تتردد في جثتيكما وانتما غريقان في بحيرة من دمكما فعالجتكما وعنيت بكما سبعة اشهر حتى نجوتما والحمد لله من مخالب الموت وتطهرت البلاد من وباء الطاعون الذي خفت منه ان يلم بكما

قد عشتما ولكن حياتكما ليست لكما لانكما ستبذلانها لنجاة صديقكما كاميل الامير لم يمت بل هو مسجون في مغاير الجن يقاسي العذاب المهين مع واحد من اصحابكما والفضل لزولو (مشيراً الى كلبه) الذي اهتدى لمقرهما ودلني اليه · فارحلا في غداة غد عن هذا المكان وحذار ان تقتربا من ميلان فان فيها وباء اشد وطأة من الطاعون وهو كاترين الظالمة التي سيقتلها راضع لبنها واياكما ان تقعدا عن غوث صديقيكما فانهما في ضيق شديد···

اني اودعكما قبل ان تسمعاني شكراً لاعود الى كهفي فان الموت هناك لي في الانتظار واذ لم تعد لتجمعنا الايام فتذكرا المحسن اليكما بالخير والاحسان

قال هذا واشار الى كلبه ان يتبعه وولى عنهما فصارا يستوقفانه ويصيحان في اثره فلم يلو على ندائهما ولم يلتفت اليهما حتى توارى عن انظارهما

الفصل الثلاثون

وكل ساع بشرٍ   لا يفلح الله سعيه

فلبث روبر ومرتينو في اشد حيرة واعجاب من اطوار ذلك الرجل

ثم جعلا يتشاوران فيما يعملان في الغد بعد مبارحتهما ذلك البرج ويتفاوضان في التدابير التي سيتخذانها لنجاة الامير من مغائر الجن

وبينما هما على وشك الرقاد والليل ماد رواقه والهدو والسكون سائداً في جوانب البرج والطبيعة كلها هاجعة الحركة طرق اذانهما صوت خفق اقدام في فناء المطابق فذعرا اذ لا شيء اعظم هولاً من ولوج الاماكن الخربة في سواد الليل ولا اشد وجلاً من الحركة والضوضاء في سكون الخلاء ثم انصتا فاذا بهما يسمعان قائلاً يقول

هيا بنا نتحدر الى مطابق هذا البرج المعزول عن الناس قبل ان تقع علينا العيون وهات مصباحك يازونا او انر لي الطريق لاهبط امامكم ان كنتم ممن يتخوفون فصاح ذلك المدعو زونا ـ وَيْ وَيْ اتريد ان تهبط بنا الى حيث مخبأ الجن ومأوى الارواح الشريرة التي تبوأت هذا البرج حذار يا صاح من ولوجه لئلا توردنا موارد لا صدر لها

قال ثالث انك سخيف العقل جبان يازونا فليس في البرج ما يدعو الى الخوف لاني اتيته مرة فلم اجد فيه انساً ولا جناً

ـ انك لم تاته ليلاً فان الجان لا تقلق الا في الظلام

ـ صاح الرابع انحدروا انحدروا لنقتسم المال ونبتذل عرض المرأة فان داهمنا الجان اشركناهم في عرسنا وان ابو الشرك زففناها اليهم والسلام

ثم انير الدهليز المودي الى المطابق بنور المصباح فابصر روبر ومرتينو اربعة من البرافي شكاكا في الحديد يحمل احدهم جسماً بشرياً قد لف في مأزر وهم يتقدمون الى حيث هما واقفان فارتبكا وتحيرا في امرهما

وخافا ان يقعا في ايدي اولئك اللصوص اذا لبثا واقفين في مكانهما الا ان هذا البلاء الذي اكتنفهما والمحنة التي احاطت بهما جعلا لهما زيادة في الرأي فبدا لروبر امرٌ راى له ولرفيقه منه الخلاص ودفع الخوف فاشار الى مرتينو ان يختبي في اقصى موضع من المطابق بين الردوم والانقاض ملتفاً بالجلود التي جاء بها شيخ الابنين وعندما يصفر او يصيح باصوات منكرة ويغمغم الفاظاً ملعثمة او يضرب بالاحجار الارض يفعل هو فعله ويسلك منهاجه ليوهم اولئك اللصوص ان الجان والارواح الشريرة التي يتوجسون ويتخوفون منها قد فاضت الى قتالهم وداهمتهم من كل صوب وفي اقل من لمح البصر اكمن كل منهما في زاوية يرصد اللصوص

فلما انتهوا هولاء الى وسط المطابق القوا بما معهم الى الارض واصلحوا مصباحهم وجلسوا في دائرة كالحلقة المفرغة بعد ان وضعوا الجسم المحمول في ناحية وشرعوا يقتسمون الاسلاب

فكانوا على نور ذلك المصباح الذي يضيء في وسطهم معما هم عليه من قبح الوجوه وغرابة الملامح والصور وكثافة الشعر اشبه شيء بصور الابالسة او الجن التي ترسم على الاوراق والدفاتر

وبعد ما فرغوا من قسمة المتاع تناول زعيمهم كيساً مملوءاً من الدنانير وجعل يضع امام كل واحد منهم قبضة من ذلك النقد مبتدئاً منه ومـا زال كذلك حتى انتهى الدور الاخير فضجت اصحابه مجدفة تتعوذ بالشيطان من دعارته ونشوده فقال احدهم تباً لهذه القسمة الضئزى

قال اخر لا تضجوا فان زعيمنا سيدفع هذا السهم مهراً الى غادتنا الهيفاء

اذ لا يجمل بنا ان نتخذ امرأة بدون صداق فضجت اصحابه ضجيج الاستحسان فانتهرهم زعيمهم قائلاً لا تضجوا لئلا تهتدي الشرطة اليكم او تهب الجن من مكامنها وعجلوا باحضار الصبية لنكرهها على الاقرار بمكان الاميرة التي كلفنا الى اختطافها فهي عالمة بمكانها وبعد ذلك نهتك حرمتها ونستبيح عرضها فعمد زونا الى الجسم المغطى ورفع عنه البرقع فبانت من تحته صبية مغلولة اليدين والرجلين مغمي عليها وفمها قد سد بمنديل ليغص صوتها ويمنع استصراخها فنزع اللص ذلك المنديل من فمها فتنفست نفساً طويلاً ونظرت الى ما حولها بهلع وياس وقبل ان يسألوها عن شان سيدتها اغمي عليها ثانية فعمد اليها الزعيم يروم افتضاحها واذا بالارض قد زلزلت وارتجت وجدران البرج اهتزت ودوت المطابق دوياً مخيفاً واردف ذلك صفير شديد تجاوبت اصداؤهُ في الدهاليز

فصاح اللصوص لشدة ما رعبوا وذعروا وجحظت اعينهم هلعاً ولبثت ايديهم ممدودة الى الامام وهم فاغرو الافواه جمود كالاصنام

وما مكث ان انهال عليهم التراب وصار يلطم وجوهم واعينهم ويعمي نواظرهم فصاح زعيمهم الجان الجان ... الارواح داهمتنا ... يا.. ها..

وما انتهي من كلامه الا وصراخ هائل كالعواء قد اخذهم من كل جانب وتساقطت عليهم الحجارة كرش البرد

فذعروا اي ذعر وهلعت افئدتهم وطاشت ابصارهم فجعلوا يثبون ويتراكضون ويدورون في المطبق كحجر الرحى لا يهتدون الى الفرار وهم يولولون وينادون معاً كأنهم مسحورون . الجن . الاشباح . الابالسة

الفرار والصدى يردد اصواتهم فيرعد فرائصهم ويضاعف جزعهم

ثم زعق فيهم المدعو زونا قائلاً بدار من ههنا الفرار اتبعوني فقد اقبلت مواكب الجان .. قد مسني ظيف .. قد داخلتني الارواح الشريرة .. اواه قلت لكم فلم تصدقوني ثم ولى مدبراً مع رفيقيه لا يلوي اخرهم على اولهم

واما الرابع فانه لبث واقفاً ينظر الى داخل المطبق بوقاحة مفضلا الموت على ترك الدنانير المنثورة على الارض لكن مرتينو لم يمهله مذ ابصره قد عمد الى سلاحه حتى ضربه بحجر كبير على صدره كسر اضلاعه فانبطح وهو يستصرخ قومه ويستغيث بهم فقال المستاخر من رفاقه هلك انجلو وقمع كلبه قد امسكته الجان لطمعه اسرعا اعجلا يا رفيقي ولا يلتفت احد منكما الى الوراء فان الارواح تتبعنا

اما اللص الذي انصرع فان جزعه من رؤية روبر ومرتينو وهما ملتفان باثواب من الوبر لم يكن باقل منه لو راى الجان حقيقة فعمد اليه واوثقاه وسدا فمه وجرداه من سلاحه ووضعا على صدره صخرة كبيرة ليمنعاه عن الحركة واسرعا الى تلك الصبية فلما وقع نظر الكولونل عليها صاح وقد تراجع الى الوراء مدهوشاً ــ ماذا ارى نيانزا حبيبة رودريك * هي هي فما الذي اوقعها في هذه الورطة وكيف صارت الى يد اللصوص

ثم تقدم وجعل يحل وثاقها ويناديها ــ نيانزا لا تجزعي قد نجوت يا حبيبة رودريك فاستفاقت الصبية عند ذكر اسم حبيبها ونظرت الى روبر ولمع في انسان عينيها بريق من السرور وما برحت ان فتق لسانها فقالت روبر .. اين رودريك اخي هو

اجابها روبر هو حيٌّ لم يزل وستعلمين امره

فابدت نيانزا اشارة الارتياب وجعلت تبكي وروبر يؤكد لها ان رودريك حي

فصاح به مرتينو ليس لنا زمن يضاع في البكاء والحديث فالرحيل الرحيل فوزًا بانفسنا قبل ان يفسد علينا امرنا فان اللصوص لا تمكث ان تعود الينا لمغادرتهم دنانيرهم التي قسم الله لنا بها نصيباً

ـ ان العناية بعثت بهولاء اللصوص يامرتينو فحملوا الينا من المال ما يعيننا على نجاة مسجوني مغائر الجن بعد ان كنا صفر اليدين فهذه علامة من علامات النجاح فاحمل هذه الدنانير وهيا بنا نلجأُ الى اقرب قرية فان العصفور لا يزال حذرًا حتى يدخل عشه

ثم ولوا مركنين الى الفرار من ذلك البرج وجدوا في السير متخذين الليل جملاً رغمًا عن تقصير نيانزا وفلول عزيمتها حتى وفقوا بعد الجهد والكد الى القدوم على قرية في جنوبي مدينة لودي فطرقوا باب احد البيوت فخرجت اليهم امرأة طاعنة في السن فآوتهم الى منزلها ورحبت بهم واحسنت منقلبهم طمعًا في نوالهم

ولما امنوا على انفسهم حدث روبر ومرتينو نيانزا بما اعتراهما من النوائب وهي اخبرتهما انها بعد قفولها مع امها من ارض فلورانسا وبلوغها الى لودي بلغ اليها الخبر عن الكمين الذي خرج عليهم والنازلة التي نزلت بهم فآبت الى ميلان مقرحة الجفون على حبيبها وآلت على نفسها الانقطاع في احد الاديرة لتصرف ايامها بالعبادة الا ان احدى الاميرات من ذوات

الخدر في لودي صرفتها عن عزمها وآوتها الى ظلها واحلتها دارها وولتها من امورها تدبير منزلها

وكان لتلك الاميرة نضارة وغضارة وتألق حسن وتلألأ غرة وغنى واسع فازدحمت على منهلها الخطاب فسألها اميران الاقتران بها فاجابت سؤل الواحد وتجهت الاخر فغلت في قلب هذا مراجل العدواة واضرم امتناعها عنه غيظه فتوعدها بالشر ورغم الانف

واتفق ان تلك الاميرة اقبلت الى زيارة احدى صديقاتها في ميلان وخلفت نيانزا في قصرها مع بعص الخدم فلما جاء الليل لم تشعر حبيبة رودريك الا وباب حجرتها قد فتح وابصرت اولئك اللصوص الاربعة داخلين عليها يسالون مفتشين عن سيدتها فاستصرخت الخدم فالفتهم مذبوحين فتهددها اللصوص بالقتل او تدلهم على سيدتها لانهم كانوا رسالة ذلك الخاطب المجبه ولما تا كدوا انها في ميلان وان سعيهم قد اخفق بعثروا ما في المنزل وسلبوا منه غالي المتاع واحتملوا تلك الصبية فلم تستفق الا بين ايديهم

وفي الغد اكترى روبر ومرتينو بيتاً في ربض تلك القرية واستقدما والدة نيانزا وصرفا خمسة اشهر يهتمان باعداد ادوات الحفر من فؤوس وازاميل ومطارق وهما يترقبان في غضون ذلك ان تعاودهما تمام عافيتهما ليستطيعا ان يصعدا الجبال ويباشرا العمل الذي يتأَهبان له ولم يكتما عن نيانزا وامها ما عولا عليه ثم رحلوا جميعاً الى قرية في جبل (البدي ولتلين) المبنية فيه مغائر الجن واتخذوا بيتاً منفرداً في سفح الجبل

وجعل الكولونل والقبطان يصعدان الى مغائر الجن في كل عشية و ياخذان بالعمل الذي عولا عليه من تحت الليل ثم يعودان عند الفجر الى البيت ليرقدا و يستريحا من التعب الذي نالهما

فهذان هما الرجلان اللذان رايناهما لاول مرة يرتقيان جبل (البدي ولتلين) في اول فصل من الرواية · وهما هما الصيدان اللذان تسهل لاحدهما روبر ان يدخل على المسجونين في مغائر الجن بعد ما جرى له مع رنارو بريانتو ما مر الالماع اليه في قصة الصياد وكيف سمع صياح رودريك وابصر كاميل معتلاً مشرفاً على البوار

وما ولج الكولونل الحصن الا ليتبين موقع مغارة الاميرة في اي جهة من الجهات الاربع ليشرع مع مرتينو بحفر السرَب فيها ادراكاً لغايتهما الا وهي خلاص كاميل ورودريك من سجن مغائر الجن

« انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثاني »

رواية

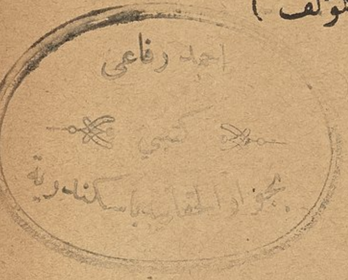
مغاير الجن

« الجزء الثاني »

لمؤلفها الفقير اليه تعالى

نجيب اسعد جاويش

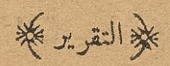
(حقوق الطبع والترجمه والتصرف للمؤلف)



طبعة ثانية

(بمطبعة ــ جرجي غرزوزي ــ بالاسكندرية سنة ١٩٠٣)

الفصل الاول



مضت الايام والليالي السود على سجن الامير كاميل وروردريك وهما اصبر على الهوان من الوتد يتجرعان الغصة ويشرقان بالريق متجلدين على مضض البلوى حتى خانهما الجلد ومسهما السقم من البرد والجوع والضجر والخسف فاصبحا يتمنيان الموت ويريان فيه كل السعادة والهناء

وفي انقضاء الشهر العاشر بانت على كاميل نهكة المرض واصبحت تتخون جسمه الحمى الصالبة النافضة فتدوم عليه اياماً يبيت في خلالها عديم الصواب معموداً والسجان غافل عن شانه وهو كاتم عنه ما به ليعاجله الموت ويريحه من حياته وصنوف العذاب حتى صار اهزل من الجوزل

الا ان سجانه اطلع اخيراً على امره فاخبر به رأس الحراس الطبيب فجعل هذا يعالجه فلم يزدد الا سقماً واعتلالاً

وكان رنارو ماموراً ان يرفع الى الدوق جان ماريا في كل ثلاثة اشهر تقريراً عن حال الامير فلما راهُ قد اشرف على التلف وان الدواءَ لا يسوغ في حلقه الا تكلفاً خاف ان يعاجل الموت الامير وتعتاص عليه كتابة التقرير فاعمل فكره واجهد طاقته في تأليفه وذكر فيه خبر موت كاميل وصرف على ضبط عباراته وتهذيب الفاظه اياماً

ثم اقام ينتظر انصرام اجل الامير وقد اشفق ان يذهب عناؤه وتعبه باطلاً اذا قدرت للعليل اسباب السلامة فجعل يكثر من عيادته مترقباً بفناء الصبر حلول الساعة حرصاً على التقرير من الابدال والرجوع فيه

ففي صباح ذات يوم اجهد كاميل نفسه على الجلوس في فراشه وجعل ينظر في امر نفسه ويفكر فيما سلف من ايامه وما بدر منه من الذنوب التي ستكون خصيمته يوم المحشر وذكر ما هو نازل به في تلك الساعة من الاشراف على الهول العظيم بعد الموت وابصر فرجيني قائمة امامه بحلةٍ بيضاء تبكيه مودعة اياه الوداع الاخير وتصور كيف انه سيصبح بعد خمود انفاسه جثة باردة مخيفة تداس وتحتقر من الاحياء ولا سيما من اعدائه الذين سيفرحون عندما يتناهى اليهم خبر موته وراى انه سيموت قانطاً ساخطاً منصرفاً عن مراده ومطامعه باليأس والفوت ولاحت لديه اباطيل العالم والمجد والسؤدد والملك الذي كان يطمع به كالدخان الذي تذهب به الريح شرقا وغرباً وتمثل الموت لناظره بهوله فبكى كالطفل خوفاً من الموت

فما ارهب الموت الذي يستطيع ان يتغلب على عواطف واميال الفطرة البشرية ويخضعها لسلطانه ويفطم اهواءها عن الملذات ويمنعها عن الخوض في لجج الشهوات ويزيد المرء شغفاً بالحيوة التي تجلبه

فان كاميل الذى كان يرغب في الموت ويرتاح اليه اصبح يؤثر الحيوة عليه مع ما هي حاله من التعس والهوان اشبه بذلك الحطاب الذي كثر ولده وقل رزقه فانه حين رزح من ثقل حمله الذي انقض

ظهره نادى الموت ليعجل من الدنيا مرتحله فلما تمثل له خيال الموت مجيباً ذعر وقال له لم ادعك الا لكي اسأَلك عوناً على رفع هذا الحمل الثقيل

وفيما كاميل يبكي دخل عليه رنارو وهو حنق من طول علته فاشار اليه الامير ان ادنُ مني فتقدم راس الحراس وجلس تجاه فراشه وقال له

اتريد ان تعهد اليَّ بسرك وتبلغني وصاتك قبل فراقك الدنيا ٠ حباً وكرامة قل قل فها انا اذن لك سامع منك فلقد طالما كنت مستودع اسرار من قضوا قبلك في هذا المكان

فلم يحفل كاميل بحديثه بل قال له يارنارو اني منذ سجنت مع صاحبي رودريك لم التمس منك حاجة والله يعلم اني ما اجرمت جرماً ولا اذنبت ذنباً بل غدرت بي اعدائي لوغر في الصدر مكنون فاستقدموني بخدعة من فلورانسا وبثوا لي المصايد في الطريق فقتلت اصحابي وحملت انا الى مغائر الجن ولا اثم عليَّ

و بينما كان كاميل يتكلم كان رنارو يقول في نفسه ـ قد بدأُ هذا الغمر يتبرأ من ذنبه فماذا يفيدهُ هذا وقد انجزت تقريري ولم يبق من عائق يعيقني عن ارساله الى ميلان الا موته فما هذا الكلام الذي يتعب نفسه به وانا لا ازيد عليه حرفاً واحداً ثم نظر الى كاميل وقال له

ـ عجباً ايها الامير كيف تجعل نفسك كمن لا ذنب له وانت قد خنت الوطن وحاولت اغتصاب الملك

ـ اهل اتهمت بهذا يارنارو

وانك كنت مغرس الفتنة ووكر الخيانة ومنبع الفساد واني لاعجب

كيف تسألني عن امور رميت بها وسجنت من اجلها في مغائر الجن

— اني بريء من كل ذلك يا رنارو .

— لا اعجب مما تقول اذ ما من انسان اخطأ واقر بخطائه او اجرم واعترف بجرمه

— اني كنت بعيداً عن ميلان اتجر بروحي في ميادين القتال ولم اعلم ان عمي الدوق قد مات الا في ...

فقاطعه رنارو قائلاً — ان هذا الحديث لا يجديك نفعاً لانك لست في مجلس قاض ينصفك ويحكم لك بالقسط فاقصر عن الكلام ولا تكن مكثاراً كحاطب الليل فسيان عندي اسأت ام احسنت وان كانت هذه وصاتك الاخيرة فانها لا تغير من حمدالله تقريري

— مهلاً عليّ قليلاً يارنارو

— ان وقتي ثمين لا املك ان اصرفه سدي ...

— ان الدوقة كاترين وبريفارا وجان ماريا هم ...

— صه واحذر ان تذكر اسم احد من الاسرة المالكة او تفشو سراً من اسرارهم فكلمة واحدة ان نطقت بها ترديك ورب صيحة تذبح الديك فاسكت لئك يهبط بك الى الهل مقر العذاب ومصرم الآجال وارفق بنفسك واصرف ساعاتك الباقية بالهدو والصمت فان التقرير قد نجز فلا تكلفني ان ازيد عليه حرفاً

— انك تراني الان ذليلاً معفر الخد محطوط القدر واهي القوى كعصفورة في يد طفل يهينها ولكنك ان اطلقت لي جناحي تجدني رجلاً

يستطيع ان يخضع لمبارديا لقدرته و يوليك على امرها

فاجابه رنارو وهو يضحك استهزاء انك لاجل هذا سجنت يا مملكي على لمبارديا ومجلسي على عرشها

ـ اتسخر بي يا رنارو

ـ انت تسخر بنفسك على ما ارى

ـ هل لك ان تطلق اسري مع رفيقي رودريك

فصاح رنارو ـ ويلاه ما هذا الكلام

انك ان فعلت ذلك وهبتك مالي وتالدي وطريفي وجعلتك ما عشت سعيداً

ـ هل مسك طيف ام هل فيك جنون ايها الامير حتى تستقبلني بمثل هذا الكلام اتخال ان رنارو غبي احمق ليطاوغك على نزول قبره قبل الاوان

ـ ان من الجهالة رفض هذا الامر الذي يعود عليك بالغبطة والنعيم المقيم ويكسبك الجميل والفخر ذكره

ان حياتي عزيزة عليّ فلست اريد ان اسعى بنفسي فاسلمها للقتل والعطب فان الدوقة كاترين قد باشرت بعذاب الاربعين فهل يسرك قطع عضو من اعضائي كل يوم وسلخ جلد رجليّ لادوس على الحصا وتمزيق لحماني لأمن عليك باطلاق عقالك ام يطربك مرءآي مفترساً من سباع سيدي الدوق جان ماريا

ـ أتتوهم اني امكنهما منك اذا وافقتني على الفرار الا تعلم انك ان

كنت في صحبتي تصبح في منعة من كاترين وجان ماريا ويصبحا اضعف من ان يقدرا على الوصول اليك بسوء فاجب سوءلي تعش عزيزاً وجيهاً علي الرتبة ذلك خير من ان تصرف زمانك بالخمول والضعة والمهانة في مغائر الجن وتعيش مصفراً مسكيناً تعاني الضجر وتكابد الزمهرير

— خير لي ان اعيش في وكري ناعم البال خلياً من ان ابلغ المنازل الرفيعة وانقلب على مهاد النعيم واعيش طويل الذيل وانا قلق هالع مذعور فجرذ البرية يفضل البراري على قصور الاغنياء لما فيها من موءونة الخوف والحذر على نفسه وطعام الحقل لديه امرأ من طعامهم الشهي اذا تناوله على موائدهم بخوف وتوجس فدع عنك اغرائي ولا تطمع في معونتي وانظر فيما هو نازل بك من الهول العظيم قبل النظر في فرارك ولا تكلفني الرجوع في التقرير

— لي حاجة التمسها منك فاسعفني بها

— لا لا تلتمس مني شيئاً ودعني من حاجتك

مهلاً يا رنارو

— لا اريد ان اسمع ولا افهم ولا اجيب ولا اتكلم فقد كفاني ما سمعته منك ... آه يا ربي اي مورد من الهلاك يوردني فيه واي خطر يعرضني اليه مع ان التقرير قد نجز وكفاني ما تجشمت فيه من العناء

— ليس لي حاجة في الفرار فان الموت قد دنا والحمى قد تمشت في مفاصلي وتشربتني ولكني اناشدك الله ان تجود عليَّ بفراش لين وسراج لاقضي الاويقات الباقية لي من الحيوة براحة وسلام فانه يهولني فراق هذه

الدنيا دون ان ازود عيني من النور واخالك لا تضن عليَّ بهما لاني هيأت لك ... فقاطعه رنارو وقال لا لا هذا لا يكون ابداً . ذا امر مجال ومطلب عزيز لا اسمح به

ـ دعني استتم كلامي

ـ لا لا انك تكلفني شيب الغراب

ـ اني هيأت الجائزة قبل ان اعرض لك حاجتي واذكر بغيتي فان معي خاتماً حفظته من والدتي تذكاراً سادفعه اليك فهو غالي الثمن فان لم يفِ بمعروفك ازد عليه شكري لك

قال هذا واخرج من جيبه خاتماً من الماس ابرق فصه على نور المصباح فاجفل رنارو بربيانتو عند رؤيته وخاب بريقه بصره فظل فاغر الفم يتفرس فيه ثم ما تمالك ان قال وقلبه خافق فرحاً

انت يا مولاي امير كريم من اعضاء الاسرة المالكة والنظام يجيز لي ان اخصك بالاشياء التي اضنّ بها على المسجونين ولا سيما وان ما تطلبه مني ليس الا واجبات مقدسة يجب عليَّ القيام بها في ساعتك الاخيرة فثق اذن ان حاجتك مقضية .

فهز كاميل راسه بحزن وكمد وقال خذ اذن يا رنارو هذا الخاتم فانهُ تذكار يجيل في ضمائرك يوماً ذكر كاميل التعيس الذي سمته خطة خسفٍ فمات مهتضماً مضيماً ثم رمى بالخاتم اليه

فقال رنارو في نفسه ما على التقرير ان تاجل من باس فالخاتم شفيع في الاتعاب التي تجشمتها في تنميقه ... ساحفظه حرصاً عليه اذ لا بد من

موت الامير عاجلاً ام اجلاً فلا اعدم منه نفعاً ولا اغير فيه شيئاً فالموت ان تعجل او تاجل هو الموت ومذ راى الامير قد رمى بالخاتم وثب كالنمر يلتقطه وهو يلعثم هذه الكلمات مواربًا عما في نفسه

ـ انا لا اريد احرامك من تذكار حفظته من والدتك ولكني ساحرزه عندي . . . فان مت جعلته . . . وبينما هو في كلامه اذ بصر بكاميل ينتفض من حماه النافضة وقد انقلبت سحنته وغارت عيناه وانقاب على فراشهِ مصروعاً وسمعه ينادي النار النار اه يا فرجيني قد غرقت في لجة النار فوقف رنارو ينظر اليه وقد راعه شأنه وهاله امره وما لبث ان قال

ـ لقد اخذتني عليك رافة ايها الامير ولسوف اشملك بالعناية واجهد جهدي لتبراء فما انت الا نبهٌ عظيم ولكن ويل لعدوك من انتقامك ان بقدرت لك النجاة من مغائر الجن

وبعد ما قال هذا تناول الخاتم واحتمل مصباحه واقبل يجري الى غرفتهِ وهو يرقص فرحاً مسروراً بالغنيمة الباردة التي اتته عفواً

الفصل الثاني

ما اضيق العيش لولا فسحة الاملِ

لما اتي الكولونل روبر مغائر الجنُ بصفة الصياد كان قد استقام حال الامير وتوفرت لهُ اسباب الراحة لان راس الحراس رنارو لم ينكث بوعده بعد احرازه ذلك الخاتم الثمين بل اتى بما يضارع الامل فيه و يوافق الظن به فابدي من العناية بكاميل ما سهل له البرء والشفاء حتى لم يبق الا نحولهُ

وعراء اشاجعه كما ابصره روبر شاهدين على ما عاناه من الضر والاذى ابان اعتلاله

وفي اليوم الثاني من دخول الكولونل روبر مغائر الجن (وهي السنة الاولى لسجن الامير رودريك) شرع مع القبطان مرتينو في مزاولة عملهما الشاق فاخذا اولاً في حفر سرب في الارض على قيد مايتي قدم من الحصن لجهة الشمال وجعلا مدخله عند صخرة كبيرة حتى لا تقع عليه العيون فكانا في كل ليل يشتغلان بحفر الارض وتحطيم الصخور وجرف التراب غير مباليين بالزوابع والعواصف التي تثور في اعلى الجبل ولا محتفلين بالضباب والغيوم التي كانت تعمي النواظر ولا متصدعين بنفحات القرّ وقرس البرد الشديد ولا يزالان كذلك حتى الصباح فيمسكان عن العمل وينحدران منقلبين الى منزلهما في القرية التي في سفح الجبل

وكانت نيانزا تجلس في كل صباح على تلة امام البيت تنظر في مهابط الجبل ومنحدراته مترقبة عودتهما وعند العشية تودعهما وتجلس في مكانها مصلية الى الله بحرارة لاجل نجاة رودريك اذ كانت تشعر بتباريح العذاب الذي يكابده حبيبها في مغائر الجن

ودأب روبر ومرتينو على هذا العمل الصعب اربعة اشهر متوالية دون ان ياخذهما اعياء او كلل حتى خلدا في الارض سرداباً لا يقل عن ستين قدماً طولاً وكان احدهما متولجاً حفر الارض وتحطيم الصخور والاخر جرف الاتربة والحجارة والقائها بعيداً في الغور

وفيما القبطان مرتينو يلقي التراب مرة خارجاً سمع صيحة من رفيقه

روبر فجزع لها واقبل راكضاً ليعلم بالامر الذي نزل به فالفاه مكفهر الوجه منتصباً محملقاً في صخر امامه فسأله عن الخبر فاجابه والدم يكاد يطفر من مقلتيه وخديه — قد اخفق سعينا ... وانصرف جهدنا ضياعاً ... آه ان كاميل سيقضى عليه قبل ان نبلغ الى مغارته ونظفر بالوصول اليه انظر يا مرتينو الى هذا الصخر الذي عرض لنا في الطريق فانه اصم لا نقوى على خرقه قبل اربعة اشهر اخرى واخاف ان نزداد عن القصد بعداً

فاخذ مرتينو المعول وضرب به الصخر فاذا به صلد لكنه ما مكث ان هتف

— ها ها انظر يا روبر الى الصخر فانه لا يشغل كل الدائرة فلننعطف الى الجانب الايسر فانه ليس بقاسٍ صلب ثم اندفع يشتغل دون تمهل وجعل يضرب الصخر ويقول ليس هذا الصخر باشد قساوة من قلب كاترين وبريفارا وجان ماريا فلا يكن داعية الى فلول عزيمتك واحجامك عن العمل يا روبر فان لسان حال كاميل يدعونا من داخل اليه ودم اصحابنا ودمنا الذي اريق على قارعة الطريق يستفزنا الى اخذ الثار

— انني ممن يراهن على الصعبة يا مرتينو وما انا ممن يقعد عن العمل او يدركه منه كلل او ملل ولكن اخاف ان يسبقني الى الامير الاجل لانني ابصرته نحيلاً قد مسه الشحوب ولذا تراني اتعجل في العمل طمعاً في سرعة البلوغ الى مغارته . ثم انهما لما لم يستطيعا ان يستمرا على الطريق القويم حادا عن تلك الصخرة منعطفين شمالاً انعطافاً قليلاً وعادا الى العمل بجهد ولو كان على الجهد مزيد لبلغاه

وكان في نيتهما ان يتطرقا الى مغارة رودريك بعد بلوغهما الى مغارة الامير لان المغارتين كانتا واقعتين في الجهة الشمالية لاتبعد الواحدة عن الاخرى اكثر من قيد رمح

وكان رودريك المنكود الطالع يصرف ايامه ويقضي اوقاته تارةً في البكاء والعويل وطوراً في التسخط ويوماً في الصلوة والضراعة والابتهال الى ربه وحيناً في مراقبة العنكبوت الذي ينسج شباكه في زوايا السجن ولم يكن يجيز غصته وينزع شجاه في غضون ذلك الا اذكاره بحبيبته نيانزا وتصرفها بين خواطره

فكانت تمر الايام والليالي وهو يناجيها ممثلاً شخصها لناظريه مردداً ذكر انتظام شمله بها وخلوده اليها وكانت رؤيته وهو على مثل تلك الحال ينادي نيانزا ويخاطبها كأنها بازائه تسمعه قد القت في خلد السجان وهماً ان به جنوناً ومساً فجعل يثبت له الخصومه ويمنع عنه الطعام والشراب اياماً ويزيد في تعذيبه ويكتم عنه خبر الامير كلما سأله عن حاله حتى ضاق رودريك به ذرعاً وكاد يخنقه مرة لو لم يستصرخ الجنود فاعانوه على الخلاص من يده . ولما اتى على رودريك حول كامل ملَّ وكلَّ من العذاب وسئم الحيوة وهانت عليه نفسه فعزم على الانتحار واخذ يعمل الفكرة لاستنباط الحيلة وكيف ينبغي له ان يقدم على الايقاع بنفسه بوجه يخفف عنه عذاب النزع الطويل فبدا له ان الاعراض عن الطعام والموت جوعاً عذاب لا يطاق احتماله لطول مدته وخنق نفسه امر شديد المراس لا قوام له به وارتطام راسه الى صخر المغارة ميتة شنيعة

لا يقدم عليها وبعد ان اجهد رأيه فتق له عقله ان يفتك بسجانه طومازو اذ راى ان قتله سهل لا يخوض فيه غمرة فيقتلونه بسبب ذلك جزاء ما جنت يداه

وبعد ان استوعب الامر وقلبه على انحاء شتى صحت عزيمته على الايقاع بطومازو وصار يقول في نفسه اختبيء وراء هذا الباب وانتظر دخول طومازو عليّ وعندما تلوح لي غرته ابتدره بضربة على دماغه بهذه القصعة الخزفية فاخمد انفاسه فينزلون بي عقاب الموت فاصيب بغيتي وعلى الدنيا السلام

وبينما هو في الاهتمام لهذا الامر اذ سمع خفق اقدام السجان فتناول قصعة الخزف ووقف وراء الباب واذا به قد فتح ودخل طومازو وفي يده الطعام فرفع رودريك ذراعيه وهم بالضربة فشعر كان يداً غير منظورة امسكته وصوتاً رهيباً من اعماق قلبه قد اهاب به ان قف فاحجم عن قصده وهو يقول لا ارى من الرأي والعدل قتل رجل بريء لا موت انا فايقاعي به ظلم وعداء

ثم وضع السجان الطعام على المائدة وانقلب راجعاً فانطرح رودريك على فراشه وانسالت عليه الهموم من كل جانب فجعل يبكي وبينما هو في تسكاب الدموع اذ بصر بقشرة فضتها الرطوبة من صخر حائط مغارته قد سقطت امامه وتكسرت فوثب كالنمر من مكانه الى الموضع الذي انهالت منه وقد تلألأ في وجهه نور من الامال فراى في شمال المغارة دائرة لا تشغل الا مقدار ذراع من الحائط قد اقتلعت النداوة قطعة من

الصخر فسقطت وامتلأ مكانها ماء صافياً فعالج رودريك الصخر فتفتت قسم منه دون كبير عناء فاستدمع الفرح عينيه اذ خطر له ان ذلك باب الى النجاة والفرار فشرع لوقته يعالج الصخر بيده فتسنى له بعد مضي عشر ساعات اقتلاع بعض اجزاء منه ولكنه تصلب اخيراً فتعذر عليه الادمان على العمل باظافره واصابعه فحزن حزناً شديداً

ولكن العناية ابت ان تحقق قصده لان بعض كوى المرافق كانت مشبكة بالحديد ففطن لها رودريك و بالاتفاق راى وتداً قد افلت طرفه الواحد من الرصاص الميحن به فعالجه حتى اقتلعه من مكانه وواراه في طي اثوابه وانقطع الى عمله يزاول خرق الصخر ستة اشهر متوالية لم ياخذه في تضاعيفها ملل او ضجر لشدة اهتمامه بذلك الامر واشتغاله به ٠

الفصل الثالث

﴿ السر ﴾

بعد ما ابلّ الامير من مرضه واصبح في قلع من الحمى استحوذ عليه القنوط لطول عهد سجنه حتى ضاقت عليه مذاهبه وخانه الصبر والجلد وانقطع كل رجاء له في الخلاص وراى انه اصبح شجيّ في حلق الايام وقذًى في عين الحيوة فعزم على قتل نفسه وانتظم له الامر والتدبير

وفي الليلة التي ازمع فيها على هذا العمل العظيم كان الظلام حالكاً والسكون سائداً في جوانب المغائر اشبه بصمت القبور يكاد لا يسمع فيها الا حركة نسج شباك العنكبوت وخفوق قلب كاميل الذي كان جالساً

في فراشه مقعياً كالاسد وهو ممتقع اللون سيء الحال والدم يغلي في دماغه وعيناه جاحظتان تحدقان في الظلمة كانه يرى امامه خيال الموت المزمع بعد دقائق ان يصبح هو اياه ...

وبعد لحظة نهض متثاقلاً وتقدم نحو الباب وربط بمصراعه حبلاً قد ضفره من خيوط نسلها من نسيج غطائه ثم جاء بكرسيه فوقف عليها وطوق بالحبل عنقه وهو يلعثم هذه الكلمات فرجيني فرجيني ثم هم ان يلقي نفسه عن الكرسي فاذا به قد ادركه الجزع فوقف مستنكراً من نفسه ذلك الخوف وجعل يثبت لها الخصومة و يقول بصوت عال

كاميل لقد اشتدت المؤونة عليك وانقطع الرجاء من خلاصك فعلام تؤثر الحيوة على الموت ... ايرهبك الموت الذي تجد فيه الراحة التي تطمع بها وتشره اليها . اي مطمع لك في هذه الحيوة وانت مسجون في مغائر الجن . ها ان امك واباك واصحابك الذين قضوا قبلك يدعونك اليهم وفرجيني ستلحق بك فتجتمعان هناك ...

فمت ما على من مات حرًا نقيصةٌ　　الا انما النقصان ان تتهضما

واذا به يسمع من اعماق المغارة صوتاً رهيباً يقول و بعد الموت ماذا يحل بك ايها المنتحر

فذعر واقشعر بدنه وانتصب شعر راسه من شدة جزعه وظل واقفاً كالمنزول به ولما لم يرَ احداً داخلاً عليه ولم يعد يطرق اذنه حركة او صوت ظن ان الجن التي تقطن المغائر (على زعم من قال) جأت تروعه وتشاهد انتحاره فاستفز عزيمته وهم ان يلقي نفسه من فوق تلك الكرسي

فسمع الصوت يقول

مهلاً رويدك ايها المنتحر ان قتل النفس احتقار للسماء والارض

وكان الصوت رهيباً مخيفاً في سكون ذلك الليل حتى ان كاميل لم يتمالك ان صاح من فرقه وهلعه متعوذاً والعرق البارد يتصبب من جبينه والدم يجري بارداً في عروقه وصار لشدة وهمه يرى اجراماً واشباحاً وخيالات قبيحة تمر بازاء بصره في ذلك الظلام وهي كانها هيا كل عظام اموات ·

وبعد برهة رفع الحبل عن عنقه وانصت واذا به يسمع دبيب اقدام تحت ارض المغارة فاستطير لبه ووقع في نفسه ان الجن جات تسرب في بطون المغائر فصاح وهو لا يصدق انه يسمع صوتاً بشريا — من يحيى

اجاب الصوت — من المنتحر

فراب كاميل سماع هذا الصوت ودخل عليه من دهش وهيبة فلم يحر جواباً

قال الصوت — قل قل ولا تجزع

— مسجون

— انا اعلم انك مسجون فمن انت

— قد اتت على سجني سنتان وانا في هذه المغارة معتقل

— لا اسالك عن الزمان فما اسمك

— كاميل بن كارلوس ويسكونتي

صاح الصوت — اواه انت كاميل انت ابن كارلوس ثم اعقب ذلك تنهدات وتأوهات متقطعة ثم انقطع الصوت والحركة وعاد كل شيء الى السكون

فظل كاميل آذناً ساعة يترقب سماع الصوت والحركة ولما لم يعد يطرق اذنه حركة تبسم تبسم المستهزىء بنفسه لوهمه ان كل ما قد سمع وقال لم يكن سوى من تاثير الوهم في نفسه ومن خوف الموت الذي تغلب على ضعف الطبيعة فاختلط عليها الامر

وبينما هو في حالة تحاكي حالات الجنون اذ سمع الصوت يهيب به قائلاً - يا كاميل بن كارلوس سيدي

فعرت الامير من سماع الصوت هزة واجاب - انت من انت ايها الرجل

- انا الذي غالتني اغوال القدر وباقتني بوائق الايام فسجنت ظلماً وعداءً في هذه المغائر واتى على سجني عشر سنين حتى مل مني الزمان والمكان

- ومن سجنك

- لقد سجني اولئك اللئام الخائنون الذين ربما هم غدروا بك فسجنوك في هذا المكان

- ويلاه من انت

- انا بطرس تولومي خادم ابيك الامير كارلوس وانت هو كاميل ابن سيدي

فلما سمع ذلك كاميل صاح على دهش منه انت بطرس انت الخادم الامين الذي صحب ابي ليلة غدر به اعداؤه

- انا الذي حملتك على منكبي وانت طفل صغير تلعب وانا الذي كنت في صحبة ابيك تلك الليلة التي احتالوا له فيها فقتلوه على مشهدٍ مني وسجنوني في هذا الحصن حتى لا ابوح بالسر الرهيب

ــ او لم تبرح حياً يا للغرابة

ــ ليس بقائي حياً باشد غرابة من وجودك في مغائر الجن معتقلاً تحاول قتل نفسك فكأن العناية حفظتني باعجوبة كل هذا الزمان الطويل رغماً عن الفواجع التي فاجعتني والمصائب التي اصابتني لاصرفك عن ضر نفسك واخبرك عن سر لا يعرفه احد غيري واموت بعد ذا قرير العين

ــ كيف السبيل لان اراك عياناً

ــ ان بي من الشوق الى رؤية محياك ما يحاكي شوقي الى اطلاق اسري وليس لي الى هذا وذاك سبيل لان الصخر الذي يفصلني عنك صلد لا يقصم ومغارتي بعيدة عن المكان الواقف به لاني خلدت في الارض سرباً طوله عشرون ذراعاً وشرعت في حفره بعد خمس سنين من اتياني الحصن مؤملاً ان ابلغ منه الى ظاهره نخاب ما املت لان جهلي الجهة التي استقبلتها ابعدني عن القصد فاستمررت على الضلال حتى اذا انتهيت الى هذا المكان نبت اداتي وانقبضت وسائلي وخذلتني قوتي ولسوف اموت وفي قلبي لمراك حسرة فحدثني يا مولاي عن شانك وقل لي اليس كاترين وبريفارا وجان ماريا ولاب هم الذين احتالوا لك بمكرهم ودهائهم حتى سجنوك وبلغوا منك ما ارادوا

ــ هم هم الظالمون الذين قاموا بعداواتي وائتمروا بي ووفقوا الى قتل اصحابي واسري بعد اذ مات عمي الدوق جان غلياس ثم قص عليه كلما عرفنا من امره وبعد ما فرغ من حديثه شرع الخادم يخبره عن مقتل ابيه فقال

بعد ما فرغ ابوك من حروبه ومغازيه جعل يؤم بلاط اخيه الدوق فما لبث ان احس بالعلائق السرية التي استحكمت عراها ورست قواعدها بين الدوقة كاترين والبارون بريفارا ووقف على ما هنالك من مكنونات الضمائر وعرف ان الدوقة عاشقة لبريفارا وقد تواطأا على قتل كل فرد من عائلة ويسكونتي يتخوفان منه اغتصاب العرش لنفسه ليستقر لها الملك ويخلو لهما الجو

وكانت كاترين قد دفعت الى بريفارا بكرها جان ماريا وولته امره ووكلته الى رايه وتدبيره ليهون عليه الفتك به اذا خالفهما فيما يرومان من امر الملك

فساء ذلك اباك واكبره وقبل ان يأتي الى بافي الذي ولاه عمك امرها بعث الى كاترين بكتاب يعنفها على ضعفها ويتهددها بافشاء سرها اذا لم تقلع عن غيها وتعجل في قطع العلائق مع بريفارا وكنت انا المنتخب لحمل ذلك الكتاب اليها وباشارة من ابيك لبثت خمسة ايام اجس البلاط حتى عرفت انها لم تكتم عن بريفارا خبر ذلك الكتاب .

وفي اليوم السادس ورد على ابيك كتاب من بريفارا يدعوه الى وليمة اعدها لهُ في قصر البارونة لاب فعرف ان وراء الاكمة ما وراءها وان تحت رماد تلك الدعوة ناراً متاججة وصدوراً موغرة ولم يخطر على بالي ان اباك يجيب دعوته حتى رايته عند العشية قد دخل غرفته ولبس اثوابه واخفى تحتها سلاحاً فاسرعت انا وخبأت في طي اثوابي خنجراً واقبلت في صحبته الى قصر البارونة لاب فالفيناه مزداناً بالانوار الباهرة يزهو بالزينة الزاهرة

فلما دخل سيدي الامير استقبلته لاب وهي ترفل بحلة ديباجية زرقاء وتتيه عجباً بجمالها وتميس زهواً بدلالها وجاءت به الى القاعة فوجد هناك بريفارا وجان ماريا جالسين فاسرع بريفارا وعانقه عناق المحبين ثم جعل يتلطف بالحديث معه

اما انا فجلست في موضع بازاء القاعة اراهم جميعاً واسمع حديثهم وقلبي يخفق فرقاً لتوجسي من شر قريب الوقوع

ثم تنهد ذلك الخادم وقال اه يا مولاي كاميل اني كلما ذكرت حوادث تلك الليلة وما جرى على ابيك تاخذني رعدة وقشعريرة

ـ صاح كاميل من مغارته وقد اعياه الصبر انجز الحديث واخبرني بما جرى قال الخادم ـ وبعد ما استقر بهم المقام جعلت لاب تلعب بقيثارتها وتسمعهم انغاماً شجية وتسقيهم كؤوس الصهباء صرفاً ثم مد خوان الطعام في قاعة اخرى فجلسوا ياكلون وجعلت لاب وهي جالسة بازاء ابيك تكثر من شرب الراح وتلتفت كل لحظة الى بريفارا ولوائح الاضطراب بادية في وجهها . وبعد برهة ابصرت بريفارا قد غمزها بطرف جفنه فرفعت الكاس وشربت على ذكر سيدي الامير كارلوس فاوقع بريفارا اذ ذاك في القصر جلبة فالتفت ابوك عندما سمع الجلبة فسكبت لاب في كاسه عصيراً لم اره ُ ثم ناولته اياها وقد برقع الاصفرار وجهها وامتقع لون البارون وجان ماريا معاً فتناول الامير تلك الكاس من يدها وهو يظنها خمراً اذ لم يرَ ما صب فيها وشربها دفعة واحدة وما كان الا بقدر خطفة البرق حتى سمعته قد صاح صيحة ارتجت لها جوانب

القصر وانتصب واقفاً يضبط احشاءهُ بيديه ... ويلاه من تلك الدقيقة الهائلة

ـ صاح كاميل وهو يصر على اسنانه من شدة غيظه وعيناه تسكبان الدمع تسكاباً ويلاه وما انتهى اليه امر ابي

ـ ان السم كان زعافاً قتالاً فما لبث ان وقع على الارض وصار يتمرغ عليها ويصيح من شدة الالم الذي قطع احشاءه واما بريفارا وجان ماريا فانهما لبثا قاعدين ينظران اليه ويتبسمان جذلاً وارتياحاً . فلما ابصرته هوى الى الارض بادرت الى نجدته والخنجر مجرد في يدي فما كدت ابلغ اليه الا ونفر من البرافي يتقدمهم دلبانو قد حالوا بيني وبينه فابتدرتهم بطعن يسبق القضاء والقدر وبينما انا معهم في عراك وصدام رايت اباك قد نهض كالاسد وهو يرغي ويزبد لشدة الالم وعيناه جاحظتان وشفتاه متقلصتان واستل حربته وهجم على بريفارا ليغمدها في صدره فلم يرَه لان السم كان قد اظلم بصره وفكره فتقدم البرافي يحاولون اسره فحمل عليهم وصار يطعن فيهم حتى احجموا عنه ثم اندفع الى خارج القصر على غير انتباه فاردت لحاقه فهجم عليَّ اولئك البرافي وقيدوني وسمعت بريفارا يوعز الى دلبانو ان يقتفي من ابيك الاثر فلم ادر بعد ذلك ما نزل به واصابه الا انني بعد انتصاف الليل ابصرت دلبانو عائداً وسمعته يقول للبارونة قد فاضت نفسه امام باب منزله

وفي تلك الليلة عينها حملت الى هذا الحصن وها قد صار لي عشر سنين اقاسي العذاب والهوان وانا ابكي اباك ميتاً وابكي نفسي حياً ...

وما كاد ذلك الخادم يأتي على اخر كلامه حتى غلى دم الامير في دماغه كقدر الطعام فصاح وهو يتلهب حقداً وضغناً اني وحق السماء ساسقي كاترين وبريفارا كاس السم التي شربها ابي واحل بهما ما حل به من الامر الفظيع ولقد صرت ارغب في الحيوة لا حباً لها ولكن لاثار من اعدائي وانزل بهم انكل العقوبة

ثم لما لم يستطع لنفسه ضبطاً من تضرمه واحتدامه جعل يبكي وينتحب وجعل الخادم يؤاسيه ويسليه وهكذا صار يصرف واياه الايام والليالي يتذاكران الاحاديث والاخبار ذاك من حفيره وذا من مغارته حتى ذهب عن الامير بعض ما كان يقاسية من عذاب الملالة والضجر

الفصل الرابع

﴿ من عمل سيئة فلا يجزى الا بمثلها ﴾

بعد ما مات الدوق جان غلياس ويسكونتي على ما مر الالماع اليه تمهد لامرأته الدوقة كاترين امر الملك بالولاية عن بكرها جان ماريا واستوثق لها الامر فاستقلت مع محظيها بريفارا في حكم البلاد لا تخشى مزاحماً ولا منازعاً لان الكونديتيارية السبعة عشر الذين فوض الدوق اليهم صيانة بلاده وحفظ المملكة لاولاده من المغتصبين قد صرفهم حب الدرهم والدينار وشغلهم تملك البلدان والامصار عن النظر في مهام الدولة . وكذا ضعفهم السياسي الذي كان يوازي شجاعتهم وبسالتهم مع انحرافهم عن الوفاء والامانة حمل كاترين على الاستبداد بالامر والاستقلال بالراي

فلما رأت ما هي عليه من الملك والسطوة عبثت بالرعية وسارت فيهم بالجور والحيف وقدحتهم بالضرائب المجحفة والجعالة الباهظة فلم يمض زمن حتى سأت شؤون البلاد وعم البلاء والفساد وتضعضعت احوال المملكة فوق الذي نزَل بها من بلاء الطاعون

ثم استثار بغيها دفين حقد الكلف والجبليين فسموا الى الاستقلال واخذ الثار وتألبت فلورانسا مع رومية وسلباها بروز وبيز وبولون والكوندتيارية انفسهم اقتسموا بعض الامصار والبلدان التي كانوا قد دوخوها من قبل ذلك العهد وافتتحوها على اسم هذه الاسرة فتخوفت كاترين من تقاص ظل دولتها وانثلال عرشها فلجأت الى الظلم والعسف والعداء لوهمها انها بذلك تؤيد دعائم ملكها وترهب اعداءها وترتق فتق البلاد فقامت بضحايا دموية مريعة في ميلان فقتلت بعض زعماء الاحزاب ووجدت عذاب الاربعين (وهو ان يقطع في كل يومين عضوٌ من اعضاء المقضي عليه او قطعة من لحمانه ثم تصلم اذنه ويجدع انفه ويسلخ جلد رجليه ويدوس على الحصى) وشوت الاجساد على النار المستعرة وملأت الاقطاو بسوء طريقتها جوراً لكنها لم تزد اعداءها الا جرأةً واقداماً على استباحة ذمارها والتهام مدنها نخسرت ايضاً براشيا ولودي وكريمون واغتصب فسينوكان صديق الامير كاميل بعد عودته من فلورانسا الممالك الواقعة بين بارم وكريمونة واسكندرية وكثر الهرج في ميلان واوشكت عترة الملك ان تسقط رأساً ويذهب الملك عن ولدها الدوق جان ماريا

ولما استفحل امرها وخاف ابنها شرها انحاز الى الشعب ليكفيهم امرها

فطردها من قصرها ثم امر فحملت الى سجن مونزا وذلك باغراء البارون بريفارا الذي جعل لاب وصلة الى مراده وبلاغاً الى مبتغاه لان كاترين كانت قد قابلت محظيها في خلال الايام الاخيرة بالفتور حتى رث حبل الصداقة ووهت اسباب المودة بينهما فادب لها الضراء وجعل يوغر عليها صدر ابنهـا حتى نكل بها ولم يتهيب من خسران نفوذهِ ووجاهته ورفيع منزلته اذ كان جان ماريا لم يبرح منقاداً له لا قدرة به على مخالفته

واتى على كاترين حينٌ من الدهر وهي تعاني العذاب في سجنها وتضام وتستذل حتى عرفت مبلغ ما يكابده الامير كاميل وردريك في مغائر الجن من تجرع الغصص

واما رودريك الذي غادرناه مزاولاً خرق حائط سجنه بقطعة الحديد التي كان قد وُفق الى العثور عليها فانه ثابر واكب على عمله ستة اشهر اخرى استنفد فيها وسعه وافرغ مجهوده حتى فتح ثغرةً في حائط مغارته ينسل منها الى سرداب ينيف عن عشرة اذرع طولاً وذراعين عرضاً ولما امتلاء المكان من التراب وفتات الصخور شرع يفترش بها ارض مغارته ويلبدها ولكي يعمي على السجان امره ويصرفه عن دخول مغارته عليه جعل يكثر من الصراخ والظفر والشتم والضحك المخيف فوقع في نفس طومازو من ذلك خوف وعلق في وهمه ان رودريك مسه طيف فصار يلتمس فرصة ليلقيه في الهل

وفيما رودريك يشتغل ذات ليلة بجد واهتمام في قصم الصخر شعر ان اداته الحديدية قد نبت ولم تعد تؤثر في الصخر لصلابته فبلغ منه ذلك

واحزنه واضرم اخفاقه غيظه حتى صار يبكي لشدة حنقه ثم صاح قائلاً الهي الهي لقد توسلت اليك بالدعاء كثيراً وضرعت اليك مبتهلاً واليوم قد مضى عليَّ سنتان في هذه المغارة معتقلاً افتسمح بعد هذا ان اموت قانطاً مضيماً فاعطف عليَّ وارأف بي وارحم قلبي ولا تخلف مظنتي فقد كفاني ما لقيت من الويل والضيم والعذاب وانا طاهر من الخزايا بريء من الذنب وانت اعلم بالسرائر

وما كاد يأتي على اخر كلامه حتى طرق اذنه فجأة طرقة بعيدة من بطن الارض الواقف عليها فاجفل وظن لاول وهلة ان السجان قد دخل عليه مغارته واذ لم يرَ فيها طارقاً عاد الى سربه واذن منصتاً فسمع صوت مطارق قوية خرساء لا يكاد يصل الى ابعد من موقفه ترتج لوقعها اسس المغارة فلم يتمالك لدهشه وشدة فرحه ان قرع الصخر ثلاثاً لينبيء العامل بوجوده على ذلك يزيده في عمله تشميراً وانكماشاً واذا بالصوت قد انقطع تماماً وكف العامل عن العمل فظن رودريك ان اشارته كانت سبباً في ذلك فاخذ يقرع سن الندم ويعاتب نفسه

الفصل الخامس

ويأتيك بالاخبار من لم تزوده

وفي خلال تلك الايام كان الكولونل روبر والقبطان مرتينو قد دخلا في بطن الارض سرباً طويلاً ينيف عنماية خطوة وصرفا على ذلك حولاً كاملاً يشتغلان فيه تحت استار الليل غير مباليين بانقضاض الصواعق

وثورات العواصف وتساقط دحاريج الثلج من جوانب الجبال معانيين من الجهد والعناء والكد والاعياء في هذا المطلب الوعر والمرام البعيد الصعب ما لا يطيقه بشر ولا قوام للجن به حتى اذا بلغ حفيرهما العمق العميق من ارض الحصن عما ازاميلهما ومطارقهما بقطع من الجلود وكتلاً من القطن والعهن كي لا يسمع لها وقع على الصخور الصلدة التي ينقرانها مخافة ان يهتدي اليهما جنود الحصن وكانت آمالهما بقرب بلوغ المنى ودنو الزمن الذي يثمر فيه غرس عملهما تزيد في عزيمتهما مضاء وتكد همتهما وتلهمهما الصبر والجد وبعد ان اتى عليهما ثلاثة اشهر من الحول الثاني انتهيا الى اسفل مغارة الامير المزعومة ولم يبق من فاصل بينهما الا كثافة خمس اذرع من طبقة الارض تستغرق عمل خمسة ايام يظفران بعدها بحاجتهما ويقضيان لبانتهما

ففي اول يوم من الايام الخمسة الباقيات بينما كان روبر ومرتينو مصعدين الى مغائر الجن لينجزا خرق السرداب نظرا وهما يتوقلان في الجبل رجلاً عليه لباس الحجاب يهبط من قلة الجبل معجلاً في سيره فهجست في خاطرهما الهواجس والوساوس فجعلا ينظران اليه ويتساآلان عنه

فقال مرتينو لعله صياد اعاقته عوائق الصيد ولهوه فاقبل الان منصرفاً مكرًا الى منزله قبل ان ينصب الليل شراعه

ـ اني لا ارى عليه عدة الصيد فهو ولا مرية قافل من مغائر الجن الا تراه قد ضل عن السبيل لا يعرف اين مهابط الجبل ـ ها هو قد وقف يتلفت يميناً وشمالاً ليهتدي الى جدد الطريق

ـ لا بد لهذا الرجل من شان فانه لم يحمل نفسه على المخاوف والمهاوي ويركب الاهوال عبثاً وفؤادي جازع من منظره متشائم من مخبره فهيا بنا نتعرض له ونكرهه على افشاء سره لنقف على ما بطن من امره ثم حثا القدم في ارتقاء الجبل حتى اذا تدانت الخطوة وصارا على مقربة منه كمنا له في مضيق من الطريق يرصدان مروره فلم يشعر الا وهما قد اطبقا عليه بغتة فلما لمحهما وهما في اثواب من الوبر وعلى راس كل منهما قبعة من الغراء ذعر واطار الخوف فوءاده فتراجع الى الوراء مقدماً رجلا وموخراً اخرى وصار يعوي لهاعه متوهماً انهما جنيان قد اويا تلك الربى والجبال

والظاهر ان الرجل كان ممن ختم الله على قلوبهم وخدعتهم الاوهام فصدق حديث الخرافات التي يهرفون بها عن الجان ومقيلها في شعاب تلك الجبال وغيرانها فلما راى مبادهة روبر ومرتينو له واندفاعهما عليه عند انتشار الظلام والارض قفراء موحشة معطلة من الانيس لاد بي فيها ولا ديار تخيل له انهما جنيان فذهل عن رشده وجحظت مقلتاه من شدة الرعب ثم سمع الكولونل يساله بصوت اجش جهير من الرجل فلجلج من الخوف هذه الكلمات رفقاً بي ... معاشر الجن ...

بحقكم عطفاً ... اني انا ـ قل من انت والا القيتك في اليم وعجلت من الدنيا مرتحلك ـ انا ... ر... رسول ـ رسول من انت فاجاب الرجل عن غير تدبير انا رسول من ميلان اتيت مغائر الجن احمل الى راس الحراس كتاباً من نادي مولاي الدوق جان ماريا

ـ وهل عرفت مآل الكتاب ـ نعم ... لا ... كلا ... اجل ـ

وما عساه يكون وكان قد ثاب الى الرجل رشده وتبين ان اللذان يخاطبانه انسيان مثله فامسك عن الجواب وجعل يتقهقر الى الوراء ليتسع له مجال المرب لكنه قبل ان يخطو خطوةً لمح في يد مرتينو حربة كالنصلة وقد هم ان يشك فواده بها ان نقل قدمه او تاخر في جوابه فقال ان الكتاب الذي حملته الى راس الحراس رنارو ينهي اليه ان يفتك بالامير كاميل ويسكونتي وبالكونديتياري اوتون دي فاني المسجونين في مغائر الجن حتى لا يدع منهما عيناً تطرف فلما تدبر مرتينو وروبر كلام الرسول امتقع وجههما وشعرا كأن سهاماً مسنونة وقعت في قلبيهما او صاعقة انقضت عليهما وصار كل منهما ينظر الى الاخر نظرة لها من اليأس وخيبة الامال معان ثم ساله روبر وقد تجلد في اي يوم قدمت على رنارو بهذا الكتاب في وجه هذا النهار — والى اين تقصد الان والليل قد اظلم

— اني سامتطي الليل الى مونزا — واي غرض لك فيها — ان الدوقة كاترين مسجونة هناك في الحصن القديم ومعي كتاب احمله الى رئيسه يامره ايضاً بقتلها فدعاني اسر على عجل فان الليل قد ارخى سدوله

فلما سمع روبر ومرتينو ذلك من الرسول ابدع بهما الخبر اذ كانا يجهلان ما صارت اليه الدوقة كاترين ثم جعلا يستنطقان الرسول حتى وقفا منه على ما لا يعلمان من تقلص ولاية الدوقة كاترين وسجنها في مونزا ولما تحقق روبر ان ذلك الرسول يحمل كتاباً من جان ماريا آمراً بقتل امه بدا له ان يسلبه منه وذلك لرأي خطر له وقد حمله عليه ما عنده من الدوقة فامسك بيد الرسول وقال له

— اعرني اذناً واعية فانا طالب منك امراً سهلاً لا مهانة ولا جناية عليك فيه فان اجبتني اليه كافيتك بالاحسان والا فعلت ذلك على رغم من مرسنك ولو كلفني سفك دمك فاجابه الرسول وقد انكر عليه طالبه وما الذي تريده مني قال قد قلت انك تحمل الى مونزا كتاباً من جان ماريا يامر باعدام امه فادفع اليَّ هذا الكتاب دون تردد وانتظرني ثلاثة ايام اطلق لك بعدها سراحك — وما تفعل بالكتاب — احمله بنفسي الى مونزا لكي اتولى قتل هذه الظالمة بيدي

فهتف مرتينو عن غير عمد لعدم تدبره غاية الكولونل — واميرنا المحبوب اتدعه يهلك ويلقى الردى فاجاب روبر وقد اغرورقت عيناه بالدمع انا لا نذهب قبل انجاز عملنا حتى اذا خانتنا فيه التقادير وهلك الامير قبل استنقاذنا اياه ثارنا بدمه من هذه الاثيمة فقال الرسول لا لا هذا لا يكون ابد الدهر — دع عنك العناد والمكابرة ولا تلج بالخلاف والمعصية

— انك ترجو المحال — اعطني قيادك وخذ عشرين ذهباً جزاء اذعانك وقبولك — لا حاجة لي بالمال — لا تفعل فعلاً يزيل نخوتك فصفقة الطاعة لك اربح — لا افعل ذلك حتى يرجع السهم الى فوقه صاح الرسول وقد امتلأ غيظاً وسخطاً واراد ان ينتضي خنجره فاطبق عليه روبر ومرتينو فاوثقاه وهو يكثر من السباب والشتم وانقلبا به الى منزلهما في سفح الجبل وبعدما سلباه الرسالة سجناه في غرفة واوصيا نيانزا ان تتولى حراسته واخبراها انهما لا يرجعان ذلك اليوم . ثم اسرعا الكرة الى مغائر الجن ومرتينو يضرب اصدريه ويقول

– يا لخيبة الامال وضيعة الاتعاب ان رنارو سينكل بالامير قبل ان يتسنى لنا اليه وصول وما ارانا نجاوز عقبة من البلاء الا صرنا الى اشد منها – تجلد يا مرتينو فالرجال تعرف عند اشتداد الخطوب والعاقل اذا نزل به الامر لم يدهش ولم تعي به حيلته – ان كلامك لا يغني عن الامير شيئاً اذ كيف ترجو ان تبلغ اليه وتغيثه قبل ان يفتك به رنارو والطبقة الباقية من الارض للوصول اليه ثخنها خمس اذرع لا يتهيأ لنا خرقها قبل خمسة ايام – انا ضمين بانجازها في يوم وليلة – وهل انت على يقين من رنارو ان يوخر قتل الامير الى يوم وليلة – لا ولكن رايي يدلني على انه سيبدأ بالكونتدياري دي فاني اذ هو لا يقدم على قتل الاثنين في يوم واحد فان ابقى على الامير الى غدٍ امكن لنا بلوغ مغارته واستنقاذه فالبدار البدار يا مرتينو فاني قد آليت على نفسي ان لا اطعم طعاماً قبل ان ادرك حاجتي

ثم سارا اكمش سير حتى بلغا السرداب فاقتحماه كما تقتحم الذئاب حظيرة الاغنام وجعلا ينقران في الصخر العارض بينهما وبين المغارة وهما لو استطاعا تحطيمه باسنانهما لفعلا

وبينما هما دائبان في عملهما طرق اذنهما صوت طرقة قوية من داخل المغارة تكررت ثلاثاً فظنا ان ذلك اشارة من الامير لينبئهما عن وجوده في المغارة . لكنهما ما لبثا عقيب ذلك ان سمعا صوتاً بشرياً ولغط اناس على سطح الارض التي كانا في جوفها فامسكا عن العمل وركضا الى خارج لينفضا الارض وينظرا ما هنالك فلما صارا خارجاً ابصرا على نور

القمر الذي كان يضيء في محاقه الاخير قبل ان يتنفس الصبح جنديين محتملين جثة وسمعا احدهما يقول لرفيقه احفر هنا فان الميت لا يؤاخذك اينما واريته قال اني اشفق عليه ان يضر به الثلج فلنحفر تلقاء هذا الصخر

ـ لا بل احفر الحفرة هنا فقشرة الثلج رقيقة وعجل فالميت اضناه البرد

ثم وضعا الجثة على نجوة من الثلج وجعلا يحتفران الحفرة وكان احدهما في كل برهة يقهقه ضاحكاً اذ يسمع رفيقه يقول له ـ لا تضيق الحفرة يا صاح فربما مل الميت من استلقائه على ظهره فدع له مكاناً يتقلب فيه على الجانبين ولما فرغ من الحفرة غيبا فيها الجثة وانقلبا راجعين وما تواريا عن الابصار حتى اقبل الكولونل والقبطان الى الحفرة وجعلا يحتفران بايد مرتجفة وقلوب خافقة وقد تخوفا ان تكون جثة الامير حتى انتهيا اليها فاذا هي جثة الكونديتياري دي فاني فاستراح بالهما ثم ابصرا في وجهه وفمه نضح الدم فعلما انه مات مسموماً من برهة قريبة

وبعد ذلك ردا عليه التراب وعادا الى عملهما بجهدٍ ولو كان على الجهد مزيد لبلغاه لعلمهما ان الامير سوف يشرب كاس الحمام في الغد وينزل به ما نزل بدي فاني ان لم يقع لهما الامر للوصول اليه والفرار به واما رودريك الذي كان قد احزنه وقطع رجاءه انقطاع صوت تلك المطارق فلم ينشب ان اجاز غصته ونفس كربه اذ صار يسمعه قريباً من مغارته وقد ذهب الى ان اولئك العاملين الذين لم يعلم من هم ولا الغاية التي يعملون وينقبون لاجلها لا يلبثون ان ينتهوا الى مغارته ولو عن غير عمد ويفتحون له باب النجاة بعد ان كان مقفلاً

ولما شعر بقدوم سجانه عليه في الصباح ليلقي اليه الطعام خاف ان يسمع صوت النقر من اعماق ارض المغارة ان دخلها عليه فتخلق باخلاق المجانين وجعل يطفر ويصيح ويلطم جسده بحيطان المغارة هائجاً مزبداً فلما ابصره طومازو على هذه الحال تيقن منه الجنون الفاضح فوقف مقابل الباب يقول يا له من فظ قد اختل عقله وفقد رشده وصوابه حتى لم يعد له غير زورة الهل من دواء تباً له كيف يرغي ويزبد كمن مسته ارواح الجن ولكن الهل لاسواه يسكن ثورات الجنون ويقوم الميل ثم فتح الباب باحتراس ومد يده ليلقي اليه الطعام واذا برودريك قد وثب عليه كالاسد ليريعه ويصرفه عن دخول المغارة وتظاهر بالجنون وزاد في الصياح والصراخ حتى اناف وعلا على صوت الحفر ووقع المطارق فاغلق السجان الباب واسرع فدعا بعض الجنود واقبل معهم الى مغارة رودريك الذي كان مبتهجاً بنجاح خدعته وهو لا يدري انها انتجت شراً واثمرت مكروهاً فلم يشعر الا وباب المغارة قد فتح فجأة ونفر من الجند قد هجموا عليه وسمع طومازو يهيب بهم ان قيدوا هذا المجنون واهبطوا به الى الهل

ولما لم يمر ذكر الهل على سمع رودريك من قبل ولم يدر اي شيء هو الهل انشا على عادته يتظاهر بان به طيفاً ولكنه لما رآهم مندفعين عليه يحاولون شد وثاقه ابتدرهم بضرب يعمي النواظر فلج بينهم الخصام وكثر الشغب وقدت الجيوب واحتدم الصراع وجعل طومازو يجلده بسوط من جلد وينزل به ضرباً مبرحاً على راسه حتى خبا زنده وانكسرت شوكته وسهلت منعته فقيدوه وساقوه الى الجهة الغربية من المغائر وانحدروا به عشر درجات

في بطن الارض حتى انتهوا الى دائرة كالسرداب امامها ثلاث كوى صغيرة تشرف كل واحدة منها على مغارة عميقة اشبه بالهاوية ولكل من هذه المغائر الثلاث التي تدعى الهل باب ضيق ينحط اليه بلولبٍ من الصخر لا يفتحه السجان بعد حلول المسجون بل يدلي اليه الطعام والشراب من الكوة فاقبل الجنود برودريك الى المغارة الثالثة التي هي اشد هولاً من البقية لوقوعها في منتهى الحصن في عمق عميق من الارض ودفعوه الى داخل بعد ما حلوا عقاله واغلقوا دونه الباب ثم عاد طومازو يقول انعم به من قرار تطيب لهذا الشكس الشرس فيه مجاورة الجن والارواح فليمرح ما استطاع ففيه يحلو الجنون

الفصل السادس

﴿ من مأمنه يؤتى الحذر ﴾

وفي عشية ذلك اليوم كان رتازو بريبانتو رئيس الحصن جالساً على مقعد في غرفته وهو مبلبل السرائر عابس الوجه قاطبه يترقب بذهاب الصبر دخول طومازو السجان عليه ليلقى اليه امراً ذا بال لان المدة التي تتخلل ابتداء العمل الخطير وانتهاءه هي مجموع تصورات مزعجة مبطنة بالتهيب والتوحش

وبعد فترة اقبل طومازو وانحنى امام الرئيس ووقف حاسر الراس لا يتكلم فقال له رنازو بابهة وجلال وهو يعبث بشاربيه ويزوي ما بين عينيه قد دعوتك يا طومازو لافوض اليك القيام بضحية اخرى في هذا الليل — ضحية اخرى كرر طومازو مدهوشاً فقال نعم كضحية الامس وبذا صدر الامر

جيبه وجعل يفكر في الحيلة التي سيحتال عليه بها

ثم عزم ان يدخل عليه مغارته قبل انتصاف الليل ليتخلص من عبء تلك المامورية التي عهد اليه القيام بها

وكان كاميل وقتئذٍ يقظان يتسامر مع خادم ابيه الشيخ ذاك من حفيره وذا من مغارته فلما شعر بوطء اقدام السجان وجم ومذ راءه يعالج باب مغارته ليدخل عليه خر راكعاً واظهر انه يصلي وقد هاله ما شام في وجه طومازو عند دخوله من القطوب والعبوس وسيماء الغدر والوقيعة فصار يضرب اخماساً باسداس متعجباً من تلك الزيارة التي البس عليه امرها ولم يأمن تبعاتها وتواليها . فلم يجد طومازو مجازاً الى حاجته واشفق ان يصرفه عن الصلوة نخرج من عنده وهو يقول ياللغرابة اتراه احس بدنو منيته وقرب مبارحته هده الحيوة حتى عمد الى الصلوة فلادعنه يبتهل الى ربه ويتوجه اليه بالغفران والعفو وليودع الدنيا وداعاً هيهات يعقبه لقاء ثم عاد يتمشى مردداً في باله الحيلة التي انتظم له تدبيرها ليخدع بها الامير ويحمله على شرب السم وهو على غمة وجهل من حقيقته كي لا يلجأُ الى قتله عند الامتناع والمعصية

وكان روبر ومرتينو في خلال ذلك قد فتتا الجانب الاكبر من قشرة الصخر الباقية وشرع الاول ينادي الامير وقد وضع يده على قلبه ليضبط فرحه ويقول كاميل ... ايها الامير ... ياحبيبي كاميل ... ياصديقي ولما لم يجبه احد ولم يسمع صوتاً ظن ان الامير نائم فاخذ يقرع بمطرقته ارض المغارة وينادي

ــ ياسيدي كاميل ... يا ابن كارلوس ياصديقي الست هنا قد

جئنا لانقاذك والفرار بك ... تنبه فانا خليلك روبر وها مرتينو بانتظارك وكلانا في الحيوة باقيان

فلم يكن من يجيبه او يطرق اذنه غير صدى صوته في خلاء السرداب وذهب نداؤه كصرخة في وادٍ او حجر في بحر فبلغ ذلك من روبر فصاح برفيقه وقد هاله الامر اين الامير يا مرتينو وما عساه جرى عليه اجبني فقد ضاع رشادي وتاه عقلي الم نسمع اشارته حين قرع الصخر ثلاثاً في صبح هذا النهار فاين هو

اجابه مرتينو وعيناه مغرورقتان بالدمع ان رأيي يدلني على ان رنارو قد قتله وامضى فيه امر جان ماريا فهلم نقتلع القشرة الباقية من الصخر لنكون على بينة من الامر

ثم اندفعا يخرقان ارض المغارة ولم تكن الا برهة حتى نقبا فيها فرجة فاسرع روبر ومد رأسه واطل على المغارة فالفاها خالية ما بها انيس ولا نزيل اذ هي لم تكن الا مغارة رودريك الذي نقل منها الى الهل صباحاً على ما تبينه القاري لان انحراف روبر ومرتينو عن الصخر الصلد الذي صدهما عن نهج الطريق المستقيم عند بدء شروعهما في حفر السرب انتج هذا الخلل فصارا ينعطفان غرباً وهما لا ينبهان الى الضلال حتى انتهيا الى مغارة رودريك وفي وهمهما انها مغارة الامير التي غشيها روبر وهو متلبس بثوب صيادٍ

وليتصور القارىء ما الم بهذين الرجلين اللذين اقاما عاماً وستة اشهر يزاولان فيها نقر الصخور وتحطيمها وحفر الاتربة وجرفها في ظلمات الليل على ذروة جبل عالٍ من جبال الالب متهددين من كل اوبٍ بالثلوج

والصواعق والعواصف وكان منتهى عملهما الفشل والرجوع بالخيبة بعد ان وَهت عزائمهما وما نزل بهما حين ابصر المغارة خالية ما بها دبي فانهما شعرا في تلك الدقيقة ان الارض قد خسفت بهما ومادت وان الحصن على ما هو عليه من الضخامة والعظم قد اطبق عليهما . فمكثا وقوفاً كالاصنام فاقدي الحس والعرق البارد يتصبب من جبينيهما وقد ضعضعهما اليأس ونزلت بهما جائحة القنوط فلو رآهما احد وهما على تلك الحال لتوهم ان بهما عقلة من السحر او ضرباً من اللمم . ثم ذرفت عين روبر دمعة كانها جذوة نار سالت على خده فاحرقته ونبهته من ذهوله فالتفت الى مرتينو الذي كادت روحه تفارق جسده وقال له بصوت الخاشع الحزين ويلاه يامرتينو لقد ذهبت اتعابنا ضياعاً واخفق سعينا وانصرفت حاجتنا بالفوت فحبيبنا كاميل قد قتلوه قبل ان نبلغ مغارته فاجاب مرتينو وهو يغص بالدمع واسوتاه لقد نفذ السهم عن قوسه فيا لحر الاسف وخيبة المسعى فقال هيا نودعه ياصاح ميتا فان الاقدار لم تسعدنا بلقائه حياً فعن قريب تقبل الجنود بجثته ليواروها التراب

ثم خرجا وهما ينظران الى السرب الذي احتفراه في تلك الليالي الطوال كمن ينظر الى خيال الموت وجلسا على بابه يترقبان قدوم ذينك الجنديين محتملين جثة كاميل كما جاأ في الليلة المنصرمة بجثة الكونديتاري دي فاني ولبثا في انتظار يحاكي مر النزع

الفصل السابع

يدركُ الحلوُ من بلوغ الاماني ان يذق قبلة المجرب مرًّا

✵ السرب الخفي ✵

هيا بنا نزر سجين الهل لنرى ما نزل به وما دخل عليه في تلك الهاوية من الجزع وحلول النقمة بعد اذ كانت النجاة اليه اقرب من حبل الوريد لانتهاء روبر ومرتينو الى مغارته التي اخذ منها فان رودريك لما استقر به المكان في مغارة الهل واغلق طوماز و دونه الباب خر على وجهه يبكي لشدة جزعه وخيبة اماله من النجاة وكانت تلك المغارة فسيحة الغور قليلة الارتفاع لا ينبعث اليها الضياء بل هي في ظلمة ليل داج قد فرشت ارضها وكسيت جدرانها بساقات من العفونات ونسيج من القاذورات والنباتات الفطرية التي تتولد من النداوة والرطوبة والعشب نابت في شقوق صخورها والهوام والحشرات كالتي تنمو في المستنقعات والاجام سارية في جوانبها والعقارب دابة فيها وهناك هيا كل عظام بشرية وجماجم هي من بقايا الذين هلكوا في تلك الهاوية والروائح القذرة الكريهة منبعثة منها

فلما ابصرها رودريك اضطرب ظهرًا لبطن وعرته هزة من الجنون فاقبل على وجهه يلطمه وجعل تارة يعض راحتيه ويمزق ساعديه ويتقلب كما تتقلب السمكة اذا خرجت من الماء ويتمرغ على الارض من شدة ياسه وكمده وطورًا يصيح ويضج وهو جالس القرفصاء في زاوية المغارة وضابط صدغيه بكفيه وما زال ذلك امره حتى المساء

فلما اعياه الامر وضاق صدره من الرائحة المنتنة التي ملأَت خياشيمه حتى امتنع عليه التنفس اخذته ثورة من الجنون فجعل يقطع شعر راسه ويبرق ويرعد ويلطم بيديه حيطان مغارته وبينما هو كذلك اذا بيده اصابت مكانا من الحائط فارتج وسمع لارتجاجه دويٌّ لكن رودريك لم يفطن الى ذلك في فورة الامر لاحتدام غيظه بيد انه ما عتم ان سمع لوقع يده على الجدار ثانية دويًا بعيدًا كمن يلقي حجرًا في هاويةٍ او بئر عميقة وراى قبضة من التراب قد انهالت بين يديه فنبهه ذلك من غفلته وايقظ رأيه وصار كلما صدم ذلك الموضع بعينه يسمع صوت الدوي والارتجاج حتى استبان له وجود خلاء او حفير وراء الجدار فجعل يقتلع باظافره التراب ويكشط العفونات حتى بان له حجر مستدير منفصل مقطوع عن الصخر يسد فرجةً في صدر الحائط فعالجه وجذبه اليه بساعد قوي فسقط وظهرت مكانه كوَّة هب منها على وجه رودريك ريح مزعج سام كاد يخنقه ويصرعه فابتعد من امامها مرتاعًا مذعورًا لكنه بعد برهة راى النسيم يلاعب الحشيش المتدلي على الجدران فتقدم نحو الثغرة واذا بنسمات باردة هبت منها على وجهه فانعشت نفسه الخاملة وجددت قواه المتلاشية

ثم اطل من تلك الكوة متطلعاً فلم يرَ الا سرباً شديد الظلمة بعيد المدى ضيق الجوانب فحدثته نفسه بولوجه الا انه احجم عن ذلك مخافة ان يجره طيشه واندفاعه الى التهور في مهواة يلقى فيها الهلاك وتوهم ان هذا السرداب هو الطريق التي ينتهي بها الى منازل الجان ومقاعدهم اذ الحصن لم يدع مغائر الجن سدى فحار في امره وارتبك وصار الوهم يقيمه ويقعده

والخوف يعزمه ويصرفه حتى اذا تمثل له البلاء والويل المحيط به والضر المقيم فيه وطن نفسه على ان يسلك السرب وجعل يقول في نفسه ما الذي يقعدني عن سلوكه احذر الموت والموت خير من هذه الحيوة اليس ان القبراحسن منزلاً من هذا المكان الذي لا اقدر ان اعيش فيه يوماً واحداً بدار الى لقاء الجن يارودريك وقاتلهم قتالاً شديداً فاما ظفر ونجاة واما فشل وممات ثم انسلت من تلك الثغرة كالهر بجهد وعناء ومشى يقدم قدماً ويؤخر اخرى وما تجاوز بعض خطى حتى اشعر باشياء كالهشيم تلطم وجهه ثم تدب على عنقه وصدره ودبابات كالافاعي تلتف على ساقيه وحيوانات تمرُّ سراعاً من بين رجليه واحس بلسبات عديدة في جسده فجرت على بدنه قشعريرة كذوب الثلج من عنقه حتى اخمص قدميه وصار يلمح صوراً قباحاً تمر من امامه كالسهام المرسلة في تلك الظلمات ويرى اشباحاً متباينة ما بين ضاحك وباك وطويل ودميم وقد جاءت ارسالاً ترقص رامحة بازاء عينيه ويسمع اصواتاً خفية تتكلم همساً فتقع في اذنيه

فوهنت رجلاه واتسع ناظراه ووقف شعر رأسه وصاح لهلعه « الجن الجن » فاحدث صوته دوياً عميقاً ارتجت له جوانب السرداب فخيل له ان الجن التي اتخذت لها هذا المكان في بطن الارض قراراً قد التفت عليه وداهمته من كل اوب فانثنى عزمه عن التقدم وهم ان يرجع مولياً لكنه راى نفسه مدفوعاً الى الامام على رغم منه حتى اذا تبطن السرداب سمع هديراً كهزيم الرعد اشبه بشلالات ماء تنصب في بئر عميقة فاستطير لبه روعاً وامتلأ صدره رهبة وقبل ان يبلغ ذلك المكان صدم وجهه حائطاً

معترضاً له فكاد يغمى عليه

ثم التفت فراى ان السرداب قد انعطف شمالاً واتسعت جوانبه فمشى كالشارب الثمل لا يدري أنىّ يسير وهو يلطا بقرار حائط ويضباء بآخر وكان كلما خطا خطوة مد يديه ليصارع الخيالات التي كان يشاهدها منقضة عليه من اعماق السرب وما عتم ان شام بصيص انوار كضوء اليراعة متفرقة تضيء كسرج خالها عيون الجن ونظر جسماً تحمله اسراب من تلك المخلوقات الجنية وهي طائرة في الخلاء تزدحم وتضج وكلها تحمل انوار فتبين ذلك المحمول واذا به حبيبته نيانزا وقد مدت اليه يدها مستجيرة به وشعرها منتشر في الهواء فتراكض نحوها ليغيثها وهو يصيح ويضرب الخلاء بيديه وعيناه محدقتان بها لكنها كانت تبتعد عنه كلما جد في لحاقها ثم ابصرها تنعطف في حدبة فارتكض في اثرها قبل ان تغيب عن نظره واذا بها اختفت فجأة فتطلع متلفتاً فراى نفسه في الفضاء تحت السماء التي كانت تتلألأ بنجوم لامعة والهواء يلاعب شعره الطويل فشهق وكاد يهوي الى الارض لدهشه لو لم يستند الى صخر عالٍ ينتهي اليه ذلك السرب العجيب المجهول

ومضت على رودريك دقائق عشر وهو يحملق بعينيه ويحدق في النجوم والكواكب التي لم يقع عليها نظره من عهد بعيد ليتاكد افي يقظة هو ام في منام حتى اذا استفاق من ذهوله وايقن انه اصبح حرّاً آمن السرب بكى من شدة فرحه

وقبل ان يتحول عن موقفه خطر في خاطره صديقه كاميل وكيف

سيغادره وحده مسجوناً لينجو بنفسه فاكتأب ولبث واقفاً حزيناً خاشع البصر تتوزعه الفكر ولما لم يجد من مروءته مطواعاً على الهرب وحده قال في نفسه لا لا اسير مغادراً كاميل مسجوناً يقاسي الذل والعذاب فاما ان افر به واما ان اموت معه

وكان اول امر بدا له ان يطوف بظاهر الحصن ليهتدي الى العاملين الذين سمع صوت مطارقهم من مغارته التي سيق منها الى الهل ويرى ما يعملون وما ينقرون فمشى على الجليد مترصداً متحذراً حتى انتهى الى الجهة الشمالية فطرق اذنه صوت فاضطرب وارتبك لظنه ان سجانه قد غشي مغارته واهتدى الى الثغرة التي فر منها فاقبل في اثره

فاستلقى على الثلج ومد بصره فلاح له في قلب الظلام خيالان ثم اختفيا فتوهم ان الجن التي تمثلت له في السرب قد خرجت تسري تحت جنح الدجى فدب على يديه و رجليه الى الامام وهو كالذئب الذي عندما يضربه الجوع وتضمر خواصره لطول صومه يهبط من جباله المغطاة بالثلج وهو حذر خائف على نفسه يقف عند كل خطوة محركاً ذنبه المنفوش و رافعاً انفه ليسأل الهواء الخداع ان كان يحمل اليه ريح اللحم او الحديد

الا انه لم يدن من المكان الذي راى فيه الخيالين حتى بصر برجلين جالسين على بعد مايتي قدم من الحصن يتحدثان فاذن لهما فسمع احدهما يقول للآخر من الخيال يا ترى وكيف اختفى قال لعل ذلك خيال احد الجند الذين جاؤوا بجثة الامير ليدفنوها قال لو اقبل الجنود بجثة كاميل ليواروها التراب لنبهنا الى مجيئهم صوت حفرهم او لغطهم ولكن يعرض لي

ان ذلك طيف بدا لنا في الظلام ثم التفتا بعد هنيهة فلمحا رودريك فلما بصر بهما صاح وقد غفل عن الخطر المعرض اليه من الرجلان تكلما ولا تحتجبا ولم يكن الرجلان غير الكولونل روبر والقبطان مرتينو الجالسين على مدخل الحفير الذي احتفراه ينتظران قدوم الجند بجثة الامير ليدفنوها فلما سمعا صوت رودريك ذعرا واستطار لبهما روعاً فظلا صامتين فاوجس رودريك من صمتهما خيفة فناداهما ثانية من انتما ايها الخيلان أأنس انتما ام جان فاجاب روبر وانت من تكون جنيٌّ انت ام طيف احد الاموات فلما طرق صوت روبر اذن رودريك صاح في شدة دهشه من المتكلم فان صوته قد رن في قلبي . ثم سكت ليسمع جواباً فاعقب سكوته صمت رهيب ارتعدت منه فرائصه ثم تقدم الى الامام واردف قائلاً قد سمعتكما تذكران اسم كاميل فاستحلفكما به ان تتكلما وتخبراني من انتما — روبر ومرتينو هتف الكولونل والقبطان معاً فلما سمع رودريك ذلك وكانت الخيالات والاشباح التي رآها في السرب الذي خرج منه لم تزل مالئة عينيه هيبةً وقلبه رهبةً توهم وهو يعهد ان صديقيه روبر ومرتينو قد ماتا ان ارواحهما قد تجلت لهُ في ذلك الوقت فقال بصوت لجلجه الخوف اتيتما يا روحي حبيبي تسألان عن كاميل فما اجملك ايتها الارواح واخلصك وداداً قالا قل لنا من انت — انا رودريك صديقكما ياروحي حبيبي فهل نسيتماني — انت رودريك انت حبيب نيانزا هتف روبر ومرتينو معاً وتقدما نحوه اما هو فحينما رآهما يقتربان منه تراجع الى الوراء وهو يشير بيده ويقول اليك عني ايتها الاشباح والارواح التي احبها دعيني وحدي اساهم

صديقك كاميل في بليته وضره وعذابه وعودي الى مكانك وارقدي براحة وسلام

ــ كفاك تناجي الارواح يا رودريك ودع عنك الوهم والتخيل فالارواح لا تتكلم ثم وثبا عليه وطوقا عنقه بايديهما فلما احس رودريك بايديهما عاد اليه صوابه وكاد يطير عقله عندما عرفهما واعترته حبسة في لسانه من شدة الفرح فارتمى على عنق كل واحد منهما يقبله ويبكي وبعد ان سكن جاشهم وسرى عن رودريك ما كان يجده من الخوف انشأ روبر يقص عليه حديث شيخ الابنين العجيب الذي عني به وبمرتينو حتى ابرأهما وما جرى على حبيبته نيانزا الى ان اتي على ذكر السرب الذي احتفراه ثم اقبلا به اليه فلما انتهوا الى المغارة التي بلغا اليها صاح رودريك مدهوشاً هذه مغارتي التي كنت فيها حتى الصباح مسجوناً وسمعت منها صوت مطارقكما فقرعت الصخر ثلاثاً اشارة لكما وانا جاهل من انتما ومن تكونان فلما قال هذا هتف مرتينو وهو قابض على ذراع روبر أرأيت يا صاح كيف وقعنا في الضلال فان انحرافنا عن الصخر الصلد الذي عرض لنا في طريق السرب حاد بنا عن المنهج القويم فبلغنا مغارة رودريك وفي زعمنا انها مغارة الامير

فصاح روبر ان كاميل لم يمت اذن ولم يفتك به رنارو بعد فهل ابصرته يا رودريك

ــ انى لي ذلك وانا من عهد اليوم الذي سجنت فيه لم اسمع لهُ صوتاً ولم ارَ له وجهاً ثم حدثهم بما وقع له في سجنه باوجز عبارة وكيف حملوه في الصباح الى الهل فاكتشف على ذلك السرب المخيف الذي نجا منه فلما تدبر

روبر حديثه شرع يثب ويطفر كالمجانين لشدة فرحه وهو يردد هذه الكلمات قد نجا ... قد نجا ... هيا يا رودريك فان الدقائق ثمينة وفي فواتها ضياع الامير فلنسرع في ولوج السرب الذي خرجت منه فافرغ رودريك مجهوده ليثنيه عن ولوج هذا السرداب العجيب مخافة ان تمسه الارواح والاشباح او يداهمه الهول الذي الم به في عبوره لكنه مذ تبين الخدعة التي عن لروبر نجاة الامير بها وكانت الثغره التي نقبت في ارض مغارته تضيق عن مرور الرجل فيها لم ير بداً من الاذعان

فاضاء مرتينو مصباحاً ليأمنوا العثار ثم مروا في ذلك السرداب التي كانت جدرانه تلمع كالحجارة الكريمة حتى خالها رودريك مصابيح تحملها اسراب الجن وابصروا شباك العناكب كالسجوف تسد السرب وهي تنقض عليهم وتلسعهم والجرذان تمر بين اقدامهم وساق النباتات يشتبك على ارجلهم وراوا في جهة من المكان هاوية كالجب عميقة تصب فيها المياه بقناة من الصخر الاجوف لا يبعد انها ماء البئر الذي في عرصة الحصن خارجاً وما فتئوا يتقدمون حتى بلغوا مغارة الهل التي غادرها رودريك منذ هنية وجلسوا يفحصون عن الراي فيما بينهم حتى وجدوا علماً واسعاً يدركون به الوطر

الفصل الثامن

اذا بلغت منك المصائب حدها   ففي ذاك معنى انها سوف تفرج

ما فتيء طومازو يتمشى ذهاباً واياباً قلقاً يترصد بلالة فراغ الامير من

مناجاة ربه ليدخل عليه مغارته ويقوم بما فوض اليـه من دس السم له والامير ما برح راكعاً يتظاهر بالصلوة وقد جعلها سبباً الى ابعاد سجانه ليفكر في دواعي هذه الزيارة التي لم يجد لشفرتها محزاً حتى اذا سئم طومازو الانتظار دخل عليه وهو يتكلف البشاشة والابتسام وجلس صامتاً لا يتكلم فاراد كاميل ان يمهد له الحديث فقال له ان في زيارتك هذه الخارقة العادة يا طومازو لسراً — هو ما تقول يا سيدي فما وراء هذه الزيارة الا الراحة والنجاة — الراحة والنجاة اني لم اسمع منك بعد هذه البشرى — بل السعادة التي يحن ويتوق اليها من هو مثلك مسجون ان اجبتني الى ما اريد — أ ألي طاعتي موكولة سعادتي فقال السجان هي اجلب للخيرات اليك وبها قوام امرك وصلاح شانك — ان سعادة السجين اطلاق عقاله فهل ستخلي سبيلي — ان اعطيتني قيادك اجزت غصتك ونزعت شجاك — لقد افعمت قلبي سروراً يا طومازو فافصح عن مرامك — اني لا اطيل عليك مدة الحيرة ولا البس عليك الامر فان من الضر سيتاح لك النفع ومن الحنظل تجني العسل — اظهر ما عندك من حقيقة وبين لي ما استبهم — لا اكتمك ان قد ورد بالامس على الرئيس رنارو امر من مولاي الدوق جان ماريا يشير اليه باعدام الكونديتياري دي فاني واعدامك معاً . اعدامي انا صاح كاميل بخوف وقد ابدع به الخير — لا تجزع ايها الامير ودعني اطوي الثوب على غره حتى لا تركب الامر على غير بيان فلم يتقاعد رنارو عن انفاذ القضاء في الكونديتياري فغيبته حفرته بعد ما تجرع السم وقبض على مشهد مني فقال الامير قد حان حيني وازف اذن رحيلي وكأني بك قد جئت تتولى قتلي

قال اجل ولكني ساجعل في مماتك حياتك ايها الامير لان رنارو قد ساءه الحكم في اعدامك وتبين ظلم اعدائك واعتسافهم فطأرته عليك رحمةواخذته فيك شفقة فحاول ان يدفع عنك الشر والاذى ولما كان لا ندحة له عن القيام بما فوض اليه مخافة نقمة الدوق وحلول بأسه اذا استظهر بالمعصية عن الطاعة دعاني اليه وكشف لي عن مصون طويته ومضمون سره وطلب الي ان اكون معوانًا له على نجاتك وبعد شحذ الرأي اجمعنا ان نحمل اليك عوضًا عن الشم عصيرًا مغيبًا اذا شربته غبت عن الوجود واصبحت كالميت لا حراك بك فاتولى حملك لادفنك على مرأي من الجماعة ومتى اصبحت خارج الحصن عمدت الى ايقاظك من غيبوبتك بدواء آخر قد هيأته لك واطاقت لك السبيل — احقيق ما تقول يا طومازو هتف كاميل فرحًا وقد انطلى عليه المحال — لا شيء يلجئني الى ان اسوق اليك هذا الحديث الطويل لو لم يكن لرأس الحراس رغبة في انقاذك وانت تعلم ان لاشيء يؤخرني عن الايقاع بك ولكني لم ارَ ما يدفع عنك ما وقعت فيه من هذا الشر الا عملي هذا الذي لك فيه الرجاء العظيم على ثقة ويقين فقال الامير اذا قرنت قولك بالفعل يا طومازو فاني اعطيك جزيلاً واصلك بما عندي من اصناف الكنوز والذخائر الكريمة قال تعاهدني انك متى نجوت من محبسك تهيء لنا من المال والنوال ما نصبح معه في سعة عن الخدمة وفي غنى عن البقاء في هذا المكان فنوافيك الى مونزا وهناك تنيلنا من جدواك نوالاً واسعاً

فقال الامير في خلده نعم الراي والتدبير فبدونها لا نجاة لي ولا مناص

والظاهر ان رنارو ما برح يذكر سابق وعودي له عندما ازدلفت اليه بالعطايا ليقربني الى مكان بعيد فاستنبط هذه الحيلة طمعاً في صلتي ونوالي فعليَّ ان استغنم الفرصة فكلام السجان غير بارز عن ظل الصدق ولا تعترضني فيه مرية

وفيما هذه الافكار تهوم في رأس الامير تهويم النعاس كان طومازو الخادع الموارب بما في نفسه يرى في وجهه مرور هذه الافكار ويقرأ عليهِ آيات الاذعان وقد عرف انه وقع في نفس كاميل ما كان يلتمس فاراد ان يتعجله في شرب السم مخافة ان يريبه منه ريب او يطلع على باطل ما اتى به فسمعه يقول له انك ستضع يا طومازو معروفك موضعه وستراني اوفى الناس ذمة واشكر للمعروف واقوم به · وسوف متى اتيتني بعد انقاذك اياي اجزيك بما اسديت اليَّ من الجميل واغمرك بالاحسان ولكني اسألك عما تريد ان تعزم عليه في امر صديقي رودريك فاجابه طومازو اني سأتفرغ لشانه واحتال له في النجاة فلا يمر على فرارك يومان حتى يلحق بك ثم قال في سره يا للحماقة انه يهتم بصديقه وهو لا يعلم انه سابق له الى القبر ليعد له مكاناً رحباً فقال له الامير وقد انطلى عليه محاله اني واثق بك ايها السجان وناظر في الذي اشرت وعامل بما امرت فهات الاناء الذي فيه ذلك الشراب العجيب فاعطاه تلك القارورة الملآنة سماً وقال له اشرب يا سيدي العصير الذي فيها جرعة واحدة ولا يهولنك شيء فتناولها كاميل من يده وادناها الى فيه دون خوف واذا بنقرة من اعماق الارض الجالس عليها طرقت اذنه فتوقف فجأة

فقال له طومازو ارى ان الوهم قد غلب عليك فتشجع واعلم ان في فوات الوقت فساد الامر والتواء التدابير فاشرب سريعاً فرفع الامير زجاجة السم ووضعها على شفتيه وهم ان يشرب فسمع نقرة اشد من الاولى فجمدت يده وقد ادرك ان تلك النقرة اشارة من خادمه الشيخ الواقف في اسفل المغارة فوضع الزجاجة الى الارض وطلب الى السجان ان يوافيه بجرعة ماء لان به عطشاً وقد توجه اليه بهذه الوسيلة ليصرفه عن مغارته برهة ريثما يسأل الخادم عما في نفسه فلم يجد طومازو بداً من الطاعة له فيما طلبه لعامه ان المخالفة والمكابرة لا تجديه نفعاً مثل الرفق والملاينة فتناول اناء الماء واقبل ليملأه ولما صار خارجاً سمع جلبة شديدة في فناء المغائر وصراخاً متواصلاً تردد المماشي صداه ومستصرخاً ينادي اغثني يا طومازو ادركني انجدني فالقى السجان اناء الماء من يده الى الارض واقبل يجري نحو الجهة التي يأتي منها الصوت واذا به صادر من الهل فعرف ان الصارخ رودريك فقصد نحوهُ مغضباً وجعل وهو راكض يشتمه و يقول هل ترى هذا المجنون تبرم من المكان واستوحش او داهمته الجن حتى استصرخني تباً لجنونه و ويلاً له فلما حصل عند الهل اطل من الكوة التي تشرف على مغارة رودريك وصاح به ثكلتك امك يا ابن مجهول الحسب فقد اقلقتني بصياحك فاصمت وقل لي اي داهية دهتك

فعندما ابصره رودريك مطلاً عليه من الكوة ناداه باعلى صوته وقال له بلهفة يمازجها الهلع تعال يا طومازو وهلم فانظر ... ثغرة في الحائط ... سرب قد بان ... فرجة قد نقبت ... الجن قد اقبلت فقال السجان

لقد اختل عقلك ايها النحس فاي سرب في الهل الا الطريق المؤدي الى القبر قال ليس بي جنون فقد ثاب اليَّ رشدي وعقلي وانما بربك ياطومازو تعال فانظر ما قد نقب في الحائط فجأة قال ويلك يارودريك اتراك ترى كوة ام ذا جنونك اراكها قال لا بل ارى كوة في صدر الجدار تشرف على سرب بعيد فالبدار البدار لاني اسمع منها لغط الجن ووطء اقدامهم فلم يتمالك طومازو ان انحدر مهرولاً ليقف على الخبر الذي ابدع به وفتح الباب واندفع الى داخل المغارة واذا برودريك قد وثب عليه كالذئب الخاطف وقبض بكلتا يديه على عنقه وصاح به الى اين تنجو يا رأس النحوس وقد وقعت في قبضة يدي فاصمت فان صحت اخمدت انفاسك فحاول طومازو ان يجاب ويستصرخ الجند فما استطاع لان روحه كادت تبلغ التراق فانتضى خنجره من منطقته وهم ان يغمده في احشاء رودريك واذا به يرى الكوة في الحائط ورجلين كالجان قد وثبا منها فانذعر وكاد يذهب قلبه شعاعاً ولبث كالصنم لا حراك به ثم انقضوا جميعاً عليه وجلدوا به الارض وشدوا وثاقه وسدوا فمه وهو مضعضع غائب عن حسه وما كان الرجلان الا الكولونل روبر والقبطان مرتينو فصاح روبر اذ ذاك قائلاً هيا يارودريك انزع مفاتيح ابواب المغائر عن منطقة هذا الشرس وتقلد خنجره واتبعني لاستنقاذ الامير والافراج عنه واما انت يا مرتينو فالبث ههنا وكن على السجان حارساً ومحافظاً . ثم ان رودريك اخذ مفاتيح الابواب وجعل يقلبها بين يديه كمن هو في حيرة من امره اذ كان لا يعلم ايا منها هو مفتاح مغارة الامير ثم التفت الى روبر وقال له ان الامر مشكل يا روبر

فما منا من يعرف في اي مغارة سجن الامير فان غشينا المغائر للوصول اليه نفر المسجونون واستيقظ الحراس وعرانا الفشل · فصاح روبر ان المغارة التي رسم على بابها العدد ١٥ لهي مغارة الامير فلقد عرفت ذلك منذ اتيت الحصن متنكراً بلباس صياد ودخلت على كاميل · فتمامل طومازو في الوثاق لانه درى ان روبر هو عين ذلك الماجور الذي زار الحصن متنكراً بلباس الصياد وساله عن كل من الامير وورودريك

قلنا ان الامير كان قد طلب من طومازو السجان ان ياتيه بماء متوجهاً اليه بهذه الحيلة ليبعده عن مغارته ريثما يسال خادم ابيه بطرس عن رايه وعما بدا له من اشارته التي استوقفه بها عن شرب الاناء · فلما شعر الخادم الشيخ بابتعاد السجان صاح بالامير قائلاً مولاي مهلاً ولا تشرب ما في القارورة التي اعطاكها السجان فان فيها سماً زعافاً فلقد مكر بك طومازو وما تكلم بهذا الكلام الذي سمعته الا لكي تنقاد لما يشير به فتقبل بشرب السم عن طيب نفس دون اكراه وانت تخاله شراباً مغيباً فقال الامير ان طومازو لم يفعل ذلك الا وهو قد امر بقتلي فانا ان لم اشرب السم هالك في كل حالة قال ارق الاناء وقل للسجان عند عودته انك قد شربته وبعد لحظة تظاهر ان السم يقطع احشاءك وامكر به كما مكر بك قال انه لا يلبث ان يراني حياً فيقتلني اشنع قتلة فالاجدر بي ان اشرب ما في هذا الاناء فان كان سماً خفف عني وطأة الموت وان كان كما قال السجان نجوت لا محالة — حذار حذار يامولاي وارحم صباك واشفق على نفسك فانها اعظم الانفس عليك حرمة قال ليس لي في نفسي حاجة والموت عندي خير من الحياة فانه جامعني بأبي وامي واخواتي

الذين قضوا نحبهم قبلي استودعك الله ايها الرجل الامين الوفي فقد كنت تبكي ابًا وعن قليل ستبكي ابنًا مات ساخطًا قانطًا كابيه ثم خطرت على باله حبيبته فرفع الاناء الى فيه وهو يلعثم اسم فرجيني . وما كادت تمس القارورة شفتيه الا وباب مغارته قد فتح فجاءة وابصر روبر داخلاً عليه . ولما لم يقع له الفكر في ان يراه حيًا توهم انه يرى من جزع الموت خيال صديقه فصاح مضطربًا يكلمه ياطيف روبر حبيبي هل جئت تصحب الى مقرك روحي مهلاً قليلاً عليَّ فا . . . . ولم يات على اخر كلامه حتى شعر بيد لطمت الاناء الذي في يده فطارته وسمع روبر يناديه انا روبر ما برحت حيًا ارزق فهيا يا كاميل الفرار النجاة ثم ارتمى على عنقه يقبله . فشهق كاميل لشدة دهشه وظل مبهوتًا مذعورًا ويداه مشرعتان الى روبر وقد كادت نفسه تنقطع والكلمات تقف على فيه كأن بلسانه حبسة من تاثير هذه المفاجأة ولم يستفق من ذهوله حتى ابصر رودريك مقبلاً في توالي روبر يناديه ويتعجله الى الفرار فاستوى قايمًا وصاح وعيناه مغرورقتان بالدمع — ماذا ارى روبر حي في مغائر الجن ورودريك حر طليق . . اين انا واين طومازو وماعساه جرى . فقال له روبر الفرار الفرار يا كاميل فالاخطار محيطة بنا تكتنفنا فاتبعني عاجلاً فان طريق النجاة قد فتحت والسجان معتقل فصاح الامير روبر روبر انت حي ومن جاء بك الى هنا فقال رودريك وقد اخذ بيد الامير انج يا مولاي قبل ان تدركنا الحراس ولا تسل عما جرى . فاقبل الامير يجري وهو كالشارب الثمل لا يدري الى اي جهة يتجه لكنه قبل ان يتجاوز باب مغارته سمع صوتًا يناديه يا سيدي الامير نسيتني . . يامولاي

كاميل انقذني فانزعج روبر ورودريك من سماع ذلك الصوت وداخلهما منه ريبة وخوف اما كاميل فعرف الذي يخاطبه فقال لهما انقذا الشيخ نجيا خادم والدي الامين قالا اليك عن سواك ودعنا ننجو بانفسنا

ـ استحلفكما بالود الذي حفظتماه لي ان تنتشلا الرجل الذي يناديني من بطن الارض من اعماق مغارتي

فسأل رودريك الخادم عن عدد مغارته لانه الفى المسالك غير نافذة فصاح بطرس من جوف الارض وهو يرتجف لشدة فرحه سبعة سبعة فاهتدى اليها رودريك وعمد الى مفاتيح السجان التي في قبضة يده وفتح الباب واعطى ساعده لذلك الشيخ الذي كان يجلل هامه غابة من الشعر تحاكي الثلج بياضاً وانضم الى رفيقه وانطلقوا جميعاً يهرولون سراعاً

وكان الامير يمشي وهو يخابط ليل داج لا ينجلي لعينيه صبح الحقيقة حتى اذا انحدروا الى الهل وبلغوا محبس رودريك ونظر طومازو مقيداً ومرتينو حياً يترقب قدومه ليضمه الى صدره اخذت تنجلي له غوامض الامور ويباينه الذهول وهكذا انسلوا من الثغرة وساروا في الدهليز وطومازو ناظر اليهم لا يستطيع تملصاً من وثاقه ولا صياحاً وولوا مركنين الى الفرار . وكان رنارو من اول الليل يجهد جهده ويقدح زناد قريحته في تنميق تقريره حتى اذا اصحبه قائد من التوفيق فاتى في تلك البرهة على اخره نادى واحداً من الحراس وبعثه في طلب طومازو ليتاكد نجاح الامر الذي اعتمده له مشفقاً من وقوع طوارىء مريبة او عوائق عائقة تبعث على تغيير التقرير فبادر الجندي الى اروقة المغائر وفي يده سراج وجعل ينادي

السجان باعلى الصوت فلم يكن من يجيب نداءه وحين وقع نظره على مغارة الامير ورأى بابها مفتوحاً لم يتباطأ في نقل الخبر الى الرئيس

فرنارو بريانتو لجزعه من ابدال يقع في التقرير وثب وهو كالمجنون لا يتبع رشداً وصاح بنفر من الجند ان تلحق به واقبل مهرولاً يتقدم في المهابط والمصاعد و يعدو في الاروقة والدهاليز وينادي طومازو وعندما ابصر مغارة الامير وخادم ابيه الشيخ عافية من اهلها عرته لوثة من الجنون وهزة من الغضب فجعل يتراكض من وجهة الى اخرى ويلهث لثقل جثته وتوفر شحمه ولحمه ويقول ليس الى غير الهلاك مصيري ان كان قد فر الامير ثم ما لبث ان سمع من فناء الهل انة رجل يختنق فاسرع في الهبوط الى المغارة وكان اول من لمح طومازو في اشد وثاق وضيق انفاس وعلى صدره حجر كبير لا يقوى معه على القيام فسعت نحوه الجنود وحلت عقاله وصار رنارو يسأله النباء اليقين وهو لا يجيب الا بهذه الكلمات

— فرّوا ... نجو . الامير .. رودريك ... المامور ... السرب مشيراً الى الكوة والدهليز فصاح رنارو بالحراس وهو يتلظى غضباً ويحترق غيظاً وقد فار دمه وجحظت عيناه

— تقلدوا سلاحكم ايها الجنود والحقوا الفارين في الجبل . العجل العجل وطاردوا هولاء الكلاب اولاد اللئام فان ادركتموهم لكم مني عشرون ذهباً فنفرت الحراس كالنعام وفي ايديهم القسي وانبثوا في مهابط الجبل وجوانبه ورنارو من ورائهم يعدو في ظلام الليل على الجليد يحرضهم على الاقدام والمبادرة الى اطلاق السهام على كل غرة تبدو لهم وكان من نكد طالع

الامير واصحابه اهتداء رنارو الى فرارهم قبل ان يتسع لهم المجال لمباينة تلك الناحية فما بعدوا عن الحصن الا قليلاً حتى شعروا بطائفة من الجند قد اقبلت في تواليهم تصب عليهم السهام رشاً كالبرد وطرق صماخ اذانهم صوت رنارو من عل يحرض الجند على ادراكهم وكانت الحراس قد ابصرتهم على الثلج كاشباح سود يهبطون على الصخور منحدرين سراعاً في الجبل خوف اللحاق وكلما امطروا عليهم من السهام وابلاً تواروا وقاموا واذا تأثروهم مشوا وولوا وهم يتعثرون باذيال الخوف والوجل والامير يستعجلهم فيحثهم على الاسراع واذا برودريك المتاخر قد صاح وسقط الى الارض مصاباً بسهم في نخذه فتراجعت اليه رفاقه ووقفوا حيارى لا يعلمون ايغادرون رودريك ام يقيمون والجنود منهم يقتربون اما رودريك فمذ سقط اهاب بهم بلهفة وهو ينظر الى جهة العدو دعوني انتم وسيروا السرع السرع قبل ان يدرككم العدو وانجوا بانفسكم واتركوني هنا وحدي لاني ان مت امت قرير العين بنجاة الامير وفوزكم ومتى وصلتم بلغوا عني السلام لحبة قلبي نيانزا النجاة النجاة فها الحراس وقد وصلت فقال له كاميل ابى الله الا ان نموت معاً يا رودريك وابت المروءة ان نغادرك في هذا الموقف الحرج فوالله ما لنا من هذا المكان براح ولو ذهبت منا الارواح فانت عديل نفسنا ونحن لك الفداء وبينما هم كذلك راى روبر ان نفراً من الجند يكاد يدركهم فبدا له في ذلك الموقف الحرج ان يحتمل رودريك ويختبيء في بعض الغيران والحفر التي يعهدها في شعاب تلك الجبال فاشار الى اصحابه ان تتبعه بعد ما احتمل رودريك وانحدروا معاً الى حفرة رآها هناك وثبتوا

فيها منصتين ولم يكن الا بقدر حسوة الطائر حتى دنت منهم الحراس واقبلت ارسالاً يتبع بعضها اثر بعض تفتش عنهم في مهابط الجبل فحبس هولاء انفاسهم التي قطعتها الجزع وصارت قلوبهم تخفق هلعاً مترقبين في كل لحظة اشراف الجند عليهم واذا بواحد من اولئك الجنود قد بلغ شفا الحفرة ولما لم يرها لاحتباك الظلام هوى على غفلة من رفاقه فوقع في وسطهم وحين رآهم اندعر وقبل ان ينادي مستنجداً سد مرتينو فمه وهز له المدية في كفه متوعداً فالجم لسانه واما اصحابه فانهم ابتعدوا منحدرين في الجبال لوهمهم ان الفارين ما برحوا مركنين الى النجاة في مقدمتهم فانصرفوا وقد اضل الله سعيهم واعمى ابصارهم

واما الامير وجمهور اصحابه فانهم احتملوا رودريك وساروا به في وجهة اخرى بعدما شدوا وثاق ذلك الجندي وتركوه في الحفرة ووفقوا الى النجاة والسلامة

ولما لاح الفجر كنت ترى الحراس منقلبين الى مغائر الجن وامامهم رنارو يضرب اصدريه لاخفاق سعيه وانصرافه عن حاجته بالفوت ويعض انامله حنقاً وكمداً على فرار الامير وتغيير التقرير

الفصل التاسع

الغادر ماخوذ بغدره

كان في مونزا معقل شامخ الذرى ضخم الاسوار فخيم المباني شيده ملوك قبائل اللومباردو في ما خلا من الايام ليتحرزوا فيه من العدو ويعتصموا به

لحصانته واحتفافه بالمنعة ولما انبث حكم الويسكونتي في اطراف لومبارديا جعل محبساً لكبار الدولة اذا نقم الحاكم عليهم امرهم او قضت الاحوال بايصال الاذى اليهم

وكان على المعقل في ذلك الحين شيخ من القواد راضه الزمان ووقرته الحوادث وافنى عمره بالحروب قد امر بالاحتفاظ بالمسجونين وبمنازلة العدو بمن لديه من الجند متى نشبت حربٌ في البلاد

وكانت الدوقة كاترين ويسكونتي مسجونة في هذا المعقل بامر ابنها الذي اراد ان يكفي البلاد شرها ويريح العباد من ظلمها وقد علمنا انه بعث فامر بقتلها وعرفنا كيف قبض الكولونل روبر والقبطان مرتينو وهما مصعدان الى مغائر الجن على الرسول الذي يحمل الكتاب وسلباه منه وسجناه في منزلهما

فلما كان اليوم الثاني من فرار الامير من مغائر الجن ظهر على باب ذلك الحصن رجل عليه لباس حاجب ميلاني فاستأذن الحاجب بالدخول على رأس الحراس فسار به الى حيث القائد هوراس في غرفته جالساً فلما دخل عليه الفاه شيخاً مهاباً بشوش الوجه فحياه بوقار ودفع اليه كتاباً كان يحمله فمذ وقع نظر هوارس على الرسول عرته هزة عن غير عمد فاثبت فيه نظره برهة ثم تناول من يده الكتاب وشرع يتلوه وصار كلما اتى على جملة ينظر الى الرسول بطرف عينه حتى اذا اتى على آخره جعل يقلب شفتيه اعجاباً لان الكتاب كان من الدوق جان ماريا وقد امره بقتل امه كاترين وبعد ان فكر برهة عنَّ له ان يستنطق الرسول ليكون على بينةٍ من امره فقال له سائلاً من الرجل — انا من حجاب سيدي الدوق جان ماريا وقد

امرت بحمل هذا الكتاب اليك فجئت وفي نيتي ان اتولى بنفسي قتل كاترين الظالمة — هل ليس في الحصن من هو اهل للقيام بهذا الامر السهل تلزم نفسك امراً لم يكلفك اليه احد

اني لم آت اليك يامولاي الا لالتمس منك هذه الحاجة التي حماني بها اليك كرم طبعك وحلمك فاسألك اذاً ان تسمح لي بان امضي في هذه الظالمة امر مولاي الدوق لاثار بدم ابي الذي سفكته ظلماً فعساي ابرد بذلك غلتي ويذهب الذي اجده منها قال وهل هي التي قتلت اباك ايها الحاجب — اجل يا مولاي فقد احتالت له وسقته السم وقتلت كثيرين من اهل مودتي ولم تاخذها في احد رأفة ولم تعطفها عاطفة وهذه فرصة ابلغ فيها ثاري فلا تمنع عني ما انا راجيه منك فانه لا خطر فيه وكان هوراس الشيخ يصغي لحديث الحاجب وهو كلما زاده نظراً ازداد حيرةً وتعجباً حتى اخذه الوجد عليه شفقة ورأى ان يتسامح فيما يتوسل به اليه اذ ليس فيه ما يضره ويدخل عليه منه السوء فقال له اني شمت في وجهك ايها الجندي ملامح قريبة الشبه من اكرم اصحابي عليَّ وافضلهم عندي وارجو ان تكون ابن من من اعني فمن هو ابوك

فارتبك الرسول في الجواب وجعل يلعثم بعض كلمات يجيب بها حتى تمحلت له حيلة يوارب بها عن حقيقة حاله فقال ان ابي كان رأس حجاب هذه الدوقة وقد قتلته ظلماً لهفوة لا تستحق العقاب فآليت على نفسي ان اثأر منها بدمه فما برحت مذ سجنت في هذا المعقل اجس اخبار البلاط حتى عرفت ان ابنها يأتمر بها ليقتلها فاطرفت رئيس الحجاب بالمال

توددًا اليه و تزلفًا من رضاه حتى اجاب سوءالي بان انتدبني لحمل هذه الرسالة اليك فجئت وانا مستبشرٌ بقضاء حاجتي وقد حملت منيتها معي في جيبي . وبالحال اراه قارورة السم قال امن ميلان انت آتٍ اليوم قال لا ياسيدي فاني مررت بمغائر الجن اولاً ـ مغائر الجن واي حاجة لك فيها قال حملت الى رئيسها رنارو بريانتو كتاباً غير هذا من مولاي الدوق جان ماريا يأمره بقتل الكونديتياري دي فاني وكاميل ويسكونتي ... فصاح هوراس الامير كاميل ويسكونتي ... اراك تجهل ما تقول ايها الحاجب غم عليك الخبر فخلطت السواد بالبياض لان هذا الامير الكريم قد قتل عقيب عودته من فلورانسا بحبالةٍ نصبها له البرافي فانت تبعثه من الاموات لتسجنه في مغائر الجن .

فتبسم الحاجب وهو مطرقٌ الى الارض واجاب ان كاميل لم يمت يا مولاي كما قيل ولكن كاترين عمدت فيه الى الخديعة فاستقدمته يومئذٍ من فلورانسا فقتلت اصحابه اما هو فسجنته في مغائر الجن مع واحد من اشياعه واشاعت ان البرافي قتلته فتأصل هذا الخبر في اذهان الناس ومرور الايام يلقي عليه ظل الصدق حتى اعتدوه من الامور الواقعة

فاغرورقت عينا الشيخ بالدموع عند سماعه ما جرى على كاميل وقد عظم الامر في نفسه لكنه حاول كتمان حزنه امام الرسول وقال وددت لو اني عرفت قبيل اليوم ما اصابه من العنت فاني كنت اسعى الى دفع البلاء عنه بجهدي ولو هلكت نفسي في سبيله فانه ابن احب خلاني اليَّ فكم صحبت اباه في الحروب والمغازي فلا تعجب ايها الفتى اذا اطلت فيك

النظر فانك تحاكيه صورة ومثالاً فقال الرسول لا يكبرن عليك الامر ياسيدي فربما لقيته بمعجزة قال من اين لي اليوم ان القاه بعد الذي نزل به قال ليس على الله بمستنكر ان يريكه عاجلاً فزدني نظراً لتعلم ان كنت انا ابن صديقك كارلوس

كاميل كاميل صاح الشيخ عندما تحقق ان الذي يخاطبه لم يكن سوى الامير كاميل المنتحل صفة الرسول وظل يحدق به كالذي خولط في عقله

ثم سأله عن حاله فانشأ كاميل يحدثه عما نزل به حتى انتهى الى خبر الرسول الذي امسكه روبر ومرتينو وسلباه ذلك الكتاب الذي دفعه اليه وانه لم يتنكر بلباس ذلك الرسول الا وهو جاهل غير عارف انه صاحب الحل والعقد في ذلك الحصن فلم يستطع هوراس الشيخ ان يجيبه لشدة فرحه بنجاته الا بالدموع التي كانت تنحدر على لحيته البيضاء ثم اختليا وجعلا يفحصان عن الرأي فيما بينهما ويتدبران الامر في هلاك كاترين قياماً بامر ابنها وكان في فناء المعقل جدار في وسطه قنطرة يليها عقد غوره مائة قدم ينتهي الى محبس الدوقة وهو غرفة ضيقة الجوانب لها نوافذ مشبكة بالحديد فرشها حقير ليس فيه شيءٌ من البهاء والزينة وكانت كاترين في عشية ذلك النهار جالسة على مقعد امام سريرها تنظر من بعض تلك النوافذ الى افول الشمس الغاربة وهي دامعة العين سيئة الحال مشعثة الشعر مكفهرة الوجه كلبوة قد اخذت في الشرك تتوق الى النجاة لتضرم البلاد بانتقامها ناراً حتى اذا توارت الشمس وراء الجبال حولت

انظارها عنها الى داخل الغرفة وقد ذهب فكرها الى امر في صدرها منه حزازات فتنفست الصعداء وجعلت تهمس في نفسها وتدعو على ابنها الذي تمالأ عليها مع الشعب وتتأسف على ايام استوثق لها فيها الامر وصفا لها الدهر وتسخط على بريفارا محظيها الذي خدعها وخانها وتحرق كيف لم تطلق يدها فيه بالعذاب واذا بباب غرفتها قد فتح فجأةً ودخل عليها كاميل وعليه ثياب الحجاب فمدت بصرها نحوه ورفعت صدرها اليه واستوت على مقعدها كالاسد حين يقعي على ذنبه

فحين بصر بها كاميل ارتعدت اوصاله واستوحش من رؤيتها ومكث واقفاً ينعم فيها النظر اما هي فلم تعرفه وتنكرت عليها هيئته لان سجنه في مغائر الجن والامراض التي انهكته وتخونت جسمه قد غيرت صورته واذ رأته قد اطال الوقوف قالت له من انت وما حاجتك قال اني احد حجاب مولاي الدوق بعثني الى القائد هوراس بامر انت المراد فيه — هل لي به غبطة وسرور تكلم لتطيب ببشراك نفسي ويذهب الذي اجده — ان الامر بخلاف ما تتوهمين فان بعثتي انما هي لايقاع المكروه بك

— ماذا تقول — اني لم ابعث الا ماموراً بقتلك وقد جئتك لانذرك به ولو شق ذلك عليك فهتفت كاترين وقد اصفر وجهها ورجفت منها الفرائص قتلي — نعم قتلك واني لاجل هذا خلوت بك حتى اذا كان لك وصية ترومين ان تكلميني بها فاجعليني مستودع سرك قبل ان يمضي فيك امر ابنك الدوق

فاعتراها في تلك اللحظة جمود وذهول لما وقع في نفسها من الخوف

ولبثت برهةً لا تتكلم ثم امتلأَت غضباً وتلظت بنار الغيظ وجعلت تقول بكلام متقطع وهي ترتجف كورقة في مهب الريح — الم يكفه ذاك الظالم سجني وذلي ٠٠٠ الم يقنع في الملك الذي استخلفه من بعدي حتى ضنَّ عليَّ بالحيوة ٠٠٠ الم يكن له من لبني الذي رضعه شفيعاً ٠٠٠ فبئسه من وحش ضار وولد عقوق ولتلعنه السماء والارض ولتكن ايامه مورد هلكات ومصادر مخوفات وليتنكر عليه ملكه وليمت قتيلاً بيد اعدائه وارادت ان تستتبع الكلام فانحبس في فيها فجعلت تمزق ثوبها وتقطع شعرها وتبكي لشدة كيدها وجزعها وكاميل ممعنٌ فيها نظره يقول لنفسه ٠ يا نفس انظري عاقبة الظلم ومصير الاشرار واتعظي بمرأى هذه الدوقة التي طغت وبغت وتجبرت وتكبرت وعبثت بالرعية واستصغرت امرهم واساءَت السيرة فيهم واغترت بصفو الايام يا نفس هذا ثمر البغي ونتيجة سفك الدماء وعاقبة الحب والفجور ٠

ولشدة ما جرى علي كاترين خرت مغشياً عليها فبادر كاميل الى اناء فيه ماء وصب منه في كاس وجعل يرش على وجهها حتى اذا انتعشت انبجت له همته ودلته فطنته ان يسقيها السم على غفلة منها فافرغ في الكاس تلك القارورة الملأنة سماً وادنى القدح من فيها حين كانت لم تبرح مطبقة الجفون غير مالكة تمام رشدها وصوابها ولم يولها فترة حتى تجرعته على غير انتباه ثم وضع الكاس من يده على مائدة هناك وتنحي الى الوراء وهو يرتجف لهول ما قدمت يداه

وبعد فترة ثاب الى كاترين رشدها فاستوت على مقعدها ونظرت

الى كاميل نظرة الاخيذ الذليل الذي زالت منعته وقالت له وهي تجهل ان السم بالغ منها الاحشاء اني اراك ايها الفتى نبيلاً فارفق وكريماً فارحم ضعفي ـ ان هذا الكلام لم يعد يجديك نفعاً ـ ان لي حاجة ايها الحاجب ان تسعفني بها اوليتك من اموري جسيماً واطرفتك بما تصل اليه يدي من المال والكنوز ـ واي حاجة لك ـ ان تعود الى ابني بكتاب مني فان مستشاريه ومن بهم يعتضد هم الذين زينوا له قتلي وحذروه مني ولست آمنهم ان يشيروا عليه بما يضره ويدخل عليه منه السوء

ـ وقد ولى امرك يا كاترين وهوى نجمك ولم يبق لك في هذه الحيوة مطمع فان الموت في فيك وسوف تموتين عن كثب فاستغفري الله عن المحارم التي ارتكبتها والاثام التي اجترحتها وتوبي اليه انه توابٌ رحيم فارعب هذا الكلام قلب كاترين فاغلظت له في الجواب وقالت اتجراء عليَّ بهذا الكلام الذي لم يستقبلني سواك بمثله مع صغر شانك فاخرج من عندي ودعني

فقال لها كاميل لقد انزلت نفسك يا كاترين منزلة من يستحق هذا الكلام فانظري لشأنك اذ لا رجاء ولا خلاص لك من مرابط المملكة ـ اني احب الحيوة فلست ارضى ان اموت ـ انت مائتة فمالك لا تفهمين

ـ سوف استرد ملكي وانتقم من اعدائي واطلق يدي فيهم بالعذاب والتمثيل والصلب واذبحهم مع نسائهم واطفالهم واتلذذ بالنظر الى لحمانهم تشوى على النار ولكن واهاً اني اشعر بالم يقطع احشائي فما دهاني وما نزل بي . . ويلي قد تمزقت امعاي فما فعلت بي ايها الشيطان

ـ تذكري يا كاترين ان كارلوس ويسكونتي الذي بينك وبينه لحمة نسب وقربى رحم قد شرب السم في قصر البارونة لاب وانت التي ائتمرتِ به مع محظيك فمات مسموماً واذكري غدرك بابنه الذي سجنته في مغائر الجن بعدما قتلت اهل مودته غدراً ثم احييتِ معالم الجور واسأتِ السيرة وعظمت منكِ البلية فالكاس التي شربها كارلوس من يد لاب قد شربتها من يدي فالغادر ماخوذ بغدره

فعندما وعت كاترين هذا الكلام خولطت في عقلها لانها رأت رجلاً يعيد عليها ذكر مآثمها وشرورها ولما لم تعرفه ثبت عندها ان الذي يكلمها ليس الا روحاً من الارواح الشريرة فوثبت مدفوعة من الجزع والالم تطلب الخروج وهي تستصرخ الجند وجعلت تعالج الباب فالفته محكم الاغلاق لان كاميل كان اوصده بعد دخوله عليها فعادت وانطرحت على سريرها وخرت على وجهها تتقلب كما تتقلب السمكة اذا اخرجت من الماء

ثم اشتدت بها ثورة الالام فجعلت تصيح صياحاً مزعجاً وتمزق ساعديها وتخدش وجهها وتقطع شعرها وتدعو على ابنها وبربفارا ثم تنادي الحاجب وتستغيث به وقبل ان تخمد ثورة اوجاعها تقدم نحوها كاميل وقال لها بصوت رهيب رن في قلبها

ـ كاترين كاترين اذكري ان اوجاعك ليست باشد مما توجع كارلوس حين قضى مسموماً وجزعك وقنوطك لا يعدان شيئاً مذكوراً لو فكرت بما عاناه كاميل في مغائر الجن واعلمي ان الاجسام التي شويتها على النار

والارجل التي داست على الحصى وهي مسلوخه والانوف التي جدعتها والايدي التي قطعتها والدماء التي اهرقتها كلها تشتفي من منيتك الان

وكان الظلام قد اشتد في الغرفة وقتئذٍ فخلع كاميل ثوب الحجاب الذي يلبسه واضاء مصباحاً وتقدم نحو سريرها وقال لها اثبتي في نظرك لتعلمي من يد من شربت السم

فمدت كاترين نحوه بصرها وهي في سكرات الموت فمذ عرفته جحظت عيناها وهتفت بصوت مختنق كاميل كاميل قتلتني ثم تدفق الدم من فمها وصارت تجود بانفاسها فلم يتمالك كاميل ان يبصر بها طويلاً فاطفأ المصباح فاعقبه بعد برهة انطفاء سراج حياة كاترين فماتت اشنع الميتات

الفصل العاشر

﴿ قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل ﴾

وفي اليوم الثاني من مقتل الدوقة كاترين كان يرى رجال ثلاثة قرويون يطوفون بقصر فرجيني في مونزا ويمدون انظارهم الى نوافذه وشرفاته ثم تقدموا نحو الباب فابصروا عليه خادماً طاعناً في السن ابيض الغدائر متوسداً العشب مستلقياً الى جنبه وفي يده قصدة من عمد الشجر ينكت بها الارض وهو مهتم كمن يحدث نفسه بامور تهجس في قلبه فلم ينتبه الى قدومهم لشدة افتكاره حتى وقفوا به وحيوه فلما بصر بهم استوى قائماً ورد عليهم التحية وجعل يتفرس في الواحد بعد الآخر

فسأله اصغر القرويين اين سادتك اصحاب هذا القصر فانا لا نرى

منهم احداً

فتنهد الخادم وقد ترقرقت في عينيه الدموع واجاب وهو حاسر الراس قد تصدع شملهم بعد وصل نظامهم فتفرقوا — وماذا نابهم يا ترى — اخنى عليهم الدهر فتفرقوا طرايق وتمزقوا خرايق — او لم تعلم اي ارض من الدنيا نزلوا — لو كنت اعرف مسلكاً لديارهم بجناح اشواقي لكنت سلكته

اني كنت اعهد هذا القصر باهله حافلاً والنعيم فيه شاملاً فلما مررت به الان الفيت السكوت في جوانبه مخيماً والوحشة بادية الاثار على خمائله ورياضه فاتيته لارى من اسأل عن اسباب هذا الانقلاب وقد ساءني مرأى هذه المساكن خالية بعد ما كانت على ما اذكر بالدوقة فرجيني وابن عمها كاميل حاليه ·

— فرجيني فرجيني سيدتي الدوقة الجميلة اترى تجمع الايام لي ولها شملاً وهل تراها عيناي قبل ان انزل قبري · قال هذا والعبرات كحباب الندى تتساقط على لحيته البيضاء فابرقت وقتئذٍ في محاجر القروي دمعة فاخفاها واضبَّ على ما في نفسه وقال يسأل الخادم وهل لم يبق في هذا القصر احد سواك — لم يبقَ احد غيري وفي كل يوم اجلس على باب هذا القصر اترقب عودة سادتي واحسب المنون تعاجلني قبل ان يجمع الله شتاتهم ·

قال القروي لرفيقه اجلسا يا صاحبيَّ وليقص علينا هذا الشيخ حديث ما جرى على اهل هذا القصر فانه لا يكتمنا من اخبارهم ما يعلم لنوسيه ونتوجع معه

فقال الخادم الشيخ الا بحقكم اكفوني موءنة حديث يثير اشجاني ويفيض دمع اجفاني فقد كفاني ما بي من الغصة لمرأى اثارهم فان كلما في القصر يبعث على تذكارهم ثم نظر الى السماء وقال كاميل كاميل سيدي واميري المحبوب بئست حرب فلورانسا التي عادت عليك وعلى حبيبتك فرجيني بالشوءم والوبال بالامس كنتما كالفي حمام وتوأمي غزال فلمن خلفتما اليوم رياضكما وغياضكما وازهاركما وهذا القصر الذي فيه درجتما منذ الصغر وكنتما في نعمة سابغة قال القروي وماجرى على سادتك بعد حرب فلورانسا المشومة

ــ كنا عقيب الانتصارات التي اوتيها الامير كاميل في محاربة الفلورانسيين نترقب بذاهب الصبر مقدمه علينا لنعقد له على فرجيني ونحتفل بزواجهما ففشا اذ ذاك الطاعون وكان من الامر المقدور ان اغتال عمه الدوق جان غلياس فجأة وتفردت الدوقة كاترين بامر الملك فهال ذلك الموءدب الحكيم لويجي وخاف على الامير كاميل وفرجيني من كاترين ان توردهما موارد الهلكات فانتخب روكو احد خدم القصر وارسله في نفس الليلة التي مات فيها الدوق الى كاميل رسولاً يحمل اليه خبر تلك الفاجعة واشار اليه ان ينفصل عن فلورانسا ويجد في العودة مع الكونديتيارية والجنود وان يعرج على معبد بالقرب من بافي حيث يلقاه هناك مع الدوقة فرجيني لتزف اليه

وفي اليوم الثاني رحل الموءدب مع الدوقة فرجيني وابنته وبعض الخدم الى المكان الذي ضرب لهُ فيه موعد اللقاء مخلفاً في القصر امرأته وبقية الخدم فتوقعناهم ثلاثة ايام فلم يأتوا فلما ابطأُوا اشفقنا ان يكون قد اصابهم عنت وكان الامر كما رجمنا اذ لم نلبث ان فجعنا بالخبر المصدع عن قتل الامير

وصحبه في كمين على الطريق واعقب ذلك انقطاع اخبار الدوقة والمؤدب وابنته

— وهل لم يسع احد منكم في اقتفاء اثارهم واستقصاء اخبارهم

— لقد ذهبت بنفسي الى بافي وطفت تلك البطون والقبائل وجبت المدن مفتشاً سائلاً عنهم فلم ارَ لهم اثراً ولا سمعت عنهم خبراً فعدت بخفي حنين . ثم مضت بنا الايام الاول ونحن نتقلب على جمر الغضا حتى اصيبت امرأة المؤدب بالطاعون الذي كان يفتك بالعباد فقضت نحبها وتفرق الخدم وتشردوا في البلاد وبقيت انا وحدي كل هذا الزمن الطويل مترقباً عود غراب السفينة وهيهات يعود الغراب .

وبينما كان ذلك الخادم يقص على القرويين الحديث كان اصغرهم يغص بالدمع ويخفي اضطرابه بمظاهر التأسف اذ لم يكن سوى الامير كاميل وقد جاء متنكراً مع صديقيه روبر ومرتينو يسأل عن حبيبته فرجيني وما فعلت بها الايام لانهم بعد الفرار من مغائر الجن على ما مرّ الالماع اليه اقبلوا الى المنزل الذي كان يأوي اليه الكولونل والقبطان واجتمعوا بنيانزا وامها وبرسول جان ماريا المعتقل ثم حدث الكولونل الامير عن ذلك الرسول وكيف امسك وهو منقلب من مغائر الجن وكيف سلبه الرسالة الآمرة بقتل كاترين فوقع الخبر عند كاميل اشهى موقع وفي الصباح جاء الى مونزا يصحبه روبر ومرتينو بعد ما امر رودريك ان يتحمل مع محبوبته وامها والخادم بطرس الى (بللنزونا) التي كانت قد اغتصبت من البارونات دي سكس وان يمكث هناك في امن من جان ماريا لبينما يبرأ فخذه واشار اليه ان لا يطلق سراح الرسول المعتقل قبل ثلاثة ايام ليتسع له الاجل في ان

يقضي بكاترين امر ابنها وقد ام المعقل المسجونة فيه وبعد ما استوثق مما اراد من قتلها على ما اشرنا اقبل على رفيقيه اللذين كانا له بالانتظار ثم ذهبوا نحو قصر فرجيني يتنسمون اخبارها فلم يروا غير الخادم الذي غابت عنه معرفة سيده المتنكر لان البلايا التي نزلت به غيرت صورته وعندما فرغ ذلك الخادم من حديثه قال له الامير

ـ هل لك ان تسمح لنا يا صاحبي بروئية اثار ساداتك وزيارة مقاصيرهم ومقاعدهم فقد صبت اليهم نفوسنا وشاركناك بالتلهف عليهم والشوق اليهم

ـ حباً وكرامةً ايها الاحباب لاني وجدتكم من اهل النجدة والمودة ولا سيما انت ايها الشاب فان جوارحي حنت اليك مذ بصرت بك وشعرت بتعزية خالجت فوءادي ولقد استعذبت كلامك وحسن موقعه في قلبي وانا لا ادري لذلك سبباً

ثم مشى امامهم الى القصر وجعلوا يدخلون مقاصيره وحجره حتى اذا انتهى الامير الى القاعة التي خلا بها مع موءدبه قبل ان زحف على فلورانسا وقف متأثراً من اذكاره بنصائح موءدبه التي حققتها الايام والحوادث فانثنى يطلب غرفة فرجيني بقدم الجبان وقلب الصب فلما اتاها ادركته الحيرة حيث راى ان كل ما فيها من الفرش والانية لم يبرح في مكانه كأن حبيبته لم تغادرها الا من عهد قريب وابصر صورته قد علقت الى الحائط امام السرير وهو بلباس الحرب وقد حفت بالزهور الاصطناعية وعليها اكليل من الغار قد نقش فيه اسمه باحرف ذهب نسجتها انامل فرجيني ثم نظر الى المنضدة فبصر باحدى الرسائل التي بعث بها الى حبيبته من

ساحات القتال ثم قع نظره على طرس مكتوب باسمه قد كتبت فيه فرجيني بعض سطور لترسله الى فلورانسا وكأنها لم تأت على آخره فقرأه واذا فيه

يا حبيبي كاميل

لقد عاندتني في لقاك الايام وطال منك البعاد فالى مَ اصبر قلبي وقد نفذ الصبر وقل الجلد ان قلبي يحدثني بوقوع مصاب يقرّب مني الاجل فاودعك اذ ربما لا يعقب هذا الوداع لقاء

فان عشت بعدي فاذكرنّ حبيبةً ... بحبك ماتت وهي حافظة العهد
هنيئاً لها من سوف تمسي حبيبها ... اذا شئت ان تصبو الى احدٍ بعدي
سيبلي البلا جسمي متى ضمني الثرى ... ولكن على عظمي ترى اثر الود
فجيء سحراً قبري متى هبت الصبا ... ونح كحمام الروض حزناً على فقدي
وانك ان اضللت عن حفرتي فمن ... اريج عبير الحب للرمس تستهدي

فواسفاً ....

فما كاد كاميل يتلو تلك السطور حتى انهلت عبراته فستر وجهه بمنديل مخافة ان يهتدي الخادم الى معرفته واقبل يجري الى الروضة فالفاها ذابلة الرياحين متناثرة الازهار ذاوية الاغصان وقد صار النبت فيها هشيماً والشجر حطاماً وكلما هناك يحدث عن الوحشة والفراق فجلس وحده تحت ظل تلك السنديانة التي جلس اليها مع فرجيني يوم توديعها (بينما كان الخادم مشتغلاً برفيقيه في داخل القصر) واغرق الفكر في ايامه الاول فبكى عند اذكاره بماضي عيشه الرغيد وبايام تقضت له بالقرب من فرجيني التي حنت وصبت اليها جوارحه ونفسه وشوقه اليها تمثله اياها جالسة لي جنبه متكئة

على صدره والنسيم يلاعب شعرها فيتنشق منه رائحة الحب فازداد فيض دموعه وصاح لوقته متأوهاً

واهاً ما اشقى الحياة حياة العظماء ليتني كنت فقيراً او مزارعاً في احدى القرى ولا افضى بي الدهر الى هذا الحال فان طلبي العلياء زاد عديد اعدائي وطموحي الى الملك ابلاني بالاحن والمصائب واحرمني احبتي واهل مودتي ولو قنعت وارعويت بنصح مؤدبي لما وجد الدهر الى شقائي سبيلاً ولظل عيشي بقرب فرجيني رغيداً وحالي سعيداً وحظي مديداً وطرفي قريراً

وما كان يشجوني اذكار ولا نوى وكنت بامن قرب حبي راتعا
كفاني وقوفاً في الطلول واعيني على من تحب النفس تجري المدامعا

وبعد برهة اقبل نحوه روبر ومرتينو ومعهما الخادم الشيخ فهب بقصد الرحيل بعد ما كفكف دموعه وقال للخادم

اني اشكر لك اهتمامك واحتفاءك بنا ايها الشيخ الامين ولسوف يعيد الله اليك سيدك كاميل ويقدر لك الاجتماع بمولاتك فرجيني

ـ ماذا تقول سيدي الامير ينبعث من القبور قبل يوم النشور هيهات هيهات

ـ ما على الله امر عسير فانه يحيي العظام وهي رميم

ـ صدقت ولكن ايام المعجزات قد مضت ونحن في عصر ساء اهله وجار حكامه وانبث شره ومكلف الايام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

ـ قلت لك ان الله سيرد اليك كاميل وستراه كما تراني الان فان

قدر عود فرجيني ولويجي عن قرب فقل لهما ان ينتظراه

وحتى لا ينبه افكار ذلك الخادم اشار اليه بالسلام مودعاً وتوارى مع رفيقيه بعد ما تزود من الحزن عبئاً ثقيلاً

الفصل الحادي عشر

ولقد طرقتُ ديارها متنكرًا خوف العدا متنسماً اخبارها

فعمي صباحاً يا ديار وكامي صباً اتى مستنطقاً اثارها

واتفق في اليوم الثالث من فرار الامير كاميل ان جنديين من الخفراء كانا واقفين على احد ابواب ميلان المدعو يومئذٍ باب القديس غوتاردو وفي ايديهما الفؤوس يحرسان مدخله ولما خلت الطريق من المارة شرعا يتحدثان فقال احدهما للاخر

— اعرفت يا صاحبي ان الامير كاميل ويسكونتي قد ظهر الى الوجود بعد ما احتجب كل هذا الزمان الطويل وخلنا انه اصبح من اهل القبور

— ان هذا الامير قد قتل مع صحب له من قديم زمن عقيب وفاة عمه الدوق جان غلياس فكيف عاد الى الحيوة قبل ان تبعث الاموات ان هذا وديانا لمن الامور المدهشات

— ان ما شاع يا صاح في ذلك الحين لم يكن الاَّ بهتاناً وميناً لغرض اضمر وشر اكنَّ فان الامير واصحابه قد اختلقوا تلك الاكاذيب واذاعوها حتى اعتقد الناس انها من الامور الواقعة ثم جعلوا بعد ذلك يثون للدوقة كاترين ولدوقنا جان ماريا المصائد ويبغون الغوائل ويحملون الكلف والجبليين على

طلب الاستقلال وينشطون القبائل الى حمل السلاح لان الحروب التي اضرمتها اعداء الدولة لم تكن الا من دسائسهم ومكايدهم فهم الذين اذكوا نارها لكن ذلك ما لبث ان ذاع وكشف بالامس عنه القناع

ـ اين خبرت لي هذا الخبر الغريب

ـ من بلاط الدوق فقد كان القلق والاضطراب فيه عظيماً وكانت الخدم والجنود وكبار الدولة كلهم يلهجون بخبر ظهور الامير ولقد حملت الاوامر الى انحاء الدولة تبيح اخذه لكل من وجده وكأنك لم تسمع بالجائزة التي اعدها الدوق لمن يحمل اليه هذا الامير حياً

ـ وما هي تلك الجائزة

ـ عشرون الف فلوريني ذهباً يسيل لها لعاب الناسك فليت ربي يقسم لي فيها نصيباً .

ـ شر ما رام امرء ما لم ينل فما هذه الجائزة الا بعيد عنك متناولها اذ كيف يتفق لك القبض على امير جعل دأبه وديدنه كما تقول مناواة الدولة لينكر لها عرشها فانك لترومن من ذلك مراماً بعيداً

وبينما هما في هذا الحديث يخوضان حانت من الاول التفاتة فابصر ثلاثة من القرويين مقبلين نحوهما ليدخلوا المدينة فصاح برفيقه قائلاً

ـ انظر الى هؤلاء القرويين القادمين فانهم عن قرب سيمرون بنا وفي خاطري ان اتصدى لهم لعلي اجد الامير بينهم فاحمله الى الدوق واغنم واياك الجائزة

اجابه رفيقه ـ يا لك من سخيف العقل احمق أتعلل ان ترى الامير

في نفر من القرويين فان كان هذا شانك فابشر بنيل الجائزة في الليلة التي تتراكم عليك فيها الاحلام

— وما ادراك انه لا يدخل ميلان متنكراً

— ان الامير لم يفقد عقله ليأتي ميلان متنكراً بلباس القرويين ان كان لم يؤمها فيما درج من الايام وسوف لا تراه الا مقبلاً في من انضوى اليه من ضواري الفتنة وسباع الغاره ولا يزحف على المدينة الا في طليعة جيش لا تجسر ميلان على التصدي له فتغلق دونه ابوابها

وفي تلك الفترة بلغ القرويون الى الباب وصاروا على مرأى ومسمع من الحارسين اللذين مدا نحوهم الابصار وهم الاول ان يشير اليهم بالوقوف وقد تقدم بعض خطى فسمع رفيقه يقول له مستهزئاً به تقدم ياالحاك الله واسال ايا منهم هو الامير لعلهم يتوهمون بك جنوناً فيصفعوك فتنال شطراً من الجائزة

فوقف خجلاً من رفيقه الذي كان يضحك منه وظل يحدق بالقرويين حتى تواروا عن بصره وافلتوا من الخطر وهم لا يشعرون اي مورد مهلك كانوا عليه مشرفين اذ لم يكونوا بالحقيقة سوى الامير كاميل وصديقيه روبر ومرتينو الذين جاأوا يتنسمون اخبار فرجيني وبلانكا

وهكذا دخلوا المدينة وجعلوا يطوفون بشوارعها واسواقها ويعيرون كل حديث تنطق به الناس اذناً واعية ويقصدون الاماكن التي غصت بها الاقدام ولج فيها الازدحام ويقفون امام حوانيت الباعة ينظرون باستغراب الى التحف التي تبدو لاعينهم ليوهموا الناس انهم من اولئك القرويين

السذج الذين يندهشون لاقل تحفة يرونها في الاسواق

وكان يمر بهم بعض من اهل مودتهم مستقلين في مركباتهم فلا يجسرون على التعرض لهم بل كان مرأى ربعهم وكناسهم واهلهم وناسهم يذكرهم بماضي عيشهم ونعيمهم ويؤجج في افئدتهم من الاحزان سعيراً

ونحو الظهيرة قصدوا دسكرة باقل على مقربة من ساحة (ماركنتي) فدخلوا عليه وامروه ان يصلح لهم طعاماً ثم جلسوا الى مائدة في فناء الدسكرة يتفاوضون في الراي بينهم ويفكرون في وجه الحيلة في الوقوف على اخبار فرجيني وبلانكا حتى اقبل صاحب الدسكرة محتملاً الطعام فوضعه بين ايديهم وهو ينعته بالالقاب الحسنى فاغتنم الامير فرصة خلو المكان من الناس ليسأله عن امر الدوق جان ماريا ويجعل ذلك وصلةً الى ما يروم معرفته من الاخبار

فقال له اني اراك ايها البقال من اهل النجدة ولقد سررت من احتفائك بنا اذ لم تقصر في الالطاف والايناس خلاف ما لقيت في شوارع هذه المدينة فاني بعد ما غادرتها زمناً عدت اليها اليوم مع صاحبي فلم القَ الا قوماً يسخرون بنا ويمتهوننا عفواً خلاف دأبهم من قبل ذلك فهل ليس الدوق جان ماريا حاكم البلاد فكيف يذهل عن هذه النقائص التي تسربل شعبه العار

فاضطربت سحنة البقال عند سماعه هذا الكلام واتسع ناظراهُ وظل واقفاً ينظر بالامير لا يبدي خطاباً فقال الامير . ما بالك صامتاً . الا تجيبني اذا سالتك عن الدوق

ــ لا

ــ قد سمعت انه ركب في الناس العسف والجور وسامهم الخسف والرق

وقتل امه بعد ما مثل بشقيقته الدوقة فرجيني تمثيلاً فهل حقيق ما ٠٠٠٠٠

صاح البقال وقد امتلأ حنقاً مه صه ايها القروي واياك ثم اياك ان تزيد على كلامك حرفاً واحداً او تنطق باسم الدوق وقل اعوذ بالله من شر الكلام وفلتات اللسان واحمده على انه لم يسمعك احد غيري والا لسعى بك الى الدوق ونكل بك تنكيلاً فظيعاً ٠

ـ لا يكبرن الامر عليك فما من احد يسمعنا ٠

ـ ان للحيطان اذاناً فالزم نفسك الصمت لئلا تصبح فريسة اشبال الدوق فانه قاس ظلوم يعاقب على الذنب الصغير فكيف مثل هذا الذنب العظيم

ـ اني اريد ان اسألك عن البارون بريفارا ٠

ـ لا تسألني شيئاً فاني غير مجيب سؤالك وان ابيت الا الكلام فاخرج من عندي فان نفسي عزيزة عليّ

ـ خذ ان شئت ثمن الكلام ثلاثة اضعاف الطعام وقل لي هل دونا بلانكا ابنة هذا البارون باقية في قيد الحيوة وهل هي في ميلان فان رفيقي هذا (مشيراً الى روبر) كان في سالف الايام من بعض خدامها

ـ قال صاحب الدسكرة تباً لهذا القروي ما اوقحه فانه يكلمني بما يعلم انه تفقد به حياتي وحياته ثم قال للامير كل يا سيدي واملا جوفك من هذا الطعام الشهي ودع ما سوى ذلك وانظر لنفسك مناها فها الناس قد اقبلت ارسالاً وافواجاً

ثم ارتكض لاستقبال القادمين فلم يخف عن الامير وصديقيه ان جزعه وتمنعه عن الجواب لم يكن الا من ضغط الدوق على الزعية وتناهيه في الظلم

وبعد برهة شحنت الدسكرة باصناف الناس فمنهم من كانوا جلوساً يا كلون وغيرهم يعاقرون الخمرة وقد تفرقوا في جوانب المكان افواجاً وافراداً وقد علت ضوضاؤهم وجلبتهم الا ان فريقاً منهم كان من فترة الى اخرى يتفرس في الاصحاب الثلاثة متعجباً من تأدب هولاء القرويين وطلبهم من صاحب المنزل انخر الوان الطعام وبينما هم يا كلون اذا برجل قد دنا منهم وبعدما امعن نظره في وجه الامير ابتعد وهو يقول بصوت عال

ـ ما اكثر الجواسيس اليوم في ميلان

فاعقب هذا الكلام صمت الحاضرين واستلفت انظارهم فظن الامير ورفيقاه لاول وهلة ان الرجل يسخر بهم لكنهم مذ رأوا الاعناق قد مدت اليهم والابصار قد احدقت بهم وسمعوا كلمة جواسيس تتردد في افواه الجمع تخوفوا من بلية تقع بهم وان يكون الرجل قد عرفهم وودوا الخروج فراراً بانفسهم الا انه لاح لهم ان انفصالهم عن المكان سريعاً ربما ادخل على القوم ريبة منهم والقى في خلدهم انهم عيون من اهل الشرارة المتنكرين ففضلوا البقاء برهة وجعلوا يتحدثون ضاحكين ليخفوا ما بهم من الجزع ويصرفوا عنهم الظنون حتى اذا عادت جلبة الناس اقبلوا على البقال واعطوه ثمن الطعام فوق ما يرجوه وخرجوا من عنده مولين سراعاً وهم لا يصدقون بالنجاة

ولبثوا سائرين يتلفتون الى الوراء خوفاً من لاحق او رقيب حتى اذا بلغوا دير القديس انبرواز على مقربة من الكاتدرال ظهر من ورائهم راهب قد طوى مراحل الشباب ومرت به قوافل العمر وعليه من المهابة والوقار سيماء واعلام فوق دعة زادت به فلما وقف في وسطهم حياهم بمبسم باش

وقال لهم بلطف وحنان

ـ اراني بكم غرباء في هذه المدينة فهل لكم ان تقبلوا دعوتي وتأتوا معي هذا الدير فاني افتخر بزيارتكم لي في منزلي

ـ اجاب كاميل وقد ابدعت به دعوة الراهب عذراً يا أبتِ فان بعض الشواغل تمنعنا عن اجابة دعوتك

ـ انك توارب بما في نفسك يا بني فكن سمح المقادة وادخل مع رفيقيك فاني ساكلمكم بما اعلم انه تطيب به انفسكم قال مرتينو ان اقل ابطاء يؤخرنا عن بلوغ قريتنا ايها الراهب

ـ ان الوقت صار اصيلاً فمهما تعجلتم في الرحيل فلا اخالكم تبلغون قريتكم قبل ان ينصب الليل شراعه فادخلوا معي على الرحب والسعة فان ديرنا ليترحب بضيوف مثلكم لا سيما ولي حاجة ابثها اليكم قال كاميل واي حاجة لك مع اناس غرباء مثلنا لم ترهم قبل اليوم فتبسم الراهب وقال هي نصيحة سامحضكم اياها والنصيحة لا يحتاج صاحبها الى معرفة المنصوح

فلم يرَ الامير بداً من الانقياد واجابة سوءل الراهب رجاء ان يقف منه على علم ما لا يعلم من اخبار فرجيني وبلانكا ولانه فكر ان الرجل الذي اشتبه بهم في الدسكرة ربما سعى في الوشاية بهم الى الشرطة فتاخذ عليهم مهاربهم ومسالكهم فيكون الدير لهم ملجأ ومخبا .

فادخلهم الراهب الى ذلك الدير وامر البواب ان لا يسمح لاحد بالدخول عليه واتى بهم غرفته ثم اشار اليهم بالجلوس فجلسوا وعمد الى الباب فاغلقه وتقدم نحوهم وقال اني اشكر الله الذي جمعني باعز الناس عندي ومتعني

براهم احياء بعدما بكيتهم امواتا وسخرني لانقذهم من خطر يتهدد سلامتهم فهلم الى احضاني يا كاميل يا ابن اكرم اصحابي اليَّ وتعال يا روبر ومرتينو لاضمكم الى صدري جميعاً

فلما وعوا كلام الراهب اخذتهم الحيرة وابلسوا عن الجواب ولبثوا حيارى ينظر بعضهم الى بعض

فانس الراهب جزعهم ودهشهم فاستتلى قائلاً بلطف ياخذ بمجامع القلوب

ـ لا يذهلنكم الحال ولا تكبرن عليكم معرفتي اياكم فلو تفرستم في وجهي لعرفتم من يخاطبكم

فهتفوا معاً وقد عرفوه آه فلامبو الراهب الكريم وارتمى كل منهم بين ذراعيه يعانقه حتى اذا سكن جاشهم قال لهم الراهب وادمعه سحٌّ وسكبٌ لشدة فرحه وغبطته براءهم

ـ لا غرو ان الله الذي احمده مثنى وثلاث ورباع قد اتاح لي الاجتماع بكم لاحقق نجاتكم فاني مذ وقع نظري عليكم عرفتكم رغماً عن تنكركم بهذه الاثواب وزادني بياناً ويقيناً ما استفاض امس في ميلان من الاخبار عن ظهوركم وان ما شاع عقيب حرب فلورانسا عن مقتلكم لم يكن الا لغرض منكم قصدتم فيه خيانة الدولة وتحميل الاعداء عليها فلما ابصرت بكم على قارعة الطريق ذهب قلبي شعاعاً من الخوف عليكم ان يهتدي اليكم احد من الناس لان العيون والارصاد والبرافي قد انبثت في كل وجه من المدينة والمملكة سعياً في طلبكم لان الدوق جان ماريا الظالم

قد اعد لمن يحملكم اليه احياء جائزة كبرى فاخبروني اولاً اين كنتم من الدنيا وما طرأ عليكم من الطواريء فيما خلا من الايام

فاخبروه عن كل ما جرى لهم من مبتداء الامر وما اصاب الامير من الضر والبلاء في مغائر الجن وعن فراره منها مع رودريك ثم حدثه كاميل كيف امضى في كاترين امر ابنها و كيف جاء قصر مونزا وانه لما لم يرَ الدوقة فرجيني ولم يدرِ اي مكان من الدنيا نزلت اقبل مع صديقيه يتنسم اخبارها واخبار بلانكا ابنة بريفارا

فهتف الراهب وقال لقد عرفت الحقيقة وانجلت لي غوامض الامور فان جان ماريا تمحل الحيلة عند ما درى بفراركم فاذاع هذا الخبر ليخفي مـا اقترفه من الظلم بكم و يحمل الشعب عليكم وسيعلم الظالمون اي منقلب ينقلبون اجاب الامير ان الله لم يشأ ان يدفعنا الى هذا الظالم ثانية حين بعثك الينا ونحن غرض العدو وعرضة الموت فانقذتنا منه فكان لك علينا فضل الحيوة فبم نكافئك وانى نقوم بحرمة هذه الصنيعة فجزاك الله خيراً انت مجبول ومطبوع عليه

فلما سمع الراهب كلام الامير ومردوده عليه اجاب وهو باكٍ حنواً ان ذا واجب على ذي المروءة فعله مع عدوه فكيف لا افعله انا مع من هم عديل نفسي وسوف لا اقتصر على هذا القدر فانما الله اهداني اليكم لافشي لكم سراً انتم اهله فتقفون على علم ما لا تعلمون فاكفيكم موءونة البحث وتنسم الاخبار ولكني غير قائل كلمة قبل ان تعدوني بانكم لا تتحولون عن هذا المكان ولا تبرحون فيه حتى يعتكر الظلام فتخرجون فراراً من ميلان تحت استاره شحاً بانفسكم وصيانة لها من شر هذا الباغي الذي اتخذه الشيطان مركباً.

هتف كاميل وروبر معاً وهل عندك من فرجيني وبلانكا بعض الخبر
قال الراهب اسمعوا فاحدثكم بما تطيب به انفسكم فعند جهينة الخبر اليقين

الفصل الثاني عشر

﴿ ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً ﴾

ثم ان الراهب شرع يسوق اليهم الحديث وهم مصغون اليه ومقبلون عليه فقال ان الطاعون لما فشا في انحاء ممالكنا الايطالية وعم بلاوءه البلاد دعتنا داعيات الوطنية الى خدمه المصابين واسعافهم · فانبسطنا اذ ذاك في البلاد وانبث الرهبان في كل صقع وناد منقطعين الى الاماكن التي ثقلت فيها وطأة الوباء فاتيت انا بافي والقرى التي تجاورها وجعلت دابي عيادة المرضى ومعالجتهم

وفيما انا ذات يوم في دير ترتوزا دعيت الى القرية المجاورة له لعيادة كاهن مبتلى بالداء فسعيت مسرعاً نحوه فالفيت علته قتالة لا ينجع فيها الدواء ولا يدفع خطرها اعتناء فقبل ان يلفظ نفسه اخبرني انه يريد ان يستودعني سراً يشق عليه نزوله معه الى القبر · فقال انه في اليوم الذي مات فيه الدوق جان غلياس ورد عليه كتاب من صديق له يدعى لويجي رودلي يطلب اليه ان يلم قبل انتصاف الليل بالكنيسة القديمة التي هي في ربض القرية ليحتفل بعقد قران امير على فتاة رفيعة المنزلة فلما اقبل في الوقت الذي علمه وجد القوم بانتظاره وعرف ان الفتاة هي الدقة فرجيني وقد جاءت مع لويجي رودلي وابنته و بعض الخدم تترقب قدوم الامير كاميل ويسكونتي عليها

لان المؤدب كان سبق فبعث اليه رسولاً واخبره عن موت عمه وسأله ان يعرج مع اصحابه والجند على تلك الكنيسة

ثم ان ذلك الكاهن قال لي انه ادخلهم الى المعبد وجلس واياهم يترقب اقبال كاميل نحوهم حتى اذا لاح الفجر ابصروا رجلاً قد دخل عليهم الكنيسة واخبرهم انه رسول ارسلته بلانكا ابنة بريفارا الى روبر لتحذره من مكايد العدو وتخبره عن الحبالة التي نصبت له ولاصحابه من ابيها وعن بعثته رسولاً كاذباً الى كاميل برسالة مزورة ليفصلهم عن فلورنسا ويجرهم الى كمين في الطريق

وقد حدثهم ذلك الرسول المدعو ريزو انه لما بلغ منتصف الطريق بصر برجل مرتث مضرج بالدماء فدنا منه وجعل يعالجه ليرقأ دمه وكان الوقت صباحاً ابان بكور القرويين الى حقولهم فمر به نفر منهم فلما بصروا به يعالج الجريح توهموا انه قاتل له فاطبقوا عليه واوثقوه وحملوه لوقتهم مع الجريح الى قريتهم فلبث كل النهار وشوطاً من الليل مقيداً يستعد للمشنقة الا ان الجريح استفاق قبل احتضاره وانكر على القرويين فعلتهم بقبضهم على من ليس بقاتل له وقد عرف الرسول ريزو وقبل ان فاضت نفسه استودعه سره واعلمه انه رسول لويجي وقد صادف الرسول الكاذب الذي بعثه بريفارا وكان لصاً رواغاً محتالاً فما زال به حتى استخرج سره من سرته وغدر به على الطريق واخيراً طلب من رسول بلانكا ان يحمل نفسه بذلك البلاغ الى باقي الا ان ريزو قصد نحو فلورانسا فمر بالمكان الذي جرت فيه تلك المكائد وتحقق هلاك الامير ومن معه فكاد ان يقضي على فرجيني من شدة حزنها وجزعها فوقعت مغشياً عليها

ـ صاح كاميل عند سماعه كلام الراهب فلامبو فرجيني فرجيني حبيبتي كل ذلك جرى عليها وانا غفل عن سمات الامور

هتف روبر بلانكا بلانكا وما عساه حل بحبيبتي بلانكا عندما اتاها خبر هلاكي

قال الراهب دعوني استكمل قصة الكاهن فقد اخبرني انه لما لم يجد سبيلاً لان يعيد الى الدوقة فرجيني صوابها احتملها مع الخدم الى منزله وهي متنكرة باثواب الرجال وصرفت عنده سبعة ايام اصابها فيها صراع شديد خيف منه على حياتها والجأه الحال ان البس المؤدب ثوب راهب وفرجيني وابنته اثواب شماس ليغمي امرهم عن الجواسيس التي طرقت تلك البطون والمحال تجد في اثرهم مفتشة عنهم البيوت والمعابد واخيراً قر رأي المؤدب ان يتدر المفر بالدوقة الى فرنسا لينزل بها على الدوقة اوجيني شقيقتها التي كانت قد اتخذت شقيق ملك فرانسا لها عرساً وهكذا رحلوا في الليل الثامن قاصدين جنوا وقد صحبهم الكاهن اليها مشيعاً ومودعاً ومنها ركبوا متن البحار وانقطعت اخبارهم عنه

ثم استأنف الراهب فلامبو الكلام قائلاً وما كاد ينتهي ذلك الكاهن من حديثه لي الا وفاضت روحه وانطفأ كالسراج

واما انا فما برحت اواسي المرضى حتى تطهرت البلاد فقفلت الى ديري وانا كاتم هذا السر فلما رايتك يا ولدي كاميل في المدينة عرفت ما اقدمكما مع صديقيك فتلطفت بدعوتكم خوفاً عليكم من اغتيال جان ماريا الكفور الغادر لاقص عليكم هذه القصة التي لا يعرفها احد سواي فاكفيكم مؤونة

التفتيش وتنسم الاخبار

واما بلانكا فانها فرت من بيت ابيها عقيب اليوم الذي شاع فيه خبر خروج الكمين عليكم مع خادم امين عناها ولا اخاله الا الرسول الذي بعثته اليك ايها الكولونل ولقد عرفت ذلك من التفتيش الصارم عنها لان البارون لم يدع ديراً للعابدات او نزلاً او قرية في لمبارديا الا وانفذ اليه عيونه ظناً منه ان ابنته قد لجأت الى احد هذه المحال ولما اعياه الامر جعل لويس دلبانو خطيبها والرجال القائمين بامره يجوبون البلدان شرقاً وغرباً في طلبها فعادوا مخفقين ولم يفلحوا سعياً ولا تزال عيونه وجواسيسه مبثوثةً بكل مكان وقد سار دلبانو هذه الكرة بنفسه الى اسبانيا وهو لم يرجع بعد

وكان الامير والكولونل والقبطان آذنين لحديث الراهب حتى اذا استفرغوا ما عنده الى اخره جعلوا يشكرون اليه ما اولاهم من الجميل والصنيعة وما ازدرعه من المعروف فقال لهم الراهب

— لم يبق لكم في هذا الديار مقام يا اولادي فشر البلاد بلاد لا امن فيها فارحلوا الى فرانسا حيث فيها تجتمعون بالدوقة فرجيني وتشرعون بعدئذٍ في البحث عن بلانكا عسى الله ان يوفقكم الى لقائها

وعندما ولى النهار ودعوا الراهب بعد ان كتبوا الى صديقهم رودريك في بللنزونا يخبرونه عن اسباب شخوصهم الى فرانسا واوصوا اليه ان يحتفظ بنفسه وان ينتظر عودتهم وطلبوا الى فلامبو ان يبعث اليه بذلك الكتاب وانسلوا عندما انتشر الظلام يطلبون ابواب المدينة ·

وكان من عادة الدوق جان ماريا حاكم البلاد ان يركب في نحو الساعة الثانية من كل ليل قياماً الى قصر محظيته البارونة لاب التي كانت قد بلغت من المنزلة غاية ليس وراءها زيادة لمستزيد اذ بعدما استتب له الملك قربها واكرمها واتمنها على اسراره وشاورها في امره ولم تزده الايام الا عجباً بها ورغبة فيها وتقرباً منها فاصبحت صاحبة الامر المطاع والتصرف في الدولة واليها يرجع حل الامور وعقدها ونقضها وابرامها حتى كأن الدوق لم يؤت السلطة الا ليجيي الظلم ويذيق الناس من انواع الذل واصناف الجور ما لا طاقة لهم به وكان قد افحش في الظلم لحد انه كان يامر حجابه ان يطرحوا كل من اقترف هفوة لاشباله المفترسة التي اعدها لتمزيق البشر بانيابها . فلم يكن يعنو صاغراً الا لمحظيته لاب التي جعل زيارتها في كل يوم فرضاً عليه محتوماً فكانت مركبته تمر في شارع سكاليني حتى تنتهي الى الزقاق الصغير الذي ينفصل فرعاً من ذلك الشارع فتقف فينحدر منها ويمشي سعياً على القدم مع حاجبه حتى قصر محظيته

فاتفق ان منزلاً شبت فيه النار في تلك الليلة على جانب الطريق وزاد اضطرامها وسعيرها فاقبل الجيران واهل تلك المحال القريبة عند رؤيتهم اندلاع لسان اللهيب يخمدونها ويطفئونها مخافة ان تمتد الى مدى شاسع فلم تمض برهة حتى غص الشارع كله بالناس واشتد فيه الزحام فكانت المارة تلجأ الى الوقوف من كلا الجانبين حتى امسى المرور في تلك الطريق صعباً مستحيلاً على الراجل والراكب

وفي تلك الفترة اقبلت مركبة الدوق مارة بذلك الشارع فلما بلغت

مكان الازدحام كفت عن الجري لان السائق لم يستطع التقدم او التاخر فانتهره الدوق وصاح به ان يجلد الخيل حتى تدوس الناس فتمر المركبة على اجسادهم فانزل السائق الجوادين بالسوط ضرباً اليماً فلم يزدادا لرؤية النار وشدة الزحام وجلبة الناس الا شموصاً وقموصاً فصار جان ماريا يحتدم غيظاً و يملا المركبة شتماً وسباباً

وكان بين اولئك الجموع المزدحمة ثلاثة من القرويين وقوفاً على بعد خطى من المركبة فنظروا الى الدوق فعرفوه فاسرع احدهم ومزق كم قميصه الابيض وخط عليه بعض كلمات على ضوء النور ثم تقدم مع رفيقيه نحو المركبة فاخذ اثنان بعناني الجوادين وجعل الثالث يجلب ويصيح باعلى صوته ـ الدوق الدوق اوسعوا طريقاً لمرور الدوق فذعرت الناس عندما طرق اذانهم هذا النداء وصاروا يندفعون الى الامام و يتراجعون الى الوراء فيصدم بعضهم بعضاً و يرتطمون صدراً الى عجز وظهراً الى بطن حتى وسعوا فيما بينهم . فجرت المركبة بقودها القرويون الثلاثة حتى اذا وقفت امام طريق القصر انحدر الدوق منها فبصر باولئك القرويين وقوفاً امام باب المركبة فتهيب من منظرهم ووقع في نفسه خوف منهم فاراد ان يوتي عنهم واذا باحدهم تقدم نحوه ودفع اليه طرساً ملفوفاً فمد الدوق يده منقاداً على غير رضي وقد اسكنته هيبة ساورته وحيرة ادركته فلبث الطرس في يده محمولاً حتى ولج قصر محظيته فاسرع الى القاعة ليرى ما خط فيه الا انه ما كاد يتصفحه حتى صاح صيحة عظيمة وهوى مرتمياً على المقعد يضطرب ظهراً لبطن فترا كضت نحوه لاب مرتاعة وقد ابدع فيها امره وضمته الى

صدرها وجعلت تساله ما الذي به

ـ اه يا لاب انهم متنكرون بلباس القرويين ومن لحظة كانوا بالقرب مني

ـ من تعني يا مولاي

ـ لو شاؤا لفتكوا بي لكنهم لم يفعلوا بل دفعوا اليَّ هذا الطرس

ـ من هم الذين تعني قل لي فقد قطعت قلبي

ـ قد نظرتهم قد نظرتهم يا لاب وقد غيرت الايام رسم صورتهم فلم اعرفهم

واذ لم يبق للبارونة جلد حتى تقبل عليه بالسوال تكرارا اختطفت من يده الطرس وقرأت على كم القميص هذه العبارات

« ان اخطأك عاجل العقوبة لم يخطئك الاجل اليوم انذار وغداً خنجر نجعل غمده صدرك فقد ازف الزمان الذي فيه تجزى بما قدمت يداك ايها الغادر الخائن »

ثم ابصرت الرسالة التي كان جان ماريا قد بعث بها الى فرجيني واوعز اليها ان تدس السم للامير ابن عمها في مونزا قبل تحمله الى فلورانسا تلك الرسالة التي دفعتها فرجيني الى كاميل على ما مر به الالماع في محله فصاحت وقد لفت ذراعيها على عنقه لتوهمه انها شديدة الخوف عليه

ـ ويلاه هذا كاميل هذا عدوك فاين لقيته ايها الدوق. يا ربي هو في ميلان والجواسيس والعيون تجوب المدن والقرى مفتشة عنه فاخبرني بحقك اين صادفته قالت ذلك وهي تخفي فرحها بتكلف الجزع اذ كان

لفرحها سبب لا بد للقاري من الوقوف عليه ليدرك اهواء النساء اللواتي هن على شاكلة هذه البارونة فانه عندما ورد عليها خبر فرار الامير كاميل من مغائر الجن وقع ذلك عندها اشهى موقع وسول لها الغرور ان تتقدم في طلب لعذر منه وتزدلف اليه بعرش ميلان وتفتك لاجله بالدوق عاشقها الذي كانت تبغضه وتستخلفه على الملك من بعده وفكرت ان الامر معرض سهل المرام وان كاميل لا يبطيء ان يجيب داعي غرامها و يهيم في حبها كشغفها به بعد فقدان فرجيني لكنها رأت انه يستحيل عليها لقاء الامير كاميل والوصول اليه لتعرب له عما في نفسها وتخبره عن رأيها وما تريد ان تعزم عليه فسعت الى الدوق واغرته ان يفرض جائزة كبرى لمن يحمل اليه كاميل حياً وان يبعث العيون في طلبه املاً انه متى جيء بكاميل الي ميلان اخيذاً تطلعه على ما بدا لها فان طاوعها ووافقها الى رأيها فعلت ما وطنت النفس عليه وان خالفها وبقي شامخاً ممتنعاً من اجابتها تخذله وتنكل به تنكيلاً فظيعاً

فعندما عرفت ان كاميل جاء ميلان وهو فيها تلك الليلة سرها ذلك الا انها كتمت ما في نفسها والحت علي الدوق ان يخبرها كيف اتفق له ان يراه ويتقبل من يده تلك الرسالة

فاخبرها جان ماريا بما عرض له من وقوف المركبة الى حين دفعت اليه تلك الرسالة من كاميل وهو مع رفيقيه متنكرين بلباس القرويين فلما وعت حديثه وثقت بنيل المرام فاشارت اليه ان ينقلب راجعاً و يامر باقفال ابواب المدينة ويبث السرايا لتلقي القبض علي كاميل ولم تو له

فترة حتى خرج من عندها

وهكذا لم تمض برهة الا وحجاب الدولة والشرطة والعيون قد انبثوا في كل وجه من المدينة فلم يدعوا دسكرة او فندقاً او نزلاً او ديراً الا وطرقوه باحثين مفتشين عنه حتى قلقت في تلك الليلة ميلان وسكانها ٠ واما اصحابنا الثلاثة فانهم بعد ما دفعوا الى الدوق تلك الرسالة عرفوا حق العرفان ان الدوق لا يمكث ان يقتص اثرهم ويطرق كل المحال في طلبهم فمضوا عاجلاً حتى خرجوا من المدينة مركنين الى الفرار

وبعد ثلاثة ايام كان يرى قبيل المغيب في ميناء مدينة جنوا قارباً حذاء الشاطي والنوتية فيه قعود وثلاثة رجال بلباس امراء الفرنسيس تمشون على الساحل ذهاباً واياباً وهم في كل برهة يلتفتون الى جهة المدينة وعلائم الاستنظار والضجر بادية على وجوهم وما لبثوا ان رأوا رجلاً قادماً فلما تفرسوه تبدلت ملامحهم ومدوا نحوه ايديهم استبشاراً

وكان القادم ربان سفينة جنوية مشحونة ارزاً وهي على اهبة السفر الى مرسليا والرجال الذين كانوا له في الانتظار هم اصحابنا الامير والكولونل والقبطان الذين قدموا جنوا صباحاً وعرفوا بسفر هذه السفينة الى الموانى الافرنسية فاتفقوا مع الربان ان يصحبهم معه قياماً الى مرسليا كما كانوا اطبقوا على ذلك واتفقوا فلما انضم اليهم الربان انحدروا جميعاً الى القارب وراحوا يطلبون السفينة التي كانت في الخليج وقد نشرت شراعها لتمر فيه قبل الغروب وهكذا لم تقفل الشمس الا وهم في عرض البحار والسفينة تجري بهم

الفصل الثالث عشر

واذا الشقي اراد امراً ممكناً　　قعدت به الايام عما يرغبُ

ونحو الساعة الثالثة من الليل كانت تلك السفينة جارية على حكم الهواء تشق عباب الماء كانها طير يمس الغمر بجناحيه ودام ذلك امرها حتى اذا قارب ان يضحك الصبح هبت من الشمال ريح عاصفة تعرج معها سيرها واختلط فاصبحت كل ذلك النهار تتقلب في عرض البحار مندفعة تارة جنوباً وتارة غرباً الى ان اصفرت غلالة الشمس وصارت كالدينار يلمع في قرار الماء

وبينما الامير كاميل وروبر ومرتينو جلوس في ناحية من المركب يمنون انفسهم بالاماني ويتشاورون فيما يريدون ان يعزموا عليه عندما يبلغون الموانى الافرنسية اذا يسمعون صراخاً في السفينة وصوتاً يقول الزوبعة الخطر الخطر

فتسارعوا الى سطح السفينة ليروا ما الخبر فابصروا وجه البحر قد امتلأ ضباباً واحتجبت السماء في سرداق الغيم الكثيف ونبض عرق البرق واغرورقت مقلة السماء واقتم الجو وادلهم حتى حجب البنان عن العيان ولم يمض على ذلك الا بقدر خطفة البرق حتى هاج البحر وماج واكفهر وازبد وانشأت الامواج تتلاطم متصارعة اشبه بجبال متحركة يصادم بعضها بعضاً والعاصفة سائرة كخيول مطلقة العنان علي سطح الغمر والبرق يتألق في الافق كحيات نارية والصواعق تنقض في كل لحظة منذرة بالويل والهلاك فلبثوا وقوفاً حيارى على ظهر المركب مستمسكين باحدى سارياته اذ لم يستطع احد منهم وقوفاً لميد السفينة التي كانت تميل يميناً وشمالاً كجارية سكرى رنحها الغرام

وتغترف الماء من الجانبين ثم تهاجمها الامواج فتلطمها فتتعالى فوقها حتى تكاد تخطف من كان على ظهرها وتنقلب به الى البحر

وقبل ان تناصف الليل ازداد عصف الرياح واشتدت ثورة الزوبعة حتى خيل ان صدمات الانواء ستهدم دعائم الكون وصارت الامواج تحمل السفينة تارة على متونها الى الجو وطوراً تهبط بها الى قاع البحر فيكاد العمق ان يبتلعها

فلم يعد يسمع في تلك الفترة في الظلام سوى صراخ اليأس والقنوط ونداء الابتهال والاستصراخ والضراعة وصوت البكاء والاعوال وصياح الربان الذي كان يصيح بالبحارة ان تلقي في البحر شحن السفينة

فبينما الكل في نفسه لاهٍ ومن خوف الموت ساهٍ اذ سمع صوت هائل اعقبته صدمة عنيفة خيل معها ان السفينة قد تحطمت ارباً فمد الجميع ابصارهم فاذا سارية المؤخر قد انكسرت واقتلعت من السفينة لصدم الامواج لها وارتطامها فيها فهوت الى البحر

فضج كاميل وهو غائب عن الهدى وقال واسوتاه يا صديقي فهذه مهالك تظاهرت علينا ونحن احاطت بنا حتى بتنا نرى معها السجن في مغائر الجن طيباً فانها خير من هذا البحر الذي لا يدرك غوره وما ارانا نجاوز عقبة من البلاء الا صرنا في اشد منها ولقد صدق الذي قال لا يزال الانسان مستمراً في اقباله ما لم يعثر فاذا عثر لج به العثار وان مشى في جدد الارض

فهتف روبر اسمعوا اسمعوا

واذا بهاتف يقول الدفة قد تحطمت الغرق الغرق

فلحق كلاً من الامير واصحابه الهول والدهش وصاروا وقوفاً لا حراك بهم يسمعون اعوال الركاب وبكاءهم ويحدقون في اللجة فيرون على وميض البرق اجداثهم فيها

وبينما هم في جزعهم اذ مر بهم الربان فصاح بهم بصوت قطعه اليأس والجهد — ان وقوفكم ههنا لا يغني عنكم شيئاً فالتمسوا المخرج مما وقعتم فيه وليصب كل منكم جذعاً من اخشاب السفينة عله يساعدكم على النجاة من الغرق متى اصبحتم تتقلبون على صفحات الماء لان السفينة لا تلبث بعد برهة ان تجعل لها في الغور قراراً فقد انصرم حبل الرجاء ودنا الخطر

وكانت الرياح في تلك اللحظة قد مزقت الشراع الباقي في السفينة فاحتملته وتوارت به في ظلمات الافق كطير ابيض افلت وطار محتجبا عن الانظار وما كان الا بقدر ارتداد الطرف حتى احتملت الامواج السفينة الى الفضاء على متونها وجلدت بها فجاءة صخراً ضخماً فتحطمت حطماً وتكسرت ارباً وتبددت اوصالها شذرَ مذرَ وبات ركبها وما فيها على وجه المياه المزبدة في ذلك الليل الشديد السواد ولم تُسمع في تلك اللحظة الا صراخ هائل اختلط مع هزيم الرعود وعجاج الامواج وعويل اشبه بالزئير

ثم اومض البرق على ذلك المشهد الكئيب فظهرت اجساد ركب السفينة منتشرة على سطح الماء المضطرب المزبد بوجوه مكفهرة صفراء تلقى الموت عابسة واللجة تبتلعهم رويداً رويداً وبان الامير كاميل ملتزماً برميلاً طافياً وروبر ومرتينو قابضين على قارب افلت من السفينة وريثما مضى البرق اختفى كل شيء ولم يعد في ذلك الظلام الحالك مسموعاً

سوى تلاطم الامواج وزعازع الرياح كأنها على من ابتلعه البحر من الغرقى تضج جزعاً وتبدي عويلاً

الفصل الرابع عشر

وانك ان امنت نفساً فلا تكن　　كمن يوءاخي الجرذ حيناً فيغدره

قد صار بيني وبينك ايها القاري مذ تقدمت بهذه الرواية اليك تواصل وصداقة يحملانك على مصاحبتي في حلي وترحالي فهلم نترحل على قلوص الفكر ونشخص في جناح التصور الى مدينة (مالقه) التي هي اكبر مواني الاندلس (في اسبانيا) فترى في اليوم الثاني من غرق ابطال الرواية وانت على الساحل سفينة قد لاحت في منتهى الافق عند مغيب الشفق ناشرة شراعها كجارية مبرقعة بمئزرها وهي تصادم الامواج وتسير سيراً سريعاً وتشق بمقدمها المياه المزبدة وتصارعها لتمهد لها في جوفها سبيلاً وبعد هجعة من الليل دخلت مينا مالقه الكثيرة الرمال وريثما رست القت في الماء قارباً غاية في الاتقان وزخارف النقوش مشحوناً بالنوتية

ثم ظهر على السفينة شاب في يانع الصبوة اسمر اللون خفيف الحركات تلوح على اعطافه الشجاعة والفراسة عليه لباس نبلاء الاندلس ومن ورائه رجل غريب اصفر الوجه مهزول ضامر بدت في وجهه آثار الكآبة والحزن الشديد الا انها لم تخف ملامح الكياسة ولوائح العزة والشرف المرسومة على جبينه وفي تواليه حاجبان من اهل الاندلس فانحدروا جميعاً الى القارب فجرى بهم مسرعاً وبينما هم يتقدمون الى

الساحل كان الرجل الغريب في كل فترة يتنفس الصعداء وينظر الى السماء بطرف ذليل ثم يلقي رأسه الى صدره فتتوزعه الافكار والتأملات وكان الشاب الاندلسي لحركاته معايناً ولحزنه ووجده ناظراً وهو يضحك منه في كمه ولا يتكلم حتى بلغ القارب مكاناً من الساحل لا تقع عليه العيون فصعدوا منه الى البر وسواد الليل يحجبهم عن الابصار ثم ساروا والغريب معهم يمشي على غير هدى كشارب الخمر وهو كيفما التفت لا يرى الا بيوتاً وقصوراً خرساء صماء واهلها في سبات الرقاد حتى اذا انتهى الى قصر باسق الارتفاع ضخم المباني بناؤه اقرب الى الحصون والمعاقل منه الى بناء المنازل والبيوت تقدم الشاب الاندلسي وقرع بابه الكبير فانفتح عاجلاً وظهر منه عبد اسود حارس له فلما راى سيده او الرجل الغريب معه وقف صامتاً متهيباً

وقبل ان يرتقي الرجل الاندلسي الى الطبقة العليا من القصر همس في اذن احد الحاجبين اللذين معه كلاماً ثم اخذ للوقت بيد الغريب وسار به في عقدٍ بعيد الغور افضى بهما الى حجرة كبيرة في اسفل القصر تشرف على حديقة محاطة بسور باسق الارتفاع لا يصل الى ابعد من نوافذ الطبقة العليا التي تطل على الحديقة

فاسرع الحاجب واضاء الغرفة وادخل الغريب اليها وقال له ان مولاي زرّارا لا يلبث ان يقدم عليك ثم خرج من عنده واقفل الباب

فبات الرجل الغريب في الغرفة وحده ينظر تارة الى البسط التي فرشت ارض الحجرة وطوراً الى الموائد والاسرّة وآونة الى الآنية الخزفية والكؤوس الزجاجية البديعة الصنع وحيناً الى اطباق النحاس وما عليها من غريب النقش

وجميل التماثيل والصور وهو كالمسحور يتوهم ان ما يمر به ويراه ليس الاضرباً من السحر المألوف في الحكايات و بينما هو كثير الوساوس والفكر دخل عليه صاحب القصر الذي قدم معه منذ برهة فوقف به وقال له بعزة

ــ لقد ادهشك مني ما رأيتني افعله معك حتى الساعة فقد حان الوقت الذي لا اطوي فيه دونك سري فاعلم انك قد اصبحت اخيذاً اسيراً

ــ فاجاب الرجل وقد ابدع فيه الحديث ما كان لك ان تغدر بي ولم آتِ اليك ذنباً وما سلف مني اليك سوءٌ يوجب هذا فما الذي بدا لك مني حتى جعلت مقامي عندك مقام الاسير .

انت قد اغتررت بكلامي وانخدعت له وضيعت الحزم ولم تعلم ان ذلك مني حيلة تمحلتها عليك لاجرّ بذلك نفعاً الى نفسي فانت قد اصبحت في قبضة يدي ولست بمطلق اسرك قبل نيل الفداء

ــ واية فدية تطلبها مني

ــ عشرون بدرة من الذهب تبعث الى قومك بطلبها ومتى حملوها اليَّ اطلق عقالك .

فلما سمع الغريب ذلك امتقع وجههُ وقال مغضباً ــ لم يجرِ في ظني انك بعيد من الوفاء والمروءة وما كنت حقيقاً ان تجتريء عليَّ بهذه المقالة وتستقبلني بهذا الخطاب بعد ما امنتني وجعلت لي من ذمتك عهداً يبلغك انه لم يتصدق متصدق بصدقةٍ كان اولم فيها اعظم اجراً ممن امن نفساً خائفة فقد انتشلتني من قلب البحار وامنتني واتيت بي احساناً فلا تبعه بثمن ولا تكن بي غادراً

ـ انني من الذين لا يحبون احداً ولا يكرم عليّ الا اذا طمعت فيما عنده من غناء واحتجت الى ما عنده من نفع فانا لم اقبل بك الى قصري الا وقد عرفت انك رجل راسخ النسب متناسل في الشرف يقلُّ الفداء مهما كثر في جنب حريته ونجاته فطمعت فيه ولو كان لي قبلك وترٌ مطلوب لما رضيت الا الارواح فداء

ـ وان لم يكن عندي المال الذي انت طالبه

ـ اجعلك لي عبداً رقاً تخدم في سفينتي او ابيعك الى رجل من قومي

ـ اتطيب نفسك لذلك

ـ كيف لا تطيب نفسي لذلك وفيه لي كسب جم

فبلغ ذلك من الغريب واحزنه فاجاب وهو خاثر النفس كثير الهم والحزن اني لست ممن يضنون بالمال ايها الاندلسي ولكني رحلت عن وطني فراراً من وجه اعدائي الذين تغلبوا عليّ وائتمروا بهلاكي وسلبوني مالي وتالدي وطريفي حتى غدوت لا املك شروى نقير وصديقاي اللذان بهما اعتضد وعليهما اعتمد قد غرقا معي في السفينة فانى لي ما انت طالبه

ـ هذا امر لا اغتر به ولن يبلغ خلاصاً لنفسك مني ونجاة

ـ ان اسر من انقذته من الموت وامنته ايها السيد لسنة قبيحة يلزمك منها العار فلا اخالك تأتيها وانت اندلسي

ـ ان اهل شعبتك الاسبان هم الذين الجأونا بظلمهم وعدائهم الى اتباع هذه السنن وحملونا على الاقتداء بهم واني لست بفاعل امراً لم يسبقوني اليه لانهم ما عثروا باندلسي الا واخذوه اسيراً وباعوه كاحقر العبيد ولقد لقينا

من ظلم حكامهم وقسوة رجالهم بعد اذ ضعفت دولتنا واختلَّ امرها ما لم يلقه احد قبلنا فان والدي قد مات في الاسر عندهم ولم يقبلوا منه فدية فهل انت راجٍ بعد هذا ان اعتقك عفواً

ــ عبثاً تطمع في نيل الفدية فانا لا مال معي ولا ناصر لي ولا ظهير فاقتلني فقد طاب لي الموت وحلا

ــ اني موءمنك على نفسك ومعاملك بالرفق وجاعلٌ بيني وبينك اجلاً لا يتعدى الشهر تتفرغ في خلاله لشأنك ولقد جعلت هذه الحجرة لك مسكناً وهذه الحديقة التي امامها منتزهاً يسري عنك همك وامرت ان تكرم كما تستحق رفيع منزلتك لانك ابن قوم كرام فاحتلْ لامرك وابعث الى اهلك من شئت من عبيدي في طلب الفدية لاني بعد انقضاء هذا الاجل لا اقبل فيك شفاعة ولا تضرعاً ولا اصبر عليك فاجعلك بحاراً تخدم في سفينتي وانا اقرأ الان عليك السلام لاني راحلٌ عنك بالغداة الى غرناطة لارفع الى مليكنا الكتب التي حملتها اليه من سلطان المغرب قال هذا وخرج من عنده تاركاً اسيرهُ في اشد ضيقٍ وعذاب

ولم يكن هذا الاخيذ الا الامير كاميل واما صاحب السفينة والقصر فكان رجلاً اندلسياً من اهل الشرارة والمكر والغدر يدعى زرّارا قد جعل دأبه المغازي وشن الغارة براً وبحراً وامكن له ذلك ما كان يصيبه من مال ابيه الذي كان من اهل السعة ولقد كان هذا الشاب من صغر سنه منغمساً في المعاصي لا يحجزه تقى ولا يرده نهى فوقع لهُ في اول امره ان ابتاع مع صحب له سفينةً وجعلوا يجرون فيها من مصر الى مصرٍ ويطرقون

منازل الاسبان فيستبيحون ذمارهم ومالهم ويسبون مخدراتهم وابكارهم

فحدث في احدى الوقائع التي اصلت فيها سيف الفتنة بين الاندلسيين والاسبان ان اسر والد زرّارا فلبث في اسر بعض الامراء يقاسي الذل ويسام الخسف والجور حتى مات فساء ذلك ولده واكبره واوغر صدره ضغناً وحقداً على الاسبان وحلف لينتقمنَّ منهم

ثم انه ابتاع سفينة اكبر من الاولى وضم اليها الشداد من النوتية واكثر فيها من العدد والعدة وجعل يسطو على سواحل الاسبان في نفر من قومه ذوي باسٍ ونجدة ويوقع بكل سفينة يلقاها فانبث شره وتفاقم امره وما زال ذلك دأبه حتى فاق قرصان البحار واصبح ذا مال كثير وكان الحاكم في غرناطة يبعثه احياناً الى حضرة سلطان المغرب برسائل ذات شان لما يعهد من اخلاصه للدولة وجسارته ومهارته في خوض البحار

وفيما هو عائدٌ هذه الكرة من جزائر الغرب بكتب مهمة عنَّ له ان يسلك لجة البحار عله يصادف سفينة فيسطو عليها ويغنم ما فيها من المتاع الا انه ما توغل في البحر حتى وقع نظره وهو يتمشى على السفينة على شبح اسود لا يحده البصر تتلاعب به الامواج فخاله في مبتدأ الامر حوتاً او خشبة طافية ولكنه ما عتم ان راى حركة ذلك الشبح اقرب الى ان تكون حركة انسان فصاح بربان السفينة ان عرج بنا اليه وما كان الشيخ الا الامير كاميل ملتزماً البرميل الفارغ الذي غادرناه مستمسكاً به بعد تحطم السفينة فان الامواج ما برحت تلطمه وتقيمه وتقعده حتى اذا ولى ذلك الليل كل ومل ووهت عزائمه عن ضبط ذلك البرميل فكاد يتملص منفلتاً من بين ذراعيه

وبينما هو في هذه الحالة والموت محدقٌ به من كل جانب حانت منه التفاتة فبصر بسفينة تجري عن بعد باضطرابٍ لهياج البحر فاستصرخها مستغيثاً واكثر الصراخ ظناً منه ان صوته الذي كان يضيع منقطعاً على مسافة منه يبلغ السفينة وجعل مـذ لمحها مقبلة نحوه يسبح بجهد للوصول اليها مغادراً البرميل الا انه لم يسلك بعض المسافة حتى خانه جلده ورغماً عن القوة التي تزداد في الطبيعة من جزع الموت بارحته قواه واخذه دوار شديد فغاب عن رشده

فاتفق في تلك اللحظة اقبال السفينة ودنوها منه فابصرهُ زرّارا محمولاً على متن موجةٍ وقبل ان تهبط به الى غور البحر وتحجبه عن العيان استصرخ ملاحيه فتواقعوا لاخراجه فاخرجوه وقد اشرف على الهلاك ثم حملوه الى مولاهم فلما تفرس فيه زرّارا راى على وجهه اثار النعمة فامر به ان يحمل الى مقصورته ووكل نفسه مؤونـة الاعتناء به وبينما هو يفرك جسده وينزع عنه اثوابه بصر بذخيرة في صدره مرصعة بالحجارة الكريمة وعليها مثال غادة هيفاء بالغة في الجمال . وفي الذخيرة ضفيرة من الشعر مضمخة بالطيب فاقبل على المثال ينعم فيه النظر وصار كلما زاده نظراً ازداد حيرةً واعجاباً وهو يقول في نفسه ماذا ارى ان صورة هذه الغادة الفتانة تشبه ذلك الامير الجميل الذي صادفته على مقربة من جبال (سيارا نوارا) منذ عامين وانا متحمل الى غرناطة نعم نعم اني اذكر ذلك ... واذكر ايضاً اني احتلت في اسره بخدعة وكدت افوز بحاجتي لولا ان الشيخ الذي صحبه ولزمه تبين محالي اذ بدا له مني ما تخوف منه فلج في النفور والتباعد عني تالله ما اقرب

وجه الشبه بينهما فعينا هذه الغادة وثغرها كعينيه وثغره وكل ما في هذه الغادة ينطبق عليه قسامة وجمالاً وكنت لولا التذكير والتأنيث اقول هو هي ٠٠٠ فيا للعجاب من تقارب الخلق ٠ الا اني ارى هذه الغادة ابهى حسناً وازهى طلعة من اسيرتي وحوريتي الميلانية ٠٠٠ وبينما زرّارا يحدث نفسه هكذا ابصر الامير يختلج ويتقلب كالسمكة وسمعه يقول وهو غير مالك حسه

فرجيني فرجيني قد غرقت ٠٠٠ حبيبتي انجديني ومدي اليَّ يدك فقد غمرتني المياه وابتلعتني اللجة ٠٠٠ ويلاه اين انتِ واين القاكِ

فقال زرّارا في نفسه ان الفتى لعاشق يعاني الغرام فهو غير مستريح القلب ولم يغادر وطنه ويركب الاهوال الا ادراكاً لها وسعياً في طلبها وماهي الا صاحبة المثال فما ضرني لو عمدت فيه الى الحيلة فانطلقت به الى قصري في مالقة وتقاضيته ثمن حياته فدية كبرى فما هو الا رجل من الاعيان واهل البيوتات فان لم يحمل اليَّ المال جعلته لي من بعض العبيد او الخدم وان عصاني قتلته

وبعد ان قرر في نفسه ذلك ووطد العزم عليه جعل يعالج الامير حتى اذا استفاق نظر الى ما حوله بحيرة وجزع وقال اين انا

فاجابه زرارا انت في امان ومكان حريز فسرّ عنك روعك

ـ افي قبضة قرصان البحار

ـ انت في سفينة رجل اندلسي لا يريد بك الا خيراً

ـ الى اين انت سالك في هذه اللجة

ـ الى الاندلس ياصاحبي الى مالقه حيث اهلي وناسي فحدثني انت بخبرك

ولا تكتم عني الامر الذي قدمت من اجله وانتسب من اي قوم تكون من الانام

فلم يشأ كاميل الا ان يكتم عنه خبره لانه لم يرَ في حديث زرارا وسيمائه ما يأمن منه ويثق به فاجابه

ـ اني امير ميلاني خرجت مع رجلين من اهل مودتي وصحبتي نقصد مملكة الافرنسيس على سفينة جنوية فلما سلكنا لجة البحار صدمتها الانواء وثارت عليها الزوابع والامواج فحطمتها تحطيماً فغرق من فيها ووفقت الى العثور ببرميل فارغ فتعلقت به ولزمته وما زلت من ليل الامس وانا على الحالة التي وجدتني فيها حتى عدمت جلدي ووهى عزمي ولو لم تدركني وتتداركني بمروءتك لاصبحت اليوم للاسماك طعاماً

ـ هل لك ان تعلمني بحالك التي قدمت لها من وطنك

ـ زيارة نفر من ذوي قرباي يقطنون البلاد الافرنسية

ـ فتبسم زرارا وقال له انك توارب بما في نفسك يا فتى فما انت الا عاشق شط المزار بينك وبين من تهواها فخرجت تقتفي منها الاثر فمن اي بيتٍ انت من ميلان

ـ من آل ويسكونتي

فهتف زرارا في شدة فرحه انت امير ويسكونتي انت من سلالة تلك الاسرة التي ظهرت على اعدائها وبلغت من المجد والسطوة غاية وانا قد يداخلني من صحبتك وخلطتك سرور لا يعادله شيء ثم قال في نفسهِ هذا الامر الذي التمسه فانه كلما كان حسيباً نسيباً كبر الفداء فانعم به من غنيمة باردة ساقتها اليَّ الاقدار دون عناءٍ

ــ قال الامير نعم اني من سلالة هذه الاسرة الكريمة المحتد والعنصر المتناسلة في الشرف ولكن نسبي وكرم اصلي لم يدفعا السوء والبؤس عني بل كانا اجلب للويلات اليَّ .

لا تعجب ايها الامير فهذه سنة الدهر باهله الا ترى ما بلغت اليه الاندلس من بعد الشهرة وعظم الشان فها قد تقلص اليوم ظلُّ سطوتها وبعدما غلبت اشعتها على كل دولة توجه النصر الى اعدائها فدوخوا اكثر مدنها . فلم يوقها عزُّها وبهاؤُها من التلاشي والسقوط المتلاحق اليس كل بقضاء وقدر ومن ذا الذي غالب القدر فقرَّ عيناً وانعم بالاً فسوف انزل بك عليَّ فتلم بداري على الرحب والسعة واسير بك بعدئذٍ الى غرناطة فتشاهد مباني العرب ومصانعهم واثارهم الناطقة بمجدهم وبعد ذلك ان عنَّ لك ان تقيم عندنا او تظعن الى بلادك فانت مخير

ففرح الامير كاميل فرحاً شديداً وجعل يشكر له كرمه وحسن وفائه لانه اغتر بكلامه وانخدع له وما درى ما اضمر له حتى بلغت السفينة مالقه واقبل مع زرارا لقصره وقد علمنا كيف غدر به زرارا وحجر عليه في مطبق القصر لا يستطيع منه براحاً قبل ان يؤدي الفداء وهو لا يملك الاَّ ثوبه وكان ذلك عنده عظيماً

الفصل الخامس عشر

حب نظرة

وما كنت ادري ان من قد اسرته سيصبح يوماً في المحبة آسري

ما زال كاميل في قصر زرارا يحيي الليل بالسهر كئيباً شديد الهم ويصرف سحابة نهاره في تذكر اوطانه واهله وخلانه حتى مضى عليه عشرون يوماً كاد يقتله في تضاعيفها الضجر والسآمة وهو كلما اعمل الفكرة التماساً للفرار واجهد فيه برأيه ونظره لم يرَ اليه سبيلاً فلما ضاقت عليه مذاهبه وافزعه امره وهاله شأنه لقرب انصرام الاجل المضروب له من زرارا حدثته نفسه ان يفتك بالزنجي المشارف له الا انه لم يقدم على هذه الفعلة لعدم وثوقه بالفوز والنجاح ولكرهه ان يتحمل بالاساءة على رجل لم يذنب اليه

وكان من عادته ان يقصد الروضة التي امام محبسه في بعض الليالي ويجلس الى ظل شجرة تشرف عليها نوافذ القصر ويضرب على قيثارة التمسها من حارسه الحاناً شجية تهيجه الى البكاء وتبعث الى تذكار اوطانه وغابر عيشه الهني فينهنه دموعه في سكون الليل حتى اذا انتصف عاد الى غرفته ورمى نفسه على فراشه وقد اجهد من تسكاب الدمع وثقل الهموم

واتفق في الليلة الخامسة والعشرين من الموعد المضروب له لجلب الفدية ان دخل الجنينة على عادته وجعل يلعب بقيثارته ويضرب عليها ضربا ميلانياً . وبينما هو كذلك سمع صوت مصراع احدى نوافذ القصر قد فتح بعنف ثم بصر بيد قد اغلقته وتوارت فما حفل بذلك واقبل الى فراشه يبتغي الرقاد وقبل ان يمر الغمض باجفانه طرق اذنه خفق اقدام وعقب ذلك نقرة خائف على باب الغرفة فهجس في قلبه خوف وحذر . ولما لم يهتدِ في لجة ظنونه الى المراد من هذه الزيارة ولم يعرف الطارق عمد الى الباب وفتحه لكنه تراجع الى الوراء عندما ابصر شبحاً متشحاً بوشاح ابيض قد

تراءى لهُ وقد غطى الوشاح قامته ووجهه حتى لم يظهر منه سوى عينين شاخصتين ثم تقدم حتى اذا توسط الغرفة اشار بيده يريد الكلام الا انه تلعثم فوجم ولبثت عيناه الباديتان من الوشاح تحدقان بالامير ثم ما عتم ان هوى الى الارض ووقع مغمياً عليه

فاشفق كاميل من موقفه واستوحش من زائره الا انه تقدم نحوه ونزع عنه الوشاح فبدت له صبية بارزة النهد وضاحة الطلعة تملاء العين قرة. فعظم ذلك في نفسه وجعل يطوف بها متفرساً في وجهها معجباً من مخالفتها اهل الاندلس في الصورة واللباس ثم خطر له ان يرش على وجهها الماء وقبل ان يوافيها بالاناء سمعها تردد هذه الكلمات روبر . روبر ونفسها يربو ويخفت

فدنا منها يتحقق امرها واذا بها قد قالت انت حيٌّ يا كاميل فصاح كاميل لوقته وقد عرفها بلانكا بلانكا حبيبة روبر

— اين روبر اين روبر قالت الفتاة وقد فتحت عينيها

قال الامير آه ياربي هي بعينها فمن اقدمها هذا المصر واني اتفق ان القاها في قصر زرارا .

كررت الابنة كاميل كاميل اين روبر احيٌّ هو

— حي ... هو حي اجابها الامير وقد امتقع لونه عند ذكر صديقه الذي غرق معه اما بلانكا فحينما وعت جواب الامير عاودتها القوى فاستوت قاعدة وارادت ان تسأل عنه الامير ثانيةً فسبقتها الدموع فبكت وهي ناظرة الى كاميل ثم بعد فترة قالت تخاطبه

اني غير مصدقة من دهشي اني اراك يا كاميل بعدما عهدتك مع

حبيبي روبر من اهل القبور فان ريزو الذي بعثت به رسولاً الى فلورانسا ليخبركم عما يأتمره بكم من لست اريد ان ادعوه لي ابًا قد عاد يومئذٍ مخفق السعي وحدثني عن نزول القضاء بكم فكيف اتفق ان القاك في قصر زرارا اسيرًا واسمع انكم ما برحتم احياء

فلم يرَ الامير بدًّا من اخبارها بكلما حدث لهم الا انه كتم عنها حادثة غرق حبيبها روبر اذ كره ان يواجهها بها كي لا ينغص عليها فرحها ثم حدثها انه تخلف عن صديقيه روبر ومرتينو قياماً الى فرانسا وعن غرق السفينة به وكيف مر بهِ زرارا فاخرجه من الماء وقدم به الى قصره بالمكر والخديعة

هتفت بلانكا طب نفساً ايها الامير فاني قدمت اليك بامر لك ولي منه صلاح ونجاة من هذا الاسر المهين

ــ قد زدتني يا بلانكا بحديثك سرورًا فقصي عليَّ خبرك ولا تكتمي عني شيئًا

ــ لا بد لي ان اقتصر في حديثي معك على الايجاز اذ ان شقيقة زرارا هي لي في الانتظار فاكتف انت باليسير من الخطاب واعرف الكثير من اموري بالقليل من الكلام واعلم اني على اثر عودة رسولي ريزو ونعيه اليَّ روبر الذي كنت احب الحياة حباً به وطنت نفسي على ان اركب مركباً صعباً واغادر بيت ابي لعلمي اني اذا توانيت لا البث ان اصبح بعد ايام زوجة دلبانو اللص الغادر رغماً عن معاطسي فتعجلت الفرار مع ذلك الخادم وانا متنكرة باثواب الرجال ووفقت بعد جهد شديد الى ركوب البحر وفي نيتي التوغل في الامصار البعيدة لتخوفي من ابي وخطيبي ان يجدا سعياً في لحاقي

فقدمت (اليكنت) وطابت اديرة العابدات ووفقت بعد مسير يوم الى

الدخول على رئيسة دير فخيم المباني والتمست منها ان تدرجني في مصاف العابدات بعد ما حدثتها بخبري ولم اطو عنها شيئاً وبذلت لها من المال الذي حملته معي ما حملها على قبولي والعناية بي وجعلت ريزو من بعض خدم الدير

فاقمت على هذه الحال عامين اصبت فيهما سلطاناً على نفسي وقواماً على امري وجعلت دأبي الصلاة وصرفت فكري عن العالم واباطيله واضمرت في نفسي ان لا اغادر ذلك المكان حتى الحق بمن كنت ابكيه في خلوتي وانفرادي الا ان القضاء الذي لا يمتنع منه من هو اقوى مني واعظم امراً ابى الا ان يوكل البلاء بي لان خادمي ريزو دخل عليَّ غرفتي يوماً وهو جازع اشد الجزع واسرَّ اليَّ ان لويس دلبانو بصر به في ازقة البلدة ريثما قدمها لقضاء بعض المهام ولما لم يستطع ان يتوارى عن نظره ادركه وظل يتهدده بالقتل او يخبره الحقيقة فلم يسعه تجاهلاً فاخبره بمكاني فاسرعت لوقتي واطلعت الرئيسة التي كانت اميرة شريفة على الخبر فسكنت جاشي ولم تكتم عني ان دلبانو قد واجهها بطلبي ولج في ذلك فتجبهته حتى عاد خائباً يتوعدها بالشر ..

وحدث في تضاعيف ذلك ان اذكيت نار الفتنة بين الاسبان والاندلسيين الذين قد كثف لفيفهم بمن انضم اليهم من اهل المغرب فزحفوا على البلدة التي نحن فيها فلجأنا جميعاً الى الفرار وتحملنا الى قلب البلاد وقد داخلني سرور من ذلك لوهمي اني صرت في امن من دلبانو

وفيما نحن بعد ذلك نيام في احدى الليالي استيقظنا مذعورات من جلبةٍ عظيمة ثم ما لبثنا ان رأينا الدير يتلهب بالنيران فعلمت ان دلبانو هو الذي اقدم على هذه الفعلة الشنعاء وهو عائد اليَّ لا ينقطع عني لعلمه بمكاني كالقانص

اذا وقع الظبي بمنظر منه فتعجلت الفرار في تلك الفترة واغتنمت فرصة اشتغال الناس ودخول دلبانو الدير في اثر ذلك ان تنكرت باثواب الرجال وسرت متوجهةً نحو السواحل فركبت سفينة اسبانية قد اقلعت الى المواني الافرنسية وما سلكنا لجة البحار حتى صادفنا سفينة قرصانٍ فانتشب بيننا القتال وبعد برهة رجحت كفتهم في الغلبة ووفقوا الى النصر علينا فقتلوا ربان السفينة والملاحين وسلبوا شحنها واسروا ركبها ومذ رآني سيد القوم اعجبه حسني فحملني الى سفينته وجعل ريزو عنده ملاحاً ولم يكن صاحب تلك السفينة الا زرارا الآسر لكلينا فاقبل بي الى هذا القصر ودفعني الى شقيقته واوصاها ان تصنع بي صنيعها به وها قد مضى عليَّ ثمانية اشهر وهو كلما عاد من سفرٍ له يراودني عن نفسي وانا ادفعه عني بالحيلة مرةً وبالبكاء والتمارض اخرى

وفي خلال ذلك تمكنت بيني وبين شقيقته حسناء عرى المودة فلما جاء بك الى ههنا اخبرتني ان اخاها قد جاء باسير من قومي فاشتد عليَّ الامر وحدثت نفسي ان احتال واياك في الخلاص وطمعت ان اقابلك به ولكني الفيت المسالك غير نافذة والدخول عليك قبل ان يسبق لي معرفة بك لمن اصعب الامور عندي

ولما تحمل زرارا الى غرناطة اوعز الي شقيقته ان تزيد في الحرص عليك احتفاظاً واخبرها بما طلبه منك من الفدية واتفق بعد رحيله ان رأتك مرة من نافذة القصر وانت في الروضة فكان من عواقب تلك النظرة ان سحرتها بجمالك واصبت من قلبها موقعاً من الحب مكيناً فصارت تجلس

في كل ليلة الى النافذة المشرفة على الجنينة لتسمع غناءك وضربك على القيثارة وتدعوني للجلوس اليها وانا اجهل ما نزعها من نازغ الهوى حتى اضربها الكتمان واصبحت لا تستطيع عنك صبراً فباحت لي بالامس عن مبلغ وجدها بك وبكت بين يدي ومذ سمعتك هذه الليلة تضرب على القيثارة تفتقت بنائق الصبر من صدرها فاخذت يدي بيدها وقالت يا عزيزتي بلانكا ما اريد ان اكتمك من حب هذا الاسير فوق الذي كتمتك فاعلمي انه امير متناسل في الشرف وقد عشقته عشقاً مبرحاً يذيب مني الجسد حتى رغبت فيه عن اهلي وملت معه عليهم وقد تقاضاه اخي فدية كبرى لا يملك منها درهماً وضرب له اجلاً كاد ينقضي ثم لا يلبث ان يبغي عليه دون ان يتقبل مني شفاعة وربما جعله ملاحاً في مركبه فاهمني ذلك حتى احرمني ان انام فانطلقي اليه في هذه الساعة فقد صرفت فيها الحارس عن غرفته واخبريه عن مبلغ وجدي به واشفاقي عليه واني اواسيه بنفسي واتيح له الفرار واخوله الحرية فان ارتضي ان يقابلني بمثل حبي له فاني ارجو الا يولي الليل الا وقد غادرت معه ومعك مالقة قياماً الى بلادكم نقضي العمر تحت سمائها آمنين

وكان الامير كاميل آذناً لحديث بلانكا وقد اذهله لحدٍ توهم معه ان زيارتها وما هو سامع منها ليس الا اضغاث احلام ونظرت بلانكا منه ذلك فقالت له

ــ لا يلحقنك الدهش ايها الامير بل اغتنم من خفة وطيش هذه الفتاة فرصة لتفوز بنفسك وبي

ــ وهل حب نظرة بلغ بشقيقة زرارا الى هذا الحد يابلانكا حتى ارتضت

ان تغرر بنفسها وتخاطر بها وتغادر بيت ابيها لاجلي ان هذا لمن غريب الحب

ــ ان اشفاقها عليك كان سبباً في حبها لك ومعرفتها انك امير عريق في الحسب زادتها فيك رغبة وحين نهيتها عما هي عليه واني لست اقدر على الدخول عليك جعلت تبكي وتنتحب امامي فطلبت اليها ان تشكو لك ما فعلَ بها هواك بكتاب تبعثه اليك لتصرف عني موؤنة هذه المقابلة فأبت حذراً من وقوع الكتاب لاخيها اذا انت قابلتها بالجفاء والصد ثم البستني ثوب جاريتها السوداء وتوعدتني شراً وتهددتني ان خالفتها فيما تريد ولخوفي من انقباضها اتيتك مكرهةً وكاد الوهم والخوف يبعد عني معرفتك ولكني اشكر العناية التي جرت لي ولك بذلك نفعاً واصبحت النجاة الينا اقرب من حبل الوريد

ــ ليس لنا اذاً من هذا الاسر براح يا بلانكا الا بمقابلة حسناء بمثل حبها قال الامير مبتسماً ابتسامةً عمى على حيبة روبر معناها

ــ لا مرية في ذلك فهي تترقب عودتي اليها بجوابك لتقبل اليك ان كان لها فيه غبطة وسرور فخلاصنا مرهون على كلمة من فيك يا كاميل فاخبرني عما تريد ان تعزم عليه في ذلك

فاطرق كاميل الى الارض برهة واغرق الفكر فيه وبلانكا ناظرة اليه وقلبها يخفق فرقاً لاستنظار جوابه واذا به رفع راسه وقال لها بحنو سائلاً

ــ ما ترتأين ان افعل يا بلانكا

ــ ان تجاريها في الحب مصانعة

ــ او ما ترين ان ذلك نقص في المروءة وخيانة في حب فرجيني

ـ ان ذلك لا ينقص في عهودها شيئاً لانك ستجاري حسناء مضطراً طمعاً في الخلاص ومتى اصبحت حراً طليقاً افعل ما بدا لك فان العاقل كما قيل يصالح عدوه اذا اضطر اليه ويظهر لهُ ودهُ ويريه من نفسه الاسترسال اليه اذا لم يجد من ذلك بداً ثم يعجل الانصراف عنه حين يجد الى ذلك سبيلاً

ـ وقد قيل ايضاً ان اشر الناس من التمس منفعة نفسه بضر اخيه ومن كان غير ناظر اليه كنظره لنفسه فليس من الحمية والحرمة يا بلانكا ان نجعل هذه الفتاة التي لم تسىء الينا بشيء ضحية الخديعة لانك ان غادرتها وانصرفت عنها في البلاد التي تجدين فيها الامان فما يحل بها وهي لا تستطيع بعد ذلك الى بيت اخيها عوداً ولا الى لحاقنا سبيلاً

لالا ان عملنا هذا لا اراه لنا رأياً ولا حزماً فانه عبث بالمروءة والشرف

ـ اننا سندفع الشر بالشر فما في ذلك لوئم ولا عار ثم ان حسناء اذا لم ترغب بعد رحيلنا في مصاحبتنا فلا تعدم حيلة تحتال بها امام شقيقها حين عودها اليه

ـ ما كان لحسناء ان تواطئني على الفرار قبل ان اوافقها على الحب والصحبة واجعل لها من ذمتي عهداً فكيف يتسنى لي ان اغادرها بعد ذلك او كيف اجد من ذمتي مخرجاً الا بالغدر والغدر عارٌ لا اطوق به عنقي

اذكر ايها الامير ما سيلم بك بعد انصرام المدة التي مد لك فيها زرارا وافكر في حالتي وانها ستسوء مصيراً ولا سيما اذا عدت حاملة الى حسناء خبر تمنعك وجفاك فان حبها الشديد يتحول بغضاً يحملها الى الانتقام منك ومني

ـ لا تكلفيني ركوب العار يا بلانكا ولا تساليني ان اضحي حسناء بيدي فان تلك ضحية لا استحلها

ـ ما اشد تعنتك اما تذكر ان هذا الاندلسي لم يأت بي الى قصره الا ليغدر بي ويهتك حرمتي فان كانت المروءة دعواك فهل ترضى بافتضاحي او اي الامرين ايسر واعظم في نفسك الفرار مع حسناء التي لا يصيبها منه ضرٌّ والخلاص من اسر مهين ومشاهدة الاوطان والخلان ام الاسر والعبودية والهوان وفوق ذلك بذل النفس وهتك الحرم والموت ذلاً فاي الضحيتين افضل يا كاميل

وقد كانت تتكلم بحدةٍ وحمية ووجهها يتبرقع بالاحمرار وصوتها يعلو متتابعاً حتى عرفت انه وقع في نفس الامير ما كانت تلتمس

فصاح الامير لوقته بلانكا بلانكا لقد استظهرت عليَّ بلسانك فخفظ شأنك من شر هذا الوغد زرارا سيلجئني على رغم مني ان اجني هذه الجناية الموبقة واركب هذا المركب الخشن الذي طالما ركبه بعض شبان هذا العصر عفواً فان من عظيم ذنوبهم خدعهم البنات وربات الخدور بزخارف كلامهم والاسترسال اليهنَّ رياءً وفجوراً وهم بعد ذلك يزينون لهم الخروج عن طاعة والديهنَّ ويغروهنَّ على ارتكاب الشرور وربما فروا معهن الى طيةٍ بعيدة حتى اذا اصابوا منهن حاجة في نفوسهم غادروهنَّ في اشد هوان وويل

ـ لقد ابطأتُ على حسناء كل الابطاء واخاف ان توجس مني شراً في التأَخر عنها فتهيأ للقاء حوريتك الاندلسية فها انا عائدة اليها بما تطيب به نفسها

ثم ان بلانكا خرجت من عند الامير وهي من امل الخلاص جذلى

الفصل السادس عشر

﴿ لقاء مرّة ﴾

ان ضعف النسآء لولاهُ كانت　　في مقام يسمو على البشريه
فهي كي لا يكون فيها كمالٌ　　خلقت والهوى معاً بالسويه

وبينما بلانكا تبتعد كان كاميل يقول في نفسه وهو ناظر اليها انها تجهد النفس للتخلص من ربقة الاسر التماساً للاجتماع بحبيبها روبر ولكن من يدري ان كان روبر حياً لم تنهشه حينان البحار مع مرتينو ... ان لروبر عليَّ فضل الحياة ولولاه لمتُّ في مغائر الجن وربما لا يتفق لي ان اراه واكافئه على ما له من عظيم الايدي فعليَّ ان اكافىء اعزّ الناس عنده وابلغ جهدي في صيانة عرضها ثم جعل يردد في ذهنه ما سيقوله لحسناء وقت دخولها عليه ليحسن موقعه في قلبها واطال في ذلك الفكرة ولم ينتبه الا لواقفٍ على باب غرفته يناديه باسمه فنظر فرأى حسنآء فبادرها بالسلام وارسل نظرة الى وجهها فألفاه غاية في الجمال والبهآء يشب لهيب الحسن من ماء رونقه الصافي

واما هي فرشقته باسهم اللحظ لانها أنشب مصلاةٍ يعلق فيها قلب الرجل ورَنت اليه رنو الغزال وقالت ورعدة الحب تلجلج شفتيها والحيآء يلوي جيدها ويغض طرفها ويورد خدّيها

— لا يلحقنك العجب من دخولي عليك ايها الامير وانا سافرة النقاب فقد دعاني اليك داعٍ لو دعى قلب الجماد للباه مطيعاً صاغراً وقد حاولت

حبس نفسي عنك حرصاً على كرامتي واجهدتها بالسلو استدراكاً لفارط امرى من نظرة قد استهونتها في الحب فاذا بي ازددت ولوعاً وغراماً حتى لم اجد صبراً في القعود عنك فارحم قلبي

فاجابها كاميل برفق ولين اما انا فلا احاول حبس النفس عنك يا مليكة الجمال وحورية الجنان لاني ارى في كل عضو منك قسامة وجمالاً يدعو قلب الخلي الى الهوى فما اجملكن يا بنات الاندلس

فابرقت اسرة حسناء فرحاً وطابت عن جواب الامير نفساً وقالت مردفة

ـ وانك ايها الامير لتعد تعجلي بالاسترسال اليك خفة وطيشاً ولكن البنات امثالي يحملن معهن " عذرهن " الا وهو الضعف الذي لولاه لترفعن عن المراتب البشرية وقد بعثت من قبلي بتلك الفتاة الميلانية بلانكا لتميط لك النقاب عن مبلغ وجدي بك وما عزمت عليه ان اجبتني الى ما سألتك فلما عادت تبشرني باني نلت في عينك حظوة لم املك نفسي عن الدخول عليك لاسمع ذلك منك بأذني

ـ ان ما قلته لبلانكا لم يكن الا اندفاعاً واعتسافاً حملني عليه التماس الخلاص لنفسي واما الان وقد رأيت جمالاً يسحر الالباب وقداً يخجل الاغصان وجبيناً كالقمر والحاظاً تنادي على عاصي الهوى الله اكبر حمدت اندفاعي واعتسافي وعلمت كيف ينقلب الشر خيراً

اتحبني اذاً حباً غير ملجاء اليه ولامكره عليه

ـ كيف لا احبك وقد اثرتِ احتمال كل ضرر وعناء في جنب خلاصي ورغبت فيَّ عن اهلك وستخولينني الحرية التي سلبت مني فان لم يكن لك

من الحسن ما يعلق فكفى بهذه الفعال خلالاً تعشق

ـ اخاف اذا انتهينا الى منازل قومك وتلك الربوع ان تصبح كنوداً غادراً فما اكثر الذين لا عهد لهم والذين لا يحبون احداً الا لحاجة في نفوسهم او لجر نفع لها فاذا ظفروا بحاجاتهم فلا ود ولا معرفة جميل

ـ ابى الله ان اكون من اولئك القوم الرعاع لاقدم على هذه الفعلة ياحسناء فاني غير متخلف عنك وستكونين عندي في اعز مكان واجعلك عديل نفسي

ـ تذكر انك امير وان بيني وبينك بوناً في النسب

ولكني ساذكر اني لولاك لاصبحت عبداً مهاناً احتطب من احراشكم الحطب

فطأطأت حسناء رأسها ولبثت برهة صامتة في اشد افتكار فقال لها كاميل

ـ ما الذي بك ياحورية الجنان فاني اراك في فكرٍ

ـ انا في نزاع مع قلبي يا كاميل وانت المنازع عليه كلما قلت له ان يدعك مخافة ان يكون حبك لي مكرٍ لنيل حريته فلا يميل الا اليك وكلما نهيته عن عشق جمالك قبل ان ابلو طباعك واخلاقك واجرب امانتك ووفاءك يعصيني وكلما حاولت ان اتغلب على ضعفي لا اراني الاَّ منقادة اليه بالضعف وقد حرت في امري وهالني شأني فساعدني بحقك اما على الاسترسال اليك واما على الاحجام عنك ولا تخيب رجائي فان الخوف والغرام يتنازعانني

فقال كاميل في نفسه ان هذه الفتاة لجديرة بان تعشق لكمال عقلها وجمالها وحسن خلالها وتستحق ان يخلص لها في الحب ولكن ما حيلتي

وفوأدي يابى الشرك في هوى فرجيني ولو لم يهمني امر بلانكا لما كتمتها سري وواريت عما في نفسي ولكن للضرورة احكاماً ثم اجابها وهو يذوق الكلمة قبل النطق بها لئلا تخبث في سمعها وقد عاهد نفسه ان يجعل تلك الفتاة في صحبته ويحسن منقلبها مكافأةً لها على أحسانها دون ان يخطر على قلبه خاطرٌ من هواها فقال

ـ كفاك دلالاً يا حسناء واحسني ظنك بي فلسوف تزدادين يقيناً بان رأيك فيَّ لم يكن الا صواباً وترين بي صاحباً موفق الصحبة تزدك الايام عجباً به ورغبة فيه ولو امكن لي ان اريك قلبي لتري رسم من فيه لفعلت . وانه ليعرض لي انك غير مصدقتي فيما اخبرك به ولكنك لو تذكرت ان نفوس الرجال متعلقة بكنَّ دون ان تولوهن احساناً ومعروفاً لا تجدين بداً من تصديقي فكيف وانت ستولينني احساناً وتتخذين عندي افضل الايادي

فلما سمعت حسناء مردود الامير عليها انخدعت بظواهر هذا الكلام كما هو شأن البنات امثالها اللائي كثيراً ما خدعن بزخرف احاديث بعض فتيان هذا العصر الذين جعلوا دأبهم الاطراء في محاسنهنَّ تودداً اليهم وتزلفاً من رضاهنَّ وهم بالحقيقة مخادعون لا يحاولون بذلك الاجر نفعٍ الى نفوسهم فاجابت وهي جذلى مسرورة من فوزها وتحقيق امانيها

ـ لقد صرت يا كاميل حبيبي فدعني اناديك بهذا الاسم فانه يطربني كما تطرب ام الطفل لاول لفظة تسمعه ينطق بها وان علينا الفرار والمضي في هذه الليلة قبل ان يقدم شقيقي زرارا من غرناطة وساسير بك وببلانكا الى المرية حيث منها نركب البحر قياماً الى بلادك

ثم جعلا يتشاوران في امر الخروج من القصر حتى اذا اتفقا عليه ومهدا له السبيل نهضت حسناء تطلب الخروج من عنده فدنت منه ولم تتمالك لشدة شغفها ان القت بنفسها عليه وبعد ان ضمته الى صدرها وقبلته ثلاثاً وهو مطرق الى الارض يفكر في فرجيني وقبلاتها اسرعت الكرة الى خدرها

ولم تكن غير فترة حتى اقبلت جارية سوداء ودفعت الى كاميل ثوب العبد الذي يجلس على الباب الكبير المؤدي الى خارج القصر واشارت اليه ان يفرغه عليه وان يقصد مكان البواب ويقف هناك في الانتظار

فما درى كاميل لاول وهلة ان التي تكلمه هي بلانكا حتى امسكته يده وقالت قد نجونا قد نجونا يا كاميل فكن قوي الجاش وولت تطلب القصر قبل ان يسألها

وكانت الطبيعة وقد مر الهزيع الاول من الليل هاجعة الحركة وليس الا مرور النسيم بين الاشجار والبيوت مسموعاً والظلام حالك فلا يقع الطرف الا على انوار مصابيح من بعض البيوت في المدينة يومض ذبالها ايماضة الانطفاء لفناء الزيت من سرجها فاقبل كاميل في تلك الساعة حتى وقف بالباب الكبير ومن بصره الى القصر حيث كان يرى من واجهته خيالات تمر على الحائط امام مصباح يضيء واذ كان في حالةٍ من الاستنظار يحسب الدقيقة فيها شهراً فرغ صبره فقام من مكانه فمشى غير بعيدٍ فبصر بشبح مقبل نحوه قد دنا منه وكان القادم بلانكا وقد جاءت بصرة من الدراهم اعياها حملها فدفعتها الى كاميل وطلبت اليه ان يحتفظ بها وان يتمهلها قليلاً ريثما تبطي عليه مع حسناء بعض الابطاء

وتوارت في الظلام

فجلس كاميل على مقربة من الباب يتنازعه فرحٌ من الفوز وخوفٌ من الاخفاق وقلبه يخفق لفرح بالخوف ممتزج وصار يرى من قبل تاثير الوهم على مخيلته خيالات قاصدة نحوه يخالها حسناء وبلانكا لكنها كانت تتوارى على غيظٍ منه كلما استوى لها قائماً

وبينما هو على هذا الحال اذ طرق اذنه خفق اقدام ووقع حوافر بعيدة اختلطا معا فرابه سماع هذا الصوت وادخل عليه حيرة فالتفت نحو القصر فبصر بحسناء وبلانكا مقبلتين تنحدران الدرج فهم ان يصيح بهما حتى تسرعا الاَّ ان الصوت انحبس في فيه وشعر كأنَّ يداً قبضت على رئته فمنعته عن التنفس حين سمع ان وقع حوافر الخيل قد قرب من المكان الذي هو فيه قائم وما عتم ان قرع الباب قرعاً عنيفاً فانذعر وكاد يذهب قلبه شعاعاً وظل مكانه مبهوتاً لا سعي له ولا حركة

ثم قرع الباب ثانية بعنف فتحير في امره وارتبك والتفت نحو حسناء وبلانكا كالمستنجد بهما فلم يرَ لهما عيناً ولا اثراً فهم بالعودة الى محبسه والتماس المخرج مما وقع فيه لكنه قبل ان يخطو خطوةً بدا له رأيٌ تحقق فيه الرجاء لان الخوف اعاد اليه عقله والمال الذي يحمله جعل له زيادة في الراي فاسرع لوقته الى الباب ففتحه وتراجع الى ناحية من الباب ساتراً وجهه بكم قميصه

وكان القادم زرارا وفي صحبته رجل اندلسي فدخل مغضباً واتى كاميل فلما رآه حاسر الراس لم يشك في انه البواب فلطمه على رأسه وانتهره قائلاً

ــ تباً لك يا عبد السوء ما اثقل الكرى في جفونك فاستيقظ وقُدْ هذين الجوادين الى مكانهما واعن بهما

فلم يفقه كاميل كلام زرارا في العربية لكنه مذ راه مشيراً بيده الى الجوادين ادرك المقصود فوثب اليهما وامسكهما

واما زرارا والرجل الاندلسي فانهما بعدا عنه غير ملتفتين اليه ودخلا القصر فعمد كاميل الى احد الجوادين ودخل به غرفةٍ البواب ورد عليه بابها وامتطى الجواد الثاني بعد ان احرز صرة المال واغلق وراءه الباب الكبير واوصد اقفاله وولى يجد السير غارة لا يلوي على شيء وهو لا يصدق انه نجا بنفسه واصبح حرًّا طليقاً

الفصل السابع عشر

قد يبطن الضرُّ نفعاً في عواقبه ‌ ‌ ‌ ‌ وربما الشرّ جرَّ الخير احيانا

﴿ غدر الدليل ﴾

ما ابيض مفرق الليل وتبسم ثغر الصباح الا وقد اصبح كاميل بعيداً عن مالقة يطعن في بيداء بعد بيداء ويتيه في فلاة ويهيم في تيهاء ضارباً على غير هدى في مناكب ارض ليس له في مسالكها ومجالها سابق عهد الا ان الجواد العربي الذي امتطى صهوته لما كان قد آلف السلوك في هاتيك المفاوز وتعود الاسفار الى غرناطة ما لبث حين جدَّ الامير في الفرار ان سار في الطريق التي تؤدي اليها ينهب الارض نهباً

وحينما اشرقت الشمس اتى في طريقه على خان تأوي اليه المسافرون

واصحاب القافلة من اهل البلاد فنزع عنه ثياب البواب التي افرغها عليه تلك الليلة وعرج الى الخان يطلب راحة له ولجواده فصادف قوماً من الاندلسيين فسألوه عن شانه ومن اي ارض اقبل واين يريد الان فلم يقل الصواب بل اخبرهم انه طبيب ميلاني يجوب الافاق في طلب الاعشاب الطبية وقد وطىء تلك البلاد رغبة في جنائها وحباً بروئية الهياكل العظيمة والمباني الفخيمة وانه كان في صحبته دليل الم به ضعف على الطريق فتخلف في بعض القرى التي مر بها اما هو فاذ كان يريد المضي نحو ما قصد له غادر دليله الا انه ما فصل من عنده وجاوز غير بعيد حتى ضل السبيل وظل كل الليل تائهاً وحين اصبح راى الخان فاقبل يلتمس دليلاً

فلم يشك السامعون انه قدم لامر غير الذي ظهر منه فاشاروا عليه بان يتحمل الى غرناطة التي كانت يومئذ بهاء الملك وزينة فخر الاندلسيين ودار ملكهم ومباءة سريرهم وان يعرج بجبال سيرنوادا لغزارة اعشابها الطبية وتعدد انواعها واشكالها

ثم جعل كاميل يحاورهم ويظهر ارتياحه الى رؤية مدن الاندلس التي هي ابعدها ذكراً واوسعها ظلاً وامنعها عزةً وسلطاناً حتى عرف مواقع البلدان والامصار وابعادها وبعد فترة جاء اليه صاحب الخان بدليل من قومه ليصحبه الى حيث يريد المضي فلما بصر به الامير تعوذ من منظره وانكماش سحنته وارتاب منه لكنه راى ان لا يتعرض لهُ دفعاً لما يتخوف من تحامل القوم عليه بل سأَله ان ينطلق به الى غرناطة والدليل لا يعلم سر نفس الامير والامير لا يعلم ما يضمر قلب الدليل عليه

وريثما ابعدا عن الخان اوعز كاميل الى رفيقه الاندلسي بالجد والتشمير وسار سير الخائف المتلفت لانه كان غير آمن من زرارا ان يتبعه ويجد في طلبه ومتخوفاً ان لا ينقطع عنه حتى يعرف بمكانه وان هو ادركه عاد به الى الاسر وسامه الذل والعذاب فكان خوف الوقوع في قبضة يده ثانية والجزع من سخط حسناء والتهيب من عتاب بلانكا يبعثه على ان يسير اتعب سير فلم يخف ذلك منه على الدليل وقد استبان خوفه وان في تعجله وتلفته واضطرابه لسراً مطوياً فهم ان يساله عن اسباب هذا السير الحثيث فسمعه يناديه قائلاً

— قل لي ايها الاندلسي ما هذه الجبال التي اراها

— هذه جبال سيرنوادا وهي تشرف على سهل غرناطة الجميل المتسع الارجاء ذي المروج الرائقة الذي طالما واقعنا فيه الاسبان واقتتلنا حتى صبغت مياه نهري شينل ودورو اللذين يمران به من دم القتلى وعلى مسافة منه قد قامت مدينة غرناطة التي ليس لها ضريب في جميع المدن فان فيها الحمراء وهي لعمر الحق بهاء الملك وزينة البلاد وآثار العزة والصولة وسوف اقدم بك عليها لترى فخامتها وضخامة مبانيها

قال الامير في نفسه ها قد دنونا من غرناطة التي اوهمت صاحب الخان والدليل اني ماض اليها حتى اذا جد زرارا في طلبي وقصد نحو الخان يسأل عني يخبرونه اني سلكت طريقها فيتبعني في اثري اليها وقد حان لي ان اخالفه في الطريق واقصد المرية التي افتتحها الجناويون ودخلت في حوزة الاسبان فان الاندلسيين لا يأتونها واني لست آمن على نفسي ما لم اطرق

تلك القبائل والبطون ثم اركب منها البحار فاجوب الافاق مفتشاً عن حبيبي روبر ومرتينو ولساعته صاح بالدليل ان عرج على المرية وسر بي اليها فان لي صديقاً اريد النزول عليه قبل القدوم على غرناطة

وكان الدليل وصاحب الخان من القوم المكرة وقد تمالأا على الامير وائتمرا بينهما ان يسلباه الجواد وكيس الدنانير الذي احسا به فكان الدليل يرجو ان يصيب من حاجته حينما يبلغ كاميل مدينة غرناطة فلما راه قد عدل عنها الى المرية ساءه ذلك وعرف انه وقع في نفس كاميل خوف ووحشة منه وسوء ظن به فلم يرَ امتناعه ومخالفته له صواباً فلوى عنان جواده يقصد المرية وهو يقول في قلبه ان العدو الذي لا يستطاع بالشدة والمكابرة يصاد بالرفق والملاينة وسواء ذهب هذا الميلاني الى المرية او مضى الى غرناطة او الى جهنم الحمرا فلا بد لي من سلب الدنانير وسل الجواد وسوف اضل به عن الطريق ولا ادعه يغشى المرية قبل ان اذهب بهما

وبعد ان قرَّر ذلك في نفسه جعل يسلك الطريق المخوف والسبيل الدارسة الخفية ويتوقل الجبال ويهبط الاودية والشعاب لانه كان بوعث تلك الارض وحزونها خبيراً وما زال ذلك دأبه والامير لا يعلم قبح ما اضمر في نفسه من الغدر حتى آبت الشمس ومالت للمغيب واصاب جواديهما جهدٌ شديد فكفا عن السير واقبلا يلتمسان في تلك الاعلام مكاناً يأويان الى ظله ولما كان الدليل يعهد ان في ذلك المكان برجاً مهجوراً قاد كاميل اليه فلما غشيه رآه قد اندكت اركانه وتصدع بناؤه ولم يبقَ من قوائمه سوى قنطرة كبيرة في صدرها دكة من الحجر الصلد فتوسدها الامير بعد

ما اوعز الى رفيقه ان يعني بجواده ويربطه الى مكان كثير الكلا ليرعى

فامتثل الاندلسي ما اشار به الامير ثم اسرع الكرة وقدم له شيئاً من الزاد الذي تزوده من صاحب الخان فلما فرغ من الطعام جعل الدليل يبسط له الكلام عن حروب الاندلسيين والاسبان ويكثر من تعداد مواقعهم ويحدثه باخبار ملوكهم الذين اقاموا الابنية ورفعوا عليها الاسوار المنيعة وشيدوا البروج الباسقة الارتفاع وما كانوا فيه من القوة والاقتدار وعزة الحول وقد قصد في هذا الحديث الطويل ان يهوم النعاس في اجفان الامير فيدركه سبات النوم حتى اذا نام عمد هو الى سلب الدنانير والفرار بالجواد ولكنه وجد كاميل احذر من غراب يحرس غفلته ويطرد عفريت النعاس من صدره

ولما لم ينجح الدليل في حيلته ويظفر بحاجته من ذلك قصد مكاناً في فناء البرج وانطرح متناوماً يرصد غفلة من الامير يختلسها

وكان الامير قد خاف على نفسه وامسى غير آمن من رفيقه ان يغدر به فرأى من الراي ان يحيي الليل يقظان

بيد ان للناس سلطاناً يتغلب على قوى الطبيعة والمرء اضعف من ان يقدر على مقاومته ولو خامره خوف وحذر ولما كان كاميل لم يذق مناماً من قبل ليلةٍ وقد اجهده الجد والتشمير ليلاً ونهاراً لم يقوَ على هجر الكرى فما انتصف الليل حتى غلبه النعاس فنام نوماً ثقيلاً

فحين اصبح افتقد الدنانير وطلب الجواد والدليل فلم يعثر عليهم فارعب ذلك قلبه واشتد غمه وحزنه وخر على وجهه يبكي اذ رأى له حالاً يحتاج

معها الى من يعوله

ثم جلس يعاتب نفسه على اهماله امره و يفتكر في شأنه وما نزل به من عبر الايام وما ابتلي به من تيتم وسجن وعذاب وفراق اهل ومربع وفقدان اخوان واعوان واسر ونأي حبيبة وذهاب مال ونقص حال فاغرق في الفكر فسلك به الى تذكر قول مؤدبه فصاح لوقته

ـ لقد صدق الذي قال يعيش القانع الراضي مستريحاً مطمئناً وذو الحرص والشره يعيش ما عاش في تعبٍ ونصبٍ فاني قد جربت فعلمت انه لا ينبغي للمرء في هذه الدنيا غير يسير من المطعم والمشرب اذا اعين بصحة فليتني اتعظت بنصح موءدبي ولم اطمح الى الملك والتمس السوءدد والغنى فاني ما ضرني احد سوى نفسي او ليتني كنت فلاحاً في احدى القرى لعشت في غبطة وسرور فقد قال مؤدبي ان المصائب والاحن لا تغتال في الغالب الاّ كبار القوم فان الريح الشديدة لا تعباء بضعيف الحشيش لكنها تحطم طوال النخل وعظيم الشجر وقد اضمرت في نفسي ان قدر لي الخلاص من هذه الورطة ووفقت الى لقاء احبتي واخواني ان اخلع الدنيا واصرف قلبي عن طلبها وانقطع عن الناس واصبر على ما اخاف ان لا اصبر عليه

ثم خطر له بعد تشاغله بهذه الافكار ان يتعجل الرحيل من ذلك البرج مخافة ان يدركه زرارا ولما كان قد عرف موقع المرية استقبلها وقال المرية ايتها الاقدام فسيري وخدي

الفصل الثامن عشر

﴿ الراعي ﴾

وما زال كاميل يعدو متعثراً باذياله ويجري غير متمهل في سيره حتى صار الوقت اصيلاً وادركه الجوع والتعب فنظر يميناً وشمالاً ليجد موضعاً يتحرز فيه فلم يرَ الا غنماً عن بعد ترى في فضاءٍ فسيح من الارض فذهب مسرعاً نحوها فانتهى الى رابية في اطراف هاتيك السهول التفت عليها اشجار دانية الاغصان قد ذللت قطوفها تذليلاً وكثرت فيها دوالي الكرمة وفرش ارضها العشب الندي تتخللها الازاهر على الوانها كانها نجوم شكت الى بسط خضراء فابصر الراعي جالساً الى صخرة تظللها دوحة كبيرة وقبالته شلال ماء يتفجر من قلب صخر ويتدفق حتى يبلغ منحدر الرابية فينحط من عل الى الحضيض متطايراً نقطاً تحسبها لؤلؤاً منثوراً والاغنام رابضة من حوله وسارحة امامه وكلبه قد توسد الارض الى جانبه متناوماً وهو قد انشأ يغني على شبابته قدوداً مطربة هيجت الشحارير والاطيار الراقصة على الاغصان فازدادت على صوته تغريداً وقد جعل يقول

هل ملوك الارض حكام الامم ... وذوو المال وابناء النعم

هم نظيري في هناءٍ دون هَم ... وانا من بعض رعيان الغنم

اسكن البيداء لا اخشى خطر

مؤنسي شبابتي عند الضجر ... ومقيلي بين جناتٍ وبر

وجنودي غنمي دون البشر ... وسلاحي القاطع الماضي حجر

فيه ارهب جدياً ان نفر

سلطتي عمت على هذه البطاح　　وعلى افنانها القمري صاح

فتحت ازهارها والعطر فاح　　وجرى في ارضها الماء القراح

وسرت فيها نسيمات السحر

انني والله في عيش هني　　قانعٌ كل الورى تحسدني

لست القى في قصور المدنِ　　لا ولا في كيس ذياك الغنى

غير همّ وشقاء وفكر

فلما فرغ الراعي من انشاده الدال على كمال علم وحكمة وذكاء عقل وقول بكى الامير لشدة ما وقع في نفسه وحين تجلت له مظاهر عيش البداوة وقابل غبطة وسرور هذا الراعي بمصائبه وحاله تمنى لو لم يخلق اميراً وود لو يتاح له ان يبيع لقب الامير وعزة الحسب والنسب بعيش هذا الراعي ونعيم بالهِ . ثم قصد نحوه فما مشى غير بعيد حتى وثب الكلب ينبح ينبي صاحبه عن قادم اليه فقام الراعي من مكانه ونظر يميناً وشمالاً فبصر بكاميل مقبلاً فوقف مذعوراً مرتاباً كصبي ابصر في السوق مثالاً ادهشه واغفل عن ان يزدجر كلبه فهجم على الامير مكشراً عن نابه فصاح كاميل بالراعي قائلاً — ياصاح ازدجر كلبك ودعني اجلس اليك فقد اضر بي الجوع واعياني التعب

فاشار الراعي الى كلبه ليردعه عنه ويسد فاه فابتعد يبصبص بذنبه ثم اقبل على كاميل فحياه وآنس به واكرمه واذ رآه مجهوداً ظمآن عمد الى دلو صغير معلق في غصن من الشجر وملأه لبناً من ضرع نعجة احتلبها وسقاه

منه حتى ارتوى وبعد ذلك سأله عن شانه ومن اين اقبل

فحدثه الامير بخبره مذ خرج من جنوا مع صاحبيه وبغرق السفينة وباسر زرارا له وفراره من قصره وكيف احتال عليه الدليل فسلبه الجواد والدنانير وكتمه ما دون ذلك فكان الراعي مقبلاً عليه ومصغياً اليه وعيناه مغرورقتان بالدموع توجعاً فلما فرغ كاميل من قصته قال له

لا تخف ياصاحبي فانه لا خوف عليك فانت في اطراف المرية فلا يغشاها اندلسي فاحمد الله على انه سهل لك سبل الخلاص وبعثك اليَّ حتى وطئت مكاني سهلاً فانا ابذل لك ودي ومكاني مباح لك وان كان فقري يمنعني عن كثير مما اريد ان ابلغه هذه الليلة من كرامتك وملاطفتك فهو عذري لديك ومتى اصبحت ذهبت بك الى القرية التي يسكنها سيدي صاحب هذه الاغنام التي ارعاها وادخل بك عليه فهو شيخ جليل مهاب سيد شريف كريم فمتى درى بما عراك ودهاك اتاك من المساعدة فوق ما ترجو وحمل اليك من المال ما يتيسر لك العود معه الى وطنك فطب نفساً

— وهل سيدك اسباني من اهل هذه البلاد

— ان الذي اعلمه هو ان سيدي غريب الديار قد قدم قريتنا منذ سنين فابتاع ارضاً واسعة في ربض القرية وانشأها مروجاً رائقة وبنى في وسطها قصراً وانقطع فيه مع ابنتيه يبكي ابناً كان له وحيداً اغتالته الاعداء فقتلته وقد اتى عليه هذا الزمن ولم ينفس كربه ويذهب الذي يجده من فقده فبقي ذلك امره حتى اليوم . وقد كان لي عشرة اعنز انتفع بالبانها فكنت اغشي منزله واحمل اليه اللبن فاحبني وعطف عليَّ بكرمه واحسانه وابتاع لي هذه

الاغنام وجعلني له شريكاً فما برحت من ذلك الحين متمتعاً بخيره متمسكاً بايديه اغيب عن المنزل ستة ايام واعود في السابع منها وفي الغد ميعاد الاياب اليه

ــ لقد اصابني ضررٌ وجوع شديد ايها الراعي الكريم فهل لم يبق عندك فضلة طعام تطعمني اياها

ــ حباً وكرامةً لك ياصاحبي فامهلني ريثما اعد لك طعاماً تاكله واخذ الراعي اوراقاً عريضة من الشجر فافترشها وتناول من جرابه زجاجة خمر وخبزاً ولحماً مقدداً وجبناً نظيفاً ثم غاب برهةً وعاد وبين يديه فاكهة من التين والعنب والاجاص وركوة من لبن فجعلها صفاً على الورق وقال للامير ــ كل واشرب هنيئاً مريئاً وكن عاذري اذا قصرت في الالطاف فما انا الا كجرذون البرية اقنع باليسير من الطعام ولكني اجده لذيذاً مع راحة البال والشكر

فوجد كاميل لذة في طعام الراعي لم يجدها من قبل وكان ذلك اشهى لديه من موائد الاغنياء المتأنقين في المأكل والمشرب

وبعد العشاء صاح الراعي باغنامه فتجمعت وجال حولها الكلب يحرسها وباشارة من سيده ساقها الى حظيرتها التي كانت في ناحية من ذلك التل

وكان الى جانب الحظيرة ادواح ضخمة الجزوع كالعمد قد ضرب الراعي عليها خيمته اشبه شيء باكواخ البرابرة التي يبنونها على عمد الاشجار فيصعد اليها بدرجات نقرت في ساق الشجرة فتسلق عليها الراعي واوعز الى كاميل ان يتبعه حتى انتهى به الى تلك الخيمة التي لم يكن سقفها وحيطانها سوى امراس من لحاء الشجر مضفورة قد ربطت الى جذوع الدوحة وبطنت

باغصان يابسة الورق وارضها من قضبان شد بعضها الى بعض وفرشت بعشبٍ يابس فقال له

ــ هذا مضجعي فاني ارقد فيه ليلاً مجاوراً اغنامي لتكون على مرأى مني مخافة ان يفاجئها وحش يقصر الكلب عن الايقاع به وانك ستبيت عندي في هذا الكوخ الحقير وان لم يحاك قصوركم العالية ذات الفرش اللين والمتاع الفاخر فانك واجد فيه بعض الراحة

ــ ان هذا الكوخ بحقارته لاجمل من تلك القصور وثق يا صاحبي ان ساكنيها لا يجدون الراحة التي تجدها انت في كوخك هذا فما انعم سكنى البراري واهنأ عيش البوادي

ثم جعل الراعي يسامر الامير ويطربه بالغناء على شبابته حتى فاجأهما النعاس فناما حتى الصباح

الفصل التاسع عشر

وما الذ لقا المحبوب بعد نوى لا سيما ان اتت في ذلك الصدف

وعندما استفاقا في الغد نادى الراعي باغنامه الى الرحيل وأمر الكلب ان يسير في طليعتها ومشى هو في تواليها وفي صحبته الامير كاميل ليدخل به على سيده وما برحا سائرين والاغنام تسرح امامهما كانها جيش يزحف الى القتال حتى اذا اقتربا قبيل الاصيل من القرية نظر كاميل على مسافه منها قصر فخيم المباني عالي الشرفات والقباب في مرج كثير الخمائل والرياض

تحيط به الادواج الغضة والاشجار ذات القطوف نخيل له لاول وهلة انه يرى قصر مونزا لشدة ما يشابهه ويضارعه في البناء والتوقيع وسمع الراعي يقول له

ـ هذا هو قصر مولاي المقبل اليه فعن قليل ستتمثل بين يديه فاذكر امرك وصف له حالك فهو يسعفك بحاجتك ويعطيك سؤلك وانك ستشاهد ابنتيه وما هما عليه من الكياسة والجمال رغماً عما فعل بهما الحزن وطول البكاء على اخيهما لانهما قد بنتا له ضريحاً تبكيانه عليه في العشايا والغدوات وان احداهما لشدة حزنها عليه اصابها اعتلال وسقم كاد يفضي بها الى الهلاك

نخفق قلب كاميل حين سماعه كلام الراعي وصار يراجع عقله في ترك لقاء ذلك الشيخ كي لا يكدر عليه وحدته وتفرده مع ابنتيه ويقول في نفسه. هبني وصلت الى سيد هذا الراعي فما توفيقي عنده وما حاجتي اليه وهو لا يقدر ان يبلغني سؤلي في لقاء حبيبتي ووجدان صديقي روبر ومرتينو ثم اذا مضيت اليه فاي حاجة لي لاذكرها بين يديه غير التماسي منه فضلاً يعود به عليّ ونفسي تأبى المسألة ولو هلكت جوعاً فالاجدر بي ان اترك لقاءه واتأخر عنه واصبر على الغربة وشدة المعيشة

ثم رام ان يبوح الى الراعي بما بدا له من ذلك لكنه كان قد بلغ باباً في سور الحديقة المحدقة بالقصر فرأى الراعي قد دخل منه ومر سريعاً بين الاشجار يطلب القصر لا يلوي على شيء تاركاً للكلب ان يعني في ادخال الغنم الى حظيرة هناك فتبعه كاميل متقدماً في الحديقة حتى بلغ مدخل

القصر فجاس الى ظل شجرة يترقب عودة الراعي وجعل في خلال ذلك يقلب طرفه في تلك الروضة الغناء التي حوت من كل فاكهة ازواجاً ومن الرياحين والازاهر افواجاً والماء يتدفق من بحيراتها فينساب كالحيات في جداول على ضفتيها العشب قد عاج ثم حانت منه التفاتة فراى في ناحية من الروض شجرة سنديان تظلل ضريحاً من الرخام الابيض غاية في الجلال وعليه اكاليل من الزهر خضراء تغطيه فادرك قلبه لذلك المشهد انقباض ووحشة

وبينما هو في النظر اليه سمع صرير بابٍ قد فتح من جانب القصر وبصر بفتاةٍ ملتفةٍ برداءٍ اسود طويل يحجب قوامها مرت تتخلل اشجار الحديقة دون تلفت حتى انتهت الى ذلك الضريح فنثرت عليه اوراقاً من الورد والياسمين وركعت على مقعد امامه وانحنت عليه تقبل الازهار التي عليه وجعلت تارة ترفع عينيها الى السماء وطوراً تحدق بالقبر وتمسح محاجرها بمنديل ابيض

فشعر كاميل بزهاق خامر روحه وصار قلبه يخفق خفوقاً شديداً ثم اشتد به الامر فما تمالك ان وثب من مكانه وقصد نحوها ووقف قريباً منها واذا بها تقول وهي مكبة على رجام القبر وقد سحت عليه دموعها

ما ينفعني العيش بعدك وانت راقد في القبور او اي مطمع لي في الحياة وانت في عالم الاموات لقد خنتك في حبك ان عشت بعدك

فقال كاميل في نفسه وهو يبكي لبكاء الصبية اترى فرجيني تبكي عليَّ وتندبني بكاء هذه الفتاة على اخيها

ثم سمعها تقول

فلا ابرحن ابكيك حتى يضمني ضريحك او تفني عليك دموعي

ففي القبر يا كاميل قربك لذ لي   فخذ بي فقد حنت اليك ضلوعي

ثم رفعت رأسها عن القبر وتنهدت الصعداء فوقع نظرها على كاميل الذي كان قد تبرقع وجهه باصفرار الموت وتفجرت مقلتاه كمن خولط في عقله فاجفلت منه مرتاعة اما هو فارسل اليها نظرة واشار بيده يريد ان يتكلم لكن تلجلج لسانه فصاح بصوت المختنق فرجيني حبيبتي فرجيني ووقع مغشياً عليه لان تلك الفتاة لم تكن سوى حبيبته الدوقة فرجيني ويسكونتي

وفي تلك الفترة اقبل الشيخ وابنته الى كاميل لان الراعي بعدما كلمهما بما يعلم من شأنه وذكر لهما خبره نهضا الى مقابلته فحين لم يجدوه امام مدخل القصر التفتوا فرأوه امام الضريح واقفاً ثم ما عتم ان ابصروه قد وقع مصروعاً مغمياً عليه عند قدمي فرجيني وهي مذعورة يكاد قلبها ان يطير شعاعاً فقصدوا نحوها ليقفوا منها على الخبر وصار الشيخ يسألها عن الامر فلا يسمع منها جواباً و يستلفتها فلا تلتفت اليه لانها كانت كالصنم واقفة تحدق في كاميل

اما الراعي فحين راى صاحبه صريعاً فاقد الشعور وقد كاد يختنق لضيق تنفسه جعل يحل ازرار الثوب عن صدره ليسهل عليه تنفسه واذا به يرى طي القميص ذخيرة نقشت عليها صورة فرجيني وفيها ضفيرة شعر من شعرها وهي التي بعثت بها الى كاميل ابان كان في فلورانسا مشتبكاً بالحرب على ما مر به الالماع فاحدقت بالذخيرة ابصار الجميع واذ بصرت بها فرجيني عرتها هزة شديدة ثم طاش بصرها وانحلت رجلاها فشهقت وصاحت كاميل كاميل ... هذا هو حبيبي كاميل والقت بنفسها عليه

وقد اغمي عليها

اما الشيخ سيد الراعي وهو لويجي رودلي مؤدب كاميل فانه اشتد به فرحه حتى انلجم لسانه عن الكلام فجعل يقوم ويقعد ويشير بيديه ويبكي ويقبل كاميل وينظر الى السماء حتى خيل ان به جنة ثم فتق لسانه فهتف باعلى الصوت ولدي كاميل ... هذا هو حبيبي كاميل اني اراهُ حيًا وافرحتي كاميل ما برح حيًا ونحن نبكيه ميتًا .. قد رده الله الى احضاني فواطربي ولما لم يعد يتدبر الكلام اسرع اليه وانشأ يقبله ويناديه باسمه

واما مينرفا ابنته فقد لحقها الدهش الشديد حتى لم تعد تدري ماذا تفعل لكنها مذ نظرت اباها يعتني بكاميل عنيت هي بفرجيني حتى استفاق المحبان معًا وصار كل منهما يتفرس في وجه صاحبه ويبكي دون ان ينبس ببنت شفةٍ اذ الدموع في تلك البرهة قامت مقام الكلام

ثم ان المؤدب ضمهما الى صدره وطوقهما بذراعيه ودموعه تهطل على لحيته البيضاء وقال احمدا الله الذي جمع شملكما وشتاتكما وضم الفتكما واشكراه معي على انه اسعد ايامي الاخيرة بذلك لانزل الى قبري مستريحًا ثم تذكر انت يا ولدي كاميل ما الهمت اليه من الكلام قبل شخوصك الى فلورانسا فقد قلت لك ان للايام عليك دينًا ستتقاضاه منك فقد استوفت الايام دينها ولسوف تنقلب بعدوك كما انقلبت بك

فللوقت جثت فرجيني على ركبتيها واخذت كف كاميل بين يديها ونظرت الى السماء وقالت

ـــ احمدك اللهم على انك احسنت اليَّ ووهبت لي اليوم حبيبي حتى

قرت به عيني وجبرت كسري حتى نفيت حزني وذهب الذي اجده واشكرك على انك قد احييت موات امالي وجددت لي في الحيوة عهداً جديداً ثم تفرست في كاميل وقالت كاميل كاميل أأنت هو حبيبي اني غير مصدقة عيني فاسمعني صوتك ليذهب عني ذهولي ودهشي فقد اشتد بي الفرح واراه يعذبني كشديد الحزن

فاجابها كاميل وقد ضمها من شدة فرحه الى صدره فرجيني فرجيني اني توهمت ان التقادير قد بغت عليَّ واساءت اليَّ حين حملتني الى هذه البلاد وانا لا اريدها ولم ادرِ انها فعلت بي ذلك لتجر نفعاً وخيراً اليَّ حتى جمعتني بك في موضع غربةٍ لم اتوقع ولم يجرِ في ظني ان القاك فيه فانا شاكر القدر متوقع اقبال الايام التي بعد ما ابتلتني واذاقتني من صنوف الضر والهوان ضروباً لم يبق لها قبلي ولا لي قبلها بعد هذا اللقاء وتر مطلوب بل رجع اليَّ الهناء بعد ما فكرت انه ليس براجع اليَّ ابداً ولست بناسٍ فضل هذا الراعي وعنايته بي والهامه على الدخول بي عليكم فاني لولاه لتضورت جوعاً وما اهتديت اليك

فحين تدبر الراعي كلام الامير خر على قدميه يقبلهما وهو باكٍ لشدة فرحه واغتباطه بما جرى

ثم بعد برهة دخلوا جميعهم القصر وانشأت فرجيني تحدث حبيبها بقصتها وعما جرى عليها من حين شخوصه الى فلورانسا الى ركوبها البحر من جنوا عقب ورود الخبر عليها بمصرعه في الكمين وهي في الكنيسة قرب بافي تترقب قدومه الى ان قالت واذ كنت اعتقدت بنزول القضاء بك ورأيت انه

لم يبق في لقاك مطمع في هذه الحياة الدنيا سألت لويجي ان يترحل بي الى بلاد غريبة وطية بعيدة انقطع فيها بقية العمر عن الناس والاهل والخلان فزين لي السفر الى فرانسا والنزول على شقيقتي فالنتين فانفت من ذلك لعلمي ان لبثي بين ظهراني قومها جالب لي شديد الهم وممكن اعدائي من بلوغ الاذى اليّ ومانعي من البكاء عليك ولاجمي عن اللهج بذكراك. فاقبلنا جميعاً الى المرية لاختلاط شعوبها بقوم من الجناويين الذين افتتحوها ودوخوها قبيل هذا العهد واتينا هذه القرية فبنينا هذا القصر على مثال قصرنا في مونزا واقمت لك ضريحاً في ظل شجرة السنديان التي تذكرني خلودي اليك واجتماعي بك في مونزا ثم لما اتى عليّ حين من الدهر اصابني من شدة الحزن والبكاء اعتلال اشرفت منه على الهلاك فرحل بي لويجي اجوب واياه هذه البلاد فلما انتهينا الى غرناطة وانا متنكرة باثواب الرجال اقبل علينا سيد اندلسي فاكرمنا وقربنا وكان ذلك منه خداعاً واحتيالاً على اسري ولو لم يتبين لويجي محاله ويلج في التباعد عنه لوقعت في حبالته فعدت ولم تزدني الاسفار الا هماً وحزناً وما زلت الى هذا اليوم ابكي وانوح واطلب الموت ليجمعني بك واذا بالقضاء قد جمعنا بمعجزة احياء فردني الى الوجود ثانية ووهبني حياة جديدة

فجعل كاميل يقص عليهم قصته من حين فرغ من امر فلورانسا الى تلك الدقيقة وافاض عن سجنه واعتقاله في مغائر الجن ووقوع الضر والمكروه به ووقوفه على سر قتل ابيه من الخادم بطرس الذي وجده هناك مسجوناً وعن فراره مع اصحابه واخبرهم كيف امضى بكاترين امر ابنها

فقتلت اشنع قتلة وكيف دخل ميلان بزي القروي ومعرفة الراهب فلامبو به ثم مقابلته لجان ماريا ودفع تلك الرسالة اليه وانتهى الى غرق السفينة به وبصاحبيه روبر ومرتينو واسره من زرارا ولقاء بلانكا عنده وهيام حسناء به ونجاته بنفسه واحتيال الدليل لسلب الدنانير وسل الجواد ومصادفة الراعي الى اخر ما الم به ووقع له

فكان الجميع اذنين له ومقبلين عليه وسامعين منه والحديث خلال ذلك يصرفهم تارة الى السخط والغضب والتضرم وطوراً الى البكاء والكآبة واونةً الى الامن والرضا والفرح وآونةً الى الدهش والعجب وهنيهة الى الجزع والوهل والتوجس وكانت فرجيني في كل برهة تطوق كاميل بذراعيها وتضمه الى صدرها خوفاً عليه كأن الاخطار الآتي على ذكرها ما برحت ملمة به

وبعد ما استفرغ ما عنده الى اخره ولم يبق في القاعة سوى فرجيني دنت منه وقالت ودمعها هامل على جيدها

ـ هل بعد هذه النكبات والنوائب التي انما نابتك بسببي ما برحت تحبني يا كاميل

فسجد كاميل عند قدميها وقال احبك يا فرجيني حب الجبان لنفسه ولولاكِ لم يكن لي في الحيوة مطمع فالى ذكرك كنت ارتاح في جميعِ ما اصابني من الضرر وحبك كان ملهمي الصبر والتجلد ولولاه لمت اسى ثم مد اليها يده فصادفت يدها فتماسكا وكفا عن الكلام وجرى بينهما حديث العيون والقلوب وبعد سكوت هو ابلغ فصاحة من الكلام مالت اليه فرجيني فتعانقا وفاضت ارواحهما بالحب حتى غفلا عن الوجود ولبثا

كذلك برهة لا ينطقان مخافة ان يفارقهما النعيم او تشمت بهما عذراى الحب او تغادرهما السعادة ولسان حالهما يقول ما الذ اللقاء بعد الفراق

الفصل العشرون

وقد يجلب المعروف خيراً لاهله　　اذا وضعوه عند من يستحقه

بعد ان استقر النوى بكاميل وقر عيناً بقرب حبيبته واعز الناس عنده جعل اهتمامه بالتفتيش عن صديقيه روبر ومرتينو ليعلم كيف افضى بهم حول الدهر فانفذ السعاة والرسل يجوبون الموانى الاسبانية كلها متنسمين اخبارهما وبعد ان طافوا مرسية . واليكنت . وفالانس وكاتسيلون . و برسلونا . انصرفوا مجهودين دون ان يروا لهما عيناً ولا اثراً فضاق صدر كاميل ونغص ذلك عليه عيشه وعزم على ان يرحل الرسل الى فرانسا لانصراف ظنه انهما ربما مضيا اليها

وكان يفكر خلال ذلك في حيلة يحتال الخلاص بلانكا بعد ما غادرها مع حسناء تتهيأ الفرار وكان في خوف من زرارا ان يغتصبها ويبلغ منها غرضه وان حسناء ربما تلتمس المخرج مما وقعت به فتتهمها انها سهلت له سبل الفرار فتتمحل هذه الحيلة امام شقيقها زرارا احتيالاً لامرها كي لايعرف باطل ما اتت به فلا يلبث ان ينتقم من بلانكا فيذيقها العذاب ولكي يتعجل في انقاذها اوعز الى مؤدبه ان يلم بدار حاكم المرية ويلتمس منه كتاباً الى عامل مالقه في شان انقاذها من زرارا الآسر لها وان يسرع الكرة اليه

بالكتاب ليبعثه مصحوباً بمقدار من المال فداء عنها ثم بعث بجاسوس من عنده الى مالقه يتنسم اخبار بلانكا من قصر زرارا الى ان يعود المؤدب واقام ينتظر الجواب

وكان كاميل يجلس في كل صباح ومساء الى حبيبته فرجيني في الروض بين الزهور والرياحين يتساجلان كالفي حمام ويعيدان ذكرى ايام سلفت لهما في مونزا وكان يكتمها ما يعرض له من امر الاقتران بها اذ يراها في نحول شديد من تاثير الحزن وليس لها قوة تساعدها على الاخذ بما يحب ويرى من الصواب ان يرجيء حديث الزواج الى حين تعاودها العافية وبهاء الصبا

وبينما هما في احد الايام جالسان على هضبة من الارض تشرف على القرية انشأت فرجيني تقص على كاميل وقائع الايام التي قضتها في ذلك المكان وعما ازدرعته من الايادي ووضعته من المعروف والاحسان عند اهل تلك القرية حيث كانت تعود مرضاهم وتعول الفقراء منهم وتجري عليهم الرزق وتتصدق بصدقات جمة زكاة عن نفسه وعما كانت تجده في ذلك من اللذة والتعزية القلبية التي قلما يشعر بها الاغنياء الموسرون الذين يشغلهم المجد ويصرفهم الحرص عن عمل الخير واصطناع المعروف مع ما فيه من كبير الاجر وجلب الخير وصرف المكروه

وطلبت الى محبها ان يصحبها هذه الكرة ليرى عياناً ما عند هولاء القرويين من الوفاء ومعرفة الجميل وشدة شكرهم للمحسن اليهم بخلاف بعض الناس المتمدنين الذين قلما يرعون حرمة جميل او يجازون من اسدى اليهم معروفاً كان فاعله مديون به لهم بل ربما انحرفوا عن الشكر وجازوا الفعل الجميل

بالقبح وعندما اصبحا انطلقا الى القرية

واتفق ان ذلك اليوم عيد والناس عطل عن الاشغال فمضت فرجيني بحبيبها الى الكنيسة وبعد ما صلت خرجت تطلب عياذة المرضى وزيارة الفقراء وكاميل الى جنبها فصار يرى النساء يقبلن عليها فيقبلن اطراف ثوبها والاولاد يتسابقون للثم كفيها ومنهم من كان عند رؤيتها يرتكض الى البرية ثم يقبل وفي يده ضمة من ازاهر الحقل تقدمة لها والشيوخ يقفون لها اجلالاً ويحيونها والكل ينادون هذه المحسنة الينا والمولية ايانا المعروف هذا ملاك السماء الجميل المرسل لدفع الاذى والضر عنا وهي في خلال ذلك لا تفتر عن شكرهم وتعزيتهم برقيق الكلام ناثرة عليهم الدراهم ومجزلة لهم العطية ومبشرة اياهم بالقاء من كانت تحسن عن نفسه وانه قد عاد حياً وتدلهم على كاميل فتتعالى منهم اصوات التهاليل والابتهاج

ثم جعلت تغشي منازل المرضى واكواخهم الحقيرة وتصلهم بنظائر نعمها وعطاياها حتى انتهت الى منزل في اطراف القرية فاستقبلتها صاحبته وبعد ان قبلت يدها وسلمت عليها قالت لها بلهفة ياسيدتي فرجيني ان رجلين غريبي الديار رثي اللباس قد جاءا بالامس ووقفا على باب منزلي وسألاني الضيافة فحنوت عليهما ورأفت بهما اذ ابصرتهما شديدي السقم والضنى فأويتهما الى منزلي وهيأت لهما طعاماً الا انهما اصبحا اليوم في ضنك وعياء لا سعي لهما ولا حركة ولقد سألتهما مراراً عن شانهما فلم يجيبا

فاسرعت فرجيني في الدخول عليهما واوعزت الى كاميل ان يتبعها فلما انتهت الى داخل المنزل الذي كان عبارة عن كوخ بصرت برجلين

متوسدين الارض في زاوية من المكان دون غطاء وعليهما اطمار بالية وقد ذوت غضاضة جسمهما وبضاضته ولم يبق منهما الا جلد وعظم وهما يئنان انيناً مصدعاً فنادتهما بصوت لطيف فاستيقظ احدهما وحينما وقع نظره على فرجيني ورآها ترفل بالدمقس وبالحرير استوى قاعداً وصار يزيدها نظراً فسألته عن امره ومن اين اقبل وقد شامت في وجهه لوائح النعمة فلم يجبها الا بنظر ذليل ثم التفت فابصر كاميل مقبلاً واذ تفرس في وجهه ارتجف كالغصن الرطيب في مهب الريح وامتقع لون وجهه وتفجرت مقلتاه وفغر فاه يحاول الكلام فاعتقل لسانه فبسط ذراعيه وجعلت دموعه تنحدر على عنقه وذقنه متدفقة كالعارض الهطل فغابت عن كاميل معرفته لاول وهلةٍ لكنه حين سمعه يناديه بصوت لا شاءهُ الفرح الشديد — كاميل ... صديقي الامين صاح وقد لحقه الدهش هذا حبيبي روبر روبر وهوى على عنقه يقبله

وكان القبطان مرتينو نائماً الى جنب روبر فاستيقظ مذعوراً ورأى الامير يعانقه ويقبله قبل ان ينجلي له الامر فادركته اذ ذاك الحيرة واستعجم عليه الحال لكنه مذ عرض له الامر وعرف كاميل صاح به اخي انت يا كاميل وانى اقبلت ثم حانت من الصاحبين التفاتة فبصرا بفرجيني واقفة فوق راسهما تبكي لشدة فرحها فصاحا منذهلين — ماذا نرى افرجيني ايضاً. ثم غلبهما الفرح والسرور وقطعهما الضعف والعياء عن مزيد الكلام فجعلا يبكيان فبكى معهما الامير والدوقة واعقب ذلك صمت عميق خطرت فيه كمر الخيال على قلوبهم ذكرى ما سلف من الحوادث والاهوال في مندرج

الايام فكان مشهداً تناجت فيه الارواح والافكار والقلوب وهم سكوت

ولما رأى كاميل ان صديقيه في حال يحتاجان معها الى الراحة والاسراع في العناية والمعالجة ليفرج عنهما روعهما ويسري عنهما ما كان وقع في نفسهما من تاثير المفاجأة نادى بعض رجال القرية وامرهم ان يحتملوهما الى القصر حيث احسن منقلبهما وبالغ في العناية بهما وصرف عشرة ايام لم يفارق فيها وسادتهما يعني بهما عناية الام بالطفل الرضيع حتى عاودتهما القوى وابلا من اعتلالهما وعندما اصبحا قادرين على الخروج حدثهما بقصته وكيف اجتمع بفرجيني ولم يكتم الكولونل روبر خبر حبيبته بلانكا واجتماعه بها في قصر زرارا ومحاولتها الفرار مع حسناء فطابت نفس روبر بهذه البشرى التي اعجلت شفاءه ثم اخبره الامير عما تهيأ له من التدبير لخلاصها من ربقة الاسر وانه لولا اهتمامه بالتفتيش عنهما في سواحل البلاد لادرك ما اراد من نجاتها

ثم علم منهما انه بعدما غادرهما عقب تحطم السفينة استمسكا بقارب افلت منها فركباه مع الربان ودفعته الامواج والعواصف فسلك بهم لجج البحار وبقي ذلك امرهم مدة اربعة ايام حتى اصابهم عطش شديد وسعار من الجوع هد منهم القوى والحيل فمات الربان واما هما فقد اصبحا في نزاع مع الحمام حتى غابا عن الوجود فلما استفاقا في اليوم الخامس وجدا نفسيهما في بيت رجل يصيد السمك في تراغون من اعمال اسبانيا قد عثر بقاربهما على الشاطيء ووجدهما فيه على آخر رمق من الحياة فاتى بهما منزله وجعل يسكب في فيهما المرق ويسقيهما الشراب المنعش حتى رد اليهما صوابهما فشكرا له صنعه بهما واقاما عنده خمسة ايام وهو يرفق لهما في الخدمة وريثما استقام حالهم

ودعاه بعدما وهباه القارب ونفحاه بازرار اثوابهما التي هي من ذهب وانطلقا يجوبان الافاق يسألان عن كاميل كل غادٍ ورائح ولما فرغ ما عندهما من المال اصابهما جهد وضرر شديد في موضع غربة وهما لا يملكان الا ما عليهما من الثياب واحتاجا الى ما في ايدي الناس والجأهما السغب الى المسألة

وما برحا يتجولان سعياً على القدم من بلد الى بلد حتى اعياهما التحمل والترحال فعقدا النية على مباينة تلك القبائل والبطون الا ان الفقر والمرض قعدا بهما عما ارادا فاحتاجا ان يطرقا القرى في التماس القوت حتى ساقهما القدر الى تلك القرية التي وفقا فيها الى لقاء الامير وفرجيني

وبعد ايام عاد المؤدب لويجي من عند والي المرية وصحبته الكتاب الى عامل مالقه ليطلق اسر بلانكا ببذل الفدية اذ كان عليها مصطلح الاسبانيين والاندلسيين وجاء بعد ذلك الجاسوس الذي انفذه الامير الى مالقه وانباهُ انه قصد قصر زرارا واطرف البواب بالمال واحتال عليه حتى استخرج سره فعرف ان بلانكا ما برحت هنالك محجوراً عليها وزاد علي ذلك انه بينما كان يطوف حول القصر قبل دخوله على البواب بصر بخمسة رجال يتطاولون نحو القصر ويحومون عليه ويأتمرون فيما بينهم ثم رآهم كذلك في اليوم الثاني والثالث دون ان يتبين ما يريدون ان يعزموا عليه

فلما سمع كاميل ذلك جزع ومنعه عقله ان يظهر لصديقه روبر جزعاً اذ عرض له ان دلبانو قد اهتدى الى المكان الذي فيه بلانكا فقدم مع رهطه البرافي الذين بصر بهم الجاسوس يلتمسون اختطافها ورأى ان يستدرك امرها قبل ان يدرك دلبانو ما اراد من حاجته

وكان كاميل شديد الرغبة في مباينة تلك الربوع والشخوص الى ايطاليا لان صفو الزمان له بعد اجتماعه باحب خلانه اليه هاج في رأسه حكة على اخذ الثار من عداته وقاتلي ابيه وحرك فيه سواكن الاحقاد الكامنة في صدره عليهم كمون النار في الحجر حتى لم يستطع لنفسه ضبطاً فلح في الرحيل واجتمع رأي اصحابه على ذلك فباع القصر والارض التي كانت لفرجيني بعد ما وقف الخصيب منها الى اهل القرية احساناً من الدوقة يذكرهم بها على ممر الايام ووهب الراعي جميع الاغنام التي كان يرعاها وسار معهم يطلب المرية فحينما انتهو اليها استأجروا سفينة تسير بهم الى جنوا عائجة بمالقه فركبوها فاقلعت بهم تشق عباب الماء

الفصل الحادي والعشرون

﴿ الملاّح ﴾

وفي الصباح اشرفوا على مدينة مالقه وحينما رست السفينة على مقربة من الساحل اقبل كاميل وروبر والمؤدب على العامل ودفعوا اليه كتاب والي المرية ووضعوا بين يديه الفدية التي حملوها اليه فلما تدبر العامل كلامهم كبر عليه غدر زرارا فانفذ من ساعته بعض الحجاب ليأتوه به الا انهم ما تولوا حتى اقبلوا فاخبروه ان خمسة رجال غرباء الديار قد طرقوا قصر زرارا في الليل البارح وهو غائب في دعوة بعض اصحابه فقتلوا البواب وواحداً من العبيد وثلاثاً من الجواري واختطفوا الفتاة الميلانية مع شقيقته حسناء وادلجوا الى الفرار فلما درى بذلك زرارا ركب البحر في سفينته ومضى في اثرهم

فلما سمع ذلك الامير وروبر والمؤدب اشتد همهم وفصلوا من عند الحاكم بعدما شكروا له اهتمامه ولم يخامرهم شك بالرجال الخمسة الذين رآهم الجاسوس يحومون حول قصر زرارا الا انهم دلبانو ونفر من البرافي الذين عرفوا اثر البحث بمكان بلانكا فاختطفوها مع حسناء ولعلمهم ان دلبانو لا محالة منطلق بهما الى ايطاليا طمعوا في ادراكه فاقلعوا لوقتهم قاصدين نحو ايطاليا واوعزوا الى الربان بالتشمير والانكماش في السير وجعلوا يراقبون وهم علوّ على السفينة كلما يتراآى لهم في منتهى الافق

وفي اليوم الثاني نحو الظهيرة بينما كان الرقيع صاحياً والاثير صافياً وقد بطوء سير السفينة لركود الريح وبعد مهبها اذ لاح لهم في صدر البحر سفينتان جاريتان تقفوا احداهما الاخر وتجد في تواليها ادراكاً لها

فنشروا في الحال كل شراع في سفينتهم ليلحقوا بها فلم تبطيء ان مرت سراعاً تجري في اثرهما وقبل ان يدنو منهما رأوا ان المركبين قد وقفا والتحما جنباً لجنب فهتف الربان وهو مادّ نحوهما بصره هذان مركبان يقتتلان ثم حقق النظر وهو يزوي ما بين عينيه وقال ارى ان الاول قرصان والثاني اندلسي يشبهه ها ان الحرب قد اشتبكت والتحم الفريقان واشتد العراك

فلم يعترض الامير ريب بانهما مركبا زرارا ودلبانو فنبه اصحابه وخدمه والملاحين ان يكونوا على اهبة القتال ليريشوا جناح الفتنة ويصلوا نارها حتى اذا اشرفوا على السفينتين رأوا القتال على سطحهما شديداً والرجال تفيض من كل ناحية الى الطعن والضرب وبصروا بزرارا يحارب ويكافح في من معه من اصحابه وقد كاد يتضعضع ركنه ويكبو زنده وترجح كفة

النصر لعدوه عليه لان رجاله حينما نظروا سفينة الامير الاسبانية مقبلة نحوهم وتبينوا منها قصد القتال جزعوا اشد الجزع لوهمهم انها همت بنجدة عدوهم فتقهقروا الى الوراء وقد ايقنوا بالهلاك لكنهم مذ رأوا اصحابها قد تفلتوا الى قتال دلبانو وصاررا واياهم يداً واحدة اشتد فرحهم وزاد ذلك في عزيمتهم فعاودا الكرة مهللين مكبرين

وكان روبر اول ما وقع نظره على دلبانو فصاح وقد عرته هزة القتال والجلاد

ــ هذا دلبانو اللئيم الغادر فان بلانكا عنده في السفينة وكما يثب الاسد على فريسته وثب من مركبه الى سطح سفينة دلبانو التي كانت مرسحاً للقتال والسيف في يده مشهرٌ وتبعه مرتينو والبحارة والخدم وتلاهم الامير كاميل الذي شغله اغماء فرجيني من شدة جزعها عليه فغادرها في حضن مؤدبه واندفع الى حومة الوغى

فارعب ذلك قلب دلبانو بعد ما خامره الفرح بقدومهم اذ خيل له في فورة الامر انهم اقبلوا الى نجدته ومعونته ومذ رآهم قد انقضوا على قومه كالجوارح وابتدروهم بطعن يعمي النواظر ظن انهم قوم قد اختلط عليهم عرفان الصديق من العدو فاهاب بهم وقد غابت عنه معرفتهم

ــ رويدكم ايها الابطال والكماة فانكم تقاتلون اعواناً واصحاباً وتنجدون عليهم عدواً فسمع صائحاً يقول ــ خسئت يادلبانو وساءت امانيك فانت بغيتنا واياك نريد فالتفت دلبانو ليرى الصائح واذا به قد انقض عليه كالصاعقة وعاجله بطعنة قتالة فانحرف عنها دلبانو فوقعت في ذراعه

فجرحته فسال دمه فجاش جاش دلبانو عندما جرح وانطبق على خصمه الكولونل روبر ونشأت بينهما الحرب واشتد القتال وطال دون ان يلقى احدهما من الاخر فرصة

وكان القبطان مرتينو قد حمى ظهر صديقه روبر وجعل ينفر البرافي من حوله ليتسع له مجال الطعن والامير كاميل مع زرارا ورجاله الاندلسيين خلال ذلك يقاتلون اصحاب دلبانو حتى اثخنوا فيهم الجراح وكاد جمعهم يتقطع الا ان واحداً من البرافي رمى زرارا بنصل فاصاب ساقه فخرقه فخر على وجهه صريعاً

وكان في مركب دلبانو رجل عليه لباس ملاح قد وقف منذ اشتبك القوم بالقتال في موءخر السفينة محتجباً عن الابصار كرقيب يراقب حركة المقتتلين عن بعد دون ان يدنو منهم او يختلط فيما بينهم ووجهه يتلون كتلون الحرباء وحينما اقبلت سفينة الامير واصحابه وتفرس فيها قصد القتال صار كله عيوناً تتوقع ظهور اصحابها فلما وقع نظره على الامير وصديقيه روبر ومرتينو وابصرهم قد تجلببوا بجلباب الفتنة تلألأ وجهه فرحاً وبهجة واشرقت على محياه انوار الفوز والاستبشار ونبه عزيمته للقتال وصار ينتفض كعصفور بلله القطر وحين رأى الكولونل روبر قد طعن دلبانو ووقعت الطعنة في ذراعه لاحت على مبسمه ابتسامة شفت عما يختلج في صدره

ثم ما لبث ان تحول عن مكانه وتقدم الى حومة الوغى وعيناه محدقتان في دلبانو ولما رأى دلبانو زعيم القوم رفاقه البرافي وبحارته قد وقع بها التقصير وصارت جزر سيف الامير وكان قد اعياه امر روبر ولم يجد له

فرصة ولا حيلة تأخر الى الوراء ورماه بنصل كالخنجر رقيق الشفرة كاد ان يخرق صدره لو لم ينحرف عنه ثم ارتكض لنجدة اشياعه واسعافهم

وكان قد رد في تلك الفترة الى فرجيني صوابها فاتت سطح السفينة واندفعت الى الجهة التي ترى منها القتال ووقفت وقوف اللبوءة التي وقعت بالشرك واشبالها توءخذ على مشهد منها تحدق بكاميل كأن جوارحها استحالت عيوناً وكأن قلبها الخفوق اصبح هدفاً وغرضاً لوقع مضارب المقتتلين وهي لشدة الرعب والفزع تكاد تخونها رجلاها

وحينما فصل دلبانو من قتال روبر ومال الى معونة اصحابه بصر بكاميل امامه وراى غفلة منه يختلسها فاتى مسرعاً من وراء ظهره وسل خنجره ليبطش به فوقع عليه نظر فرجيني فصاحت هلعاً وقد انتصب شعرها وارتعدت فرائصها ثم رفع دلبانو يده وهم بالطعنة واذا بالملاح الذي كان في موءخر السفينة محتجباً قد ظهر بغتة وفي اقل من لمح البصر وثب كالسهم المرسل على دلبانو وعاجله بضربة في جنبه فوقع الى الارض قبل ان يبلغ الخنجر جسد الامير ثم زعق زعقة عظيمة ارتجت لها قلوب المحاربين فاحدقت به ابصارهم فلما تبينه الامير والكولونل والقبطان صاحوا معاً وقد ابدعت فيهم معرفته

رودريك رودريك صديقنا رودريك

لان ذلك الملاح كان رودريك حبيب نيانزا الذي خلفوه في بللنزونا مع الخادم بطرس ليثما يبرأ فخذه من السهم الذي اصابه ليلة فرارهم من مغائر الجن فاجابهم انا رودريك ايها الاصحاب فدونكم هوءلاء اللئام لننجز امرهم

وانصب كالسيل على قوم دلبانو ومال عليهم ميلةً شديدة فعندما راى ربان تلك السفينة تفلت رودريك الى قتال دلبانو اشار الى بحارته بان تغمد سلاحها وتنحى الى الوراء

ولما عاين الاندلسيون اصحاب زرارا طعنة رودريك لدلبانو وعليه ثوب ملاح وابصروا تاخر ربان السفينة وبحارته الذين معه التبس عليهم الصديق والعدو فوقفوا حيارى لا يدرون اي فئة يحاربون واما البرافي فحين رأوا ما نزل بهم وما صار اليه زعيمهم دلبانو كفوا عن القتال وسلموا انفسهم اسارى وحين خمدت نار الحرب اقبل رودريك على اصحابه يعانقهم ويهنئهم بالفوز والسلامة ثم تقدم الى بحارة الاندلس وامرهم ان يعودوا الى سفينتهم ويخبروا زرارا ان حسناء شقيقته لا تلبث ان ترد اليه عن كثب

الفصل الثاني والعشرون

﴿ اعجل العقوبة عقوبة الغدر ﴾

ان لرودريك وهو في سفينة دلبانو وعليه ثوب ملاح خبراً نرويه بالقليل من الكلام وذلك انه بعد فراره من مغائر الجن ورحيل اصحابه عنه اقام في بللنزونا مع حبيبته نيانزا وامها والخادم بطرس ريثما بريء ساقه واندمل جرحه فطلبت اليه ام نيانزا ان يعقد له على ابنتها فيتزوجها فارجأ ذلك لعودة الامير وصديقيه الذين كان يتوقعهم فلما ابطأوا عرض له ان يتشاغل عن حبيبته فاتى ميلان متنكراً اذ قد بلغه ان الجبليين والفلفيين قد الفوا شعبة سرية في اماكن خفية لينكروا على جان ماريا عرشه ويأتمروا

به لتماديه في الغواية والشر ومبالغته في القسوة والظلم فانضم اليهم حباً بالانتقام من جان ماريا وبريفارا لا رغبة في مشايعتهم ومضافرتهم

وكان زعيم القوم رجلاً يدعى لاندو قلما يرى مثله في علو الهمة وكمال العقل وشدة العزيمة فنصح له رودريك ان يزدلف الى الكونديتاري فسينوكان وباندلوف مالاتستا بما عنده وعند قومه من المال واصناف الكنوز ويدعوهما بعد ذلك الى نصرتهم والتألب معهم على قتال جان ماريا فاخذ لاندو بقوله وعلم ان فيه الخير وعول عليه

وبعد ايام اتى رودريك صديقيه فسينوكان ومالاتستا اللذين كانا اشد الكونديتارية باساً وامضاهم عزيمة واكثرهم غزوات ووقائع فاطرفهما بالمال الذي جاء به جعالة الحرب بعدما اخبرهما بما طرأ على خليلهما الامير كاميل ويسكونتي وقواده بعد حرب فلورانسا وبسجنه في مغائر الجن الى اخر ما هناك

فعظم ذلك في نفسهما واشتد بهما الامر ومن يومها جندا جنودهما وزحفا بهم في طلائع الجبليين والفلفيين وناصبوا جان ماريا حرباً شديدة حتى ظهروا عليه وحصروه في ميلان واخذوا عليه مهاربه ومسالكه فاكره على طلب الصلح او السلام (وهي الكلمة التي كان يعاقب بالموت من نطق بها في ميلان او في معابدها) ثم عقدوا معه صلحاً بعدما اخذوا عليه العهود والمواثيق انه ينفي مستشاريه واصحاب رأيه الذين كانوا يزينون له الامور الفظيعة ويحملونه على ارتكاب الجنايات الموبقة وان يصفح عن الجبليين ويقبل منهم حاكماً ينتخب مع واحد من الفلفيين وان يدفع غرامة الحرب

مركبة مشحونة فضة

وكان رودريك في خلال هذه الحرب يترقب رجوع كاميل وروبر ومرتينو فلما لم يقف لهم فيها على اثر اتى البلاد الاسبانية يجسها ويرودها وفيما هو ذات يوم مار في احد شوارع مدينة مرسية بصر باربعة من البرافي فعرفهم اذ لم يكونوا سوى ماركو وماستلي ومايو وروكو اعوان دلبانو الذين حملوه مع كاميل الى مغائر الجن اثر موقعة الكمين فاسعر منظرهم نار حقده ونار الحقد لا تخبو ثم قال في نفسه لامر ما اتى هولاء البرافي هذه الديار فهم لم يقدموها على غير علةٍ فلا بد لي من اقتفاء اثرهم فاطلع على شانهم ولا غرو ان دلبانو معهم في هذه الديار فسوف اراه واحتال له ٠

ثم تبعهم وهو يمشي بعيداً عنهم حتى اذا ولجوا حانةً دخل هو في تواليهم وجلس في مكان يسمع منه حديثهم فلا يرونه اما هم فلجوا في طلب الخمر فكان الخمار يوافيهم بزجاجة بعد اخرى فلما استحكم منهم الشراب قال كبيرهم ماركو اني اشوم طالع النحس في سماء هذه السفرة التي لا اتوسم فيها الخير

قال ماستلي اسمعوا اسمعوا ان ماركو قد تشاءم من طالع هذه السفرة وهو منصرف عن بلاد الاسبان غير مبقٍ فيها زجاجة خمر لاهلها

قال مايو ولا غادة لصاحبها

قال روكو ولا خليلة لخلها

قال ماركو متضجراً وحق ديانا لقد تركتموني اكره صحبتكم لاني ارى الكلمة تخبث في سمعكم قبل ان تذوقوها

اجاب ماستلي ما حيلتنا اذا كنا نراك كالعاشق المجفو تتشاءم من

كل طالع نجم في سماء الغرام فلا ادري كيف خطر على بالك الشوءم في بلاد استنزفت خمورها وسلبت كنوزها ودنانيرها وفحشت في نسائها وحورها

اجاب ماركو انا لم اقل هذا الا لروءيتي ان دلبانو زعيمنا قدهم بعظيمة وسيكلفنا ركوب اهوالها وتحمل اثقالها ولا ارانا معه الا كالضرس الماكول لا يزال صاحبه منه في الم واذى حتى يفارقه ونحن لم نبرح صائرين الى غرضه نعاني الصعب ونركب الاهوال حتى نهلك او يفارقنا

قال مايو وما عول ان يفعل دلبانو بعدما علم ان بلانكا ماسورة عند سيد اندلسي من سراة القوم في مالقة

رد ماركو عزم ان ينطلق بنا اليها وفي رايه ان يحتال لخطفها من قصر آسرها معما في ذلك من الاغترار وقلة الحزم وما كان اغناه عن ان يخاطر بنفسه لاجل فتاة قد تركته لكرهها له اخا كان خليقاً وجديراً به ان يدعها وشانها ويطلب اعداءنا الالداء الذين قد فروا من مغائر الجن والذين بعثوا من القبور بعدما غادرناهم امواتاً في ذلك الليل امام البرج المسحور فيحتال لهم لنأمن شرهم

— قال روكو من تعني

— عنيت بقولي الامير كاميل وروبر ومرتينو ولا سيما ذلك الكمي رودريك الصادق الباس فاني لست بآمن ان يصيبنا منه البلاء فنحن قد غدرنا بهم وقد يقال اعجل العقوبة عقوبة الغدر فاذا لم نسع في هلاكهم بلغوا منا ما ارادوا! وانا لا اكتمكم باني ما زلت مذ فروا من مغائر الجن الى هذا اليوم في خوف ووحشة واراني رغماً عن معاطاتي الخمرة كئيباً كمن يشعر بدنو منيته

قال مايو معربداً من سكره اي وديانا لقد اصاب ماركو الهبل والتهوس وما احقه بالترهب والتعبد فاني ارى شعائر التوبة والعفاف بادية على سحنته فما عليه الا سكنى الدير حيث فيه الخمور المعتقة فهي له نعم الدواء

صاح ماستلي منتهراً صه مه فان ماركو لم يقل الا صواباً فان الاحقاد مخوفة واخوفها واشدها ما هو في نفس الامير واصحابه فلو تدبر دلبانو امره لترك بلانكا في احضان الاندلسي وسعى في هلاك عدو يخشى جانبه فانه موتورٌ حقودٌ ليس بناس ما وتر بهِ ولا مصروف عنه فكره

اجابه مايو وما ادراك يا ماستلي ان ليس ذلك في نية دلبانو بعدالوصول الى بلانكا فانها خطيبته ويأنف ان يراها تتقلب في احضان الاندلسي

قال روكو ان بلانكا غير ملومة فانها قد سئمت من سكنى الدير وملت من العبادة فهي تتقلب في احضان الاندلسي لتعتاض عما ضاع في الدير سدى

فبينما هم في الحديث ورودريك آذن لهم واذا بدلبانوا قد اقبل نحوهم وهو يقلب شاربيه ويزوي ما بين عينيه فلما بصروا به استووا قياماً وسألوه عما فعل فاخبرهم انه عثر على سفينة اسبانية وقابل ربانها واتفقا على ركوب البحر في صباح الغد الى مالقه ومنها الى جنوا وان الربان لا يلبث ان يغشى تلك الحانة ليدفع له اجرة السفينة

ثم جلس يشرب الخمر مع صحبه ولم تكن الا برهة حتى اقبل الربان وجلس اليهم فدفع اليه دلبانو المال الذي اجتمع عليه الراي وانقلب مولياً مع زمرته فلما ابتعدوا هب رودريك من مكانه واقبل على الربان فحياه ثم جعل يحدثه ويسأله عن شأنه ويبالغ في اكرامه حتى آنس به وادرك

ان رودريك يريد امراً غير الذي ظهر منه فقال له — اني علمت من نظرك سر نفسك وما في ضمائرك فقل ولا تكتمني شيئاً

فاجابه رودريك اني وان لم اكن اخبرتك بما اريد فما خفي عليك ذلك مني واذ لا بد من القائه عليك فاعلم انك في الغد راكب البحر الى مالقه ومنها الى جنوا فاريد منك ان تجعلني في صحبتك وتتخذني كبحار في سفينتك فاترآى باثواب الملاحين كي لا يعرفني القوم الذين سيركبون السفينة فان انتَ رأيت ان تسعفني بحاجتي التي لا خطر لها فلك مئة ذهب تاخذها في الحال مني بعد ان تقسم لي ان تكتم سري ولا تكون غادراً فلم يرد الزبان حاجته بل اجابه الى ما طلب طمعاً بالمال الذي يصيبه منه ومن ساعته انطلق به الى سفينته والبسه ثوب ملاح . ولكي يخفي امره عن بحارته اخبرهم انه ملاح جاء به ليخدم في المركب نظيرهم

فلما كان الغد اقبل دلبانو مع رجاله البرافي فركبوا البحر الى مالقه حتى اذا قدموا على تلك المدينة امر دلبانو ان ترسو السفينة بعيداً عن الساحل محتجبة عن الانظار وعندما جاء الليل اتى المدينة خفية مع قومه كي لا يعلم احد بمجيئهم او يرتاب بهم فلبثوا اربعة ايام في المدينة ورودريك يتوقع عودتهم وفيما هو جالس على سطح السفينة وقد مضى هزيع من الليل سمع صوت صفير على مقربة منه فالتفت فنظر دلبانو والبرافي قد اقبلوا في القارب الى السفينة واذ كان لا بد لهم ان يمروا حيث رودريك قاعد فحين دنوا منه استلقى على ظهره متناوماً حتى تجاوزوه لكنه رأى

انهم يحملون امرأتين مغلولتي الايدي وفم كل منهما قد سد بمنديل حتى لا تضج او تجلب فادرك ان هولاء الاوباش قد وفقوا الى خطف حبيبة صديقه روبر لكنه لم يدرِ من يصحبون معها

ثم ان السفينة اقلعت وجرت جرياً سريعاً في سكون الليل فصبر رودريك حتى اذا اصبح احتال في الدنو من الغرفة التي سجنوا بلانكا فيها فرأها سيئة الحال مرتعدة الاوصال تفيق برهة ويغشى عليها ساعة والى جنبها جارية اندلسية قد اقبلت على وجها تلطمه وتبكي وتصيح مستغيثة

فهاله الحال واخذ من ساعته يفكر في وجه الحيلة ليظفر بدلبانو وبمن معه نخطر له ان يغدر بهم وهم نيام ويذبحهم ذبح الاغنام على غفلة من الربان والنوتية لكنه رأى ذلك تغريرًا بنفسه ومخاطرة بها لانهم في عدة عديدة

وبينما هو في هذا الاهتمام رأى البحارة تتراكض من هنا ومن هناك وتتأهب والبرافي تجمع امرها وتحتشد فعل الذين هموا بالقتال فسال احد البرافي عن اسباب ذلك فدله الى سفينة مقبلة من بعيد واخبره انها سفينة اندلسية قد جاءت في طلب خلاص الفتاتين

وكانت تلك سفينة زرارا التي لم تلبث ان ادركتهم واذكت نار الحرب على ما مراليه الالماع فتأخر رودريك الى ناحية من السفينة واقفاً يراقب قتال الفريقين وهو كاره ان يغلب دلبانو فينجو ومتخوف على نفسه الوقوع في اسر الاندلسيين اذا وفقوا الى النصر على دلبانو

وبينما هو في اهتمام وحيرة اقبلت سفينة الامير واصحابه ولقد رأينا شدة فرحه عندما عرفهم وتسرعه الى القتال وكيف فاجأ دلبانو زعيم البرافي بطعنة

في جنبه عندما رآه قد اختلس غفلة الامير كاميل وهم به

الفصل الثالث والعشرون

ان النساء لقد بلين العالمين بجبهن
كن وايم الله لو م لاغيرة في قلبهن
سدن العباد وبات كل الناس صرعى حربهن

ان نجاة كاميل من قصر حسناء في تلك الليلة بعد ما هم ان يفر بها مع بلانكا لولا مفاجأة زرارا لهم ودخوله عليهم بغتة كان قد بلغ من حسناء واحزنها ثم لم تلبث بعدما تداركت امرها واحتالت على اخيها حتى لا يطلع على باطل ما اتت به ان تغير على بلانكا قلبها

فرأت بلانكا ذلك منها ولكي تدفع الشر الذي تتخوف منه على نفسها جعلت تعللها بالامال وتقنعها بان كاميل لا يلبث ان يعود فيحتال في خلاصهما ويصرف همته الى ذلك ولا يغير ما كان منه فصدقتها حسناء وجعلت تترقب منه عودة

فلما عمد دلبانو ورجاله الى اختطاف بلانكا وولجوا قصر زرارا وقتلوا العبيد والجواري توهمت حسناء انهم بعثة الامير كاميل اذ لم تخبرها بلانكا عن شأنها مع دلبانو فسلمت نفسها طوعاً الى اولئك البرافي وهي بما صارت اليه جاهلة غير عارفة حتى حملت الى السفينة فعلمت حقيقة الحال فبكت ولطمت وايقنت بالفضيحة والهلاك

فلما ادركها شقيقها زرارا واضرم علي دلبانو لظى الحرب خاف هذا

ان تفر وتنضم الى قومها فجعل على باب غرفتها رجلاً من البرافي يشارفها
ويمنعها عن الخروج كلما حاولته الا انه حينما اقبل الامير واصحابه تفلت
ذلك البرافي الى معونة اصحابه الذين استصرخوه فبادرت مع بلانكا الى
سطح السفينة حيث حومة الوغي واول ما وقع نظر بلانكا على حبيبها
روبر الذي كانت تحبه اكثر من ضوء النهار فكاد يطير عقلها من
الفرح ولم تصدق عينيها حتى ابصرت الامير كاميل ومرتينو ونظرت
فرجيني على سطح السفينة الاخرى فظلت واقفة تشاهد قتال محبها مع دلبانو
ومنعها الفرح والدهش عن روءية الخطر المعرض له

واما حسناء فاول من بدا لناظرها الامير كاميل وعجبت كل العجب
مذ رأته قد صار مع اخيها يداً واحدةً على العدو ثم حانت منها التفاتة
فنظرت فرجيني في سفينتها فلم تدرِ من هي لكنها مذ رأتها شاخصة بملء
عينيها نحو القتال وكان المحب يرى بعين الغيرة ان الاعين واقعة على
حبيبه ولو لم تتوجه اليه لم يخامرها شك الا انها الى كاميل ناظرة وبه محدقة
وانه لتلك الفتاة خليلٌ او حليل فارعب ذلك قلبها لكن ما رأته من
استرسال كاميل اليها في قصرها تلك الليلة حملها على التماس الدليل
لتتثبت في امرها ولتتحقق انه لم يكن لها الا خادعاً فصارت كالرقيب الملسوع
من عقرب الغيرة تتفرس في كاميل وفرجيني فلم يبطيء اذ ذاك حتى قام لها
على الحقيقة دليلٌ لان دلبانو حين هم بالامير ليطعنه على غفلةٍ منه التفتت
بالوقت عينه نحو فرجيني فعاينت ما نزل بها من الجزع وسمعتها حين
صاحت وضجت فتمنت عند تحقيق ذلك ان يقع خنجر دلبانو الطاعن به

الامير في قلبها لانها عرفت انها مخدوعة وان امالها قد اضمحلت سريعاً كحباب الماء من وقع المطر

وعندما انطفأت نار الفتنة حانت من روبر التفاتة فابصر بلانكا واقفة في ناحية من السفينة فقصد نحوها فلما رأته مقبلاً اليها اسكرها شديد الفرح فلم تتمالك ان القت بنفسها بين ذراعيه وقد اغمي عليها واما الامير كاميل فرأى حسناء الى جنبها فتقدم ليشكرها على صنعها به اذ على يدها كان انتعاشه وفراره من اسر اخيها لكنه ما كاد يلفظ اول كلمة حتى ابصر دموع تلك الفتاة تتساقط نقطاً كالقطر بين قدميها فادرك شدة ما بلغ لقاؤه منها وانها عرفت فرجيني فقال لها

ـ اني اعلم يا حسناء ما هو واقع في نفسك الان وانك قد عرفت الكبير والصغير من اموري ولكن علمي هذا لا يمنعني عن الاقرار بان ما حملني على مصانعتك في الحب ليس هو الا التماس الخلاص لبلانكا صوناً لعرضها ان يبتذله شقيقك زرارا وما كنت لولاها لافعل ذلك لنفسي وهي اعظم الانفس عليَّ حرمةً حتى لا يقال اني غششتك

ثم سكت ليسمع منها جواباً فلم تفه بكلام بل تنهدت وظلت ناكسة الراس تبكي فاردف قائلاً

ـ اني لم آتِ اليك ذنباً يا حسناء وانما قبح امري عندك اني جعلتك تطمأنين الى حبي وكتمت ما في نفسي من حب سواك عنك مع انك لو تدبرت كلامي وما اخبرتك به تلك الليلة لما وجدت فيه عهداً ولا معنى يستدل منه على اني ساتخذك لي عرساً او اجعلك لي حليلة وان كان

تلطفي واطرائي بمحاسنك وجمالك بعثك على الظن والاعتقاد بذلك فتكونين انت الساعية بنفسك كاذبة عليها حتى اسلمتها برمتها للحب وان كنت تعتقدين عليَّ ذنباً فاصفحي عنه اذ لعمري ما يستطيع احد ان يتحفظ ان تبدو منه كبيرة او صغيرة نحو صاحبه

فنظرت اليه حسناء بطرفها نظرة لها الف معنى واجهشت بالبكاء فامسك الامير يدها وقال لها

ـ كفكفي الدمع يا حسناء ولا يغلظن على نفسك ما اخبرتك به لاني وحقك لم احاول فيما فعلته مضرةً لك رجوت لك فيه الغوائل وحقيقة انا تواطأنا على الفرار وتوافقنا على الصحبة ولكن ذلك لم يخرج عن حد القول مع اني كنت عاهدت نفسي لو تيسر لك الفرار معي ان اجعلك في صحبتي ما حييت واحسن منقلبك ولا ادع خيراً الا فعلته معك . فان كان قدوم اخيك علينا فجأةً اضطرني الى الفرار بنفسي فما هو ذنبي عندك . فاجابته حسناء وهي تمسح مدامعها

ما ضرني احد سوى نفسي ايها الامير وانت لا ذنب لك فالذنب كله لي لاني وافقت هواي ولم اتثبت في امري ولم اتروَ فيه لاعلم حقيقة الحال فاسترسلت اليك قبل اختبارك وهمت بك دون ان يجري في ظني ان فؤادك مشغول بحب سواي ولقد كاد عذاب هذا الموقف يكون لي كفارة عن خفتي وجنوني لو لم افرض على نفسي ان اعاقبها باشد من ذلك

انت جديرة ان تسر نفسك يا حسناء فقد وضعت معروفك عند

من يقوم بشكره فان يدك عندي لا تنسى

— لقد تكافأنا بالمعروف ايها الامير فقد خلصتك من اسر وخلصتني من مثله وزدت عليه ان كنت لاخي معواناً على العدو وعاملته بضد ما يستحق ولم تذكر اساءته اليك وذلك حقيق ان ينسيني معروفاً فعلته معك ابتغاء غرض تجازيني به

— وما يمنعك عن المسير معي الى وطني واهلي يا حسناء لاكافئك على حبك وصنيعك لي

فمدت حسناء بصرها الى فرجيني ثم نظرت الى الامير نظرة ادرك معناها فقال لها

— ان التي تنظرين اليها لا تمنعني عن حبك بل تزيدك منه

فاغرورقت عينا حسناء بالدمع وقالت ان الطيور يا كاميل انما تطرق الرياحين رجاء التقاط الحب فاذا انقطع ذلك انصرفت عنها فانا لم احدث نفسي بالخروج معك الا رجاء قربك اما الان وقد انقطع حبل رجائي من ذلك فصار خيراً لي ولك ان انصرف عنك لاتولى امر عذابي بيدي وكفاني من خيبة الامال والقنوط عذاباً . فدعني يا كاميل وخلني وارجع الى اهلك واحسن صحبة هذه الفتاة الجميلة التي لا شك انها تحبك مثل حبي لك واني راجية لك الهناء والسعادة ومتمنية لك الخير وقد استودعتك الله فلا تنس حسناء التي عاندها فيك القضاء والقدر

قالت ذلك وقلبها مفعم كدراً وقنوطاً ومتقطع حسداً وغيرةً ومرت تريد المضي الى سفينة شقيقها زرارا لكنها لم تتجاوز الا قريباً حتى شعرت

يدٍ لطيفةٍ تقبض على ذراعها فالتفتت واذا بها ترى فرجيني حبيبة كاميل فصبغ الاحمرار وجهها حتى بياض عينيها واعتراها جمود فوقفت في مكانها وسمعت فرجيني تقول لها ·

مهلاً يا حسناء فلا تلجي في الذهاب فاني اريد ان اراك لان كاميل لم يترك فرصة الا وحدثني فيها عن مبلغ حبك له واشفاقك عليه حين كان في الاسر عندك حتى لج بي الوجد الى لقائك فلما رايته يكلمك لم استطع حبس نفسي عنك فاتيتك لاشكر لك حسن صنعتك به وارى صاحبة ذلك القلب الذي احب حبيبي

اما حسناء فانها لو كلفت ان تلقي بنفسها الى البحر لتبتلعها اللجة لكان ذلك اهون عليها واحب اليها من لقاء فرجيني فظلت صامتة مطرقة فاردفت فرجيني قائلة لمَ لا تكلمينني يا حسناء فاني لم اقبل نحوك بصفة العاذلة الشامتة لان الحب الذي احببت به كاميل لهو جدير باعتباري واحترامي لان نفعه كان عائداً عليّ ولولاه لما تسهلت الاسباب التي جمعتني به بعد ما خلته ميتاً فكان لك عليّ بذلك فضل يعقبك الجميل نخره فاجابتها حسناء وهي واغرة الصدر انك انما اتيت لتعذيب تلك الحمقاء التي حاولت عن جهالة ان تزاحمك في حب حبيبك

لا بل اتيت لاخطب ود التي كان غرامها به سبباً في انتعاش غرامي واحياء امالي فلا تسيئي بي ظنك يا حسناء فامتزاج قلبينا في حب واحد يحمانى على حبك واحترامك فانا احبك لحبك اياه واما انت فبخلاف ذلك لا ترين بي خصيمة احرمتك ثمرة حبك مع علمك انه لم يكن

لي بذلك بديل كان اتفاقاً مقدوراً

ـ انه لم ينزل بي ما نزل الا لسوء نظري في العواقب وقلة تفكري فيها وجهالتي ما يرجع عليَّ من ضرها فلو وقع لي الفكر ان لكاميل مثلك حبيبة لما اسلمت نفسي للحب وجنيت عليها فهنيئاً لك فانت سعيدة وحقيقة ان لا تفرق بينك و بينه دخيلة نظيري

ـ انا اضعف عن ان اقدر على شيء يذهب به ما في نفسك من الحزن الشديد ياحسناء وانما ليعرض لي اذ قد بلغني عنك عقل وذكاء ورأيت ان نفسك ارفع واشرف مما تعامين بها اني متى قصصت عليك خبري واني لكاميل ابنة عمه وان بلانكا اسيرتك ليست الا حبيبة اكرم خلانه اليه لا تلبثين ان تمهريني ودك وتعذري كاميل فيما فعل وتنسي لقاء تلك المرة وتسلي حب تلك النظرة

ـ ابنة عم كاميل انتِ

ـ لا بل هو اليفي الذي مهدت واياه في مهد واحد ونشأت معه في عش واحد فهلمي فاتبعيني اوقفك على مجمل الاخبار ولك بعد ذلك الخيار ان تعذري او تعذلي

وما زالت بها حتى اتت سفينتها و تبعتها بلانكا بعد ما سلمت على الدوقة فرجيني وعانقتها . وبينما كانت هذه تطلع حسناء على ما بطن وظهر كان رودريك يقص على الامير واصحابه المجتمعين اليه في السفينة خبره حتى استوفى ما عنده الى اخره

وفي تلك الفترة دخل ملاح من الاندلسيين واخبر كاميل ان زرارا

يريد الدخول اليه

الفصل الرابع والعشرون

كم جسوراً ما كان يخشى وعيداً وعقاباً يثنيه عن ضرّ غيره
ردعته كرامة الخلق حتى انها استبدلت اذاه بخيره

ثم لم يبطئ زرارا ان اقبل محمولاً على اكف اربعة من حجابه اذ كان لا سعي له من السهم الذي اصاب ساقه في حومة الوغى

فرحب به كاميل واحتفل له كأنّ لم تسبق اليه منه اساءة فلما جلس ظل مطرقاً براسه الى الارض برهة ثم نظر الى الامير فقال

اني لم آت اليك ايها الامير لاعتذر لك فابلغ خلاصاً لنفسي منك بل لتعاملني بما استوجبه قبح فعلي بك من الغدر الذي شينه واقع بي وعاره لازم لي

فاجابه الامير دع عنك هذا الكلام يا زرارا ولا تذكر العداوة فالذي حدث بيني وبينك من الصلح حقيق ان ينسيني سوء عملك فانا اعاملك بضد ما تستحق واكافئك بخلاف ما تستوجب

ـ انا لا ارتضى ان اعيش معذباً من ندمي على ما فرط مني من الاساءة اليك فلقد يكفي بي ذلاً ان يقال او يقع لي الفكر ان من غدرت به بعد ما امنته ومن ضيعت واجب حقه وضننت عليه بحريته قد اعانني على قتال عدوي وحمى ذماري ورد الي شقيقتي

— وماذا تريد ان افعل

— شأنك وما تريد فافعل لانك لا تجد في تاديب غيري ابلغ من التنكيل بي وكفاني ذنباً اني اسرت هذه الفتاة الميلانية بلانكا التي بلغني انها حبيبة رجل من اصحابك

ثم بينما هو يتكلم مد بصره فوقع على فرجيني والمؤدب فصاح من دهش وقال ويلاه ماذا ارى

فالتفت الجميع ليروا ما الخبر واذا به يقول

لا لا انكم لا تبصرون احداً فما انا الا ناظر الى سوء اعمالي فهذا الشيخ يذكراني لقيته في غرناطه مع فتى هو عين هذه الفتاة الفتانة التي اراها مشيراً الى فرجيني والتي رايت رسم صورتها على ذخيرة قد علقت الى صدرك ايها الامير حين استنقاذي اياك من البحر وقد ادهشني وجه الشبه يومئذٍ وقد عرفت انك عاشق لها وانها حبيبتك لاني سمعتك تردد اسم فرجيني وانت غائب عن رشدك

قال المؤدب وفرجيني معاً اوانت ذلك الاندلسي الذي عرض لنا في غرناطه

— اني ذلك الشقي الذي عرض لي اختطاف حبيبتك ايها الامير وقد توهمتها فتى لتنكرها باثواب الرجال ولو لم يدرك هذا الشيخ محالي ويلج في التباعد عني لقضي الامر . فكيف تريد بعد ذلك ان تستبقيني وتحسن اليّ وانا لم اعاملك على علم وجهل مني الا بكل سوء

— قال له الامير انت قد اصبحت صديقي يا زرارا ومحاسبة الصديق

على الامور دناءة فلا تلج في تحميلي عليك لاني معتقد ان ليس لك في الذى صنعته بي ذنب انما كان ذلك كله قدراً مقدوراً جرَّ اليَّ نفعاً كما ان ليس لي في الذي صنعته بك فضل وانما اضطرني واياك امر الى المصالحة لاني لم اقاتل الاعدوي الذي بخطفه شقيقتك اصبح عدواً لكلينا

ـ ان كلامك مما لا يغني عن اساأتي وظلمي اليك ولا ينسيني جميل اياديك فقد نجيتني مع قومي وشقيقتي من الهلكة بعد ما اشرفت ارواحنا على التلف حتى اصبحنا جميعاً مديونين لك بالحيوة فتحكم بما تريد وان ابيت مصالحتي وترك ما فرط مني اليك والى حبيبتك من الاساءة فلا اخال ان حبيب بلانكا التي ارتكبت في اسرها الظلم والعدوان يرضى ان يعفو عني

فاجابه الكولونل روبر وقد ثقل كلامه عليه لقد اكثرت اعجابي من اقدامك عليَّ ايها الأندلسي فان كنت لم تقصد بكلامك هذا الا تقصير همتي فدونك والقتال ان كنت تستطيعه

صاح الامير مهلاً مهلاً يا روبر فزرارا يريد ذلك لينتقم من نفسه على ما بدر منه من الاساءة الينا فان كانت العداوة واقعة في نفسك له على ما اتاه الى بلانكا فاذكر حسن صنع شقيقته حسناء بها واكرامها وفادتها فان ذلك يذهب ما عندك منه

فجال الدمع في اعين حسناء وزرارا معاً لشدة ما اثرت فيهما كرامة اخلاق الامير حتى لم يتمالك زرارا ان صاح

ـ رفقاً ايها الامير فان حلمك لهو عين الانتقام مني وعفوك عني نهاية

في عذابي وليت جزائي كان خلاف هذا ولكن قدر لي ذلك لتكون كرامة اخلاقك واعظاً وزاجراً يصرفني عن ضر الناس ويردعني عن ان اغشى احداً بمثل فعلي بك فاعفُ اذاً عن ذنبي واتخذني لك صديقاً واني لراجٍ منك ايها الامير ان تعود واصحابك معي الى اهلي لاقوم بواجب حقك واجازيك باحسن ما اسديت اليّ لانك اخبرتني ان اهلك قد غابوك على الملك فهربت من يدهم حذراً على نفسك فاريد ان انطلق بك الى وطني لنعيش آمنين

فعجب كاميل من عقل زرارا وعرف انه صادق فقال له لقد ظهر لي منك من حسن الخلق يا زرارا ما رغبني فيك واني لواثق منك بذات نفسك وناس ما وترتني به وليس يمنعني من المضي معك الى بلدك سوء ظن بك او ريبة منك ولكن قد عرفت ان لي اعداء قد بغوا عليّ وقتلوا ابي وفتكوا في اهل مودتي فلا بد لي ان انقلب الى وطني لاثار بهم اما انت فان رأيت ان تتوجه اليّ بمعروف فاحسن تعاهدك لشقيقتك حسناء التي كمل فيها اللطف وزكا منها العقل فانها قد اسدت اليّ والى بلانكا من المعروف ما لاقبل ولا يدان لي بوفائه فكافئها عني ولتكن همتك مصروفة الى سعادة مستقبلها واياك ان تعقد لها الا على رجل يكون لها في صحبته غبطة وسرور فانك ان فعلت ذلك وفيت حقي

وكان كاميل يتكلم على مسمع من حسناء وهي حين وعت كلامه كاد يخون حبها جلدها وتفضح صبرها مدامعها فاطرقت برأسها الى الارض وغطت وجهها بكمها لتخفي عبراتها

واما زرارا فاجاب الامير مبتسماً وهل ذلك معروف ترجوه مني كان حسناء ليست بشقيقتي فما اقل ما قنعت به

ــ ان خطره عندي عظيم واذ لا بد لنا من الفراق يا زرارا فعدني ان تاتي معها يوماً بلادي لترى اهلي وناسي ومربعي وكناسي فاني طامع منك في ذلك اللقآء وراج من الله البقاء الى ذلك اليوم الذي اراك فيه

ــ ليكن لك عليّ ذلك دين ايها الامير فقد اليت على نفسي ان اغشى ديارك في مستقبل الايام فاصرف ردحاً من الدهر بين قومك وانما الحين ذياك اللقاء اتقدم اليك بتذكار يذكرك بمن اصطنعته وآخيته وهو بعض من اسلحتنا الاندلسية لتقاتل بها اعداءك الذين هم ثارك وهدية من تحف الاندلس تهدى من حسناء الى فرجيني وبلانكا فالتمس منك قبولها

ثم اشار الى بعض حجابه فدخل ومن ورائه سبعة عبيد يحملون من السلاح ما يوسع العقول تأملاً وعجباً وكلها منقوشة بالرسوم والنقوش ومحلاة بالذهب والفضة على احسن طراز واحكام صناعة ثم دخل ثلاثة عبيد وبين ايديهم التحف الغالية والآنية الفضية والحلي الذهبية والحلل الديباجية ووضعوها بين يدي الامير فحلف عليه زرارا بقبولها فلم يسعه ردها

وكان بين الاسلحة خنجر يمتاز في مضآء شفرته واتقان صناعته فدل كاميل اليه وقال له اني لم اهدِ اليك هذا الخنجر الذي ورثته عن ابي ولزمني وقتاً طويلاً الا لكي تغمده في صدر عدوك فقد تعود ان تكون له الافئدة اغمدة فشكر له الامير كرمه واقبل عليه يعانقه وهكذا فعل الكولونل روبر ورودريك ومرتينو وقد طابوا عنه نفساً ثم جعلوا يقصون عليه

خبرهم وما يريدون ان يعزموا عليه من الايقاع بدلبانو واشياعه البرافي فقر الراي بينهم على ان يستصحبْ زرارا معه البرافي الذين عنده اسارى الى بلاده ليفعل بهم ما اراد وان يترك لهم دلبانو والاربعة البرافي الذين صحبوا الامير وروردريك الى مغائر الجن

وبينما هم في الحديث دخل عليهم ربان السفينة التي كانت تقل دلبانو وسألهم ان يأذنوا له بالرحيل مع بحارته فصمتوا ولم يفه احد منهم بكلمة

فتبين رودريك معنى صمتهم فقال يلوح لي من صمتكم ايها الاصحاب انكم لا ترون الراي في اطلاق سراح هذا الربان لمعاونته دلبانو في قتالكم واما انا فاني ارى بخلاف رأيكم لان هذا الربان و بحارته لم يقاتلوكم الا مكرهين دفاعاً عن انفسهم وتخلصاً من الورطة التي ورطهم بها دلبانو لان الرجل اذا علم انه هالك ولم يقاتل كان حقيقاً ان يقاتل عن نفسه كرماً وحفظاً ثم ان هذا الربان قد اولاني معروفاً بقبوله اياي في سفينته وحرصه على كتم امري وهذا الثوب الذي ما زلت به كاسياً شاهد على حسن صنعه بي فان اردتم ان تعاقبوه على ما تعدونه عليه ذنباً فعاقبوني قبله كي لا يقال ان لا مروءة بين الناس

فاعجب زرارا من حمية رودريك ولعلمه انه لم يقصد في التماس الصفح عن الربان الا منه اجابه قائلا

— ان هذا الربان قد اسدى اليك يارودريك معروفاً فانت تقصد الى مكافأته التماس العذر عما جنت يداه اما انا فقد ناصبني حرباً وقتل من رجالي نفراً وكنت حقيقاً ان اصيب مركبه غنيمة وملاحيه اسارى ومع

هذا فلست بمجازيه الا بما جازاني به الامير فان عفوه علمني كرامة الاخلاق

فضج الجميع لكلام زرارا استحسانًا

اما الزبان فلم يدر كيف ينطق بالشكر فمضى وقلبه يكاد يطير من شدة فرحه ولم تكن الا ساعة حتى انطلق في سفينته وهو يحمد الله على نجاته وعندما هم زرارا بتوديع الامير واصحابه استدعت حسناء كل قوى صبرها وتجلدها وكادت تتغلب على حزنها لو لم تخنها عبرتها فودعت فرجيني وبلانكا وهي باكية وخرجت باثر اخيها وقبل ان تتوارى عن ابصار كاميل نظرت اليه نظرةً اعربت عن وداع ما حكته عبارة وسطور

وحينما افترق المركبان وسار كل منهما الى جهة وقفت حسناء على ظهر سفينتها تشيع بانظارها سفينة كاميل وظلت تنظر اليها بملء احداقها وصدرها يضيق كلما ابتعدت حتى توارت في الافق فوضعت وجهها بين يديها واجهشت في البكاء

الفصل الخامس والعشرون

﴿وما وبال البغي الا على صاحبه﴾

وكان رودريك عندما جاء بدلبانو والاربعة البرافي الى سفينة الامير وضعهم في اسفل غرفة وجعل عليهم عيونًا وامرهم بالاحتفاظ

بهم فلبثوا هناك في اشد عذاب من ضيق القيود فكان ذلك اللص الفاجر دلبانو موثوق الساعدين متوسداً الارض مضرجاً بدمه يضج كلما اشتد به ألم الطعنة في جنبه ويحاول التملص والتفلت من قيوده مجدفاً لاغماً مزبداً على مشهد من رجاله الاربعة الذين كانوا وقوفاً في الناحية الاخرى مقيدين بحبال الى اوتادٍ في الحائط وثيابهم مضرجة بالدم ووجوههم مبتقعة خوف الموت الذي كانوا له في كل برهةٍ متوقعين

ولما طال وقوفهم على تلك الحالة وشعروا بسير السفينه رفع ماركو رأسه وقال يخاطب ماستلي الذي كان الى جنبه — ماستلي ماستلي قد حان يومنا ولست ارى لنا من هذا البلاء مهرباً فعما قليل يغشى بصرنا وتتلف انفسنا

فاجابه ماستلي بوقاحةٍ هذا ما أُعدَّ لنا يا ماركو فلا تضج وانصف من نفسك فان من كان لصاً نظيرنا جامعاً للخب والشر والفجور قد صرف عمره في ارتكاب المحارم وضر الناس لا يتوقع ان يموت على فراشه كما طالما قلت لك بل يكون لمثل ما حل بنا متوقعاً فاصبر على فعل غيرك كما صبر غيرك على فعلك فمن غربل الناس نخلوه

— قد كنت اتخوف من هذه الحال يا ماستلي وانت تهزأ بي الم احدثك بالتخلف عن هذا الوغد دلبانو مخافة ان يفضي بنا الامر الى ما صرنا اليه فلم تطاوعني حتى ابتلينا بمن كنا في خوف وحذر منهم ان ينتقموا منا جزاء ما سلف لنا من الاساءة اليهم

— ان كلامك هذا لا يغني عنا شيئاً فهو لا يؤخر اجلاً ولا يدفع محذوراً

ـ ويلي اني ساقتل اشنع قتلةٍ فمن لي بكاس من الخمر ليذهب ما بي من الفرق ويشجعني على اقتحام هول الموت

انا لا اهاب الموت بل اشتهي قبل اتلاف روحي ان اغمد خنجري في قلب هذا الداعر دلبانو الذي استغوانا وزين لنا المعصية وورطنا في الغرور واتخذنا كالشيطان مركباً وبعد ذلك اغمده في صدري حتى لا يبلغ العدو منا غاية

فلما سمع مايو وروكو كلام ماستلي جعلا يجدفان على دلبانو ويكثران من سبه وشتمه ويحاولان ان يتفلتا من القيود ليثبا عليه ويدقا قلبه

ثم قال احدهم مايو اني لست اطمع بالحيوة طمعي في قتل دلبانو وساقتل نفسي بيدي متى رايته يجود قبلي بنفسه الخبيثة

قال روكو اني اقبل الموت بعد طعنة دلبانو وشرب كاس من الخمر وهكذا اجمعوا كلمتهم واتفقوا كلهم على ان يذيقوا دلبانو مر النكال بايديهم . وكان دلبانو ناظراً اليهم باعين كالتمساح بارزة وما بها من حراك وسامعاً حديثهم وقلبه يتقطع غيظاً وحنقاً وما زالوا يجدفون عليه ويكثرون من لومه حتى اصبحوا

وكان الامير بعد انفصال زرارا من عنده قد تفرغ لمشورة اصحابه والنظر في امر دلبانو ورجاله البرافي فقرر رأيهم ان يعجلوا لهم العقوبة ويقتلوهم شر قتلة قبل الوصول الى جنوا

وكان رودريك لشدة حقده على دلبانو قد اعد لهُ حبلاً وربط به كرة من الحديد ليلقيه في عنقه ويزج بهِ الى البحر بعد تعذيبه وهكذا اعد لكل واحد من البرافي حبلاً ولكي يطفىء ما بصدره من نار الحقد جعل في كل

قطعة من الليل يدخل على دلبانو ويتراءى له كأنه خيال الموت يريد اتلاف روحه حتى كاد ذلك الزعيم ان يقضي عليه من الهلع

فلما طلع الصباح جلس الامير على ظهر السفينة ومن حوله روبر ورودريك ومرتينو والمؤدب وربان المركب وبحارته ثم امر ان يؤتي بدلبانو والاربعة البرافي فلما وقفوا بين يديه رأى انوفهم شامخة والجسارة والقحة بادية على وجوههم كأن امر الموت لم يخطر لهم ببال وقبل ان يتكلم تقدم ماستلي احد البرافي الى الامام وقال بجرأة

انا نعلم ما هو واقع في نفوسكم وما يضمر قلبكم علينا من الحقد وعارفون بما تريدون ان تقولوه لنا فنحن قد غدرنا بكم وقتلنا نفراً من صحبكم وحملنا بعضكم الى مغائر الجن اما الآن وقد دارت علينا الدوائر ووصلنا الى ما وصلنا اليه فتريدون ان تشتفوا بقتلنا اذ الامر بيننا وبينكم غير صغير فلسنا نلتمس عذراً ولا صفحاً لاننا لسنا اهلاً للصنيعة فنحن قوم لئام اذا امنا غدرنا واذا اخينا نفرنا واذا ذهب ما نخافه عدنا الى جوهرنا كذئب الكلب الذي يربط ليستقيم فلا يزال مستوياً ما دام مربوطاً فاذا حل انحنى وتعوج كما كان بل غاية ما نلتمسه امر سهل يحملكم على اجابته قرارنا بسوء عملنا

قال رودريك ان كنتم لا ترجون النجاة من العقوبة ولا الرحمة فاي غرض تبتغون

— اجاب ماستلي ليس غرضنا طلب العفو والرفق وانما غاية ما نتمناه قتل زعيمنا دلبانو بايدينا

قال الامير واي حاجة تضطركم الى قتله بايديكم وهو زعيمكم

ـ الحاجة التي حملتكم على التنكيل بنا هي التي تضطرنا الى قتله فليس ذنبه وذنبنا اليكم باعظم مما اذنب الينا فانه انما اساء اليكم مرغماً او مأموراً واما اساءته الينا فعن عمدٍ لا يغتفر لان هذا الشيطان قد اغوانا وخدعنا وسوّل لنا الشر واستدرجنا بالزيغ وما برح يسقينا من دنٍ خالٍ ويروينا من شنٍ بالٍ ونحن مغترون بما لا يكون حتى قضي عمرنا في ضر الناس وخداع انفسنا واخيراً وقعنا في هذه الهلكة فنريد ان نشتفي بقتله وانتم بما في نفوسكم منه عالمون بما في نفوسنا له الان فلا تمنعونا عن ذلك فانه خير لكم ان يموت عن يدنا من ان تدنسوا ايديكم بدمه وان كان يريبكم منا امر فخلوا من ايدينا اليمنى لنقبض على الخنجر ودعوا اليسرى مغلولة في الوثاق ولكم بعد قتله ان تعذبونا كيفما شئتم لاننا نحن واياه سواء في الذنب اليكم

وهكذا قال ماركو ومايو وروكو

فعطف قلب الامير على اولئك البرافي وعلم انه لم يكن لهم فيما فعلوه ذنب يؤاخذ به غير دلبانو فرأى ان يبلغهم مرادهم من قتله و يعفو عن قتلهم وهو لا يعلم بما يضمرون

وكان دلبانو الى ذلك الحين صامتاً لا ينبس ببنت شفة لكنه لما رأى الخناجر في يمين البرافي احمرت حدقتاه وتفجرت مقلتاه وعدت اوصاله وصاح بهم ويلكم ايها الانذال اتقتلونني

فلم يدعوه يستكمل الكلام حتى وثبوا عليه كالوحوش الضاريه

وابتدروه بالخناجر وما زالوا به حتى مزقوا صدره تمزيقاً

ثم التفتوا فجاءة نحو الامير وجمهور اصحابه ونظروا اليهم باعين دامية والخناجر في اكفهم تقطر دماً وصاحوا معاً بوقاحة وجسارة لا لا تعهد الاَّ بهم

بئسها الحياة في يد العدو يذلها فلنمت بانوف شامخة قبل ان تبلغ الاعداء منا غاية

وباقل من لمح البصر طعنوا في فورة دمهم وشدة ثورتهم بخناجرهم صدورهم وشكوا بها افئدتهم ومالوا عليها

فضج الجميع من الهول والروعة وارتكضوا نحوهم واذا بالخناجر قد نفذت من ظهورهم وصاروا جثثاً دون ارواح

فندم الامير على تسليحهم بالخناجر اذ كان قد احب ان يبقي عليهم بعد الكلام الذي ظهر منهم ثم امر فالقوا في اعناقهم الحبال التي اعدها رودريك ورموا بجثثهم الى البحر ولسان حالهم يقول ما وبال البغي الا على صاحبه

الفصل السادس والعشرون

﴿ تذكرة وعبرة ﴾

وما برح الامير ومن معه سائرين باطيب ريح واخفض جاش حتى بلغوا مدينة جنوا فانحدروا اليها وهم يحمدون الله على بلوغهم الاوطان ثم ركبوا منها الى بافي حتى اتوا في طريقهم على القرية المجاورة لتلك

الكنيسة القديمة التي حملت فرجيني نفسها اليها مع المؤدب وابنته بعد وفاة ابيها الدوق ليعقد لها فيها على كاميل على ما مر الالماع اليه فسألت الدوقة ان يعرجوا بها عليها فلما انتهت اليها جاست على تلك القبور التي امامها وجعلت تعيد على كاميل حوادث تلك الليلة وما كابدته من شدة الحزن والجزع ومر الانتظار والخيبة وكانت تقص عليهم ذلك وهي تبكي من شدة الفرح وتذكار مخاوف واهوال بها سلفت

ثم ركبوا عنها وقبل ان يتمادى بهم السير اتوا في طريقهم على دير كبير للرهبان مجاور للطريق فمروا من امام بابه فرأوا هناك راهبًا ضخم الجثة عريض الاكتاف واسع الصدر قد وقف يكلم قرويًا من مزارعي الدير

فاستلفت موكبهم انظار ذلك الراهب فجعل يصوب فيهم نظره ويصعده وحينما تفرس بالامير كاميل ورودريك وروبر ادركه الدهش وصار كالمنزول به وهو في مكانه فاغر الفم محملق العينين

فانكر الامير حاله وقال له من انت ايها الراهب ومالي اراك قد سقطت في يدك من نظرك الينا فما شأنك

فصاح الراهب عند ذلك كاميل كاميل اما عرفتني تفرس فيّ لتعرف من تحت هذا الثوب

فغابت عن كاميل معرفته ولما لم يخف ذلك منه تبسم الراهب وقال ان كان هذا الثوب قد حجب عنك معرفتي فرودريك يخبرك عني وهذا الصياد وقد اشار الى روبر يعلمك بحالي فانه لم ينس بعد اليوم الذي قدم عليّ

فيه بالمكر والخديعة منتحلاً صفة الصياد فبلغ مني ما اراد من حاجته بارنب وجرذٍ طمعت بهما وبدنانير خلب لبي بريقها

فصاح روبر وقد عرفه رنارو رنارو بريانتو رئيس مغائر الجن

قال الامير وقد اخذه العجب من مرآه ارنارو في ثوب راهب

اجاب رنارو وهو يهز رأسه ويمر بيده على لحيته الطويلة لا يذهلنك ان تراني ايها الامير بهذا الثوب فانت قد البستنيه وعوضتني به عن كساء الحرير والنعم التي كنت اصبتها منك لو اجبتك الى الفرار من مغائر الجن وانه لنعم العوض لاني لست بنادم على خسران تلك الصلات والجوائز بمقدار ما انا نادم على تضييعي واجب حقك وتقاعدي عن اصطناع المعروف اليك في مغائر الجن لادفع عنك البلاء الذي كنت فيه واكسب جميل الذكر. ثم ان رنارو نكس رأسه ولاحت على وجهه امارات الحزن والاسف الشديد وقال وهو يتنفس الصعداء ما كان اشد حماقتي وابعدني عن الرفق

فتذكر روبر حينئذٍ قدومه على رنارو في مغائر الجن بلباس الصياد كيف كان يستعطفه ويسترضيه ويكثر لهُ من النعوت والالقاب الشريفة ويسأله روءية الحصن وهو شامخ الانف متمنعاً كثير العجب والخيلاء وقابل بين حالته تلك وما هو عليه الان فقال

ـ انه ليدهشني ان ارى من كنت ادعوه سيدي الحاكم ومن كان يثقل عليه كلامي اذ ذكرت اسمه ولم اشفعه بالالقاب الشريفة ومن كان يعد نفسه من رجال الدولة وحاكم مغائر الجن وفي جملة القول ان ارى

رنارو بريبانتو قد آثر الفقر على حب المال وكسبه والاتضاع على الكبرياء والعظمة وارتضى أن يجعل الدير له مسكناً

فتبسم رنارو وقال كفاك يا بني تذكرني بحماقتي وجهلي وحبي للدناءة فاني لم اتعدَ طور البعض من امثالي الذين اذا تقلدوا الوظائف الكبيرة اسكرتهم عزتها فبخسوا الناس اشياءهم وعاملوهم بالجفاء والقسوة وانصرفوا الى حب الثناء والاطراء عليهم والى كسب المال من اقبح وجه فانما كنت نظيرهم احسب نفسي في القوم سراجاً وهاجاً اما الآن وقد افقت من سكرة جهلي فصرت ارى نفسي دخاناً وعجاجاً

فاستعذب كاميل كلامه وسأله عن امره وعما جرى عليه

فقال ان فراركم من مغائر الجن قد اوقعني في شر ورطة واذ كنت غير قادر على استدراك فارط امري ودفع البلاء الذي تخوفته على نفسي من جان ماريا لعلمي انه متى بلغه ذلك لا يدعني حياً ولا يستبقيني طرفة عين لم اجد لنفسي مخرجاً مما وقعت به الا الفرار بنفسي فذهبت مسرعاً اطلب موضعاً اتحرز فيه مخافة ان يدركني جان ماريا فاتيت هذا الدير وبذلت لرئيسه ما كان عندي من المال فتقبلني وجعل كل يوم يعتني في تأديبي ويعلمني ما لا اعلم من امور الدين والدنيا مما يعود على نفسه حتى اذا رآني قد اصبت سلطاناً على نفسي سامني راهباً كما ترون وساقيم مكاني لا ابرح منه ولا انشط حتى انزل قبري. واني احمد الله على ذلك وعلى انه جمعني بكم ليزيدني تعزية بسلامتكم ثم اخرج شيئاً من جيبه مختوماً والتفت نحو الامير وقال

هذا تذكار عزيز لديك وحقيق ان لا يذهب منك فقد عنيت بالحرص عليه رغماً عن تعذيبه اياي واذكاري به ما سلف لي من الاساءة اليك فهو خاتم امك الذي سلبتك اياه في مغائر الجن غير مشفق على حرمانك منه فخذه ايها الامير عساه يذكرك يوماً برنارو الحزين الذي لم ينل سوى الندامة والتوبة كسباً ومالاً

ثم رمى بالخاتم الى كاميل وتولى لا يلوي على احد

فعجب الامير واصحابه من شانه ثم انفصلوا عن ذلك المكان وهم يتحدثون عن رنارو وعما صار اليه امره حتى بلغوا مدينة بافي التي كان قد اغتصبها قبيل ذلك فسينوكان ويان‌دولف ملاتستا من فيليب ماريا

فلما بلغ هذين القائدين اقبال الامير كاميل في جمهور اصحابه نحوهما بادرا الى استقباله اذ كان اخص اصحابهما عندهما منزلةً وفرحا بلقائه وزادا في الطافه واكرامه

وكانت غاية الامير في القدوم عليهما ان يحملهما على عدوه جان ماريا ليتألبا معه على محاربته ومجاذبته ويكونا عدته عند الحاجة اليهما فلما اخبرهما عن رأيه في ذلك وحدثهما عما جرى عليه بعد حرب فلورانسا وما نزل بابيه من قبله اشتد عليهما الامر وحلفا ان ينتقما من جان ماريا واشياعه وان يثيرا عليه حرباً تطحن الهام برحاها وان يستبيحا ميلان ويدمراها ليقتصا منه عما صنعه بالامير واصحابه

وبعد ان قر الرأي على ذلك واجمعوا على اليوم الذي فيه يذكون نار الحرب بمضافرة الجبليين والفلفيين وعرف كاميل انه وقع في نفس

صديقيه ما كان يلتمس ودعهما وصار طالباً قصره في مونزا · وحتى لا تقع عليه العيون فيتصل خبر قدومه بجان ماريا تنكر مع من معه وركب الليل جملاً الى مونزا

وكان ذلك الخادم الشيخ الذي جاءه كاميل بعد فراره من مغائر الجن وتراءى له مع روبر ومرتينو باثواب القرويين ليتنسم منه اخبار فرجيني ما برح الى ذلك اليوم يجلس في كل يوم على باب القصر كئيباً يترقب عودة ساداته

فلما اقبل الامير نحو باب القصر وجد ذلك الخادم الامين جالساً على عادته فتقدم نحوه وهو آخذ بذراع فرجيني ومن ورائه المؤدب وابنته مينرفا وجمهور اصحابه فلما راءهم ذلك ابدع فيه منظرهم فانتصب قائماً وجعل يصوب فيهم نظره ويصعده اذ لم يعرفهم في فورة الامر لكنه مذ بصر بفرجيني والمؤدب صاح وقد كاد يغمي عليه لشدة فرحه وافرحتاه

وعندما عرف كاميل وانه هو الذي جاءه متنكراً بلباس القرويين لم يستطع لنفسه ضبطاً فجعل يبكي وهو تارة يقبل اكف فرجيني وكاميل وطوراً يرتمي على صدر المؤدب حتى ابكى من حضر

ثم دخلوا القصر وشرعوا يطوفون في مقاصيره وحدائقه حتى اتوا قبر لويزا زوجة لويجي فبكى هذا على امرأته ومينرفا على امها وفرجيني على مؤدبتها

وبعد ان القوا عصا الترحال واستقر بهم النوى اشار الامير على

رودريك ان يستقدم حبيبته نيانزا وامها والخادم بطرس من بللنزونا ولما انتظم الشمل وسقط عن كاميل النظر في امور ذويه صرف همته الى النظر في شأن الحرب التي سيذكي نارها فشرع اولاً بمخابرة احزابه واحزاب ابيه في ميلان ثم جعل يراسل الجمعيات السرية التي غايتها ثل عرش دوقية ميلان ويدعوها الى مضافرته وبعث برودريك الى زعيم الجبليين لاندو ليخبره عما عزم عليه حتى يأخذ للحرب اهبته ويعد عدته واقام الجواسيس والعيون في ميلان لتحمل اليه الاخبار في كل يوم عن جان ماريا وبريفارا حتى اذا انتظم له الامر والتدبير واستوثق لنفسه من النصر انضم مع اصحابه الى فسينوكان وباندولف ملاتستا وساروا يريدون جان ماريا

الفصل السابع والعشرون

﴿ من لم يركب الاهوال لم ينل الرغائب ﴾

لم تسفر غرة ايار سنة ١٤١٢ الا والروؤس في ميلان متناثرة والدماء جارية والاعضاء متطائرة والمدل مسلوب والديار مخربة والخيل مسرجة والكماة مدججة وهذا طريح وذاك جريح وهذا قتيلٌ وذاك عليلٌ لان الدوق جان ماريا لما لم يستطع بجنوده المرتزقة المأجورة ثباتاً في قتال فسينوكان وملاتستا والامير كاميل ومن انضم اليهم من الاعوان اجفل من امامهم وفر معتصماً بميلان فلحقوا باصحابه وجنوده واوقعوا بهم حتى تقطع جمعهم ثم انبثوا في كل وجه من المدينة يسلبون وينهبون حتى لم يبقوا ولم يذروا

ولم يكن يسمع في المدينة الا فديد الجيش وصلصلة الحديد وصياح النساء

وبكاء الاطفال وانين الجرحى ولا يرى الا شراذم من الجنود يقتتلون في الطرق والساحات العمومية وغيرهم يغتصبون وينهبون فكان السعيد من اهل ميلان من احتمل بنفسه وابتدر المفر الى مكان سحيق تاركاً ما ملكت يداه مغنماً بارداً لاولئك الجنود المرتزقة

واما جان ماريا فبقي شامخاً بانفه متمنعاً عن الاستسلام استعظاماً منه لامر نفسه وكان قد تحصن في دير القديس غوتاردو المبني في ناحيةٍ من المدينة وحبس نفسه في داخله كما يحبس العصفور في القفص واقام فرقاً من الجنود يخفرونه ودام ذلك امره تسعة ايام

الا انه في اليوم العاشر بعث الى فسينوكان وباندلوف ملاتستا يطلب صلحهما على شروط يقترحانها وهو غير عالم ان كاميل واصحابه عندهما وانهم الذين اوقدوا نار الفتنة واراشوا سهامها

وكان الرسول الذي انفذه جان ماريا بطلب الصلح هو استور ويسكونتي الابن الشرعي للدوق برنابا ويسكونتي · فهذا كان منذ استوثق لجان ماريا الامر واستقر له الملك يحدث نفسه بهلاكه ليخلفه في الملك ويغتصب عرشه وكان قد زاد في عزمه جلاء كاميل عن الاوطان وبعد اخباره وتوهم انه لم يبقَ له مزاحم في الملك غير فيليب ماريا الذي كان في مأمن منه لصغر سنه ونقص حاله وضعف همته

فجعل يأتمر بجان ماريا سراً ويبث له المصائد دون ان يجاهر بشيءٍ من ذلك على رؤوس الناس بل كان يريه من نفسه الاسترسال اليه والمحبة لهُ لئلا يريبه منه ريب

الا انه لما لم يقدر عليه ولم يتهيا لهُ ان يغدر به ظل صابراً يترقب الفرصة ليبطش به فلما جرت هذه الامور في ميلان ووقع التقصير في جان ماريا جعل استور يلح عليه بطلب الصلح وكانت غايته ان يأتي فسينوكان وملاتستا ليس ليخبرهما بما جاء له من امر الصلح بل ليواجههما بقتل جان ماريا . ويعاهدهما على ان يغدر بهِ ابتغاء ان يستخلفاه مكانه على عرش ميلان ويعاوناه على اقرار الملك في يده ومتى ادرك حاجته جعل لهما في كل سنة مائة الف فلوريني خراجاً

واتفق قبل قدوم استور ان اصيب الكونديتياري فسينوكان على اثر المواقع وتوالي الصدام بمرض قتال فكبر ذلك على الامير كاميل وعرف انه لم يعد ليدرك في القتال والحرب ما اراد من حاجته وان لم يستدرك امره بالحيل قبل ان يذيع خبر ما المَّ بفسينوكان بين عساكره وروءوس جنده انقلبت موليةً عن ميلان وآل امره الى الخيبة والفشل واعيته عن ادراك ثاره الحيل

فتوافق اولاً مع باندولف ملاتستا على كتمان ذلك لئلا يزداد جان ماريا تمنعاً وعتواً

ثم جعل يفكر مع اصحابه في وجه الحيلة لقتله قبل ان يصيب فسينوكان مكروهٌ وبينما هو في النظر لامره والاهتمام لنفسه اتصل به خبر مقدم استور ويسكونتي فقال في نفسه لامر ما قدم استور رسولاً فهو قد جاء لغير الذي يظهر منه فاحب ان يدخل عليه ومن ساعته تنكر ما استطاع حتى لا يعرفه استور حين يقف بين يديه ثم انفذ من يأتيه به . فعصبت

عيناه بعصابة اذ كان ذلك مصطلح القوم حتى لا يطلع الرسول على ما اعد العدو من المعدات

فلما تمثل اشور بين يدي كاميل امره ان يرفع العصابة ففعل وبصر به فلم يعرفه فسأله الامير عن شأنه فلم يكتمه الامر الذي قصد له واخبره بما عزم عليه وهو يظنه الكونديتاري فسينوكان صاحب سره ورأيه على ما قيل له

فجعل كاميل خلال الحديث يتبسم حتى اذا فرغ استور من كلامه قال له

ــ هل انت يا استور على ثقة من النجاح في قتل جان ماريا

ــ ان قتلته لايسر شيء عندي فاني صاحب خلوته وقد لزمته في هذه الايام وهو لا يسمح لاحد غيري بالدخول عليه مخافة ان يغدر به حتى انه لشدة جزعه يتهم من كان له مؤتمناً ويسيء الظن بمن كان يظن فيه حسناً

ــ وهل اذا اقسمت لك ان اسعفك بحاجتك تقسم لي انت ايضاً انك لا تفشي ما اسره اليك وتوافقني الى ما اريد

ــ ان كان عندك رأي فلا تطوه عني ولا تخفه مني فاني سائر الى غرضك في الامر الذي ستطلبه مني وجاحد سرك ومكابر عنه ولو هلكت نفسي فقل ما بدالك

ــ اليس لك من مزاحم على عرش ميلان ان انت قتلت جان ماريا

— لم يبق من يغالبني على الملك الا فيليب ماريا وهو صغير الهمة لا اخشى جانبه وجبرائيل الابن الطبيعي لجان غلياس قد مات وكاميل بن كارلوس قد طمس ذكره وغمض خبره

فلما سمع الامير كلامه استغرق في الضحك ثم خلع عنه بعض اثوابه فلما بصر به استور وعرفه كاد يطير عقله فصاح في شدة دهشه كاميل كاميل ونكس رأسه خجلاً

فقال له الامير مذ عاين دهشه وجزعه خفض عليك يا استور ولا تدخلنَّ عليك شيئاً من الهم والخوف فاني لم آتِ لازاحمك على عرش ميلان فما من مطمع لي فيه بل انا انما اتيت لانتقم من جان ماريا فيما صنعه بابي وبي فلا تندمنَّ على القاء سرك الي فسوف اكون واياك عليه يداً واحدة واعينك على بلوغ حاجتك فلا يربك مني ريب ولا يفزعك امرٌ

ثم انه قربه واكرمه وآنس به وجعل يحدثه عن كل ماجرى عليه وعما اصابه من البلاء ونزل به من الاحن التي جعلته يعزم على خلع الدنيا ومغادرة الملك ورفض الامور العالية وطرح الجاه ولم يكتمه ما عزم عليه من الخلو عن الاهل والاوطان والانقطاع مع اصحابه الى مكان بعيد لتاكده ان الوحدة اصغر المشقة وابقى على السلامة الى ان قال له وانك لتعجب يا استور لما ترى من حالي لكنك لو نزل بك من البلاء بعض ما نزل بي لعذرتني في انتهائي عن الملك وعلمت اني صادقٌ في مقالي وليس فيه كذب ولا خديعة

قال له استور اني اسمع منك كلاماً يدلني على انك توءثر قتل جان ماريا على ان تغلبه على ملكهِ وليس لك رغبة الا في الانتقام منه وقد قيل

من لم تستعطه بنفسك فاحتل له من قبل غيرك فاستعن بي على قتله فاني معينك في ذلك فكلانا طامع ومضطر وانا اليوم شريكك في النفع ولست ارجو لنفسي بلوغ مناها من الملك الا بالذي ارجو لك فيه الفوز فاذا كان ذلك بلغ كل واحد منا حاجته بسبب صاحبه

ــ انك ان فعلت ذلك يا استور اعنتك مع محالفي على الملك فدونك وما بدالك

ــ ان لم يحملني على قتل جان ماريا ايثارك اياي على نفسك بتركك لي الملك الذي انت قادر ان تصيبه بقوة جندك ومحالفيك فلقد يحملني على ذلك خوفي منك فانا وافٍ لك وواثق بك وغير محترس منك ومفوض اليك امري

وبماذا دبرت على قتله يا استور

اني قد استنبطت لذلك حيلةً وهي ان امضي الى جان ماريا فاخبره بان فسينوكان وملاتستا قد اذعنا لصلحه وانهما سيبعثان بعد ثلاثة ايام رسلاً يحملون اليه الشروط التي يقترحانها عليه فتكون انت وثلاثة من قومك الذين هم عمدتك ومكان سرك اولئك الرسل

فاذا جاء اليوم الثالث اقبلتم اليه متنكرين وانتم عزل عن السلاح الا الخناجر تودعونها طي اثوابكم تطوف بكم طائفة من الجند شاكية السلاح مقنعة في الحديد فاذا بلغتم الى دير القديس غوتاردو فاسألوا الدخول على الدوق واتركوا الجنود الذين يجيئون معكم في ساحة الدير خارجاً متأهبين للهجوم عند اول اشارةٍ اذا بدا لكم ما تتخوفون منه اذ من الحكمة ان يحذر الرجل

عدوه الذي لا يأمن منه ثم متى قمتم بين يديه اطلبوا اليه ان يخلو بي وبكم فاذا فعل ذلك وثبنا عليه قبل ان يجلب وابتدرناه بطعن الخناجر وقتلناه اشنع قتلة ثم تنقلبون راجعين كما اتيتم باخفض جاش حتى لا يشعر احد بما فعلتم

ـ المكر والخديعة لا يوءديان الى خير يا استور واخاف اذا نحن انتهينا الى جان ماريا ان نقع في ورطة لا نجد منها مخرجاً لما اعرفه من شراسة جان ماريا ولوءم عهده وسوء اخلاقه وربما بادرنا بالسوء او احتال لنا بمكروه حتى يقتلنا ويفسد علينا امرنا

ـ ان الاماني لا ينالها المرء على ما قيل الا باحدى ثلاث اما بمشقة تناله في نفسه واما بوضيعة في ماله او وكس في دينه فهل تروم ان تقدم على اهلاك جان ماريا من غير ان ينالك بعض المشقة او الخطر فمن لم يركب الاهوال لم ينل الرغائب واني قد عزمت ان اجعل في ذلك اليوم الذي ستقبل به مع قومك على الدوق مئة نفر من العساكر اشياعي مطيفين بالدير نستعين بهم على دفع الشر عنا اذا قدر وقوعه ولتكن كلمة الخنجر علامة فيما بيننا للوثوب عليه ·

وكيف تجد المخرج لنفسك يا استور من قتل جان ماريا بعد اذ نولي عنك

ـ لا يشغلك شاني يا كاميل فاني ساحتال لامري بما ستراه مرأى العين وبعد فاني لا اخاف ثورة الجند ولا الشعب اذ ما من احد الا وهو حانق عليه يود هلاكه تخلصاً من ظلمه وعتوهِ وبغيه وتجبرهِ

ـ وماذا عرفت من حال البارونة لاب

ـ ما برح ذلك الاحمق المغرور جان ماريا مسترسلاً اليها مغرماً بها

غراماً شديداً مختصاً بها دون كل الناس وهي ما فتئت لادلالها وتيهها بمنزلتها صاحبة القول والرأي وان انقطاعه عنها في هذه الايام هو الذي جعله يلج في طلب الصلح اذ لا يستطيع عنها قعوداً

— او ما برح بريفارا الغادر صاحب رأيه وخلوته ولهوه

— لقد ازداد منزلةً عنده وما كان احد ليغلبه عليها لان لاب لم تدع امنيةً الا بلغته اياها

وبعد ان ائتمر كاميل واستور بجان ماريا كما تقدم واقسم كل واحد لرفيقه ان لا يغير ما كان منه ولا يغدر بذمته ودعه استور وانقلب راجعاً وهو شديد الفرح بالملك العتيد ان يناله

الفصل الثامن والعشرون

علي الهيام بحبي كنت اكرهه ُ   لو كان في الحب اكراهٌ واجبارُ

لقد علمنا ان البارونة لاب كانت شديدة الكلف بالامير كاميل تحبه حباً بالبغض ممتزج لمقابلته اياها بالاعراض والتباعد عنها واوردنا لمعة خفيفة كيف انها بعد فراره من مغائر الجن طمعت في القاء القبض عليه وحملت عاشقها جان ماريا على طلبه وبذل المال لمن يحمله اليه حياً اذ كانت غايتها في ذلك ان تضيق على كاميل ثم تدخل عليه وتواجهه في موافقتها على الحب والصحبة و تزدلف اليه بالملك فاذا اصابت منه ما تلتمس غدرت بجان ماريا واستخلفته من بعده وان لم يطاوعها فتكت به وارتاحت من عناء الحب

فلما امتنع عليها ادراكه وادرك جواسيسها وروادها التقصير في التفتيش

عنه قبل ان تقف له على خبر رأت الصبر والتمهل وجعلت كل برهة تعيد رسلها الى البلدان النائية بطلبه

ثم لما انتشبت نار هذه الحرب اصبح لا يفارقها تذكار كاميل حتى كان يتخيل لها انه مقبل نحوها وداخل عليها خدرها فتتمنى لو يتحقق لها ذلك

وفيما هي في اليوم الثاني من قدوم استور على كاميل جالسة في غرفتها دخل عليها بريفارا على عادته واخبرها بوشك وقوع الصلح الذي التمسه جان ماريا برأيها من فسينوكان وملاتستا وعن بعثة استور ونجاح رسالته في ذلك فلما رآها لم تعبأ بهذه البشرى ولم تحفل لها قال لها

— ما لي اراكِ هكذا يالاب سيئة الحال كاسفة البال فما غشيك

— اني خائرة النفس كثيرة الهم والحزن ايها البارون

— الم يكن طلب الصلح من رأيك يا عزيزتي او لم تشيري به لعلمك انه يدفع عن الدوق الشر الذى تتخوفين عليه منه

— ان ذلك مع تفكري فيه لم يمنع عني انقباض نفسي ولم يسر عني غمي

— هل نظرت في الصلح امرًا نخاف ضرره

— لا

— وهل حدث امرٌ اوجب لك هذه الكآبة

فتنهدت لاب ولم تجب فتبسم بريفارا وقال مغمغمًا

— لقد صار استرسالك اليه عشقًا ايتها الشقية وانت جاهلة بما صرت

اليه حتى اصبحت لا تمتلكين في القعود عنه صبراً فلا يحلي الكرب الا لقاء المحبوب

ـ ما لي اراك تلعثم الكلام كانك تحدث نفسك تكلم

ـ انت عاشقة لجان ماريا فانقطاعه عنك اوجب همك لانك لم تريه منذ ايام

ـ ما اضعف برهانك وابعد قولك عن الصواب امثل جان ماريا القبيح الوجه يعشق لقد ظننتك ترثي لحالي اذ تراني اكره نفسي على الاسترسال اليه وافعل فعل الرجل المكره على الدواء الشنيع رجاء منفعته فاراك تزيد الطين بلة

فعجب بريفارا لما راى من حالها واكتئابها وابى ان يزيدها من الكلام ثم هم بالخروج من عندها فسمعها تقول له

ـ هل عندك خبرٌ من كاميل وهل عرف احد اي البلاد انطوت عليه

فالتفت نحوها بريفارا واوصاله ترعد لذكر اسم كاميل وجعل يصوب فيها نظرة ويصعده دون ان يتكلم

فقالت له لاب ما يسكتك تكلم ان كان لك جواب

قال رأيتك تسألين عن كاميل فداخلتني من سؤالك ريبة

ـ وفي اي امر رابك

ـ خشيت ان يكون قد عاودك جنونك القديم فخطر على قلبك حب كاميل.

ـ ان حب كاميل لم يفارقني ساعة

ـ يا للجنون

ـ اتحسب ذلك جنونًا

ـ بل جهلاً وحماقة اذ قد يدهشني بقاء هذا الحب واعجب كل العجب كيف تطمعين باقبال كاميل اليك ورضاه عنك بعد ما سعيت في ضرره والتنكيل به

اني عملت برأيك ولم اطاوعك على ايصال الاذية اليه الا للغيرة التي اخذتني عليه من فرجيني

ـ وانا لم افعل ذلك الا لاجر اليك نفعًا لا تجدينه في حب كاميل فنظرت في الجواهر التي سهلت لك بلوغ هذه المراتب العالية اذ لو لم اصنع به ما صنعت ولم افتك بابيهِ من قبل لما افضت نوبة الملك الى جان ماريا واصبحتِ انتِ على اثر ذلك صاحبة الذكر البعيد والامر المطاع

ـ يوجعني ان اقول ما تكره ايها البارون ولكنك لا تؤاخذني اذا قلت لك انك قد سخرت بي وفعلت فيما يعود عليك لا عليّ نفعه فانت لم تصنع بكاميل وابيه ما صنعت الا لكي تفضى نوبة الملك الى الدوقة كاترين فتحكم معها البلاد كما فعلت ولو لم يرث بينكما حبل الصداقة والحب وتتخوف منها الشر لما رضيت بجان ماريا خلفًا لها ومع اني كنت مطلعة على امرك وعارفةً محالك لم الجِ في عنادك ولم ابدأ في معاندتك بل حققت امانيك رجاء ان احظى يومًا بالامير كاميل فهلا رحمت قلبي عندما كنت اعصيه لاطيعك واخالف هواي لارضيك . وطالما كنتِ ادرى الناس

علماً بحبي لكاميل وطمعي في قربه حتى اني حاولت قتل فرجيني ادراكاً لذلك افما كان حقيقاً بك ان لا تبالغ في تنكيله فلو آسيت بعدما جرحت واحسنت بعدما اسأت لامكن لي ان اعطفه واسترضيه واستعيض بهِ عن جان ماريا الشرس النكد القبيح الوجه الذي سئمته نفسي

— ان فيك جنوناً يا لاب لاني اراك تخلطين السواد بالبياض وتلومين غير ملوم وقد كان الاجدر بك ان تلومي نفسك قبل ان تحولي عليَّ بالتعنيف لانك كنت اشد نقمة مني على كاميل وبعد فاقصري هذا الكلام الذي يحدث للقلوب تغيراً وتيقني ان كاميل لم يحبك ولن يحبك ومن الجنون ان تتوهمي خلاف هذا او تعتقدي انه كان في وسعك ان تحمليه على حبك فقد كنت في عينيه ولا تزالين اذل من نقدٍ واقل من لا فلا تندمي على ما فات فلقد صدقتك ونصحت لك والسلام

ثم انه استقبل الباب وخرج مولياً عنها قبل ان يسمع منها جوابا

الفصل التاسع والعشرون

لو المحبوب لم يهجر محباً   لما ازداد المحب به هياما

فان الشيء حين يعز يغلو   وطالبه يزيد به غراما

فلبثت لاب وحدها تفكر في امرها وخيبة امالها وتردد في ذهنها كلام بريفارا وتحرق عليه اسنانها حنقاً وتقول ان ذلك مما جنيت على نفسي اليس من سفهي وجهلي مطاوعتي له فيما اراد بي حتى اختص نفسه بالفائدة دوني وحملني على حب من اكره وبغض من اهوى حتى

سئمت الاول وفقدت الثاني فما كما اغناني عما كسبت يومي هذا وما وقعت فيه من اليأس والهم · ان حب الرفعة دخل مني مدخلاً غلب على عقلي حتى بذلت جمالي الى جان ماريا الخلي من الخلال التي تتعشقها الغواني وجاهرت بعداوة كاميل الذي لم ترَ عيني مثله حسناً وجمالاً وحلماً وكمالاً · فويل لي انا الجاهلة التي لم انظر في امر يومي وغدي وعواقب اعمالي

ثم لما فكرت بكاميل وهي لا تدري اي البلاد انطوت عليه تنهدت وقالت — الامَ التعلل بالمحال وحتامَ اسعى بنفسي كاذبة عليها وانا اعلم ان كاميل وان عاد فلا يزداد الا تباعداً عني ونفوراً مني واذا اجتمعت به فما عذري عنده وقد قتلت بيدي اباه وحاولت ايصال الاذية اليه والى من احبها دوني ما ينفعني العيش اذا لم يكن لي الى كاميل وصول واذا ذكرت اني ظالمته ولا اقدر على تدارك ما فات ثم اشتد عليها الحال ولما لم تجد مخرجاً مما هي فيه من اليأس وشدة القنوط عمدت الى خزانةٍ امامها وتناولت منها قارورة صغيرة وصاحت وهي قابضة باحدى يديها على شعرها كأنها تحاول اقتلاعه

— كاميل كاميل سانتقم لك من نفسي واثار لابيك عناك واموت وفي قلبي لقربك حسرة وليكن ذلك جزاء ما قدمت يداي ثم ادنت القارورة من فيها وهي مرتجفة الفرائص واذا باب غرفتها قد فتح بعنف فجاءة وابصرت كاميل داخلاً عليها

فلم تعرفه لاول نظرة لطول عهده في البعد عنها لكن تمثل لها من

هول ما هي فيه انها ترى رجلاً قريب الشبه منه فصاحت مضطربة وقد تراجعت الى الوراء

ـ ماذا ارى اخيال كاميل لا لا ان كاميل راتع في احضان فرجيني لا يخطر له ان يأتيني فيراني اجود بروحي من اجله

ثم زادته نظراً وقالت ـ تكلم ان كنت كاميل

فنادها كاميل قائلاً ـ لاب لاب الم تعرفني

فلما طرق صوته اذنيها جمدت يداها وطارت نفسها من الدهش شعاعاً فسقطت القارورة من يدها وتلعثم لسانها من شدة الفرح فلجلجت قائلة كاميل ... حبيب قلبي .. ثم هوت على مقعدها مسلوبة الحواس

فحين بصر بها كاميل وهي على تلك الحالة ظل واقفاً ينظر اليها ولا يتكلم حتى اذا افرج عنها روعها وثاب اليها رشدها قال لها

ـ انه لم يقع لك الفكر في ان ترى كاميل داخلاً عليك خدرك ايتها البارونة بعدما حبس عنك منذ زمان طويل

ـ اتراني اراك حقيقة يا كاميل بعدما قطعت رجائي من لقائك اني اكاد لا اصدق عيني

ـ ما اقرب ما نسيتني يالاب

ـ هل تنساك من تحاول قتل نفسها من جفاك ولكني رأيت في ملامحك تغيراً

ـ ان ذلك مما جلبته عليَّ مغائر الجن والمصائب التي توالت عليَّ من بعدها فلما وعت لاب كلامه اطرقت برأسها الى الارض ثم

تنفست الصعداء وقالت

– قد كتموا عني سجنك وبقاءك في قيد الحياة ولم اعرف انك في مغائر الجن الا بعيد فرارك منها

– اتجهلين امراً كنت من عداد الذين قضوا به

– لم يكن لي في ذلك يد ايها الامير.

– اراك شرعت في جعل نفسك بريئة كمن لا ذنب له

– اذاً انا لم التمس لنفسي العذر فلمن التمسه وبعد فاني وان كنت اتيت عظيماً فلم آته عداوةً ولا طلب مضرة ولكني نقمت عليك ميلك الى فرجيني للغيرة التي اخذتني عليك منها

– اراك تزدرين بفعلك وتعدينه يسيراً

– ان علمك بي لهو غاية الشك اذ ربما بلغك عني كذب فصدقته عليَّ وسمعته فيَّ

– اقصري هذا الكلام يا لاب فاني لم آتك معنفاً او معاتباً لك على ما كان منك ولا لاسمع منك لوماً لان ذكر ذلك يحدث لقلبينا تغييراً ونفوراً وخير لنا الاعراض عما في نفوسنا حتى لا نذكر منه شيئاً لان الرجل الارمد العين اذا استقبل بها الريح تعرض لان تزداد رمداً

– او جئتني لغير ذلك

– اني لا اكتمك الامر الذي قدمت عليك من اجله لان نفعه عائد عليك وعليَّ بالسواء

– اذاً لخير قدومك يا كاميل

ـ قد جئتك مستعيناً بك على امر لي ولك منه غبطة وصلاح

فابرقت اسرة لاب استبشاراً وطابت عن كلام الامير نفساً اذ خطر لها انه لم يقدم عليها بعد طول عهده بالبعد عنها الا وقد فقد فرجيني وسلا هواها وانه انما جاء ليوافقها على الحب والصحبة ويستعين بها على قتل جان ماريا ليخلفه في الملك فاجابته قائلةً ـ ها انا سامعة منك وموافقة لك فيما تريد فقل ولا تحتشم فان الامور كلها مبذولة لك

فقال لها كاميل . قد عرفت يا لاب كلما جرى لي منذ حرب فلورانسا حتى فراري من مغائر الجن واني توليت بنفسي قتل كاترين الظالمة وقابلت محبك جان ماريا تلك الليلة في ميلان ودفعت اليه تلك الرسالة وانا مع اصحابي في لباس القرويين

ـ اني اذكر كل ذلك

ـ ولست براغب الان ان ازيدك علماً بما وقع لي بعد ذلك من توالي المحن لئلا يثقل ذلك عليك وكفى اذا قلت لك اني فضلت البقاء في مغائر الجن في جنب ما الم بي ودهاني واني ما زلت كل هذا الزمن نافراً في عرض البلاد مع صديقي روبر ومرتينو حتى لج بنا الشوق الى الوطن فلما عدنا في هذه الايام بلغنا شبوب نيران هذه الحرب فنشطنا لاخذ ثارنا من جان ماريا ورأينا ذلك فرصة تستفرص فانضممن الى فسينوكان . وباندولف مالاتستا مع من انضم اليهما من الجبليين والفلفيين وهكذا اصبحنا يداً واحدة في القتال

وكيف لم يبلغ ذلك جان ماريا وبريفارا او استور الذي بعث

اليكم بطلب الصلح رسولاً

ـ اني تنكرت وكتمت خبري حتى لا يفشو ذلك فيبعث محبك الدوق على الانتباه وزيادة الاحتفاظ ولقد رأيت يا لاب كيف وفقنا الى الغلبة عليه وكيف منحنا الله اكتاف قومه ونظرت ما حل بميلان ونزل باهلها ولقد كنت ارجو في هذه الحرب ان اصيب غرة جان ماريا لافتك به وانتقم منه فلم يتهيأ ذلك لي ثم لما تحصن مع جنده في دير القديس غوتاردو وعقدنا النية على ان نهاجمه ونقتاله ليلاً فحدث ان الم بالكونديتاري فسينوكان مرض قتال الجأنا الى الصبر والمهلة في ذلك

وهل فسينوكان مريض

ـ انه قد اشرف على خطر الموت وقد كتمت هذا الامر الا عنك لكي لا يزيد هذا النبأ في قوة جان ماريا اذ يظهر له نقص في حالنا وضعف في عزيمتنا

ـ وهل ادرك استور ذلك عندما اقبل اليكم في طلب الصلح

ـ ان استور لم يقبل الينا في طلب الصلح بل ليأتمر بجان ماريا فيقتله ويختلس ملكه

ـ الا تعلم ايها الامير انه اذا قضي فسينوكان وادرك ذلك جنده واشياعه انقلبوا مولين عن ميلان واستحال عليك التغلب على الدوق وتعذر على استور ادراك حاجته من قتله

ـ اني لاجل هذا قدمت عليك يا لاب لاني لما تأكدت انه سيدركني الفشل لم ارَ من الراي الا ان احمل نفسي اليك لاستعين بعلمك وعملك

لعهدي انه باقٍ لي في فوءادك بقية من الحب تتحرين معها موافقتي فيما اريده منك

قالت لاب والسرور يكاد يذهب بقلبها ما عدوت الذي في نفسي يا كاميل فهذا الذي كنت احدث به نفسي من زمان واريده وكنت رغبت في الاجتماع بك من اجله لكن لجاجتك في التباعد عني وغرامك بفرجيني حالا دون مطلوبي مع اني كنت وطنت نفسي من شغفي بك وحبي لك على الغدر بجان ماريا لاستخلفك بعده في الملك فتصبح سلطان لمبارديا وقلبي معاً

- او لم يزل عندك بعض هذا الحب

- هو باقٍ كله واعذرني اذا لم اكن املك كتمانه فلقد رأيتني كيف كنت على وشك ان اقتل نفسي بيدي عند توهمي اني لن القاك وان اقدر على تدارك ما فات فلو تاخرت عن الدخول عليَّ لحظةً لالفيت لاب جثةً باردة قد كتب الموت على جبينها انها قضت شهيدة هواك وقتيلة جفاك

فتبسم كاميل اذ راى ان لاب قد اغترت بكلامه وانخدعت له اذ لو وقع لها الفكر في ان فرجيني لم تزل في قيد الحياة لرآها على غير ما هي عليه معه من الالطاف والطاعة لهُ

اما لاب فاردفت قائلة واما الان وقد انقادت لي الامور على استوائها ووثقت من لقائك وقربك فسابذل حياتي ودمي في قضاء الامر الذي احتجت اليَّ فيه وسوف يكون مصرع جان ماريا شديداً

- هذا امر لا يرجى فيه غيرك يالاب فاخبريني عن رأيك فيه

- اني ارى من الراي ان تتفقوا مع الدوق على الصلح بشروط يهون عليه قبولها ثم متى توليتم عنه واستقرت ميلان بعد ذلك برهة قليلة صماء عن

صلصلة الحديد اصبح آمناً مطمئناً وعاد الى ملازمتي وصحبتي فاغتنم اذ ذاك فرصة للغدر به فاقتله دون ان يعلم احد بما قدمت يداي

ـ وهل لا يتسنى لك استقدامه في هذه الليلة او اغتياله في مكانه قبل انصرافنا عن ميلان

ـ اني يتفق لي ذلك وجان ماريا لشدة خوفه على نفسه من الشعب الناقم عليه اعماله لا يجسر ان يغادر دير القديس غوتاردو رغماً عن تلهفه الى رؤيتي وهو انما لج في طلب الصلح لتعذر وصوله اليَّ حالاً

ـ وهل لا يؤذن لاحد بمواجهته

ـ ليس الا لاستور او بريفارا او لمن يحمل اليه هذه العلامة وهي خاتمي فقد تعودت ان ابعثه مع رسلي في كل مرة ارادوا الدخول عليه من قبلي

ـ هاته يا لاب فانه ينفعني

ـ حباً وكرامةً وللحال نزعت من خنصرها خاتماً من الماس ودفعته الى كاميل وقالت له

ـ وماذا عولت ان تفعل به ايها الامير

ـ اني اريد الدخول به على جان ماريا

ـ اليك عن هذا الامر فانه تغرير بنفسك ولست آمن عليك من غدر الدوق بك وقد قيل من سلك الطريق المخوف فقد سعى في حتف نفسه

ـ هذا امر لا بد منه

ـ ويلاه اني ساموت من ندمي على تسليمي لك هذا الخاتم فبحقك الا رفقت بنفسك وبي وحلت عن غيك لئلا يصيبك مكروه ودعني احتال لعاشقي واتولى قتله بيدي

ـ انك ستتولين امراً اعظم من هذا ايتها البارونة فانا لا اريد ان اثقل عليك بكل الامور

ـ اني لم افقه ما تقول

ـ اني ما برحت احتاج اليك في امر صعب انما قدمت عليك من اجله فان اجبتني اليه اوليتني احساناً ومعروفاً

ـ ان كان هذا الامر مما يبعث على ندمي فلست بمجيبتك اليه

ـ لا اكتم عنك انه امر صعب انما لا خطر له

ـ اذكر لي هذا الامر

ـ انك تذكرين يا لاب ان ابي قد مات في هذا القصر مسموماً وان بريفارا احتال له بمكره ودهائه حتى قتله

فصاحت لاب وقد برقع الاصفرار وجهها لا لا اني لا اذكر شيئاً من ذلك

ـ حوشيت ان تنسي ما فعلت بالامس ايتها البارونة فان كأس السم قد شربها ابي من يدك هذه اللطيفة

ـ لا علم لي بما تقول وهذا كذب قد بلغك عني ايها الامير

ـ اتظنين بقولك هذا انك تخدعينني يا لاب بعد اذ لم تنسي

الليلة السادسة عشرة من شهر ايار فانك ان نسيتها او تناسيتها فانظري الى حيطان قصرك تريها مرسومة باحرف نارية تلك الليلة التي كنت فيها ترفلين باثوابك الديباجية الزرقاء استعداداً للضحية التي ضحيتها بيدك

ـ لقد خدعك من اخبرك عني ذلك وما نقل اليك الا زوراً وبهتاناً

ـ وقد اخبرني بان طربك تلك الليلة التي دعاه فيها بريفارا الى مناولة الطعام على مائدتك قد كان يوازي اضطرابك الان وانك بعد ان غنيته على شبابتك اقبلت به الى الخوان وباشارةٍ من بريفارا ناولته كاس الخمر ممزوجة سماً ثم جعل جان ماريا وبريفارا يضحكان سروراً عندما ابصراه يتمرغ على الارض بين قدميك

ـ ويلاه ما هذه التهمة الغريبة التي تتهمني بها

ـ ان الاشد منها غرابة يالاب وجدان خادم ابي المدعو بطرس الذي كان في صحبته تلك الليلة حياً لان مولاك بريفارا قد سجنه في مغائر الجن ولم يخطر له ببال اني ساجد ذلك الخادم واقف منه على علم ما لا اعلم من حوادث تلك الليلة

ـ اني لم آت الى ابيك ذنباً ولم اصل اليه بضرٍ وانك ايها الامير لفي غرور مبين

فلم يجبها كاميل اذ وجدها مصرة على الانكار بل صفر صفرة خفيفة واذا بباب الغرفة قد فتح ودخل منه خادم ابيه بطرس فلما وقع نظره على لاب جعلت اوصاله ترعد فاشار اليه كاميل قائلاً

ـ ان البارونة لاب تنكر على نفسها قتل مولاك كارلوس وتتنصل من ذلك يا بطرس فاضطرمت نار الحقد دفعةً واحدةً في قلب ذلك الخادم

الشيخ فالقى يده على قبضة خنجره وصاح بصوت جهير ـ ها هي الخائنة ها هي قاتلة مولاي كارلوس ... آه السمامة الساحرة اقتلها اقتلها فاني ارى الكأس في يدها

اما لاب فعندما رأت الخادم كانه ملاك الموت منتصباً امامها وسمعت كلامه ذعرت ولم تستطع لنفسها ضبطاً فاكبت على وجهها وجعلت تنادي من الوهل والفزع

ـ رحماك يا كاميل اقتلني اقتلني او ابعد عني هذا الرجل الذي ذكرني بالذنب العظيم الذي اقترفته

فاشار الامير الى خادمه بالاعتزال عنهما فخرج من الغرفة وهو ممتلىء حقداً وحنقاً ثم التفت الى لاب فرآها قد غطت وجهها بمنديلها واجهشت بالبكاء فادركته لها رحمة لعلمه ان بريفارا هو الذي قد خدعها واستدرجها في الزيغ وزين لها قتل ابيه وانها لم توافقه فيما اراد الا خوفاً وطمعاً في نيل امنية ثم سمعها تقول له وهي دامية الاجفان منهلة العبرات

ـ كاميل اقتلني فقد قتلت اباك كاميل اني قد سقيته السم فاثأر له مني ودونك قلبي فاطعنه غير متهيب

ـ خفضي عليك ايتها البارونة

ـ ان الموت لاهون عندي مما فعلت ايها الامير لانك لا تعلم ما يفعل بي تذكار مقتل ابيك فانه لاشد هولاً عليّ من الموت فاقتلني بحقك وارحني او فانظر في الصفح عني

ـ قد قلت لك يا لاب اني لم آت اليك لانتقم منك او لاعنفك على

ما كان منك لاني اعلم ان لا ذنب لك في قتل ابي بل الذنب كله لبريفارا الذي قهر رأيك واستغواك بخدعه فاقبل بك الى ما فعلت على غير نظر منك في العواقب وتدبر في الامر فبريفارا اذن وحده لثاري واريد ان يموت كما مات ابي ·

ــ مسموماً

ــ اجل وان يشرب السم على مائدتك ومن يدك فتستدعينه في هذه الليلة وتتولين دس السم له كما فعلت بابي من قبله وانت لابسة اثواباً زرقاء

ــ لا افعل ذلك ابد الدهر فان الموت خير لي من اقدامي على مثل هذا الامر العظيم

ــ اولم يكن الذي اتيته بابي عظيماً ومع هذا فقد قتلته ظلماً وليس ذلك امرك مع بريفارا فانك ان قتلته كان عدلاً وانتقاماً منه وتعويضاً عما فرط منك ومنه من الاساة اليّ ·

ــ ان الموت خيرٌ لي من هذه الحياة ان انا قتلت بريفارا الذي هو عديل نفسي

ــ انفس غيرك اعز عندك من نفسك حتى تفضلي عليها بريفارا فاحتفظي بها واعملي هذا الذي لك فيه الصلاح فالبارون لا بد من قتله اذعنتِ او ابيتِ

ــ كاميل انك ترجو امرًا مستحيلاً

ــ انك اذ لم توافقيني على ذلك تلجئيني على قتلك

فساءَ لاب كلام الامير وثقل عليها فاغلظت في الجواب وقالت له هل بلغ منك ان تحدثني بمثل هذا الكلام وانت في منزلي

ــ عهدته منزلك ايام كنت تمرحين فيه على بسط النعيم واما اليوم

فقد اصبح سجناً لك واصبحت اضعف من ان تقدري على الخروج منه

ـ لقد تجاوزت حدك يا كاميل فاقلع عن غيك او دعني

ـ انك قد اصبحتِ في قبضة يدي يا لاب ولست بحائل عنك قبل قتل بريفارا او قتلكما معاً

فلم تجبه لاب بل اسرعت الى الجرس في شدة غضبها وقرعته شديداً لتستصرخ خدمها ووقفت تنظر الى الباب مترقبةً مقدمهم عليها لتأمرهم بالقبض على كاميل واذا بالباب قد فتح فجأة وظهر منه روبر وورودريك ومرتينو والخادم بطرس وجميعهم مدججون بالسلاح فلما ابصرتهم لابِ ذعرت وتراجعت الى الوراء وسقطت على المقعد مضطربة الاوصال كاسفة البال وصاحت ويلاه قد هلكت

فقال لها كاميل دعي عنك المكابرة يالاب فليس لك غير قتل بريفارا الذي تنجين به روحك فان خدمك وجميع من في قصرك عندنا اسارى نخذي طرساً واكتبي اليه ان يوافيك عند العشية ليتناول العشاء على مائدتك وان تاخرتِ لحظةً خرقت بهذا السهم صدرك

فهمت لاب ان تعطف قلبه لكنها رأته قد صوب سهمه الى صدرها فاسرعت الى منضدةٍ هناك وكتبت وهي ترتجف فرقاً

سيدي البارون . ان لي كلاماً اقوله لك وهو من الاهمية بمكانٍ فوافني في العشية لتقاسمني الطعام فاقصه عليك وانك ان تاخرت عن اتياني تلقاني في الغد جثةً باردة

ثم دفعت اليه الطرس وهمت ان تنتحي عن المنضدة فقال لها كاميل

انك قضيت على بريفارا بالموت فاكتبي الى ابنه فرنسوا ان يأتي اليك في الساعة الرابعة من الليل لتدفعي اليه جثة ابيه

ـ صاحت لاب اتريد ان تلحق الابن بابيه ان عملك هذا لافتراء وظلم لم يسبقك اليه احد

ـ اني لا اريد به شراً وحاجتي اليه يسيرة فلا تمنعيها عني

ـ لا تفعل ايها الامير فعلاً يلبسك العار فتندم ولات ساعة مندم

ـ قال اريد ان اجمعه بشقيقته بلانكا فقد سالتني ان تراه

ـ وهل بلانكا لم تزل حية ترزق

قال لقد وجدتها في اسر رجل اندلسي في مالقه ولما حاولت استنقاذها سبقني دلبانو الى اختطافها وادلج الى الفرار فادركته في عرض البحار وانزلت بهِ وبقومه العبر بعدما خلصتها من يده

انت قاتل لدلبانو وبريفارا في كل يوم يترقب مقدمه عليه

اني ساحدثك بكل ما جرى لي وذلك بعد قتلك بريفارا فاكتبي الى ابنه ما كلفتك بهِ

فلم يسع لاب مخالفته فكتبت الى فرانسوا تسأله زيارتها في الساعة الرابعة من الليل

وبعدما احرز كاميل الكتابين قال لها ان بريفارا سيأتيك دون ابطاء فحذار ان تمتنعي عن دس السم له واياك ثم اياك ان تكاشفيه بامري وامر اصحابي لانهم سيتزيون بزي الخدم ويتولون تقديم الطعام والوقوف بين ايديكما فان خالفتني او بدا منك ما يشتم منه رائحة الغدر قتلتك

معه اشنع قتلة فتدبري الامر واعلمي ان لك في نفسك حاجة فلا توءثري
نفس بريفارا عليها

الفصل الثلاثون

يوم لنا ويوم علينا

وعندما غربت الشمس ومد الظلام اطنابه لبست لاب ثوباً من الديباج الازرق واقامت تترقب مقدم بريفارا عليها وقلبها يخفق فرقاً لافتكارها بما ستقدم عليه من العمل العظيم وتتمنى لو يعرض لبريفارا ما يوءخره عن اتيانها لتتخلص من قتله مع علمها انه لا يقعد عن المجيء اليها

ثم جعلت تقول في نفسها ما ادري اي الامرين اعظم في نفسي هلاكي وهلاك بريفارا معاً ام قتله وبقائي في الحياة بقرب كاميل ونيلي حظوة عنده ان في قتل بريفارا خلاصي وليس في موته مضرة لي ولا خسران جاه وذهاب نعمة بل ان في هلاكه نفعاً طالما التمسته وبذلت روحي في سبيل حصوله الا وهو موافقة كاميل لي على الحب والصحبة فليمت بريفارا فان في ذلك صلاح امري

وبينما هي تحدث نفسها سمعت خفق اقدام فنظرت واذا بالبارون داخل عليها فهرعت الى استقباله بوجه باش اما البارون فحين وقع نظره عليها امتقع وجهه وقال لها

ـ ها قد اتيتك يالاب وقد خال في وهمي ان اجدك سيئة الحال مهمومة كما غادرتك في وجه هذا النهار فاذا بي اراك في هذه العشية باسمة

الثغر وعليك هذه الاثواب الزرقاء التي اكره ان اراكِ لابسة اياها

ـ انت تعلم اني قد لبست هذا الثوب ليلة قتلت الامير كارلوس ويسكونتي اما اليوم فقد قابلت به ابنه

ـ ماذا تقولين

ـ رأَيت كاميل

ـ صاح بريفارا مضطرباً كاميل

ـ قد جاءَني في هذا النهار زائراً

ـ احقيق ما تقولين يا لاب

ـ وقد دخل علي غرفتي بعد اذا انفصلت من عندي

ـ كاميل في ميلان

اني لاجل هذا دعوتك لاخبرك بما جرى لي معه

اني ارى وجهك يطفح سروراً فهل ذلك لاجتماعك بكاميل

سيدركك العجب اذا قلت لك ان فرحي الشديد لهو من استظهاري علي نفسي وانتصار مروَّتي على عواطف حبي وسوف تعلم امري وتحمد فعلي متى بحت لك بالاسرار فهيا بنا الى مائدة الطعام فاني لم اذق اليوم طعاماً

ثم استندت على ذراع البارون فاقبل بها الى غرفة الطعام فاذا هي تتوقد بالانوار والخوان مشحون بالانيه الذهبية والفضية والازهار والاشجار والخمور المعتقة وكلها على اتم انتظام واكمل اتقان

فلم يحفل بها بريفارا لشدة اهتمامه بالامير كاميل وافتكاره بعواقب الامر

الذي قدم لهُ على لاب ولم ينتبه للخدم الذين ابصرهم وقوفاً امام الخوان

فجلس وجلست لاب قبالته وجعلت تسكب له الخمر وتسقيه والخدم تحمل اليهما من صحف الطعام الواناً

وكان البارون اثناء ذلك منكس الراس لا يأكل الا قليلاً ولا يرفع نظره عن صحفة الطعام والافكار تتوزعه والهواجس تقيمه وتقعده فلما اعياه صبره قال لها

اخبريني يالاب عما عرفته من كاميل وعن سبب قدومه عليك فاني عدمت جلدي

ان الذي سمعته وعرفته ان فسينوكان وملاتستا لم يضرما على ميلان نار هذه الحرب ويوريا زنادها الا لينتقما للامير كاميل من جان ماريا ومنك ومني

فلما سمع ذلك بريفارا جزع وظهرت على وجهه علائم الاضطراب لكنه اضب على ما في نفسه ومنعه دهاؤه ان يظهر جزعاً فقال

ــ وهل كاميل تدرع بجلباب هذه الفتنة

ــ اجل وانما كتم امره حتى لا يبلغنا ذلك فناخذ حذرنا منه

ــ ان كان اوجب على نفسه الانتقام منا فكيف ترك فسينوكان وملاتستا يجيبانا الى المصالحة التي بعثنا بها استور رسولاً

ــ ان استور لم يتوجه اليهما في طلب الصلح ولكنه اضمر في نفسه قتل جان ماريا واختلاس الملك فسار نحوهما ليعيناه في ذلك وهو آخذ في تدبير المكيدة

فارعب هذا الخبر قلب بريفارا فصاح وانتصب واقفاً كمن هم بالخروج وقال — ويل لاستور الخائن الغدار

فقالت له لاب الى اين انت ذاهب ايها البارون

— اني منطلق الى نادي مولاي الدوق لاطلعه على دخيلة الامر فيقبض على استور المحتال ويمثل به تمثيلاً فظيعاً

مهلاً مهلاً ايها البارون فاني محدثتك بامور تزيدك عجباً فلا تلج في الذهاب

— وهل بلغك امر اعظم من هذا

— كيف لا وكاميل لم يأتِ اليَّ الا ليستعين بي على الفتك بالدوق جان ماريا

— ان كان الامر كما تقولين وان كاميل هو الذي اراش جناح هذه الفتنة فما الذي قعد به حتى اليوم عن مهاجمة جان ماريا واغتياله في محصنه بقوة جنده

— قد كان ذلك في عزمه فحدث ان الم بفسينوكان مرض قتال اشرف منه على الخطر ولخوفه ان يقضي عليه وتتقاب جنوده المرتزقة جاء الي يلتمس مني ان اعني بحاجته واكون بمظاهرته اذ لم يرَ لهذا الامر احداً سواي

— افسينوكان مريض

— وقد اشرف من مرضه على التلف

فلما سمع ذلك بريفارا فرح فرحاً شديداً لعلمه ان جنود الاعداء لا يلبثون اذا نزل القضاء بفسينوكان ان يقع بهم الفشل فيولوا عن ميلان فيأمن

على نفسه من كاميل وعلى الملك ان يغصب من يد جان ماريا وعلى منزلته عنده لكنه خاف من لاب ان تكون قد وافقت كاميل على ما عزم عليه واجابته الى ما يريد منها لعلمه بشدة كلفها به وحبها له فاراد ان يطلع على شأنها ليأمن شرها فقال لها

ــ ما احسن ما حدثتني به يالاب فاخبريني عن الحيلة التي صرفت بها كاميل عنك

ــ اني لما لم استطع ان اجاهر بمخالفته تلطفت به لايهامه برضاي ونصحت له ان يتفق مع الدوق على امر الصلح حتى اذا سكن الهرج واطمأن جان ماريا على نفسه احتلت في قتله وجعلته خلفاً في الملك

ــ وهل صدق منك ذلك

ــ انه لج عليَّ بقتل جان ماريا ولما رايته لم يرضَ المهلة في ذلك نصبت له شركاً يقع به وذلك ان زينت له الدخول على الدوق في الغد وهو متنكر واعطيته خاتمي ليتمكن به من الوصول اليه وانا اعلم انه سيلقى في هذا الامر مصرعه وقد استدعيتك لاطلعك على ما دبرته لتحتال للامر قبل تمامه ووقوعه · واعلم ان لاب هي عدوة من عاداك وولية من والاك فاشكرها على انها وجدت قواماً على هواها وعصت فوءادها في حب كاميل فان الناس يلتمسون صلاح انفسهم بفساد غيرهم اما انا فاني نفعت غيري بضر نفسي واني لم اكن اعهد في نفسي قبل هذه المرة قوة التغلب على ضعفي وكنت في خوف ان يغلب هواي عقلي ويقهر رأيي فاذا انا على خلاف ما اعهد من امري ولاجل هذا تراني مسرورة جذلى · فقهقه بريفارا ضاحكاً

وقال لها ـ بورك فيك يالاب فقد ملأت عيني قرة وسوف تزدادين عند الدوق حظوة وشرفاً متى عرف بما دبرت من المكيدة لقتل كاميل وسمع بمرض فسينوكان وادرك خيانة استور الغدار

وكانت لاب في غضون الحديث تسقي بريفارا من الخمر قدحاً بعد قدح وتنظر في كل فترة الى الخدم والى نافذةٍ في جدار الغرفة لا تظهر من خلال السجف الحريرية وتبدي ابتساماً . ثم لما رأت البارون يتعجل في طلب الوان الطعام وهو لا يذوق منها الا قليلاً قالت له رويدك يامولاي ولا تلج في طلب الطعام فان عندي كلاماً كثيراً اقوله لك

ـ تكلمي يالاب ولا تكتميني شيئاً

ـ اني مبشرتك بما تطيب به نفسك فان بلانكا ابنتك ما برحت حية ترزق

فلما تدبر البارون كلامها صاح في شدة فرحه ـ احقيق ما تخبرينني به يالاب

ـ كيف لا وانت اذا عشت الى غدٍ تراها

ـ وهل يمكن لي ان اراها غداً

ـ اجل

ـ اني اترقب بفروغ الصبر قدوم الغد

فضحكت لاب وقالت مواربة واطول شوق المستهام الى غدٍ

ـ هل لك ان تخبريني باي مكان نزلت

ـ اني غير عارفة بهِ ثم لا يعظم الامر في نفسك اذا اخبرتك ان دلبانو ورجاله البرافي قد وقعوا في يد الامير كاميل فاوقع بهم في عرض البحار

واوردهم موارد الحتوف وجعلهم للاسماك طعاماً

ـ اني لا ابالي بذلك اذا رأيت بلانكا ابنتي لاني اريد ان ابدل حزنها بفرح واجبر ما كسرت وارتق ما فتقت ولا سيما واني قد اصبحت في حل من دلبانو لان اكراهي لها على الزواج بهِ مع علمي بخبه وفجوره كان ظلماً وجوراً ثم لا اكتم عنك ان دلبانو ذو مال كثير وليس احد يقدر على ان يرثه غيري فهو كله لي مغنم بارد

فلما عاينت لاب فرح بريفارا وجدت ان تلك فرصة تستفرص فصبرت ريثما خلت الغرفة من الخدم ثم نهضت في الحال وملأَت كأس بريفارا خمراً ودبرت ان جعلت يدها تصدم بعنفٍ شمعداناً من الذهب فسقط الى الارض باسفل الخوان فانحنى البارون لما لم يرَ الخدم واكب بوجهه الى اسفل لياخذه ويعيده الى مكانه فاغتنمت هذه الفرصة واخذت من كمها قارورة صغيرة وافرغتها في كأْس البارون باسرع من لمح البصر وجعلت بعد ذلك تنادي الخدم وتوسعهم سباباً وشتماً وتعنفهم على تقصيرهم في الخدمة لتخفي بمظاهر الحدة والحنق الهول والاضطراب اللذين نزلا بها في تلك الدقيقة

فحانت من بريفارا التفاتة نحو الخدم فانكر امرهم اذ رأَى رجالاً لم يعهدهم من قبل في خدمة لاب فقال لها

ـ اني ارى خدماً لم يسبق لي ان اراهم قبل اليوم

فخفق قلب لاب وارتجفت شفتاها فزعاً اذ لم تكن لمثل هذا السؤال متوقعةً لكنها تجلدت واجابته قائلةً ـ ان خدمي وحجابي قد تركوني وابتدروا المفر الى مكان بعيد خوفاً على انفسهم من جيوش الاعداء الذين

انبثوا في كل انحاء المدينة ولما لم اقدر ان ازيل خوفهم وامنعهم عن الفرار استعنت بهولاء الى ان تنفرج هذه الكربة وتنقضي هذه الغمة فصدقها بريفارا اذ لم يجر في ظنه انهم اصحاب كاميل وان الامير واقف وراء سجف النافذة المطلة على الغرفة ينظر اليه ويسمع منه ويتعوذ من دهاء لاب ومحالها ودموعه منهلة على وجنتيه لاذكاره بمقتل ابيه وتمثله اياه جالساً على تلك المائدة ولاب تسقيه كاس السم ولما سكن جاش لاب قالت للبارون وهي تتكلف الابتسام - وما عساه يكون مبلغ جزائي عندك على اني بشرتك بلقاء بلانكا

- ان هذه البشرى لا تقوم بثمن ولكني اعددت لك عقداً من خالص الجوهر تلبسينه يوم تستقبلين بلانكا

فاخذت لاب لوقتها قدح الخمر الذي امامها واوعزت الى بريفارا ان يفعل فعلها وقالت بصوت متلجلج - فانشرب نخب بلانكا التي ابت ان تمزج دم بريفارا بدم ابن راهب من رعاع الناس

- قال البارون وهو يتطاول تيهاً - لا بل فلنشرب نخب البارونة لاب ربة الجمال التي لولاها لم يكن بريفارا شيئاً مذكوراً

ثم ادنى الكأس من فيه فتبرقع وجه لاب باصفرار الموت وجعلت يدها ترتجف حتى لم تستطع ان تضبط الكأس او ترفعها الى شفتيها الا بجهد شديد وهي ناظرة بعينين جاحظتين الى بريفارا وقد همت ان تمنعه عن شربها واذا به قد وضع القدح المملوء سماً زعافاً على فمه وتجرعه دفعةً واحدة فالقت لاب للحال الكاس من يدها وغطت وجهها بكفيها فقال لها البارون

ما بالك يالاب وما عساه نالك فاجابته وهي تحاول اخفاءَ ما بها ان عندي كلاماً اقوله لك واخاف ان يغلظ عليك ويرعب قلبك

ــ ان اكبر الحوادث في عيني اصغرها فقولي ولا تحتشمي

قالت وهي تأتي بيدها على صدرها وتبدي حركة غير عادية ياسيدي البارون

ــ لاب لاب اني اراك مرتجفة الفرائص فما الذي نزل بك ولما لم تجبه جعل يتلطف بها ويكثر عليها القول لتخبره بالامر فقالت له ·

ــ ان كاميل قد عرف قاتلي ابيه ووقف على ذلك السر المكتوم

ــ ومن اخبره بذلك

ــ خادم ابيه بطرس الذي قد امسكته تلك الليلة وسجنته في مغائر الجن فما برح حياً حتى قدر له الاجتماع بابن سيده فاطلعه على ما بطن

فعض البارون على شفتيه حتى كاد يدميهما ولم يبد خطاباً فاردفت لاب قائلة وقد اعاد كاميل على مسمعي كل ما جرى على ابيه ولما راني متجاهلة مصرة على نكران ذلك استدعى خادمه الذي اقبل معه فحينما وقع نظري عليه لم اعد استطع لنفسي ضبطاً فاعترفت بذنبي وتوهمت ان كاميل لا محالة قاتلي فما اصبت في ظني به لاني لم البث ان رأيته قد اعطاني الامان وجعل يزيد في الالطاف والاكرام لي ويظهر من نفسه الود والاسترسال اليَّ حتى اذا سكن جاشي ووعدني بان ياتيني في الغد لامر لي ولهُ منه صلاح وغنى ثم ودعني وكر راجعاً

وما تولى حتى اقبلت الى المنضدة وكتبت اليك الكتاب الذي وصل اليك مني وبعد ان بعثت به مع احد الخدم انطرحت على سريري اطلب

راحة فادركني النعاس فنمت نوماً ثقيلاً

ولقد رأيت في نومي حلماً ان كاميل اتاني في الغد وسألني ان ادعوك الى مناولة الطعام معي وان اسقيك السم في غضون ذلك على غفلة منك كما فعلت بابيه فانكرت عليه ذلك فاقبل يتهددني ولما رايته مصراً على غيه اخذني من الحنق ما لم يبقَ معه موضع للصبر فاستصرخت خدمي ليعينوني في القبض عليه واذا باصحابه الذين فروا معه من مغائر الجن قد دخلوا عليَّ بدلاً من الخدم وهم شكاك في الحديد فلما ابصرتهم سقطت في يدي وعلمت اني هالكة اذا لم اوافق الامير الى ما اراد مني

ثم هو لم يوليني فترة حتى كتبت اليك عين الكتاب الذي بعثت بهِ اليك في هذا النهار فلم تبطئ ان اتيتني تسألني عن شاني فواربت بما في نفسي وجعلت اسوق اليك حديثاً جمعت فيه بين الصواب والمحال وخلطت فاسده بصحيحه حتى لا يخامرك سوء ظن ٍبي ثم حلمت اني اقبلت واياك الى مائدة الطعام ولما جلسنا التفت فاذا بي ارى كاميل قائماً وراءَ هذه النافذة محتجباً بالسجف الحريرية واصحابه قياماً بين ايدينا يتولون الخدمة وهم يترقبون قضاءَ الامر الذي قلدته واوجبت على نفسي القيام به

وكان السم في غضون الحديث قد تمشى في مفاصل بريفارا وسرى في عروقه واخذه من الالم ما يمكن احتماله فلم يحفل له في فورة الامر لشدة اهتمامه بحديث لاب بل ظل آذناً يسمع كلامها فاستتلت قائلة

ثم جعلت في حلمي اثبت لنفسي الخصومة وانهاها عن فعل ما يضرك لكنني لم امكث ان تذكرت اساءَتك اليَّ والتماسك صلاح نفسك بفساد امري

وحرمانك اياي كاميل الذي طمعت ان اجتمع به بعد قتلي لك فعمدت الى قارورة اخفيتها في كمي وافرغتها على غفلة منك في كأس الخمر فتناولت القدح وانا ناظرة اليك وعيون كاميل واصحابه محدقة بك ولما وضعته على شفتيك اعتراني جزع شديد وهممت ان امنعك عن شربه فاذا بك قد تجرعته دفعة واحدة فصحت لوقتي صيحةً عظيمة واستيقظت من رقادي مذعورة خافقة الفؤاد وكدت لا اصدق ان ذلك حلم

ولم تاتِ لاب على آخر حديثها حتى سمعت بريفارا قد صاح صيحة عظيمة ادوت لها جوانب القصر فنظرت اليه واذا بهِ قد استوى قائماً على قدميه كمن لسعته افعى وقد تفجرت عيناه وتقلصت شفتاه وانقلبت سحنته واصبح بحالة يهلع منها الفؤاد ثم سمعته يقول لها وهو ضابط احشاءه بيديه

ـ ويلك يالاب هل سقيتني سماً

فلما ابصرته لاب على تلك الحالة ارتعدت فرائصها واعتقل لسانها فلعثمت هذه الكلمات . نعم ... لا ذنب لي ...

ـ قولي فقد تمزقت احشائي

ـ بريفارا بريفارا

ـ آها لقد غدرت بي وقتلتني ولم تخلفي مظنتي بك يا ابنة الخنا

ـ اني بذلك قد نجيت روحي فانا على قتلك مكرهة

ـ لقد قتلتِ اباكِ ايتها الخائنة

صاحت لاب وهي لا تتبع رشداً من شدة الدهش ـ ويلاه وهل انت ابي

ـ انك من دم بريفارا وقد برهنت بغدرك ان ذلك الدم سار في

عروقك ومتمش في مفاصلك ايتها الغادرة

فاقبلت لاب على وجهها تلطمه وتنادي وابلوتاه لقد قتلت ابي وفي تلك اللحظة اشتد بالبارون الالم فجعل يصيح صياحاً مزعجاً ويزأر كالوحوش الضارية ويتسخط على لاب ويجدف تجديفاً فظيعاً ويعض ساعديه ويمزق راحتيه ويقطع شعره ولاب واقفة لشدة الجزع والحزن كالصنم الذي لاحراك به وعيناها جاحظتان ويداها مشرعتان كان بها جنة او اصابها مس

ثم لما عاينت ما نزل بالبارون ابيها تقدمت نحوه لتستغفره عن ذنبها واذا به قد وثب كالاسد فارادت ان تفر فلم يمهلها حتى قبض على عنقها بيد وعلى شعرها باخرى وصاح وهو يصر على اسنانه وقال

ــ لا عشتِ بعدي ولا رأت عيناك بعد اليوم كاميل فموتي على مرأى من احبتهِ اشنع الميتات

قال هذا وضغط عنقها بيده ضغطاً شديداً فحاولت ان تتفلت من يده فلم تستطع الى ذلك سبيلاً لان الالم جعل لبريفارا زيادة في قواه فاصبحت اضعف من عصفور وقع في مخلب جارح ثم ارادت أن تصيح لتستصرخ كاميل فاختنق صوتها وانحبست انفاسها وما لبثت ان ابصرت كاميل مقبلاً من باب الغرفة نحوها واصحابه في تواليه فمدت اليه يديها مستجيرة وهي على اخر رمق من الحياة فلم يدركها حتى ابصرها قد سقطت الى الارض لا حراك بها ووقع معها بريفارا وهو قابض بعنف شديد على عنقها

فتقدم نحوه كاميل ووقف فوق رأسه فنظر اليه بريفارا باعين دامية وصاح في شدة المهِ بصوت شديد مخيف ـ اواه لقد ثأرت مني يا كاميل

وبلغت ما اردت من قتلي

فاجابه كاميل تذكر ما فعلت بابي ايها الغادر فانه ما برح وهو في القبر ناظراً اليك بعين لم يغمضها الموت ولم يبلها التراب ليرى ما هو نازل بك في مثل هذه الليلة فالكاس التي شربها من يد لاب قد شربتها الان وانت بما تشعر به عالم بالذي عاناه ابي ليلة ١٦ ايار للسم الذي يقطع احشاءك فمت جزاً ما جنت يداك

هتف بريفارا وهو يشير بيده ـ اني ارى كارلوس بازاء ناظري ... ويلاه انه عابس الوجه .. ها هو مقبل نحوي وفي يده كاس من السم اجيروني منه فانه يريد قتلي

ثم احدق في خلاء الغرفة ابصاره وقال وهو مرتعد الفرائص

ـ واهاً ان هيا كل عظام الذين سعيت في هلاكهم قد اقبلت في تواليه وهي متشحة بمآزر سوداء وكلها مندفعة عليَّ فما اقبح منظرها ...

فقال له كاميل ثم تذكر يا بريفارا فعلك بي وباهل مودتي وسجنك لي في مغائر الجن التي ذقت فيها العذاب مع رودريك ضروباً فالذي بك ليس هو بعض الذي نزل بصديقي روبر ومرتينو اللذين اهرق دمهما واوجاعك لا تعد شيئاً مذكوراً اذا نظرت الى هذا الشيخ خادم ابي الذي القيته في مغائر الجن فقضى فيها عشر سنين معدودة فمت ليعلم الظالمون واهل البغي ان عليهم تدور الدوائر

ولم يأت كاميل على اخر كلامه حتى جعل بريفارا يجدف تجديفاً فظيعاً ويتقلب في الغرفة عرضاً وطولاً ويتمرغ عليها كالبهائم ثم بعد برهة سكن

هياجه فجعل الدم يتدفق من فيه

وفي تلك اللحظة سمع في عرصة الدار خفق اقدام فالتفت كاميل ومن معه فابصروا فرنسوا بن بريفارا داخلاً عليهم الغرفة فلما وقع نظره عليهم وعرفهم وقف مدهوشاً مرتاعاً ثم حانت منه التفاتة فابصر لاب مطروحة على الارض مشبوحة الذراعين وعيناها بارزتان من وجهها ولسانها مندلع وشعرها مشعث منشور وبياض جسمها قد استحال الى سوادٍ ثم نظر فاذا بهِ يرى اباه متوسداً ارض الغرفة ملطخاً بالدم الذي ما برح يتفجر من فمه وهو في نزاعٍ مع المنون وكر

فذعر اي ذعر وانتصب شعر راسه هلعاً وظل واقفاً لا يبدي اشارة فالقى كل من الامير واصحابه يده على قبضة حسامه لوهمهم ان فرنسوا سينقض عليهم ويبادرهم بالطعن لكنهم ادهشوا مذ عاينوه قد كشر عن انيابه وجعل يضحك ضحكاً رائعاً ويبدي اشارات غير عادية كمن مسه طيف

فكلموه فلم يرد جواباً بل تقدم وخضب كفه بدم ابيه وشرع يطلى به وجه لاب ويبتسم ابتساماً مخيفاً

فاثر منظره في كاميل حتى لم يتمالك ان صاح واندماه لقد اعترى فرنسوا جنون ولوقته اوعز الى اصحابه بالرحيل وانقلب مولياً ولسان حاله يقول

ولا اتمنى الشر والشر تاركي ولكن متى احمل علي الشر اركب

الفصل الحادي والثلاثون

❊ اذا لم تغلب فاخلب ❊

لم يتبلج صبح الغد حتى شحنت شوارع ميلان وفسحاتها بالناس يترقبون اقبال رسل فسينوكان وباندولف ملاتيستا لان خبر بعثة استور في طلب الصلح ومتاركة القتال كان قد استفاض في كل انحاء المدينة وارباضها

وكان الامير كاميل قد اخبر روبر ومرتينو وروردريك ولاندو زعيم الجبليين بما عزم عليه من الدخول على جان ماريا في ذلك اليوم وبما اتفق عليه مع استور فلما ضحك النهار ركبوا خيولهم بعد ان تنكروا ما استطاعوا حتى لا يعرفهم جان ماريا متى وقفوا بين يديه وساروا يطوف بهم ثلاثمائة من الفرسان وكلهم مقنعون في الحديد وكانوا كلما مروا بساحة او شارع رأوه مزدحماً بالجماهير غاصاً بالخلائق والاعناق ممدودة اليهم والعيون ترمقهم من كل جانب حتى اذا اقتربوا من دير القديس غوتاردو المتحصن به الدوق جان ماريا ابصروا جنوده المرتزقة منتشرة حوله وصهيل الخيول يقلق الفضاء وبريق الرماح والسيوف والزرد يلمع باشعة الشمس الساطعة وامام باب الدير شرذمة من الجند بايديها الحراب

فلما اقبل الامير واصحابه بفرسانهم اختلط العسكران وكثف لفيف الناس.واشتد الزحام فضاقت بهم جوانب تلك الارض عرضاً وطولاً وجعل الجيشان يتطاولان وكل جندي ينظر الى عدوه شزراً وازوراراً حتى اصبح وقع الفتنة رهن صدمة فتستعر نار القتال استعاراً

ثم ما عتم ان سمع من بين تلك الخلائق اصوات تنادي

ــ هذا لاندو العدو المبين هذا زعيم الجبليين وكر الخيانة ومرسى دعائم الفتنة اقتلوه اقتلوه فليمت لاندو

ثم سمع منادٍ اخر يقول ــ آه من المشعوذين اني اراهم متنكرين وفيما بينهم امير ويسكونتي

صاح اخر بصوت كاد ان لا يسمع من جلبة القوم وقال كاميل كاميل هتف غيره ــ قد لبس الذئاب اليوم اثواب الحملان فطاردوهم

فلما مرت تلك الاصوات على سمع الامير وصحبه اضطربوا وايقنوا بالفضيحة والهلاك وظنوا ان تلك مكيدة ولخوفهم من بلية تقع بهم ان لم يتعجلوا في دخول الدير ويتواروا عن الانظار وكزوا خيولهم وجعلوا يشقون تلك الصفوف والكتائب حتى اذا اتوا باب الدير ترجلوا عن خيولهم ودخلوه مع مئة نفر من جندهم بعدما امروا البقية ان يقيموا بمكانهم لا يبرحون منه

ثم لما بلغوا عرصة الدير داخلاً ابصروا فئة من العساكر وللحال تقدم قائدهم واسر في اذن الامير كلاماً فعلم انهم تبع لاستور وقد اقامهم هناك اتقاء وقوع الشر على ما اتفق عليه فامر كاميل جنوده الذين دخل بهم ان ينضموا اليهم واقبل مع روبر ومرتينو ورودريك ولاندو الى داخل وكانوا كلما مروا باحد المماشي والممازق ابصروا الخفراء وقوفاً والسيوف بايديهم مجردة فعلموا ان ذلك من شدة خوف الدوق وحرصه على نفسه

ولما انتهوا الى حيث جان ماريا جالس رأوا ردحة فسيحة مشحونة بالحجاب وفي صدرها باب يشارفه اربعة من الجند فسال الامير عن صاحب

اذن الدوق فارشد اليه فاخبره ان يعلم الدوق بقدومهم من قبل فسينوكان وملاتستا وانهم يريدون الدخول عليه ليعاهدوه على السلم ويتاركوه الحرب وما تولى الآذن حتى اقبل واخبرهم ان الدوق لا يريد ان يستقبلهم بنفسه فليكتبوا له ما يريدون ان يكلموه به في الامر الذي جاؤوا له

فلما تدبر كاميل كلام الاذن ثقل عليه وبلغ منه مبلغاً شديداً اذ لم يكن لمثل ذلك متوقعاً وعزم على العودة واستئناف القتال والهجوم على جان ماريا في ذلك النهار الا انه فكر بفسينوكان الذي غادره مشرفاً على التلف وخاف ان هو انقلب راجعاً ان يلقاه ميتاً فيلتوي عليه الامر فرأى ان لا يتعجل في الخلاف والمكابرة وان لا يترك لقاء جان ماريا ثم عاد الى الاذن ثانيه يسأله الدخول عليه وانهم اقبلوا اليه بالامان وهم خلو من السلاح ليضربوا عليه الاتاوة ويعاهدوه على السلم فلبث الدوق مصراً على غيه متمنعاً عن مواجهتهم فتهددوه باستئناف القتال فلم يزده ذلك الا نفوراً وعناداً

وعندما اعيت الامير واصحابه الحيل قفلوا راجعين بيد انهم ما تجاوزوا موقف الحجاب حتى حانت من كاميل التفاتة فابصر في يده الخاتم الذي استمده من لاب في ليلة الامس فابرقت اسرته فرحاً ولوقته قصد عطفة من في فناء الدير لا تقع عليها العيون ونزع عنه بعض لباسه وافرغ عليه ثوب حاجب من حجابه الذين قدموا معه حتى لا يعرفه آذن الدوق ان عاد ووقف بين يديه ثم انفصل عن اصحابه وقصد نحوه فلما راه الآذن ولم يعرفه ساله عن شانه فقال له انه آت من قبل البارونة لاب ليواجه الدوق بامر عظيم الخطر ودفع اليه الخاتم ليدفعه اليه علامةً منها له واذ كان ذلك

الاذن قد تعود ان يرى ذلك الخاتم في كل مرة بعثته لاب مع رسلها لم يخامره ريب في ان كاميل رسول قادم من عندها فانطلق لوقته بالخاتم الى جان ماريا فلما وقع نظره عليه صاح بصاحب اذنه ان يقبل على عجل بالرسول الذي جاء به

فلم يبطيء الحاجب ان اتى كاميل واخذ بيده وسار به في نفق طويل افضى به الى غرفة كبيرة فاشار اليه ان يدخلها ثم تركه وانقلب راجعاً فتقدم كاميل غير متهيب الى داخل الغرفة واول ما وقع نظره على الدوق جالساً على كرسي من الحرير وعن يمينه استور فاراد ان يسجد له فلم يمهله جان ماريا لوهمه انه رسول حبيبته لاب حتى صاح به بلهفة يمازجها الخوف قائلاً

— الخير قدومك ايها الرسول تكلم وحدثني عن مولاتك

— اني آتٍ من عندها لاخبر نعمتكم بامر ذي بال

— بامر ذي بال

— نعم يامولاي لان الامير كاميل عدو نعمتكم قد طرق قصرها في الامس ودخل عليها غرفتها

فامتقع وجه جان ماريا عند سماعه بذكر كاميل وصاح في شدة جزعه كاميل في ميلان وقد دخل على لاب خدرها

واما اسثور فانه كان قبل دخول الامير في اسوا حال لانه لما وجد ان الدوق قد ابى ان يقابل رسل فسينوكان وملاتستا وكان يعلم ان الرسل ليسوا سوى الامير كاميل واصحابه كادت تنشق مرارته كمداً وغماً

اشفاقاً على سعيه من الاحباط فجعل يلج على جان ماريا بمواجهتهم ويحذره عقبي البغي وهو لا يزداد الا تمنعاً وعندما بلغه قدوم رسول من عند لاب تخوف ان يكون حاملاً اليه بلاغاً لكنه مذ بصر بالامير مقبلاً بصفة ذلك الرسول تبسم طرباً وحبوراً ووقف يتساءل كيف اتفق له وقوع ذلك الخاتم الى يده

ثم ان جان ماريا اهاب بالامير قائلاً تكلم وحدثني بما جرى

ـ اني لا اطوي عن نعمتكم سراً فاعلم يامولاي ان كاميل هو الذي اثار نقع هذه الفتنة واستورى زنادها وكان في نيته ان يهاجمكم ليغتالكم في محصنكم فاصاب فسينوكان داء عقام فامتنع عليه ذلك ولما اشفق ان يصيب فسينوكان مكروه وتنصرف جنوده عن ميلان قبل ادراك حاجته من قتلكم طرق قصر سيدتي البارونة لاب في جمهور اصحابه فاسر الخدم والحجاب ثم دخل عليها خدرها وتلطف بها واخبرها انه جاء ليستعين بها على الغدر بنعمتكم وجعل يواربها في المودة ويصانعها في الحب مصانعةً ولما وجدها اضعف من ان تقدر على ذلك كاشفها بالعدواة وامرها ان تستقدم بريفارا تلك الليلة وتجلس معه الى مائدة الطعام وتسقيه السم على غفلة منه كما فعلت بابيه وتهددها بالقتل او تجيبه الى ما اراد فلم يسعها مخالفته بعد ان اعطاها من الامان على نفسها ما وثقت به

فصاح جان ماريا وهو مستطير اللب مرعوب الفؤاد ويلاه وهل دست السم لبريفارا

ـ قد اكرهت على ذلك لتنجي روحها لان الامير كاميل لم يولها فترةً

لتتثبت في امرها وتتروى فيه فلما اقبل بريفارا وجلس الى مائدة الطعام كان كاميل مختبئاً وراءَ النافذة التي تشرف على الغرفة مختبئاً بالسجف الحريرية يسمع حديثهما واصحابه يتولون الخدمة وتقديم الوان الطعام فاسترقت لاب من البارون غفلة ودست له في كأس الخمر سماً كما فعلت بكارلوس ويسكونتي الذي قتلته على مرأى من نعمتكم فلم يبطيء بريفارا ان تجرعه ثم جعلت من اشفاقها عليه واحتيالها تحدثه عما فعلت به وتوهمه ان ذلك حلماً راته في المنام خوفاً من انكماش كاميل وانقباضه وحتى لا يكون له عليها حجة

وكان كاميل يتكلم وجان ماريا اذن له ومحدق به بملء عينيه وقد اصبح لشدة الدهش من غريب ما هو سامع اشبه بالصنم الذى لا حراك به ثم ما مكث ان دق يداً بيد وقال احلم ما انا سامعه ... ايموت بريفارا كما مات كارلوس ويشرب كاس السم التي سقاها لعدوه

قال كاميل وهو يتباكى ويترأى بمظاهر الحزن اني لم اقف بين يدي نعمتكم الا لاخبركم بامر اعظم من هذا خطراً ولو شق عليكم سماعه

ـ واي امر اعظم من قتل بريفارا صاحب سري ومشورتي

ـ آه يا مولاي

ـ وما الذي حدث ايها الرسول قل لي فقد ارعبت قلبي

ـ سيدتي لاب

ـ وما اصابها

ـ قد قتلها ابوها

ـ تباً لك ايها الرسول المحتال الكاذب فاني لا اعهد ان للبارونة اباً حياً

ـ لقد ظهر ان بريفارا ابوها وهو عندما شعر بالم السم وعرف انها قد غدرت به ومالت مع اعدائه عليه وهي لا تعلم انه لها اب وانها ابنته انقض كالجارح عليها ووضع يده في عنقها وما زال بها حتى اختنقت وماتت

فلما وعى الدوق كلام كاميل جزع اشد الجزع وكاد يفقد عقله ويعدم رشده ثم تلظى بنار الغيظ فشرع كالمجنون يضرب الارض برجله ويتهدد ويتوعد ويجدف على كاميل ويستطيل في عرضه

فالتفت كاميل في تلك الفترة الى استور ونظر اليه نظرةً فادرك استور معناها فنبه عزيمته

ثم ان جان ماريا التفت الى كاميل الذي كان واقفاً في وسط الغرفه وقال له بغضب وقد حدثته نفسه بقتله ليشفي غله بسفك دمه

ما انت الا رسول سوءٍ ولم تكلمني الا بالمحال فاصدقني الخبر والا خرقت بهذا الخنجر صدرك

ـ لا يربك يا مولاي ريب في الذي قلته لك

ـ ان كان كلامك صدقاً فانى اتصل اليك هذا الخاتم الذي اقبلت به اليَّ وانت مخبري ان لاب قد ماتت

ـ قد اخبرت نعمتكم ان الامير قد طرق قصر سيدتي البارونة لاب في جمهور اصحابه واسر الخدم والحجاب فافلت انا من ايديهم واختبأت في بعض زوايا القصر فسمعت وابصرت كل ما جرى على بريفارا ولاب ولما تولى كاميل اقبلت الى جثة البارونة ونزعت الخاتم من يدها لعلمي انه لا يستطيع احد الدخول علي نعمتكم الا به وقد اتيتكم يامولاي لانذركم بما دبر

العدو على قتلكم من المكيدة لتأخذوا حذركم وتحرسوا غفلتكم

فصاح جان ماريا مذعوراً وقد هاله الخبر حتى غفل عن قتل الرسول من ذا الذي يأتمر بي

ـ ان كاميل لم يكتم سيدتي لاب قبل ان ياتيها بريفارا انه سيكون في عداد الرسل الذين سيدخلون عليك في هذا النهار وان قدومهم سيكون بالمكر والخديعة ليغدروا بك فاتيت لانذرك بالخطر الملم بك لتحتفظ بنفسك

ثم ان كاميل خلع عنه الثوب المتنكر به وقال ان كنت غير مصدقي فيما اقول فانعم بي نظراً لتعلم ان كاميل غير كاذب وانه سينقض عليك مع استور فيمزقان بخنجريهما صدرك تمزيقاً لتاقى جزاء ما فعلت بي وبابي ايها الظلوم الغادر

واذ كانت لفظة الخنجر هي كلمة السر المتفق عليها بين استور وكاميل للهجوم على الدوق انتضى كل منهما خنجره وباسرع من لمح البصر وثبا عليه وطعناه في صدره مثنى وثلاث قبل ان يصيح او يجاب او يملك رشداً

فحاول جان ماريا ان يستصرخ حجابه فانفجر الدم من فيه فاختنق صوته وسقط على المقعد وهو يغمغم هذه الكلمات كاميل كاميل ثم ان استور اخذ خنجره ووضعه في كف جان ماريا فانقبضت عليه انامله وهو في حشرجة الموت واوعز الى كاميل ان ينقلب راجعاً وقال له سر على عجل ولا يشغلك شأني فانك لا تكاد تتولى حتى يشيع الخبر ويذيع ان الدوق قد انتحر لوجده وحزنه على محظيته لاب

فاسرع كاميل في الخروج من الغرفة وهو مرتعد الاوصال من هول

الامر الذي قدم عليه ولما اصبح خارجاً ابصر اصحابه وقوفاً في ناحيةٍ بانتظاره وقد داخلهم الخوف من ابطائه فلم يكلمهم بل اشار اليهم ان اتبعوني سراعاً فاقبلوا في اثره ولما انتهوا الى خارج ركبوا خيولهم وعادوا مع جنودهم باهداء جاش وكاميل يحدثهم عما فعل بجان ماريا وما ابتعدوا عن الدير الا قليلاً حتى سمعوا ضجة عظيمة وجلبة شديدة وطرقهم خبر جان ماريا وانتحاره على ما اخبر بهِ استور

وفي تلك الليلة قضى فسينوكان نحبه وانقلبت اصحابه وجنوده الى بافي وجلس استور على عرش ميلان الذي اختلسه دون ان يتمحل الشعب في ازالة الامر من يده لشدة غبطتهم بهلاك جان ماريا الظالم

وقبل ان يتحمل كاميل عن ميلان بعث اليه استور من المال واصناف الكنوز شيئاً كثيراً مكافأة له على تركه الملك واقراره في يده فتقبلها منه كاميل ورحل في جمهور اصحابه

ولما اخلى فكره من اشتغاله باعدائه تفرغ للنظر في امره وامر صحبه واخذ لوقته يهتم فيما عزم عليه من خلع الدنيا والسكنى بعيداً عن الناس فباع قصر مونزا وكل تالد له وطريف وقصد موضعاً منفرداً على شاطي بحيرة كومو بعيداً عن الاماكن الماهولة وابتاع هناك ارضاً واسعة وانشأها مروجاً رائقة وبنى لكل من اصحابه قصراً على ضفة تلك البحيرة

ثم استقدم الراهب فلامبو فعقد له على فرجيني فتزوجها وزفت بلانكا الى روبر ونيانزا الى رودريك وميترفا ابنة المؤدب الى مرتينو في يوم واحد وكان ذلك اليوم عندهم عظيماً

واقاموا في ذلك المكان في اهنا عيش وانعم بال يشتغلون بحرث الارض وغرس الاشجار ذات القطوف والازهار والرياحين وتربية الطيور الداجنة والاغنام والابقار للانتفاع بالبانها ولحومها ويتشاغلون بالقنص وصيد الاسماك وابتاعوا قارباً كبيراً وجعلوا يطوفون به في عرض البحيرة كل مرة ارادوا النزهة فكانت قصورهم على ضفة تلك البحيرة وحدائقهم ورياضهم التي كانت تناغي فيها الاطيار وتغرد على افنانها الشحارير وتصفق في بحيراتها المياه اشبه بجنات لا يفارقها بهاء الربيع

وكان الراهب فلامبو يزورهم في كل سنة ويقيم لهم الصلاة في اليوم الذي جعلوه عيداً تذكاراً لنجاة كاميل من مغائر الجن

وهكذا كانوا يقضون العمر في امن وطمانينة وهم قليلو الهم شديدو الغبطة يرددون ذكرى الامور التي نزلت بهم والنوائب التي نابتهم كأنها اضغاث احلام

الفصل الثاني والثلاثون

﴿ كل من عليها فان ﴾

بعد ان مرَّ على الحوادث التي اتينا على ذكرها احد عشر عاماً كان يرى على الطريق المؤدية الى بحيرة كومو هودج من خشب الصندل عالي القباب في قنته هلال من الذهب الوهاج كلما وقعت عليه اشعة الشمس ازداد بريقاً ولمعاناً وله سجف من ناعم الحرير معلم بالذهب وبنود من الحرير قد شد الى ظهر بغلة بيضاء ترفل بحمائل من الفضة يقودها عبد

ويطوف بها ستة عبيد شاكي السلاح على صهوة خيول جياد ومن ورائهم ثلاثة من الخدم يسوقون ستة بغال تحمل متاعاً وامام الجميع دليل من اهل البلاد يسير في طليعتهم

وكان هذا الموكب قاصداً نحو بحيرة كومو في صباح يوم من ابهى ايام الربيع والارض لابسة حلتها الخضراء الموشاة بوشي من الازاهر والنسيم العليل يهب حاملاً اريج تلك الرياحين ما بين ندٍ ومسكٍ وكافورٍ ونسرين ويلاعب سجف الهودج فتنكشف عن صبيةٍ قد البستها الجمال حلته واعارها البدر طلعته والغزال مقلته والقضيب قامته متكئةً على وسادات من الديباج

وكانت تلك الصبية في كل برهة ترفع سجف الهودج اذا لم تلاعبها النسيمات بيد تحاكي الياسمين بياضاً وتنظر في فسيح تلك الارض وتتنفس الصعداء كمن اعيي صبراً الى الوصول والقاء عصا الترحال . وكان اهتزاز الهودج يهزُّ عطفيها ورأسها اشبه بحركة راكب العيس حتى يخال لناظرها انها تأتي تلك الحركة عمداً تلهفا الى بلوغ المكان القاصدة له

وما برح هذا الموكب يطوي الهضاب والوهاد وهو كلما مر في قرية استلفت اليه انظار اهلها وادهش المسافرين الذين كانوا يقفون ويتبعونه نظرهم حتى يبتعد عنهم فيعودون متسائلين في امرهِ

ولما تناصف النهار عيل صبر الفتاة واضجرها السير واجهدها فصاحت بالدليل وقالت — الم يزل المكان المتحملون اليه بعيداً

فرفع الدليل قبعته باحترام واجاب صبراً يا سيدتي فانا سنصل اليه

قبيل الاصيل

فردت تلك الصبية سجف الهودج وقد تلظت خدودها حمرةً واشرق جبينها بهجة وصار قلبها لشدة الفرح يخفق خفوقاً شديداً لافتكارها بدنو الوقت الذي فيه يثمر تمنيها وتنال امانيها

وبعد مسير بضعة اميال بدت لهم بحيرة كومو كانها قالب فضة مصبوب فصاح الدليل بالصبية واشار بيده الى البحيرة وقال ـ هناك ياسيدتي

فشخصت الصبية بالمكان الذي اشار اليه الدليل وجعلت دموعها تتماطر على خديها وتنحدر كالدر على صفيحة من الجوهر ولما اقتربت من المكان القاصدة له رفعت سجف الهودج وجعلت تنظر يميناً وشمالاً فوقع نظرها على قصور اربعة مبنية على شاطي البحيرة قد ارتسم في الماء ظلها وظل الادواح الغضة التي تحف بها والى جوانب تلك القصور جنات نضرة ذات اشجار مثمرة ورياحين عطرة وجداول منحدرة تنساب كالافاعي في جوانبها

وكان الهدو كلما توشح الفضاء بجلباب الظلمة يزداد رويداً رويداً حتى لم يعد في تلك البقعة البعيدة عن مساكن الناس وضوضائهم الا همهمة النسيم وسجع اليمام وهديل الحمام مسموعاً

فادرك قلب الصبية انقباض وكان لمرأى هذه المشاهد تاثير في خاطرها حتى انها لم تتمالك ان انحدرت من الهودج وقصدت باب السور المؤدي الى تلك القصور فلما اتته رأت صبياً يلاعب كلباً صغيراً فحين بصر بها وهي في زي غريب لم يره من قبل وقف متهيباً وبانت عليه دلائل الخوف

فآنست الصبية جزعه فتبسمت له وانحنت عليه لتقبله ففر من بين

يديها كالغزال النافر وتوارى عنها بين الاشجار وجرى الكلب في اثره متلفتاً نابحاً فتبعته تلك الصبية بعدما امرت العبيد ان تحط الرحال وتنقل الهدايا التي جأت بها الى القصر حتى اذا توسطت الحديقة ابصرت رجلاً مقبلاً عليها وبين يديه ذلك الغلام وهو يشير بيده الصغيرة اليها

واما الرجل فجعل يصوب فيها نظره ويصعده وعندما ابصرها ترفل بالدمقس وبالحرير وعرف انها من جلة القوم وسراتهم دنا منها وحياها فردت عليه التحية ومذ رأته يتفرس في وجهها قالت له — هل غابت عنك معرفتي يارودريك

فصاح رودريك في شدة دهشه حسناء شقيقة زرارا

— انت تذكر يارودريك ان شقيقي زرارا قد وعد الامير كاميل ان يغشى دياره ويزوره مرة وانا في صحبته وكان قد عزم منذ اعوام ان يقدم عليكم فحدث ان نشبت الحروب بيننا وبين الاسبان فتدرع اخي جاببها وقتل في احدى المعارك فبقيت انا وحدي ابكيه ولما لجَّ بي داعي الشوق الى كاميل ولم اجد صبراً في القعود عنه ركبت سفينتي قياماً الى بلادكم واتيت ميلان وجعلت اسأل عن الامير فلم اجد من دلني الى مكانه حتى عثرت بدليل اقبل بي اليكم فاين اصحابك لا ارى منهم احداً

فنكس رودريك رأسه وتنهد وقال — ان روبر ومرتينو والموءدب قد ماتوا وبلانكا ومينرفا قد انقطعتا الى بعض الاديرة وبقيت انا وحدي مع زوجتي وولدي هذا الذي رأيته

— واين كاميل وفرجيني

فاغرورقت عينا رودريك بالدموع ولما لم يستطع ان يجيبها اشار بيده الى داخل الروضة وانثنى مولياً عنها بالغلام الى القصر حتى لا يشاهد حزنها فالتفتت حسناء واذا بها ترى في وسط تلك الحديقة بقعةً من الارض مفروشة بالاعشاب محاطة بسور من الخشب قد التف النبات على قوائمه وفي صدر تلك البقعة ضريح من الرخام الابيض مكلل بالزهور وعليه تمثالا ملاكين متعانقين تظلله دوحةٌ كبيرة قد اشتبكت النباتات الخضراء على اغصانها وتدلت فروعها كالدوالي على ذلك الضريح وحفت بهِ الرياحين من كل صوب واحدقت به الاشجار الغضة احداق الهالة بالقمر فحجبت عنه النور واحدثت ظلاً خفيفاً زاد منظر تلك البقعة وحشةً

فلما وقع نظر حسناء على الضريح خفق فؤادها وعلا الاصفرار وجهها واشعرت ان الارض تميد بها فوقفت تحدق بالقبر ثم ما مكثت ان قصدت نحوه فلما دنت منه رأت منقوشاً عليه عند اقدام تمثال الملاكين المتعانقين هذين الاسمين (كاميل . فرجيني) فحينما قرأتهما انقبض قلبها وانحبس النفس في صدرها وغشى الظلام على ناظريها فخرت بوجهها على القبر وقد اغمي عليها

وبعد برهة استفاقت فرأت ان القمر قد طلع من وراء جبال الالب تنير اشعته على الضريح وقد انبعثت روائح الرياحين وساد الهدو الرهيب الذي يهيب النفس فحركت هذه المشاهد المحزنة والمناظر الموحشة اشجانها وافعمت قلبها حزناً واسىً فاكبت على رجام القبر وشرعت تنهنه دموعها

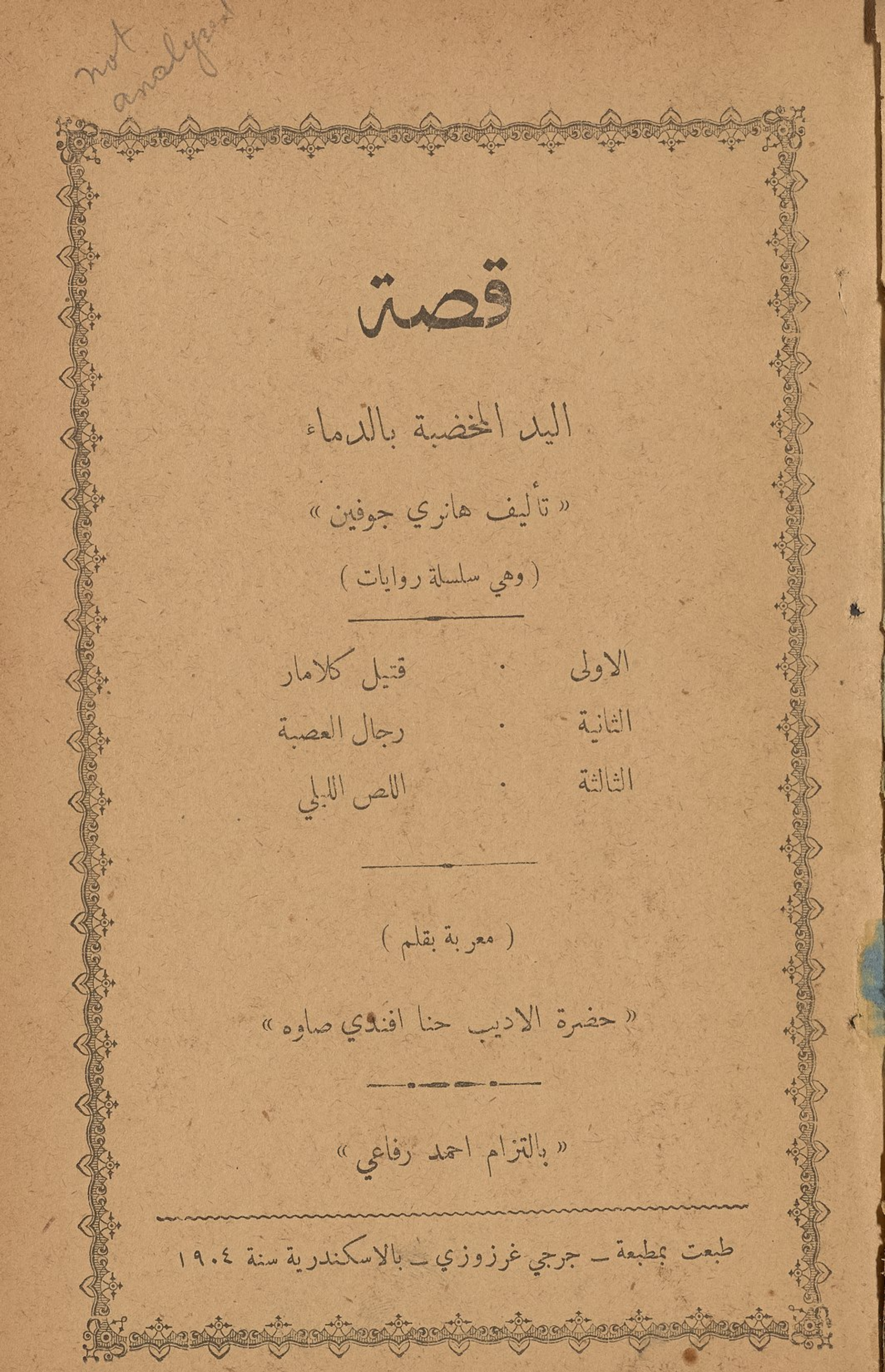
وبينما هي تبكي واذا ببلبلٍ ليلي قد وقف على غصن من اغصان الدوحة التي تظلل القبر وجعل يغرد في سكون الليل تغريداً شجياً فاذ سمعته حسناء

وطرق اذنها حفيف اوراق الشجر التي كان النسيم يحركها تخيل لها ان روح كاميل تتلاعب وقد تجلت لها تكلمها بصوت ذلك الطائر فانتصب شعر رأسها واعترتها لشدة الخوف قشعريرة فصاحت كاميل كاميل

وبعد هنيهة انقطع الطائر عن التغريد وسكن النسيم فاجهشت في البكاء وصارت دموعها تتساقط على رجام القبر كانها الدر يلمع في ضوء القمر ثم انها نظرت الى القبر وقالت تخاطب كاميل

ايا ليت لم اعرفك يوماً وليتني ... وردت حياض الموت من اقرب الورد
ويا ليتني قد متُّ في المهد طفلةً ... ولكنني ان قلت يا ليت لا تجدي
اذا كنت لا افني عليك مدامعي ... يعير طرفي ما بقلبي من وجدِ
وان كنت لا اقضي عليك تحسرا ... وادفن في مثواك خنتك في الودِ
ساهجر اوطاني واهلي ومربعي ... وابكيك حتى انزلنَّ الى لحدي
اذا كان جدُّ المرء يجلب حظه ... حظي بالمنى قبلي اولو السعي والجدِ
ولكن جد المرء ليس بنافعٍ ... اذا لم يكن معه رفيقٌ من السعد
تعدَّدَت البلوى ومالي سلوة ... سوى باميرالقطر والجوهر الفردِ
خديوي مصر من به اعتز مصره ... على كل قطرٍ بالمفاخر والمجدِ
اذا نلت منه حظوةً وكرامةً ... فيا عظم توفيقي ويا منتهى قصدي

تمت



قصة

اليد المخضبة بالدماء

« تأليف هانري جوفين »

(وهي سلسلة روايات)

الاولى	.	قتيل كلامار
الثانية	.	رجال العصبة
الثالثة	.	اللص الليلي

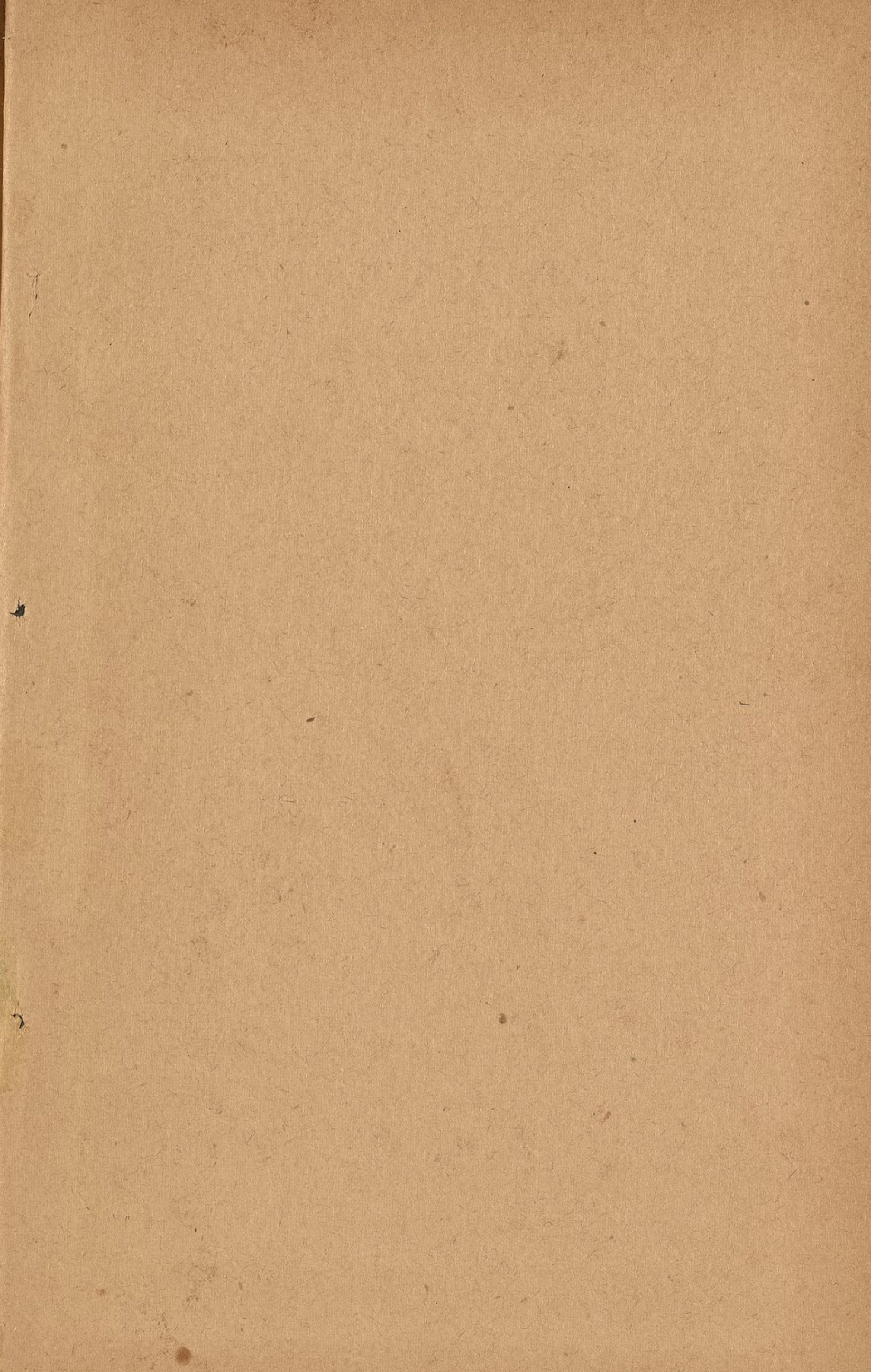
(معربة بقلم)

« حضرة الاديب حنا افندي صاوه »

« بالتزام احمد رفاعي »

طبعت بمطبعة ـ جرجي غرزوزي ـ بالاسكندرية سنة ١٩٠٤

not analyzed



﴿ الرواية الاولى ﴾

قتيل كلامار

« معربة بقلم »

(حضرة الاديب حنا افندي صاوه)

الفصل الاول

« م . بيداش »

في الساعة السادسة مساءً من يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨٠ اجتمعت زمرة من اهالي قرية كلامار ووقفت امام منزل صغير في شارع الطريق الخضراء وكان الليل مدلهماً حالكاً والثلج يتساقط بكثرة والريح زعزع فتعبث بما كان يحمله بعض المتجمعين من الانوار . وبباب المنزل واحد من من رجال الدرك يحول دون دخول اي كان

وكان المجتمعون يتهامسون ويتسارون بحيث كان لا يسمع لاجتماعهم ضوضاء ولا لالتئامهم شغب كانهم بحضرة احد ينزع او سلم روحه للخالق العادل الديان

فبينا هم كذلك فتح باب المنزل وقال قائل الم يأت الطبيب بعد ؟ . . واذ اجابوه بالنفي دخل واوصد الباب

وفي الوقت ذاته سمعوا دوي عجل عربة مقبلة وقفت بعد قليل امام المنزل المذكور ثم نزل منها رجل

فصاحت الجموع ايها الطبيب . ايها الطبيب انهم ينتظرونك بفارغ الصبر فاجابهم الطبيب ويدعى جوبيون انني عالم بذلك يا اصدقائي لانهم

استدعوني بعجلة وقد كنت في منزلي ففسحوا لي الطريق ودعوني امر
فتباعد المجتمعون واجتاز الطبيب عتبة الباب داخلاً بهيئة جديرة بامثاله
من الزملاء . ثم سار في رواق ضيق يوصل الى غرفة فدخلها وكانت هذه
خالية من الرياش فيها ضوء ضئيل منبعث من سراج وتتوسطها منضدة عليها
جثة رجل ممددة وحولها ثلاثة رجال هم رئيس الشرطة والمستنطق
وعمدة القرية

فحالما ابصروه داخلاً تنفسوا الصعداء كأن حملاً ثقيلاً ازيح عن
عاتقهم ثم قال العمدة ويدعى سيمونين عجل بالدنو منا يا سيدي الطبيب لاننا
كدنا نمل الانتظار فحياهم الطبيب باشارة من رأسه ثم شخص نحو الجثة وقال
هل انتهى كل شيء فاجابه سيمونين اجل يا سيدي ولربما يكون قد مات
منذ يومين او ثلاثة فقال مستفهماً امات منتحراً فاجاب رئيس الشرطة هذا
هو ظني انا يا سيدي فدنا الطبيب عندئذ من المنضدة وقال فلنفحص الجثة
لنكون على بينة فاشار رئيس الشرطة ببنانه الى عنق القتيل وقال انظر
يا سيدي فحدق الطبيب بالموضع المشار اليه ثم قال انه جرح عميق بليغ
سبب موتاً سريعاً ثم عروا الجثة من الملابس فوجدوا الجسم سليماً لا اثر
لجرح اخر فيه فقال الطبيب الم تعثروا على دليل كمدية او ما يماثلها فقدموا
له موسي ملوثة بالدماء ذات مقبض اسود مفتوحة اثر خيط ثخين ذي عقد
كثيرة ملفوف على الجزء الاعلى من هذا المقبض يحول دون انثناء النصل

فاخرج الطبيب مذكرته من جيبه وكتب فيها ما يأتي : انه رجل
في الستين من عمره تقريباً سليم الجسم قوي العضلات ذو جرح بليغ

في العنق افضى الى الموت وقد نشأ هذا الموت عن ......

وهنا حار الطبيب في ذكر حقيقة الكلمة الواجب عليه تسطيرها اذ لا يعلم اذا كان الموت نجم عن انتحار او قتل اذ كلتا الحالتين جائزتان ولكنه لم يلبث حتى رجح الاول على الثاني لما رآه من قوة عضلات الميت وكبر حجم جسمه بما يشف عن الجسارة والعزم غير انه اراد قبل ان يقرر ما رجحه ان يعلم طرفاً من ماضي حياة القتيل فالتفت نحو العمدة ليلقي عليه ما عنده من الاسئلة الا انه صمت اذ رأى رجل الدرك الذي كان واقفاً بالباب قد دخل عليهم ممسكاً رقعة قدمها لهم قائلاً ان صاحبها يلح بالاذن له بالدخول

وكانت تلك الرقعة التي هي عبارة عن بطاقة زيارة تشير وتدل على ان صاحبها يدعى م. بيداش

الفصل الثاني

« توضيحات »

فلم تقع ابصار رئيس الشرطة على هذا الاسم حتى تغيرت سحنته وظهرت عليه علامات حب الرفض لطلب صاحب هذه البطاقة ولكنه عدل عن ذلك .وقال متمتماً دعه يأتي

فذهب وما .عتم حتى دخل عليهم رجل سقيم نحيل مرتدٍ بملابس سوداء تلوح على محياه سيماء الفتوة والشباب واضع على عينيه نظارتين

تشفان عن انظار حاده نافذه ولم يلبث حتى حياهم بارتباك ثم شخص
بدوره الى الجثة

كان المسيو بيداش يقطن قرية كلامار مع والدته التي دخلت في
سن الشيخوخة والكبر وقد كان محبوباً من الجميع ومن الانسات بنوع
خاص اذ كان يطربهن بعض الاحيان بحلو الفاظه وجميل قصصه ونكاته
وقد اشتغل مدة طويلة باعمال البوليس حتى حاز شهرة عظيمة ومركزاً
عالياً ولّدا الغيرة والحسد في قلوب زملائه وذويه فعملوا على اضطهاده
ومضايقته والحط من شأنه حتى التزم رغماً عنه ان يستعفي من هذه
الخدمة ويعتزل تلك الاعمال التي كان يصبو بكليته اليها بحيث انه ما
كانت تحدث حادثة في القرية الا ويتداخل فيها ويستقصي اسبابها
ومن ثم يعطي مشورات تكون دائماً مفيدة مرعيه يعملون بها

فبعد ان حيى من كانوا في الغرفة بخجل كما سبق القول - وكان
الخجل من جملة صفاته . ثم تفرس في الجثة كما سبقت الاشارة - التفت
نحوهم وقال لا تؤاخذوني يا سادتي على دخولي عليكم لانني . . . . . ان
دخولي مستغرب فعلاً غير انني ارجو ان لا تستثقلوه فقال الطبيب (وقد
كان له معرفة به اذ دُعي لعيادة والدته مراراً وكانت مريضة حينذاك)
لا . لا . ابداً يا عزيزي بيداش بل ان مجيئك الان يقلل من حيرتنا
ويذهب بالتباسنا . تاكد ذلك وثق بأني شاكر فضلك لحضورك .
ومن ثم رأى رئيس الشرطه نفسه امامه . وجهاً لوجه فتلقاه بعكس ذلك
اي بغاية الفتور وعدم المبالاة اذ كان يكرهه لانه كان يظهر له الغلطات

الفاحشة التي كان يرتكبها اثناء تأدية وظيفته ويوجه افكاره الى ما كان يفوته من الامور للتوصل لمعرفة امر

وبعدئذٍ شرع المسيو بداش بفحص الجثة والجروح والموسى واخذ عمدة الناحية يقص على الطبيب جوبيون ما يعلمه عن القتيل فقال :

حدث منذ ثلاثة شهور ان رجلاً مسناً قوياً اتى كلامار وطفق يبحث فيها عن منزل يستأجره وقد قال ان اسمه رودوريق

فبعد البحث والسوءال توصل لاستئجار هذا المنزل وهو كما تراه على مقربة من الغابة وليس بجانبه جار

اما هذا المنزل فهو لرجل بقال يقطن باريس ومن عادته ان يصرف فيه مدة كل صيف

وكان المسيو رودوريق لا ينام في هذا المنزل قط بل يأتيه منفرداً بعد ظهر بعض الأيام ولا يخرج منه الا في الساعة السادسة تماماً

ولا يوجد في كلامار من دخل هذا المنزل غيره . وقد لاحظت انه لا يزوره احد الا ان البعض من السكان اكدوا لي انهم رأوا اشخاصاً غرباء يخرجون من عنده في بعض الاحيان .

ومن الغريب انه لم يختلط قط مع احد من السكان وكان دائما ابداً يصطحب كلباً صغيراً ذا شعر طويل اسود

وهذا ما اعرفه بخصوص ماضي حياة هذا الرجل . ومن ثم حدث ما يأتي

خرج بعض القرويين منذ يومين الى الغابة ليحتطبوا وبينا كانوا عائدين من جهة هذا المنزل سمعوا انيناً من داخله وكانت نوافذه كلها مغلقة فاسرعوا واعلموا رئيس الشرطة فحضر ولما ان سمع الانين بدوره انطلق واستدعى المستنطق ثم بعث في طلبي وكان الباب مغلقاً فلما فتحناه وولجنا داخلاً تمثلت لنا رؤية رهيبة

اجل فقد كان الموسيو رودوريق ميتاً قتيلاً سابحاً في بركة من الدماء الجامدة وبالقرب منه كلبه المذكور وكان مجروحاً يئن من الالم

ولما ان وصل سيمونين بحديثه الى هنا وكان الطبيب وبيداش (الذي ترك الجثة وشانها حالما سمع ذكر بعض ماضي تاريخ حياة القتيل) يصغيان اليه بانتباه اشار لهم الى الكلب المذكور وكان ممدداً تحت المنضدة بعينين ثابتتين شاخصتين الى العلا مستجيرتين بمن يقطنه من هول ما جرى

الفصل الثالث

« في ما نشأ عن مجاملة بيداش »

ورأى رئيس الشرطة ان مكثهم قد طال بلا جدوى فقال لقد انتهت مهمتنا وقمنا بالواجب علينا فعلى العدالة اذن ان تتحرى معرفة ما اذا كان هذا الرجل مات منتحراً او قتيلاً

ثم هم بالخروج مع الطبيب والعمدة ولكنهم لبثوا في امكنتهم حيارى اذ قال بيداش بهدوءٍ الم يكن مع المتوفي اوراق فاجاب سيمونين كلا فافتكر

ثم استطرد قائلاً وهل لم تجدوا معه نقوداً فاجابه رئيس الشرطه وقد اتجه نحو مكتبة هناك كلا غير انني عثرت في احد ادراج هذه المكتبة على مبلغ ينيف عن ستين فرنكاً ثم فتح درجاً وقال وها هي في موضعها وهذا مما يثبت لنا باجلى بيان ان الرجل لم يقتل ليسرق ومن البديهي ان انساناً ليس عنده الا ثروة هكذا زهيدة ويصرف اغلب ايامه خارجاً عن منزله مكداً مجداً للحصول على قوته الضروري لهو خليق بالانتحار وهو ربما خاب سعياً وسدت دونه سبل المعائش فآثر الموت على الحياة

وكان بيداش منهمكاً حينذاك في تفتيش ملابس القتيل وقلب جيوبها فلم يأتِ رئيس الشرطة على ما ذكره حتى لاح ابتسام خفيف على شفتيه يشف عن الاستهزاء به واستهجان قوله

وكان المستنطق يصغي بكليته الى كلام رئيس الشرطة فقال ولكن على ظني انا ان الرجل مات قتيلاً شهيد سرقةٍ اذ لولا ذلك لوجدنا كلبه حياً ولكنه أُعدم كي لا ينبح ويدعو نباحه الى الشبهات فحدجه رئيس الشرطة بعينيه وقال ولكننا قررنا ان الرجل مات منذ ثلاثة ايام فمن المؤكد ان الكلب مات جوعاً فابتدره بيداش قائلاً بتهكم ومن جرحه اذن يا ترى فافحم هذا السؤال الجميع وصمتوا مندهشين

وعاد المستنطق فقال ان هذه الحادثة لمن الغرابة بمكان اذ لو حسبنا انه قتل فلا اثر للقاتل واذا قلنا انه انتحر فدلائل الاحوال تضادّ ذلك

وكان الموسيو بيداش مفكراً فبينا هو كذلك مر في خاطره امر فلطم جبهته وقال اوجدتم مفتاح المنزل في جيب القتيل . انني بحثت عنه

في جيوبه ولم اظفر به فقال المستنطق كلا يا سيدي مع كوننا وجدنا الباب مقفلاً بدورتين فصاح عندئذ بيداش لقد مات الرجل قتيلاً اذن وقاتله هو الذي اقفل الباب

فعظمت دهشة الجميع وتناظروا ماخوذين وبعدئذٍ كرر رئيس الشرطة ان مهمتهم قد انتهت وآن اوان خروجهم

فتحفزوا لذلك ودنا الموسيو بيداش من السراج ثم حمله بيده وتقدمهم مضيئاً لهم الطريق

فما كادوا ان يصلوا الى اخر الممشى حيث الباب حتى صاحوا حيارى وقد اعتراهم اضطراب عظيم

اجل . فهناك على حائط الممشى وبالقرب من الباب ابصروا رسم يد مخضبة بالدماء كان واضحاً تماماً

الفصل الرابع

« معرض جثث الموتى »

كان في شارع اوفيمون قصر عالي البنيان مشيد الاركان ينبعث من احدى نوافذه ضوء وكان ليل ٢٧ نوفمبر قد تناصف والهواء يهب شديداً

وكان في الغرفة المنبعث النور من نافذتها فتاة جالسة على كرسي قطيفي وشعرها الاسود الحالك الجميل منسدل على كتفين عاريتين ظاهرتين من خلال رداء ناعم رفيع والدموع تنهمر بغزارة من عينين ناعستين

جذابتين فتسقي ورد خديها المفتح معتمدة راسها البديع بيديها اللطيفتين مستسلمة لافكار مظلمة

وكانت تارة تطل من تلك النافذة ولما لا تجد شيئاً تعود الى مكانها وهي بحالة يرثى لها وطوراً تدفع باب غرفة اخرى ثم تنسل داخلاً حيث تنحني على فراش نائم فيه غلام في العاشرة من عمره وشعره الكستنائي اللطيف مبعثر على الوساده فلما تجده غارقاً في لذة الكرى تتنفس الصعداء بثقل ثم تقبله بهدوٍ وتعود الى موضعها وهي تسكب الدموع مدراراً

واخيراً ظهرت تباشير الصباح الاولى وكانت الساعة اذ ذاك الخامسة فاستدعت خادمتها بان ضغطت باحد انامالها على زر جرس كهربائي بجانبها

فهرعت الخادمة نحو سيدتها فتلقتها هذه بقولها تعالي يا كلارا فهذه الوحدة تكاد تقتلني وهذه هي الليلة الثالثة فيا الهي .... ولكن لا . هذا محال . ثم وضعت يديها على جبهتها وقالت اترى انا في حلم ؟ كلارا . انني اكاد اجن قلقاً . هاصباح اليوم الرابع قد لاح ولم يعد . كيف العمل . ماذا اصنع واين اذهب والى من التجيء . انني متاكده انهم لم يبحثوا عنه كما يجب وما عاد يمكنني ان اظل هكذا

واذ قالت ذلك قامت من مكانها واتجهت نحو خزانة هناك اخذت منها رداء سميكاً وقبعة سوداء تدثرت بالاول ووضعت الثانية على رأسها ثم قالت بذهول يا كلارا انا ذاهبة فبهتت الخادمة وقالت وقد اغرورقت عيناها بدموع الشفقة والحزن والى اين يا مولاتي . ان الظلام لا يزال مخيماً والشوارع مقفرة فشخصت الفتاة الى خادمتها طويلاً ثم اتجهت نحو

النافذة وارسلت انظارها الى الفضاء فابصرت الكواكب لم تزل ظاهرة في السماء ثم اصاخت باذنيها فالفت السكون عاماً والهدو يشمل المعمور فابتعدت عن النافذة يائسة وهي تقول ان الحق في جانبك يا كلارا فيجب ان انتظر ثم جلست في مكانها وغاصت في لجة من الافكار

ودقت الساعة السابعة

فرفعت راسها بثقل وتمتمت قائلة اه يا الهي . اه يا الهي . وفي ذلك الوقت سمعت طرقاً على الباب الخارجي فوثبت من مكانها تتمايل من التعب كالسكرى ثم دنت من النافذة بلهفة واطلت خارجاً فابصرت رجلاً طويل القامة قوي العضلات فصاحت هذا هو ! هذا هو ! ثم سقطت مغشياً عليها بين ذراعي خادمتها

واذ ذاك فتح باب الغرفة ودخل رجل فاستفاقت ولم تكد تقع انظارها عليه حتى اعترتها صفرة عظيمة ثم انت انيناً موءثراً ووضعت وجهها بين يديها واجهشت في البكاء قائلة ويلاه لقد غشتني انظاري

وكان الزائر احد اصدقاء والدها وكان شيخاً يدعى ميرانتيبه

فلما عاين ما حل بالفتاة دنا منها بلطف وقال باشفاق لا تقنطي يا ابنتي فلم نفقد بعد كل شيء يا حنة . فمنذ ما تغيب والدك وقد مضى على ذلك ثلاثة ايام ونحن لا ندخر وسعاً في البحث عنه فتمسكي بحبال الآمال يا ابنتي ولا تستسلمي هكذا لشدة الاحزان لان هذا مما يوءثر بك فتمتمت ان قلقي شديد يا سيدي وصبري قد نفد قال ارسلت تشبيهه الى الجرائد وصورته لديوان التفتيش فاجابت اجل يا سيدي وذلك منذ اول يوم تغيب

فيه فصاح الشيخ وقد كان خالها لم تفعل ذلك . اه يا ابنتي حنة ! ااجريت ذلك ولم تتوصلي بعد لمعرفة شيء عنه . ففي اي ساعة خرج قالت في الساعة الثالثة من بعد الظهر وقد تبينت منه في الزمن الاخير شدة القلق ودوام التفكر قال أعلم جورج بشيء من ذلك قالت كلا يا سيدي لانني لم اطلعه على شيء بعد لعلمي انه لا يحمل ثقل وطأة هذا النبأ وهو الان في نوم عميق

وبعد محادثة طويلة لا فائدة من شرحها ودعها ميرانتيه وخرج

وكان جورج قد استيقظ فاقبل على شقيقته وطوقها بذراعيه ثم قبلها

وكانت حنة قد بعثت الخدم ليستقصوا عن والدها غير انهم عادوا باجمعهم بخفي حنين وكان الوقت ظهراً

فلم تعد تطيق صبراً وخرجت مسرعة فصادفت عربة فركبتها ثم قالت للسائق بصوت اجش سر بي الى معرض الموتى

الفصل الخامس

« هل رودوريق والدها »

وكانت المسافة طويلة والطريق مغطاة بطبقة من الوحل والثلج

فغاصت الفتاة المسكينة في بحر من الافكار وتمثل لها ماضي حياتها فتذكرت والدتها الحنونة التي فارقت العالم بعد ان وضعت جورج بزمن قليل ثم والدها الذي كانت تخرج واياه في صباح كل يوم لترويح

النفس بنسيم السحر ومناظر الغابة ثم ينفصلان ليذهب هو الى مصرفه الكائن في شارع شوسيه دانتين وتقصد هي منزلها بالثاني حيث يكون حبيبها وخطيبها راءول فيفيرول في انتظارها فتصرف معه وقتاً طويلاً وهما لا يشعران بمضيه ولا بذهابه . وقد تولد الحب بينهما اثر زيارات عديدة افضى امرها الى تعاقد خناصر والديهما على زواجهما بعد عدة اسابيع

فبينا هي كذلك واذ بالعربة قد وقفت بها امام المكان المقصود فانقبضت نفسها وشعرت للحال بخوف هائل واضطراب زائد لم تعرف لهما سبباً ثم تقوت ونزلت من العربة وتقدمت من باب ذلك المحل الذي يضعون فيه كل جثة لا يعرفون لها اهلاً وكان بالباب رجل حارس فقادها داخل غرفة فيها شيخ مكب على الكتابة فلما ان سمع وطء اقدامهما رفع رأسها مستعلماً فحيته الفتاة بلطف واعلمته بقصد زيارتها الى ان قالت اما اسم والدي فهو ديزيريه لاسيدات وهو احد اصحاب مصارف باريس فقال وما هو عمره قالت انه بين الخمسين والستين وهو طويل القامة قوي العضلات طويل شعر الراس في جبهته اثر جرح قال وهل اختفى والدك هذا قالت لقد خرج في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم ٢٣ نوفمبر وللآن لم يعد فجعل الشيخ يقلب اوراقاً امامه ثم طفق يتلو احداها ولم يلبث حتى تغيرت سحنته واعتراه الارتباك فلحظت الفتاة منه ذلك وصاحت تكلم بربك يا سيدي ولا تخف عني شيئاً فقال ان اوصاف والدك تنطبق على صاحب التعليمات المدونة في هذه الورقة يا ابنتي الا ان اسم هذا الاخير هو رودوويق وقد وجدوه

مقتولاً في احد منازل كلامار فقالت أليس فيها ما يشير الى اثر الجرح الذي في جبهـة والدي فاضطرب الرجل ثم غمغم اجل يا ابنتي انه مذكور فيها فصاحت وقد اصفرت اذن هذا الرجل هو ابي المسكين بالذات فقدني اليه بربك ياسيدي فاراد الشيخ ان يحول دون قصدها غير انه لم يتمكن من ذلك اذ رأى منها اصراراً وعناداً زائدين فقال لها باشفاق تعالي اذن يا ابنتي ثم قادها ودخل بها غرفة اخرى قد علقوا على جدرانها ملابس الجثث الممددة على مناضد مستطيلة من الخشب

وكان في هذه الغرفة اربعة اشخاص يتعاونون على نقل جثة وبينهم فتى على عينيه نظارات

فوقعت انظار حنة على الملابس المعلقة على الحائط ثم تبينتها ولم تلبث حتى صاحت صيحة مزعجة اذ كانت ملابس والدها من جملتها وكادت تسقط على الارض اضطراباً لولا ان الفتى ذا النظارات اعانها وحال دون وقوعها

ثم تخلصت منه واتجهت نحو المناضد وهي تقول بصوت صادر من قلب قد عانى شديد الالام . اريد ان اراه . اريد ان اراه

فاخذها الشيخ واوقفها امام منضدة كان عليها غطاء فرفع طرفه قليلاً فوقعت ابصارها اذ ذاك على وجه والدها وكان يعلوه اصفرار الموت

فتقهقرت مرتاعة ثم صاحت صيحة شديدة وقالت وقـد قنعت وجهها بيديها اه يا ابي . اه يا ابي المسكين

وكان الفتى ذو النظارات بجانبها وهو لا يتخلى عنها بابصاره

ورفعت الفتاة يديها عن وجهها ثم شخصت صامتة الى المنضدة التي عليها اعز شيء عندها في العالم بهيئة قد ارتسمت عليها آيات الآلام والحزن

فاشفق الشيخ عليها ثم اخذها وقفل بها راجعاً الى الغرفة التي دخلت عليه فيها اولاً حيث استعلمها عنوانها ثم اتفقا على الساعة التي يبعث لها فيها بجثة والدها

والى هنا وجدت المنكودة الحظ ان رحيلها قد وجب فشيعها الشيخ الى ان ركبت عربتها - ولما وصلت منزلها احاط بها الخدم مظهرين الالام الشديدة وسألوها عن نتيجة بعثتها فاعلمتهم بما رأت

وعندئذٍ دنت منها كلارا وقالت لها ان راعول دي فيفيرول ووالدتها ينتظرانها في ردهة الاستقبال منذ زمن

الفصل السادس

« الخزانه الحديديه »

كانت السيدة فيفيرول تحب ولدها راعول محبه فائقة وكان لها ولد اخر الا انها كانت لا تأتي على ذكره مطلقاً حتى ان البعض ظنوه قد مات وكان قد اختفى فجأة منذ خمس او ست سنوات وما عادوا يعلمون عنه شيئاً وكان قبيح السيره ذميما بدد اموالاً طائلة على ملاهيه وشهواته النفسانية وبالاجمال فقد كان حملاً ثقيلاً على عاتق اهله غير محبوب الا ممن هم على

شاكلته وامثاله

وتلقى كل من راعول ووالدته حنة بكل لطف مظهرين لها اكتئاباً زائداً لسبب اختفاء والدها ثم سالاها معا الم تتوصلي بعد لمعرفة اخبار والدك فاصفرت الفتاة وقالت لقد وجدته قتيلاً ملقى في معرض جثث الموتى فصاح راعول اه يا الهي · ارايته فعلاً وكيف تسنى لك ذلك ولماذا لم تستصحبي والدي معك وقت ذهابك فقالت لان قلقي كان عظيماً جداً فقصدت ذلك المكان وانا لا الوي على شيء

ودخل في هذه الاونه خادم وقال ان الموسيو رافينو يريد محادثتك يا مولاتي فقالت دي فيفيرول قل له ان سيدتك تعبة ولا يمكنها ان تراه فقالت حنة لا بل دعه يأتي يا بطرس ثم التفتت نحو والدة خطيبها وقالت ان الموسيو رافينو هو صراف خزينة والدي ومن اقدم اصدقائه فمن الواجب عليَّ ان اقبل زيارته

وكان الخادم قد ذهب فبعد برهة دخل عليهم الموسيو رافينو وحياهم باحترام ثم قبض على يدي حنة وقال لا تستثقلي مجيئي الان يا سيدتي لانه لامر ضروري فآه ما اشد المصاب · ان والدك ملزم بان يدفع غداً مبلغاً جسيماً من المال كان من المتوجب عليه ان يرسله لي اليوم فمن المؤكد انه متحفظ عليه في خزانته الحديدية · فقالت الفتاة ان مفتاح هذه الخزانة هو معك لانك صرافه فافتحها اذن وخذ منها ما ينبغي لانك عارف بحساباته فشكرها الرجل ثم اتجه نحو الغرفة الموجودة فيها تلك الخزانة وقد ارتسمت على محياه مظاهر انفراج هم عظيم كان بادياً عليها

غير انه لم يعتم ان عاد عابس الوجه اصفره مفكراً مبلبل الذهن وقال عفواً سيدتي فقد كنت ارغب ان اسألك عن مفتاح مكتبة والدك فهل هو معك قالت كلا يا سيدي لان المفاتيح المختصة بادارة اشغاله كنت معه كلها فمن المؤكد انها موجودة ... ثم لم تقو على تتميم كلامها اذ حال انسكاب دموعها دون استطراد حديثها فاشفق الرجل عليها وقال خففي عنك يا سيدتي فساذهب لاستدعاء من يمكنه فتحها حيث انا على يقين من ان فيها تحويلاً من والدك ثم اشتد اصفراره وتندت جبهته بالعرق وتمتم وانني وجدت الخزانة خالية فارغة من النقود لا بارة فيها فلم تفهم الفتاة جيداً قوله الاخير وقالت حسن يا سيدي فافعل ما تراه موافقاً

غير ان تمتمة الصراف لم تفت الكونتس دي فيفيرول فقطبت حاجبيها ونظرت لولدها نظراً معنوياً فاته ادراك مغزاه

ثم وقفت تريد الانصراف وقالت كان الله بعونك يا ابنتي فتصبري ولا تستسلمي لكثرة الاشجان فاجابتها الفتاة وقد انتصبت واقفة بدورها على قدميها اشكر فضلك يا سيدتي ولي رجاء اريد ان ابسطه اليك فقال راءول انا في خدمتك يا عزيزتي حنة فقولي ماذا تريدين فقالت وقد ضغطت على يد الفتى دلالة على الامتنان ان شقيقي جورج يجهل للان المصيبة التي نكبنا بها وبما انني اريد ان لا اطلعه الان على شيء ما فاملي منك يا سيدتي ان تاخذيه معك ليقيم عندك حتى تمضي ايام الحداد فقالت على الرحب والسعة يا ابنتي فاين هو اذن فنادت حنة كلارا ثم كلفتها ان تاتي لها بجورج ولما دخل الغلام عليهم طوق اخته بذراعيه وقال اين ابي يا شقيقتي

فاضطربت الفتاة وحبست بجهد دموعها التي كادت ان تنفجر ثم قالت بارتباك انه مريض يا جورج وقد اوصاه الطبيب بالراحة التامة وبما انني لا اريد ان امنعك عن اللعب واحرمك من الفرح الذي يستحوذ عليك حينذاك اذ ان الطبيب نهانا عن احداث اي حركة في القصر فقد ارتأيت ان تذهب مع هذه السيدة وتقيم عندها بضعة ايام حتى تتحسن صحة والدك فظهرت على الغلام علامات الامتناع والرفض ثم تمسك بملابس شقيقته كي لا يفصلوه عنها فدنا راعول منه واخذ يستغويه بقبول ما عرضته عليه اخته واعداً اياه باستجلاب احسن اللعب غير انه لم يذعن اليهم الا بعد ان قالت له شقيقته انها تزوره يومياً

وبعدئذ خرج راعول ووالدته وهي ممسكة بيد جورج ودخلت حنة الى غرفتها حيث خلعت عنها ملابس الفخفخة والزهو وارتدت بملابس الحداد والحزن

الفصل السابع

« بيداش وحنة »

وكانت الفتاة قد استدعت كلارا واخذت تقول لها بانها عازمة على رفض زيارة اي كان وانها آلت على نفسها ان لا تخلع عنها ملابس الحداد الا متى اخذت بثار والدها كل ذلك وكلارا مصغية لقول مولاتها باعين دامعة وآلام ظاهرة فبينما هما كذلك واذا بخادم

دخل عليها مقدماً لسيدته بطاقة زيارة للمسيو بيداش وقال ان صاحب هذه الرقعة يود مقابلتك يا مولاتي فقالت له انني لا اعرف هذا السيد ومع كل فاعلمه اني انقطعت عن العالم وعولت على عدم قبول زيارة احد فذهب الخادم ولكنه لم يلبث حتى انثنى راجعاً وقال ان المسيو بيداش يشدد في طلب مقابلتك يا مولاتي مكلفاً اياي ان اذكر لك انه رآك اليوم صباحاً فاندهشت الفتاة من الحاح هذا الرجل وظنته مدير معرض جثث الموتى اي الشيخ الذي استقبلها هناك فامرت الخادم بادخاله فخرج وبعد قليل اقبل صاحبنا السابق وصفه فدهشت الفتاة اذ ادركت عدم صدق ظنها الا انها ايقنت ان قد سبق لها ورأت هذا الوجه البشوش وهاتين العينين الحادتين اللامعتين على رغم من النظارتين اللتين عليهما

وقال الموسيو بيداش من المؤكد عندي يا سيدتي انك متعجبة من جسارتي هذه لانني الححت بان تسمحي لي بزيارتك ولكني على يقين تام من انك لا تلبثين حتى تصفحي عني وذلك متى علمت ان مصيبتك تهمني كثيراً فازدادت دهشة الفتاة وقالت اشكر فضلك يا سيدي فتفضل واجلس وعرفني من انت فشخص اليها بيداش وقال الم تعرفيني بعد قالت كلا يا سيدي مع تذكري انه سبق لي ورايتك قال ان هذا لا يعد غريباً اذ كنت حينذاك في هيئة غير التي انا عليها الآن قالت ومتى كان ذلك قال صباح اليوم وقد كنت واقفاً بجانبك فصاحت الفتاة اه يا سيدي لقد حذرت ولو صدقت ظنوني

تكون انت فقاطعها قائلاً اكون انا الذي حال دون سقوطك الى الارض عندما وقعت ابصارك على جثة والدك في معرض جثث الموتى قالت ولماذا كنت مرتدياً بملابس تشابه ملابس عمال المعرض وقد رأيتك فيما بينهم فابتسم بيداش وقال كي اقف على دخيلة كل امر قالت وماذا يهمك من ذلك يا سيدي فافادها عن حقيقة حاله واطلعها على ماضي حياته متأسفاً تاسفاً شديداً لتركه مهنته الى ان قال وقد كنت امس في كلامار فصاحت الفتاة اكنت هناك . تكلم بالله وقل ماذا علمت قال انني الى الآن لم اهتدِ الى شيء الا انني موءمل ان اتوصل لمعرفة كل شيء ولذلك تجدينني الآن عندك . ان العدالة قاصرة عن ادراك الحقيقة اما انا فقد اوقفت نفسي لدرس هذه الحادثة وقدست اوقاتي لجمع فروعها وآليت على نفسي تعقب الجاني حتى القى القبض عليه فثقي باخلاصي لك ولا تتقاعدي عن معاونتي واعملي دائماً على تقوية آمالي ولا تبخلي عليَّ بذكر ماضي حياة والدك لاكون على بينة من كل امر فصاحت الفتاة اه يا سيدي ما اطيب قلبك واجل خدمتك فليقدرني الله على مكافأتك وسلني انت ما شئت لاجاوبك على كل سوءال بما ينبغي ويوءدي للاخذ بثار والدي

الفصل الثامن

« المكتبة »

وسمعا انئذٍ قرعاً على الباب

وكان القارع الموسيو رافينو وقد عاد مصحوباً برجل صانع اقفال

ودخل عليهما الموسيو رافينو قائلاً بما انني عولت على فتح مكتبة والدك فالاوفق ان تكوني حاضرة في تلك الساعة فقالت اجل يا سيدي وقد اصبحت ربة منزلي ورشيدة نفسي فصار ذلك من حقي وها انا مستعدة ان اتبعك ثم اشارت للموسيو بيداش ان يصحبهم فابى بغية الوقوف على امر لربما يعود عليه منه فائدة

ودخلوا غرفه الموسيو لاسيدات ولا نعني بها سوى غرفة اشغاله ثم فتحوا مكتبته

فاسرع رافينو وجعل يتفحص اوراقها باضطراب زائد واهتمام كلي تتنازعه عوامل اليأس والامل الى ان اتى على اخرها حيث اصفر اصفراراً هائلاً ثم ارتعش جسمه بعنف فسقطت الاوراق التي كانت باقية في يده الى الارض ولم يلبث حتى تندت جبهته بعرق القنوط وتمتم قائلاً لا شيء . لا شيء . ان الخزانة الحديدية ليس فيها نقود والمكتبة ينقصها دفتر التحاويل فيا لعظم المصاب ! . . . . ما هذا ! . . . . اجل ما هذا يا الهي ! . . . لا شيء ! . ! . ان هذا مدهش ! . . .

من المتوجب على والدك يا سيدتي ان يدفع غداً خمسمائة الف فرنك وكان من الضروري ان يبعث لي اليوم بهذا المبلغ او يسلمه الي" فماذا اعمل الآن ! اجل كيف اصنع ؟ ... أأنت متأكدة يا سيدتي من انه لم يضع اوراقه في مكان اخر خلاف هذه المكتبة فاجابت الفتاة وقد شعرت بالاضطراب اجل يا سيدي فوضع الرجل رأسه بين يديه وقال ان هذا المبلغ يجب دفعه غداً والا فانهم يقولون فقاطعته الفتاة قائلة وقد تبرقع محياها بالاصفرار وماذا يقولون فقال وقد جلس على مقعد مضعضع الحواس يقولون ان والدك انتحر تخلصاً من الدفع وباع حياته في نظير ذلك المبلغ فصاحت الفتاة اه يا ابي . اه يا ابي لقد تعرض شرفك للانثلام وسمعتك الحسنة الى التلطخ بوصمة العار ولكن لا . لا يا سيدي رافينو فابحث ايضاً لان ابي كان متمولاً عظيماً فلربما تجد من النقود او الاوراق المالية ما يكفي لحفظ كيان شهرة اسمه وحسن سيرته فقال الرجل وقد ايقن بالضياع لم يعد علينا الا ان نبحث داخل غرفة نومه فهل تأذنين لي بذلك فضمت الفتاة يديها الى بعضهما بحرارة وقالت وقد شخصت الى العلا بخشوع هل يسمح عدلك يا الهي ان اتحمل هذه الضربات القاتلة ثم وجهت حديثها الى رافينو وقالت ابحث . ابحث ونقب يا سيدي فغرف المنزل كافة تحت مطلق تصرفك اما انا فباقية هنا ثم سقطت على مقعد موهونة القوى وقد ارتسمت على محياها اللطيف علامات القنوط والالام

وخرج رافينو والقفال فدنا بيداش من الفتاة وقال اطمئني يا ابنتي

فوالدك لم يمت منتحراً بل مقتولاً فتمتمت الفتاة قائلة اه يا سيدي ولكن انى لنا ان نثبت ذلك فروى لها بيداش كل ما عاينه في كلامار الى ان قال فاجل . اجل يا سيدتي انهم لم يقتلوه الا ليسرقوا امواله . انني متيقن من القتل لوجود رسم تلك اليد التي اخذت مقاسها ومن السرقة لفراغ خزانته الحديدية وضياع دفتر تحاويله . ان الستين فرنكاً التي وجدناها ضمن احد ادراج مكتبة هناك لا يعتد بها ولا توءثر مطلقاً على شيء تاكدته لا سيما بعد ان وجدت جيوب ملابس والدك مقلوبة واثار انامل تلك اليد المخضبه بالدماء بادية عليها انني للان لم اهتدِ لمعرفة القاتل ولكنني ساجده . ساجده يا سيدتي والقي القبض عليه لانني عثرت على دلائل ترشدني اليه فقالت الفتاة وقد عادت اليها آمالها واي دلائل تعني يا سيدي قال ان قاتل والدك تعاطى مهنة النجارة لان الخيط الملفوف على مقبض الموسى معقود عقداً خاصة بمن يتعاطون هذه المهنة وانه ايسر لان اليد المخضبة بالدماء . اليد الاثيمة . اليد التي قلبت جيوب والدك . اليد الظاهر رسمها على الحائط هي يد يسرى ولذلك تجدينني الححت بطلب مقابلتك حتى تيسر لي ذلك وطلبت اليك ان تطلعيني على ماضي حياة والدك لاطابقه على ما عندي من الدلائل لعلي استنتج من ذلك شيئاً يمهد لنا سبيل مطاردة القاتل فهمت الفتاة ان تسرد له تاريخ والدها الاجمالي ولكنها احجمت اذ رأت الباب قد فتح ودخل رافينو باهت الوجه شارد العقل فاحظت الفتاة عليه ذلك ولم ترد ان تستوضحه الامر لانها قرأت في وجهه سورة الخيبة والياس غير ان الرجل لم يكتم عنها شيئا لانه اعلمها بعدم عثوره على شيء ثم قال ولكنني

اظن ان والدك اودع ثروته بنك فرنسا فغداً صباحاً ساذهب لاستعلم عن ذلك ثم سلم واخذ القفال وخرجا

ولم يكد رافينو يصل الى عتبة الباب الخارجي حتى وقف وقال وقد وضع يديه على صدغيه الهي . الدمار . هذا هو الدمار

الفصل التاسع

« أستدلال »

ولبث بيداش وحنة منفردين فقالت الاخيرة للاول لقد طابت منك ان تسألني عما تروم معرفته من خصوص والدي الا اني افضل ان اذكر لك كل شيء فاعرني سمعك :

كان ابي قوي الارادة حاضر العقل ابحر في العشرين من عمره قاصداً اميريكا فوصل الى نيويورك ومنها انتقل الى كاليفورنيا حيث صرف عدة سنوات مواصلاً الكد بالعمل في اشغال تجارية عادت عليه بالارباح الطائلة ثم غادرها قاصداً بونس ايرس فاستوطنها مدة طويلة وكانت اشغاله في رواج عظيم فالف ثروة طائلة مهدت له سبيل الرجوع الى باريس حيث عول على تمضية باقي الحياة ففتح مصرفاً كبيراً اخذ يدير ادارته بهمة شديدة ودقة زائدة ونشاط لا يعتريه قعود عاملاً على حفظ مركزه وشهرة محله حتى حاز سمعة عطرة وثقة ما وراءها ثقة الى ان حدثت اخيراً تلك الحادثة الفظيعة التي سلبتني سعادتي وهنائي وهددت سمعته وحسن ذكراه فقال

اليس له اعداء قالت كلا يا سيدي اذ كان دائباً في خدمة الانسانية والاخذ بنصرة كل بائس تعيس فتمتم بيداش قائلاً حسن . حسن فقد علمت انه ساح كثيراً ثم مات على يد ملاح فلم تدرك الفتاة كنه هذا القول وقالت ماذا تقول يا سيدي اجاب لا شيء . لا شيء وبما ان الموسيو رافينو تحقق عدم وجود نقود في الخزانة الحديدية فاسمحي لي ان اعاينها واراها فقادته الفتاة الى حيث توجد الخزانة المذكورة الا انه لم يكد يدنو منها حتى علته مظاهر من كان يرتاب في امر ثم تاكده

وجعل يتفحص ثقب قفلها بامعان وخبرة ويدقق فيه نظره حتى تعجبت الفتاة من فعله هذا وسالته عما اذا كان تبين امراً فظهر كانه لم يسمع شيئاً اذ تمتم قائلاً ان هذا غريب . ثم التفت نحوها وقال تاكدي يا سيدتي ان شخصاً دخل هذا المكان وسرق ما كان في هذه الخزانة فصاحت الفتاة مستنكرة قوله ماذا تقول يا سيدي فاجاب اقول ان هذه الخزانة سرقت بعد ان فتحت بطريقة لم افهمها بعد لان آثار آلة حديدية نافذة ظاهرة عليها فهل انت على ثقة من امانة خدمك قالت اجل يا سيدي اذ لهم في خدمتي ما ينيف على خمس عشرة سنة قال لا بأس من ذلك فدعيني استنطقهم لعلي استشف من اقوالهم امراً قالت لا مانع من ذلك يا سيدي ولكن تحت شرط قال واي شرط تريدين قالت هو ان تستجوبهم بصفة لا تجعلهم يدركون فيها غرضك قال لك عليّ ذلك يا سيدتي فوثقت الفتاة بقول بيداش ونادت خادماً يدعى فرنسوا فاخذ بيداش يلقي عليه السؤال تلو الاخر الى ان قال له الا تتذكر قط ان شخصاً غريباً دخل هذا المكان

قال كلا يا سيدي الا انه حدث منذ خمسة عشر يوماً ان احد مستخدمي المصرف اتى وقال انه مرسل من قبل الموسيو رافينو ليبحث عن اوراق قال وماذا فعلت معه اجاب لبيت طلبه وادخلته الى هذا المكان فقال بيداش كمستنكر افي هذه الغرفة اجاب اجل فيها نفسها لان سيدي رحمه الله كان اعدها لحفظ اوراقه قال وماذا يدعى هذا الرجل قال لقد فاتني ان اساله عن اسمه قال وهل دخل بمفرده قال اجل ياسيدي قال وكم مكث من الوقت قال نصف ساعة تقريباً قال هل تعرفه اذا تقابلت به قال نعم فهو نحاسي اللون جميل الوجه له مشية غريبة بحيث انني لولا قوله لي انه احد عمال المصرف لخلته بحاراً

فشخصت الفتاة عندئذ الى بيداش مندهشة فاخفض هذا راسه مقتنعاً

وقال الخادم امحتاج انت اليَّ بعد يا سيدي فرفع بيداش راسه وقال بهدوٍ لا . لا . فيمكنك ان تذهب

فانسحب فرنسوا خارجاً ومكثت حنة وبيداش منفردين

فقبضت الفتاة على يدي الرجل وقالت بلهجة تشف عن الاخلاص والشكر اه يا سيدتي ما اعظم دقة افكارك وقوة جنانك فسننتقم . نخلص يديه بلطف وقال لم يعد لي من الوقت ما اضيعه سدى فساذهب بلا توان الى كلامار لارسم خطتي ثم وانني لا انقطع عن زيارتك وقد رايتك تعجبت من وجودي صباح اليوم في معرض الموتى بهيئة متخذة جاعلاً نفسي كاحد العمال فازيل عنك هذا الالتباس بقولي ان من يرتكب اثماً او يفعل جرماً

يكون كريشة تتلاعب بها الرياح تتنازعه عوامل الخوف والامل ووخذ الضمير والندم بحيث لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال الا متى عرف ما تم بمن ذهب ضحية قسوته وعمله الوحشي فتجدينه دائماً ابداً يطوف حول المكان المذكور متنسماً الاخبار ليتخذ لنفسه كل حيطه ولعلمي بما ذكر انتحلت مهنة احد عماله وتنكرت بملابس احدهم ولبثت ارقب كل غادٍ ورائح وعابر ومتفرج الا انني لم اشتبه باحد ولم تفدني حيلتي هذه بشيء فعدلت عنها خصوصاً بعد ان صار من الضروري ان ينقلوا الجثة الى هنا لتحتفلي بدفنها وعولت على البحث بوسائط اخرى فاذا تبين لك شيء او اكتشفت امراً فعليك ان تكتبي اليّ في كلامار

وراى ان الفتاة همت بان تشكره بما يوءيد فيه حاسة الخجل المعهود فيها فحياها بعجلة وخرج وهو يفكر

الفصل العاشر

« باتريك اوكيدي »

كان من عادة الموسيو رافينو ان لا تدق ساعة المصرف التاسعة الا ويكون جالساً على مكتبته امام محبرته متفحصاً او راقه غير انه اخلف ذلك اليوم بعادته هذه واتى متاخراً اذ صادف دخوله عندما كانت الساعة تدق العاشرة فاحدقت به العمال تعلو محياهم علامات الحزن العميق واخذوا يحيونه صامتين فشخص اليهم باشفاق ثم سأَلهم عما اذا كان اتي احد

وسأل عنه فاجابه احدهم بالنفي فتنفس الصعداء ثم جلس كعادته على مكتبته وكانت اوراق عديدة موضوعة امامه فاخذ يتأملها ويتلوها الواحدة بعد الاخرى بامعان الى ان اتى على اخرها فالقاها جانباً ثم عمد الى دفاتر حساباته وجعل يعيد نظره على مجموعها وما هو مدون فيها وكانت حيرته واضطرابه باديين للعيان

اما سبب تخلفه عن ميعاده في ذلك اليوم فهو انه عرج على بنك فرنسا حيث علم له بعد التحريات ان الموسيو لاسيدات اودع البنك المذكور منذ ثمانية ايام مبلغاً ينيف على مائة واحد وعشرين الف فرنك بحيث صار مقدار ما هو له ومقيد باسمه مبلغ اثنين مليون وخمسمائة الف فرنك بيد انه حضر منذ اربعة ايام رجل معه تحويلان بامضاء الموسيو لاسيدات احدهما بمبلغ خمسمئة من الفرنكات والاخر بمبلغ مليونين وخمسمائة الف فرنك وطلب بموجبها ان يصرفوا له هذين المبلغين فعرضا على صراف المصرف فاقر بحقيقة الامضاء وعلى ذلك جرى صرف هذه النقود لحامل التحويلين واصبح الموسيو لاسيدات مديوناً للبنك بمبلغ خمسمئة من الفرنكات

فكاد رافينو ان يفقد عقله لدى وقوفه على ما ذكر واخذ يقلب اوراق دفاتر حساباته متفحصاً اياها مضعضع الحواس كما اشرنا منذهلاً في كيفية سحب هذه النقود الذي لا ذكر له ضمن دفاتره وقد كاد يجن يأساً لدى سؤاله العمال كافة واقرارهم جميعاً بعدم ذهاب احدهم الى البنك المذكور وسحب المبالغ الانفة التقدير

اذن : فمن عساه ان يكون هذا الرجل يا ترى ؟ ... اغريب مجهول بعثه به لاسيدات ليخفي سحبه امواله قبل موته وبعده ؟ ... ولو سلمنا بالمحال وقلنا ان ذلك صحيح فلماذا اجرى لاسيدات هذا الامر ؟ ... اتخلصاً من دفع ما في ذمته من الامانات وهرباً من سداد ما عليه من الديون ؟ ...

ترك رافينو دفاتره كما ترك اوراقه من قبل واخذ يضرب اخماساً في اسداس لا يمكنه ان يهتدي الى امر ولا يستنتج شيئاً واذ ذاك تمثلت له هيئة من ابتدأ ان يشك في سلوكه فبدت له بمظاهر العظمة والجلال تشف عن الطهارة والبراءة واللوم فارتبك في امره وغاص في بحر من الافكار

وبينا هو كذلك واذا به يسمع وقع خطوات على مقربة منه فانتفض منذعراً وتمتم قايلا : ايكون هو ومن ثم وقعت انظاره على شيخ مهيب على عينيه نظارات قد وقف امامه بسكون فتذكر رافينو انه راى ذلك الرجل صباح هذا اليوم في مصرف فرنسا وقد كان بجانبه في نفس الاونة التي كان يستعلم فيها عن مالية سيده لاسيدات غير ان ذلك الشيخ لم يعبأ بما احدثه دخوله على الصراف من التفكر وقال عفواً سيدي اذا شوشت عليك افكارك بوجودي . انني تابع لديوان تفتيش ايالة السين مكلف من قبلها باحصاء الانفس التابعة لها فارجوك الان ان تعطيني كشفاً باسماء عمال هذا المصرف ومحلات اقامتهم ثم اخرج كراساً صغيراً فيه عدة اوراق مضافة واردف يقول هلم يا سيدي ولا تؤخر اعطائي هذا الكشف لان وقتي ثمين

لا يسمح لي بان انتظر طويلاً فعمد رافينو الى ورقة ذكر فيها اسم كل عامل ومحل اقامته ثم سلمها له فوضعها هذا ضمن كراسه وهو يقول الا ينقص منهم احد قال كلا يا سيدي وقد ذكرتهم لك باجمعهم قال اشكر فضلك يا سيدي ثم سلم وخرج ولما ان صار على راس السلم فتح دفتره الصغير ثانية وجعل يتلو الكشف المنوه عنه ولم يلبث حتى تغيرت سحنته واظهر اشارة عدم الارتضاء وقال يجب ان اغير هذه الخطة ولا ابحث على هذا النمط لئلا تذهب اتعابي بلا جدوى ويقولون على اعمالي السلام ثم وضع الدفتر في جيبه ونزع شعر لحيته وراسه المستعار فكان نفس الموسيو بيداش

وحدث ان وقت نزوله صادف رجلاً صاعداً بعجلة فاصطدما فوقف بيداش عابساً شاخصاً الى ذلك الرجل حتى غاب عن عينيه داخل المصرف

وكان ذلك الزائر فتى رشيق القامة متناسب الاعضاء تلوح على محياه علائم الكآبة ولا نعني بها هنا سوى تلك الكآبة الغريزية التي توءثر في النفوس وتستأسر القلوب وتولد الحنان وتتسلط على الافئدة

وكان الموسيو رافينو قد عاودته افتكاراته فالوى برأسه تحت ثقل وطأتها فلما ان سمع وطء خطوات ذلك الفتى انتشل من عقال غيبوبته ورفع رأسه بعجلة فوقعت ابصاره على صاحبنا الفتى فاضطرب شديداً ثم اصفر وكان ارتجاف قدميه عظيماً بهذا المقدار حتى انه لم يقوَ على الوقوف عليهما

فلم يلحظ الفتى ما سببه دخوله على رافينو من الاضطراب والجزع بل حياه باحترام زائد وقال انني ادعى باتريك اوكيدي

اودعت هذا المصرف منذ خمسة عشر يوماً مبلغ خمسمائة الف فرنك وكما
سبق وانبأتك بجواب قد جئت اليوم بغية سحبها فجمد رافينو في مكانه
وتمتم قائلاً هذا حقيقي فانتظر قليلاً يا سيدي ثم اتجه نحو الخزينة ولكنه
لم يلبث حتى انثنى راجعاً وقاد الفتى الى الغرفة التي كانت مخصصة للموسيو
لاسيدات حيث اجلسه على مقعد وجلس هو بجانبه ثم افتتح الحديث
بقوله يجب عليّ قبل كل شيء يا سيدي ان انبئك بان سيدي قد ذهب
الى رحمة ربه فصاح باتريك منذعرًا امات ؟ لقد رأيته منذ اسبوعين
وكان غير معتل قال هو كما تقول يا سيدي بيد انهم يظنون انه مات
قتيلاً فصاح الفتى مندهشاً قتيلاً ! اه يا الهي . ما هذا . ولكن على
ظني يا سيدي ان موته هذا لا يؤثر بشيء ما على مصرفه وامواله
فارتبك الصراف وقال متعلثماً اجل يا سيدي فشخص اليه الفتى طويلاً
ثم قال لقد تعارفت بسيدك واعلمته اني ايرلندي الاصل اريد الاقامة
في باريس مدة عشرين يوماً لاجهز لوازم سفري الى بلاد السينجال
حيث احد اصدقائي ينتظرني وقد كنت قبضت اثر انهائي عملاً المبلغ
الذي اتيت في طلبه الان فاوريت له قلقي من حملي اياه وخوفي
عليه من ان تمد اليه يد وتسلبينه فعرض عليّ ايداعه في مصرفه فقبلت
معتمداً على ما له من حسن السمعة وشرف المعاملة والان وقد آن
اوان سفري وازف وقت رحيلي فاريد ان اسحب المبلغ المذكور كي
ابعث به لوكيلي في لونده لاسافر خالي البال مرتاح الفكر فاصفر رافينو وقال
حسن يا سيدي الا انك تعلم ما يحدث من الارتباكات لدى وقوع

فاجعة كهذه فارجو منك ان ... فقاطعه باتريك قائلاً ان احضر غداً لاقبض المبلغ اليس كذلك ؟ لا بأس يا سيدي وها انا ذاهب فتغيرت ملامح الصراف من اصفرار خفيف الى اصفرار كالح وتمتم قائلاً غداً . غداً . ثم لم يلبث حتى اردف يقول بصوت واضح من المتوجب عليَّ ياسيدي ان اوقفك على كل شيء . ان اشغال سيدي المنكود الحظ التي كانت سائرة اثناء حياته على محور الدقة ستجري تصفيتها بمنتهى الصعوبة . اجل يا سيدي فان المطلوبات جسيمة عديدة اما الموجودات فلا علم لي بمقدارها بعد . فصاح الفتى ماذا تقول يا سيدي . كانك تذكر لي ان مبلغي قد كُتب له الضياع ومصرف سيدك صار على وشك الافلاس فضم الصيرفي يديه على بعضهما بقنوط وقال بصوت يشف عن الحزن واليأس لا . لا يا سيدي انني لم اقل ذلك قط الا انني اشير اليه ليس الا فقال الفتى لقد ُغبنت وقد كان على شفاء الدمار والافلاس فاشار عليَّ ان أأتمنه على هذا المبلغ ليحفظ به مركزه ويدعم به ماليته غير انه خسره . خسره في الميسر او في البورصة فلم يجد خلاصاً الا بالموت فانتحر فصاح الصراف اه يا سيدي . لاتذكر بربك ذلك . اجل لا تذكره مطلقاً . ان سيدي كان قدوة حسنة شريف السلوك فذهب ماسوفاً عليه بصفة لم نعلم كيفيتها بعد قال على كل حال يا سيدي لا يسعني الا ان اعد نفسي مسروقاً او مسلوب المال وتأكد ان عدم حصولي على هذا المبلغ يثلم صيتي ويذهب بشرفي ثم صاح ولكن لا فهذا لا يكون ان الموسيو لاسيدات له عقارات

ثمينة فلا يبعنها اجمع كي اتحصل على حقوقي واحفظ سمعتي فصاح رافينو وقد ايقن بالدمار . رحماك يا سيدي رحماك فلم يعبأ باتريك بهيئة ذلك الشيخ التي كانت تدل على التضرع والرجاء وقال ساخرج من هنا لاقصد توًا نظارة العدلية وابلغها تلك الحادثة فصعق الصراف المسكين ثم قال تمهل يا سيدي . اجل تمهل وافتكر ان لاسيدات ترك اولاداً ليس لهم نصير فاسبل عليهم انت رحمتك واشفق على حالتهم فصاح الفتى ان هذه النقود قد جمعت من اهل البر والاحسان لاسعاف بوءساء محتاجين اكثر من احتياج اولاد من سلبني والدهم ما جادت به ايادي المحسنين لهوءلاء التعساء فلا رحمة لاولئك الاولاد عندي ثم قام عن مقعده وخرج واليأس اخذ منه ماخذاً عظيماً تاركاً رافينو في اقصى درجات الحيرة والهم

الفصل الحادي عشر

« مقابلة »

وصادف باتريك عربة فركبها وقصد احد المحامين فباحثه طويلاً بخصوص مسالته ثم اتجه نحو الفندق الذي كان نازلاً فيه وهو فندق ميرابو حيث حرر رسائل عديدة كتب على غلافاتها لفظة مستعجل

وما كاد ينتهي من تسطير رسالته حتى دخل عليه خادم وانبأه ان سيدة تريد مقابلته لمحادثته في شان مهم فاندهش الفتى من هذه الزيارة

الغير منتظرة ثم سأل ما هو اسمها فاجابه الخادم ذلك ما اجهله لانها لم تشأ ان تذكره لي

وفي هذه الهنيهة فتح الباب ودخلت عليهما امرأة في مقتبل العمر مرتدية ملابس سوداء ومقنعة

فخرج الخادم واضطر باتريك ان يقدم لها كرسياً فجلست صامتة ثم اسفرت عن وجهها فبهت الفتى من جمالها المفرط وحسن صورتها

والقت الفتاة قناعها على مقعد بجانبها ثم قالت بصوت يدل على الثبات والعزم اعلم يا سيدي انني كريمة المسيو لاسيدات

فشخص اليها باتريك منذهلاً وكان اندهاشه هكذا شديداً حتى انه لم ينبس

فاستأنفت قائلة لقد اعلمني المسيو رافينو يا سيدي بما حصل بينكما وما عولت انت على اجرائه فقصدتك الان بغية ان اطلعك على كل شيء لانزع من مخيلتك كل فكر سيء من نحو والدي وافيدك ان والدي" المسيو لاسيدات المتمول العظيم اصبحا بلا ثروة ولا مورد للمعاش اذ ان ممتلكات والدها المنكود الحظ كافة اضحت عرضة لان يشهر بيعها في المزاد توصلاً لسداد ديونه فظهرت ملامح التأثر الشديد على وجه الفتى اثر سماعه كلامها بيد ان تاثير جمالها كان اعظم فقال بلطف لقد هددت فعلاً المسيو رافينو باجراء كل ما هو واجب من الطرق القانونية لاتحصل على نقودي غير ان لي مزيد الامل من صفحك عن حدتي التي الجأتني الضرورة لان اتفوه بما ذكرت له متى عرفت ان المبالغ التي استأمنت والدك عليها ليست لي ولا

تخصني فاندهشت الفتاة وقالت ماذا تقول يا سيدي اجاب اقول اني رئيس جمعية اوقفت نفسها لاسعاف تعساء الايرلنديين وقد افتتحت اكتتاباً في باريس استامت مجموعه منذ بضعة ايام واودعته مصرف والدك وقد تلقيت اخيراً جواباً من الجمعية تحثني فيه على سرعة ارسال مقدار الاكتتاب فوقعت في حيرة عظمى اذ علمت بنبأ والدك وضاع صوابي لدى مفهوميتي من شواهد كلام صرافه ان نتيجة تصفية اشغاله لا تكون مرضية قالت هذا هو ظن الموسيو رافينو يا سيدي اما من جهتي انا فلا يمكني ان اتفوه بشيء ما بخصوص ذلك لعدم المامي بهذه الاعمال على انهم يجدون في طلب القاتل والسارق ولا بد من وقوعه في ايديهم يوماً ما لان الله لا يأخذ بنصرة ظالم الا ان هذا اليوم ربما يكون بعيداً فجئتك الان متوسلة ان لا تستشر محامياً وان كنت فعلت فلا تجعله يباشر عملاً على الاطلاق لئلا تضيف على مصائبنا مصاباً اخر يشين ذكرانا ويذهب بحسن سمعتنا ويمكن بحقوقك ايضاً لان عملاً كهذا لا بد وان تدخل فيه ايدٍ غريبة ربما تمتد وتتلاعب بالاموال الباقية فلا تبقي للدائنين شيئاً وتذهب بحقوقهم هباءً منثوراً فصاح الفتى وقد قدر مقدار اصابة اقوال حنة كفى . كفى يا سيدتي فقد تيقنت من سمو مداركك ودقة افكارك ومشوراتك وما عدت اخشى على اموالي ما دامت بين يديك وتحت رعايتك ولكنه لم يلبث حتى اخذ يمشي في الغرفة ذاهباً اتياً صامتاً مفكراً ثم وقف وقال غير ان هذا التاخير يكاد يوقعني في القنوط ولا بد لي من المكوث هنا شهرين على الاقل او اكثر يكون في اثنائها فيتزجرالد . . . ثم جلس على مقعد مكفهر الوجه ووضع

راسه بين يديه بما يدل على الياس وبجأة رفع راسه بثقل وقال بهدوٍ
لا تؤاخذيني يا سيدتي على ما ظهر لك مني من الحيرة والارتباك لانني
تراهنت مع صديق لي يدعى جون فيتزجرالد على صيد الاسود في بوادي
سنيجاليا بحيث ان من يصيد اكثر من رفيقه يكون الاخر ملزماً بان يدفع
له مبلغ خمسة الاف جنيه انكليزي وقد كسب الرهان مني رفيقي هذا في
العام الماضي بما اشعل جذوة حب اخذ الثار في احشائي وجعلني ان ادعوه
لاعادة الكرة في هذه السنة ايضاً ولكن بضعفي مقدار الرهان السابق الذي
خسرته وقد سافر صديقي المذكور منذ اسبوع وهو الان بلا شك في
انتظاري فترين مما ذكر انني لو تخلفت عن السفر فاكون قد اخلفت
بوعدي وهذا مما يحط بشاني في عيني صديقي ولا ارضى به على الاطلاق
على انني ساكاتبه واوقفه على كل شيء واستسمحه عن تاخري عن السفر
اما من جهتك انت فقد اشفقت لحالك ورثيت لمصابك فسانتظر بصبر ما
تاتي به حوادث المستقبل وتاكدي من اني ما كنت اهتم هذا الاهتمام
لو كانت تلك النقود تخصني . فوقفت الفتاة اذ ذاك تريد الانصراف وقالت
بلهجة تشف عن معرفة الجميل اشكر فضلك يا سيدي واذا كان مدائنوا
والدي على شاكلتك من الشفقة وحسن الخصال فان نتيجة تصفية اشغاله
تكون على خير ما يرام ثم تلثمت وحيت الفتى بلطف زائد بان احنت له
راسها المكلل بحالك الشعر فرد عليها الفتى التحية باحترام وانعطاف زائدين
ثم خرجت وقد انستها هيئة الفتى هنيهة ما هي فيه من المصائب والاحزان

ولما ان وصلت الى منزلها وجدت الكونت دي فيفيرول وولده راءول

على اهبة الخروج وقد كانا انتظراها طويلاً

ولحظت الفتاة ان دخولها عليهما اوقعهما في ارتباك عظيم لم تفهم له معنى ثم دنا راعول منها وقال تقوي يا فاتنتي المسكينة

وكانت الفتاة قد ابصرت في منعطف طريق منزلها تابوتاً لا شيء فيه يحمله رجلان فادركت سر الامر ووقفت على سبب ارتباكهما

وكان راعول قد وضع جثة لاسيدات التي اتى بها الرجلان اللذان ابصرتهما حنة على سرير وكان يلوح لمن تقع انظاره عليها ان لاسيدات نائم نوماً خفيفاً

وقالت الفتاة بحزن قد علمت من شواهد الامور انهم احضروا جثة والدي المنكود الحظ فافيدوني اين وضعتموه

فقادها الشاب الى حيث كان والدها ممدداً

فوقفت متفرسة شاخصة الى تلك الطلعة الفانية كانها تود ان تقف منها قبل الحادها على ما حصل

ثم انحنت على الفراش وقبلت جبهته بخشوع واحترام

واراد راعول ان ينثني بها خارجاً فوقفت عند راس والدها وقالت ارقد بسلام ايها الاب المسكين فان ابنتك اوقفت نفسها لتثأر لك

ومن ثم اخذت بيد خطيبها وخرجت معه واتجها الى حيث الكونت كان موجوداً واتفقوا على كيفية الجناز

ثم انفصلوا على امل مجيء راعول بعد الغد لتذهب معه حنة لزيارة شقيقها جورج

الفصل الثاني عشر

« الكونتس وجورج »

ودفن الموسيو لاسيدات بمشهد حافل يليق برجل مثله

وكان نبأ فقد ماليته او بالحري خرابه لم يصل بعد الى آذان معارفه واصدقائه

وكان باتريك اوكيدي من جملة المشيعين للجثة وقد عزى الفتاة تعزية قلبية صادقة

واستعدت في اليوم التالي للخروج وفي الساعة المعينة حضر راعول ومن ثم ذهبا معاً الى منزله حيث دخلت الفتاة غرفة ملابس الكونتس وتدثرت برداء يخفي ما عليها من ثياب الحداد

وكان جورج ينتظر زيارة شقيقته بفارغ الصبر فلم يرها حتى تعلق بملابسها وصاح فلنذهب · فلنذهب الآن يا اختي لانني اريد ان ارى والدي

وكانت الكونتس قد عاملت ذلك الغلام معاملة رديئة · عهدت به الى مرضع هناك كان من دأبها الجلوس في المطبخ ومباشرة الطعام مع الطاهي فانف الغلام هذه العيشة والح على شقيقته ان تأخذه معها حال خروجها

وكان تاثر حنة مما لفظه جورج عظيماً بهذا المقدار حتى انها ملكت عنان دموعها بجهد شديد

وظل الفتى متمسكاً بان يغادر منزل الكونتس وقت خروج شقيقته الا ان هذا الامر كان بعكس ارادة حنة فتخلصت منه بلطف ووعدته انها ستاتي في الغد لاخذه

وكانت الكونتس دي فيفيرول غليظة القلب فاقدة الحنان فلم يظهر عليها اقل تاثر لما حصل بين الاخ واخته

ولما ان انصرفت حنة من منزل خطيبها اخذت الكونتس بيد الغلام ثم دفعته بعنف داخل المطبخ واتفق انه كان في طريقه كرسي فاصطدم به وسقط فسقط الغلام يصيح رهبة ثم اخذ في البكاء

وكانت المرضع آنئذٍ في اقصى درجات الغضب لانها اشارت على الطاهي اشارة تخص الطعام وكانت تشواه فانتهرت جورج فلم يسكت فصفعته على وجهه بحنق فصاح الغلام متألماً ثم استخرط في البكاء ولم يلبث حتى جلس القرفصاء ووضع راسه بين يديه بالم ثم نام

اما حنة فلما دخلت منزلها وجدت الموسيو رافينو ينتظر عودتها فاستعلمته الخبر فاجابها بيأس لقد اصبح المركز حرجاً ولم يبق سوى اشهار الافلاس لان لا مقدرة لنا على دفع الامانات التي كانت في عهدة المرحوم والدك وقد شعر دائنوه بضياع اموالهم فطالبوا اليَّ بالحاح ان ابين لهم الحقيقة وهذا كشف باسمائهم فتناولته الفتاة ثم تلته بسرعة ولم تأتِ على اخر اسم فيه حتى صاحت مندهشة ويلاه . ان كل هؤلاء كانوا من اخص اصدقاء والدي وقد تناولوا الغذاء مراراً على مائدته فساذهب لمقابلتهم وارجو منهم ان لا يحركوا الآن ساكناً

فقال رافينو ان ما اطلبه هو مهلة فقط يا سيدتي فاجتهدي ان تحصلي عليها لاتمكن من تصفية حسابات والدك بتأَن حتى اعلم اين ذهبت امواله الطائلة ثم حياها وانصرف

الفصل الثالث عشر

« الـكونتس وحنة »

صرفت حنة مدة خمسة ايام وهي تنتقل من عند هذا الصديق الى ذاك الاخر ساعية راجيـة عدم مباشرة اي عمل يحط بشان والدها فلاقت اعراضاً وتصميمـاً فاستسلمت لليأس وعولت على بيع عقارات والدها كلها ومقتنياته كافة لتسدد بعض ما هو مطلوب منه ثم تستاجر منزلاً متوسط القيمة تقيم فيه مع جورج حتى تمضي ايام الحداد حيث ياتي راعول لياخذها لقصره رفيقة لحياته وكانت تفكر في ذلك وهي جالسة على مقعد في غرفتها معتمدة راسها اللطيف بيديها الجميلتين فبينا هي كذلك اذ دخل عليها فرنسوا الخادم وانبأَها بمجيء الـكونتس دي فيفيرل فهرعت للقائها ظناً منها ان راعول خطيبهـا برفقتها ولكنها بُغتت اذ رأَتها مقبلة عليها ماسكة بيد جورج فايقنت ان شقيقها لا بد ان يكون اصابه شيء فدنت منه قائلة بقلق جورج. أ انت مريض. فطوقها الغلام بذراعيـه ثم قال لا يا اختي العزيزة المسكينة فاندهشت الفتاة لدى سماعها كلمة مسكينة التي لفظها شقيقها

بلهجة تدل على المرارة والحزن ثم حدجته بانظارها فوجدته احمر العينين من شدة بكاء غزير فانزعجت وحولت انظارها نحو الكونتس كأنها تسالها عن معنى هذا فادرك الغلام ما يجول في فكر شقيقته وقال بحزن يا حنة . يا اختي العزيزة لماذا خبأت عني نباء موت والدي فصاحت الفتاة عندئذٍ مصدوعة القلب اه يا سيدتي وكيف اعلمته بما اردت انا ان اخفيه عنه فارتبكت الكونتس وقالت انني لم اعلمه بشيء قط وتجدينني مندهشة من ذلك

وكانت الكونتس صادقة بقولها هذا غير ان الغلام تبين حاله وعلم انه اضحى يتيماً اثر محادثة دارت بينها وبين زوجها كانت على مسمع منه

ورات الفتاة ان اخاها واقف على جلية الخبر فقالت اجل يا جورج لقد مات والدنا ولم يبق لك في العالم نصير سواي فصاح الغلام وقد انهمرت دموعه لا تحزني يا اختي المسكينة فلقد تضاعف حبي لكِ

وقالت الكونتس لقد شدد جورج بالعودة اليك فجئتك به وتجدينني انتهز هذه الفرصة لمفاتحتك بشان خطير يستدعي انفرادنا فاندهشت الفتاة من هذا الامر ولم تجد بداً من تلبية طلبها فاستدعت كلارا وكلفتها بان تذهب بجورج خارجاً

وانتظرت الكونتس حتى اوصدت كلارا الباب خلفها بعد خروجها ثم بدأت تقول : ان الحديث الذي اريد سرده عليك شاق سماعه غير انه مختص بمستقبل والدي فتجدينني اتكلم بما يوحيه الي قلبي . لقد كان ذكر المرحوم والدك معطراً وشهرته ذائعة وحسن سيره مشكوراً ثم توفى ولم يلبث

حتى دارت على الالسن اشاعات عديدة وتأويلات شتى وهي على وشك ان تذهب بشرف اسمه وعبير جميل ذكره وقد وصلت هذه الاشاعات الى اذاننا فكذبناها تكذيباً بيد اننا تحريناها فوجدناها صادرة من مصادر وثيقه فحرنا في امرنا اذ ايقنا بعسر ماليته وتعريض صداقك الى سد مطالب المداينين وهو الامر الذي يؤول فقاطعتها الفتاة قائلة بحزن الى خراب ما بعده خراب وفاقةٍ ما بعدها فاقة فرفعت الكونتس كتفيها ازدراءً وقالت انني والحق يقال ما كنت اظن ان المصيبة هكذا عظيمة ومن المعلوم لدينا ان والدك رحمه الله كان عاملاً على تحكيم صلة مودة عائلتينا راغباً في جمعهما حتى جعلك من نصيب ولدي راءول وخطبك اليه وكان يريد زفافك عليه عاجلاً فوافقه ولدي على ذلك اذ وجد هنائه بقربك وسعادته بالمعيشة معك غير انني على يقين وا اسفاه من انك تهزئين بقولي هذا متى اعلمتك ان راءول قد انتدبني لابلغك ٠٠٠ فقاطعتها الفتاة بان وقفت على قدميها مكفهرة الوجه عابسة ثم صاحت بصوت كان يتهدج تهدجاً عظيماً من شدة التاثر لا تكملي قولك يا سيدتي ولا تنهي كلامك فقد ادركت القصد من مجيئك ولاح لي بارق الشؤم من خلال حديثك اذ علمت ان ولدك كان يحبني لما كانت اموال والدي طائلة ودوطتي عظيمة وسعادتي تامة اما الآن وقد اصبحت يتيمة الوالدين صفرة اليدين تكاثفت الهموم على ملازمتي وآلت الرزايا على نفسها الا اكتنافي وعقدت البلايا خناصرها على مداهمتي فقد تخلى عني ونبذ حبي وعول على محو تذكار خطوبتي فمنذ ثلاثة ايام والمصائب تتوالى عليّ وانا اتحملها بثبات وصبر غير ان هذا النبأ شديد

الوطأة على فوءادي وقد ضاعف احزاني فلاتحملنه ايضاً بلا مرارة اذ يظهر لي انه كتب لي الشقاء والبوءس وارى ان الرابطة التي كانت تربطنا قد انفصمت ولم يعد لك عندي حاجة فاذهبي عني يا سيدتي واتركيني اندب حظي واشكو دهري اجل اذهبي عني وقولي لولدك انني ما عدت اطيق سماع ذكره ولن اود ان اراه بلغيه ذلك وزيدي عليه انني بدأت اشعر ان اكرهه وامقته . اكرهه بمقدار ما كنت احبه وامقته اكثر مما كنت احترمه واجله ثم اضيفي له على ما تقدم انني اسأل الله ان اراه يوماً ما في نفس حالتي تعيساً شقياً بائس الحال متروكاً من الجميع لا يرثى احد لبلواه ولا يشفق اخر عليه . اذكري له كل ذلك ثم ناوليه تذكار خطوبته لي وهو هذا الخاتم الذي انزعه الآن من بناني كما انزع حبه من فوءادي

واذ قالت ذلك نزعت من اصبعها خاتماً والقته عند قدمي الكونتس فصاحت هذه مندهشة غضبي . حنة !

فلم تعبأ الفتاة بما حل بالكونتس من الانزعاج على ولدها اثر ما طابته من العلى بشأنه بصفة يمكن ان تستجاب ولم تكترث بما احدثه القاوءها الخاتم على قدميها من الغضب والدهشة بل استدعت فرنسوا واشارت له الى الكونتس بامتهان وقالت قد هذه السيدة الى حيث تشأ هي بشرط ان تخرج بها من هنا في الحال

ثم تركتهما وخرجت بعد ان القت على الكونتس نظراً طافحاً من الازدراء والاحتقار

الفصل الرابع عشر

« دلائل »

باعت حنة كل ما تمتلكه يداها من عقار واثاث واستاجرت منزلاً بسيطاً في حي كليشي نقلت اليه من الاثاث قبل بيعها اياها ما يعوزها وقد صرفت خدمها كافة ما خلا كلارا فانها آثرت البقاء معها على الانفصال وكان خروجها من منزلها الذي شبت فيه وترعرت مما يوءثر في الافئدة ووداعها اياه محزناً للغاية وقد ادركت انه ما عاد يعيقها عائق عن الجد في طلب قاتل والدها لتثأر له فارادت استدعاء صديق والدها الحميم الموسيو ميرانتيه لمشاورته غير انه بلغها انه سافر على حين فجأة وكان هذا الرجل فيما سبق قبطاناً عظيماً ساح كثيراً خصوصاً في اميريكا التي رسا على مرافئها مراراً وزار بلدانها كثيراً فتاسفت على غيابه ولبثت تفكر ثم جلست امام منضدة عليها ورق ومحبرة وبعد امعان الفكر وشحذ القريحة مسكت القلم وكتبت ما ياتي

من باريس الى كلامار في ٢٨ دسمبر سنة ١٨٨٠

سيدي بيداش

وهنا دخلت عليها كلارا مبشرة اياهـا بمجيء رجل فقالت لها دعيه ياتي

فدخل الموسيو بيداش بعد قليل وكان بيده باقة من الورد

فصاحت الفتاة أأنت يا سيدي فاجابها اجل يا سيدتي قالت ومن اين آتٍ قال من شارع اوفيمون حيث علمت بانتقالك الى هنا ثم قدم لها ضمة الورد واردف يقول وتنازلي لقبول هذه الباقة التي جمعتها من حديقتي لتصفحي عن تغيبي عنك طول هذه المدة فتناولت الفتاة الباقة شاكرة ثم قالت وكيف صرفت هذه المدة ياسيدي قال في بحث متواصل وعمل مستمر فقالت وهي تضع الباقة في اناء امامها وماذا كانت نتيجة ذلك يا سيدي فوضع يده على جبهته وصمت ريثما يجمع افكاره ثم بدأ يقول . ان المواضيع المهمة التي جعلتها مرمى ابحاثي هي ثلاثة الاول لماذا استأجر الموسيو لاسيدات المتمول العظيم منزلاً في كلامار يدل على فاقة من يقطنه حيث قُضي عليه . الثاني ما هو تاريخ استئجاره ذلك المنزل والثالث من هم الاشخاص الذين كانوا يترددون عليه هناك

فاخذت ابحث واستقصي جاعلاً همي معرفة من كانوا يزورونه حتى علمت ان امرأة غريبة مجهولة اتت كلامار في اوائل استئجار والدك المنزل المعلوم وطلبت الى رجل يدعى بطرس جوانيوه ان يدلها على مسكن الموسيو رودوريق

ولا يغرب عن بالك ان والدك كان معروفاً بهذا الاسم في كلامار

فصاحت الفتاة عندئذٍ مندهشة أامرأة تبحث عن والدي قال اجل وهي طويلة القامة ممتلئة الجسم وقد كانت مقنعة فلم يتسنَ لهم

ان يروا وجهها قالت ومن اي بلدة هي فصاح بيداش بدوره هذه هي النقطة التي لم اتوفق لمعرفتها بعد ان بطرس جوانيوه كان في ذلك اليوم مع اثنين من اصدقائه في منزله وهم يحتسون خمرة من يد زوجته فبيناهم كذلك سمعوا قرعاً على الباب ففتحته الزوجه ولما ابصرت الطارق وكانت امرأة تبادلت معها عدة كلمات . ومن عجيب امر هذه المرأة ان بطرس الذي وقع اسيراً بين ايدي الالمان ابان الحرب السبعينية وكان اذ ذاك جندياً يقول عنها انها المانية وامرأته التي خدمت مدة طويلة اسرة انكليزية تنفي قوله بزعمها انها انكليزيه والادهي من كل ذلك هو ما ذكره الرجلان الاخران اللذان احدهما غاسقوني والاخر ايتالي اذ الاول يقول انها غاسقونية لما تبين له من لهجة منطقها والاخر يقول انها ايطالية لما لاح من تعبيرها

وكانوا قد ادخلوا هذه المرأة عندهم وحادثوها ملياً

فقالت حنة مستفهمة وهل ذهبت هذه المرأة الى كلامار كثيراً فاجابها لقد ذكروا لي انهم رأوها مرتين ليس الا اما انا فان ابحاثي دلتني على انها ترددت عليها مراراً

وقد قالوا ايضاً انهم رأوها في المرة الثانية مصطحبة رجلاً مقنعاً فيتضح لي من ذلك ان والدك كان يقصد كلامار متلثماً ايضاً وقد استبنت ذلك واستنتجته من انه كان يجتهد في اخفاء نفسه .

ومن الاحتياطات التي كان يسير عليها هو انه كان يجيء كلامار ويغادرها بواسطة مركبة لا السكة الحديدية وذلك خشية من ان

يكون فيها احد يعرفه او تلافياً لما يمكن حدوثه من ان احد سكان القرية يركب معه في نفس القطار الذي يكون ركبه ليقف على حقيقة حاله ولكي اكون على يقين من ذلك فقد قصدت موقف عربات شارع اوفيمون واخذت استقصي من قائدي المركبات حتى دلوني على واحد منهم شاهدوه مرارًا وهو يساوم رجلاً على اجرة الذهاب الى كلامار وكان فتى ذكياً دقيقاً يقيد في كراس معه تاريخ ومقدار كل مبلغ يقبضه فجعلت احادثه حتى استدللت منه بواسطة الكراس المذكور على ان والدك ذهب الى كلامار ست مرات فقط وهي في ٢ و٢٨ سبتمبر و٨ و١٣٠ كتوبر و١٥ و٢٣ نوفمبر

وقد اعلمني هذا الحوذي ان الموسيو لاسيدات لم يذهب الى كلامار مع احد خلافه وكان يامره بالوقوف على مسافة بعيدة من المنزل يقطعها مشياً على قدميه ومن ثم فقد كان يعود اليه في الساعة السادسة تماماً فينثني به راجعاً الى باريس

ومن الامور المستغربة ان احتياطاته هذه ما كان يتخذها خوفاً من قرويي كلامار بل من نفس من كانت تزوره وبرهاني على ذلك هو اجتهاده في اخفاء حقيقة اسمه عنها وعدم اعطائها عنوانه اذ انها كانت تنبئه باسمه المتخذ وتحرر له رسائلها بنفس ذلك الاسم

ولكن كيف تسنى لها مخاطبته وهي تجهل عنوانه ومحل اقامته ؟

ان هذا الامر والحق يقال اتعبني كثيرًا غير انني لم البث حتى اهتديت الى الواسطة وهي الجرائد . فجمعت عددًا عظيماً منها مما يوافق

تواريخ ايام ذهابه الى كلامار وجعلت اتصفحها حتى عثرت بعدد جريدة الفيغارو الصادر في ٢ سبتمبر على هذه الفقرة التي اريد ان اتلوها عليك · واذ قال ذلك اخرج العدد المذكور من جيبه ثم نشره وقرأ ما يأتي : جيانا · سانتظرك الخميس القادم في كلامار في شارع الطريق الخضراء · رودوريق

فاندهشت حنة من مهارة بيداش وارتفعت مكانته لديها اضعاف ما كانت ولم تتمالك ان صاحت اتوصلت هكذا سريعاً لمعرفة كل ذلك يا سيدي · انك والحق يقال من مصاف اعاظم الرجال فما اعظم قدرتك وشدة ذكائك · فلبث بيداش كما كان اي لم تظهر عليه علامات السرور لدى سماعه هذا الاطراء الموجه اليه من فتاة طيبة القلب سليمة النية لا تعرف من المداهنة شيئاً ولا من التمليق يسيراً وقال بهدوءٍ اجل يا سيدتي قد توصلت لمعرفة ما ذكرته لك وقد تعدت ابحاثي حدود هذه المعرفة ايضاً · يفهم مما تلوته عليك الآن ان المراسلات كانت متبادلة على هذا النمط لان هذه الفقرة هي بمثابة جواب على كلام سبقه · فاستحصلت على جميع اعداد هذه الجريدة التي صدرت ابتداء من السنة الحالية ولما ان تصفحتها وجدت ما ايد ظنوني واثبت تخيلاتي · فاخذت كل ما يهمني منها وجمعته في دفتري هذا · ثم وضع يده داخل جيب ردائه واخرج دفتراً اخذ يقلب اوراقه وهو يقول ولقد رتبت هذه النشرات ترتيب خبير يفهم منه المعنى المقصود وهذه هي :

٢٠ يونيو · رودوريق · ان شخصاً تعارف معك في بونس ايرس يريد محادثتك في شأن مهم فعين له مكاناً

ثم رفع رأسه عن الدفتر وقال ان هذه النشرة بلا توقيع ويظهر انها لم تقع تحت انظار والدك اذ بعد ثمانية ايام وجدت نشرة اخرى هذا نصها

٢٨ يونيو · رودوريك · انني في باريس واريد ان اراك فجاوبني · جيانا

ثم صمت بيداش قليلاً وبعدئذٍ شخص الى حنة وقال ويظهر ان والدك لم يجب بشيء ما على هذه الفقرة لا سيما وانها متكررة في الاعداد التي صدرت في ٦ و١٥ و٢٥ لوليو غير ان لهجة هذه المراسلة تغيرت تماماً بعد ثمانية ايام اخرى واليك بيانها

٣ اغسطس · رودوريق · انني تعيسة فاشفق عليَّ وتذكر بونس ايرس · جيانا

ثم رفع نظارته عن عينيه ومسحها بمنديله وقال وقد تكرر نشر هذه الفقرة في ١٣ منه

ثم عاد فوضع نظارته على عينيه وقال وان هذه اللهجة تغيرت ايضاً ابتداء من ٢٥ منه فاسمعي :

٢٥ اغسطس · رودوريق · انني تعيسة جداً وقد عولت على اجراء كل شيء فكن على حذر · جيانا

ويظهر ان والدك راعه هذا التهديد وان الفقرات الاولى وقعت في يده فنشر ما يأتي

٢ سبتمبر · جيانا · سانتظرك الخميس القادم في كلامار في الطريق الخضراء · رودوريق

والآن فهاك نشرات اخرى تؤيدها التواريخ الماخوذة عن مذكرة الحوذي فاصغي اليّ

٢٦ سبتمبر · جيانا · اذهبي الى كلامار السبت القادم · رودوريق

٦ اكتوبر · رودوريك · سافاتحك بعد غد بحديث ذي شان عظيم فارجو منك ان تنتظرني كالعادة في كلامار · جيانا

٧ اكتوبر · جيانا · حسن · رودوريق

٢٠ اكتوبر · رودوريق · اود مقابلتك ايضاً فحدد لي موعداً · جيانا

٢٥ اكتوبر · جيانا · اشغالي كثيرة · سانتظرك يوم ٣٠ رودوريق

١٠ نوفمبر · رودوريك · اريد ان اعرض عليك مسألة يوم ١٥ · جيانا

١٣ نوفمبر · جيانا · اني ضجرت · ومع ذلك فساكون بانتظارك كالمعتاد · رودوريق

١٨ نوفمبر · رودوريق · انا محتاجة لدراهم وارغب مقابلتك يوم ٢٣ · جيانا

٢٢ نوفمبر · جيانا · حسن · غير ان هذه المرة ستكون اخر مقابلة بيننا · رودوريق

وهنا طوى بيداش دفتره ثم قال ومن المؤكد عندي ان والدك قُتل في هذه المرة يا سيدتي

فصاحت الفتاة ان هذه الامور مستغربة يا سيدي فما رأيك فيها
قال ان آرائي لم تتعد بعد دائرة الظنون والشكوك قالت وفي من
تشك يا سيدي قال في الذي له اليد الطولى في ادارة المصرف قالت
ويلاه انك تعني بقولك هذا الموسيو رافينو قال وهو كذلك يا سيدتي
قالت ولكنه مثال الامانة والاخلاص قال ولو كان هذا حقيقي فان
مركزي الحالي يجعلني ارتاب في اي كان يا سيدتي قالت ولكنه كان
من اقرب المقربين الى والدي ومن جملة من كان يعتمد عليهم ويعمل
باقوالهم قال ان هذا الامر مما يزيد في شكوكي ويضاعف حدسي
قالت أ الى هذا الحد يا سيدي قال اجل اذ ان مقتضيات اعمالي تضطرني
على ان اكون كذلك غير انني لم اظهر له شيئاً ولا اجري ذلك
اللهم اذا انقلب ظني الى يقين وشكي الى حقيقة فاني في هذه الحالة
لا اتاخر عن ان اضع يدي على كتفه واقول له يا ايها الخادم الخائن
والقاتل الظالم ماذا فعلت بسيدك واين اخفيت امواله . فصاحت الفتاة
وقد اصفر وجهها بربك تغير مجرى هذا الحديث يا سيدي لان وقعه
في نفسي شديداً جداً فايقن بيداش بما لرافينو عند حنة من الاكرام
والاعتبار والثقة اذ كان غرضه من هذا الحديث هو معرفة ما اذا
كانت تلك الفتاة ترتاب بامانة ذلك الرجل ام لا ثم تبسم تبسماً خفيفاً
فات الفتاة فهم مغزاه وقال . الامر لك يا سيدتي والآن فيتضح من
رقعة وجدها رافينو بين اوراق والدك موءرخة في عشرة نوفمبر بانه
اودع مصرف فرنسا مقدار مليونين وخمسمائة الف فرنك فلماذا اتخذ

هذه الحيطة لامواله واودعها المصرف الانف الذكر ؟ . . .

ان الجواب على ذلك في غاية البساطة . لقد رأى اثار الآلة الحديدية الحادة ظاهرة على خزانته كما سبق واريتك ذلك نخشى على امواله وعلى الامانات التي في عهدته ولجأ الى ايداعها ذلك المصرف ومما يوءيد ذلك اي انه ادرك سر هذه الآثار هو انني تقابلت امس بفرنسوا وسألته عما يعلم بخصوص هذا الامر فافادني ان والدك دعاه ذات يوم واستفهمه ما اذا كان دخل غرفة لاشغاله الخاصة رجل غريب لا يعرفه فاجابه بنفس ما سبق وذكره لنا وهو ان رسولاً اتى من قبل الموسيو رافينو ودخل الغرفة المذكورة بغية البحث عن اوراق فاوصاه والدك بان لا يدع احداً يدخلها متى كان هو غير موجود فيها. ومن البديهي ان دخول هذا الرجل الغريب ووجود تلك الاثار الظاهرة يدلان دلالة صريحة على ان الغرض منها كان السرقة غير ان ذلك اللص الجسور الماهر اخفق سعياً ولكنه علم ولم اعلم بعد باي كيفية ان والدك اودع نقوده مصرف فرنسا فنصب له شركاً اوقعه فيه ثم قتله وكان دفتر التحاويل الذي باسمه معه فسلبه اياه وهكذا تسنى له قبض تلك الاموال الطائلة . ان الرجل الغريب والقاتل السالب هما شخص واحد وقد قال لنا فرنسوا عنه انه ظنه بحاراً وهو ظن في محله توءيده عقد الخيط الملفوف على يد الموسى التي لا يمكن لخلاف البحاره الاتيان بمثلها . والآن فمن هو القاتل . وماذا تم بامر النقود المسلوبة . ولماذا اجد امرأة تدعى جيانا لها دخل في هذه الحادثة

واي رابطة تربط هذه الامرأة بوالدك المسكين يا ترى ؟...

هذه هي الامور التي لم تزل مبهمة عليَّ والتي لم اهتدِ الى طريقة يتاح لي بها ان اتوصل الى معرفة اسبابها فقالت الفتاة عندي من يسعفك ويرشدك فصاح ومن هو قالت صديق مخلص ودود قدير تعارف مع والدي اثناء اقامته في اميركا قال وما هو اسمه اجايت ميرانتيه وقد ساح كثيراً قال حسن فدعيه يأتي الى هنا قالت واسفاه . انه متغيب الآن قال واين هو قالت في روسيا قال ومتى يعود قالت هذا ما اجهله قال الا يمكنك مكاتبته قالت هذا في استطاعتي قال حسن فلا تتأخري عن استدعائه عاجلاً قالت حسن فسأجري ذلك قال لا تتواني في هذا الامر قالت كلا يا سيدي فانه يهمني كثيراً ولديَّ سؤال اريد ان القيه عليك قال سلي ما شئت فها انا مصغ اليك قالت ماذا اجروا رجال الدرك فابتسم بيداش ازدراء وقال لقد اكتفوا بتقرير رئيس ضابطة كلامار قالت والى اي شيء يشير هذا التقرير قال الى ان وجود النقود في درج المكتبة ينفي حصول القتل توصلاً الى السرقة وان .... فاوجست الفتاة شراً وقاطعته قائلة ماذا فاستطرد قائلاً وان ارتباك مالية والدك ولَّد فيه حاسة اليأس فانتحر فصاحت الفتاة وقد اصفرت جزعاً يا روح والدي المسكين المسلوب الشرف والمال اهبطي علينا وارشدينا الى ما يكذب اقوالهم ويدحض تقريراتهم لانهم فقدوا صوابهم وحادوا عن الطريق القويم . فقال بيداش وقد اخذ منه التأثر كل ماخذ يجب علينا يا سيدي ان لا نعبأ باقوالهم وان نستهزيء

بتقريراتهم خصوصاً لانني حريص على البرهان الوحيد القاطع المثبت القتل لا الانتحار وهو مقاس يد القاتل التي رأيت رسمها عياناً على حائط المنزل اما هذا الاثر الهام فقد اندثر تماماً عقب ترميمات عديدة حصلت في المنزل المذكور وقد كنت فطنت لهذا الامر فاخذت مقاس رسم تلك اليد كما سبقت الاشارة خوفاً على اتعابي من الضياع وخشية على نفسي من الفشل فصاحت الفتاة قائلة بصوت يشف عن الشكر ايها الرجل العظيم انت يا من ادهشني بجليل اعماله وفرط ذكائه ان ابنة القتيل تضع يديها بين يديك اشارة لتحالفها معك فتعمـلا معاً توصلاً للاخذ بثار ابيها فضغط بيداش على يديها باحترام وقال ايتها الفتاة المسكينة القوية الارادة والعزم انت يا من توسمت فيها الجرأة والجلد لقد اعتمدت على قولك وقبلت بمحالفتك فليباركها الرب من علاه وان باريس واسعة الارجاء متعددة الشوارع تعد ملجاءً اميناً لمن يقترف ذنباً او يرتكب اثماً واخصامنا اشداء اقوياء يتسنى لهم مقاومتنا وعرقلة مسعانا فلنستعن عليهم بالله انه خير معوان للمظلومين · ثم ترك يديها وقام من مكانه يمشي في الغرفة الى ان رسم في ذهنه مشروعاً فجلس بجانبها ثانية واخذا يتباحثان

فلنتركهما الآن وشأنهما ولنبدأ بقراءة رواية رجال العصبة وموعدنا بهما هناك

﴿ الرواية الثانية ﴾

رجال العصبة

معربة بقلم

حضرة الاديب حنا افندي صاوه

الفصل الاول

« مفاجأة في جنح الظلام »

كانت باريس في الرابع والعشرين من شهر دسمبر سنة ١٨٨٠ مكفهرة الافق متلبدة سماؤها بسحب سوداء كثيفة ثائرة الهواء فلم يرخ الليل سدوله حتى كانت مقفرة الطرق لا يسمع فيها سوى صوت تساقط الثلوج وصرير الرياح .

ففي الساعة الواحدة من بعد نصف ليل ذلك اليوم الثائرة فيه العناصر الطبيعية فتح باب نادي التقدم الكائن في حي هوسمان على مقربة من شارع تايبوت وخرج منه فتى في الثلاثين من عمره جميل الصورة ممتلىء الجسم طويل القامة عليه رداء اسود ركب عربة كانت بانتظاره فسارت به عجلاً ووجهتها شارع تايبوت مع كون الفتى المذكور لم يشر للسائق الى الجهة التي كان يقصدها على الاطلاق

فبعد ان اجتازت عطفة شارع فروشوت ودخلت حي كاليشي ومنه الى روشيشوار خفف السائق من سرعة عدو جواد العربة فسارت على مهل واذ ذاك التفت خلفه بحذر ليرى ما اذا لم يكن تعقبه احد ولما تاكد ان حدسه هذا لم يكن له في الحقيقة من مكان ساط الجواد بشدة فسار بالعربة سيراً حثيثاً حتى اوقفه السائق في منتصف شارع الشابل على مقربة من

زقاق ضيق مظلم يدعى ممر الجنة . ففتح الشاب عندئذٍ باب العربة ثم نظر هنا وهناك ولما ان تيقن خلو المكان نزل منها باحتراس ثم قال للسائق انتظرني بعد ساعة في حي بريس فصدع قائد المركبة بالامر وابتعد بها تطوي صدور الارض على الاعجاز

وكان في يد الفتى لفافة يدخن بها فاطفأها بان القاها على الارض وداسها بحذائه ثم اتجه نحو ذلك الزقاق المظلم وسار داخله حتى وقف امام باب عريض تعلوه الارض وقرعه ثلاث مرات فسمع وقع خطوات ثقيلة ثم صوت اجش يقول من بالباب فاجاب الفتى انا بيرو فانفتح اذ ذاك الباب بسرعة وانسل الفتى داخلاً في رواق مظلم ينتهي الى غرفة فولجها وكانت هذه الغرفة مربعة الشكل تتوسطها طاولة حولها اربعة رجال وعليها عدة زجاجات من الخمر يعلوها قنديل معلق في السقف وعلى بعد منها وجاق ناره متسعره بجانبه رجل يصطلي

فحالما رأوه توقفوا عن شرب اقداحهم وكانت في ايديهم ثم صاح احدهم قائلاً تعال ايها الرفيق فان قدحك يشكو من قلة استعماله وقد اخذته الغيرة من اقداحنا التي لا تفرغ على الاطلاق

وكان الدخان المتصاعد من غلايينهم كثيفاً مخيماً في سقف ذلك المكان

فلم يندهش بيرو مما رأى كأنه آلف منظر هذا المجتمع ثم قال وقد قطب حاجبيه انني لا ارى جريليش فيما بينكم في هذه المرة ايضاً كأنه آلى على نفسه الانفصال عنا تماماً واصبح غير محتاج الينا فقال احدهم لقد تعودنا

على غيابه خصوصاً في هذه المدة الاخيرة كانه انهمك في اشغال أخر ثم تناول قدحه وقال ولكن مالنا وله فلنشرب نخب زعيمنا يا رفقائي فتناول كل منهم قدحه بدوره ثم صاحوا معاً فليحي بيرو فليحي زعيمنا ثم افرغوا ما فيها في اجوافهم

فدنا عندئذٍ بيرو من المنضدة ثم ملأ قدحه بنفسه وقال اما انا فاشرب على سر ائتلافنا يا اصدقائي ثم ازدرد كاسه صبرة واحدة و بعد ان القاه على المائدة نشف شفتيه بمنديل اخرجه من جيبه ثم قال والان فاصغوا اليَّ . فاعار الجميع اذاناً مصغية ما خلا الذي كان يصطلي فانه لبث في مكانه ولم يتحرك . فاغتاظ احدهم وقال محتدماً اقترب منا يا لوبير واسمع ما يقوله رئيسنا فاجابه هذا بدون ان يلتفت اليه انني ارتعش من شدة البرد فاتركوني اسمع كلامه وانا في مكاني فقال بيرو دعوه وشأنه يا رفقائي لانه والحق يقال محتاج الى الراحة والاصطلاء لان المهمة الاخيرة التي كلفته بها تكبد من اجلها عناء ما بعده عناء اذ اضطر ان يقضيها في وقت عسر رديء الطقس وبعد فان المأمورية التي سالقيها على عواتقكم في هذه المرة هي غاية في السهولة والبساطة لانها تنحصر في شيخ وشقيقة له تكبره سناً يقطنان منزلاً ساعلمكم بمكانه عندهما من الاموال مالا يحصى ولا يحصر فيقتضي سلبهما تلك الاموال باي طريقة كانت وعلى ظني ان احدكم يكفي للقيام باعباء هذه المهمة الغزيرة النفع السهلة التنفيذ فقال احدهم ويدعى فيرتون لقد اصاب زعيمنا بما قال لان المراد حرمانهما اموالهما لا يخرجان عن شيخين طاعنين في السن وقال اخر ويدعى لاكاز انني آمل ان تكون هذه البعثة من نصيبي انا فقال الرابع

ويدعى سيمونين تمهلوا يا رفاق ولا تسرعوا بالحكم حتى نسمع نهاية الحديث

اما لوبير فقد لبث في مكانه ولم يبدِ ملحوظاً ما

واستطرد بيرو كلامه قائلاً . واما الان فستلقى هذه المهمة على عاتق من تقع عليه القرعة كما هي عادتنا في مثل هذه الاحوال ودونكم قبعتي ضعوا فيها اسمائكم الخمسة فقط لان جريليش متغيب اما انا فلا اريد ان يكون اسمي في هذه المرة بين اسمائكم لئلا تقع عليه القرعة وهذا ما لا اريده اذ لو كان الامر كذلك لكنت قمت بها بنفسي وبدون ان اطلب مساعدتكم . واذ قال ذلك وضع قبعته على المائدة

فاسرع لاكاز الى ورقة قطعها اجزاء متساوية كتب على خمسة منها اسمه واسماء رفقائه ثم وضعها في قبعة بيرو وادناها منه فتناولها هذا وقال انني ساسحب اربع ورقات القيها بعيداً بدون ان افتحها اما الورقة الباقية ولا اعني بها سوى الخامسة فانني افتحها اذ هي التي يصيبها الاقتراع واذ قال ذلك مد يده في قبعته واخذ اربع ورقات وضعها جانباً بغير ان يفتحها كما قال وبقيت الورقة الخامسة

فشخص الرفقاء اليها وقد تبرقعت وجوههم باصفرار الوجل والاضطراب لعلمهم ان بساطة هذه المأمورية لا تحول دون مطاردة رجال الدرك الى من يقع الاقتراع عليه متى اشتبهوا فيه

ووضع بيرو يده للمرة الثانية في قبعته ثم اخذ الورقة الباقية ووضع قبعته على راسه بيده الثانية وقال: اعيروني انتباهكم ايها الرفقاء

فتحركت كراسيهم اثر ارتعاشٍ عنيف اصابهم وقد كفوا عن التدخين

وكان لوبير لم يزل منفصلاً عنهم وقد انسته حرارة النار ما يجري على مقربة منه

واشعل بيرو لفافة وضعها على طرف المائدة بعد ان دخن بها قليلاً ثم عمد الى الورقة بسرعة ففتحها والقاها امامهم

فتهافتوا الى قراءة الاسم المذكور فيها ولم يلبثوا حتى صاحوا معاً · لوبير

فتحرك عندئذٍ ذلك الذي كان يصطلي من موضعه ثم انتصب واقفاً متأففاً وقال ها انا يا بيرو فما هي تعليماتك فاخذه هذا على جانب وافهمه ما يلزم ثم ناوله خريطة للمنزل الذي عوَّل على سلب ثروة ساكنيه فاخذ لوبير الخريطة وهو يقول لقد فهمت وغداً اكون هنا لاعلمك بقيامي بهذه المأمورية خير قيام فتركه عندئذٍ الزعيم ثم اتجه نحو فيرتون وقال انني اريد ان ارتدي بملابسي فاحضر لي مصباحاً فذهب هذا ولم يتباطأ ان عاد ممسكاً مصباحاً ضئيل النور ناوله الى زعيه فذهب هذا به متجهاً نحو غرفة اخرى فتحها بواسطة مفتاح كان معه ثم انسل داخلاً · وبعد زمن قصير خرج منها متغير السحنة متدثراً بملابس تشابه ملابس الفعلة تخفى ما عليه من الثياب التي كان جاء بها · مخضباً وجنتيه وانفه بلون احمر محتذياً بحذاء طويل يخفي حذائه اللطيف الصغير المصنوع من الجلد الاسود اللامع

ثم دنا من المائدة وملأ كاسه وقال اشرب نخب نجاح عصبتنا يا رفقائي فملأ كل منهم قدحه بدوره وصاحوا معاً وعلى سر دوامها تحت رئاستك يا زعيمنا ثم ازدردوها ولما القوها فارغة قال بيرو والآن

فانني ذاهب عنكم على امل اللقاء قريباً فقال فيرتون والى اين ذهابك يا بيرو . انني ارى .... فقاطعه لاكاز بقوله يا لك من ثرثار مالك وزعيمنا دعه وشأنه

فاستحسن بيرو عمل فيرتون اذ ابتسم له مرتضياً ثم حياهم وخرج يجد في مسيره وهو يلتفت ذات اليمين وذات اليسار خوفاً من رقيب او حذراً من مترصد الى ان وصل شارع بولونسو حيث كانت توجد حانة فقصدها وكان بابها موصداً فقرعه مراراً فانفتح بهدوٍ فدخل بتأنٍ وسكون حيث كان عدة رجال سكارى قد ادركهم النعاس وغطيطهم عالٍ مسموع والمعلم جور صاحب الحانة يوقظهم بغلاظة وبلا شفقة ليخرجوا او ليشربوا ايضاً من نبيذه غير انه ما ابصر صاحبنا داخلاً حتى تركهم في حالتهم التي وصفناها ثم هرع الى ملاقاته مظهراً البشاشة والايناس مستعملاً ما ينبغي قوله من الترحيب الى ان قال له ألك بي حاجة هذه الليلة يا سيدي فالتفت هذا حوله ولما ان تاكد انه لا يوجد من يسمع حديثهما قال اجل يا جور فهل لم تصلك رسائل باسمي قال كلا يا سيدي جستاف فقطب هذا حاجبيه وتمتم قائلاً ان هذا لغريب ثم اردف يقول وقد زالت عبوسته لربما عاقه عائق فلننتظر الى الغد ايضاً وسأمر عليك يا معلم جور . واذ قال ذلك صافح الرجل ثم خرج مهرولاً وسار وهو يتمتم بما يأتي : لم يجاوبني للان . ما سبب هذا . اظن انه يستقصي عمن بعث له بالرسالة . ولكن عبثاً يحاول ذلك وويل له من شيخ غرور .

وكان اذ ذاك قد وصل الى شارع باريس حيث وجد مركبته في انتظاره كما سبق واوصى الحوذي فركبها وامره ان يذهب به الى النادي فلم يستنكر قائد المركبة تغير هيئة سيده لانه تعود ذلك والهب الجواد بسوطه فسار بالعربة ينهب الارض نهباً

ولم يمضِ وقت طويل على ذلك حتى وقفت المركبة امام النادي السابق الذكر فنزل صاحبنا منها وكان بديع المنظر ثمين الملابس مرتبها لطيف الحذاء نظيفه

اما سبب هذا التغيير فهو انه حالما كان في المركبة خلع عنه تلك الثياب التي اتينا على وصفها وذلك الحذاء الطويل الذي سبق ذكره ثم ازال بمنديلٍ ما كان خضب به وجهه من المسحوق الاحمر

وتلقاه احد اعضاء النادي بما يليق بسمو مركزه لديهم فقال له اظن ان اللعب اخذ اهمية عظمى يا عزيزي مورليه وقد رافق الحظ احد الاصدقاء فاجابه هذا اجل يا عزيزي فيلادوريس فان الصندوق في يد دي كازرت وقد ربح الى الآن الفي ليرة فاجتهد ان تحولها اليك

وعندئذٍ اقبل خادم وقال هل لسيدي المركيز دي فيلادوريس ان يعهد اليَّ بقبعته وعصاه فناوله المركيز اياهما ثم وضع يده في يد مورليه ودخلا معاً صالون الميسر حيث كانت وجوه اللاعبين تترجم عن غيظ وحقد وامل ويأس اذ ان الكونت دي كازرت الذي كان صندوق الورق بين يديه في هذه الاونة قد ربح ربحاً عظيماً كما قال مورليه

وانفصل فيلادوريس عن مورليه ثم جلس بعيداً بدون ان ياخذ مكاناً بين اللاعبين

فحاروا جميعاً من ذلك والحوا عليه مراراً ان يلعب غير انه رفض طلباتهم الشديدة بلطف

وكان فيلادوريس قد اندمج ضمن مشتركي هذا النادي منذ خمسة عشر يوماً ليس الا فلم يستقر به الجلوس حتى صار لا يتخلى بانظاره عن الكونت دي كازرت بحيث انه ما كان يراه يجمع امامه النقود التي يربحها الا وتلوح على شفتيه الرقيقتين ابتسامة غريبة لا يمكن فهم كنهها

ودقت الساعة نصفاً بعد الثانية

فقال الكونت دي كازرت بانه يكف عن اللعب في الساعة الثالثة ونصف

فاشتد سخط اللاعبين وذهبت برشدهم الخسائر الفادحة التي خسروها فصاروا يقامرون بيأس

ودقت الساعة الثالثة

فترك فيلادوريس مكانه وحيى اللاعبين مودعاً بامتهان ثم اتجه نحو غرفة حفظ الملابس فناوله الخادم قبعته وعصاه فوضع الاولى على رأسه ومسك الثانية باحدى يديه ثم سار طالباً الخروج فوجد مركبته بانتظاره فركبها بعد ان همس كلمتين في اذن الحوذي فسارت به مسرعة قاصدة شارع تايبوت

. . . .

ودقت الساعة نصفاً بعد الثالثة

فالقى دي كازرت ما في يده من الورق وقال الى غدٍ يا سادة فقد حان وقت رحيلي

ولم يلبث حتى جمع الاوراق المالية المبعثرة امامه ثم وضعها في محفظة كانت معه وخرج بعد ان حياهم تشيعه انظار يتطاير منها شرر اللهف والبغضاء

وكان الكونت دي كازرت يقطن في شارع دومال الذي يوصل اليه بعد اجتيازه شارع تايبوت

وكان من عادة الكونت المذكور انه يقصد منزله سيراً على قدميه .

وقد كانت تلك الليله حالكة الظلام شديدة العواصف فوضع الكونت يديه في جيبي ردائه وسار يدخن بلفافة اشعلها

فبعد ان اجتاز شارع النصر دخل في شارع تايبوت ولم يسر فيه طويلاً حتى اصطدم برجل فتقهقر عابساً واراد ان يتبين هيئة ذلك الوقح غير ان شدة الظلام حالت دون مرامه

وكان الرجل الاخر ملتحفاً برداءٍ طويل منزلاً قبعته الى عينيه فابتدره بقوله لا تؤاخذني يا سيدي على ما بدر مني بدون قصد وارجو منك ان تسمح لي بان اشعل لفافة معي منك فاطمأن الكونت واقبل عليه ماداً له يده بلفافته ملبياً طلبه قياماً بداعي الانسانية ولكنه لم يلبث حتى صاح صيحة مزعجة وتراجع فاقد الحواس اثر طعنة خنجر شديدة

نفذت في جنبه الايسر ثم سقط الى الارض غائباً عن الهدى

فاسرع عندئذٍ الرجل الاخر اعني الذي طعنه واستحوذ على المحفظة المعلومة ثم ابتدر المفر تاركاً ذلك الكونت المسكين سابحاً في بركة من الدماء وقد ضجت الارض انزعاجاً من فظاعة ما جرى فتردد صدى ضجيجها في السماء وللوقت كتب في لوح المذنبين سيكون عقاب القاتل الظالم عبرة للعالمين

وكانت صيحة الكونت عظيمة بهذا المقدار حتى ان اثنين من رجال العسس هرعا الى مكان الحادثة ليقفا على سر الامر واذا بهما يجدان نفسيهما امام الكونت وكان ممدداً على الارض ودمائه متجمدة حوله . فصاحا معاً ويل للمفتري وكان هذا يعدو على مسافة قريبة منهما فادركا حقيقة حاله وجدا في اثره وكادا يدركانه لولا انه اتجه بغتة نحو شارع شاتوديم حيث ركب عربة كانت بانتظاره سارت به تنهب الارض نهباً . فوقفا منذهلين . واذ ذاك انفتح باب العربة والقى منها الذي ركبها على سبيل الاستهزاء بهما قبعة وصدرة فالتقطاهما وهما في اشد الحيرة ثم انثنيا راجعين الى حيث كان الكونت طريحاً .

وبينا هما كذلك كان بيرو اوجستف او المركيز دي فيلادوريس قد اشعل لفافة جعل يرسل دخانها من فمه وهو يكرر ما اعظم ربحي هذه الليلة

وكانت العربة قد اجتازت وقتئذٍ شارع شاتوديم واتجهت نحو شارع فيليير حيث وقفت امام مسكن عظيم قرع الحوذي بابه بسوطه فانفتح فاجتازت العربة عتبته داخلة ثم أُغلق كما كان

وكانت الطريق مقفرة وقد اخذ النهار ان يبدو للعيان

الفصل الثاني

« رجل ذو شأن »

اصبحت دائرة اشغال الموسيو لاسيدات في يد (سنديك) يصفي حساباتها وقد كاد المداينون ان يجنوا لدى علمهم ان المبالغ المتبقية لا تكفي لسداد بعض ديونهم وكان ذلك اليوم يوم شوءم وويل ازدادت فيه بلايا حنة فعولت على زيارة المنزل الذي قتل فيه والدها لعلها تتبين اثراً ينير ظلمات مركزها الحرج فذهبت الى كلامار حيث قصدت منزل الموسيو بيداش لتستصحبه معها غير انها وجدته متغيباً وكان قد دلها على مكان مزارها فاتجهت نحوه منفردة وكأن العالم قد استنكف دوام السحب واحتجاب الشمس عنه فاستصرخ الهواء طالباً مساعدته لمحو ذلك الغشاء الاسود فلبى هذا ندائه وخرج ثائراً مندفعاً من الشمال فمزق طبقات الغيوم ثم محقها محقاً فظهرت اذ ذاك الشمس بمظهرها الباهر تحيي العالم باشعتها الذهبية فابى هذا انكار فضل الهواء وهرع اليه يشكره ويشيعه الى ان توارى خلف حجاب الكون

فوالحالة هذه كان طقس ذلك اليوم معتدلاً وسماؤه صافية فاغتنم ملاّك المنزل الذي اعدم فيه لاسيدات هذه الفرصة لتغيير هوائه ففتحوا نوافذه ورتبوا رياشه وكان انزعاج حنة شديداً وارتباكها عظيماً غير انها

لاقت من اصحابه عندما اعلمتهم بذاتها تعطفاً جزيلاً وعزاءً جميلاً خففا بعض ما هي فيه من الاحزان وما يساورها من الهموم ومن ثم قادوها الى حيث علموا ان والدها وجد قتيلاً فخرت على ركبتيها ساجدة ثم شخصت الى جدران المكان كأنها تستقصيها حقيقة ما كان

وكانها ادركت انها تطلب محالاً فقامت من مكانها ولبثت مع اصحاب المنزل زمناً طويلاً صرفته بحديث موءثر اذ كان مداره تاريخ والدها ثم استفهمتهم عن الطريق القصيرة الموءدية الى محطة السكة الحديدية فارشدوها اليها فاثنت على لطفهم ثناءً جميلاً ثم خرجت توسع الخطى اذ كان الليل قد بدأ ان يرخي سدوله وقد انستها زيارتها هذه شقيقها جورج قليلاً . غير انها ضلت الطريق وسارت فيها اعتسافاً فادركت غلطتها واوجست خيفة ووقفت مفكرة لا تعلم اين هي الا انها لم تلبث حتى شددت قواها واستأنفت مسيرها فاعترضها شبح في الظلام خاطبها قائلاً كم الساعة الان فوقفت في مكانها جامدة ثم قالت وقد اخذ منها الاضطراب ماخذاً عظيماً وماذا تريد من معرفة الوقت يا سيدي قال لاعلم الساعة التي اصل فيها باريس لانه مضى عليّ وقت طويل بدون ان اقتات بشيءٍ اذ لا نقود معي اشتري بها ما يقتضي حتى انهكني الجوع وخارت قواي فصرت الى حال تضطرني ان اطلب منك ما معك من الدراهم ليتاح لي مشترى ما اسد به رمقي . فاخرجت كيس النقود من جيبها وهي ترتعد فرقاً ثم ناولته اياه قائلةً دونك كل ما امتلكه من النقود يا سيدي فاخذه وهو يقول بخشونة انه خفيف لا يحوي شيئاً يذكر فمن الموءكد انك تخبئين معك دراهم اخرى

فصاحت المسكينة مرتاعة لا . لا . فقد اعطيتك كل ما معي قال حسن فاذهبي
الآن في سبيلك وحذار من ان تبلغي هذه الحادثة لاحد من رجال
الدرك لان عاقبة ذلك تكون وخيمة عليك وعلى ظني ان انك مقيمة
هنا قالت كلا بل في باريس فصاح مستنكراً وهل تعودين اليها
سيراً على قدميك قالت لا وقد كان غرضي المحطة لاركب القطار
فضللت الطريق ثم ... فقاطعها قائلاً ثم وقعت بين يدي وسلبتك
نقودك فتعالي معي لارشدك الى السبيل فصاحت مندهشة أأنت
ترشدني قال ولِمَ لا فهل ذلك غريب قالت اجل اذ كيف تقوم لي
بهذه الخدمة مع كونك لصاً قاطع طريق بلبلت افكاري وسلبتني مالي
قال وان يكن هذا حقيقياً غير انني سابرهن لك بانني لا امس النسوة
بسوء فاتبعيني من على بعد لتكوني مطمئنة على نفسك وتجدينني اسير
امامك حتى تصلي الى حيث تشائين فاقتنعت الفتاة بهذا القول وقالت
حسن فنفذ ما تقول فلم يتباطأ ان سار امامها صامتاً فتبعته وقد اخذ
منها الاندهاش من فعله هذا كل مأخذ وللوقت مر في بالها خاطر
كالبرق وهو بما ان هذا الرجل هو لص فاربما تكون له معرفة بمن قتل
والدها فوطنت العزم على الدخول معه في حديث لعلها تستكشف منه
شيئاً ولوقتها دنت منه بلا وجل وقالت الى اين انت ذاهب بي فوقف
ثم التفت اليها وقال الى المحطة كما كنت تودين قالت واي عامل
دفعك الى اتخاذ هذه المهنة الممقوتة وهي اللصوصية وقطع سبيل العابرين
فقال وقد استغرب سوءالها هما شيئان قالت وايهما تعني قال الفاقة

والشقاء قالت ولماذا لا تشتغل وتكد حتى تكتسب خبزك اليومي بعرق جبينك كما الزمنا الرب قال اتلومينني لتهاوني في هذا الامر قالت لا شك في ذلك قال حسن غير انه سهى عن بالك ان انصبأ الناس تتفاوت وحظوظهم تدور على محور واحد ولكنها قسمان احدهما سعادة ورفاهية والآخر بؤس وآلام فمن كان نصيبه ضمن القسم الاول عاش مغبوطاً لا يعرف للمتاعب معنى ولا للشقاء تجربة ولا طعماً اذ تنهمل موارد الكسب من حيث لا يعلم وتتمهد امامه سبل المعائش من حيث لا يقصد بخلاف الاخر فهو اينما اتجه يرى ابواب الرزق موصدة دونه واينما سار يجد متاعب الحياة عاقدة خناصرها على ملازمته وملاحقته قالت انك والحق يقال تتكلم بفلسفة قال لا غرابة في ذلك اذ ان مدرسة الايام علمتنيها قالت كلام مقنع ولكن هل امر متاعب الحياة والفاقة يؤدي بالانسان الى الحالة التي انت عليها الان فصاح متاوهاً او هذا قليل يا سيدتي قالت كلا غير انه يوصل الى طريق اخرى قال لقد جاء دوري بان اسألك ايها تعنين قالت الموت اذ ما من رجل يخشى العار ويتحاشى الاثم الا ويفضل الموت جوعاً بدلاً من ان يتخذ مهنة دنيئة سفلة تمج سماع ذكرها النفس ويحتقرها المجتمع الانساني ويعمل على ابادتها واستئصال شأفتها فوجم الرجل منذهلاً لدى سماعه ما ذكرته حنة معجباً بجرأتها ثم طال صمته فاوجست الفتاة شراً وهمت بان تتكلم فعاجلها بقوله لا يسوئني ما سمعته منك يا سيدتي لانه في الاصابة بمكان ولانني لم ارَ في حياتي قط فتاة تماثلك في دقة الافكار وسعة الاطلاع بما ولد في حب ذكر حالتي وسرد تاريخ حياتي

واؤمل ان لا توءاخذيني بجريرة اعمالي لان السعداء المغبوطين يرتابون بامكان انغماس البوءساء في حمأة العيوب والجرائم فاسمعي

كان والدي سكيرًا يضرب امي كثيرًا ويسوءها على الدوام فاشفقت عليها واردت ذات يوم ان احول دون امانيه هذه الرديئة فعاملني اسوأ معاملة ثم طردني من عنده وكان لي من العمر اذ ذاك اثنتا عشرة سنة وكنت لا اعرف احدًا ولم اك تعلمت مهنة غير انه تسنى لي دخول احد معامل سان دنيس براتب يومي قدره عشرين صلديًا فحمدت الله على ذلك وجعلت اشتغل برغبة زائدة غير ان هذه الحالة لم تدم طويلاً اذ ان اشغال المعمل اخذت بالكساد وآل الامر الى عزل مئة من العمال كنت انا من جملتهم وكان حناني وشوقي الى والدتي قد تعاظما فقصدت المنزل تقودني عوامل حب الوقوف على اخبارها ولا توءخرني عقابات والدي وتهديداته التي كانت تتمثل في مخيلتي عن الذهاب لاكتساب رضاها فتلقتني تلك الام المسكينة بلهف وشغف زائدين غير ان والدي كان لم يزل حاقدًا عليَّ فابى ان يصفح عني وطردني ثانية بدون ان يرق لبلواي او يتأثر لشفاعة والدتي فخرجت اتعثر باذيالي وكانت جيوبي خالية والجوع اخذًا مني مأخذًا عظيمًا اذ ما كنت تناولت طعامًا منذ الصباح ولا تمكنت من توفير شيء من مرتبي الزهيد فسرقت رغيفًا من فران فضبطت وسجنت اسبوعًا ثم خرجت من سجني وانخرطت في سلك باعة الجرائد الذين يطوفون بها في الازقة وكان ذلك الوقت شتاء والثلج يغشي الطرق وكنت حافي القدمين

مكشوف الساقين ارتعد برداً ولا اقوى على المشيء فسرقت حذاءً فضبطت ثانية واودعوني السجن مدة ثلاثة شهور كانت عاقبتها ويلاً ووبالاً عليَّ اذ تعرفت في اثنائها بذوي سوابق عديدة تقابلت بهم بعدئذٍ في ضواحي باريس وكانوا موءلفين عصبة قوية دأبها السطو والسلب فانضممت الى زمرتهم خصوصاً لان معارفي الاول نبذوني مذ عرفوا بحوادثي وهجروني اذ وقفوا على سر سجني وكان والدي قد ذهب الى رحمة ربه غير تارك من حطام الدنيا شيئاً تستعين به والدتي فاخذتني الشفقة عليها وجعلت اقوتها مما تقع عليه انظاري وتطوله يدي مموهاً عليها حقيقة حالي وخافياً مآلي مُعاماً اياها انني اشتغل في احد المعامل البعيدة فيتضح لك من مجمل اقوالي ان والدي كان سبب شقائي ومبعث ما آلت اليه حالتي غير انني قد صفحت عنه واسأل الله دائماً ان يسبل عليه رحمته ورضوانه

فتاثرت الفتاة من حديث ذلك الرجل وايقنت ان الاتفاق خدمها في هذه المرة خدمة عظيمة اذ جعلت في طريقها هذا اللص الذي هو احد افراد عصبة قوية وهمت بان تستفسره بصفة لا تدعو الى الارتياب ما اذا كان يعلم امراً عن حادثة قتل والدها غير انه لم يدع لها من الوقت مجالاً لمفاتحتها اياه الحديث ثانية اذ قال لها لم يعد يمكنني ان اسير معك ياسيدتي وهذه هي المحطة على يسارك فاتجهي نحوها بمفردك ولا تخشي ضراً لان رجال البوليس الذين تخافهم كالابالسة منبثين على مسافة قصيرة من مكاننا ليقوموا بمهمات عديدة

كلفوا بها فادركت الفتـاة مغزى حديث الرجل وقالت لقد حزنت لمصابك واشتقت لرؤية والدتك المسكينة فاين تقطن هي لازورهـا لعلي انفعها بشيء فصاح الرجل مستنكرًا اتزورين انت والدتي قالت اجل لعلي اخفف وطأة فاقتها واقويها على احتمال شظف العيش وبلايا الحياة المرة فصاح الفتى متأثرًا اه يا مولاتي ما اجمل هذه المنة واعظم ذلك المعروف وانني لجاحد النعمة اذن اذا ابقيت مالك الذي سلبته اياك معي فدونك كيس نقودك ارده اليك بدون ان اعلم ما فيه ولي رجاء ابسطه اليك متضرعًا وهو ان لا تنسي والدتي . فتناولته الفتاة ثم فتحته وارادت ان تنقده شيئًا فابى شاكرًا ثم اردف يقول اما والدتي المسكينة فانها تقطن بشارع (ميرها) نمرة ٣٥ ثم رفع قبعته واستأنف قائلاً وانها تدعى السيدة جريليش . فاذا كنتِ مصممة على زيارتها فارجو منك ان لا تذكري لها شيئًا مما حصل بيننا الآن لئلا تموت غمًا وكمدًا ثم حياها وابتعد مسرعًا حتى توارى عن نظرها فاتجهت عندئذٍ نحو المحطة وصدى اسم جريليش يتردد في اذنيها

الفصل الثالث

« مهمة لوبير »

لم يكد باعة جرائد يوم ٢٦ دسمبر يظهرون في شوارع باريس متأبطين اعدادها منادين الفيغارو . الماتن . الطان . الخ حتى تهافت

الاهالي على مشتراها وكان مندرجاً فيها ما يأتي

« مداهمة ليلة »

« حدث في الساعة الثالثة ونصف من بعد نصف ليلة امس ان الكونت دي ك ... خرج من نادي التقدم وقصد منزله الكائن في شارع دومال غير انه لم يكد يصل الى منتصف شارع تايبوت حتى تصدى له رجل فاجاه بطعنة شديدة من خنجر اصابت جانبه الايسر فسقط الكونت غائباً عن الرشد فسلبه الرجل محفظة اوراق مالية كانت معه ثم فر هارباً وقد نجا واتيح له ذلك بفضل عربة كانت بانتظاره في شارع شاتوديم ولم يتمكن نفران من رجال الدرك ان يقبضا عليه فقصدا رئيسهما وابلغاه تلك الحادثة التي تشبه احدى وقائع روايات المؤلف الشهير الطيب الذكر بونسون دي تيرايل »

« فاجعة عظيمة »

« في الساعة الثالثة من بعد ظهر امس انفتحت احدى نوافذ منزل نمرة ٦٥ الكائن في شارع بروفنس الذي يقطنه الشيخ م .... وشقيقه السيدة د ... مع خادمة لهما وظهر منها امرأة ملوثة الوجه والملابس بالدماء وهي تصيح صياح الفزع واليأس ولكنها لم تلبث حتى اختفت كأن احداً جذبها من خلفها فاسرع احد رجال البوليس وصاحب المنزل الى الصعود ليقفا على جلية الخبر فوجدا الشيخ م .... ممدداً في وسط احدى الغرف مطعوناً بسكين في قلبه وقد فارق الحياة وعلى بعد منه شقيقته د .... مشجوجة الراس مخدوشة الوجه مجروحة اليدين

غارقة في بحرٍ من الدماء وهي تئن الماً ولا تستطيع كلاماً غير انهـا
اشارت لهما الى باب هناك وكان مغلقاً فاتجه رجل الدرك نحوه وفي
الوقت نفسه فتح فجأةً واندفع خارجاً منه رجل اشعث صدم الجندي
صدمة قوية القته الى الارض ثم عول على الفرار وكان صاحب المنزل
قوياً جسوراً بدنا فوقف في طريقه وقبض عليه ثم تواردت سكان
تلك الناحية واسعفوا الرجلين بالمحافظة على ذلك القاتل الجريء القوي
القلب الذي كان يصارع مصارعة اليأس بصفة كادت تمهد له سبيل
الهرب واذ ذاك حضر نفر من رجال الضبط واقتادوه الى قسم بوليس
شارع النصر حيث قال عند افتتاح المحضر واخذ سوءاله انـه يدعى
لوبير غير ان هذا الاسم لا يعتد به اذ هو متخذ كما صرح هو بذلك
وقد رفض قطعياً ان يذكر حقيقة اسمه رغماً عما بذلوه من الجهد
للتوصل الى ذلك وهو متوسط العمر حاد العينين اصفر الوجه كث
اللحية قذر الملابس

هذا ما وصل الينا الى الان وسنوافي قرأ جريدتنا بكل ما يتسنى
لنا الوقوف عليه من خصوص هذه الحادثه »

. . . .

ظهرت جرائد اليوم الثالث لتلك الواقعة وكان منشوراً فيها ما يأتي

« فاجعة شارع بروفنس »

ان القاتل مصمم على عدم اشهار حقيقة نفسه وقد كان قصده السرقة
اذ انهم وجدوا معه اوراقاً مالية ذات قيمة عظيمـة وقد ملكت السيده

د ..... بعض قواها فاستفيد من مجمل اقوالها ما يأتي

دخل الجاني عليهما في ساعة كانت الخادمة متغيبه فيها اما دخوله عليهما فكان بصفة ابن شقيق لهما يقطن بالجزائر وكانا قد كاتبا والده ليبعثه لهما فيوصيا له بثروتهما لانهما اصبحا على قاب قوسين من الموت لسبب هرمهما ٠

وكان حبهما لابن شقيقهما هذا عظيماً بهذا المقدار حتى انهما تلقيا ذلك الدخيل الشقي بصفة جديرة بتلك المحبة غير ان السيده د ... ارتابت به لما نظرته من قذارة ملبوسه وتحققته من تغيير ملامحه ولكنها ما همت بان تستلفت انظار شقيقها الى هذه الامور حتى دخل به هذا الى غرفة الاستقبال حيث تخلص لوبير من يده وفاجأه بطعنة شديدة من سكين كانت معه فسقط الشيخ بدون حراك ولم تكد تنتشل هي من عقال ذهولها وذعرها واضطرابها حتى همت ان تصيح مستغيثة فبادرها بطعنة اصابت رأسها فشجته فغابت عن صوابها هنيهة ولم تلبث ان افاقت وتمالكت قواها قليلاً فألتجات الى النافـذة واخذت تصيح طلباً للمعونة فجذبها من خلفها وطعنها طعنة اخرى في عنقها فمنعتها من الصراخ ثم سقطت واهنة ٠ ولم يتم له ذلك الا بعد مشاجرة عنيفة تخدش فيها وجهها وتجرحت يداها ٠ وقد قلنا انها عنيفه لان الاولى كانت تصارع وتدافع حباً بالحياة والاخر يهاجم ويضايق ليجهز عليها طلباً للخلاص

فلما ان رآها سقطت كما ذكر وظنها قد ماتت اتجه نحو خزانة النقود وفتحها بآلة كانت معه ثم جعل ياخذ منها ما تصادفه يداه

وبينا هو كذلك واذا به يسمع وطء اقدام رجل الدرك وصاحب المنزل الذي يسكن الدور السفلي منه فاسرع بالاختفاء داخل تلك الغرفة التي خرج منها كسيل جارف حالما سمع بوقع خطوات رجل الدرك حينما كان متجهاً نحوها واخذه في طريقه كما سبق القول

وقد يئسوا من معرفة حقيقة نسبه لانه لا يتكلم الا نادراً ولا يجاوب الا اذا لاح له من جوابه فائدة تعود عليه .

ويأملون شفاء الانسة د.... »

الفصل الرابع

« ميرانثيه »

كانت حنة في اليوم التالي لزيارتها كلامار جالسة تطرز وامامها اناء من الخزف فيه باقة رياحين بعث لها بها الموسيو بيداش وجورج واقف يرنو الى هـذه الازهار الزاهره باعجاب وسرور زائدين ثم انتهى به الامر ان دنا من المنضدة ودار حولها مراراً ثم اوقف شقيقته عن العمل بان اشار لها الى الباقة وقال انظري يا اختي الى هذه الوردة ما ابدع منظرها . انها زاهية لطيفة وشذى عبيرها ملأ المكان فانا اريد ان اضعها في اناء اخر على حدة وانظري الى ذلك البنفسج ما ابهج مرآه وازكى رائحته فانا ارغب ان تزيني به صدرك . وكانت الفتاة شاخصة الى شقيقها مصغية لحديثه غير انها لم تجبه بكلمة فطوقها بذراعيه

وقال مالي اراك يا اختي العزيزه لا تتكلمين ولا تبسمين كعادتك . انت مريضة فابتسمت الفتاة ابتسام البوءس وقالت لا يا اخي فوضع يديه اللطيفتين على خديها الورديين وقال فاذن اتقبلين بما عرضته عليك قالت كلا يا جورج انني لا اقبل به فصاح الغلام متوجعاً ولِمَ يا اختي قالت انسيت حزننا على والدك يا جورج . ان هذا الحزن يحرمني من ذلك يا اخي فانَّ الغلام انة محرقة ثم قال دعيني اذن انثر او راق هذه الزهور ثم القى بها من النافذة اذ لا فائدة منها لا سيما وانك لا يمكنك ان تتزيني بها قالت كلا يا جورج بل ابقها كما هي لان منظرها يشرح الصدر ورائحتها تنعش القلب قال وان يكن هذا حقيقي الا انني اريد ... فقاطعته بقولها كفاك كلاماً فقد اضعت وقتي سدى فاحمر وجه الغلام وقال اهكذا تهينينني يا اختي قالت اجل لانك صرت ثرثاراً فابتعد عنها خجلاً ثم جلس على مقعد مغضباً وقد اعرض عنها تماماً

فاشفقت اخته عليه ثم تركت شغلها لساعتها واقبلت عليه تسترضيه فقال لها اراك تبذلين الجهد في سبيل دوام سروري فلماذا تسعين بعض الاحيان لتكديري يا اختي قالت حاشا لي من ذلك يا اخي غير انك لا تفاتحني الحديث الا في ساعات عملي بما يجعلني لا افهم لقولك معنى ولا لكلامك مغزى قال يا اختي العزيزة انني احبك كثيراً ومن الآن لا اخاطبك وانت منهمكة بعمل ما قالت اتصدق يا اخي قال وهل من شك في ذلك يا اختي قالت ربما يا اخي قالت اتريدين

برهاناً اجابت وهذا غاية ما ارجوه قال واي برهان تريدين قالت هو ما تفرضه انت قال ايكون مقبولاً منك قالت اجل قال حسن فهل يوافقك ان نتعانق ثم نقبل بعضنا قالت برهان لطيف قد قبلت به على انه ينقصه شيء قال واي شيء تعنين قال هم شهود هذا البرهان قال ان الحق في جانبك ولكن هل من موجب لذلك يا اختي قال اجل والا فانني ابيت اعتقد بعدم صحة برهانك فلبث الغلام مفكراً ولم يلبث حتى صاح جذلاً أستشهد بهذه الزهور التي عكرت صفاء افراحي قليلاً يا اختي قالت ما احسن ذلك غير انها ستذبل فناقي بها من النافذة بما يجعلك في حلٍ من وعدك يا اخي فارتبك الغلام في امره واخذ يمعن فكرته توصلاً الى ما يرضي شقيقته

وبينما هو كذلك وحنة تسارقه النظر جذلى لرؤيتها اياه مجهداً ذاكرته ليهتدي الى ما يؤيد به وعده وبرهانه واذا بالباب قد فتح عليهما بهدوءٍ ودخل رجل تلوح عليه سيماء المهابة

فالتفتت الفتاة وما كادت تقع ابصارها عليه حتى صاحت مندهشة سيدي ميرانتيه ما احسن صنيعك واكرمك لمجيئك

فظهرت على الرجل علامات التأثر والاشفاق وقال نعم هو ميرانتيه الذي تلقى رسالتك واتى ملبياً داعي الصداقـة التي كانت تربطه بوالدك . لقد كان في ظني انك ظللت مقيمة بمنزلك الاصلي غير ان ظني هذا كان وهماً ولم اهتدِ الى محل سكناك هذا! الا بعد عناء شديد قالت اشكرك جزيلاً يا سيدي فمتى حضرت قال منذ يومين فقط

ولم يكن يخطر في بالي قط ان اجد من عاشت عيشة الرفاهية والهنأ في حالة كهذه اي تعيسة تكتنفها الاشجان وتحوق بها محن شظف العيش قالت لقد الغيت ذلك يا سيدي وتناسيت ماضي حياتي وما عدت افكر به على الاطلاق وخصصت حاضري ومستقبلي لراحة جورج والاخذ بثار والدي ·

وكان جورج لم يزل يفكر للاتيان بما طلبته منه شقيقته فلما ان اعياه هـذا الامر انسحب داخل غرفة اخرى وهو دائب على البحث واعمال الفكرة

وقال ميرانتيه انني كما تعلمين يا ابنتي لست بذى ثروة تذكر غير انني مع ذلك لا اتوقف عن مساعدتك والاخذ بناصرك وقد غادرتك في وقت لم تسمح لي فيه الفرص بان اعلم ما تم في مسألة والدك فهل لك ان تقصي عليَّ ما فاتني من معرفته لاكون على بينة مما جد قالت حباً وكرامة يا سيدي ثم روت له حادثة الخزانة الحديديه وسحب النقود من مصرف فرنسا بمعرفة رجل مجهول ثم اتت له على ذكر اعمال بيداش المدهشه وما وصلت اليه ابحاثه وهنا سردت له مضمون المراسلات التي تبودلت بين والدها وامرأة تدعى جيانا الى ان قالت ومن المؤكد ان والدي كان يعرف هذه المرأه حق المعرفه وقد كنت انت صديقه الحميم الحافظ لسره فلا بد ان تكون عليَّ علم من حقيقة امر هذه السيده فارجو منك ان لا تضن على بما تعرفه عنها فلم ينبس ميرانتيه ببنت شفه وظل مفكراً غير انه لم يلبث حتى قال بعد صمت طويل جيانا ··· جيانا ···

انني اعرف هذا الاسم ولكن اين سمعته ونظرت صاحبته ياترى ؟ . . .
قد تذكرت . لقد كان ذلك في بونس ايرس . فصاحت حنة بحرارة هذه
هي بعينها لان كلمتي بونس ايرس مذكورتان خلال سطور تلك المراسلات
التي افدتك عنها قال اعلى يقين انت من ذلك يا ابنتي قالت اجل يا سيدي
فلا تتأخر عن ان تطلعني على كل ما تعلمه عنها قال لقد كنت ربانًا
لسفينة شراعية القيت مراسيها في بونس ايرس سنة ١٨٤٨ وكانت
صداقتي لوالدك رحمه الله قديمة متينة فصادفته هناك ودعاني الى منزله
فلبيت طلبه حيث قدمني لسيدة تدعى جيانا وهي جميلة الصورة جذابة
المنظر متوسطة العمر وقد كان متخذًا اسم رودوريق خوفًا على نفسه
من فتك الاسبانيول الذين كانوا يبغضون الفرنساويين في ذلك الحين
بغضًا ما بعده بغض آل امره الى استفحال المشاكل واندلاع نيران
الثورات الداخلية كما هو معلوم

اما جيانا الجميلة المذكورة فقد كانت عشيقة والدك وعلى ظني
ان له منها ولدًا . لا تؤاخذيني يا ابنتي على تفوهي بما ذكرت لانه
كان الاجدر بك ان لا تسمعي كلمة منه ولكن هو سياق حديثنا او
بالحري مركزنا الحالي نحو قاتل والدك حملني على ان اوضح كل شيء

فقالت الفتاة وقد جلست امام منضدة اخرى عليها دواة وورق
وجعلت تكتب كلا يا سيدي بل انني اشكرك على هذه التعليمات
الغزيرة الفائدة التي سيكون لها شأن مهم وتجدني آسف لقولك لي
انه كان الاجدر بي عدم سماع هذا الحديث لان هذا الامر صار

من حق كل فتاة غيري اذ انني اوقفت نفسي للانتقام وصار من المتوجب عليَّ معرفة كل امر له دخل في مصائبي

وحصلت فترة من السكوت

وكفت حنة عن الكتابة ثم التفتت نحو ميرانتييه فادركت لاول وهلة انه يجول في فكره امر يود كتمانه فدنت منه ثم قبضت على يديه وقالت متوسلة بربك يا سيدي لا تخفي عني شيئاً فزفر الرجل زفرة ثقيلة وقال ان ما بقي عندي من القول يعنيني شخصيا وقد ذكرت لي اسم بيداش وان هذا الرجل يجد في طلب القاتل فهل له ان يحفظ الاسرار ولا يبوح بها ابداً قالت اجل وانا كفيلة لما قلته ولكن اي موجب لسوءالك هذا يا سيدي قال هو امر ذو شأن او بالحري ذيل لحادثة قتل والدك او فصل يتمم اخر مشهد لهذه الرواية الغريبة التي تمثل بغاية المهارة فقالت مستفهمة ومن كان يا ترى ضحية ذلك الفصل قال هو انا يا ابنتي وارى انه ختام التمثيل كما سبق وذكرت لك لا سيما وان ممثله هو نفس من فتك بوالدك كما ساظهره لك .

قُتل والدك وهو حامل محفظة اوراق مالية سلبوه اياها وكان فيها رسالة مني له كنت بعثت بها اليه قبل هذه الحادثة بيومين . اما الرسالة المذكورة فانها . . . . . وهنا توقف ميرانتييه عن تتميم قوله ثم اصفر اصفراراً زائداً وطأطأ راسه بمجرد تذكره حادثة قديمة سيسردها على الفتاة غير انه لم يلبث حتى وضع يده على جبهته واردف يقول لقد صرفت اربعين عاماً من حياتي وانا عرضة لوخذ ضميري الذي

لهفوة ارتكبتها عن طيش وعوز بحيث انه كان الاحرى بي ان امنح العفو والغفران بدلاً من ان ايت هدفاً لضياع الشرف والخسران. اجل يا ابنتي فلقد ابتدأت حياتي من بعد ما بلغت اشدي باندماجي في سلك بحارة الدولة وكان من دأب زملائي المقامرة فجاريتهم في امرهم فكان نصيبي كنصيب كل مقامر اي الخراب والافلاس وكنت ألاحظ اثناء اللعب ان بعض النقود كانت تسقط من يد اربابها بدون ان ينتبهوا اليها فجعلت دأبي التقاطها وجمعها وكانت تلك اللعبة الجهنمية قد تأصلت فيَّ فما كنت ارتجع عنها وصرت اقامر بما اجمعه ومن الغريب انني كنت اخسر على الدوام كأن اوقات مقامرتي كانت توافق ساعات نحسي وقد ادركت ان جمعي النقود بهذه الصفة وعلى هذا النمط يعد سرقةً وسلباً غير ان هذا الفكر لم يلبث حتى زال من ذاكرتي وما عاد يخطر لي في بال فخلت ان ضميري ارتاح لهذا العمل وانه لم يكن كما ادركت وتوهمت الا ان زعمي هذا لم يكن واسفاه في محله اذ انني علمت اخيراً ان الميسر يميت الضمير ويقتل الشعور ويطفئ جذوة الحاسات الحية. اجل يا ابنتي فلقد وجدت ذات مساء ان احد زملائي الذين صرفوا ليلة اليوم السابق على مائدة القمار وربح ربحاً طويلاً قد انسحب واضطجع على مقعد حيث خيل لي انه نام وكانت النقود التي ربحها قد استبدلها باوراق مالية وضعها ضمن محفظة دسها في جيبه فهبت في نفسي روح طمع شريرة ما امكنني ان اتغلب عليها فقلبت انظاري في اللاعبين فالفيتهم لاهين بحساب ما في ايديهم من ورق اللعب

فدلفت نحو زميلي المذكور رغبة في سلبه محفظته وحرمانه من مكسبه غير ان اناملي لم تكد تمس جيبه حتى وجدته قد انتصب امامي ثم صاح عابس الوجه مظرباً حنقاً اننا لم نغش يا اصدقائي فان المسيو بونسات لص كما قلنا . فصحت اذ ذاك صيحة الاواه وادركني الندم اذ ادركت انني وقعت في شرك نصبوه لي لان احدم لمحني حينما كنت التقط النقود التي كانت تتساقط منهم ونبههم على ذلك فكذبوه فالح باقناعهم فقر رأيهم على نصب هذا الشرك الذي سقطت فيه بدون سابق علم مني . ورفيقي الذي اكتشف عملي والذي ربح تلك الاموال التي اردت سلبه اياها مثل دوره بمزيد المهارة حتى جعلني اقدم على فعل ما ذكرت حاسباً انه غافلا مع كونه كان بالحقيقة يقظان . ومضى عليّ بعد ذلك ثلاثة اشهر صرفتها فيما بينهم بين الخجل والاحتقار والسخط والازدراء ثم طردت بعدها من خدمتي هذه وكنت على معرفة تامة بفنون الملاحة فترأست مركباً شراعياً تجارياً وصرت امخر بـه عباب البحر واتنقل في الاساكل عاملاً على طرد هذه الذكرى المشؤومه من مخيلتي ولكنها كانت تزداد رسوخاً .

وكان والدك رحمه الله كثير الترحل والتنقل فتعرفت به ابان ذلك وقد كنت اقتصدت شيئاً كثيراً من مرتباتي فاتيح لي الزواج بامرأة احببتها غير ان زواجي هذا كان شؤماً علي ايضاً لان امراتي ماتت بعد قليل من زواجنا مخلفة لي ولداً . فاوقفت نفسي لراحة هذه الثمرة المقدسة التي اعزها معزة عظيمة والتي اصبحت هدفاً لسهم نافذ مسموم يكاد

يمزق والهفى عليها احشائها ·

ان اسمي الحقيقي هو لويس بونسات غير انني ارغمت على اخفاء هذا الاسم اثر تلك الحادثة التي شوهت تاريخي وجعلتني مضغة في افواه رفقائي واتخذت اسمي الحالي ميرانتيه ·

وقد اطلق عليّ هذا الاسم وصرت معروفاً به لدى الجميع

والان وقد تمم ولدي دروسه الابتدائية واخذ يستعد لدخول كلية سان سير فقد وجب عليه ان يظهر لمديرها شهادة ميلاده لان من جملة شروطها ان ما من تلميذ يقبل فيها الا متى كان حاملاً هذه الشهادة التي من خصائصها انها تشتمل على اسم الوالد وكنيته وهو الامر الذي لا يوافقني على الاطلاق اذ متى اطلعوا على شهادته هذه فانهم يضطرونه ان يتقلب باسم بونسات الذي ابذل كل مرتخص وغالٍ في سبيل دوام اخفائه لا سيما وانني اخشى ان يكون بين رفقائه احد ابناء من يعرفون ماضي حياتي فيفتضح سري واحمر خجلاً امام ولدي لدى وقوفه امامي ومناقشتي اياي حساب ما اقترافه اثناء نزقي ·

وقد اهتديت اخيراً الى ان والدك رحمه الله له معرفة برئيس قلم المواليد فحررت له رسالة مطولة مبيناً له فيها كل ما ذكرته لك ورجوت منه ان يبذل ما في وسعه لدى الرئيس المذكور ليتحصل لي على شهادة باسمي المتخذ او على امر يخولني حق تغيير اسمي الاصلي الذي اجهد دائماً باخفائه

وكان من عزمي ان افاتحه بهذا الامر شفاهياً الا ان شدة الخجل

اقعدني عن ذلك فعمدت الى تحرير الرسالة الآنفة الذكر .

ومن نكد الطالع وسوء الحظ ان هذه الرسالة كانت مع والدك حينما قتل وقد اصبحت بين يدي من قتله فجعلها سلاحاً ماضياً اشهره ضدي وهددني بان يعلن بواسطتها على رؤوس الملا فعلتي

وتأييداً لذلك اليك رسالة استلمتها يوم وصولي بالنفس . واذ قال ذلك وضع يده داخل جيبه واخرج رقعة قذرة نشرها وقرأ ما يأتي

« سيدي »

« اذا اردت ان ولدك لا يعلم بانك رجل ملطخ ماضي الحياة »
« بوصمة عار شنيعة وهي السرقة فعليك ان تدفع مائة الف فرنك »
« ومتى قبلت بهذه الشروط فسلم المعلم جور تاجر النبيذ القاطن »
« في شارع بولنسو رسالة باسم المسيو جستاف تبين فيها الكيفية المؤدية »
« الى قبض النقود »
« لا تحاول معرفتي ولا تجرب مراوغتي والا فان ولدك يعلم »
« بكل شيء »

« جستاف »

فصاحت عندئذٍ حنة اه يا سيدي ان هذا الرجل وقف على سرك من الرسالة التي كانت مع والدي فمن المؤكد اذن انه القاتل فقال ميرانتيه هذا هو فكري انا ايضاً يا ابنتي اذ لولا ذلك لما كانت وقعت رسالتي في يده واري انه من الضروري ان نلقي القبض عليه عاجلاً لئلا ابطيء عليه بالرد فيفشي سري ويتصل الخبر بولدي فيلعنني

ثم ينتحر قالت كن مطمئناً يا سيدي فساعلم المسيو بيداش بكل امر قال لقد اتكلت عليك ووضعت شرفي وحياة ولدي بين يديك فاحرصي عليهما كثيراً واياك من التهاون بهما لئلا يصابا بمكروه قالت انك لم توص طائشة فكن ناعم البال قال اشكرك يا ابنتي وليوفق الله مسعانا فالى الملتقى قالت والى اين انت ذاهبت انت قال الى حيث ولدي ينتظرني واري انني ابطأت عليه كثيراً قالت اذهب يا سيدي ومهما يكن من افعال ذلك القاتل الغشوم فاننا سنتغلب عليه ونقتص منه فالى الملتقى ولا تنقطع عن زيارتي ابداً .

ثم تصافحا

وفي هذه الهنيهة خرج جورج من الغرفة قائلاً يا اختي العزيزة انني وجدت شاهدي قالت واي شاهد تعني قال هو الذي سيحضر معانقتي وتقبيلي اياك اي برهاني على انني لا افاتحك بحديث ما متى كنت منهمكة باعمالك قالت اكنت تفكر في ذلك طول هذه المده يا جورج قال نعم يا اختي قالت ما الطف وفأ وعدك وحرصك على تنفيذ قولك فمن هو شاهدك فاشار الى ميرانتيه وقال هذا هو يا اختي فاستفهم الرجل عن حقيقة الخبر فافاده جورج بما جرى فقبل ميرانتيه بسرور ما عرضه جورج على حنة واذ ذاك تعانق الاخوان وقبلا بعضهما مراراً

الفصل الخامس

« بدء العمل »

كانت حنة تغتنم فرص اعتدال الطقس لتخرج بجورج ترويحاً للنفس

فحدث بعد ان مضى يومان على زيارة ميرانتيه لها ان جورج كان مطلاً من نافذة يتلاهى بالنظر الى المارين وكان الوقت صحواً والشمس مشرقة مرسلة اشعتها الذهبية الى اطراف الكون فلم يلبث حتي ترك النافذة جدلاً واتجه نحو شقيقته وهو يقول ما اجمل طقس اليوم يا حنة فالاوفق لنا ان نخرج لنتنزه قليلاً فلبت الفتاة طلب جورج ولم تعتم حتى خرجت معه وهي ممسكة بيده

وبينما هما ينتقلان من رصيف الى آخر لمحت الفتاة شاباً خيل لها انها تعرفه فجدت في مسيرها ولما ان صارت على مقربة منه وقفت مرتبكة وقد اعتراها بعض الاضطراب ٠ وكأن الشاب قد شعر بنفس ما شعرت به اذ التفت كمن يكون اصيب بشيء واراد معرفة مصدره فوقعت ابصاره على حنة فعبق وجهها باحمرار مفتن وللوقت اقبلت عليه قائلة انني الآنسة لا سيدات وان لم تكذبني ظنوني تكون انت المسيو باتريك اوكيدي فصاح الفتى اه يا سيدتي ما اجمل هذا الاتفاق فلقد كنت ابحث عنك لاحادثك بامور ذات بال قال انني اقطن

بالقرب من هذا المكان في حي كليشي نمرة ٢٠ فبعد ساعة تجدني هناك قال اشكرك يا سيدتي ففي هذا الوقت اكون عندك اللهم ان لم تكن زيارتي هذه لتثقل عليك قالت ابداً يا سيدي فانها توليني سروراً ما بعده سرور فشكرها الفتى ثانية ثم حياها مبتسماً وابتعد وهو يقول ما اسعد حظي فانني اقابلها مرتين في يومي

ولما ان عادت حنة الى منزلها وجدت بيداش بانتظارها فهرعت اليه تشكره على زيارته اياها ثم جلست بجانبه وسردت عليه ما حدث لها في كلامار وما وقع لميرانتيه ثم ناولته ورقة فيها شرح وافٍ عن كافة هذه الحوادث

فقدّر بيداش لهذه التعليمات اهمية كبرى ووضع الورقة في جيبه

وفيما هما كذلك دخل باتريك باشا فتلقته الفتاة مرحبة ثم عينت له كرسياً فجلس وهو يقول لقد افادني المسيو رافينو عما وصلت اليه تصفية تركة المرحوم والدك والحق يقال انك متحملة وطأة مصائب عديدة بصبر وثبات عجيبين اما من خصوصي انا فقد سبق واعلمتك ان الاموال التي اودعتها مصرف والدك ما كانت تخصني على الاطلاق فلما ان وقفت من رافينو على ما ذكرت لك صفيت اشغالي ثم جمعت اموالي وكانت مضاهية لما اوئتمنت عليها فحمدت الله على ذلك ودفعتها لاربابها في نظير تلك فصاحت الفتاة آه يا سيدي ومن قال لك ان تفعل ذلك فلقد طوحت بنفسك الى وهدة الضيق ووادي الفاقة والشقاء قال كلا فقد تبقى لي من اموالي هذه شيء يسير استعنت به

على فتح قاعة سلاح واخذت في تعليم البعض من معارفي واصدقائي وبما انني احسن استعمال السلاح ولي خبرة تامة في المصارعة اليدوية فقد تهافت عليَّ الطلاب وانهالت عليَّ موارد الكسب حتى اصبحت لا افكر باموالي السابقة ابداً غير ان من دأب الدهر ان لا يبقى على راحة بال احد فقد قرأت اخيراً في احدى الجرائد الانكليزية ان السير جون فيتز جرالد قد وصل الى (نجين - فورو) وهو مكان صيد الوحوش الكاسرة في السنجال فصرت اخشى ان عدم موافاتي اياه في تلك الادغال يجعله يظن فيَّ خوفاً او تقصيراً اي مما انا بريء منه

ورأى بيداش من اوكيدي حرية القول وما كان جلس معه من قبل فشخص اليه متفرساً

فادركت حنة معنى ذلك التفرس واسرعت فعرفت الرجلين ببعضهما ثم قصت على كل منهما ما صنعه الاخر معها فصاح اوكيدي عندما وقف على اعمال بيداش اه يا سيدي فما اقدس عملك وها انا مذ الان اوقف نفسي لتلبية اشارتك واسعافك فابتسم بيداش مرتضياً وقال اشكر فضلك يا سيدي ولربما احتاج قريباً لرفيق شديد الساعد قوي اليد اعتمد عليه في اجراآتي و . . . . فقاطعه اوكيدي بقوله انك لا تجد افضل مني وقد قاتلت الاسود وتصارعت مع اغلب الوحوش الضارية على اختلاف انواعها فالباريسيون لا يكونون اقوى مراساً من الاسود ولا اشد فتكاً من بقية الحيوانات المفترسة فارتاح بيداش لهذا التصريح وقال حسن يا سيدي فقد وجدت فيك مطلوبي ويمكنني ان اعتمد عليك عند تنفيذ اعمالي فابرقت اسرة

الفتى وقال وعلاوة على ذلك يا سيدي فان لي صديقاً او بالحري تلميذاً ينفعنا كثيراً ولا يتاخر عن مساعدتنا ابداً وهو الكونت دي كازرت فصاح بيداش اهو الذي فوجئ في شارع تايبوت برجل طعنه بخنجر بغية سلبه ما كان معه من الدراهم قال هو ذاته فمن اين اتصل بك هذا الخبر قال من الجرائد يا سيدي فهل ما روته عنه صحيح قال اجل وقد امتلك قواه ثانية وشفي من جرحه البليغ باعجوبة الهية قال وماذا اجرى بعد ذلك الم يطلب القبض على الجاني قال كلا يا سيدي وقد اكتفى بان طلب من رئيس الشرطة ان يسلمه الملابس التي القاها المعتدي عليه من العربة ليحتفظ عليها كتذكار لهذه الحادثة المشؤومة قال وهل صرحوا له باخذها قال اجل ولم يبخلوا عليه بها فصاح عندئذٍ بيداش الا يمكني ان اراها قال وليس اسهل من ذلك يا سيدي فعليك ان تحضر غداً عندي في مكان عملي لنذهب معاً عند الكونت وتاكد انه سيحسن وفادتك ولا يتأخر عن اجابة طلبك قال حسن ففي اي ساعة اجدك قال في الوقت الذي تريده انت لانني دائماً هناك ثم انتصب واقفاً على قدميه وقال اراني اطلت مكثي فالى الملتقى اذن يا سيدي فوقف عندئذٍ بيداش بدوره ثم حياه بان شد على يده بانعطاف وقال الى الملتقى يا صديقي

واذ ذاك تحول نحو الفتاة وقال اما انت ايتها الآنسة فثقي باخلاصي لك ولا تتاخري عن استدعائي متى احتجت اليَّ فقالت باسمة اشكرك ياسيدي فلا عدمتك من ودودٍ نافع ثم تصافحا وقد شعرا ان يد كل منهما ترتعش في يد الاخر

ولما ان انفرد بيداش وحنة افتتحت الفتاة الحديث بقولها والان فعلام عولت . ان افادات ميرانتيه ذات اهمية كبرى وعلى ظني انه يجب ان لا نهملها فاجابها بيداش اجل . اجل وارى ان صاحب هذه الرسالة هو هو نفس قاتل والدك فكيف نصنع ؟ ... انلقي القبض على جور ونستنطقه بشأن ما يعلمه عن ذلك الذي يدعى جستاف ؟ ... كلا فمن العبث محاولة ذلك اذ يمكنه ان يقول انه لا يعرفه ! ... انهجم على حانته ونوقف كل من فيها لعل جستاف هذا يكون من جملتهم ؟ ... عمل ربما يكون وخيم العاقبة اذ لا بد ان يكون له اخوان ينتقمون منا بان يشهروا ويذيعوا سر ميرانتيه وهنا الطامة الكبرى ! فاذن ماذا يجب ان افعل ؟ ...

اخذ يفتكر ولم يلبث حتى قال اذهب بنفسي الى تلك الحانة وهناك اهتدي الى اشياء كثيرة

ثم غاص ثانية في بحار تأملاته واخذ يتمتم ويضرب جبهته بيده كانه نسي وجود حنة وبعدئذٍ صاح على حين فجأة ايمكنك الان ان تكاتبي الموسيو ميرانتيه قالت اجل يا سيدي قال حسن . حسن فاكتبي له رسالة طويلة اشرحي له فيها كيفية وقوفي على سره منك ثم اذكري له ان يحرر رقعة لجستاف المذكور يعلمه بها انه مستعد لاجابة طلبه غير ان المبلغ الذي يطلبه منه جسيم جداً ويرجو منه ان ينقصه في شيء . اما هذه الرسالة فيجب ان تصل الى المعلم جور الليلة الساعة التاسعة تماماً حيث اكون انا هناك لاعرف من ذا الذي سيأتي وياخذها فصاحت الفتاة آه يا سيدي ما هذه الجسارة العظيمة الا تخشى اشتباههم فيك قال كلا بل كوني مطمئنة لاني

ساعمل كل ما ينبغي حتى لا ادعهم يعلمون من امرنا شيئاً وقد قلت من امرنا لانني ساصطحب الموسيو اوكيدي كي لا ياخذك عليَّ القلق قالت لقد هدأ بالي من نحوك وعلمت بما ستجريه ولكن انا ماذا يجب ان اعمل قال لا تهملي امر جربليش فلعله ينفعنا قالت ساذهب غداً الزيارة والدته واحادثها ملياً قال ان كل امورنا سائرة على ما يرام ثم وقف يريد الانصراف وقال وها انا ذاهب فلا تنسي شيئاً ثم حياها وخرج

الفصل السادس

« القبعة والصدرة »

في الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم كان بيداش يجتاز ماشياً الطريق الموءدية الى قاعة سلاح اوكيده وكان هذا قد انتهى من اعطاء دروسه لطلابه فتلقاه بمزيد الايناس ثم وضع يده في يده واتجها معاً قاصدين منزل الكونت دي كازت الكائن في شارع دومال

وكانت قاعة سلاح اوكيدي كائنة في شارع انجو يعلوها عدة غرف اتخذها مأوى له

وفيما هما في الطريق جعل بيداش يروي لاوكيدي ما صمم على اجرائه في ليلة ذلك اليوم بدون ان ياتي له على ذكر السبب او الغرض من هذه المامورية الخطرة حباً في عدم افشاء سر ميرانتيه فقال له اوكيدي بما معناه اتكل بعد الله عليَّ يا صديقي فسامثل دوري بغاية المهارة

وكان الكونت دي كازرت جالساً على مقعد يدخن وكان اصفر الوجه هزيل الجسم بادية عليه آثار الضعف فرحب باوكيدي ترحيباً جميلاً ثم قدم له هذا بيداش وافاده عن الغرض الذي يرمي اليه بزيارته هذه فاستدعى الكونت خادماً وامره ان ياتي بملابس من اراد ان يفتك به والتي لم يضن عليه بها رئيس الشرطة فذهب الخادم وما تم ان عاد حاملاً على ذراعه قبعة وصدرة فتناولهما بيداش منه وما وقعت انظاره على القطعة الثانية منهما حتى صاح صيحة الدهشة اذ ابصر الكم الشمالي منها ملوثاً بالدماء ولم يلبث حتى قال منذهلاً عفواً يا كونت فهل انت طعنت في جنبك الايسر فاجاب اجل ياسيدي وكانت طعنة شديدة كادت ان تذهب بحياتي فتمتم بيداش ان هذا غريب فسأله الكونت اتبينت من هذه الصدرة شيئاً فات رجال البوليس ادراكه ياسيدي فابتسم بيداش امتهاناً ولم يجبه الا بقوله الا تتذكر اذا كان من فاجأك طعنك بيده اليمنى او اليسرى يا كونت فاندهش دي كازرت من هذا السوءال واخذ يفكر . فاستطرد بيداش قائلاً ان سوءالي هذا لذو شأن عظيم اذ ان تلوث الكم الايسر بالدماء يجعل للشك مكاناً بان هذا الرجل اعسر فصاح عندئذ الكونت انك مصيب في قولك يا سيدي وظنك في محله لانه طعنني فعلاً بيده اليسرى قال امن عادتك ان تقصد منزلك بعد خروجك من النادي ماشياً على قدميك اجاب اجل ياسيدي فما اقبحها من عادة لا يمكنني ان اقلع عنها ابداً قال اوكنت راجلاً تلك الليلة قال اجل ياسيدي وكان

ربحي عظيماً لا يقل عن خمسة الاف دينار تقريباً فقال اوكيدي متداخلاً في الحديث ايسلب ذلك اللص مثل هذه الاموال ثم تقوم عليه قائمة الجرائد لاقتنائه مركبة جميلة ذات جواد جيد يخلص بها نفسه عند الضرورة !!

وكان بيداش مستسلماً لافكاره ساهياً فلم يدرك ما تلفظ به اوكيدي ثم قال موجهاً حديثه الى الكونت لقد انتهت مهمتي لديك يا مولاي ولم يعد عندي ما اريد ان استفهمك عنه فاشكرك جزيلاً على حسن وفادتك لي وتأكد ودادي لك فقبض الكونت على يدي بيداش وقال ما الطف منطقك وارق احساساتك فاشكر استاذي اوكيدي على اتيانه بك اليَّ واهنئ نفسي بارتباطها بصداقة رجل مثيلك وتيقن ثقتي بك فخجل بيداش لدى سماعه هذا الاطراء وتمتم قائلاً لقد غاليت في مدحي يا كونت مع انني اشعر بعدم اهليتي لذلك فقال بحرارة كلا يا سيدي بل انت جدير باكثر منه وقلبي يحدثني بانه سيكون لك شأن مهم مع هذا الجاني وانك انت الذي ستلقي القبض عليه فلم يرَ بيداش بداً من ان يقول لقد غمرتني يا مولاي بفضلك وما عدت اعرف باي لسان اشكرك وارى ان ضيق وقتي يضطرني لان اطلب منك رغماً عني الاذن بالانصراف مزوداً بقطعتي ملابس الجاني فاسمح لي بهما لامهد سبل اجراآتي التي عولت على ان انفذها منذ اليوم وساوافيك بكل ما يحدث قال حسن يا سيدي ولكن لا تتأخر عن زيارتي ابداً فصافح عندئذٍ بيداش الكونت بانعطاف واحترام زائدين وخرج مع اوكيدي وهو يلهج بذكر

دي كازرت ويثني عليه

الفصل السابع

« الرسالة »

وذهب بيداش بصديقه عند احد رفقائه او بالحري زملائه القدماء وهو المسيو بروزميش الذي كان احد مفتشي ادارة الضبط وقد كان مستحفظاً على ثياب متعددة الانواع تمكنه من ان يغير بواسطتها زيه كيف يشاء

ولما ان اطلعه بيداش على الغرض من مجيئه اختار له ملابس صانع اقفال ثم نصح لاوكيدي ان يتخذ هيئة بناء

وبعد قليل كانا يقصدان مطعماً ليتناولا فيه العشاء وكانت الساعة اذ ذاك السادسة

وكانا سائرين جنباً لجنب وهما يكادا ان لا يعرفا بعضهما لتمام تغير هيئتيهما لا سيما بيداش لقبعته الكبيرة وسرواله الواسع الباهت اللون وحقيبته التي كان يحملها على كتفه وفيها ما ينبغي لكل مشتغل بهذه المهنة

اما اوكيدي فقد كان مغبر الملابس ملوث اليدين والوجه بالجير

وكان بيداش عاقلاً حكيماً لا يباشر عملاً بلا تروٍ فاستقصي عن حقيقة حالة حانة المعلم جور فافادوه بانها منبع المشاكل ومقر العراك

فاحتاط لنفسه ووضع في حقيبته غدارة

وكانت الساعة تدق النصف بعد الثمانية عندما ولج بيداش واوكيدي حانة المعلم جور

وكانت الحانة المذكورة مشتملة على مكانين احدهما فيه مناضد قذرة من الخشب حول كل منها كراسي من قش جالس عليها بعض من يترددون على الحانة اما الاخير فكان فيه مكراة (بيلياردو) كامل المعدات ولكنه وسخ ممزق القماش يعلوه الغبار

فجلس الصديقان في المكان الاول واختارا موضعاً يمكنهما من رؤية كل ما يحدث في الحانة ثم طلبا ورق لعب فاحضره لهما فتى نحيف الجسم عابس الوجه تلوح عليه علامات العياء من كثرة السهر ثم سألهما ماذا يتناولان فطلبا قهوة

وكان المعلم جور يلاحظ زبائنه بمجرد النظر ليس الا وهو واقف في المكان المعد لصاحب كل حانة وغليونه في يده يتصاعد منه دخان كثيف

وظهر موزع البريد على باب الحانة وكانت الساعة اذ ذاك النصف بعد التاسعة . فهرع الخادم اليه فناوله رسالتين سلمهما الى المعلم جور فقرأ هذا عنوانهما ثم وضع الأولى منهما في درج على يمينه قفله بمفتاح معه ثم فض ختم الثانية وتلاها بامعان غير انه لم يأتِ على اخرها حتى مزقها ووطىء قطعها بقدميه

وكان بيداش واوكيدي يموهان انهما يلعبان بالورق لان انظارهما كانت لا تتخلى عما في الحانة فلم يفتهما ما اتينا على ذكره

ومن جهة اخرى فان المعلم جور كان ينظر اليهما المرة بعد المرة بعين الارتياب لعدم سابق مجيئهما عنده فلحظ بيداش منه ذلك وخشي نتيجته ثم اراد ان يزيل ما خامره فيهما من الظن فقام لساعته من مكانه ثم اتجه نحوه بعد ان اخرج من جيبه ساعة قديمة من النحاس قدمها له قائلاً ان صديقي ربح ما كان معي من النقود غير ان هذا لم يثنني عن مداومة اللعب معه لعل حظي يتحسن واسترد منه بعض ما كسبه فهل لك يا سيدي رغبة في ان تشتري هذه الساعة لاستئناف اللعب معه بما احصله من ثمنها فتناول جور الساعة واخذ يتفحصها ثم قال نعم اشتريها قال وبكم يا سيدي قال بستة فرنكات فبي بيداش ثم جعلا يتساومان ثمنها الى ان اتفقا على مبلغ انقده جور اياه وقد زال ما كان تولد فيه من الشكوك ثم اردف ذلك بان قدم له ولاوكيدي قدحين من النبيذ

واستمرا يلعبان حتى تناصف الليل واندهش بيداش اذ لم يرَ احداً دخل الحانة في اثناء هذه المدة

غير ان اندهاشه هذا لم يلبث حتى اضمحل اثر دخول عدة رجال بعضهم تلو بعض

ثم كفا عن اللعب واخذا يتسامران . وازدحمت الحانة بالآتين حديثاً وكانت ضوضائهم عظيمة

وكانت غلايينهم في افواههم فانعقد دخانها في سقف المكان وانفصل ثلاثة منهم جلسوا على انفراد وطفقوا يتهامسون

فبينا هم كذلك دخل رجل اخر طويل القامة قوي العضلات اتجه نحوهم وتحادث مع اصغر الثلاثة هنيهة ومن ثم تركهم وشانهم وقصد المعلم جور

فلم يفت بيداش ذلك كله وتتبع الرجل بانظاره

وتلقي جور هذا الانسان بقوله اهلاً بك يالابيف اتريد قدحاً من النبيذ الذي اشتريته اخيراً . انه جيد جداً وطعمه لذيذ للغاية فاشار له بالايجاب ثم اسر له كلاماً ففتح هذا الدرج الذي بجانبه واخرج الرسالة المعلومة ثم ناوله اياها خفية فدسها في جيبه ثم ازدرد قدح النبيذ صبرة واحدة وانثنى راجعاً الى مكان رفقائه

فهمس عندئذٍ بيداش لقد ناوله جور شيئاً وضعه في جيبه ثم شخص الى لابيف بصفة غريبة كأنه اراد ان يأخذ رسم ملامحه في مخيلته . وقد ظن ان هذا الرجل هو نفس جستاف خصمه العنيد الا ان جور دعاه باسم لا بيف وقد رآه قبض وشرب وارجع قدح النبيذ بيده اليمنى

وبينا هو كذلك يضرب اخماساً في اسداس تتنازعه عوامل الشك واليقين واذا بلابيف اشعل غليونه واخذ يدخن

فلاحظ بيداش انه باشر ذلك بيده اليمنى ايضاً

فزال عندئذٍ ما خامره من الريب وتحقق انه ليس بمن اوقف نفسه للقبض عليه ثم مال على اوكيدى وقال الا تعرف اى شيءٍ وضع ذاك الرجل في جيبه فاجاب كلا قال ان معرفته تهمني جداً

اذ ان خطتي تقضي بذلك لنعلم ان كان رسالة ام لا ٠ وفي الحالة الاولى يجب ان نعرف لمن هي مرسلة ٠ قال يجب اذن ان نأخذه من جيبه قال الك مقدرة على ذلك قال اجل وليس اسهل منه قال وماذا تريد ان تفعل قال الجثه الى معاركتي ومتى اشتد بيننا النزال اضع يدى في جيبه برشاقة واسلبه اياه قال واسطة لا يمكن ان نجد افضل منها الا انني اوصيك بان تكون على حذر اذ ارى له رفقاء قال كن مطمئناً فساعدى شديد وساحرمه الانتفاع بما اخذه من جور

....

....

لم يكن الرفقاء الثلاثة الذين جلس لابيف بينهم بعد ان اخذ الرسالة من جور سوى فيرتون وسيمون ولا كاز

وكانوا يتحادثون بمسألة لوبير ويثنون عليه لعدم تفوهه بكلمة ترشد رجال الشحنة الى اعمالهم

ومل لابيف الحديث فقال لفيرتون هل لك ايها الرفيق ان تلعب (البلياردو) فاجابه اجل يالابيف لانني سئمت الجلوس

واذ ذاك قام كل منهما من مكانه واتجها نحو المحل الاخر من الحانة اي الذي فيه البلياردو وشرعا يلعبان

فانفصل اوكيدي عن بيداش ثم قصد المكان نفسه وجلس يناظر لعبهما

وكان في فمه لفافة فجعل يرسل دخانها من فمه ببطء ويبتسم امتهانا

كلما خسر لابيف لعبة

فتضايق هذا الاخير وظهرت عليه علامات الغيظ المشفوع بفروغ الصبر

ثم اتى دوره ليلعب لان فيرتون اخطأ في اصابة الكرات

وكانت الكرة التي يجب عليه ان يجعلها اساس لعبه من جهة اوكيدي فتهلل بشراً لهذه الفرصة وفيما هو يصوب جعل عصا البلياردو تصيب وجه صاحبنا فصاح هذا مغضباً ما هذا يا سيدي يظهر ان خسارتك افقدتك البصر حتى ما عدت تميز بين راسي وبين كرة البلياردو فتوقف لابيف عن استئناف اللعب وقال عابساً ماذا تقول اجاب اقول انه فضلاً عن عدم المامك باللعب فانك ضعيف النظر او بالحري اعمى ولا يحق لك ان تلعب مطلقاً فصاح لابيف ان هذا الرجل اهانني يا فيرتون فلنوقف اللعب قليلاً ثم هجم على اكيدي يريد ان يصفعه بيده فوثب هذا عن كرسيه وباسرع من لمح البصر القاه بعيداً عنه ثم تلقى لابيف وجهاً لوجه وقبض عليه بيديه ثم دفعه الى الوراء بعنف فسقط على منضدة

فحصلت ضجة عظيمة مشفوعة بمظاهر الاندهاش

وقام لابيف من سقطته كثور ثائر ثم استأنف الهجوم على اوكيدي قابضاً على كرسي ليضربه به فتلقى الشاب الضربة بساعده الايسر وفي الوقت نفسه ضربه باليمنى ضربة شديدة اصابت صدره والقته صريعاً

فتعاظمت دهشة من في الحانة وصاحوا معجبين باوكيدي

ورأى هذا ان العراك على هذا النمط لا يجديه نفعاً فانتظر حتى هجم

عليه لابيف من جديد حيث قبض عليه جيداً ثم احاط جسمه بذراعيه

فصاح لابيف صيحة القنوط ثم اشتدت المنازلة بينهما لان اوكيدي كان يريد ان يجلد بخصمه الارض والاخر يبذل الجهد كي لا يجعل لاوكيدي سبيلاً لذلك

واذا ذاك هم سيمون وفيرتون ولاكاز ان يسعفوا رفيقهم فتصدت لهم الجموع وحالت دون مرامهم

وقد كانوا جميعاً يكرهون لابيف لتعداد حوادث عراكه وتعكير صفاء اويقات مسراتهم

وكان لابيف متافخراً بشجاعته متسلطاً بها على جميعهم فلما رأوا شدة ساعد اوكيدي وانه متغلب على خصمه اخذوا يهزأون بلابيف وينكتون عليه

وقام بيداش من مكانه واتجه نحو موضع العراك

ورأت الجموع ان المكان غير موافق لمنازلة كهذه فصاحت فليخرجا خارجاً . فليخرجا الى الشارع

وكان الشارع قد اكتظ بالاهالي لدى سماعهم ضوضاء من في الحانة . وفتحوا باب الحانة بمصراعيه واخرجوا الخصمين خارجاً .

وكان الهواء يهب شديداً والبدر يلبس الارض ثوب ضوئه الذهبي .

وتضايق اوكيدي من خصمه فجمع قواه للمرة الاخيرة واراد ان يصرعه ولكنه لم يتمكن من ذلك لان لابيف قاومه مقاومة اليائس فثارت في نفس الايرلندي ثائرة حب انهاء النزاع بسرعة وهم ان يباشر حيلة واذ بقدم لابيف صادفت حجراً فعثرت به وسقط بثقل على الارض فاسرع عندئذٍ

باتريك ووضع ركبتيه على صدره فصار لا يمكنه حراكاً

وفي المنيهة نفسها اقبل رجل يركض وفي يده خنجر مشهر فصاح لابيف وقد ابصره على نور القمر الى" يا بيرو . ادركني فهم بيرو ان يغرز خنجره بين كتفي اوكيدي ولكنه بهت اذ وجد نفسه اعزل اثر ضربة شديدة وقعت على يده .

وفي هذه الاونه جذب بيداس صديقه قائلاً هلم بنا ولنخلص فتخلى اوكيدي عن خصمه ثم انسل مع بيداش من بين الجموع وابتعدا راكضاً .

ودهش بيرو اذ لم يجد من اراد ان يطعنه ليقتله وتمتم قائلاً يا للداهية كيف تخلص وكيف صرت اعزل .

وكان فيرتون على مقربة من الزعيم وقد شاهد كل شيء فقال لقد نجا وكان خلاصه على يد صديقه القفال الذي احرمتك ضربته الانتفاع من خنجرك

وانتصب لابيف واقفاً على قدميه ينفض عنه غبار الخزى والفشل ثم وضع يده في جيبه ليطمئن على شيء وضعه فيه ولم يلبث حتى صاح صيحة مزعجة ثم قال بصوت اجش لقد سلبني الرساله فذهل بيرو وقال واي رسالة تعني فغمغم قائلاً تلك التي كنا ننتظرها منذ ثلاثة ايام من قبل .... فقاطعه بيرو بان صاح صيحة مخيفة ثم صر على اسنانه ونظر حوله وهو يكاد ينشق غيظاً فابصر سيمون ولاكاز فصاح عليهما وهو يضطرب حنقاً كيف لم تقتلاه . كيف لم تمزقاه ارباً . ثم قبض على ساعد

فيرتون بعنف وقال بصوت يتهدج غضباً تعقبهما وأتني باخبارهما عاجلاً ثم التفت الى بقية رجال عصبته وقال محتدماً هلموا بنا الى مكان اجتماعنا يا ساقطي المروؤة ·

وادرك فيرتون ان خصميه تقدماه بمسافة طويلة فجعل يركض وكان ركضه سريعاً بهذا المقدار حتى انه لم يلمح رجلاً توارى في مكان عند ما سمع وقع خطواته ·

ولما ابتعد فيرتون خرج بيداش من مخبئه وسار على مهل وهو يقول لقد عرفت زعيمهم وحانت ساعتهم

وكان الصديقان قد افترقا اثناء الطريق وتقدم اوكيدى بيداش بعد ان اعطاه الرسالة لانه شعر بالتعب بعد ما اجراه مع لابيف ثم انطلق قاصداً مسكنه طالباً للراحة

وكان هو كذلك واضعاً يديه في جيبي سرواله مترنماً بنشيد الظفر لاهياً عن كل شيء ما خلا الجد في مسيره غير شاعر بان رجلاً يسير في اثره

الفصل الثامن

« والدة جريليش »

كان المنزل الكائن في شارع ميرها الذي نمرته ٣٥ يحتوي طبقات كانت مدام جريليش تقطن باعلاها

وكانت القاذورات والاوحال المتراكمة هنا وهناك وجدران بعض الجهات المتداعية والاسوار المغشاة بالغبار والعنكبوت كل ذلك برهان يدل على ما كان يحوق بساكني المنزل المذكور من البؤس والشقاء

وكان الطابق الذي تقطنه مدام جريليش يتكون من غرفتين ليس الا لا اثث فيهما سوى سرير عليه مرتبة من قش في احديهما وكرسيين من خشب ومرتبة اخرى مع وجاق في الغرفة الثانية ولا يحق لنا ان نعجب من تمايز هذه عن الاولى لان تلك الام المسكينة المعدمة كانت قد اعدتها لولدها الذى كان يزورها احياناً

فبينما كانت هذه الوالدة ترتب الاشياء المذكورة وتضع كلاً منها في المكان الموافق له واذا بها تسمع قرعاً على الباب

فاصاخت ولما لم تعد تسمع القرع خالت ان اذنيها غشتاها وعاودت عملها ثانية

غير انه لم يلبث حتى استؤنف القرع فادركت ان ما كانت

توهمته هو حقيقة لا شك فيها وعمدت الى فتح الباب فوقعت ابصارها على فتاة باهرة الطلعة متوشحة بملابس سوداء

فوقفت المرأة منذهلة وقالت اى موجب لزيارة مولاتي لي فدخلت حنة المكان وهي تقول بتأثر واشفاق لقد أُبلغت مقدار فاقتك وعوزك فاتيت لاخفف عنك مرارة العيش وامد لك يد الاسعاف فصاحت المرأة اه يا مولاتي ما اعظم حنوك واحسن صنيعك فانك ستكتسبين اجراً لا يعادله جزاء وتقومين بامرٍ سام يحفظ في ذاكرتي مدى حياتي فتفضلي واجلسي يا مولاتي وتأكدى انك ستسعفين امرأة تعيسة كانت عولت على الانتحار لما انتابها من الم الجوع ولم تشأ ان تخرج تتسول في الازقة فجلست حنة على احد الكراسي ثم جلست المرأة بجانبها وقصت عليها ماضي حياتها فكان مطابقاً لما سبق وذكره لها جريليش غير انها اغفلت ذكر ابنها هذا ولم تأت على كلمة بشأنه ولربما كان لها قصد من ذلك

ثم اظهرت لها ما تعانيه من صروف البلايا لشظف العيش وما تقاسيه من مرارة الحياة لشدة فاقتها

فاخذت الفتاة المسكينة تعزيها وتصبرها ثم نفحتها بقبضة من الدراهم ووعدتها بانها لا تنقطع عن زيارتها ابداً

وفيما هما كذلك وقد عزمت الفتاة على الانصراف فتح الباب فجأة ودخل رجل كان غير منتظر

فصاحتا معاً صياح الدهشة ووقف جاك جريليش في مكانه

مأخوذاً!

وكان ممزق الملابس احمر العينين منفوش شعر الراس ظاهرة عليه سيماء التعب والهزال اذ مضى عليه بضعة ايام بدون ان يتناول طعاماً يذكر لقلة مصادرته للعابرين

واشارت حنة الى جاك ثم وجهت حديثها لوالدتـه وقالت ان هذا الرجل هو ولدك اليس كذلك . فاطرقت المرأة المنكودة الحظ برأسها ولم تنبس . فحولت الفتاة وجهها نحو جاك وقالت لقد اتيت لزيارة والدتك بغية ان انفعها بشيء وبما انك حضرت الآن فتعال معي لاعطيك ملابس ترتدى بها فتمنع عنك رطوبة الليل وحرارة شمس النهار ولا حادثك ايضاً بشأن يهمك تعود عليك منه منافع لم تكن لتخطر لك على بال

واذ قالت ذلك حيت الوالدة المسكينة ثم خرجت وجاك في اثرها يتمتم بكلام لا يفهم له معنى

وفزعت كلارا من هيئة الرجل وهمت ان تصيح ارتياعاً فاسرعت حنة واسرت في اذنها كلاماً فاطمأنت ثم تركتهما وخرجت وهي تبدي من مظاهر الدهشة ما يوجب العجب

وسألت حنة جريليش قائلة ألم تشتغل بعد فاجاب بصوت اجش ايتسنى لي ذلك وانا مرتدٍ هذه الملابس الرثة قالت وماذا تصنع الان قال انت عالمة بمهنتي الا انني سئمت هذا العمل وابغضت الحياة كلية. كرهتها كرهاً شديداً وما عدت آسف عليها وسيجدونني يوماً ما في

قاع نهر السين جثة هامدة لا روح فيها فتأثرت الفتاة من قوله
هذا وقالت اتتعهد لي بان تقلع عن غيك وتعدل عن مهنتك هذه الرديئة
ولا تعود اليها ابداً اذا اعطيتك ثياباً تكتسي بها وبحثت لك عن شغلة
تكتسب منها ما يقوم باودك واعتنيت بوالدتك اعتناء زائداً يجعلك مطمئناً
عليها مرتاح الفكر من جهتها فابرقت اسرته سروراً وقال انني اؤمل يا مولاتي
قالت انك لا زلت تؤمل بما يدل على ان ما سبق لك ان ذكرته من القول
هو نتيجة ضنكك وضيق ذات يدك فهل تكون اميناً لمن تصبح في معيته
وتتناسى حياتك الماضية . تتناساها كلية . بحيث تصبح رجلاً شريفاً
يعتمد عليه عند الحاجة وتوقف نفسك لخدمة من تحادثك متى احتاجت
اليك فنظر اليها الرجل باخلاص واحترام واعجاب وقال انني لا اجزم بعدم
امكاني ذلك يا مولاتي وساجتهد ان اجعلك مرتضية من اعمالي قالت ان
من فضائل الانسان التي يحمد عليها هو التغلب على شعوره وكبح جماح
عوائده والاقلاع عن قبيح طبائعه الامور التي تلوح لي من خلال ملافظك
فوطن العزم على ذلك وعول على حمل عصا التسيار في حسن السبيل
وساعطيك من النقود ما يكفي لمصروف عدة ايام تصرفها جميعها بجانب
والدتك التي تحبك محبة فائقة وتعد اقامتك عندها تسلية عظيمة وتعزية ما
بعدها تعزية تنسيها مرارة الماضي وعذاب الحاضر ولا تنفصل عنها الا متى
استدعيتك وتاكد ان ذلك يكون لنفع لك . فكان تاثر الرجل عظيماً بمقدار
انه لم يتفوه بكلمة فاستطردت قائلة هذا من جهتك انت مع والدتك اما انا
فلا ادخر وسعاً في سبيل تقرير راحة مستقبلك . كن على يقين من ذلك

وسافاتح الليلة احد معارفي بشأنك

وهنا دخلت كلارا حاملة سلة ملأى طعاماً ومتأبطة بقجة ملابس فاخذتهما منها حنة ثم اشارت لها بالخروج فلبث صامتة

فناولت الفتاة جاك ما احضرته خادمتها وهي تقول له استعن بهذا الان على ضيق الوقت وعلى ما يصحبه من الجوع والبرد ثم نفحته بمبلغ من الدراهم وقالت لقد اعطيت والدتك ما تيسر لي من النقود فاجتهد ان لا تحرمها منها لانها ستصرفها في سبيل راحتك وغذائك فلا تضن عليها انت ايضاً بان تنفعها بما معك بان تشتري خشباً وفحماً للاصطلاء . واياك ان تتخلى عنها لحظة واحدة لان هذا ما يسوئني ويقلل من ثقتي بك . فاخذ الرجل يشكرها بما جادت عليه قريحته

ثم حياها باحترام قاصداً الانصراف ولكنه لم يكد يخطو خطوتين حتى تقهقر مذعوراً وقد علا وجهه الاصفرار ثم وقف فجأة كمصعوق شاخصاً الى صورة للموسيو لاسيدات صادفتها عيناه عرضاً كانت معلقة على الجدار

فاندهشت الفتاة مما اعتراه وادركت ان ما سبق وظنته به ليلة مقابلتها معه في كلامار من انه ربما يعلم قاتل والدها قد تحقق ثم همت ان تستوضحه الامر غير انها احجمت وتركت ذلك لعناية المسيو بيداش

وارادت ان تزيد من تأثيره فاشارت له الى الصورة وقالت ان هذه صورة ابي وقد مات قتيلاً

فا كفهر وجه جاك وحول انظاره نحوها وقد لاحت عليه بوادر حب التكلم ولكنه وجم ثم اطرق برأسه وخرج بدون ان ينبس قاصداً والدته المسكينة التي سنراها عرضة لحزن شديد فعلينا بتصفح رواية اللص الليلي واسباب ذلك مبينة هناك





﴿ الرواية الثالثة ﴾

اللص الليلي

معربة بقلم

حضرة الاديب حنا افندي صاوه

الفصل الاول

« نظرة ذات عواقب »

في صباح اليوم التالي لليلة ذهاب بيداش واوكيدي الى حانة المعلم جور كانت حنة تنتظر على احر من الجمر زيارة احدهما لتقف على ما تم في امر بعثتهما

وكانت الساعة تدق للمرة الخامسة عندما بشرتها كلارا بقدوم الموسيو بيداش فهرعت الى ملاقاته غير انها بُغتتت اذ رأتــه منفرداً ثم صاحت وقد صبغ الاحمرار وجهها الجميل اين اوكيدي . وكيف تركته فاجابها في منزله وسيأتي بعد قليل وهو على ما يرام فظهرت علامات هدو البال والاطمئنان على الفتاة ثم دخلت به الى غرفة الجلوس حيث روى لهـا ما حدث لهما في الحانة وعن كيفية اخذ اوكيدي الرسالة من جيب لابيف . فقالت له الا تخشى من انه يشك فيكما ويعمل على اذيتكما قال كلا وعلى ظني انه يحسب ان الرسالة سقطت من جيبه اثناء العراك . وقد شعرت ان احدهم يتعقبني بعد ان انفصلت عن اوكيدي فتواريت الى ان ابتعد غير انني لم اسر قليلاً حتى سمعت لغطاً مشفوعاً بوقع خطوات عديدة فاختفيت ثانية ولما ان تبينت القادمين عرفت انهم رجال العصبة فسرت في اثرهم بدون ان يشعروا بي حتي رايتهم اتجهوا نحو احدى عطفات شارع الشابل حيث انسلوا داخل

منزل مظلم فلبثت في مكاني مترصداً وبعد مقدار ساعة خرجوا الواحد تلو الاخر فتتبعت الاخير منهم وكأن نفس من سابه اوكيدي الرسالة حتى عرفت مسكنه وسالقي القبض عليه هذه الليلة

وهنا دخل اوكيدي عليهما فتلقته الفتاة بارتياح وسرور عظيمين ثم شكرته على صنيعه وهنأته بسلامته

وبعدئذٍ روت لهما ما اجرته مع جريليش ووالدته وما صدر من الاول حالما وقعت انظاره على صورة والدها

فاهتم بيداش لهذا النبأ اهتماماً عظيماً وقال اوكيدي ابغي لي هذا الرجل لالحقه بخدمتي لانني محتاج الى شخص يقوم باحتياجات طلبتي ثم التفت نحو بيداش وقال اتوصلت الى معرفة مسكن خصمي فاجابه اجل وهو في حي فيليت قال حسن جداً غير انني اخشى انا الاخر ان يكونوا هم ايضاً عرفوا منزلي اذ انني لما اردت ان ادخله التفت خلفي بلا قصدٍ فوجدت رجلاً واقفاً على بعد يترقبني فاتجهت نحوه لاستفسره معني ذلك ولكنه توارى مسرعاً فتركته وشأنه وانثنيت راجعاً ثم التفت ثانية فوجدته يجد خلفي فلم اعبأ به ثم دخلت منزلي واوصدت بابه ورائي الا ان هذا الامر والحق يقال يا عزيزي بيداش اقاق افكاري قليلاً وجعلني اتحذر على نفسي فقال بيداش بحرارة انك محق بذلك يا صديقي واخشى انا ايضاً ان يكونوا عرفوا حقيقتنا فاجابه اوكيدي مازحاً كن مطمئناً على نفسك يا رفيقي لانهم مهما نالوا وطرهم مني لا يمدون اليك ايديهم بسوءٍ فصاحت حنة مضطربة آه يا سيدي . لا تذكر بربك ذلك . لا تذكره على الاطلاق . فابتسم الفتى

ابتساماً لطيفاً جذاباً يدل على الرضاء والسرور ذهب بما كان خامر الفتاة من الانزعاج ثم وقف يريد الانصراف وقال لا تنسي جريليش ولا تهملي امر ارساله الي" لان قلبي يحدثني انه سيكون له معنا دور مهم قالت حسن يا سيدي فساستدعه عاجلاً ٠ وكان بيداش قد وقف ايضاً بغية الخروج مع اوكيدي فكررت الفتاة شكرهما على خدماتهما الجليلة التي لن تنساها لهما ابداً واثنت على هممهما العظيمة التي ستوصلها قريباً الى الاثار لوالدها فقال اوكيدي وقد دنا منها قليلاً تاكدي ايتها الانسة اني اجلك كثيراً ولا اتاخر عن الذهاب الى اطراف المعمور متى كان ذلك اثر اشارة منك لانني اوقفت نفسي لخدمتك اذ لا يمكنك ان تتصوري الى اي درجة انا ٠٠٠

ثم توقف فجأة عن تتميم كلامه الا ان انظاره اغنته عن ذلك لانها تلاقت بانظار الفتاة فقرأت هي في عينيه الساحرتين ما لم تقوَ شفتاه على لفظه ثم اطرقت برأسها خجلاً وقد احمرت غراماً وشعرت للمرة الاولى بعد موت والدها ان قلبها قد تهزهز جذلاً

الفصل الثاني

« حديث وحب »

بعد ان مضي يومان على ما ذكر كان جاك جريليش في قاعة سلاح اوكيدي يناول هذا سلاحه ويتناول من ذاك قبعته

وقد اصبح حسن الهندام طلق المحيا وقد قدر معروف اوكيدي وجميله فاخلص له الخدمة

وكان اوكيدي قد نقل والدة جاك الى احدى غرف مسكنه واحضر لها من الاثاث ما ينبغي ومن الضروريات ما تحتاج اليه حتى اضحت تظن نفسها في حلم لا سيما لدى رؤيتها نيران الوجاق المتسعره التي كانت تصطلي عليها وشروط راحة المعاش المتوفرة عندها

اما ولدها فقد صار ملازماً لها بحيث كان لا ينتهي من اعماله ويتمم واجباته الا ويصعد عندها ويجلس بجانبها ثم يقرأُ لها ملياً في كتابٍ فكانت هذه الام المسكينة تكاد لا تصدق ما تسمعه وترتاب في ما تراه غير انها كانت لا تتحقق مما ذكر وتتيقن من ان الذي بجانبها هو هو نفس ولدها الذي تقوم سيره بعد اعوجاجه حتى كانت ترتسم على محياها علامات البشر والسعادة المقرونة بالدعاء والشكر لاوكيدي

وكان جاك قد ادرك مقدار سرور والدته حين وجوده بجانبها نخصص اوقات فراغه وقدسها ليصرفها معها وبما انه شعر بما كان يتولد عنده هو ايضاً من الحبور أثر تبادله الحديث معها وملازمته اياها فقد اوقف نفسه لخدمة من جمع شملهما وحسن حالة معيشتهما ونعني به اوكيدي بحيث اصبح يبذل كل عزيز لديه في سبيل مرضاته وقد زالت من وجهه تلك العبوسة التي وصفناها مراراً وحلت محلها بشاشة مصحوبة برقة معشر ولين جانب حبباه الى جميع الطلاب

غير انه كثيراً ما لاحظ عليه اوكيدي انه يستسلم لتيار افكار مزعجة اذ تظهر على وجهه آيات مظلمة لا يمكن حل مغزاها يلازمها عادة اضطرابات عنيفة جلية شوشت افكاره

وحدث ذات يوم ان موزع البريد ناول جاك رسالة باسم باتريك فهرع وسلمها الى سيده ففض هذا ختمها وقرأ ما يأتي :

« متى وصلتك رقعتي هذه احضر عندي على جناح السرعة »
« لانني اريد مفاتحتك بامر هام وساكون بانتظارك بفروغ صبر »
« لا يمكنك ان تتصوره »

« حنة »

فانزعج الفتى لما يتضمنه فحوى هذه الرسالة من سرعة استدعائه وخرج مهرولاً فصادف عربة فركبها ونقد سائقها ضعف اجرته فالهب هذا خيله وسارت به تنهب الارض نهباً قاصدة حي كايش حيث اشار اوكيدي الى الحوذي ولما ان دخل الشاب على حنة أَلفها صفراء قلقة فدنا منها مضطرباً وسألها ملهوفاً ما طرأ فناولته رقعة وصلت اليها في البريد فنشرها بعجلة وتلا ما يأتي :

« لقد توصلت اخيراً لان اعرف انك استعنت برجال الدرك »
« للقبض عليَّ غير انك لا تعلمين اي رجل انا »
« انذرك بانك لو جربت اجراء شيء ضدي او ضد رفقائي فان »
« من يلوذ بك وانت نفسك ومن عولوا على القبض عليَّ تصبحون هدفاً »
« لانتقامي وسيكون فظيعاً »
« لا تحركي ساكناً ولا تبتغي مناصبتي حرباً لا اخالك تخرجين »
« منها ظافرة والا فاستعدي لدرء ضرباتي ان كانت لك مقدرة على »

« ذلك لانها ستكون شديدة قاضية »

« قاتل والدك »

فذهل اوكيدي من هذه الجرأة الفائقة ثم جلس على مقعد قانطاً وصاح أبلغت به الجسارة الى هذا الحد . والحق يقال اننا اصبحنا عرضة لانتقامه

ثم وقف على قدميه واخذ يمشي في الغرفة مفكراً وقد ظهرت عليه ملامح الجزع والخوف

ثم دنا من الفتاة وكانت جالسة بالقرب من النافذة وهي صامتة لا تنبس وقال لقد تعقبونا فعلاً وصاروا على علم من حالتنا وقد لاحظت منذ ليلة سلبنا الرسالة من لابيف ان رجلاً يترصدني ويلازمني اينما حللت كظلي

وكان على حافة النافذة باقة ازهار موضوعة ضمن اناء فعمد اوكيدي الى استنشاق روائحها ولكنه لم يكد يدنو منها ويرسل انظاره في الفضاء مروضاً البصر بمنظر الشمس التي كانت مشرقة حتى سمع ضجة في الشارع الذي ترمي اليه هذه النافذة استلفتت انظاره وجعلته يطل الى اسفل وللوقت صاح مندهشاً ثم اشار خارجاً الى رجل واقف على قارعة عاطفة وقال تعالي وانظري ايتها الآنسة فها هو خيالي وقد تتبع خطواتي حتى وصلت الى هنا وكانت حنة تنظر اليه خلسة فلما ان رأت منه ما مر قالت بهدوء لا فائدة من ذلك يا سيدي واعلم انني لم استدعك بالسرعة التي ذكرتها في رسالتي الا لاكلفك ان

تذهب الى كلامار وتفيد المسيو بيداش بفحوى رقعة ذلك القاتل الجسور. ولا علمك انه قد صار من حقي انا ان اتحمل بمفردي تبعة اجراءاتهم بدون تداخل احدكما اي انت والموسيو بيداش لئلا تعرضا بنفسيكما لخطر ليس منه فائدة فشعر اوكيدي بغلطته لاظهاره الخوف من تهديد القاتل والجزع من ملازمة الرجل الذي عده كخياله له وادرك ان مغزى كلامها يشف عن توبيخ لطيف ادرج ضمن هدو نطق كلماتها . فصاح عندئذٍ متوجعاً آه ايتها الآنسة . الم تدركي بعد انني وطنت العزم على الاخذ بيدك وآليت على نفسي ان اعمل معك حبّا بأخذ ثأر والدك . انني مستعد ان انزف دمي نقطة فنقطة في سبيل مرضاتك والقي بنفسي في اشد المهالك ابتغاء راحتك . انظري اليّ جيداً وتذكري ماضي اعمالي تري هل رأيت مني تقصيراً يوجب ذاك التأنيب المستتر او تبينت فيّ ضجراً وكلالاً استوجب لاجلهما معافاتي من الكد معك . يا حنة . انت ايتها الآنسة يا من فقت اعاظم الرجال عقلاً ورصانة تأكدي انك جرحت فؤادي بقولك هذا جرحاً بالغاً لا يشفيه الا سماعي ما يطيب خاطري لانني ... ثم جثا امامها وقبض على يديها بولوع واردف يقول بصوت عذب رقيق لانني اهواك ولم احب سواك فهبت الفتاة من مكانها واقفة ترتعش ولا نعلم ان كان ذلك وجد وهياماً او حنقاً وغضباً الا انها في كلتا الحالتين كانت عرضة لتأثر شديد ما كاد يخف عنها حتى رنت الى الفتى بعينين تشفان عن الغرام وقالت باتريك ! فصاح هذا لبيك

يا فاتنتي . ان باتريك عبد جمالك واسير حسن خصالك فمريه بما شئت تجديه ملبياً امرك داعياً قاضي هواك . اجل يا حنة فلقد احببتك لا بل عبدتك منذ اول مرة رايتك فيها اذ وجدت فيك من الجمال والرقة وسداد الرأي والصبر ما يندر وجوده عند فتاة نظيرك . لقد احببتك حباً عظيماً من كل جوارحي تمثله حالتي الان وما فعلته في الماضي حيث لم اطالبك بالاموال التي اودعتها امانة في مصرف المرحوم والدك . فلا تخيبي اذن آمالي وامليني بالسعادة بكلمة من فيك لانني عللت النفس بذلك والا فانني فقاطعته وقد صبغت الصبابة وجهها باحمرار فتان وقالت لا تكمل بربك قولك فقد ادركت معناه وها يداي بين يديك عربوناً على انعطافي نحوك وميلي اليك فقبلهما الفتى بشغف وهو يقول ان الانعطاف والمودة لا يكفياني لانني طامع في الحب فلا تضني عليَّ بان تسمعيني لفظته العذبه التي تذهب بالنفس الى عالم المسرات متخلية عن الجسم الذي يكون ساجداً امام من يحبها صاحبه لتعبر لها بواسطته عما يخامر فؤاده من الوله فضغطت الفتاة على يديه بشدة مدفوعة بحماسة الغرام وقالت وقد توردت وجنتاها كلفاً وحياءً واخذت ترفعه عن الارض قم من مكانك وتمم اعمالك المقدسة وتاكد ان عواطفي معك وروحي تلازمك وافكاري مضارها انت لانني احبك

فوقف الفتى على قدميه نشوان من خمرة الوجد وهو يقول طوباك يا حنة فقد جعلتني اسعد اهل الارض طراً

ثم جلسا بجانب بعضهما وجعلا يتساران

الفصل الثالث

﴿ في ان جاك لا يعترف بشيء ﴾

وانفصل اوكيدي عن حنة وقصد كلامار تقوده عوامل الاخذ بثار والد من بادلته الحب وكان غرضه من ذهابه هذا هو مقابلة بيداش ليعلمه بامر تلك الرسالة التي وصلت الى من تضاعف سهره عليها غير انه لم يجده في منزله فترك له رقعة يطلب حضوره بها الى باريس بلا توانٍ

اما بيداش فمنذ حادثة حانة المعلم جور وهو مجد خاف لابيف منتظر الفرصة السانحة ليلقى القبض عليه وبينما كان يبذل غاية الجهد لمعرفة قاتل لاسيدات الحقيقي كان في الوقت نفسه يستقصي ويبحث عن منشأ واقعتي كل من شارعي تايبوت و بروفنس ولا يدخر وسعاً في التوصل لكشف الاغشية الحائله دون التحقق من ذات المحرك الحقيقي لارتكاب هاتين الجريمتين · وقد كان الباريسيون مندهشين من جسارة لو بير الذي لم يتفوه بكلمة واحدة تدل على من الجأه الى اجرأ ما فعل واصبح ذكره مضار حديث المنتديات والمجتمعات وقد ازداد تعجبهم منه يوم صدور القرار باعدامه حيث دفع بقبعته الى سقف غرفة الجلسة وصاح بصوت ثابت جهوري قائلاً ملتفتاً نحو المجتمعين · لقد سمعتم ايها الساده منطوق القرار القاضي باعدامي فاغتنم هذه الفرصه لادعوكم للحضور في ساحة روكيت حيث تشاهدون كيف يموت بيرو الذي حفظ سر رفقائه ولم

ينبس ببنت شفة تجعل القضاة متأكدين عدالة ما حكموا على به

وكان القضاة قد ارادوا ان يعرفوا حقيقة نسبه فلم يفلحوا واجهدت النيابه نفسها عبثاً لتتوصل لمعرفة زملائه ٠

وكان بيداش قبل ان يصرح لوبير بما ذكر متأكداً من ان هذا الاخير هو احد افراد عصبة قوية يرأسها زعيم جسور ماهر حكيم يدير حركاتها كقائد محنك ولذلك رايناه دائباً في ترصد لابيف حتى اذا قبض عليه يستنطقه بوسائط عديدة وبصفة تجعله ان يرشده الى حقيقة ذلك الزعيم

وحدث اثناء عودة اوكيدي من كلامار ان رجلين هما لاكاز وسيمون ولجا حانة في شارع شارتر حيث جلسا وطلبا خمرة جعلا يتعاطيانها بشراهة غيران هذا الامر لم يمنعهما من النظر المرة بعد المرة الى باب الحانة كانهما ينتظران مجيء انسان ٠

وبينما هما كذلك دخل رجل ملتحف برداء سميك محتذٍ بنعلين طويلين وواضع على راسه قبعة واسعة من القش تخفي سحنته تماماً ثم نظر حوله متفرساً ولما ان ابصر لاكاز ورفيقه اتجه نحوهما ثم جلس بجانبهما

فلم يستقر في مكانه حتى ساله سيمون قائلاً ما عندك من الاخبار قال كثيراً وكلها سيئة ٠ وكان سيمون على وشك ان يزدرد قدحاً ملآن من الخمر فلم يسمع جواب بيرو لان ذلك الرجل كان نفس الزعيم حتى القاه على المنضدة بوجه عابس ثم قال وكيف ذلك قل منها انهم القوا القبض على لابيف فاضطرب لاكاز وبغت سيمون ثم

قال الاول يا للداهية . لقد حاكموا لوبير واوقفوا لابيف فبعدئذٍ يأتي دورنا فضحك الزعيم مقهقهاً ثم اراد تغيير مجرى الحديث فقال ماذا عمل فيرتون يا ترى وما هي اخباره

وفي الوقت نفسه ظهر هذا الاخير على باب الحانة ثم ولجها قاصداً رفقائه حيث وجد قدح سيمون الذي لم يكن شربه فتناوله صبرة واحدة فقال لاكاز اظمآن انت الى هذا الحد يا رفيقي قال اجل يا لاكاز فقد مضى عليَّ يومان بدون ان اعرف للخمرة طعماً قال ومن اين انت آتٍ قال من شارع انجو حيث كنت انفذ امر الزعيم بخصوص الالمام بحالة من تعارك مع لابيف فسأله بيرو وماذا فعلت قال لازمته كظله حتى وجدته اليوم ركب عربة اتجهت به نحو شارع كليشي حيث دخل منزل الآنسة .... فقاطعه قائلاً حسن .وبعد قال وبعد فقد انتظرته ولما خرج اكترى مركبة اخرى ركبها ثم سمعته يقول للسائق ان يذهب به الى محطة مونتبارناس فلبثت في مكاني حتى تحركت العربة بقصد المسير حيث ركضت على اثرها ثم تعلقت خلفها ولما ان وصلنا الى المحطة سبقني الى مكان اخذ جوازات السفر وطلب جوازاً لا اعلم الى اين فحرت في امري وارتبكت في نفسي ولكنني لم البث حتى جادت على قريحتي بامر فطلبت جوازاً بدوري لآخر محطة يصل اليها القطار ثم اسرعت للبحث عنه لانه كان تقدمني فالفيته على وشك ان يركب في عربة على مقربة مني فالتجأت الى طرفها الاخر وركبتها بدوري بعد ان انتخبت مكاناً على بعد جعلت ارقبه منه ومن الصعب عليَّ ان

اصف لكم مقدار ما حلّ بي من الدهشة حالما رايته نزل في كلامار ·
فانقبضت سحنة الزعيم وتمتم متعجباً في كلامار · في كلامار · اي موجب
لذلك يا ترى · فاستتلى فيرتون قائلاً غير ان الامر الجديد بالاهتمام هو
ما سالقيه عليكم فاعار الجميع اذاناً صاغية وعاد فيرتون فقال اما الامر
المذكور فهو ان رفيقنا جاك جربليش اصبح في خدمة معلم السلاح الذي
انتبدتني لملازمته يا بيرو فصاح لاكاز وسيمون صياح الاستغراب والحنق
ووقف الزعيم على قدميه اصفر الوجه لامع العينين وقال وهو يحرق
الارم غضباً وغيظاً انتبه لما تقول يا فيرتون لعلك تكون غير
مصيب فيما ذكرته قال هو نفس الحقيقة يا زعيمي فلقد رايته عياناً
واصبح رجلاً متديناً يخال لمن تقع انظاره عليه ولم يكن عرف ماضي سيرته
انه من طغمة اليسوعيين قال واين يسكن قال في الطبقة العليا من قاعة
الايرلندي قال امنفرداً قال كلا بل مع والدته التي صار لا يفترق عنها الا
متى حان وقت عمله فوضع بيرو في يد فيرتون قطعتين من الذهب وهو
يقول ملتفتاً نحو لاكاز وسيمون اشكرا زميلكما على ما ابداه من المهارة في
تنفيذ مهمته اما انا فساهتم لوضع حد لمخاوفنا وبعد ثمانية ايام يكون لابيف
حراً وجربليش ملحداً والا فلا اكون لكم زعيماً

فصاح الرفقاء الثلاثة ليعش بيرو · ليحيى زعيمنا · وبعدئذٍ جلسوا
بجانب بعضهم وطلبوا زجاجة خمر شربوها معاً ومن ثم افترقوا وتوارى كل
منهم في طريق

وكان بيداش يجد في اثر لابيف ليلقي القبض عليه فرآه ذات ليلة

خارجاً من مرقص مع امرأة فتتبع خطواتهما حتى عرف مأواهما حيث انثنى راجعاً على اعقابه ملتجأ الى دائرة الدرك واستدعى اربعة رجال عاد بهم الى المكان الذي دخله لايف مع من كانت معه حيث امرهم بالدخول والقاء القبض على الرجل الذي يجدونه داخلاً اما هو فقد وقف تحت نافذة الغرفة التي علم له ان لايف فيها لضوء كان ينبعث منها

وتعاون الرجال الاربعة على خلع الباب ثم دخلوا على لايف وكان في فراشه فهب مذعوراً والتجأ نحو النافذة ليقفذ منها وينجو بنفسه فلاح له بيداش وشبحه هو وقد ظنه لشدة ارتياعه رجلاً اخر فارتد عازماً على منازلة مفاجئيه غير انه رأى نفسه امام اربعة رجال اشداء فايقن ان المقاومة لا تجديه نفعاً وسلم صاغراً لطالبيه .

واذ ذاك انبأ احدهم بيداش بما اجروه فوافاهم ومن ثم ذهبوا معاً الى دائرة الشحنة

وكان المستنطق هناك في ذلك الحين فسال بيداش عما ارتكبه المقبوض عليه فاختلق له انه احد اللصوص الذين نقبوا محطة سان لازار بغية سرقة ما كان في خزينتها من النقود

وكان قد مضى على هذه الحادثة يومان ليس الا . — اما اختلاقه لهذه الحكاية فهو رغبة في عدم اظهار حقيقة لايف لئلا يجني المستنطق ثمر ما زرعه هو فاخذ المستنطق يلقي السؤال تلو السؤال على لايف وهذا لا يجيبه بكلمة حتى ضجر وقال فلنتركه الان وننظر في مسألته غداً

وكان بيداش قد عادته شكوكه بان لايف هو المجرم الحقيقي فلما

انفرد معه اظهر له القبعة والصدرة اللتين كان اخذهما من الكونت دي كازرت وكان مستحضراً عليهما فلما راهما لابيف ابتسم متهكماً فدهش بيداش واخذ مقاس يد لابيف اليسرى وهذا منذهل من فعل ذلك ثم ضاهاه على ما كان معه من مقاس السيد المخضبة بالدما التي راها مطبوعة على جدار المنزل الذي قتل فيه لاسيدات فعاين بينهما فرقاً عظيماً واضحاً اذ اتضح له ان الاخيره اطول واقل عرضاً من الاولى فاحضر فرنسوا واوجده امام لابيف وساله عما اذا كان هذا الرجل هو نفس من دخل غرفة سيده بحجة البحث عن اوراق ارسله رافينو في طلبها فصرح فرنسوا بما يفيد عكس ما ارتآه بيداش

واذ ذاك صاح هذا الاخير صيحة ضياع الامل لذكرى طرأت على باله على حين بغتة وقال ان هذا الرجل ليس بالحقيقة الجاني ... هو الآخر .. ذلك الذي اراد ان يطعن اوكيدي بخنجره فحلت انا دون بلوغه هذا القصد اذ ضربته على يده واسقطت السلاح من يده ... اجل . اجل . هذا هو نفسه . وقد تذكرت الان انه كان قابضاً الخنجر بيده اليسرى فكيف فاتني هذا الامر ثم لطم جبهته بيأس وقال اجل كيف فاتني ذلك حينذاك

ثم غاص في بحر من التأملات عميق وادرك ان حضور عقله العادي خانه في ذلك الوقت الشديد

وبما ان لابيف كان احد رجال العصبة فقد امر بيداش الحارس بعدم اطلاق سراحه

ثم صرف فرنسوا وقصد هو كلامار

ولما دخل غرفة نومه وجد رسالة اوكيدي وكانت قد وضعتها والدته على منضدة فنشرها ثم تلاها واذ ذاك عزم على الذهاب الى باريس في صباح تلك الليله

وبعدئذٍ خلع ملابسه واستلقى على فراشه غير ان وساوسه وتضارب افكاره احرماه طويل الرقاد

ثم استيقظ مبكراً وتناول الفطور بدون قابلية ومن بعد ذلك ركب اول قطار يقوم الى باريس حيث ذهب تواً لمقابلة اوكيدي يسأله عن سبب استدعائه فافاده عن فحوى الرسالة التهديدية التي استلمتها اخيراً الانسه لاسيدات وانها في قلق لا مزيد عليه مما ذكر فيها فاستفهمه اذا كانت هذه الرسالة معه فاجابه بما يفيد احتفاظ حنة عليها. فجعل بيداش يفكر وبعد قليل قال الا تظن يا اوكيدي انه قد آن اوان استنطاق جريليش. لقد عملت معه صنيعاً جميلاً لا ينكره بحيث يخال لي انه لا يتوقف عن ان يطلعنا على ما يهمنا اللهم ان لم يكن أحد افراد العصبة كما هو غير ظننا فيه فان ذلك يكون شيئاً اخر قال هذا هو رأيي يا بيداش ويلوح لي ان افكارنا هذه لها من الحقيقة نصيب اذ لاحظت عليه مراراً عديدة انه يكون عرضة لتوبيخ ضمير مؤلم يصحبه انقباض سحنة واضطرابات نفسانية قال بما ان الامر كذلك فاستدعه اذن لربما يذكر لنا شيئاً ينير ظلمات ابحاثنا فنضع حداً لاسترسال ذلك المجرم الاثيم في غيه قال ان الحق لفي قولك الا اني ارى ان وجودك

ربما يكون من ورائه احجامه عن التفسير قال فكر صائب وقول له من الارجحية اوفر حصة فساصعد الى غرفتك ومتى انتهيت معه تنبئني حتى اذا لو فرضنا ولم يقل شيئاً فساستخلص من كلامه ما ربما يفيد ثم تركه واتجه نحو السلم المؤدية الى الدور الاعلى فتدرجها ودخل غرفة صديقه حيث انتظر بفروغ صبر ما ستؤدي اليه هذه التجربة

وكانت الساعة اذ ذاك صارت التاسعة فنادى اوكيدي جاك فهرع هذا ملبياً سيده قائلاً بماذا يأمر مولاي فناوله ورقة مالية بعشرين فرنكاً وقال اصرف هذه ثم اشتر باقة بنفسج اجتهد ان تنتخبها من ازهى ما تجد لانني اريد اهداءها للآنسة لاسيدات اما ما يتبقى فانني اهبه لك لتتصرف به كيف تشأ فابرقت اسرة الرجل وقال اشكرك يا مولاي وعلى ذلك فستكون الهدية مشتملة على باقة واحدة فقط اذ سأبتاع بما جدت عليَّ انت به ضمة اخرى اقدمها لها اعترافاً بفضلها وشكراً لجميلها قال أ الى هذا الحد صرت تكرمها يا جاك قال اجل يا مولاي وذلك فضلاً عن احترامي الزائد لها واعتباري الكثير لشخصها قال يظهر لي من ذلك انك لا تجد فرصة سانحة الا وتغتنمها لتظهر لها امتنانك وتؤيد لي شديد حرصك على دوام تذكرك ما صنعته هي معك قال هو كما تقول يا مولاي غير انني على يقين من اني مهما فعلت فلا افيها حقها ولن اقدر على ذلك قال كلا يا جاك فانت واهم بما قلت اذ في وسعك ان تداينها بدلاً من ان تظل مديوناً لها فصاح الخادم مستنكراً وكيف ذلك يا مولاي بربك قل لي ولا تؤاخذني

اذا طلبت منك ان ترشدني الى هذا السبيل بلجاجة فخدجه اوكيدي
وقال اتعلم يا جاك ان اباها مات قتيلاً فاضطرب الخادم ثم قال
مرتبكاً اجل يا مولاي فلم يفت باتريك ما بدأ على خادمه واستطرد
قائلاً بما انك صرحت بذلك فاريد الان ان افيدك بان هذه المصيبة
زعزعت اسس سعادة الآنسة لاسيدات وهدمت صروح آمالها الماضية
بحيث لم تبق عليها ولم تذر فاصبحت لا تفكر الا بامر واحد وهو
الاخذ بثار والدها وقد تناست كل شيء ما خلاه اما وقد قصرت هي
عن معرفة الجاني فان من يدلها على اثاره يضحي لديها من اجل البشر.
فاذا كنت طامحاً لاكتساب ثقتها وايفائها حقها ونوال هذه الحظوة
العظيمة عندها فليس عليك ... متى كنت ملماً بحقيقة شخص القاتل
او متى توصلت لمعرفة شيء عنه الا ان تطلعها عليه بدون ان تخبيء
عليها امراً يهمها او تغفل عن ذكر كلمة يجوز ان يكون عليها مدار
حقيقه تبحث عنها فاكفهر وجه جاك ووجم غير انه لم يلبث حتى
تململ ثم سكن ووقف يتنازعه احجام واندفاع حتى ظفر الاول بالاخر
وكان اوكيدي في اثناء ذلك لا تنجلي عنه ابصاره وقد ادرك ما
يخامر خادمه فلم يشعر الا وهذا قد رفع رأسه الذي كان طأطأه
تحت ثقل وطأة تضارب الافكار وقال لا. لا يا مولاي. انا لا اعرف
عن القاتل شيئاً كما لن يتسنى لي الوقوف على شيء فاصفار باتريك
وكاد يبطش بخادمه الا انه كظم غيظه وقال بصوت متهدج حسن
ياجاك فاذهب وتمم ما امرتك به ثم اعرض مغضباً

فظل الخادم واقفاً في مكانه بلا حراك ثم تنفس تنفساً ثقيلاً وخرج بدون ان ينبس

فطلب اوكيدي بيداش واوقفه بيأس على نتيجة ما جرى فوضع هذا رأسه بين يديه بما يدل على القنوط وقال لقد فارقنا الحظ في هذه المرة ايضاً وابتدأت اظن ان النجاح قد تخلى عنا تماماً

الفصل الرابع

«في ان جورج في عهدة اناس يخشى عليه منهم»

حدث بعد مضي عدة ايام على ما اتينا على ذكره من الحوادث ان حنة كانت جالسة بجانب اخيها وهي تلقنه درساً وكانت الساعة آنئذٍ تدق العاشرة

فبينا هي كذلك دخلت كلارا وقالت بالباب رسول يا سيدتي يطلب مواجهتك فاجابتها دعيه يأتي يا كلارا

فذهبت هذه وبعد قليل دخل رجل فسالته حنة عما يريد فاجابها انني مرسل من قبل سيد يقطن بشارع انجو وقد نسيت اسمه الا انه صاحب قاعة سلاح فصاحت الفتاة ايدعى باتريك اوكيدي قال وهو كذلك يا سيدتي اما السيد المذكور فقد جرح جرحاً بالغاً اثناء مبارزة وقعت بينه وبين احد طلابه بينما كانا يتسايفان مزاحاً افضى بعدئذٍ الى حد فاضطربت الفتاة وقالت متسائلة اتقول انه جرح اجاب اجل وحالته

تنذر بالخطر فقالت وقد اصفارت وهل هو الذي بعثك اليَّ قال اجل لانقل اليك رغبته في محادثتك بامر هام فصاحت مرتاعة يظهر لي انه شعر بخطارة جرحه وما ينجم عنه فاليَّ يا كلارا وحضري ملابسي في الحال

فاستأذن عندئذٍ الرجل بالخروج قائلاً اما وقد قمت بما كلفني به الموسيو اوكيدي فقد وجب انصرافي فالوداع يا سيدتي ثم حياها وانصرف

وخرجت الفتاة بعده بوقت قصير تسرع في خطواتها قاصدة مكان اوكيدي تقودها عوامل كثيرة اخصها الاعتناء بذلك الحبيب وتضميد جرحه بيدها وتخفيف بعض ما كان فيه من الالام بعذوبة الفاظها فوجدت جريليش واقفاً بباب قاعة السلاح تلوح على محياه علامات الهدو فبادرته بقولها كيف حاله الان فذهل الخادم وقال عمن تتكلمين يا سيدتي قالت عن سيدك انت فكيف هو وكان باتريك داخل قاعة السلاح فسمع صوت محبوبته واستنكر مجيئها ثم ظهر على باب المكان وكان صحيح الجسم سليم البنية فصاحت الفتاة مندهشة كيف اهذا انت فتعجب الفتى وقال اجل انا قال الست مجروحاً فعظمت حيرته وقال كلا فمن اين علمت ذلك فبغتت المسكينة ثم دنت منه مذعورة وهي تقول ويلاه فتعال . فتعال معي لاقول لك كل شيءٍ فاخذها الفتى ودخل بها القاعة وهو يكاد يفقد رشده لشدة ارتيابها ولما ان توسطاها وقفت وقالت الم تبعث لي برسول لتنبئني بانك جرحت وتطلب حضوري فصاح مضطرباً كلا وانك تجدينني على خلاف ما بلغك فمن المؤكد انهم خدعوك فكيف حدث

ذلك فروت له ما سبق واوضحناه في حينه ثم قالت ومن يعلم ما يجري الان في منزلي حتى عملوا على اخراجي منه بالحيلة والغش فاسرع الفتى وخرج بها من القاعة وهو يقول فلنقصده . فلنقصد منزلك في الحال لربما نقف على الحقيقة واتفق آنئذٍ مرور مركبة ليس فيها احد فركباها ووعد اوكيدي السائق بضعف اجرته اذا اوصلهما سريعاً فساط هذا الخيل بشدة فسارت بالعربة تعدو سريعاً الى ان وقفت امام منزل حنة وكانت الفتاة قد اشارت للحوذي عليه فقفزا منها بعد ان ناول اوكيدي للسائق ما كان وعده به ثم دخلا معاً في المنزل تقود الاولى عوامل الجزع والاضطراب والثاني الامل والخوف فألفيا كلارا ترتب الاثاث بكل اعتناء وسكون ففاجأتها حنة بقولها الم يأتِ احدٌ في غيابي يا كلارا فاجابتها كلا ياسيدتي سوى الشخص الذي حضر من قِبلك فارتاعت المسكينة وقبضت على يدي اوكيدي مذعورة وقالت ومن هو هذا الشخص قالت هو الرجل الذي بعثت انت لي به لياخذ جورج فطارت نفس الفتاة شعاعاً وصاحت ماذا تقولين ؟ لياخذ جورج ! فاندهشت الخادمة وقالت مرتبكة اجل يا سيدتي كما قال لي فسقطت المنكودة الحظ خائرة القوى على مقعد وتمتمت قائلةً بقنوط لقد نشلوا شقيقي واحرموني وجوده فكاد اوكيدي يجن خوفاً على جورج ويتمزق فؤاده شفقة على محبوبته ثم قبض على ذراع كلارا المرتعد جزعاً بعنف وصاح كيف حصل ذلك تكلمي فتمالكت الخادمة روعها قليلاً وقالت بصوت يلجلجه اليأس ويحبسه شديد الاضطراب . بعد ان خرجت سيدتي بمقدار ثلث ساعة حضر رجل وافادني انه احد

طابتك قابلته سيدتي عندك فترجته ان يأتي لها باخيها لتذهب به الى
الشان اليزه فلم اشك في قوله وناديت جورج وكان مرتدياً ملابسه
فعهدت به اليه بدون ان يطرأ على بالي حدس ما فاخذه من يده
وخرج به فاسرعت الى نافذة ووقفت انظر فوجدته ركب معه عربة
ذات جواد جيد سارت بهما مسرعة غير انها بدلاً من ان تتجه نحو
شارع انجو وجدتها مندفعة الى طريق اخرى فهلع فؤادي اضطراباً
وتولد عندي الارتياب الا انني لم البث حتى هدأت وزال ما خامرني
من الخوف اثر افتطاني لامر خلته معقولاً وهو انه ربما كان من
قصده ان يعرج على مكان اخر قبل ذهابه بوديعته عندك . فسألها باتريك
وما هي صفات هذا الرجل قالت طويل القامة جميل الصورة حسن الهندام

وتمالكت حنة روعها فرأت باتريك على اهبة الخروج فتعلقت به
وهي تصيح اوكيدي . اوكيدي بربك ابقَ ولا تتركني بمفردي فاخذ
الفتى يشدد عزيمتها ويقوي آمالها الى ان قال ومن الواجب ان اعلم
بيداش بما جرى ليأتي مسرعاً ونبحث عن اخيك بدون ان نضيع من
الوقت دقيقة بلا جدوى فدعيني اذهب . وكانت الفتاة قد قبضت
على يديه متوسلة كي لا يخرج فلم تفقه كنه كلام حبيبها حتى تخلت
عنهما مضطرة فقصد مكتب التلغراف مهرولاً وارسل لبيداش نبأ برقياً
يفيد انتشال جورج ويطلب حضوره ليبحثا عنه

فلم يكد بيداش يستلم هذه الرسالة ويفض ختمها و يتلوها حتى
قام لساعته وقصد باريس ولما وصلها اتجه تواً نحو شارع انجو

حيث قاعة سلاح الايرلندي واذ تقابلا اوقفه اوكيدي على كافة ما حدث فصمت بيداش قليلاً ثم قال ان اعمالي في هذه المرة ستكون موجهة ضد الجاني الحقيقي · ذلك اللص الاعسر قاتل لاسيدات وسالب دي كازرت صاحب العربة الفخيمة ذات الجواد الجيد · اجل ضده ذاته ولا اعلم للآن ماذا يجب عليَّ ان اصنع فلنترك التدابير لوقت غير هذا وهلم بنا الآن عند الآنسة لاسيدات لنعلمها باننا سنبذل غاية مجهودنا لنجد اخاها حتى لا تقنط وتنتظر ما سأجريه بصبر وسكون · فوافقه اوكيدي على قوله وقاما لساعتهما قاصدين مسكن تلك الفتاة التي حين دخولهما عليها الفياها عرضة لخوف هائل اثر استلامها رسالة اخرى ناولتها لبيداش فنشرها وقرأ على اوكيدي ما يأتي :

« انك عبثت بانذاري فانت الجانية على نفسك »

« واذا كان الرجل الذي أُلقي القبض عليه وهو واحد من يذودون »
« عنك ويجدون في طابي لا يطلق سراحه بعد ثلاثة ايام فانك تعرضين »
« باخيك الى العدم »

« الاوفق لك ان تسعي لايقاف الاجراءات التي يباشرونها »
« ضدي وذلك في نفس المدة المذكورة · والا فاذا لاح لي ما افهم »
« منه انك لم تعبئي بوعيدي كما سبق وحدث فتاكدي من انني »
« سانتقم انتقاماً مريعاً »

« بلغي فحوى رسالتي هذه الى الاخذين بنصرتك واعلمي ان »
« ابواب انتقامي الرهيب التي كانت موصدة قد انفتح واحد منها »

وكانت هذه الرسالة بلا توقيع

فما اتى بيداش على اخرها حتى صاحت حنة اطلق بربك يا سيدي سراج هذا الرجل . ولننسَ موت والدي ونعدل عن الاثئار له ليرد اليَّ شقيقي اذ هذا هو الغرض الوحيد الذي صرت ابتغيه

فافتكر بيداش طويلاً ثم تبسم وقال بلطفه المعهود . كلا . كلا . انني لا اعمل بهـذه الاشارة ابداً ومع كل فشقيقك سيخلص وذلك اللص سيصعد درجات آلة الاعدام ليقطع راسه . بهذا حكمت انا فعرفيني عن عنوان الموسيو ميرانتيه

فحنة الفتاة المسكينة الرعديدة التي تعودت ان تثق بكلام هذا الرجل الغريب الاطوار انصاعت لما قاله في هذه المرة ايضاً وناولته رقعة سطرت عليها عنوان ميرانتيه

فوضعها بيداش ضمن محفظة صغيرة في جيبه ثم وجه حديثه الى اوكيدي قائلاً والان فهلم بنا يا خير رفيق لمطاردة الطريدة

الفصل الخامس

« جاك جريليش »

خرج اوكيدي وبيداش من عند حنة وقصدا قاعة السلاح ثانية اذ قررا تجربة استنطاق جاك مرة اخرى ولكنهما لم يجداه فدهشا لذلك واخذ سيده يناديه فلم يحضر فانتظر قليلاً ثم ناداه مثنى فلم يجب من يُنادي

اجل ان اليوم كان يوم احد حيث يتسنى لجاك الخروج في اي ساعة يريدها واي وقت يشاؤه لخلوه في ذلك اليوم من العمل غير انه كان من عادته انه لا يتغيب الا باذن من باتريك

ولما مر اربع ساعات ولم يحضر فرغ صبر اوكيدي فصعد عند والدته مستعلماً عن سبب غياب ابنها فافادته انه تناول غذاءه ثم ارتدى ملابسه ولما ان رأته قد هم بالخروج سألته عن وجهته فاجابها (كور لاريف) حيث يقطن الموسيو دوبراي احد الطلبة ثم صمتت وبعد هنيهة اردفت تقول وقد بعث هذا الطالب صباح اليوم برسول طلب من جاك اسلحته فاحضرها له فلما ان عاينها ارتجاه ان ياخذها بنفسه ويذهب بها ليسلمها لسيده بدلاً عنه

وكان كور لارين على مقربة من مكان اوكيدي الامر الذي لا يستدعي غياباً هكذا طويلاً الا انه كتم قلقه واخفى اضطرابه حباً براحة بال هذه الام المسكينة

ودقت الساعة السادسة ولم يحضر جاك

فتمتم بيداش عندئذٍ قائلاً لربما يكون قد قابل احد رفقائه القدماء واغراه على الانضمام اليهم ثانية

ونفد صبر الوالدة المنكودة فنزلت وانضمت الى اوكيدي وبيداش وشاركت الاول في القلق وشاطرت الثاني في افكاره ٠

ودقت الساعة السابعة وسمعوا قرعاً عنيفاً على الباب

فهلع قلب الوالدة اليائسة رعباً واسرعت ففتحته بمصراعيه وفي

الوقت نفسه صاحت صيحة مزعجة ثم تقهقرت صفراء مذعورة اذ وقعت انظارها على محفة فيها حشاشة كبدها يحملها رجلان

فصاح بيداش واوكيدي منذهلين قائلين معاً ما هذا . ماذا رأيت

فاقبلت عليهما تجهش في البكاء ثم قالت ولدي جريح لقد قتلوه

فوثب اوكيدي من مكانه واتجه نحو الباب مضعضع الحواس وقال كمن فقد الرشد جاك . جاك . اهذا ممكن!

ثم ادخل الرجلين في القاعة واخذ مصباحاً اشعله بنفسه ودنا به من المحفة فانعكس النور عليها وابصروا جاك جريليش ممدداً بوجهٍ مصفر وعينين ثابتتين كمن مات

واقترب بيداش من احد الرجلين وساله كيف اتى هو وزميله بجاك بهذه الكيفية فاجابه الرجل لقد وجدناه مطروحاً على مقربة من كور لارين يئن ولما تبيناه وجدناه مجروحاً جرحاً بالغاً وكان مالكاً بعض رشاده ولكنه لم يلبث حتى غاب عن الصواب فاستدعينا رجال الشحنة وتساعدنا على نقله الى دائرتهم حيث مضى عليه ساعتان بدون ان يبدي حركة وقد كدنا نقرر موته لولا انه استفاق قليلاً فسألناه عن مسكنه فدلنا عليه بجهد فتعاونت مع رفيقي هذا على نقله بالثاني حتى اتينا به الى هنا كما ترى قال الم يعرف او يشاهد احدكما من طعنه هكذا قال كلا الا ان عابراً سمع صراخه فهرع نحو مصدره وفي نفس البرهة التي هوى فيها ذلك المسكين الى الارض ابصر الجاني يركض قاصداً عربة كانت على قيد عدة خطوات منه فركبها وسارت

به سيرًا حثيثًا

فتناظر عندئذٍ بيداش واوكيدي ثم تمتم الاول قائلاً · ايضاً هو · هو ذاته

ومن ثم نقلوا جاك الى غرفته ولما وضعوه على فراشه ركعت امه بجانبه ثم اخذت يديه المثلجتين بين يديها وهي تبكي بكاءً مرًا

وخرج بيداش يعدو في طلب طبيب بعد ان صرف الرجلين اللذين اتيا بجاك واللذين لما اراد ان ينقدهما شيئًا ابيا وارتضيا بسماع الشكر ليس الا جاعلين ما اجرياه عملاً من اعمال الاحسان التي لا يعطي جزاءها انسان بل الرب

ولما حضر الطبيب تفحص جاك ثم كشف عن الجرح وقال انه لم يزل فيه رمق من الحياة ولا يمكنه ان يقرر شيئًا بخصوصه الا غدًا

ثم ضمد الجرح وانصرف بعد ان وصف له دواءً ولبثت الام المسكينة ساهرة على ولدها وهي بين الرجاء والياس حتى تناصف الليل اذ اعترته حمى شديده

وكان بيداش قد عول على عدم الرجوع الى كلامار وآثر تمضية ليلته عند اوكيدي

فكانا يصعدان المرة بعد المرة ليسالا عنه حتى اذا عاد الى رشده يستفسراه كيفية ما حدث له

الا ان الحمى لازمته بقية ليلته وما امكنه ان يعرف من حوله الا

قرب ظهر اليوم التالي وكان الطبيب قد حضر وصرح بعدم امكان شفائه

فانتهز اوكيدي هذه الفرصة وجعل يطلب منه ان يسرد لهم ما وقع له الا ان المسكين كان لا يقوى على الكلام لكثرة ما نابه من وهن القوى ونزيف الدماء

غير ان حالته تحسنت قليلاً وقت الغروب حيث طلب باتريك · فاسرع هذا اليه وجلس على الفراش بجانبه

وكانت ايات الحزن الشديد مرتسمة على محياه فشخص جاك اليه بعينين غائرتين ثم قال بصوت خائر لقد قتلني يا مخلصي · قتلني بلا رحمة الا انني سانتقم منه · سانتقم منه بنفسي · فقال بتأثر ومن هو يا جاك قال هو ... بيرو ... الزعيم ·

ــ اليس هو الذي قتل الموسيو لاسيدات

ــ اجل هو نفسه

ــ ولاي غرض

ــ لاجل سرقة امواله

ــ احضرت قتله

ــ كلا

ــ اعلمت به بعد ذلك

فظهرت علامات التعب على وجه الجريح ثم صمت هنيهة وتندت جبهته بالعرق ·

فتقدمت والدته ونشفته بمنديل

واعاد اوكيدي سؤاله اعلمت به بعد ذلك

فلم يفه المسكين بكلمة ولكنه تنهد تنهداً مؤلماً .

فطار صواب اوكيدي وتغلب حب معرفته بكنه السيء على شفقته

فصاح الا تريد ان تتكلم ايضاً

فان المنكود الحظ اتيناً محزناً ثم بسط يده الى والدته وقال اعطيني

شربة ماء

فسكبت في قدح مقدار قيراطين من دواء وصفه له الطبيب ادنته منه فازدرده جرعة واحدة ظناً منه انه ماء فراح الا انه لم يعتم حتى شعر باختلاف الطعم فظهرت عليه ملامح الكدر ولكنه شعر للوقت نفسه بقليل من الراحة عقبها تذكره سؤال سيده فضم يديه الى بعضهما بشدة وصاح كمن لم يكن جريحاً اجل . اجل يا سيدي علمت بموته قتيلاً فيما بعد . ثم صمت وعاد فقال بهدوء ولقد كان انتدبني لمعرفة مسكن رجل يدعى رودوريك فتعلقت ذات يوم خلف العربة التي كان اتى عليها حيث علمت ان اسم هذا الرجل الحقيقي هو لاسيدات وان مسكنه في شارع اوقيمون .

فسأله اوكيدي وهل اوقفت بيرو على ذلك

فاشار بالايجاب

فصاح الشاب يا لنكد حظك . انك تعتبر شريكاً له اذن واهلاً

لصارم القصاص

فرنا المسكين الى سيده بعينين دامعتين وقال بجهد لقد نلته

يا سيدي ولم يعد سبيل للخلاص

فوضع باتريك وجهه بين يديه اخفاء لشديد تأثره ثم قال وان يكن الامر كما تقول يا جاك ولكن اعلم ان احجامك عن مجاوبتي على ما القيته عليك من الاسئلة منذ يومين اوقعنا في ارتباك ما بعده ارتباك اذ لولا ذلك لكان في امكاننا اجراء امور نهدم بها مشروعات الجاني التي اخذ ينفذها وكان بدوءها زيادة في مصاب الانسه لاسيدات لان من طعنك تلك الطعنه قد نشل اخاها

فصاح جاك وقد رفع قبضتيه مهدداً الويل له · الويل لذلك الانسان الشرير الذي خضب الارض مراراً بدماء الابرياء · ثم صمت وبعدئذٍ عاد فقال لا تؤاخذني بربك يا سيدي بذنب صمتي لانني في احتياج للرحمة انك لا تعلم ما هو هذا الانسان الذي فاق الشيطان باعماله الجهنميه · ولقد كنت عزمت مراراً على ان ابوح لك بكل شيء الا انني ما كنت اقدم على ذلك حتى ارتجع مرتعد الفرائص لتخيلي انه تمثل امامي بمظهره الرهيب متوعداً اياي بشر العقاب · امـا الان وقد ... فقاطعه اوكيدي قائلاً وقد بخسك حقك وجازاك شر مجازاة فقد ... فقاطعه جاك بدوره قائلاً فقد وجب عليّ ان اكيل له الصاع صاعين واقابله بمثل ما فعله معي لا بل واكثر منه فاذهبوا (للمنزل الاسود) الكائن في عطفة الجنة التي في منتصف حي الشابل ففيه يلتئمون · وحاصروا الحانة الكائنة في شارع شارتر التي نمرتها ٢٨ بشرذمة من رجال البوليس ففيها يتقابلون · ثم اقبضوا عليهم وقودوهم حيارى الى النطع بعد ان تقولوا لكل

واحد منهم ان رفيقهم جاك جريليش هو الذي افشى سرهم وجعلكم على مكانهم تستدلون . وبهذا اكون انتقمت لنفسي وارحت باريس من افعالهم وكفيت ساكنيها شرهم . فقال اوكيدي مستفهماً ايمكننا ان نقبض على الزعيم في احد هذين المكانين قال اجل الا ان ذلك فوق طاقتكم ولن يتسنى لكم لانه ليس انساناً بل شيطاناً يوجه ضرباته نحوكم من حيث لا تشعرون ثم يفلت من بين ايديكم وانتم لا تدرون قال هذا مما لا يمكنه اتيانه معنا وقد اغفلت ذكر المنزل الذي ربما يكونون اخفوا جورج فيه فهل هو ما وصفته لنا قال ذلك ما اجهله الا انني اوجه انظاركم الى منزل الزعيم نفسه اذ على الغالب انه يكون وضعه فيه قال واين مسكنه هذا قال لا يوجد من يعرفه يا سيدي وقد كان يقطن بشارع ماركاديت على انه اقام في منزل اخر منذ ما قتل الموسيو لاسيدات ونهانا عن البحث عنه لمعرفته والا فان من يتجاسر منا ويفعل ذلك يعرض بنفسه لسخطه وغضبه وقد كنا نخشى بأسه كثيراً فعملنا بامره . قال وكم عددكم قال سبعة وهم لوبير . لابيف . فيرتون . لاكاز . سيمون وانا ومن ثم قائد مركبته

وكان بيداش قد دخل الغرفة بهدوٍ ووقف يصغي لهذه المحاورة فلم يات جاك على اخر عدد رجال عصبة بيرو حتى دنا منه وقال هل لك ان تذكر لنا اسم لوبير الحقيقي

فشخص اليه الجريح طويلاً وكانت قواه قد خارت وما عاد في امكانه ان يفوه بكلمة فاشار الى انه يريد ان يكتب

فاسرع بيداش الى دفتر ملحوظات كان في جيبه واخرجه منه ثم قلب

اوراقه حتى وجد صحيفة بيضاء فادناها من جاك ثم قدم لهُ قلما رصاصياً فقبض المسكين القلم بجهد ثم خط بيد مضطربة ونفس تقاوم الموت بعنف توصلاً للاخذ بالثار اسماً متقطع الحروف يكاد لا يقرأ

وكان الباريسيون قد قنطوا من معرفة نسب لوبير وتيقنوا انه سيموت وتدفن معه حقيقة اصله

فوالحالة هذه كان اهتمام بيداش للحصول على ما يكشف لهم عن غامض سر ذلك اللص عظيماً جداً بحيث ان جاك لم يكد يفرغ من تسطير الاسم حتى دنا بالدفتر من نافذة لتلاوته ولم يتمكن من ذلك حتى صاح صياح الدهشة ثم اقترب من اوكيدي وبسط الصحيفة تحت انظاره فكان ذهول هذا لدى وقوفه بدوره على حقيقة الامر لا يقل عن تعجب ذاك

ثم اشتدت النوبة على جاك واخذ يهذي فاصاخوا اليه جيداً فسمعوا بالكاد هذه الكلمات اريد ان اراها ... اريد ان تصفح عني ...

فادرك بيداش انه يعني الآنسة لاسيدات فتوجه عندها مهرولاً وكانت هذه تنتظر مجيئه او مجيء اوكيدي وهي قلقة متضاربة الافكار فلما ان راته داخلاً عليها تلقته بقولها اوجدته فاشار نفياً ثم اردف يقول وذلك لانني لم اشرع بعد باي عمل لطارىء فجائي لم يكن في الحسبان فأخذت الفتاة المسكينة وقالت متحيرة وماذا تعني بهذا الطارىء يا سيدي اوضحه لي بربك لانني ابتدأت ان اقنط فجلس بجانبها ثم قص عليها ما حدث لجاك

وفي اثناء ذلك ذكر لها حقيقة نسب لوبير الا ان تاثرها الشديد مما الم

بجريليش جعلها ان لا تهتم اهتماماً يذكر لدى سماعها اسم ذلك اللص مع كونها لو سمعت به قبل هذا الحين لكان وقع على فؤادها من اشد ما يكون

ومن ثم اسرعت مع بيداش وقصدا غرفة جريليش وكان اوكيدي بجانب هذا الاخير فحالما ابصرته القت بنفسها بين ذراعيه وهي تقول ما اتعس حظي واشد مصابي

وكانت والدة جاك قد وقفت لقدوم حنة وهي مستغرقة في البكاء مطرقة براسها خجلاً اذ سمعت اعتراف ولدها

وكان جاك قد اخذ ينزع . ففيما هو كذلك فتح عينيه فصادفتا حنة فبدت على وجهه مظاهر الراحة والامل ثم ضم يديه الى بعضهما بهدوٍ وقال بصوت خائر مؤثر سامحيني . اصفحي عني

فتخلصت الفتاة عندئذٍ من بين ذراعي باتريك وجثت امام فراش المحتضر وقالت وكانت دموعها تنهمر من عينيها لقد غفرت لك وعفوت عن اثمك فارتسم ابتسام لطيف على شفتيه وكان دلالة على الرضاء والشكر

وفي حين بجأة مر في خاطر بيداش فكر فدنا من النازع ثم مال عليه وسأله عما اذا كان بيرو ورجاله متفقين على كلمة سر تبيح لمن يلفظها دخول منزل (عطفة الجنة) فشخص اليه المسكين بعينين باهتتين ثم اشار مؤيداً قول بيداش الا انه لم يفه ببنت شفة فعمد هذا الاخير الى مذكرته وادناها منه بعد ان وضع القلم بين انامله وقال له تقوَّ واكتب هذه الكلمة فعبثاً حاول المسكين تلبية اشارة بيداش لان قواه كانت اضمحلت ثم سقط القلم من يده وارتعش ارتعاشاً خفيفاً ثم قلب انظاره في الحاضرين ووقعت على

امه واستقرت عند هذا الحد وصار بدون حراك

فتراجع عندئذٍ بيداش بوجه رسمت عليه آيات الحزن سورة الفناء التي ظهرت على ملامح المنازع وقال صلوا لغفران خطاياه لان جاك قد مات

الفصل السادس

« حكاية حال »

وخاف اوكيدي غائلة الجاني فنقل حنة وكلارا الى نزل ميرابو ثم فطن انه واعد بيداش ان يقابله في قاعة السلاح فانصرف من عند محبوبته بعد ان اكد لها انه سيعود اليها بجورج سالمًا ولما ان تواجد مع بيداش كان معه غدارتان محشوتان قد استحضر عليهما فناوله واحدة منهما وهو يقول لقد عولت يا صديقي ان لا اسير اعزل فاملي ان تتقلد بي وتتسلح بهذه الغدارة لانني والحق يقال صرت اخشى ذلك السفاك الذي شبهته بنيهلست روسيا الذين من عاداتهم ان يرتكبوا جرائمهم ويفتكوا بعباد الله وهم في مركباتهم آمنون وارى انه اصبح على علم تام بجميع شؤوني اذ لولا ذلك لما كان تمكن من جاك واوقع به لانني تقابلت اخيرًا بدوبراى وسألته ان لم يكن وصلته اسلحته فاستنكر قولي مندهشًا وابدى ما ينافي ذلك فكان ذهولي لا يقل عن دهشته وكررت عليه السؤال بما يفهم منه ان لم يكن ارسل احد اتباعه ليطلب تلك الاسلحة فاستشاط غضبًا وصاح فيَّ اتهزأ بي وتنسبني الى امور لم اجرها فتمثلت امامي اعمال ذلك

الجاني الشرير وايقنت انه هو الذي دبر هذه المكيدة ثم اطلعت دوبراي
على ما وقع فحزن لموت خادمي وصفح عما بدر مني فيتضح لك من ذلك
يا عزيزي بيداش صحة كلامي وان له الماماً بداخلية احوالي فيجب ان
نحذره فجعل بيداش يقلب الغدارة بين يديه وهو يقول ان الحق في
جانبك يا رفيقي واخشى ان يكونوا سعوا لك بمكروه قال انني لا ابالي
بهم ما دمت قابضاً باحدى يدي على غدارة كهذه واضعاً الاخرى على
كتف رفيق مثلك قال اشكرك يا صديقي على حسن ثقتك بي واعتمادك
عليَّ فلا عدمت قوة ساعدك ودقة افكارك وبعد نظرك في الحوادث حتى
جعلتني احتاط لنفسي من غائلة او نازلة فازدهى باتريك بهذا المديح الصادر
من صديقه وقال والان فماذا يجب ان نصنع قال اظن اننا في اليوم التالي
لانذار الجاني قال هو كما تقول ولم نباشر بعد عملاً قال لقد آن الاوان
يا صديقي لنستحضر على معدات هجومنا لنفتتح بها معقل المجرم ونخلص
الاسير المنتشل قال اخشى ان يكون قد اغتاله بيده الاثيمة المتعودة على
سفك الدماء وبذلك تصبح اجرآتنا بلا جدوى ويضحى الويل ويلين قال
كلا انه لا يقدم على امر كهذا ابداً بل يبقى عليه ولا يمسه بضرر ليجعله
درعاً متيناً يتقي به ضرباتنا وتجدني في كدر لا مزيد عليه من جراء عدم
معرفتي كلمة السر المصطلح عليها بين بيرو ورجاله لدخول (المنزل الاسود)
لان قلبي يحدثني بان جورج قد اخفوه فيه قال لا تفكر في هذا الامر على
الاطلاق لانني صممت على تخليص جورج والقبض على الاثمة الجانين وكما
ان قلبك يدلك على ان ضالتنا في ذلك المنزل فان قلبي يحدثني باننا سنظفر

باماتينا واراك على اهبة الخروج فمن تقصد قال صديقاً يدعى ميرانتيه لاستعلم
اموراً ذات بال قال واين يقطن قال على مقربة من هنا في شارع ديفون
قال الا تؤثر ان تصحبني معك قال هذا غاية ما ابتغيه قال على اني لا اذهب
معك عنده بل انتظرك في قهوة لوندره الكائنة في راس هذا الطريق لربما
يكون لك من ذهابك قصد لا تود اطلاعي عليه قال يا لك من خير زميل
ثاقب الفكر فالامر لك واشكر فضلك وارى ان وقت خروجنا قد حان
فهلم بنا قال حسن ولكن انتظرني قليلا لا بل تعال معي قال والى اين قال
الى غرفة نومي لاعرض عليك مشروعاً اخر ذا شأن فانصاع بيداش اليه
وصعد معه ولما دخلا الغرفة المذكورة اوقف اوكيدي بيداش امام خزانة
له يضع فيها ملابسه ثم سحب درجاً في اسفلها اخرج منه درعين من الفولاذ
دقيقي الصنع ناول احدهما لبيداش وهو يقول ان الغدارتين اللتين معنا لا
تغنياننا عن الاحتفاظ على انفسنا من خنجر ذلك الاثيم بمثل هذا الدرع
فليلبس كل منا واحدة فتحول دون نفوذ خنجره هذا في جسم الواحد منا اذا
غرر بنفسه واراد ان يفتك بنا فاستصوب بيداش هذا الامر واخذ الدرع
بعد ان خلع ملابسه وهو يقول ومن اين لك هاتان الدرعان فاجابه وهو
يتدثر بثيابه بعد ان افرغ درعه على جسمه لقد اشتريتهما بمبالغ جسيمة من
اشهر معامل نيوكاستل لضرورتهما لي حين رحلاتي السابقة اذ كنت اجوب
بوادي افريقيا معرضاً لسهام البربر المسمومة وحرابهم الحادة قال اراك كنت
تغرر بنفسك كثيراً وتقتحم اهوالاً عظيمة قال وهكذا لم يزل شاني اذ
تجدني ادّرعت وها قد فرغت انت من الاكتساء بملابسك فوق درعك

وصرت مطمئناً عليك قال لله درك فقد صرت احسب نفسي احد فرسان الرومان وما عاد ينقصني سوى الخوذة والترس قال اما الخوذة فلا اثر لوجودها الان واما الترس فهو انا قال لقد صار من حقي ان اعتمد عليك ومن واجبي ان اعرضك للخطر وهذا مما لا يرتاح اليه ضميري وتانفه نفسي ومودتي قال كلا بل يجب ان تجري كل ذلك اذ قد وجدت لهذا الغرض لان الله اراد من وجودي الاخذ بيدك ومعاونتك قال اشكرك ما دمت حياً يا صديقي وارى ان حديثنا الهانا عما كنا فيه قال كلا بل انني متذكر كل شيء واجد انا على قدم الاستعداد ولم يعد علينا الا الخروج قال هلم بنا وهذا هو ذراعي اقدمه لك لترتكن عليه حباً براحتك قال لا بل هذا من متوجبي انا لما سبق عليه الاتفاق قال الامر لك يا عزيزي اوكيدي فعلي بساعدك قال لبيك واذ ذاك قدم اليه ذراعه فاتكأ عليه بانعطاف ثم خرجا وهما في حديث حتى وصلا الى قهوة لوندره حيث انفصلا عن بعضهما ووجهة اوكيدي القهوة وبيداش مسكن ميرانتيه وكان هذا على وشك الخروج ولكنه تلقى صاحبنا مرحباً به مستفهماً اياه عن حاجته فاوقفه على ما حدث لحنة منذ زيارته الاخيرة لها وذكر له انتشال جورج فلم يتمالك عندئذٍ الرجل من ان يصيح يا للمصيبة ومن انتشل هذا الولد قال هو من قتل الوالد فصاح ثانية يا للجسارة وكيف علمت ذلك قال من جواب بعثه للانسه لاسيدات وغرضي الان من حضوري عندك هو تلك الرسالة التي سبق ووصلتك منه لان لها عندي مكانة عظمى واهمية ما بعدها اهمية فاخرج ميرانتيه تلك الرسالة من محفظة اوراقة وكانت في جيبه ثم قدمها له قائلاً دونك

ما تريد فتناولها بيداش بلهفة والقاها على منضدة بجانبه ثم اخرج من جيبه الرسالتين اللتين كانتا وصلتا لحنة وكان طلبهما منها فلم تمنعهما عنه ثم بسطهما على نفس المنضدة والقى على الرسائل الثلاث نظر خبير فاحص فالف الخطوط واحدة فابتسم مرتضياً وقال وهو يضعها في جيبه بعد ان طواها ان من قال ان الحصول على سطرين من خط الجاني يوقعه في شرك مطارديه لهو خليق بالاعتبار . ثم وقف وقال وانني اتذكر يا سيدي اني دخلت عليك في حين كنت فيه على وشك الخروج فلا تؤاخذني لتاخيري اياك واقبل مزيد شكري على ما تفضلت عليّ به مما انت اهل لان تحمد عليه مدى الدوام قال ان الامر لا يحتاج لاطناب كهذا يا سيدي بيداش وانه وان يكن حضورك اتفق وقت خروجي فانه لم يثقل عليّ على الاطلاق كما لم يؤثر على وقتي قط لانني كنت عازماً على الذهاب الى ادارة البوليس فذهل بيداش وكرر قائلاً ادارة البوليس ! قال اجل وقد صار بامكاني ان اقابل الرئيس بدون صعوبة وسأكلفك بتوصية منك له لانك كنت زميله وعلى ظني ان المساله التي ساذهب لاجلها الى الدائرة المذكوره سيكون لك فيها دور مهم اما صاحب هذه المسألة فهو فتى اسبانيولي الاصل تعرفت به في بلاد المكسيك وقد ورد لي منه مع بريد صباح اليوم رسالة من اورليان حيث صار له ثمانية اشهر وهو في مستشفاها . اراك تظهر الدهشه وبديهي انه صدر منك ذلك لكيفية وجوده في مستشفى اورليان مع كوني ذكرت لك انه من المكسيك فاعرني سمعك لاوقفك على حقيقة الخبر . لقد عزم صديقي

المذكور على السياحة في فرنسا فابحر من فيرا كريز في ٨ مايو سنة ١٨٨٠
مزوداً بتوصيات عديدة من ذوي المقامات العليا لانه من المثرين العظماء
تؤهله لان يستقبل في اشهر بيوت فرنسا بما يليق بتمول مثله فوصل الى
اوريان في اوائل شهر يونيو وآثر البقاء فيها عدة ايام لما رآه من طيب
مناخها وحسن موقعها وجمال مناظرها وكان اعجابه بها شديداً جداً حتى
انه بعد تناول العشاء لليلة الاولى من وصوله خرج من الفندق
الذي نزل فيه وجعل يتجول في البلدة فبلغت به نهاية المطاف الى
رصيف الميناء وكان مقفراً والبحر هادياً فوقف مأخوذاً لسكون المياه
المنعكسة عليها بعض الانوار الضئيله مسروراً من هدوء تلك الليلة الصافية
الاديم . وبينما هو كذلك وقد استسلم لتيارات افكاره العذبة واذا
برجل مقنع فاجأه ولم يدع له وقتاً للصراخ طلباً للمعونة بل عاجله بطعنة
شديدة من خنجر ماضٍ اخترقت صدره ثم القته صريعاً الى
الارض فاسرع عندئذٍ ذلك الرجل المقنع او بالحري الفاتك الى تجريده مما
كان معه ثم القاه من اعلى الرصيف وولى هارباً . وكان العلو شاهقاً والبحر
جزراً والزوارق على مقربة من الشاطىء فصادم راسه احداها . ولما لاح
صباح اليوم التالي عثر به احد النوتية وكان سابحاً في بركة من الدماء المتجمدة
فاستعان بالبعض من رفقائه ونقلوه الى المستشفى وكانت محفظة اوراقه الدالة
على حقيقته قد سرقت ولم يكن تمكن بعد من ان يقيد اسمه في سجل النزل
فلم يهتدوا الى اسمه . وكان اصطدام راسه بالزورق من ذلك العلو الشاهق
قد افقده رشده وما عاد يدري شيئاً . فمضى عليه في المستشفى عدة اشهر كان

يتنازعه في اثنائها الموت والحياة حتى تغلبت الاولى على الثاني وآل امره الى بعض الشفاء فعاودته ذاكرته وتذكر ما حدث له . فحرر لي تلك الرسالة التي اتيت على ذكرها في بدء كلامي وهي مكتوبة باللغة الاسبانيولية التي لا يحسن خلافها وقد ذكر لي فيها ما انتابه من صروف الآلام اثر تلك الجناية وانه قدم شكوى لحاكم اورليان غير ان قلة المامه باللغة الافرنسية اخرت مباشرة التحقيق ثم كلفني ان اذهب الى ادارة الشحنة العمومية واطلب من رئيسها ان يرسل رجلين من قبله الى حيث هو الان يكونان على معرفة من اللغة التي يحسنها حتى يسرد لهما وقائع الحادثة فيشرعان باجراء ما يوؤل الى الاهتداء الى الجاني

وكان بيداش مصغياً تمام الاصغاء لهذا الحديث فلم ينهِ ميرانتيده قوله حتى سأله الم يشتبه صديقك هذا باحد فاجابه كلا وفي ظني ان من طعنه تلك الطعنة هو لص اراد سلبه نقوده الا انه خاب فأله ولم يظفر الا بالتوصيات لان صديقي المركيز دي فيلادوريس كان خرج تلك الليلة بدون ان يتزود منها بشيء يذكر فسأل بيداش ماذا يسمى صديقك هذا ! المركيز دي فيلادوريس (١) ؟ قال اجل يا سيدي وهو مكسيكي كما سبق وقلت لك قال حسن وتجدني اوفر عليك ذهابك الى دائرة البوليس بقولي لك انني ساتكفل بهذه المأموريه وساهتم بها بنفسي فقط ارجو منك ان تعلمني اين يقطن الان صديقك هذا اذ ربما يكون ترك المستشفى اثر

(١) على القارىء الكريم متابعة تلاوة الحوادث ولا يقف عند هذا الاسم الذي لم يذكر الا عن صحه

امتلاك قواه قال ان ظنك في محله يا سيدي لانه افادني انه انتقل الى نزل فرنسا قال حسن فساقصد اورليان في اول فرصة اجدها سانحة لذلك وتجدني اكرر شكري لك ثم حياه وخرج

الفصل السابع

« صانع المداخن »

وكان اوكيدي ينتظره وهو يدخن لفافة اشعلها ففيما هو كذلك وجد صديقه مقبلاً عليه فهرع لملاقاته فتابط هذا ذراعه وسار معه يوسع الخطى فقال مالي اراك تمشي هكذا مسرعاً يا عزيزي بيداش قال لان الغرض الذي ابتغيه يحتاج لمثل ذلك قال وهل انتهيت مع من كنت عنده قال اجل وكانت نتيجة مهمتي على ما يرام قال واين ذاهب انت بي الان قال عند المسيو بروزميش صاحبنا المعهود قال واي غرض من ذلك قال سافيدك عنه فيما بعد قال امتي اجتمعنا معه قال لقد نطقت بالصواب قال وهل من فائدة بذهابك عنده قال لو لم يكن الامر كذلك لما كنت تراني اجد في مسيري قال ولكني ساعيقك قليلاً قال اهذا في امكانك قال اجل قال وكيف ذاك قال بان اجعلك تتقابل بالكونت دي كازرت مثلاً قال لله درك فهذا هو امامنا قال اجل واراه يتحادث مع شخص لا اعرفه قال ها قد حياه وانفصل عنه قال اجل واجده يتجه نحو عربة تنتظره فمن هو يا ترى .

وكان الكونت دي كازرت قد ابصر باتريك وبيداش فدنا منهما باشاً فتلقاه اوكيدي بقوله اهنئ تلميذي العزيز بتمام شفائه قال لم تصب المرمى بقولك هذا يا استاذي المحبوب لانني ما زلت اتألم واراك بجانب الموسيو بيداش فماذا فعلت يا سيدي انت يا من ادهشتني بفرط ذكائك اعثرت على الجاني فاجاب صاحبنا بتواضع كلا يا كونت على انني دائب على البحث عنه ومطاردته فقال باسماً اياك وعدم القاء القبض عليه والا فانني لا آمن على نفسي ابداً فقال بخجل فليقدرني الله على اجراء ما يؤول لراحة بالك يا كونت قال وهو كذلك يا سيدي العزيز حتى اقدر يوماً ما على الاسهاب في مدحك والاكثار من شكرك لانني اودك

ثم وجه حديثه الى اوكيدي وقال الا تعرف الشاب الذي كنت اتحادث معه قال كلا اذ كان ملتفتاً اليك فلم نر له وجها قال انه من ارباب الثروة ومن جملة مشتركي نادي التقدم سآتي به ذات يوم الى قاعة السلاح . وهو يقطن مع احدى قريباته قصراً عظيماً في حي فيليير تقام فيه في اغلب الاحيان مراقص ومآدب واحتفالات يستقبلان فيها نزلاء الاسبانيول والاميريكان . اما قريبته هذه فانها غاية في الجمال تدعى المركيزة جيانا دارجيلو وهي ذات لطف زائد وسجايا كريمة يندر مثلها . وقد كان الفتى المذكور يلح عليّ بان احضر ليلة سيحييها غير انني اعتذرت له لعدم امكاني قبول دعوته لان الطبيب نهاني عن الافراط في السهر فسأل اوكيدي اسبانيولي هو فاجابه اجل ومن مكسيكا يتكلم الافرنسيه كانه احد اعضاء الصوربون الا انني تعجبت منه لامر واحد اشكل عليّ فهمه وهو انه يغير

زي حوذيه في كل مرة اقابله ويبدل لون مركبته هذه في كل فرصة تسمح له باجراء ذلك فابدى اوكيدي الدهشة وقال وماذا يدعى اجاب انه يدعى المركيز لويس دي فيلادوريس فجمد حينذاك بيداش في مكانه ثم اعتراه ارتعاش عنيف عقبه اصفرار زائد الحد وشخص الى المكان الذي توارت فيه المركبة بعينين حادتين لو صادفتا صندوقاً مغلقاً لتبينتا ما فيه . ولم يلحظ كل من دي كازرت واوكيدي ما بدر منه لانهما كانا يتصافحان

ثم حياه الكونت بدوره وانصرف

وابتسم باتريك قائلاً كيف رايت يا عزيزي بيداش قال ماذا قال قد تغابت عليك واخرت مسيرك قليلاً قال وان يكن الحال كما تقول غير انني استفدت من ذلك فائدة عظيمة فقال مندهشاً افي هذه الهنيهة قال هل هذا غريب قال انه بمنتهى الغرابة قال كلا وما دمت انت معي فستسمع اغرب وانني والحق يقال شعرت بالجوع فما رايك قال انني مثلك وها نحن على مقربة من مطعم قال هلم بنا ولنقصده ونتناول ما نسد به رمقنا

ثم اتجها نحو الفندق المذكور وولجاه ولما خرجا منه كان الليل قد اخذ يلقي ستاره على المعمور

فسددا خطواتهما نحو مسكن بروزميش حيث ارتدى كل منهما بملابس تشابه ثياب من يشعلون مصابيح شوارع البلدة ثم حملا سلما خفيفة من خشب تنتهي بخطافين خرجا ممسكين بطرفيها بعد ان احتزم بيداش بحبل متين طويل من القنب

وكان بيداش قد اطلع اوكيدى على خطته لخلاص جورج اثناء

ما كانا عند بروزميش فاستحسن الثاني ما ارتآه الاول

وكان القمر محتجباً لغيوم كثيفة زحفت عليه (فحجبته) والظلمة شديدة جداً .

فسارا مطمئنين حتى صارا في حي الشابل حيث عطفة الجنة فانسلا فيها صامتين وكان يداش السائر اولاً كدليل على علم تام من منازلها كلها

فوالحالة هذه كان سيره عن خبرة تامة وكان يوجد على احد جانبي (المنزل الاسود) منزل يقطنه رجل ميكانيكي لا ياتيه الا نادراً وعلى الجانب الاخر منازل عالية البنيان من عادة اهلها ان يتواردوا اليها متاخرين .

واستوثق يداش من خلو الممر من العابرين فنصب سلمه على منزل الميكانيكي الذي يتالف من طابقين ثم تصعدها مع اوكيدي حتى وصلا الى السطح واذا به يحازي لسطح (المنزل الاسود) وبعباره اوضح يتالف منهما سطح واحد فانتقلا الى هذا الاخير سيراً على اطراف اصابعهما

وسال اوكيدي بيداش بصوت خافت قائلاً الا نسحب السلم فاجابه همساً كلا بل لنبقها في مكانها لربما نحتاج اليها كما هي منصوبة

وكانت بقية المنازل المرتفعة بلصق المنزل الاسود فعول بيداش في فكره انه اذا داهمه احد يسحب السلم وينصبها على احد هذه المنازل لينجو مع صديقه .

وكانت المنازل المذكوره ترمي على طريق اخرى

وكان للمنزل الاسود مدخنة متينة ناتئة فعمد بيداش الى الحبل الذي كان محتزماً بـه وربط احد طرفيه في هذه المدخنة ثم ادلى بالطرف الاخر الى الارض فوجد انه يوجد فضاء بينهما قيد ذراع فارتضى من هذه التجربة ثم رفع الحبل والقاه على حافة السطح ·

وبعدئذٍ اتجه نحو المدخنة واصاخ جيداً فلم يسمع شيئاً فايقن ان المنزل ليس في داخله احد

ثم انبطح مع اوكيدي على مقربة من حافة السطح وجعلا يرقبان

وكان موضعهما متسلطاً على مدخل المنزل تماماً

وكان بيداش ماسكاً طرف الحبل بحيث اذا طرأ عليهما حادث ما فانه يرمي به الى اسفل لينزلا بواسطته بسرعة طلباً لخلاص النفس

وكان السكون شاملاً لا يشوشه الاوقع خطوات بعض المارين في الشوارع المجاورة

وكان مشروع بيداش او بالحري خطته هي انه لو تصادف وجاء احد اللصوص بمفرده فانه ينزل مع اوكيدي منحدرين على الحبل ثم ينقضان عليه ويكمانه وبعد ذلك يقودانه الى اقرب مركز للبوليس حيث يستنطقانه ويطلبان منه ان يدلهما على مكان جورج اما اذا اتوا جميعاً معاً فان بيداش يستنبط حيلة يدخل بها عليهم مفاجئاً بعد ان يبعث اوكيدي لاستدعاء شرذمة من رجال الدرك

غير انه عاد فعدل عن خطته هذه لظنه انه يمكنه بواسطة المدخنة المعلومة ان يسمع حديثهم الذي ربما يكون مداره جورج وبذا يوفر على

نفسه الشروع باجراآت متعبة ولكنه سهى عن ان هذه المدخنة هي مدخنة وجاق لا يتصاعد منها الا حرارة النار ودخان الفحم وبعبارة اجلى فانه لا يستفيد منها شيئاً كما ظن ولا تنقل اليه كلامهم كما خيل له

وكاد الليل يتناصف عندما ظهر لهما ثلاثة رجال

فهمس بيداش ها بعضهم · فلنتبه واقبل الثلاثة نحو المنزل الاسود بعد ان وقفوا على راس العطفة ليتحققوا من انهم لم يتبعوا وقد كانوا فيرتون ولاكاز وسيمون

. . . .

في ذلك الوقت وقفت مركبة في شارع المانيا نزلت منها امرأة طويلة القامة تلوح عليها ملامح الحذر اخذت تدقق انظارها في منازل تلك الجهة ثم لم تلبث حتى دنت وقرعت باب منزل من خشب تعلوه لوحة مستطيلة قد كتب عليها (برجامي صانع المداخن) فانفتح وقالت قائلة من بالباب فاجابتها صاحبتنا المجهولة بلهجة غريبة امرأة اتية من قبل كازرنو كونتي لمقابلة المعلم برجامي لمفاوضته بامر ذي شان فتنحت عندئذٍ المرأة التي فتحت الباب عنه وقالت تفضلي وادخلي يا سيدتي قالت اهو هنا قالت نعم وقد كاد يوشك ان يدخل فراشه فدخلت عندئذٍ المرأة المجهولة بقدم ثابتة فوجدت ذاتها في مكان غاية في عدم الترتيب وفي احد اركانه وجاق بجانبه شيخ يصطلي فدنت منه وكان قد سمعها ذكرت اسم كازرنو كونتي فنهض لملاقاتها متثاقلاً وكان ايطالي الاصل نحيف الجسم طويل شعر الراس كثيف اللحية عريض الجبهة صغير العينين حاد النظر فحيته قائلة انني اتية من قبل

صديقك كاز،نو كونتي الذي تعرفت انا بهِ اخيراً والذي اعلمني انك متعهد
له ولبعض مواطنيك بان تستجلب لهم غلماناً ينقدونك في نظيرهم مبالغ طائلة
يعامونهم التسول او يرسلونهم الى الحقول يخدمون اصحاب المزارع نظير
اجرة مقررة تعطى لهم في آخر كل اسبوع فنظر اليها الرجل نظر الخبير
المستطلع وقال لقد كنت اشتغل فعلاً بهذه المهنة الدنيئة التي هي النخاسة
بعينها الا انني تركتها منذ زمن واقلعت عنها تماماً قالت وان يكن الامر
كذلك فاظن ان لا بأس عليك اذا عدت اليها مرة اخرى مقابل ربح
عظيم لم يكن ليخطر لك على بال قط فحدجها الشيخ بعينيه الصغيرتين
المعلومتين وقال ولكني حلفت الايمانات المغلظة على انني لا اعود لمثل ذلك
فلا يمكني اذن ان اتحول عنها على الاطلاق قالت لو فرضنا وكان قولك
صحيحاً افلا تندم على خسارة الف فرنك مثلاً فاندهش الرجل وقال الف
فرنك . الف فرنك . والحق يقال انه مبلغ جسيم لا بل ثروة لم تكن لتخطر
لي في حلم تنشلنا من وهدة شقائنا وبؤسنا ولقد قيل ان الغاية تبرر الواسطة
فافصحي اذن يا سيدتي عما ترغبين فقد صرت بكليتي اليك مستعداً على ان
ابذل كل جهدي في سبيل خدمتك فابتسمت المرأة شاكرة شدة نفوذ النقود
وقالت توجد اسرة عريقة في النسب ذات شهرة عظيمة وصيت حسن ذائع تود
ان تتخلص من ولد لها في العاشرة من سنه فعليك ان تبعده عن باريس
وتبعثه الى مكان قصي تعينه لي حتى يتسنى لي ان ازوره في اي وقت
اردت بشرط ان يكون تحت ملاحظة شخص يلازمه اينما حل ليمنعه عن
التكلم متى كان غرضه من ذلك اشهار نفسه واذاعة حقيقة اسمه فاجابها

الرحل على الفور عندي ما تطلبين فعلي بالغلام قالت حسن فها انا ذاهبة لاحضاره فاياك والتهاون فيما اشترطته عليك قال كوني في راحة بال ثم تصنع السعال واردف يقول والالف الفرنك فاخرجت من محفظة معها اوراقاً ماليه بقيمة المبلغ المذكور عرضتها عليه وهي تقول ها هي ساسلمها لك متى عهدت اليك بالغلام ثم حيته مصافحة وخرجت مسرعة وقد ادركت انه لم يقل لها انه ترك مهنته هذه الا لكي يفوز بربح جسيم وقد نجح

ولما ان ركبت المركبة قالت للسائق سر بي سريعاً الى حي الشابل ولا تقف الا متى نبهتك الى ذلك .

الفصل الثامن

« حوادث »

فصدع الحوذي بالاشاره والهب الخيل بسوطه فسارت تعدو سريعاً بحيث انه لم يمضِ عليها مدار ثلث ساعه حتى كانت العربه قد توسطت حي الشابل حيث وقفت لوقوف الخيل اثر اشارة من المراة للسائق

ولما نزلت المرأة من المركبة وجدت نفسها على بعد مئة خطوة من عطفة الجنة فارتضت من ذلك وقالت للسائق انتظرني هنا ومهما سمعت فلا تتحرك من مكانك

ثم تركته وسارت باحتراس حتى وقفت امام باب (المنزل الاسود) وقرعته عدة قرعات مصطلح عليها فقال قائل من في الباب فاجابته

المرأة اناجيانا فافتح لي سريعاً فانفتح الباب وانسلت داخلاً ثم لم تعتم ان خرجت ثانية قابضة على ذراع غلام تقوده جبراً وهو يقاومها بعنف وفيما هما كذلك وقد ابتعدت به قليلاً عن المنزل واذابها تسمع وقع خطوات غريبة تجد في اثرها فالتفتت مذعورة لتتبين حقيقتها وفي الوقت نفسه شعرت بيد قوية ثقيلة وضعت على كتف الغلام ثم خلصته من يدها بسهوله فصاحت جيانا مغضبة ثم استلت خنجراً كان معها وطعنت به صاحب هذه اليد المجهول الجسور غير انها ذهلت وصاحت حائرة اذ رات سلاحها المتين الماضي قد انقصف في يدها بدون ان يصيب الرجل باذى .

واذ ذاك اسرع اوكيدي فحمل الغلام ثم سار به مسرعاً فتبعه بيداش شاهراً مسدساً حامياً به مؤخرتهما من مفاجيء ما

وكان صوت جيانا قد سمع ممن كانوا في (المنزل الاسود) فانفتح الباب على اثره وخرج منه كل من فيرتون ولاكاز وسيمون

فصاحت عليهم لقد نشلاه مني وهـا هما امامكما فاسرع الثلاثة ووقفوا في طريق بيداش واوكيدي . ورأى الاول من جهة ان الثاني لا يمكنه النزال لسبب حمله جورج ومن جهة اخرى ان السلم التي نصبه على منزل الميكانيكي هي على قيد بضعة امتار منه فصاح على اوكيدي الى السلم . الى السلم . ولننج من السطح .

وفي الوقت نفسه تصعدا في السلم بعجلة زائدة ولما بلغا السطح اسرع بيداش ورفعها .

وكان ذلك في نفس الوقت الذي همَّ فيه فيرتون ان يضع قدمه عليها ليتعقبهما ٠

وسهى بيداش عن ان يسحب الحبل الذي نزل مع اوكيدي بواسطته فابصره فيرتون واخذ يتسلقه مع زميليه بمهارة غريبة ٠

ولما ان وصلوا بدورهم الى السطح وجدوا ان بيداش وصديقه انتقلا الى سطح المنزل الاسود وقد نصب الاول سلمه على احدى المنازل المرتفعة وجعل يتدرجها خلف اوكيدي ٠

فاتجهوا نحوهما مسرعين ولما ان وصل فيرتون الذي كان في مقدمة رفيقيه الى اسفل السلم كان بيداش قد بلغ اعلاها ٠

فصاح لاكاز تشجع يا فيرتون واصعد خلفهما لنتبعك فعمل فيرتون باشارة زميله وتصعدها وفي اثره رفيقاه ٠

غير ان الاول منهما لم يكد يبلغ راس السلم حتى انشق حجاب الظلمة بنور كالبرق عقبه دوي عيار ناري خرج من غدارة بيداش واصاب رصاصه راس فيرتون فصاح صيحة مزعجة ثم تدهور على رفيقيه فثار ثائرهما لسماعهما دوي البارود من جهة ورؤيتهما سقوط فيرتون من جهة اخرى ثم اخذت منهما الحميه كل مأخذ فجعلا يتسلقان السلم وهما يصيحان وقد وضعا خنجريهما بين اسنانهما

ورأى اوكيدي ذلك فعهد بجورج الى بيداش ثم دنا منها اي من السلم وقبض على طرفيها بيديه ثم جمع قواه وطرحها الى الوراء

فسقطت بعنف وخرج من اللصين صوت عظيم يشف عن الخيبة

والموت واليأس ثم تدهورا على سطح المنزل وسقطا الى الارض

فصاح بيداش معجباً بقوة صديقه لا شلت يداك يا عزيزي اوكيدي والان فانني اجد جورج لا يتكلم فيظهر لي انه مكمم فدنا اوكيدي منه ولما تبينه راى فمه مسدوداً بمنديل مشدود فرفعه فتنهد الغلام تنهداً طويلاً واذا عرفه اوكيدي بنفسه طوقه بذراعيه وهو يقول يا حبيبي باتريك انا خائف . خائف جداً فقال بيداش انك نجوت يا ولدي وغداً يذهب بك باتريك عند شقيقك فلا تجزع ثم التفت نحو صديقه وقال اننا لا يمكننا ان نلبث هنا الى الصباح فلنسع للخلاص ثم طفقا يسيران ويد جورج في يد باتريك وكان الظلام شديداً فصارا يتجهان طوراً الى اليمين وطوراً الى اليسار حتى عثر بيداش على باب نصفه الاعلى من زجاج وكان موصداً فاراد ان يعلم الى اين يؤدي فسال اوكيدي ان لم يكن معه زناد فبحث الفتى في جيوبه ولم يلبث حتى ناوله ما طلب فقدح بيداش عوداً ونظر مكتشفاً فرآه يؤدي الى سلم وكان مقفلاً بواسطة مزلاج حديدي من الداخل فارتضى من ذلك وقال اتذكر يا اوكيدي اني رأيت في اصبعك خاتماً من الالماس فاجابه اجل وها هو لم يزل فيه قال لي به فنزعه الفتى بدون ان يسأله عن السبب وقدمه له فتناوله بيداش ورسم على الزجاج من جهة المزلاج دائرة تكفي لمرور يد الانسان ثم ضغط بهدوٍ على هذه الدائرة فانفصلت بسهولة عن اللوح وسقطت بدون ان يسمع لها صوت

وقد قال بيداش بعدئذٍ بخصوص ذلك انه يظن انها سقطت على

تراب متراكم .

ثم ادخل بيداش يده من تلك الكوة الصغيرة التي أحدثها وسحب المزلاج بهدوءٍ فانفتح الباب بسهولة فاشعل عوداً اخر وجعل ينزل السلم بحذر واحتراس وكان اوكيدي وجورج يتبعانه حتى وصلوا الى فناء الدار وهنا وقف بيداش مفكراً لحائل جديد وهو ان الباب المؤدي الى الخارج كان مقفلاً غير انه لم يعتم ان اشعل زناداً فرآه مغلقاً بواسطة اكرة فرفعها ثم جذب الباب نحوه وانسلوا خارجين ووجهتهم مركز بوليس في الشابل حيث كلف بيداش نفراً من الرجال ان يذهبوا ويعودوا برجلين جريحين او قتيلين يجدوهما في عطفة الجنة واذ ذاك انفتح باب امامهم وخرج رئيس الشرطة ملتفاً بعباءة ظاهرة على محياه ملامح الدهشة والاستغراب اذ سمع كلام صاحبنا فادرك هذا كنه الامر وابرز له رقعة حمراء دليل سابق وظيفته فانحنى عندئذٍ الرئيس مقتنعاً ثم قام بنفسه مع ثلاثة من رجاله الى المكان الذي دلهم عليه بيداش

وبعد قليل عادوا حاملين رجلين وجدوهما ملقيين عند جدار منزل الميكانيكي وكان احدهما وهو لاكاز مشجوج الراس لا يعي شيئاً والاخر سيمون وكان مكسور الفخذ غائباً عن الصواب

اما جيانا فلما رات ما حدث عادت فركبت المركبة وامرت الحوذي ان يسرع السير وكانت بلا شك تقصد الزعيم لتبلغه ما جرى

وكان بيداش منتظراً في دائرة البوليس عودة الرئيس ورجاله فلما عاين حالة اللصين كلفه ان يستدعي لهما طبيباً ليضمد لهما جراحهما ثم قال وارجوك

ان تبلغ هذه الحادثة الى المستنطق وساكون حاضراً وقت اخذ اقوالهما لابدي ما يعن لي من اسباب حالتهما هذه ثم صافح الرئيس شاكراً له خدمته وخرج وبجانبه صديقه وجورج وقد عوّل على تمضية بقية هذه الليلة عند اوكيدي

ولما تضحى النهار قصدوا نزل ميرابو حيث عهدوا بجورج لكلارا التي كاد يغشى عليها فرحاً لدى مرآها اياه عائداً سالماً . وكان الوقت لا يسمح لهما بولوج غرفة حنة اذ ربما تكون داخل فراشها وقد ارتأيا عدم مباغتتها بمقابلة شقيقها لئلا تؤثر عليها هذه المباغتة لحد تخشى عاقبته فآثرا ما فعلاه واوصيا كلارا ان تبلغ سيدتها برصانة ولطف ان اخاها قد وُجد ثم تركاها وانتظرا في غرفة جلوس الفندق ولكنهما لم يكد يستقر بهما المقام حتى سمعا صيحة الفرح والحبور يتردد صداها في جوانب النزل وكان مصدرها غرفة حنة

فتناظرا مبتسمين وكان هذا الصوت صوت الجذل والسرور قد وصل الى اذانهما ناقلاً اليهما ما يكنه لهما فؤادها من عظيم الشكر .

وبعدئذٍ اقبلت حنة عليهما وهي جذلى تكاد تطير بشراً مرتدية برداء رقيق ابيض ناعم تظهر منه عرية صدرها وجمال ساعديها وكانت قابضة على يد جورج وهي تقبله تقبيلاً ثم ضمت ايديهما بين يديها بحرارة واخلاص وقالت بصوت يشف عن معرفة الجميل وعظم الامتنان اشكركما . اشكركما جزيلاً انتما يا سيدي يا من اعدكما ملاكي الحارسين . ثم جلست بجانبهما واستفسرتهما ما عملا حتى تمكنا من خلاص جورج فسرد عليها

يداش كافة ما حصل بما جعلها تكرر ثنائها عليه وتنظر لاوكيدي بعينين يتلألآن بنور الحب ثم اردف يقول والان فقد تبدد شمل هذه العصبة وانحل عقد ائتلافها ولم يتبق منها سوى الزعيم وقد اصبح كطير مقصوص الجناح ووقوعه في ايدينا من اسهل الامور فما عدت تخشين شيئاً ثم شخص الى اوكيدي وقال اما نحن ايها الصديق فعلينا ان نذهب لسماع اقوال الجريحين ومن ثم نسافر الى اورليان فحدجه اوكيدي بعينيه الجميلتين وقال مستنكراً الى اورليان فاجابه مبتسماً اجل يا عزيزي باتريك وساوقفك على السبب اثناء الطريق فهلم بنا لانه ليس لنا من الوقت ما نضيعه باطلاً

الفصل التاسع

« ليلة حافلة »

مالنا الان وبيداش واوكيدي فلنتركهما وشانهما قليلاً لا سيما واننا اقتنعنا بمهارة الاول وشدة ساعد الثاني ولنزه الطرف قليلاً بمرآى المشاهد الجميله ونشنف السمع بصدى الالحان الموسيقيه الشجيه فقد ظهر قصر المركيز دي فيلادوريس الكائن في حي فيايير في ليلة الاحد ثلاثة فبراير سنة ١٨٨١ متوشحا بابهى زينة من الانوار المتعددة الالوان مكللاً مطلعه بالزهور والرياحين مفروشة ارضه بيسط العجمية زاهية اخذت تطأها اقدام ربات الجمال اللاتي اقبلن يتهادين بوجوه طافحة بنور البهاء مرتديات

بملابس ثمينة تظهر منها سواعدهن العاجية وبشرة صدورهن النقية احتفالاً بمشترى المركيز ذلك القصر منذ شهرين . وكان المركيز ووالدته جيانا التي كانت وهي بملابسها السوداء اشبه بكاترين دي ميدسيس الشهيرة من حيث الجمال يستقبلان المدعوين بترحيب ما عليه من مزيد وكان الاول آخذاً على نفسه وهو مرتدٍ بثياب عظماء المكسيكيين توصيل السيدات الى غرفة متسعة الارجاء اعدت للرقص كان في احد اركانها بيانو قد جلست امامه احدى ربات الدلال وجعلت توقع عليه الحاناً اشترطت ان لا تكون سوى غرامية مما لا يعرف مقدار تاثيرها الا من كان له في الحب نصيب

واذ تناصف الليل كفت عربات المدعوين عن الوفود وكان الرقص قد افتتحه المركيز دي فيلادوريس مع من كانت توقع على البيانو ولم تكن البرهة وجيزة حتى اتسعت حلقة الرقص وصارت سوقاً راجت فيه بضاعة الشباب والجمال

وكان الكونت دي كازرت من جملة المدعوين غير انه كان مبتعداً عنهم جالساً مع صديق له يدعى مورليه في احدى جوانب القصر وهما يتحادثان بشأن هذه الحفلة ومدعويها غير ان كلامهما انحصر فيما بعد في ان الباريسيين يتهافتون على التعارف بكل ذي مال غير منقبين عن حقيقة اصله وشاهدهما على ذلك المركيز دي فيلادوريس الذي اظهر لهم نفسه واختلط بهم منذ شهرين ثم وجدوا عنده في تلك الحفلة ما ينيف عن الخمسمئة مدعو

وفيما هما كذلك واذا بغادة هيفاء اقبلت عليهما تتهادى ثم قبضت على

ذراع مورليه وهي تقول انت هنا وانا ابحث عنك منذ مدة فوقف الشاب وهو يقول عفواً يا عزيزتي لويزا فقد كنت اتباحث مع صديقي هذا في شأن مهم ثم استاذن من الكونت وابتعد معها وهي كلما تراه يزيد اعتذاراً تزيده تأنيباً وعتاباً

فصار الكونت والحالة هذه وحيداً وكان وصل اليه اثناء نهار هذه الليله نباء برقي من لوريان هذا نصه :

اذا اردت معرفة من اراد قتلك وسلبك نقودك فلا تتأخر عن الذهاب لحفلة المركيز دي فيلادوريس ·

وكان التوقيع هكذا : صديق :

واننا نتذكر ان الكونت المذكور كان صرح لبيداش واوكيدي بعدم امكانه حضور هذه الحفله الا انه لم يستلم هذه الرساله حتى غير عزمه وعوّل على الذهاب ليرى من كاد ان يورده حتفه · وقد كان غير مصدق ان ذلك اللص الالي الاثيم الجرىء الفتاك يكون من جملة مدعوي المركيز لا سيما وان هذا الظن كاد ينقلب الى حقيقة اذ دقت الساعة مشيرة ان الوقت صار بعد نصف الليل بساعتين بدون ان يحظى بمقابلة ذلك الصديق المجهول الذي بعث له بتلك الاشاره البرقيه ·

وايقن الكونت ان المسالة لا تتعدى حدود المزاح فتحفز للخروج واذا برجل مقنع متنكر بملابس قدماء اليونان قد برز له من وراء باب الغرفة التي كان جالساً فيها ثم وضع يده على كتفه وهمس في اذنه هذه الكلمة : انتظر :

فوقف الكونت مندهشاً ثم اراد ان يستفسره عن معنى ذلك فوجده قد اختفى من امامه فجعل يبحث عنه حتى لمحه ينسل داخل غرفة اخرى ملاحظة لقاعة الرقص فقصدها مسرعاً معولاً على الالحاح عليه ليوقفه على حقيقة الامر غير انه لم يهتدِ اليه ولم يقف له على اثر ٠

وكان المجتمعون قد طلبوا من الجوق الموسيقى الذي كان اغلبهم يرقصون على نغماته ان يعزف لحن رقصة (الكوتيللون)

وكان جملة من الفتيان قد تالبوا حول الآنسة ماري دي سيفين زهرة هذا المجتمع وجعل كل منهم يتزلف اليها بغية مخاصرتها ٠

فلما ان رأت ذلك قالت مبتسمة أتوني بسلة ورد يلقى فيها كل من اراد الرقص معي برقعة عليها اسمه ثم اتناول احداها فاكون من حظ صاحبها

فصاح الجميع جذلاً معجبين بعدالة هذا المقترح واحضروا ما طلبت وجعلوا يلقون في السلة بطاقات زياراتهم

واذ عاينت الكف عن ذلك ادنت يدها البديعة من السلة ثم اخذت رقعة فاشرأبت اعناق الشبان لمعرفة صاحبها ولكنها لم تمهلهم حتى قالت بافتخار المركيز دي فيلادوريس

فشخصوا جميعاً الى هذا الاخير بعين الحسد وقد تراجعوا ليبحث كل منهم عن رفيقة

غير ان هذا المركيز لم يهم ان يقبض على يدها اللطيفة التي مدتها له بدلال ساحر حتى اعترضه رجل مقنع متنكر بملابس عظماء الاسبانيول

القدماء وقال له بفتور باللغة الاسبانيولية : العفو يا سيدي ان هذه الغادة من نصيبي انا وانك غششت على ما اظن لان المركيز دي فيلادوريس هو انا

وللوقت ازاح لثامه فاسفر عن طلعة باهرة تلوح عليها ملامح العياء شخص صاحبها الى المركيز بعينين حادتين يتطاير منها شرر البغض وحب الاخذ بالثار

فتقهقر المركيز مذعوراً كمن تمثلت له رؤية هائلة ثم انحبس صوته وبهت ونظر حوله كمن فقد الصواب

. . . .

وذهب بيداش واوكيدي الى دائرة البوليس التي اودعاها لاكاز وسيمون وحضرا استنطاقها الا انهما لم يقرا بشيء وتمثلا بلوبير

فلم يعبأ بيداش بصمتهما اذ علم كيف يجعلهما يصرحان بامر عصبتهما ثم ذهب وصديقه وشيعا جثة جريليش المسكين الى مأواها الابدي وكانت مظاهر الاسف والحزن الشديد مرتسمة على وجهيهما ومن ثم قصدا محطة السكة الحديدية وقطع كل منهما جواز سفر الى لوريان وكان اليوم يوم خميس واطراف الافق متلبده بالسحب فلما بلغا البلدة المذكورة اتجها نحو فندق صرفا فيه بقية يومهما ولما اصبح صباح اليوم التالي استيقظا من نومهما غير شاعرين بتعب ثم انتظرا حتى اضحى النهار فتركا الفندق ومشيا قاصدين نزل فرنسا حيث سلم بيداش لغلام رقعة زيارته بعد ان كتب عليها اسم اوكيدي واضاف عليها : من قبل الموسيو ميرانتيه وكلفه ان يعطيها للمركيز دي فيلادوريس فذهب الخادم وما عتم حتى عاد ناقلاً اليهما

الاذن بالدخول فمثلا لديه واذ بهما في حضرة شاب ضعيف البنية هزيل الجسم غير ان ذلك لم يقلل شيئاً من جمال صورته فتلقاهما باشاً ثم قال بالفاظ متقطعة تفضلا واجلسا يا سيدي ولا تؤاخذاني اذا اثقل عليكما سماع حديثي لانني لا احسن اللغه الافرنسيه فسأله اوكيدي باحترام الك المام باللغة الانكليزية فاجابه بها انني لا اتقنها غير انني كفوء لان اوضح بواسطتها ما اريد قوله باكثر سهولة قال حسن فلنتخاطب بها اذن لا سيما وان رفيقي قد درسها ايضاً فارتضى بذلك وبناء على هذا الاتفاق افتتح بيداش الحديث قائلاً ان غرضنا من الحضور الان ياسيدي المركيز انما هو قصد سماع تعلياتك بخصوص الجاني الذي كان يود ان يفتك بك واظن انه قد مضى على هذه الحادثة ما ينيف عن ثمانية او تسعة اشهر قال تقريباً يا سيدي اذ اتذكر ان هذه الحادثة المشؤومة وقعت لي في السادس من شهر يونيه من السنة الماضية قال لقد شرح لنا الموسيو ميرانتيده وقائع هذه الفاجعة شرحاً مسهباً غير انك واهم في زعمك ان الجاني باقٍ في لوريان قال اهذا هو ظنك انت يا سيدي قال ليس ظني بل يقيني قال واين مقيم هو اذن قال في باريس حيث يمرح فيها كيف شاء فذهل المركيز وقال عفواً يا سيدي فانني اكاد لا اصدق ما سمعته قال لا بل صدقه وتاكده لانه الحقيقة بعينها اسردها عليك خالية من كل غرض ومأرب قال انني اوشك ان لا اتمكن من امتلاك عنان مزيد اندهاشي فهل لك ان تفيدني كيف علمت انت ذلك قال حباً وكرامة يا سيدي غير انني ارجىء هذا حتى استعلمك اشياء تهمني معرفتها كثيراً قال ها انا مستعد لاجابتك على كل ما

تسألنيه قال انك ابحرت من فيرا كريز في اوائل شهر مايو اليس كذلك قال نعم قال اكانت لك معرفة باحد المسافرين قال كلا ياسيدي قال الم تتعارف اثناء السفر بفرد منهم قال تعلم ان ما من مسافر الا ويختلط ببقية الذين على ظهر المركب اذ فطر الانسان على حب الالفة والملل من الوحدة والانفراد بحيث انه لم يمر علي عدة ايام حتى كنت اتحادث مع اغلبهم محادثة تشف عن وداد ومحبة كاننا اصدقاء قدماء غير انه لا يغرب عن بالك انني لا احسن سوى اللغه الاسبانيوليه فكنت لا اتخاطب الا مع من يعرفها قال ومن هم هؤلاء فاطرق المركيز مفكراً ثم رفع رأسه وقال لقد كانوا كثيرين وما عدت اذكر منهم الا قائداً اسبانيوليا وزوجته وابنه وموسيقيين من الجوق الفرنساوي الذي في مكسيكا وفتاة انكليزيه صرفت مده طويله في بلاد المكسيك كانت عائدة الى انكلتره وسيدتين الاولى من مونتوفيديو والاخرى من بونس ايرس ثم السيدة سان ليكار وولدها الذي تمكنت بيننا صلة الصحبه لحد كنا لا نفترق فيه عن بعضنا ابدا وقد كان من دوري. وكنا نمضي هزيعاً من الليل ونحن نلعب الورق هذا والحق يقال انني وجدت في هذا الامر تسلية كبرى الا انها كلفتني كثيراً لان النحس كان ملازماً لي والخسارة من شأني قال الم تذكر لهذا الفتى ولو طرفاً من تاريخ اسرتك قال اجل فقد فاتحني مرة بهذا الحديث فاجبته انني يتيم مات والداي في السنة الماضية وتركا لي ثروة لا تقدر فسئمت وحدتي وتاقت نفسي للتغرب فوقع اختياري على فرنسا الزاهرة لاشاهد آثارها وازور عاصمتها وقد قام لي احد الاصدقاء بخدمة تذكر وهي انه

حرر لي توصيات عديدة اكد لي حين اعطائي اياها انها تمهد لي سبل التعارف باعاظم الفرنساويين واتذكر اني قرأت عليه غير واحدة من هذه التوصيات فسأله بيداش وهل لاحظ هذا الشاب ان هذه الاوراق كانت ضمن محفظة كنت تحملها في جيبك فاندهش المركيز وقال مستنكراً عفواً يا سيدي انه يخال لي انك تشك في هذا الفتى مع ان ... فلم يراع بيداش اعتراض المركيز اذاناً صاغية وقاطعة قائلاً وهو . هذا الشاب . هل كشف لك شيئاً اوقص عليك خبراً يختص باسرته قال كلا بل اقتصر على القول انه ساح في اميريكا واسبانيا وفرنسا وانكلترا وايطاليا وقد تحققت فيه تمام الالمام بلغات هذه الممالك اذ كان يتحادث مع المسافرين معنا من قاطني بلدانها كانه واحد منهم قال الم تتبادل الحديث مع والدته قال قل ما حدث ذلك اذ ان هيئتها ما كانت تعجبني قط مع كونهم قالوا عنها انها جميلة قال فلنقفل الآن من هذا الحديث لانني تحصلت على ما كنت ارومه ولندخل في مباحثة اخرى اعدها من الاهمية في مكان افتتحها بقولي هل لك اقرباء في باريس قال كلا يا سيدي فاني الشخص الاخير الباقي في ذلك الكون الواسع من نسل اسرة فيلادوريس الشهيرة فصمت بيداش وافتكر ثم استأنف قائلاً انك طعنت في جانبك الايسر اليس كذلك قال هو كما تقول وقد تالمت كثيراً قال الا تتذكر ان كان من طعنك باشر ذلك بيده اليمنى او اليسرى يا سيدي المركيز فاجابه بعد اعمال الفكرة لا بل بيده اليسرى اذ انه سد فمي بيده اليمنى ليمنعني عن الصراخ قال حسن جداً والان فهل كان صديقك الموسيو ليكار اعسر فبهت المركيز

وقل مضطرباً اجل يا سيدي فقد كان يقضي جميع حاجاته بيده اليسرى ثم قال بصوت هاد لا يخلو من التلجلج ولكن .. ولكن يا سيدي انه يخيفني اشتباهك في صديقي هذا الذي كان يحبني محبة صادقة واجله للطف معشره كما يكون من اعاظم البشر فابتسم بيداش ابتساماً معنوياً فات المركيز فهم كنهه وقال ما قولك اذا طلبت منك ان تسافر الى باريس فتعاظمت دهشة المركيز وقال هذا فوق طاقتي اذ قد نهاني الطبيب عن مزاولة الفندق قال حسن غير انه لو قلنا ان ذهابك لمصلحة عظيمة لك افلا تؤثره على اشارة الطبيب قال يذهلني كلامك يا سيدي واني وان كنت ضجرت من البقاء هنا وملت لاتباع قولك الا انني لا ابت فكري الا بعد ان اقف على سبب سفري واعلم متى تريد ان يكون ذلك فقال مبتسماً اما السفر فيكون غداً اصباحاً قال امن ضرورة لذلك قال اجل ولولا ذلك لما جئت عندك اليوم قال حسن فقد عرفت الميعاد وبقي السبب فما هو فاتخذ بيداش هيئة جديرة برجل مثله وقال هو كي اقدمك لقريب لك ما كنت تظن وجوده من قبل فأُخذ المركيز وجعل يكرر جملة بيداش بهدوٍ ثم عبس وقال بصوت عالٍ ارجلٌ هو يا سيدي قال اجل قال وماذا يدعى فاجابه بوضوح وتأن انه يدعى المركيز لويس دي فيلادوريس فوثب الشاب من مكانه بصفة جعلت بيداش يتراجع بكرسيه قيد ذراع ثم صاح هذا محال يا سيدي فان المركيز لويس دي فيلادوريس هو انا فلم يمتلك بيداش عنان شعور ظفره الا بجهد جهيد وقال بسكون امتاكد انت من ذلك يا مولاي المركيز لويس دي فيلادوريس فحدجه الفتي بعينين حادتين تشفان عن الصدق وعلو المنزلة

وقال وهو يجلس على كرسي والعرق يتحلب من وجهه بئست الساعة التي يتخذ فيها غير اسمي ولقبي وانا حي ارزق ويا ويل ذاك الذي تجاسر على فعل ذلك قال انه يتمتع الان مع والدته باعلى طبقة من الاكرام وقد حلا منذ ثمانية اشهر ونالا ارفع مركز في عيون الباريسيين وذلك بفضل رسائل تزود بها قبل قيامه من المكسيك . وغداً . غداً مساءً سيحتفل بليلة رقص عظيمة دعا اليها وجهاء العاصمة وسيتوافدون مقنعي الوجوه متنكري الملابس فصاح المركيز من قلب احرقته نيران الخيانة وقد وقف على قدميه اصفر فلنسافر . فلنسافر . فلنسافر اليوم يا سيدي لا . بل في الحال . في الحال ولقد ايقنت ان من سلبني محفظة اوراقي وخيل له انه قتلني هو . . . . فقاطعه بيداش قائلاً هو نفس ليكار صديقك الصدوق الذي صار لي مدة وانا ابحث عنه واجد في طلبه واطارده في كل مكان اذ قد ارتكب جرائم هائلة وتلقب بعدة القاب فقال المركيز وهو يحرق الارم غضباً ويفرك يديه غيظاً فلنسافر . فلنسافر في الساعه الثانية من بعد ظهر اليوم لانني اكاد اموت كمداً وما عدت اطيق الانتظار فقال بيداش وقد تبسم مرتضياً اذاً فسنقبض عليه في مساء الغد فاجتهد ان لا تتخلف عن الميعاد قال ابداً ابداً يا سيدي وسنسافر معاً وتاكد من اعترافي بخدمتك ثم اتجه نحو خزانة فتحها واخذ منها ملفاً من الاوراق قدمه لبيداش وهو يقول وتايداً لما ذكرته ارجو منك ان تقبل مني هذه الاوراق المالية فرفض صاحبنا العطية باحترام ولطف كما عهدنا فيه وقال الاوفق ان تبقى هذه لحين تمام نجاحنا فنوزعها على فقراء باريس احتفالاً بالأثار لك

اذ اننا اي انا وصديقي لسنا والحمد لله باحتياج لشيء من المال واننا لم نعقد خناصرنا للقبض على ذلك اللص الباريسي العنيد الا خدمة للانسانيه ولسنا تابعين لدائرة البوليس التي لو كان الموجودان مكاننا من موظفيها لقبلا بعطيتك الكريمة بل اننا خارجان عنه غير مرتبطين بقوانينها فقال المركيز لا تؤاخذاني يا سيدي وقد قدرت مقدار نزاهة عملكما وشرف مقصدكما فاشكركما على ذلك واهنئكما بمهارتكما

وهنا تصافحوا لانفصال يعقبه لقاء ثم قصد الصديقان مكتب التلغراف وبعث بيداش الى الكونت دي كازرت الاشاره البرقيه التي اشرنا اليها في الفصل السابق ٠

ولما تحرك قطار الساعة الثانية القائم من لوريان كان الرجال الثلاثة جالسين بجانب بعضهم وهم لا ينبسون

وكان الجو اقتم والسماء منذرة بالمطر

الفصل العاشر

« بلوغ الامل »

ارتعدت فرائص فيلادوريس الكاذب خوفاً لما راى من سلبه اوراقه وظنه مات وصار رفاتاً منتصباً امامه يناقشه الحساب ممثلاً شبح الانتقام يطالبه بما فعل الا انه ادرك ان ما من احد لحظ مـا حدث بينهما لانشغالهم في الرقص فتمالك روعه قليلاً ثم اتجه ببطء نحو زر

جرس كهربائي وضغط عليه مراراً فلم يعتم حتى اقبل رجل يمثل احد حراس القرن السابع عشر لما كان عليه من الثياب فدنا عندئذ بيرو من المركيز دي فيلادوريس وقال له بالاسبانيولية اذا كنت توثر الحياة على الموت ولك ميل اليها فعليك ان تتبع هذا الرجل فابتسم المركيز ساخراً من قوله ثم ظل واقفاً في مكانه وجعل يرمقه بانظار تدل على حقد شديد وعدم مبالاة بتهديد فاشار آنئذٍ بيرو الى الرجل المتنكر اشارة جعلته يقترب من المركيز ويقبض على ذراعه ليقوده خارجاً فلم يبد هذا ممانعة وسار واياه هازئاً الا انهما لم يصلا الى باب هـذه الغرفة وكان مزدحماً بالمدعوين حتى انقض اثنان علي ذلك الرجل المتنكر واوثقاه

وفي الوقت نفسه ظهر من بين بقية المدعوين ومن امكنة مختلفة ستة من رجال الدرك الفلورنتيني مقنعي الوجوه تقدموا من فيلادوريس الكاذب وكونوا حوله شبه نصف دائرة

فارتاع المدعودن وبطل الرقص وكفت الموسيقه عن العزف

امـا بيرو فلم يرَ ما حل به حتى تقهقر قليلا ثم امتشق حسامه باحدى يديـه واستل خنجره بالاخرى ثم صاح بصوت الجسور اليائس سابيعكم حياتي غالية واذ قال ذلك عاد فانقض على اكبر المحدقين بـه جسما واشدهم ساعداً ونزل عليه بضربة خنجر شديدة بغية التخلص من هذه الحلقه لينجو بنفسه ولكن الخنجر انكسر نصفين بدون ان يصيب الرجل باقل اذىً .

فبهت بيرو وتقهقر ثانية وهو يعر عرير الوحش الكاسر اذ ادرك

بالفشل ثم فطن الى حسامه الذي في يده فعاوده امل النجاة وهجم عليهم وهمَّ ان يعمله فيهم فتكاثروا عليه ونزعوه منه وشدوا كتفيه

فجزع المجتمعون واخذوا يفرون كالطير المذعرة اثر سماعها دوي بارودة صياد ٠

وبينما كان بيرو عجيج الخيبة والقنوط وهو في موضعه لا يستطيع حراكاً كان يسمع من احدى غرف القصر صخب وصراخ جيانا التي كانت تحاول عبثاً التملص من بين ايدي اربعة من الرجال الاشداء

ولم يمض قليل حتى اركن بقية المدعوين الى الهرب الا ان البعض منهم الذي كان من طبعه حب الوقوف على حقيقة كل امر لبث منتظراً حتى يتسنى له معرفة سبب هذا الانقلاب ولكنه لم يتمكن من ذلك لان ثلة من رجال البوليس كلفته ان يخلي المكان ثم وقفت بالابواب وفي المماشي محافظة على الجانين على ان هذا الامر لم يسر على الكونت دي كازت لوسيط له ٠ كان هناك ٠

ثم نقلوا بيرو وجيانا والرجل المتنكر وجمعوهم في غرفة واحدة تعهد بعض رجال الشحنة بحراستهم فكان من يمعن نظره في هؤلاء الحراس يرى من بينهم باتريك اوكيدي قد اسفر عن وجهه واخذ يسير ذهاباً واياباً بوجه طافح بنور البشر وكان وهو مرتد بملابس البوليس الفلورنتيني ويوالي سيره كما اشرنا ينظر المرة بعد المرة مبتسماً لبيداش الواقف على مرآى منه وهو متنكر بملابس قدماء اليونان ثم يستلفته بسرور ووداد الى الخنجر المكسور الذي لولا درعه لكان قد نفذ داخل صدره وجعله في

خبر كان ٠

اما بيداش فقد كان يجاوب على تبسمات صديقه باحسن منها ثم يلتفت الى جانبه ويشير الى الكونت دي كازرت الواقف منذهلاً الى بيرو الذي كان يتردد على نادي التقدم في اغلب الاحيان

اما المركيز لويس دي فيلادوريس فقد مثل اعظم دور في هذا الفصل ثم انسحب خارجاً مشكوراً من بيداش ٠

وكان هذا الاخير قد ارسل يستدعي المستنطق فلما حضر شرع باخذ اقوال الجانين ولكنهم لم ينبسوا ببنت شفة فامر بنقلهم الى مركز البوليس فقاوموا شديداً ولكن ذلك لم يجدهم نفعاً اذ قادوهم قسراً الى عربة كانوا قد استحضروا عليها ثم اجلسوهم فيها وسارت بهم تطوى صدور الارض على الاعجاز قاصدة المكان الذي يلقى فيه الاشرار جزاء ما يقترفونه من الفظائع وما تجنيه ايديهم من الآثام ٠

الفصل الحادي عشر

« جلاء الغامض »

في صباح اليوم التالي لما مر من الحوادث ذهب بيداش واوكيدي الى نزل ميرابو حيث قابلا الآنسة لاسيدات وبلغاها ما جرى ٠

فحنة ٠ الفتاة اليتيمة الجميلة المسكينة التي قاست كثيراً وتألمت شديداً بكت فرحاً لدى سماعها ما روياه لها ثم قالت لقد طوقتما عنقي

يا سيدي بعقد افعالكما المجيده التي لن انساها ابداً وكالتما هامتي بتاج من جميل صنيعكما يذكرني دائماً بما لكما عليَّ من المنن والان فقد اتى دوري وحانت ساعتي وازف وقت انتقامي فتنحيا عن ساحة القتال وتفرجا على ضرباتي ثم عمدت الى منضدة عليها جريدة فاخذتها وقدمتها لهما فتناولها اوكيدي وتلا على بيداش فقرة دلته عليها الفتاة وكانت كما يأتي :

سيحتفل في آخر الشهر الجاري بزفاف الفيكونت راعول دي فيفيرول على الآنسه برتا دي بولنجيه كريمة المثري العظيم جان لويس دى بولنجيه الذي قدم لابنته هذه صداقاً مقداره نحو مليون من الفرنكات فتمنى ...

وهنا قطعت حنة قرأة اوكيدي بقولها فالان انا بانتظار هذا الفيكونت لافاتحه بامر تناساه فاضطرب باتريك وقال وقد توهم ان حب دي فيفيرول لم يزل متاصلاً في قلبها . كيف . االستدعيته انت حتى تقولي انك تنتظرينه ففقهت الفتاة ما خامر فكر حبيبها وفي الوقت نفسه سمعت دوي عجل مركبة وقفت امام باب الفندق فقالت مبتسمة اجل ياعزيزي اوكيدي وعلى ظني انه اتى .

وفي الوقت نفسه فتحت كلارا الباب بهدو و بشرت بقدوم الفيكونت راعول دي فيفيرول .

فادخلت الفتاة الصديقين في غرفة ملاصقة وهي تقول لهما ساطلبكما متى احتجت اليكما ثم قالت لكلارا وقد استعدت للقاء الزائر دعيه يأتي

ثم جلست على مقعد منتظرة دخول ذلك الذي كان يخفق فوءادها غراماً لدى علمها بمجيئه وما عادت تحفظ له فيه سوى حاسات البغض والامتهان

وبينما هي كذلك دخل عليها الفيكونت اصفر الوجه ناكس الراس ثم حياها بارتباك وقال لقد استلمت رسالتك ايتها الانسه واتيت ملبيا دعوتك قالت حسناً فعلت يا سيدي وثق بان ما سأسرده عليك من الحديث هو من الاهمية بمكان ثم اشارت الى كرسي واردفت تقول تفضل واجلس يا فيكونت وتجدني افتتح كلامي بتهنئتي اياك بقرانك الذي سيحتفلون به بعد عدة ايام . اراك تظهر الدهشة لالمامي بهذا النباء السار ولكني اضع حداً لتخميناتك بقولي انني قرأت هذا الخبر في احدى الجرائد اليومية فحار الفتى وقال متلعثما تاكدي ايتها الانسه ان زواجي سيكون رغماً عن ارادتي لان والدي هما اللذان دبرا كل شيء بدون علم مني فقالت متهكمة لربما تكون صادقاً في قولك يا فيكونت غير انني لا ارى في هذا القران مـا يلجئك الى رفضه قال هذا هو زعمك انت واراه غير مبني على اساس قالت كلا بل انه مدعم اذ ستحظى بصداق مقداره نحو مليون فرنك فاضطرب راعول وقال منبهتاً لا تؤاخذيني يا سيدتي اذا قلت لك انني لا اعلم لماذا انت .. فقاطعته قائلة لماذا انا استدعيتك اليس كذلك . اجدك ضجرت حديثي ومللت المكث معي مع انني لم اعهد فيك ذلك من نحوي ولكن لا بأس وها انا الان ابتدىء بذكر ما دعاني الى طالبك فاعرني سمعك قال كلي اذان صاغية فتكلمي قالت لقد طلبت انت ذلك مع كوني كنت اود ارجىء الحديث لتخفيف ثقل وطأته ولكن هي العناية ابت الا ان يكون قاسياً حتى يتعظ كل متجبر غشوم فاعلم اذا يا فيكونت اني طلبت حضورك لمفاتحتك بشان احد اعضاء عائلتك الذي يئستم من

وجوده وظننتموه مات مع كونه حياً يرزق يتعاطى اعمالاً تقوم باوده ولا يمكنك ان تدعوه ليحضر حفلة زفافك رغما عن انه من اعظم ذوي قرابتك وجدير بان يكون اول المقربين اليك والمهنئين لك فذهل الفتى وشخص الى الفتاة باضطراب ·

فاستانفت قائلة من المعلوم لدينا ان لك اخاً اختفى منذ ست سنوات بعد ان صرف اوقاته بين زمر السفلة والادنياء

فاصفر راعول وقال هذا حقيقي ولكنه مات

فانتصبت عندئذٍ حنة واقفة على قدميها وصاحت كلا · كلا يا سيدي فانتم في ضلال ما بعده ضلال وقد غششتم نفسكم بانفسكم فهل تقرأ الجرائد اليومية يا فيكونت

فتندت جبهة الفتى بالعرق البارد وصاح متوسلاً ايتها الانسة !

فغضت نظرها عما حل به من الجزع والارتياع واستطردت قائلة انني متيقنة انك مرتب اشهر الجرائد والمجلات فمن المستحيل اذن انك لم تقرأ ضمن اعمدتها ومقالاتها ما اذاعته ونشرته عن الجريمة التي وقعت منذ شهرين تقريباً في شارع بروفنس واذا كنت نسيتها ولم تفطن اليها او سهى عن بالك متابعة حوادثها فانني اذكرك ان هذه الفاجعة اسفرت عن شيخ قتيل لم يحترم القاتل شيبته وامرأة مسنة مجروحة لم يشفق على ضعفها وعجزها

اما القاتل المذكور فقد قبضوا عليه وهو شاب في مقتبل العمر مجهول النسب يدعى لو بير قد حاكموه وقرروا اعدامه

فهذا الجاني · هذا القاتل الشاب الجسور العديم الشفقة والرحمة الخافي

حقيقة اصله باعتناء زائد هو ...

فوقف راعول منذعراً وصاح مصغاراً هو ...

فتممت قائلة بهدوٍ تام هو البارون شارل دي فيفيرول شقيقك الاكبر

فشهق الفيكونت شهيقاً طويلاً يدل على تمام اليأس ثم سقط على كرسيه واهن القوى وتمتم قائلاً شقيقي . شقيقي انا . شقيقي شارل ان هذا لا يكون

فقالت صدقني ياسيدي ولا تشك في قولي

فايقن وقال وهو يضطرب من هول ما سمع وكيف علمت ذلك

قالت ذلك ما لا اقوله لك

فصاح الفتى وقد جثا امامها متوسلاً يا حنة . يا ايتها الفتاة الكريمة . العظيمة النفس والشفيقة ظلليني برحمتك ولا تبوحي بهذا السر لاحد والا عملت على ضياع مكانتنا وتسببت في بخس شرف مجدنا

فرفعته عن الارض وقالت ان هذا السر ليس معي انا فقط

فقال ولو كان هذا حقيقياً فبكلمة من فمك يتوقف خرابي

قالت وان يكن الامر كما ذكرت ولكن هل اشفقت عائلتك على والدي . الم تتخلَّ عني في ساعة كنت فيها باحتياج لمن يخفف الامي ويعزيني على مصابي . لقد ادركني الخراب يا فيكونت بدون ان اجد معونة منكم انتم يا آل فيفيرول مع انكم كنتم اقرب المقربين اليَّ وثَلَم شرف والدي بصفة مزعجة الجأت الغرباء على ان يتداخلوا في امري مع انكم عملتم على هجري ونسياني والانفصال عني .

فطأطأ الفتى راسه قانطاً لدى ايعائه ما ذكر ثم رفعه ببطء وثقل وقال بصوت خائر يؤثر في القلوب ايطاوعك ضميرك يا حنة على دماري وفقد مركزي وضياع شرفي . اشفقي عليّ بالله ولا تعامليني بمثل ما عملناك به فابتسمت تبسماً جارحاً وقالت كيف لا وقد تعذبت عذاباً ما بعده عذاب وتالمت الاماً لا يتحملها انسان . اجل فقد اساؤُوني اساءة لا تغتفر ولن انساها مدى حياتي لا سيما لاني لم اسع يوماً ما لاحد منكم بضرر ولم اتمنّ له شراً فاطرق الفتى براسه وقال مسكينة انت ايتها الفتاة . يا حنة انني محقوق لك كثيراً ووالدتي كانت شديدة القسوة عليك ولا تحبك ولكن افتكري في مركزي . انه محفوف بالمكاره وهذا الاخ قد خربنا تماماً اي لم يبق من الاموال ولم يذر الا ان الصدفة اوجدت لي قرينة غنية بهذا المقدار حتى ما عدت اخشى على سمعتنا فكوني رؤوفه حكيمة شفيقة وحليمة واوقفي اشتهار حقيقة شارل وثقي باني لا اجعلك تندمين على ذلك ثم نشف العرق المتصبب من جبينه وقال انني لا اجعلك تندمين على ذلك ابداً اذ اني اتعهد لك انه حال وضع يدي على اموال زوجتي ادفع لك ....

فاكمد وجه الفتاة اثر سماعها الاهانة ثم صاحت قاطعة عليه قوله مدفوعة بحاسة الشهامة وعزة النفس وقالت لا تأتِ على بقية كلامك يا فيكونت لانه كلام تافه احتقرت من كاد يفوه به كما ابغضته من قبل وماذا تظن بي حتى تعرض عليّ امراً كهذا يؤيد قلة عقلك وقصر ادراكك ثم اشارت له على الباب باحتقار كما سبق واشارت لوالدته فيما سلف وقالت اليك عني

يا فيكونت واخرج في الحال فقد حانت ساعة مقاضاة الحساب ويجني كل فرد جزاء ما جنته يداه . واذ راته لا يتحرك من مكانه اتجهت نحو الباب وفتحته ثم قالت اخرج . اخرج يا فيكونت فوقتي ثمين ولا اود ان اضيع منه شيئاً بلا جدوى

فادرك راعول مقدار غلطته وامتثل لامر من كانت تحبه شاحب الوجه اصفره متيقناً من الدمار

واذ ذاك اسرعت الفتاة الى حيث خبأت بيداش واوكيدي ونادتهما بلطف ثم قبضت على يدي باتريك بولع وقالت بصوت عذب لطيف رخيم لقد اوفيت نذوري يا حبيبي باتريك وصرت بكليتي اليك فمتى تريد ان نتزوج

فجثا الفتى امامها بخشوع كما يجثو الانسان امام تمثال قديس ثم قبل هاتين اليدين البديعتين بوله واحترام وقال وهو يصعد زفرات الحب من قلب تتقد فيه جذوة الوجد آه يا عزيزتي حنة اسعديني . انني اترك لك انت اختيار وتعيين ذلك الوقت لكن ارجو ان لا يكون بعيداً

وكان صاحبنا بيداش آنئذ في احدى زوايا المكان يعي كلامهما بانزعاج ويشخص اليهما باضطراب ثم شعر ان قبعته لامست الحائط فتغبرت فرفعها واخذ ينظفها بطرف كمه ولكنه ما كان ينتهي من هذا العمل قط فكأنه كان يشغل به نفسه عن افكار موءلمة ساورته في هذه البرهة وفجأة تنهد رغماً عنه تنهداً قوياً طويلاً فذعر خشية ان يكون سمع من صديقه او كيدي وخطيبته حنة الا ان هذين لم ينتبها اليه اذ انهما كانا قد جلسا بجانب بعضهما على مقعد

وطفقا يتساران عن السعادة والحب فتنفس المسكين الصعداء من فوءاد تسعرت فيه نيران الاسف والهيام ثم لبث في مكانه متحيراً لا يعلم ايبقى او يخرج وعندئذ شعر انهما تناسيا وجوده فارتسمت على محياه علامات حزن شديد ثم خرج على اطراف اصابعه محترماً هذا المشهد الغرامي محترساً لعدم تشويش هذه المناجاة التي كان يرسمها قلباهما وتفيض بهما اعينهما التي اغنتهما في هذا الان عن الكلام

ولما ان صار خارجاً وكان اصفر الوجه متصبب بالعرق وقف قليلاً حتى نشف عرقه ثم زفر زفرة متعبة الا انها صعدت بسهولة وقال انني لم انه عملي بعد فيجب عليَّ ان اتسلح بالشجاعة

واذ ذاك مرت عربة من امامه فاوقفها ثم ركبها وامر السائق ان يذهب به الى دائرة البوليس

الفصل الثاني عشر

« الزوجان »

نحن الان في اوائل ربيع سنة ١٨٨١

ففي ذات يوم صاف راقت سماوءه واعتدل هواوءه كان يرى الناظر على مقربة من حرش بولونيا باتريك وحنة سائرين بجانب بعضهما بوجهين ملالئين بنور السعادة والبشر واعين ينبعث منها شرر الحرب وهما صامتان لا ينبسان الا اذا راى احدهما منظراً فات الآخر مرآه

№

بحيث لو حسبنا ان هذا الآخر كان حنة فان اوكيدي كان يقول لهـا انظري انظري يا زوجتي العزيزة ما احلى التفاف اغصان هذه الاشجار على بعضها وما اشهى الجلوس تحتها والاستظلال بظلها فتجاوبه بقولها ان الحق في جانبك يا زوجي المحبوب ولكنني لا اجلس الا متى كنت تعبة ونستأنف المسير لعلنا نجد مناظر اعظم وابهى

هكذا كان الزوجان اللذان اقترنا منذ شهر فقط يتنقلان في اطراف جوانب الغابه كالفي حمام سعيدين لوجودهما بجانب بعضهما مسرورين من نزهتهما · قد طابت لهما الحياة وابتسمت لهما بعد عبوستها فتناسيا متاعب الماضي ومرارته وغدوا لا يتذاكران سوى احاديث الهوى ولا يتبادلان الا براهينه وهي قبلات الحب

وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب فكللته بتاج من ارجوان ثم انعكست اشعتها الصفرا على اطراف الاشجار الباسقة فاكسبتها لوناً ذهبياً جميلاً يولد الارتياح لمرآه والانشراح لتأمله

وكانت موارد كسب اوكيدي قد اتسعت لزيادة طلبته فاستاجر منزلاً غاية في الترتيب وحسن الوضع بجانب قاعة السلاح انتقل اليه مع زوجته وجورج وكلارا

اما المسكينة جريش فقد ظلت قاطنة بغرف الطابق الذي يعلو قاعة السلاح ولم يشأ اوكيدي ان يتخلى عنها بل جعلها تحل محل ولدها ولم يفصلها عن خدمته

وكانت هذه هي المرة الاولى التي خرجت فيها حنة من بعد زواجها

No

قاصدة الغابة فتذكرت ما كانت عليه فيما سلف من العز والغنى حيث كانت تتنزه في هذا المكان معتلية صهوة جواد كريم ووالدها على بعد منها يرعاها بعينين تشفان عن الاعجاب والسرور فظهرت على وجهها غيمة كآبة خفيفة اذ قد زال ذلك العز ومات هذا الوالد الا انها لم تلبث ان تلاشت فجأة لدى شعورها بيد باتريك الملتهبة بحمى الوجد ووثقت بانها في حمى رجل تحبه بما عزاها على فقد هذا الوالد وزوال ذياك المال

وكان المتنزهون عديدين وقد خرج البعض منهم في مركبات والبعض الاخر سيراً على الاقدام

وصادفت حنة في طريقها الموسيو توارد والموسيو رايمون بريك صديقي ومدايني والدها القديمين اللذين رفضا معها كل تسوية حبية بشأن ديونهما

وكانت قد ذهبت عندهما وتوسلت اليهما ان يرجئا اجرآتهما القانونية فرفضا قطعياً . وكان كل منهما راكباً عربة يجرها جوادان كريمان فاعرضت عنهما حتى لا تعود تفكر في الماضي على الاطلاق

وتوارت الشمس خلف حجاب الافق واخذ المتنزهون يعودون

فبينا كان اوكيدي وحنة آخذين في الاوبة ابصرا رجلاً وامرأة وبجانبهما فتى يتقدمونهما فخيل لحنة انها تعرفهم وكانت تظهر على الاولين ملامح الشيخوخة والكبر وعلى الاخير بوادر الحزن والفكر اذ كان خافض الرأس صامتاً ولعله كان له عذر في ذلك الا اننا لو بحثنا عن ذلك لوجدناه اجتناباً لمقابلة غير منتظرة ربما تحرك عليه تذكاراته او لمحة من صديق قديم تزيد

في الآمه ·

وكانت ثيابهم رثه تدل على تمام الفاقة ·

فبعد ان ساروا هكذا مسافة غير قصيرة انثنوا عائدين فوجدوا انفسهم امام حنة واوكيدي

فاضطرب الزوجان واصفرا اما الفتى فبهت ثم استند على والدته لئلا يسقط

فشخصت اليهم حنة باشفاق وتأثر عظيمين ثم اسرعت في مسيرها فجاراها زوجها في ذلك ·

ولما ان صارا على بعد منهم استلفتت حنة انظار قرينها نحوهم وقالت هل ترى هؤلاء الاشخاص الثلاثة يا عزيزي باتريك قال اجل يا عزيزتي حنة فمن هم قالت انهم اعضاء اسرة فيفيرول وقد اخنى عليهم الدهر وسلبهم كل ما كانوا عليه من المال والغنى والعظمة والجاه ·

وكانت حنة مصيبة بقولها هذا اذ غدت هذه الاسرة - التي كثيراً ما تردد ذكرها في النوادي بخصوص ما كان لها من الشهرة - من جملة من يتوارد عليهم موارد العطايا والاحسان لانه ما شاع خبر حقيقة نسب لوبير وتناقلته الجرائد باندهاش عظيم حتى عدلت الانسه برتادى بولانجيه عن الاقتران براعول · وكان امل هذه الاسرة بذا القران عظيماً لحفظ كيانها لانها كانت على شفاء السقوط والخراب كما صرح عن ذلك راعول لحنة الا ان الامور اتت بخلاف ما كانت تأمل فاصابها ما اتينا على ذكره

ومرت على باتريك مركبة يد واطئة فيها رجل عليه ملامح المرض

والسقام يدفعها رجلان فشعر بجاذب شديد يدفعه نحو هذه المركبه لظنه انه يعرف من فيها ثم دنا منها تقوده عوامل صداقة متحكمة عراها بينه وبين رفيق له ولم يكد يتحقق وجه هذا المدنف حتى صاح جذلاً وقد اندفع نحوه ماداً له يده عزيزي جون فيتزجرالد ! ... فتحرك المريض ولم يبصر من ناداه حتى ارتسمت على وجهه الهزيل الشاحب علامات السرور ثم قبض على يد صديقه بشوق وقال بصوت خائر باتريك . ودودي باتريك كيف انت ثم اراد معانقته فلم يقو على النهوض فتنهد تنهداً عميقاً موءلماً وقال اه يا عزيزي او كيدي . ما اعظم فرحي الان بلقائك وما اسعد حظك يا رفيقي بتخلفك عن الذهاب في هذه السنة الى بلاد السنيجال . اجل فقد كانت الحمى يا عزيزي منتشرة في جميع البلدان وقد اصبت بها فانهكت واعدمت قواي وجعلتني كما ترى لا اقوى على اتيان حركة ولا اقدر على وقوف بحيث صرت اشعر انه لم يعد لي في الحياة من الايام سوى القليل . الا انني لا آسف على ذلك اسفي لعدم تمكني الخروج للصيد ولو مرة واحده اذ ان هذا الداء الخبيث اصابني منذ وصولي الى تلك البلاد النائية فكنت اشكر الله على عدم مجيئك واعض كفي حسرة لرؤيتي بارودتي المحشوة معاقة فوق راسي بدون ان استعملها واشرح نفسي ولو بطلقٍ واحد منها اصرع به حيواناً كاسراً افرح لمشاهدته مجندلاً كالسابق ودمائه متدفقة بغزارة من جراحه كما كنا نفعل معاً . انني مريض جداً يا عزيزي باتريك وقد سئمت الحياة وليس لي من اصرف معه ما تبقى لي من الايام القليلة التي صرت استثقلها الآن فلا تتاخر عن زيارتي ابداً وانا قاطن منزل موريس

انني اشعر بدنو ساعة موتي فلا تحرمني من مشاهدتك لنتذاكر حوادث الماضي وما اجريناه في تلك البوادي القاحلة لعل ذكرها يخفف مما بي من الآلام فاشفق اوكيدي على حالة صديقه ثم ودعه متاثراً بعد ان وعده باجابة ما طلب

ثم تابط ذراع رفيقة حياته وهو يقول لقد اصبت المرمى بما قلته لصديقي بيداش فيما سلف من ان مصارعة اشقياء الباريسيين لا تكون اشد خطراً من منازلة وحوش الفلاة لا سيما وان الاول قد اكسبوني اياك يا زوجتي المحبوبة بعكس الاخيرة التي لو فرضنا واسعدني الحظ وغلبت صديقي وربحت الرهان فانه كان لا يبعد عليَّ ان اصاب بما اصيب بهِ

الفصل الثالث عشر

« المحاكمة »

وحدث بعد مضي ايام غير قليلة على ما سردناه من الحوادث ان محكمة استئناف ايالة السين ازدحمت ازدحاماً شديداً وغصت قاعة الجلسه الرحيبه بجموع الأهالي على اختلاف الطبقات والنحل لحضور القضيه التي وسمتها الجرائد باسم دعوى « رجال المنزل الاسود »

وكان الجانون ستة اشخاص وهم جيانا وبيزو ولاكاز وسيمون ولابيف وقائد مركبة بيرو ويدعى بريل — جيل وهو نفس الرجل المتنع الذي استدعاه بيرو ليلة الحفلة المعلومه ليخرج المركيز دي فيلادوريس وعلي

بعد من هؤلاء شهود اثبات جناياتهم ومن جماتهم بيداش صاحب اليد الطولى في القبض على الجانين وقد كان موضوع اجلال الجميع يشيرون اليه باعجاب ويثنون على مهارته ويتحادثون بعظم فعاله

وقد كانوا اجلوا اعدام لوبير حتى يحاكم ثانية مع رفقائه فحضر في هذه الجلسه باسمه الحقيقي فيفيرول الا انه ظل متمسكاً بصمت غريب مطلق حير القضاة

ولم يعترف بيرو ووالدته بالتهم الموجهة اليهما وانكرا انكاراً باتاً اقترافهما ما عزوه اليهما من الجنايات فقام عندئذٍ بيداش ودحض اقوالهما بان فسر للقضاة وقائع الجرائم كلها ثم تلا عليهم الرسائل المنشوره في الجرائد التي كانت تحررها جيانا ويجاوبها عليها لاسيدات باسم رودوريق فدهشت هذه وذهل ولدها ولم يلبثا حتى اعترفت الاولى بصحة هذه المراسلات وسرد الثاني واقعة لاسيدات ولكن بالكيفية الاتيه :

لقد اتيت مع والدتي الى باريس نجر اذيال الفقر والضنك فعشنا معيشة الذل والهوان حتى تذكر امي يوماً ما ان الرجل الذي خلفتني منه والذي احبته واحبها في بونس ايرس قد قطن باريس منذ مدة مديدة فسعت لديه ليمد لنا يد المساعدة وينشلنا من هذه الشقاء واتذكر الان انه لما وقعت انظاره عليَّ للمرة الاولى من بعد انفصاله عن والدتي وكانت هذه المقابله في كلامار بكى فرحاً ثم عانقني بحنو زائد ولهف ابوي ولكنه لم يلبث حتى تبدل فرحه بترح واخذ يبكي حزناً لفقرنا وتأثراً من الحالة التي رآنا فيها ثم كفكف دمعه الذي كان ينهمر انهماراً وقال ان كل ما

تملكه يداي هو لكما لانني احببت ثمرة غرامي اكثر من محبتي لبقية اولادي . والحق يقال انه انقاد لما اوحاه اليه فؤاده وجمع ثروته ثم سلمها الينا وهو يقول دونكما ما وعدتكما به فعليكما ان تعيشا في رغدٍ وهناء بعد ما تحملتماه من المتاعب والآلام . على انه يظهر انه عاد فندم على هذا العمل الذي احرم به بقية اولاده من ميراثه ولازمه توبيخ ضمير شديد هائل لم يتحمل ثقل وطأته فانتحر

فحدث في قاعة الجلسة تشويش عظيم اثر هذا القول الذي ليس له صبغة حقيقية ثم انتظر بيداش حتى هدأت الخواطر فقام للمرة الثانية وقال انه لتدهشني مرافعة هذا الجاني لا سيما وانها صيغت في قالب غريب كان له وقع مؤثر في نفوس سامعيه الا انني ارجو من حضرات القضاة ان يصيخوا جيداً لما ساقوله

ثم التفت نحو بيرو وقال في اليوم التالي لالقاء القبض عليك احتجت لان تغير ثيابك ففاتحت احد الحراس الذين كانوا محافظين عليك والذي لم يكن سواي بهذا الشأن فاشار او بالحري اشرت انا عليك ان تكتب رقعة تعهدت لك ان اوصلها الى مأمور السجن تذكر له فيها حاجتك فاستصوبت قولي وعملت بموجب اشارتي الا انني لما استلمت منك هذه الرقعة لم اوصلها لمن حررتها انت اليه كسابق وعدي لك بل حفظتها لنفسي لعلمي انها تنفعني وها قد تم الان ما سبق واحتطت له ثم التفت نحو القضاة وقال اعيروني مزيد التفاتكم يا سادة

واذ قال ذلك اخرج من جيبه رقعة مختومة فضها وتلا ما يأتي

« ارجو من مأمور السجن ان يبعث في طلب خادمي ويعلمه انني محتاج الى ملابس ومتى احضرها فاني مزيد الامل ان يعطي اوامره لتسليمها اليَّ »

« بيرو »

ثم وضع هذه الرقعة تحت انظار القضاة وامام الرئيس واخرج من الجيب نفسه ثلاث رسائل اخرى وهي التي كان ارسلها بيرو الى ميرانتييه وحنة ثم بسطها بجانب الاولى وهو يقول اليكم يا سادتي اقدم هذه التحارير المرسلة منه · القوا عليها انظاركم وتبينوا خطوطها فيتضح لكم وحدة اليد التي كتبتها ثم انني استلفتكم بنوع خاص الى هذه الرسالة المعنونة باسم الانسة لاسيدات واوجه التفاتكم نحو التوقيع حيث يقول : قاتل والدك :

ثم ترك القضاة يتفحصون الاوراق ووجه انظاراً حادة نافذة نحو بيرو وقال من المؤكد عندي انك تأسف الان اسفاً شديداً وتندم في حين لا ينفع الندم بشيء على جسارتك هذه وعدم مبالاتك بمستقبل الحوادث وتلعن الساعة التي حررت فيها هذه الرسالة وانت في سجنك لانها البرهان الوحيد المؤيد ان الرسائل الاخرى قد سطرتها انت بنفسك · ولكن على ظني انك لا تلوم الا حبك في التانق في ملابسك لانها هي التي اوقعتك في هذا الشرك الذي افادني فائدة ما بعدها فائدة

وكان القضاة قد انتهوا من فحص سطور الرسائل وانتظروا بقية

براهين بيداش

فاخرج هذا من جيب اخر مقاس اليد المخضبة بالدماء الذي سبق واخذه واراهم ان هذا المقاس ينطبق تمام الانطباق على يد بيرو فافحموا

وللوقت نفسة حدثت ضوضاء من المجتمعين لا تخرج عن حدود الدهشة لرؤيتهم انقلاب مجرى الدعوى بما آل الى تغيير افكارهم وزوال التاثير الذي نشأ عن دفاع بيرو

ثم هدأ المتئمون وكان بيداش لم يزل شاخصاً الى من اتعبته مطاردته فقال له ان من يرغب ان يتخذ القتل مهنة يجب عليه ان لا يكون اعسر والا ذهبت طعناته بدون جدوى كما حصل لك مع المركيز لويس دي فيلادوريس والكونت دي كازرت اللذين ايدا جرائمك بما قدماه لحضرات القضاة من العرائض والمذكرات

ثم اوقف فرنسوا وكلارا وكانا بجانبه امام بيرو فاقر الاول انه نفس الرجل الذي كان دخل غرفة لا سيدات مدعياً انه آتٍ من قبل المسيو رافينو وصرحت الاخري عن انه ذات من اخذ جورج في عربة بعد ان قال لها انه مرسل من قبل شقيقته السيدة حنة

وبعدئذٍ اخذ بيداش من فرنسوا قبعة وصدرة اظهرهما للجاني وكانتا نفس القبعة والصدرة اللتين القاها عنه ليلة مفاجأته للكونت دي كازرت

فوجم بيرو منذهلاً ثم رأى ان ابواب الدفاع قد اغلقت دونه

وان بيداش لخصم عنيد لا مقدرة له على منازلته فغير من هجته
وروى يائساً تاريخ حياته ثم اعترف صاغراً بجرائمه واثامه

الفصل الرابع عشر

« اظهار ما استتر وتتمة »

ان اسم بيرو الحقيقي هو اندري انخرط في اثانية عشرة من عمره في سلك القرصان البرازيليين الذين كان من دابهم مناصبة سكان اميركا الاصليين العداء بان يشتطوا بسفنهم سواحل بلادهم وينهبوا كل ما تصل اليه ايديهم بحيث لما اجتاز العشرين من سنه كان ممن يتباهون بذكر اسفارهم ويغالون في وصف وقائعهم يصرف لياليه على منضدة الميسر ولا يتاخر عن قتل من يربح امواله ليسلبه اياها . عاد يوماً الى بونس ايرس فالف والدته في اقصى درجات العوز وقد كانت على جمال عظيم فكثر عشاقها وفتحوا لها خزائن اموالهم فتصرفت فيها تصرفاً حرياً بمن على شاكلتها من بنات جنسها غير عاملة حساباً لمستقبل ولا مفكرة بتوفير حتى اتى يوم ضجوا فيه من تبذيرها وتخلوا عنها باجمعهم فاصبحت بلا معين وقد عضها الفقر بنابيه تعض البنان ندماً والكف تأسفاً وتحسراً فعرض عليها ولدها امر الترحال فاستحسنته وطافا اغلب بلدان المعمور منتحلين مهناً عديدة مجدين في طلب القوت حتى القيا عصا التسيار في مدينة لوندره العظيمة

وكانا قد جمعا من الاموال ما يغنيهما مؤونة التعب والسعي الا انهما عادا فعاشا معيشة البذخ والاسراف فانتهى بهما الامر الى ان وقفت جيانا على قارعة الطرق مادة يدها متسولة من العابرين الذين كان ولدها يسلبهم ما عليهم وهو على بعد منها . ومن ثم نزحا الى اواسط اوروبا والنهب ديدنهما والقتل واسطة له حتى صار المال لا يحصى لديهما فعادا به الى اميريكا . على ان هذه الثروة لم تلبث حتى تبددت بايدٍ تعودت على ان لا تبقي ولا تذرِ فاضحيا وكانا في مكسيكا معدمين لا يملكان شروى نقير اذ لا يحتكمان على درهم . فتذكرت عندئذٍ جيانا الموسيو رودوريق الذي كانت تعرفت به في بونس ايرس فاحبها واظهرت له الحب وكان تعلقه بها شديداً حتى ما كان يكتم عنها شيئاً بحيث باح لها وحدها انه فرنساوي الاصل والتبعة . وكانت ابان رحلتها الاولى قد مرت بباريس وصرفت فيها عدة ايام باحثة منقبة عنه ولكنها لم تتوفق لمقابلته . فعولت في هذه المرة ان تزيد من البحث لعلها تهتدي اليه وتنال حظوة لديه . وقد كانت جيانا واثقة بان معشوقها القديم الذي لم يتركها الا لسوء سلوكها هو في رغد من العيش لعلمها انه لما كان معها كانت مكاسبه عظيمه . فاستفزت حمية ولدها ليوجد من المال ما يسهل لهما سبل السفر ولم يكن الفتى محتاجاً لامر كهذا فاخذ يقامر حتى توفر عنده المبلغ المطلوب وفي يوم صافٍ معتدل الهواء اقلعت بهما سفينة قاصدة شواطىء فرنسا الجميله تقل ركاباً اخرين كان من جملتهم المركيز لويس دي فيلادوريس المشهور بالغنى ووفرة المال فتعارفا معه واخذ

اندري يتقرب منه ويتحبب اليه مظهراً من الاخلاق اجملها ومن حسن الصفات احسنها حتى لاقى عنده قبولاً ما بعده قبول فرفعت الكلفة من بينهما وصارا مرتبطين ببعضهما الاول مدفوعاً بما رآه من لطيف خصال الثاني وهـذا بغية الاستفادة او الانتفاع من عشرة ذاك واذ وقف منه على تاريخ حياته والغرض من رحلته دبر في ذهنه تلك الخطه الجهنميه التي اجراها في لوريان وقد كانت خطته هذه توجب عليه قتله وسلبه امواله وحرمانه من اوراقه الا انه لم يظفر الا بهذه الاخيره لان المركيز كان خرج تلك الليلة بدون نقود كما سبق واشرنا

ومن ثم وصلا الى باريس فاخذت جيانا تبحث عن رودوريق ولما ان رأت ان ابحاثها هذه ذهبت بلا ثمرة وقد اعياها التعب عمدت الى الجرائد وجعلت تنشر فيها تلك الشذرات التي افادت بيداش فائدة عظمى واتينا على ذكرها في حينها

واشفق المسيو لاسيدات على حالتهما ووطن النفس على مساعدتهما الا انه كان عالمًا بطبائع جيانا فاراد ان لا يهديها الى منزله ولا يعلمها بحقيقة اسمـه لئلا يكون هو ومنزله وما تمتلكه يداه غنيمة باردة لشدة مطامعها . فظهر لها باسمه المنتحل رودوريق وجعل يقابلها في منزل استأجره في كلامار .

وكان اندري حينذاك يلج الحانات ويتعاطى المسكرات ويدخل في حلقة المقامرين فيستجر ما في جيوبهم ويحوله الى جيبه . فتعرف ببعض من هم على شاكلته وقد وجدوا فيه ذكاء مفرطًا وقلبًا جسورًا وساعدًا

شديداً فاحبوه وصاروا لا يفارقونه ابداً . فالف منهم تلك العصبة التي سمى نفسه زعيماً لها والتي ارعبت الباريسيين وولدت الرهبة في قلوبهم وهزأت برجال البوليس وجعلت الدهشة دأبهم .

وقد تمكن اندري ـ الذي تسمى بعدئذٍ بجستاف ويبرو ومن ثم بالمركيز دي فيلادوريس ـ بواسطة وهمة المنكد الحظ جاك جريليش من معرفة اسم رودوريق الحقيقي وانه مدير مصرف فعمل حتى توصل الى دخول غرفة اشغاله قصد الاستيلاء على النقود المودعه في خزانته الحديدية الا ان الآله الذي كان يستعملها لفتحها انكسرت وهي في يده فعول على الاكمان له في كلامار ليقتله ويسلبه دفتر تحاويله الذي لم يعثر عليه على مكتبته والذي علم فيما بعد ان الموسيو لاسيدات يحمله في جيبه دائماً

فانتظر حتى دعته والدته لمقابلتها كسابق عادتها حيث ذهب قبل ميعادها وفاجأه في المنزل الكائن في كلامار وقتله في نفس البرهة التي اخرج فيها دفتر تحاويله ووقع على واحد منها بمبلغ خمسمئة فرنك بعد ان ذكر انه يصرف لامر جيانا . وقد اجرى لاسيدات ذلك لان بيرو اوهمه ان جيانا تأخرت عن المجيء لمرض فجائي اصابها فانتدبته لانهاء هذه المامورية غير انه لم يكد يجهز على المحسن اليهما حتى ظن انه يسمع ضوضاء مصدرها الطريق الموصله من الغابه الى المنزل فاضطرب اضطراباً شديداً ودنا من الباب مصيخاً ليتحقق امرها واذ ذاك ابت العزة الالهيه القديرة الا معاقبة الاثيم الجاني على ما اقترفه فجعلته يضع يده التي قتل بها على الحائط ويستند عليها وكانت مخضبة بدماء البريء فانطبع رسمها عليها ليكون اثراً

ودليلاً يهديان من تنتدبه القدره العلوية للقبض على من ارتكب محرماً وقد وقع اختيارها على بيداش فقام بمهمته خير قيام

وكان الموسيو لاسيدات قد انزعج لدى رؤيته خزانة امواله عرضة ومرمى لانظار لص جسور . نعم انه خاب سعياً في المرة الاولى الا انه سيعيد الكرة وربما يفلح فجمع امواله بعد ان صفى اعماله وزماماته واودعها بنك فرنسا

وقد كان ذكر ايداع النقود في البنك المذكور مكتوباً على رقعة وجدها اندري في محفظة اوراق لاسيدات فصمم على سحبها ولكنه عاد فوجد ان هذا الامر عسر عليه جداً اذ لا يتسنى له قبض هذه الاموال الطائلة الا بايصال موقع عليه من صاحبها وفجأة تذكر دفتر التحاويل فعمد الى التحويل المحرر من لاسيدات لامر والدته وجعل يقلد التوقيع حتى توصل الى ان يأتي بمثله فسطر اذ ذاك ايصالاً بمبلغ مليونين وخمسمائة الف فرنك وهو مقدار ثروة لاسيدات وكانت مبينة في الرقعة الانفة الذكر ثم وقع عليه بتوقيع من ذهب ضحية مطامعه

وبعدئذٍ قصد البنك وابرز لهم هذا الوصل فدفعوا له قيمته بدون ان يتوقفوا معه او يشتبهوا في امره

وهنا وجدت جيانا نفسها قد نالت ما كانت تحلم به من وفرة المال فالجأت ولدها الى مشترى القصر الكائن في حي فيلبار حيث اشاعا انهما من نزلاء الاميركان مستعينين على ذلك باوراق دي فيلادوريس وتمام المامها بلغة البلاد التي اكتشفها كولومب

وتسمى اندري باسم هذا المركيز المنكود الحظ لعلمه انه صار في عالم الاموات ثم ولكون فيلادوريس يتيم الابوين فقد اذاع اندري ان والدته جيانا هي احدى اقاربه واطلق عليها اسم المركيزه دارجولا فيصح ان يقال بانه ذر رماداً بعمله هذا في عيني من يعرف ان لويس دي فيلادوريش ليس له ام

ومن الغريب ان حالته هذه لم تجعله يقلع عن عادته القديمة بل ظل جاعلاً نفسه زعيماً لتلك العصبة الا انه اخفى عنهم ما اجراه اخيرً ومقدار ما توفر عنده من المال وقد كان كتوماً لاعماله متحذراً على نفسه بهذا المقدار حتى ان رجاله ما كانت تعلم من حقيقة احواله الا النذر اليسير

واخيراً ان اول مخطاء ارتكبه هو تلك الرسالة التي كان بعثها لميرانتيه لانها دلت من يهتمون في القبض عليه على اثاره فاتبعوا خطواته حتى تسنى للموسيو بيداش الذي لا تنكر مهارته ان يفوز بمرامه و يلقي القبض عليه

اوضح بيرو اغلب ما اتينا على ذكره ثم اهتم بخلاص لو بير فتوسل للقضاة ان يعفوا عنه لانه لم يكن سوى آلة في يده يديرها كيف شاء وانه هو نفسه الذي دبر خطة جريمة شارع بروفنس اثر تعارفه مع شخص يدعى كليمان بار هو ابن شقيق الشيخ الذي ذهب قتيلاً في هـذه الحادثة اذ ان هذا الفتى اي كليمان كان قد اوقف بيرو على مجمل تاريخ حياته وافاده انه انبأ اقاربه بانه سيزورهم قريباً الا انه سيرجيء ذلك

الى ما بعد

وكان بيرو يتكلم بهدو وجلاء وبلاغة زائدة ادهشت القضاة وقد كان مرتدياً بملابس سوداء غاية في الزهو والملائمة فاظهرت ما كان عليه هذا الشاب من فارط الجمال بما اخذ بمجموع قلوب النساء اللاتي كن حاضرات هذه الجلسة

غير ان جيانا كانت على عكس ولدها مرتعدة الفرائص مصطكة الاسنان صفراء الوجه باكية بغزارة ولا نعلم ان كان ذلك ندماً على ما فرط منها او اسفاً على ما ستؤول اليه حالتها

وانفضت الجلسة للمداولة ثم انعقدت ثانية وقراوءا القرار فكان منطوقه اعدام بيرو وتاييد الحكم السابق صدوره على لوبير والاشغال الشاقة المؤبدة على جيانا وبقية شركاء ولدها .

. . . .

. . . .

في اليوم التالي لصدور هذا القرار زار المسيو ميرانتيه حنة وطفقا يتحادثان وبديهي ان مدار هذه المحادثة كان بيرو ووالدته ورجاله الى ان قالت حنة وقد ارتسمت على وجهها آيات الجزع والانزعاج انني اخشى ان يكون بيرو شقيقي فيكون قد قتل والده فاجابها ميرانتيه لقد كان هذا ظني منذ اخذت حوادث الدعوى بالوضوح الا انني استعلمت عن ذلك من صديق لي في بونس ايرس فافادني بما اراح ضميري واسكن بلبالي فقد ذكر لي ان شقيقك من جيانا مات في

السنة الاولى من عمره وقد وضعت هذه بعد انفصالها عن والدك بسنتين ولداً اخر دعته اندري فوالحالة هذه ان بيرو قاتل والدك ليس هو بشقيقك فانعمي بالاً

ومن ثم تداولا ملياً وبعدئذٍ ودعها وخرج

. . . .

. . . .

. . . .

في السادس عشر من شهر افريل سنة ١٨٨١ احتشد الباريسيون في ساحة روكت احتشاداً عظيماً نتج عنه ضوضاء شديدة وصياح عال جداً ارتفع الى عنان السماء خشيت دوائر الحكومة ما ينجم عنه فاوفدت شراذم من الجند للمحافظة على الامن في ذلك المكان الذي كان يموج بمن فيه كبحر زاخر ثائر ومزبد

وكان في وسط الساحة براح عظيم يحافظ عليه مربع من الحراس الشاكي السلاح يتوسطه منبر قتل مرتفع قد وقف الجلاد بجانبه

وبعد برهة اقبلت عربة تقل بيرو ولوبير فتلقاها الشعب ضاجاً صاخباً ثم لم يعتم ان عمد الى السكون والصمت اثر منظر محزن مؤثر له وقع شديد في النفوس يولد فيها الكآبة والرهبة الا وهو صعود الجانيين على ذلك المنبر المعد لمجازاتهما على ما فعلاه

ومن الحري بالذكر انه حتى الفترة الاخيرة من هذا الموقف النهائي العظيم كان بيرو ولوبير محافظين على سكينة تامة وعدم مبالاة بما سيجري

عليهما بما يشف عن الجرأة ومنتهى الاقدام

وقد قال بيداش بعدئذٍ بخصوص هذا المشهد انه لم ير في حياته قط من مات على آلة الاعدام واظهر من الشجاعة وعدم الاهتمام ما كان يلوح على اندري والبارون شارل دي فيفيرول

. . . .

لم ينته شهر افريل ويبتدىء شهر مايو الجميل الطقس حتى كانت الحمى قد اشتدت على جوهن فيتزجرالد فشعر المسكين انه اشرف على التلف فاستدعى صديقه باتريك واوصى له بثروته وكان مقدارها ينيف على ستة ملايين من الفرنكات

وكانت ممتلكات جيانا واندري قد آلت كلها لحنة فباعت معظمها واعطت كل ذي حق حقه من مدايني والدها

فلما ان انبأها اوكيدي بوصية صديقه طوقته بذراعيها اللطيفتين وهي تقول ان ذكر الاموال ما عاد يوءثر عندي بشيء ما يا عزيزي باتريك لاننا من اسعد البشر

وفي ذاك الوقت كان كل من السيد توار ورايمون بريك قد اشتركا معا واخذا يضاربان في البورصة فاشتريا حالما كان السوق في الصعود ولم يلبث حتى اخذ يهبط هبوطاً عظيماً مرعباً متوالياً فغطيا مشتراهما وقد استنفدت اموالهما

اما الموسيو بيداش فقد رفض كل ما قدمه له باتريك وحنة لا بل وامتنع عن تلبية طلب دائرة البوليس التي استدعته ليشغل مكان

وظيفته القديمة وذلك اثر ما علمته بما اجراه بشأن معرفته قاتل المسيو لاسيدات

لقد ابى قبول هذا وذاك وآثر البقاء في كلامار يراعي والدته العجوز ويعتني بحديقته اللطيفة ويسهر على ازهارها الجميلة غير ان ذلك كله كان لا يقعده عن الذهاب ايام الاحاد الى باريس حيث يصرف سحابة هذا اليوم مع صديقه باتريك ومن احبها قلبه واعتزل العالم بغية كتمان غرامه عنه لئلا تبدر منه بادرة

وهكذا ظلوا على صفاء من العيش وراحة في الحياة وما اطيب الراحة بعد العناء والذ الحياة بعد الشقاء

﴿ تمت ﴾

وكان الفراغ من تعريبها في الحادي عشر من شهر افريل سنة ١٩٠٤
والفراغ من طبعها في ٢٠ ستمبر من السنة المذكورة

اصلاح غلط

خطاء	صواب	صحيفة	سطر
	« الرواية الاولى »		
راسها	راسه	١٥	١١
ووالدتها	ووالدته	١٧	١١
ياسيدتي	يا سيدي	٢٨	١٦
يؤيد	يولد	٢٩	١٠
متعلثماً	متلعثماً	٣٣	١١
والدي	ولدى	٤٣	١٩
٢٨ دسمبر	٢٢ دسمبر	٤٦	١٤
يا سيدتي	ياسيدي	٥٥	٢٠
	« الرواية الثانيه »		
اجتيازه	اجتياز	١٠	٩
النقود	نقودها	١٣	١٧
الغيت	الفيت	٢٥	٣
مظرباً	مضطرباً	٢٩	٣

احدم	احدهم	٢٩	٥
يتقلب	يتلقب	٣٠	١١
اقترافته	اقترفته	٣٠	١٤

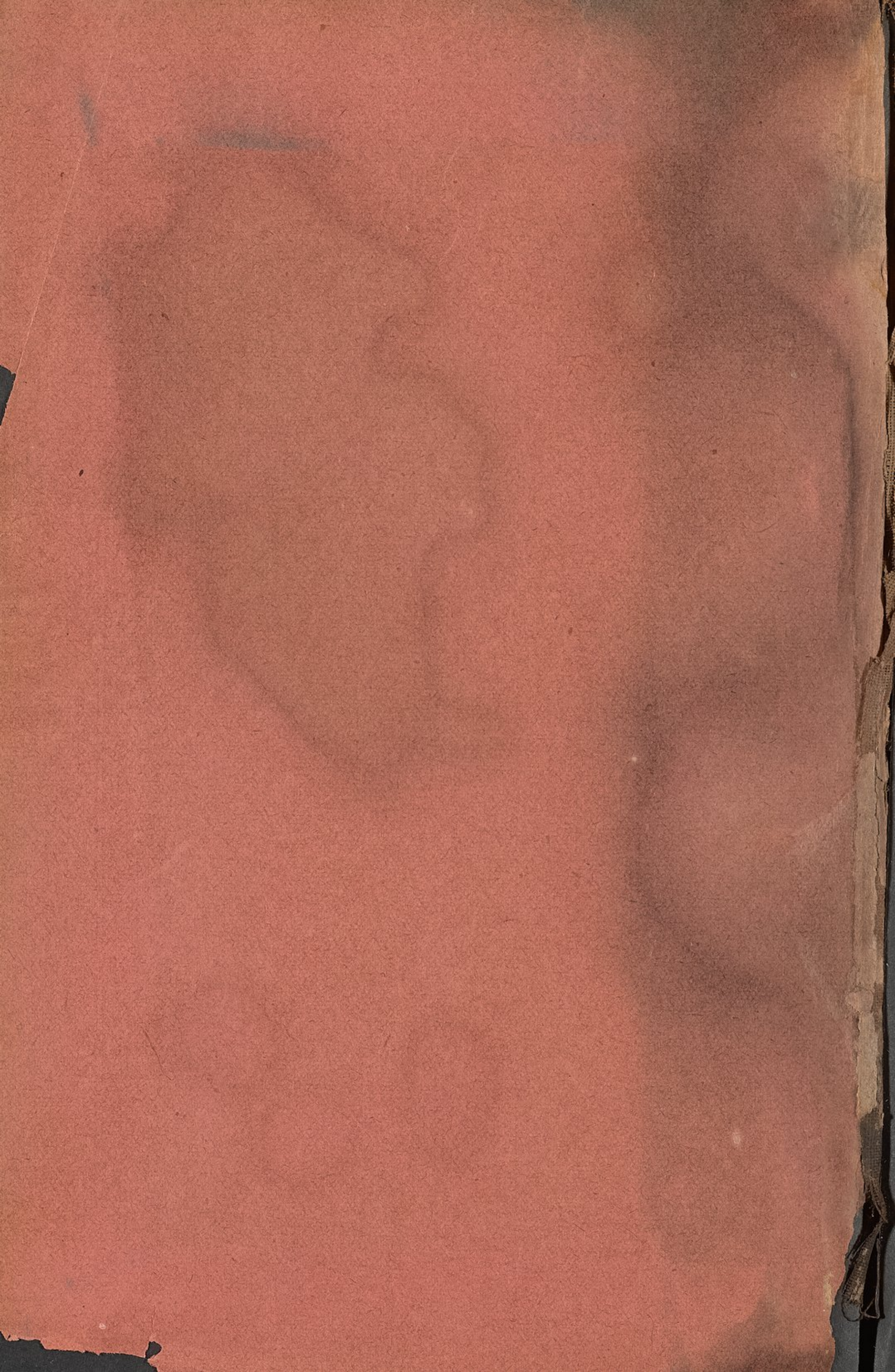
« الرواية الثالثة »

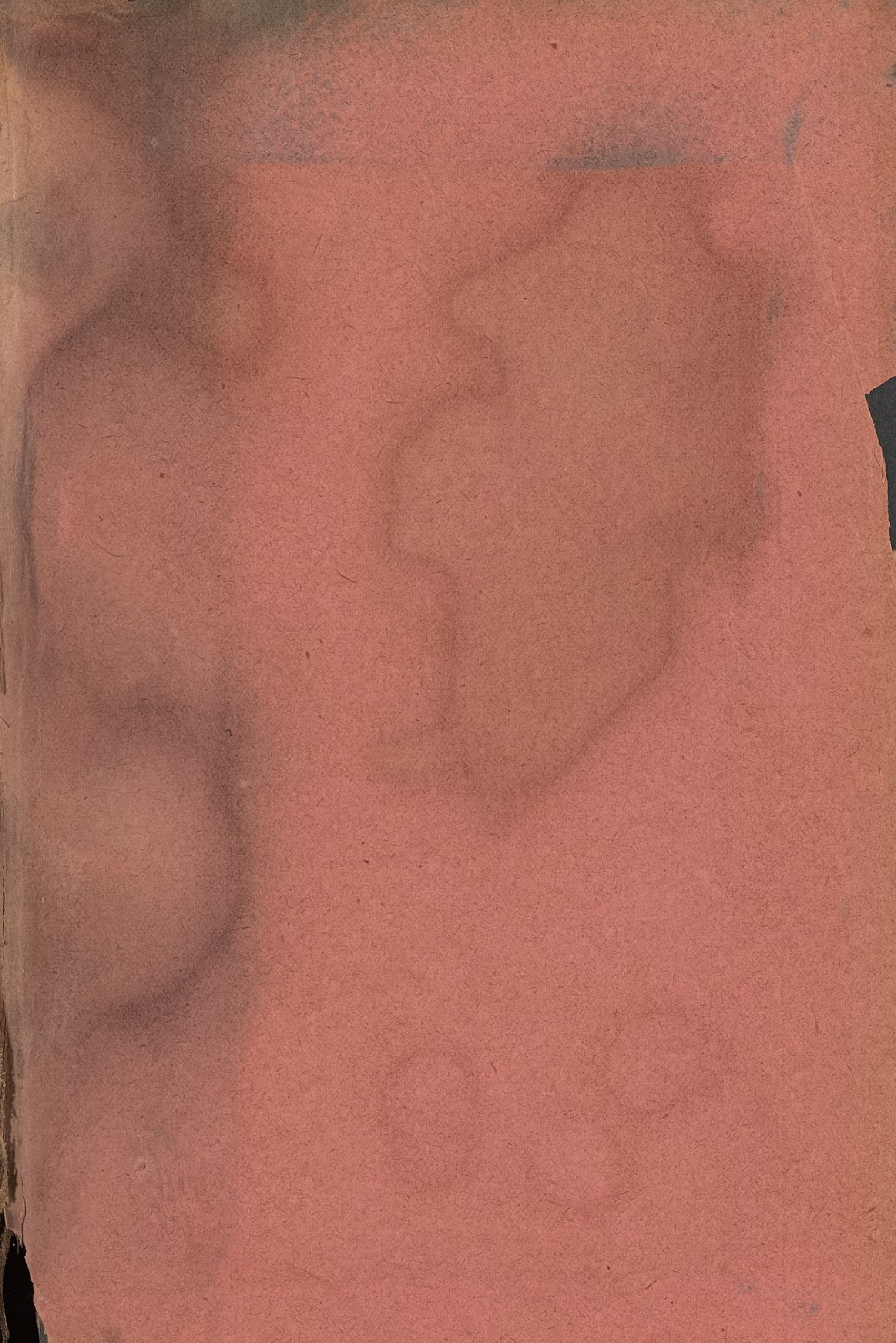
وجذ	وجداً	٠٨	١٧
عادته	عاودته	١٤	٢٠
الهدية مشتملة	الهدية غير مشتملة	١٧	١١
لا تنجلي	لا تتخلى	١٨	١٥
حد	جد	٢٩	١٩
أُلقي	ألقى	٢٣	١٢
عليه هو احد	عليه احد	٢٣	١٢
وقع	وقعه	٣٣	٢
المنازع	النازع	٣٤	٣
لليللة	لليلة	٣٩	٦
عن	عنه	٤٦	١
مدار	مقدار	٤٨	١٣
نصبه	نصبها	٤٩	١٦
ملاحظة	ملاصقة	٥٧	٣
منها	منهما	٥٨	٤

فلنقفل	فلننتقل	٦١	١٢
يبروعجيج	يبرو يعج عجيج	٦٦	٥
اود ارجي	اود ان ارجيء	٦٩	١٨
سماعها الاهانة	سماعها هذه الاهانة	٧٢	١٦
له على	له الى	٧٢	٢٠
اسعديني	ما اسعدني	٧٣	١٣
بهما	بها	٧٤	٥
متصبب	متصبباً	٧٤	٧
الحوب	الحب	٧٤	١٩
ونستانف	ولنستأنف	٧٥	٥
تذكر	تذكرت	٨٠	١٤
هذه	هذا	٨٠	١٦



درويش سليمان صاحب
مكتبة السيدة زينب بمصر






PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

THE ABU SHADI
MEMORIAL LIBRARY

PRESENTED BY

CHARLES A. DANA, JR. '37
H. H. PRINCE SADRUDDIN AGA KHAN
COUNCIL ON ISLAMIC AFFAIRS



Princeton University Library
32101 063577785